
Issn:2676-1939
الإيداع القانوني: مارس 2019
Eissn: 2716-9057
المدار
Cognitive Center for Studies and Research
مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات
Issn:2676-1939
Légal deposit: March 2019
Eissn: 2716-9057
مجلة مدارات تاريخية
Journal Of
MADARAT
TARIKHIA
المجلد: 03
العدد: 01
ماي 2021
Volume : 03
Issue : 01
Mai 2021
مجلة مدارات تاريخية
مجلة مدارات تاريخية
مجلة مدارات تاريخية
مجلة دورية أكاديمية محكمة
تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية
Journal Of Madarat Tarikhia
Reviewed Academic International
Periodical Magazine
For Historical And Researches Studies

مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

دورية دولية محكمة ربع سنوية

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الثالث – العدد الأول – مارس 2021

الرقم الدولي للمجلة ردمد: 2676-1939

الإيداع القانوني: مارس -2019

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مدارات تاريخية

العنوان الالكتروني:

madaratmagazine@gmail.com

حساب المجلة عبر البوابة الوطنية للمجلات العلمية

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/654

التعريف وأهداف المجلة

التعريف بالمجلة

مجلة علمية دولية محكمة متخصصة في الدراسات التاريخية، تصدر دوريًا عن مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين من مختلف جامعات الوطن وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين من مختلف الدول العربية والأجنبية (تونس- المغرب- موريطانيا- ليبيا- الامارات- فرنسا- العراق- فلسطين- مصر...) وتصدر المجلة بصفة ربع سنوية مرة كل أربعة أشهر، مع امكانية صدور أعداد خاصة ببعض القضايا والدراسات التي قد تطرح من طرف ادارة المجلة وهيأتها العلمية. اهتمامات المجلة وأهدافها: مجلة مدارات تاريخية عبارة عن مجلة متخصصة في الدراسات والأبحاث التاريخية الجادة، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات الدراسات التاريخية، تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر موقعها وكذا مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، مع إضافتها لفهارس أغلب محركات البحث الجامعية، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي

أهداف المجلة:

- الاهتمام بالدراسات التاريخية عموما وتاريخ الجزائر خصوصا الحافل بالأحداث والإنجازات الحضارية .
- -نشر المقالات ذات القيمة العلمية في شتى حقول المعرفة التي تتيحها المجلة.
- -السماح للباحثين من أساتذة وطلبة دكتوراليين من النشر وفتح آفاق الكتابة التاريخية وفق المناهج الجديدة
- -السعي للارتقاء بالأبحاث العلمية وبلوغ مصاف مؤشرات الجودة والتميز.

الهيئة العلمية الاستشارية

	دراية/أدرار/ الجزائر
د/عصام منصور صالح عبد المولى/ جامعة طبرق/ ليبيا	د/علال بن عمر/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
د/فتحي جمعة محمد عريبي/ جامعة غريان/ ليبيا	د/كمال بن صحراوي/ جامعة ابن خلدون/تيارت/ الجزائر
د/لخضر بن بوزيد/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر	د/لوبنى زبير/ جامعة القاضي عياض/ المغرب
د/ بشرى حسين الحمداني/ الجامعة العراقية/ العراق	د/محمد لمين باريك/ جامعة حائل/ السعودية
د/نصر الدين العربي/ جامعة المرقب/ ليبيا	د/نواف عبد العزيز ناصر الجحمه/ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب/ الكويت
د/هيوا عزيز سعيد علي/ جامعة السليمانية/ العراق	د/يحي بكلي/ جامعة طيبة / السعودية
د/جمال مسرحي/ جامعة باتنة 1/ الجزائر	د/عمار غرايسة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي / الجزائر
د/محمد نفاد/ الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس/مكناس/ المغرب	د/ العيد غزالة/ جامعة تونس/ تونس
د/ غسان محمود وشاح/ الجامعة الإسلامية/ غزة/ فلسطين	د/ أحمد بن خيرة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
أ/ لبصير سعاد/ المدرسة العليا للأساتذة/ قسنطينة/ الجزائر	د/ التجاني مياطة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
د/أشرف صالح محمد/ جامعة ابن رشد/ هولندا	

كلـــــمة العـــــــــدد

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله حمداً يليق بجلاله وأشكره شكر من يرجو المزيد من خيراته وافضاله، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وصحبه وآله.

أما بعد:

ها هو العدد التاسع من مجلة مدارات تاريخية يصدر للباحثين ونحن نعيش في هذه الظروف الصعبة، من مختلف النواحي، وخاصة منها الصحية، حيث مازلنا نعيش حالة انتشار الوباء العالمي، كوفيد 19، وبالرغم من كل الصعوبات التي تعترضنا كباحثين وكهيئة علمية وتحريرية مشرفة على مجلة مدارات تاريخية، إلا أننا نسعى جاهدين لاصدار جميع أعداد مجلة مدارات تاريخية بشكل منتظم.

ويصدر العدد التاسع من مجلة مدارات تاريخية وهو العدد الأول من المجلد رقم ثلاثة، وأيضا صدر عددين خاصين للمجلة، أولهما حول الراحل محمد اعمارة، وهو عضو الهيئة العلمية لمجلة مدارات تاريخية، وأيضا عدد خاص آخر صدر مؤخرا، ويخص المفكر والعالم الجزائري الراحل جراء مرض كوفيد 19، البروفيسور سعيد عيادي رحمة الله عليه وعلى جميع موتى المسلمين.

مازلنا في مجلة مدارات تاريخية، نؤمن بالأعمال التاريخية المتنوعة التي تتداخل فيها مجموع المعارف والعلوم المختلفة مع التاريخ، فنجد الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية والأمنية والصحية والدينية وغيرها من الفروع والتخصصات التي تتداخل بشكل مباشر مع التاريخ ومع اللحظة الزمنية التاريخية، والتي لا يمكن أبدا المرور عليها بدون التأريخ لها والكتابة عنها، لتبقى للأجيال القادمة،

وتبقى مادة قابلة للتحليل والتعليل والتدقيق والتمحيص من طرف الباحثين في الحاضر والمستقبل.

ونسعى دائما في مجلة مدارات تاريخية، على تنوع الكتابة التاريخية من مختلف مناطق وطننا العربي والإسلامي بشكل خاص ومن مختلف دول العالم بشكل عام، ونسعى قدر المستطاع لنقل المعارف والتجارب في ميدان التأريخ والكتابة والتدوين التاريخي بين هذه العوالم التي تتراوح فيها المناهج بين متقدم ومتطور وبين من يحاور مسايرة الركب وبين من مازال يعاني ضعف الإمكانيات للوصول لمدارس علمية منهجية دقيقة.

واننا شديدوا الفخر كأسرة لمجلة مدارات تاريخية، أننا في كل عدد من أعداد المجلة، تأخذ المجلة طابع الوحدة العربية والإسلامية خاصة، في تنوع الدول المشاركة في المجلة من خلال باحثيها ومفكريها، فالمجلة تحتوي وتضم عدة أسماء من مختلف بلداننا العربية والإسلامية، وهذا يدعوا للفخر والاعتزاز، ويشد بنا من أجل المواصلة والمواضبة على الوصول للمجلة للتطور والرقي في ميدان البحث العلمي حتى نستطيع استقطاب أسماء عالمية كبيرة.

وفي الأخير أشكر وبامتنان شديد كل أعضاء الهيئة العلمية للمجلة التي تعمل جاهدة لتحكيم ومراجعة كل المقالات المرسلة بطريقة علمية رزينة، واجتهاد كبير، فلهم كل الثناء والتقدير، كما لا يسعني إلا أن اقدم خالص امتناني وشكري أيضا لكل أعضاء فريق تحرير المجلة الذي يسهر دائما على صدور أعداد المجلة في أبهى حلة. وأهنئ كل الباحثين الذين صدر لهم مقالات في هذا العدد، وهي دعوة مفتوحة لجميع الباحثين أيضا للكتابة والمساهمة معنا في مجلة مدارات تاريخية التي تفتح صفحاتها لكل الباحثين من كل ربوع العالم وخاصة منه العالمين العربي والإسلامي.

أ/ عبد القادر عزام عوادي

رئيس التحرير

الفهـــرس

قراءة في التطور الديموغرافي لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

A reading of demogrqphic development of Algiers During the Ottoman era

د.ة / نجوى طوبال [*] أستاذ محا ضر –أ– D .Nedjoua Toubal

جامعة الشهيد حمة الأخضر –الوادي University of the martyre Hama Lakhdar –El WAD

تاريخ الاستلام: 31 /2021/01 تاريخ القبول: 27/ 2021/02 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص: يشكل التطور الديمغرافي للمدن واحدة من الاهتمامات التي شغلت بال الدول، واهتمام الباحثين، قديما وحديثا، لما له من تأثير مباشر وملموس على واقع تلك الدول، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحتى عسكريا، ومدينة الجزائر بموقعها الاستراتيجي ومكانتها الخاصة قبل وخلال الفترة العثمانية وحتى بعدها، باعتبارها عاصمة البلاد، شهدت تطورا ونموا ديمغرافيا خلال المرحلة العثمانية، كان له الأثر الواضح في مختلف المناحي، وقد تحكمت في هذا التطور مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية والسياسية، كان لها انعكاسها ارتفاعا وتراجعا في مستوى ذلك النمو والتطور ونسبة الكثافة في المدينة. وتسعى هذه الدراسة إلى رصد وتتبع التطور الديمغرافي لمدينة الجزائر منذ دخول العثمانيين إليها سنة 1519م، وإلى عشية العدوان الفرنسي عليها العام 1830م.

الكلمات الدالة: مدينة الجزائر. العهد العثماني. السكان. العمران. الديمغرافيا. الارتفاع. التراجع.

Abstract: The demographic change of cities constitutes one of the concerns that preoccupied countries, and the interest of researchers, in the past and in recent times, because of its direct and tangible impact on the reality of those countries, economically, socially, politically and even militarily, and the city of Algiers, with its strategic location and

[*] د.ة/ نجوى طوبال: nedjouatoubal604@gmail.com

special position During and even after the Ottoman period, as the capital of the country, it witnessed demographic development and growth during the Ottoman period, as it had a clear effect in various aspects, and this was controlled by a group of natural, human and political factors, and their reflection had an increase and a decline in the level of that growth and development and the proportion of density in the city.

This study seeks to monitor and track the demographic development of the city of Algiers since the Ottomans entered it in 1519 and until the eve of the French aggression against it in 1830.

Key words: the city of Algiers, the Ottoman era, population, demography, urbanization.

مقدمة: برزت مدينة الجزائر في العهد العثماني(1519-1830)، متميزة بموقعها اللافت للأنظار على ربوة مشرفة على ساحل البحر ، متوفرة على مرسى يحيط به مجموعة من الجزر، والتي استمدت منها المدينة تسميتها بـ"الجزائر"،[1] هذا الموقع الاستراتيجي الحصين الذي استعصى مرارا تكرارا على الدول الأوروبية المعتدية، مما سمح بإعادة توطيد الأمن الذي ساهم بايجابية في تنمية الأنشطة الاقتصادية للمدينة وبالتالي سمح بتغير وضعها الديموغرافي نحو الارتفاع والتنوع، حتى سميت بالمدينة الكوسموبلية أي المتعددة الأعراق والأديان والمذاهب.

وانطلاقا مما سبق، جاءت هذه الدراسة كمحاولة لرصد التحول السياسي الذي عرفته مدينة الجزائر خلال العهد العثماني بعدما أُتُخذت عاصمة للبلاد، وكيف انعكس ذلك التحول السياسي على الوضع الديموغرافي ارتفاعا وانخفاضا؟ وعلى خصائص الحيز المكاني وتأثيره على الوجه العمراني للمدينة؟ وكيف نفسر ظاهرة الازدحام داخل أسوار المدينة والوقوف على العوامل المتسببة في ذلك؟

1-نبذة تاريخية عن أوضاع المدينة قبل الفترة العثمانية

لم تحض مدينة الجزائر خلال الفترة الإسلامية، بالاهتمام الكافي من القوى السياسية المتعاقبة على المنطقة،[2] على الرغم من موقعها المتميز، على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، فقد ظلت موقعا مهملا ومجهولا ولوقت طويل ، فكان موقع المدينة عبارة عن آثار وأطلال مهجورة لما يقارب مائتين وخمسين عاما، بعدما أصابه التخريب إثر هجومات الوندال، فكل ما كان يُشاهد في ذلك الموقع أوائل القرن التاسع الميلادي هو قطعان ماعز قبيلة الثعالبة[3] التي كانت ترعى هناك، غير بعيد عن مضارب خيام القبيلة التي انتشرت بأعالي منطقة بوزريعة.

أما بداية الانبعاث الفعلي للمدينة، فقد فرضه التنافس على السلطة في بلاد المغرب الإسلامي، ويُعزى الفضل في ذلك إلى بلكين بن مناد الصنهاجي[4] خلال القرن العاشر الميلادي، عندما عمل على تقوية وتوسيع ثلاثة مدن، كانت مدينة الجزائر على رأسها، إضافة إلى مديني مليانة والمدية، وهي المدن التي شكلت مثلثا يهدف لضمان مراقبة المواصلات وطرق التجارة بين الساحل والتل ومنطقة السهوب، ومن هنا بدأت مدينة الجزائر تحصل على أهميتها الأولى، وما زاد من تلك الأهمية تفاقم الخلاف بين الحكام الفاطميين وخلفاء قرطبة حول زعامة العالم الإسلامي في القسم الغربي[5]. وظلت مدينة الجزائر تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى إلى أن استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع وعادت أشبه ما تكون بجمهورية ارستقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة، وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي من أعيانها[6]

وقد جلب المناخ المعتدل لناحية الجزائر الواقعة قبالة البحر الأبيض المتوسط الوافدين من جهات مختلفة، فلم ينته القرن الحادي عشر ميلادي حتى غدت الجزائر مدينة كبيرة، كما شهد بذلك المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة ومنهم البكري والإدريسي إذ وصفاها بكثافة السكان وازدهار التجارة، وهو الوصف الذي لا ينطبق على القرن الثاني عشر، الذي شهد عدة حروب أثرت في هذا التطور الوليد[7].

فقد دخلت مدينة الجزائر تحت سلطة الموحدين ثم المرابطين، وبعدهما لسلطان بجاية ثم مملكتي تلمسان وتونس وانتزعت بعد ذلك نوعا من الاستقلال الذاتي تحت إمارة شيخ الثعالبة[8] قبل أن تنتهي إلى أيدي الأسبان في 1510.

2-التحول العام للمدينة خلال العهد العثماني

لاشك أن الأوضاع المتردية والفوضى السياسية العارمة في كامل المنطقة، كانت عاملا مشجعا للأطماع الصليبية المتنامية حول الشمال الإفريقي، خصوصا بعد سقوط غرناطة في الثاني جانفي من العام 1492م، فكانت أول نقطة احتلها الإسبان مدينة مليلية عام 1497م، بعدها احتلوا المرسى الكبير بعد حصار دام خمسين يوما، ثم انطلقوا إلى وهران واحتلوها في العام 1509، وبعدها وجهوا أنظارهم إلى بجاية، التي احتلوها سنة 1510، وبقدر استماتة أهلها في الدفاع عنها، كان ردَ الأسبان وحشيا حيث ارتكبوا أفظع المجازر وعاث الجيش الاسباني فسادا في المدينة[9]. ثم حاصرت القوات الاسبانية مدينة الجزائر، وأرغمت شيخها سالم التومي على قبول شروطها، وقد انتقل بنفسه، يصاحبه وفدا من الأشراف إلى اسبانيا لآداء يمين الولاء والطاعة أمام الملك فرديناند، ثم استولى الإسبان عل جزيرة "البنيون" عند مدخل المدينة وبنوا فيها حصنا، أقامت فيه حامية عسكرية مهمتها مراقبة مدى احترام الشروط المفروضة على الجزائريين، ومراقبة تحركات المراكب الجزائرية حتى أضحت مدينة الجزائر وسكنها تحت التهديد المستمر[10].

في تلك الأثناء ذاع صيت الإخوة بربروس[11] في الحوض الغربي للمتوسط في إطار مساعدة البحارة العثمانيين لمسلمي الأندلس عقب سقوط غرناطة[12]، فاستنجد بهم في البداية أهالي بجاية لإنقاذهم من يد الإسبان فاستجابوا لهم، ورغم المحاولة إلا أنهم فشلوا فانسحبوا مؤقتا، على أمل معاودة الكرة بعد القيام بالتحضيرات واحتياطات اللازمة للأمر، لكنهم نجحوا بعدها في الاستقرار بجيجل، التي كانت يومئذ مدينة صغيرة وقاعدة تجارية كان يستغلها التجار الجنويين منذ سنة 1260، وبعد معركة عنيفة تمكنوا من اقتحام المدينة في حدود العام 1513 [13].

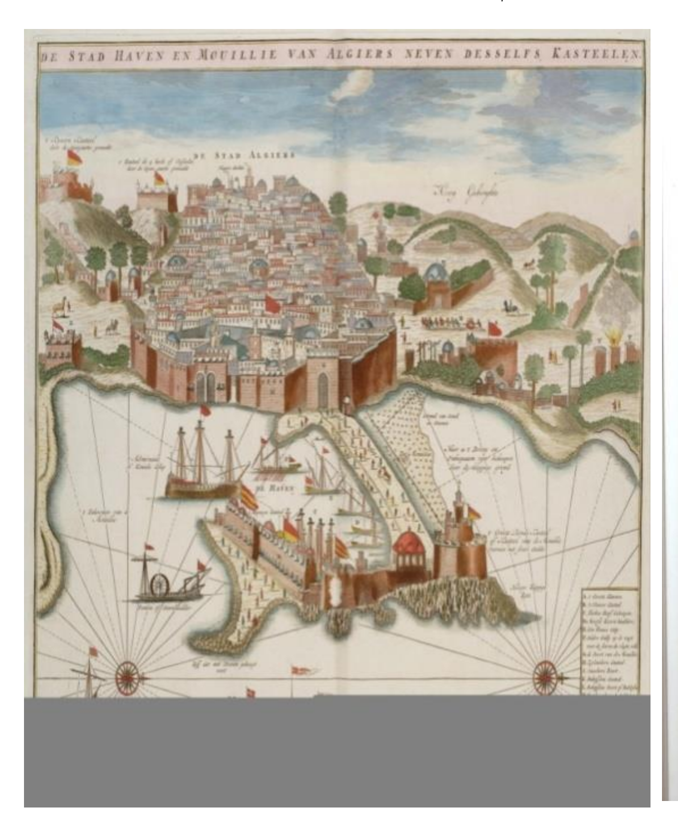
وقد عبَر خير الدين بربروس عن أصداء ذلك الانتصار قائلا:" عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل، وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت مركز البلاد. كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجون تدخلنا لإنقاذهم، فخرج أخي في خمسمائة بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن خلفني في جيجل.."[14]

وكانت هذه بداية مرحلة وصفحة جديدة في تاريخ البلاد عامة، وتاريخ المدينة التي تحولت من موقع مهجور إلى عاصمة سياسية وإدارية **"دار السلطان"**[15] بعد انضوائها تحت لواء الإمبراطورية العثمانية القوية —حينها—، وقيام نواة حكم مركزي قوي يهدف إلى القضاء على الصراعات الأهلية التي كانت سائدة، وإرساء دعائم وحدة سياسية وإدارية في إطار إقليم وطني محدد و ضمن حدود واضحة المعالم[16]، و الصورة التالية توضح الشكل الذي كانت عليه مدينة الجزائر خلال القرن السادس، والشكل الذي أصبحت عليه بعد خلال القرن الثامن عشر :

صورة رقم 1: مدينة الجزائر سنة 1563[17]



صورة رقم2: تحصينات مدينة الجزائر القرن[18]



وأهم ما تبرزه الصورة بوضوح، هو شكل المدينة الهندسي الشبيه بمثلث متساوي الأضلاع قاعدته خط الشاطئ، وقمته تتوافق مع موقع القصبة، وهو الشكل الذي ميز مدينة الجزائر لأكثر من ثلاث قرون من الحكم العثماني، فقد ظلَ نفسه لم تطرأ عليه تغيرات كبيرة، حتى منتصف القرن التاسع. والحقيقة أن هذا المنظر يوحي بارتفاع كبير لعدد السكان داخل حيز مكاني ضيق، فما حقيقة ظاهرة الاكتظاظ والازدحام التي عرفتها المدينة؟ وما العوامل المتحكمة فيها؟

3–العوامل المؤثرة في التطور الديموغرافي لمدينة الجزائر

3–1–الظروف الطبيعية

يرجع المختصون المظهر العام المميز لمدينة الجزائر، والمتمثل في شكل مثلث متساوي الأضلاع قاعدته الميناء وقمته أعلى القصبة، إلى عوامل طبيعية، فقد تشكل بفعل سيلان مياه الأمطار الجارفة التي تنطلق من قمة الربوة، منحدرة في شكل مجريان مائيان إلى محاذاة البحر، وقد تسربت المياه من خلالهما عبر الشقوق، فتحولت إلى مجاري باطنية ما لبثت أن ظهرت عند السفح في شكل عيون مثل: عين السلطان قرب الجامع الكبير وعين العطش وعين السباط[19].

ويبرز هذا المنظر بوضوح من جهة البحر، إذ تتراءى البيوت المطلية بالجير الأبيض قائمة على "الجبل"، وهو أعلى أجزاء التل ملتصقة بعضها ببعض متراصة لترتفع طبقات من البيوت انطلاقا من القسم السفلي، واحدة فوق الأخرى حتى تلتقي عند أعلى القصبة[20]، وهو المنظر الذي استفز بجماله وروعته الأوروبيين القادمين على متن سفنهم من مختلف دول ضفاف البحر المتوسط، حتى شبه البعض منظر المدينة من جهة البحر بشراع السفينة الأبيض المنبسط على الروابي الخضراء، بينما بدا للبعض الآخر في شكل قوس ذي وتر، فالقوس يتمثل في الجدران، وشاطئ البحر هو الوتر[21]، فأمام المشاهد يتراءى الرصيف البحري والمرسى تحيط بهما أسوار المدينة، وتبدو المنازل متصاعدة على سفح الجبل وهي تشكل مدرجا، وتظهر المنازل الناصعة البياض[22] وسط أشعة الشمس الإفريقية الدافئة[23].

وكانت المدينة محمية بالحصون التي شرع في بنائها خير الدين وأكملها خلفاؤه من بعده، فجعلتها غاية في المناعة، وكانت الحصون تتألف من سور القصبة ومن عدد معين من الحصون وبطاريات المدافع[24]، أما من جهة البحر فكان يحمي المدينة البرج الجديد وبرج باب الوادي وبرج الانجليز وبرج باب عزون، ومدافع الربوة التي زيد عددها وضمت إليها مدافع جديدة بعد غارة أوريلي (O'Reily)في 1775[25]، وغارة اللورد إكسموث في القرن التاسع عشر، ولا تقل عن 180 مدفعا من العيار الثقيل[26] حتى أن جميع المحاولات الأوربية المعتدية الراغبة في بسط سيطرتها على مدينة الجزائر منذ عهد خير الدين، إلى بداية القرن التاسع عشر-الحملة الفرنسية 1830- باءت كلها بالفشل، ومهما يكن من أمر، فإن مدينة "الجزائر المحروسة بالله" قد استحقت اسمها عن جدارة كاملة من تلك الاستحكامات التي بناها الأتراك، فقد طوروا دفاعاتها بعناية كبيرة، وبدرجة عالية من المهارة العسكرية.[27]

3-2-الخصائص العمرانية

كانت المدينة في أذهان سكانها، مقسمة إلى جزأين: **الجزء العلوي** المعروف بـ"**الجبل**"، و القسم السفلي المعروف بـ "**الوطى**"، ففي القسم العلوي تقيم أغلب العائلات الحضرية حيث البيوت أكثر تقاربا، وحركة المرور تكون عبر أزقة متداخلة، بعضها نافذة (لها مخارج)، وبعضها الآخر أزقة غير نافذة[28] ، وبأعلى قمة الجبل تقع القلعة الحصينة، التي أصبحت منذ سنة 1817 مقرا للدايات، من جهة لإشرافها من الناحية الشرقية على المباني التي تنزل متدرجة نحو البحر، وكذا على أسوار المدينة والميناء. ومن جهة ثانية لما تتمتع به من تحصينات كبيرة، ومن جهة ثالثة لإطلالتها من الناحية الجنوبية والغربية للمدينة، على الريف وحصني الإمبراطور والنجمة [29].

ولما كانت البيوت منطقة الجبل، ملتصقة بعضها ببعض، برزت طبقاتها العليا واحدة فوق الأخرى متراصة كالمدرج، الأمر الذي أثار استهجان الأوربيين، حتى نعتوها بالمدينة الفوضوية، لاتسامها بـ"الطابع التراكمي" و"النمط الانطوائي"، الذي تسبب –من وجهة نظرهم- في انعدام الفضاءات الترفيهية كالحدائق والساحات[30]. مع العلم أن هذه الخاصية

لم تكن حكرا على مدينة الجزائر، بل أن معظم المدن الإسلامية قد اشتهرت بتطورها العفوي والتراكمي، مما أدى بالأوروبيين إلى الحكم عليها بالفوضوية، كما غلب على أنسجتها الحضرية طابع العضوية، فبخلاف بعض المنشآت العامة التي أنجزتها السلطة دفعة واحدة مثل المساجد والبوابات، فإن معظم البناء كان يتم بالتدريج وحسب واقع واحتياج السكان للفضاء والتوسع.[31]

لذلك لم يكن بناء المنازل في مدينة الجزائر، يخضع لأي تخطيط أو برمجة أو تسطير مسبق، بل أن العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا في بناء المنازل ومدَ الأنهج دون مراعاة للمستقبل وما يفرضه النمو العمراني، وعندما زاد عدد السكان ظهرت مشكلة السكن، فارتفعت بنايات المنازل حتى في بطون الشعاب، وكذلك الأمر بالنسبة للأنهج والأزقة التي أخذت تلتوي بالتواء الشعاب، وهذا ما يفسر لنا كثرة الدروب والأنهج الملتوية، حتى سمي أحد الأحياء بـ"حومة سبع لويات" كناية عن شكلها الكثير الالتواء[32].

وعلى الرغم مما قيل ويقال عن البناء العشوائي للمنازل، إلا أن الحقيقة الثابتة التي يُقر بها حتى خصوم الجزائر، هي أن تلك المنازل من الظاهر كان يصعب تمييزها إن كانت للعامة أو الخاصة، نظرا لشكلها الموحد، فالتمييز الوحيد بينها لم يكن من الممكن رصده إلا بعد الدخول إلى المنازل.

أما انتقاد الأوربيين لاعتماد نموذج البناء الانطوائي في المدينة، فإن ذلك راجع دون شك لاعتبارات اجتماعية ودينية، منها حفظ الخصوصية العائلية عامة والنسوية بصفة خاصة، ناهيك عن خصائصه المميزة في توفير الإضاءة والتهوية، حيث كان لا يسمح بتجاوز عدد معين من الطوابق (اثنان أو ثلاثة على الأكثر) حتى تصل الشمس لجميع المنازل، ومن أسباب اعتماده أيضا، عامل العُرف المحلي الذي ينشأ بين سكان المدينة، فكثيرا ما يُجمع السكان على وجوب امتناع الرجال عن استعمال الأسطح، وعدم تجاوز المباني ارتفاعا معينا، حيث تصبح بدورها معايير وقيم حضرية يحترمها الجميع. إلى جانب عامل الردع الشرعي من ذلك تواتر النصوص والأحاديث النبوية الشريفة الواردة في ذمَ التعالي في البناء، مما كان له

الأثر الاجتماعي المباشر في حفظ التجانس واللجوء أحيانا إلى البناء الأفقي المكثف. إضافة إلى أن اعتماد طابع البناء الانطوائي يتماشى مع الصفات الأخلاقية لسكان مدينة الجزائر، والتي أشار إليها بعض الأوربيين وحتى الأمريكيين الذين زاروا الجزائر ومكثوا فيها برهة من الزمن، بحيث يذكرون أن هؤلاء السكان كان لديهم إيمان قوي بالإسلام، الذي يستمدون من قوانينه وتعاليمه جميع تصرفاتهم وتحركاتهم [33]

وبالرغم من جميع الانتقادات، فقد كانت مدينة الجزائر شوكة في حلق الدول الأوربية، فهي كما وصفها القنصل وليام شلر، مركز للثروة والسلطة، إذ وجدت بها دور الصناعة، التي احتوت على كل أنواع الذخائر العسكرية والبحرية وآلات الحرب الضرورية للهجوم والدفاع معا.[34]

3-3 العوامل البشرية

3-3-1-صعوبة تقدير عدد السكان

إن دراسة النمو الحضري لأي مدينة، يقتضي من الناحية المنهجية الرجوع إلى دفاتر الإحصاء للتعرف على النسب السكانية وحجم النمو، ومن ثمة مقارنتها بمساحة المدينة، من أجل التوصل إلى الزيادة السكانية في المساحة وهو ما يعرف بالكثافة السكانية، والمعلوم أن الإدارة العثمانية لم تعن بإحصاء سكان جميع المدن العربية، عدى تلك التي تدفع ضرائب حسب عدد السكان مثل حلب ودمشق وطرابلس الغرب وبغداد، إذ بقيت المدن الأخرى خارج مجال الإحصاء، الذي كان يتم بهدف التعرف الدقيق على طاقات الولايات السكانية والاقتصادية بهدف تحصيل الضرائب المفروضة عليها[35].

مما فوَت علينا فرصة التعرف الدقيق على مواصفات البناء الاجتماعي في مدينة الجزائر، والحجم الحقيقي لكل جماعة بالنسبة لباقي الجماعات، ثم تطورها وأدوارها، في ظروف ومراحل الانخفاض والارتفاع، ومهما يكن مقدار تحفظنا على تلك التقديرات العددية لسكان المدينة، الواردة في المصادر الأجنبية، إلا أنها تبقى المصدر الوحيد المتوفر لدينا، على افتراض أنها التقديرات القريبة من الواقع حينها، مع الانتباه إلى ضرورة الأخذ بهامش احتياطي يمثل

الفارق المحتمل بين التقدير والرقم الواقعي صعودا أو نزولا، وبهدف تسهيل ملاحظة و مناقشة عدد السكان نورد الجدول التالي:

جدول رقم1: **تقدير سكان مدينة الجزائر حسب المصادر الأجنبية**[36].

السنة	المصدر	التقدير	عدد المنازل
1516	ليون الافريقي	/	4000 كانون
– 1578–1581	ديغو دي هايدو	/	12.200 منزل
1634	الأب دان	أكثر من 100.00	حوالي 15.000 منزل
1640–1642	دوأرندا	100.000	/
1674–1675	الفارس أرفيو	أكثر من 100.000	15.000 منزل
1725	لوج يدي تاسي	100.000	/
1738	شاو	حوالي 117.000	حوالي 5 آلاف نزل
1789	فونتير دي بارادي	حوالي 50.000	5آلاف منزل
1815	شالر	حوالي 50.000	/
— 1830	روزي	30.000	/

إن المتفحص للأرقام الواردة في الجدول، يقف مذهولا أمام ارتفاع عدد السكان المدينة، الذي ناهز المائة والخمسين ألف في بدايات القرن الثامن عشر، بينما كانوا حسب تقديرات ليون الإفريقي 4000 كانون، بداية القرن السادس عشر... !!، أما الانطباع الثاني الذي يتولد لدى الباحث هو الشعور بالصدمة جراء الانخفاض الكبير لعدد السكان عشية الاحتلال حتى وصل تقديرهم إلى 30 ألف ساكن، فالفرق واضح للعيان، فكيف نفسر

تقهقر المدينة التي كانت تأوي أكبر تجمع من السكان على الساحل الأفريقي بدايات القرن السابع عشر، ليتراجع سكانها إلى 30 ألف فقط بدايات القرن التاسع عشر؟ !!، فما هي أسباب الارتفاع والانخفاض في المرحلتين؟

4- دراسة الوضع الديمغرافي

4-1-مرحلة النمو المرتفع

يبدو أن الفئة التي سكنت المدينة في هذه المرحلة وترعرعت فيها، كانت تتشكل أساسا من أحفاد قبيلة الثعالبة بفرعيها العربي والأمازيغي[37]، وقد تزايد عدد السكان بعدما شهدت المدينة المزيد من الوافدين إليها، خاصة من الأندلسيين والأتراك- جنود الانكشارية- والعناصر البرانية[38] الوافدة من الداخل ومن بلدان الجوار العربية وحتى من الدول الأوربية، وهذه الأهمية التي اكتسبتها المدينة ترجع لكونها مركز الإدارة الحاكمة، التي جلبت إليه أطياف من السكان متنوعة ومتعددة، وأصبحت تبعا لذلك سوقا استهلاكية متميزة عن باقي الموانئ والحواضر الجزائرية الأخرى، وهو ما زاد في استقطاب التجار الأجانب سواء من المسلمين أو اليهود أو المسيحيين[39]، وفي ما يلي وقفة عند هذه الفئات الثلاث:

4-1-1- توافد العناصر الأندلسية

تعود بدايات صلة الأندلسيين بالمدينة، إلى القرن التاسع هجري الموافق للقرن الخامس عشر ميلادي، أما موجات الهجرة الكبيرة إليها، فكان بعد سقوط آخر معاقل الأندلس في العام 1492 بيد الاسبان، فقد تدفقت أمواج المهاجرين على شواطئ المغرب الإسلامي ينشدون الحماية والأمن، ويبحثون في نفس الوقت عن طريق العودة والثأر، وكانت طبقات المهاجرين تختلف ثروة وثقافة، ففيهم أبناء الشعب والبسطاء وأحفاد الملوك والوجهاء وفيهم أصحاب الصنائع وأصحاب العلم[40]

وتواصل توافد الأندلسيين إلى مدينة الجزائر في شكل دفعات كانت بارزة بين سنتي 1570 و1609، زاد في وتيرتها صدور قرار طردهم النهائي من الأندلس في الثاني والعشرين سبتمبر من العام1609، واستوطن بعضهم فحوص متيجة، في الحين استقر البعض الآخر

خاصة بشرشال ودلس و وهران، إضافة إلى العديد من مدن و مراسي الجزائر وتونس والمغرب، وللإشارة فإن أهل الأندلس قد جلبوا معهم مهاراتهم المتنوعة في الحرف والصناعات، إضافة إلى نشاطاتهم ودرايتهم بالكثير من شؤون الحياة. ورغم النكبة فقد حافظ الكثير منهم في مواطنهم الجديدة على حياة الترف والرفاهية، وهم الذين اشتهروا لما كانوا ببلادهم في المأكل بطبيخهم الجيد، إلى جانب ملبسهم الأنيق والممتاز[41].

وقد ذكر أندريه ريمون في دراسته للمدن العربية في العهد العثماني، ارتفاع عدد سكان مدينتي الجزائر وتونس خلال القرن السابع عشر على اثر صدور قرار الطرد النهائي للأندلسيين من اسبانيا، التي غادرها ثمانون ألف أندلسي، الذين استقر جزء منهم مدينة الجزائر، وشكل الأندلسيون جاليات نشطة في ولايتي الجزائر وتونس[42]، وأدوا دورا مميزا في الاستثمار الزراعي في المناطق التي استوطنوها، كما نشطوا أيضا في المدن وتجلى ذلك في إبراز قدراتهم وفاعليتهم في إنعاش بعض الأنشطة، خاصة تلك المتعلقة بصناعة الحرير والبلاطات الخزفية وأعمال البناء[43].

ساهم التواجد الكبير للأندلسيين بمدينة الجزائر في اكتظاظ هذه الأخيرة، مما اضطر بعضا من سكانها إلى النزوح خارج أسوارها والاستقرار في المرتفعات المشرفة على المدينة من ناحية باب الوادي، وزادت حاجة الحضر إلى المساكن وبذلك أصبح التوسع العمراني ضرورة ملحة، واختار الأندلسيون المواقع المرتفعة من جهة القصبة، والتي يظهر منها البحر بشكل جيد، وبذلك اشتد ازدحام المباني فوق الأرداف و متون الروابي، ورُفعت المنازل فوق السفوح وفي مواضع الحدائق، ومما لا شك فيه أن المنازل التي شُيدت من على الروابي بقيت تحتل المكانة الهامة والقيمة الكبيرة لدى السكان نظرا لما تتميز به من موقع جذاب يجمع بين إطلالة الشمس وزُرقة البحر، التي يمكن مشاهدتها من الشبابيك ومنظر يُطل على البحر، وهو قبل ذلك وبعده منظر يُمكن صاحبه من رؤية القادمين من بعيد.

4-1-2- توافد العنصر التركي

تمثلت هذه العناصر في البداية، من فرق الجيش الانكشاري التي وفدت إلى الجزائر بداية من العام 1520، ففي هذه السنة أرسل السلطان سليم الأول (1515-1520) مع الوفد الجزائري الذي حمل له رسالة الجزائريين المعبرة عن رغبتهم في الالتحاق بالباب العالي، و بلغ عداد عناصر هذه الفرقة الستة لآلاف جندي منهم ألفين من الجيش الانكشاري المدرب و المتمرس على فنون القتال، والبقية كانوا من المتطوعين، الذين أضيفوا إلى فرق الجند التي كان يقودها خير الدين بربروس في مدينة الجزائر، والتي كانت تضم كذلك خمسة آلاف جندي جزائري من المتطوعين[44].

وما ميز العنصر التركي العثماني الوافد إلى الجزائر، أنه عبارة عن مزيج من أصول وأجناس متنوعة ومختلفة، فكان منهم الأتراك إلى جانب الأرناؤوط والبشناق والأكراد واليونانيين والبلغار والتشيك والأرمن وحتى التتار، وهؤلاء جميعا شكلوا مجموعة واحدة، بعدا انصهروا في اللغة التركية والمذهب الحنفي، وأثناء وجودها بالجزائر لم تكن منغلقة أو منعزلة عن بقية السكان الجزائريين، وارتبط هؤلاء بؤولائك عن طريق علاقات المصاهرة[45].

تجدر الإشارة إلى أن مجيء الجنود إلى الجزائر قد استمر حتى أوائل القرن التاسع عشر، وكان مقدمهم أساسا من منطقة الأناضول، ومن الطبقات الدنيا في مجتمعاتهم، وكانت سلطات مدينة الجزائر ترسل موفدين عنها لتجنيد متطوعين في جيشها، أو كانت تستخدم وكلاء لها لهذا الغرض، يكونون من سكان الإقليم المقصود، كان تعاملها بخاصة مع إقليم أزمير، وسوف يُسهم هذا التدفق المستمر والمنتظم للمتطوعين القادمين من مركز الإمبراطورية بشكل قوي في الحفاظ على طابع إيالة الجزائر " التركي"، وسوف يُجبرون حكام الجزائر على الإبقاء على روابط سياسية بينهم وبين الباب العالي، والذي كانت موافقته ضرورية في عملية التجنيد[46].

4-1-3- الوافدون و الأسرى

عرفت مدينة الجزائر خلال هذه الفترة التي نخصها بالدراسة ظاهرة وفود سكان المناطق الداخلية إليها من سكان الجبال والأرياف، على غرار المدن العربية الكبرى الأخرى من مثل

بغداد وتونس وصفاقس وغيرها، وقد تميزت تركيبة الوافدين بتنوع كبير، فهناك الوافدون من المدن القريبة والمجاورة كالبليدة و القليعه وشرشال ومليانة والمدية، وكذا نزوح بعض منهم من مناطق زمورة وسباو وفليسة وبجاية و وهران ومستغانم مازونة ومعسكر وغيرها[47].

فموقع الجزائر على حوض البحر الأبيض المتوسط، جعلها نقطة استقطاب لعدد كبير من الوافدين من الداخل ومن بعض الدول العربية وحتى الأوروبية، بما في ذلك اليهود، إضافة لعدد من الأسرى من المسيحيين، الذين تنوعت أصولهم من مختلف الدول أوروبية، بل يلاحظ وجود عدد من الأسرى تعود أصولهم إلى دول القارة الأمريكية [48].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن استمرار توافد العناصر البرانية على مدينة الجزائر، وارتفاع عدد الأسرى، قد ساهم في تزايد عدد سكان مدينة الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، على أن هذا الارتفاع الملاحظ له كذلك أساب أخرى أهمها ازدهار أعمال الجهاد البحري، الذي انعكس إيجابا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ناهيك عن تحسن الأحوال الصحية نسبيا، مما حدَ من انتشار الأمراض والأوبئة.

4-2- مرحلة الانخفاض والتراجع السكاني

لم يستمر تعداد السكان في مدينة الجزائر في التزايد الطردي، بل عرف نوعا من التراجع خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر، فبداية من الربع الأخير من هذا القرن وحتى عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830)، تراجع عدد سكان المدينة إلى حدود الثلاثين ألف نسمة، ولعل مرد ذلك يكمن و بالدرجة الأولى إلى انتشار الأمراض المعدية والأوبئة بين عموم الناس، وعلى رأسها مرض الطاعون، الذي شهدته الجزائر عموما ومدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عدة مرات، أبرزها سنوات: 1717، 1718، 1723، 1730، 1733، 1778، 1799، 1816، 1822، و هي فترة طويلة تكشف عن فداحة الخسائر البشرية التي حصدتها الأوبئة، التي لم سلم منها حتى الداي علي خوجة الذي توفي بعد إصابته بالطاعون [49].

وقد كان انتشار الطاعون بمنطقة الساحل التي تشمل مدينة الجزائر و ضواحيها، بنسبة 53.8%، في الحين كان نصيب المنطقة الشرقية (قسنطينة) 26%، أما المنطقة الغربية (وهران)، فقد بلغت النسبة حدود 14.9%. وبالمقارنة مع تونس والمغرب خلال المرحلة الممتدة ما بين سنتي 1500 و 1822، وعلى مدار 323 سنة، وبمجموع السنوات التي استفحل فيها مرض الطاعون، فقد ألم بالأولى 53 سنة من و الثانية 55 سنة، أما الجزائر فقد عانت من الطاعون مدة 157 سنة [50]، وبقدر الفارق الكبير في السنوات بين الجزائر وجارتيها في المعاناة من مرض الطاعون، بقدر الفرق في الخسائر البشرية، التي كانت كبيرة في الجزائر والمؤثرة بعمق على تراجع نموها الديمغرافي.

ويُرجح أن يكون مصدر مرض الطاعون واستفحاله في الجزائر على الأغلب، إلى البيئات غير الصحية التي وفد منها الباعة، خاصة من آسيا الوسطى و العراق وشبه الجزيرة العربية و وادي النيل...كما ساهمت الأسفار في تفشي الظاهرة، خاصة رحلات الحج، حيث كان الحجاج الجزائريون يختلطون في البقاع المقدسة وطريق العودة بالحجاج المصريين والشاميين، الذين كانت تنتشر في بلدانهم الأوبئة، ومن ثمة يُصابون بالعدوى وبعودتهم إلى الجزائر ينشرون هم ببدورهم العدوى بين الجزائريين، وإضافة إلى هذه العوامل، نجد هناك أسباب أخرى لانتشار الوباء، ومنها ما تترتب عن الجهاد البحري والنشاط التجاري وتنقل الفرق العسكرية بين منطقة وأخرى [51].

ولأن مدينة الجزائر كانت مركزا للطبقة الحاكمة وحاشيتها، ومركزا اقتصاديا وصناعيا وتجاريا، بحيث غدت محل استقطاب للتجارة الخارجية مع الجوار ومع دول حوض البحر المتوسط، فقد لعبت دور الوسيط من خلال التأثير والتأثر في الإصابة بالعدوى ونقلها إلى جهات أخرى وحتى مطلع القرن التاسع عشر ميلادي. ولم تقف السلطة في الجزائر مستسلمة أمام انتشار الأوبئة، بل حاولت التصدي لها وفقا لشراسة وقوة تلك الأوبئة وسرعة تفشيها، كما عملت على نشر ثقافة الوقاية منها، وما تشكله من خطورة، وحتى تصويب اعتقادات الناس حول الموت والحياة، والضرورة التي يقول بها الدين في الوقاية و المعالجة من الأمراض.[52]

وهذه الإجراءات المتخذة، تُفند ما يدعيه البعض، من أن السلطات الصحية لم تعالج من المصابين بالأمراض الوبائية غير المرضى بالموانئ البحرية، وعملت على حماية الأصحاء، وغضت الطرف عن المصابين في الحدود البرية ودواخل البلاد[53].

كما لم يكن داء الطاعون هو الوحيد الذي أصاب مدينة الجزائر، التي ابتليت سنة 1816، كغيرها من مناطق التل، باجتياح الجراد لها، وهو الذي أتلف محاصيل الإنتاج الفلاحي، وعرفت البلاد ومنها الجزائر العاصمة سنة 1819، مجاعة اشتدت وطأتها على عموم السكان خاصة، وهم الذين تأثروا كثيرا بالجفاف الذي ألم بمدينتهم وبباقي البلاد، سنتي 1826 و 1827. لقد أفرزت هذه الأوضاع على سكان المدينة، حالة اقتصادية واجتماعية عصيبة، تمثلت في ندرة المواد الغذائية والارتفاع الفاحش للأسعار، مما أثار سخطا اجتماعيا عاما، واتهمت الداي حكومة مصطفى باشا بالعجز والقصور في تخفيف من معاناة الناس، وبتواطئها مع التجار اليهود اللفورنيين من جهة أخرى[54].

5- الكثافة السكانية

لم تتجاوز الرقعة الجغرافية التي شُيدت عليها مدينة الجزائر في العهد العثماني، الخمسين هكتارا، كانت هي النواة الأولى التي تموقع فيها السكان، وشهدت توسعا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين[55]، وصل إلى حدود المائة هكتار، وكان عدد السكان في تلك الحقبة مرتفعا، مما أفرز أزمة حقيقية في السكن وحالة اكتظاظ شديدة وسط الساكنة، وزاد من استفحال تلك الأزمة، التزايد الكبير في عدد الوافدين إليها خاصة من الأندلسيين، وتمركز جميع ثكنات الجيش الانكشاري بداخل المدينة، وللعلم أن كل ثكنة تستوعب عددا كبيرا من الجنود[56].

يضاف إلى ما سبق، ارتفاع عدد الوافدين من العناصر البرانية، فمدينة الجزائر كانت هي العاصمة، وفيها تركز المؤسسات الإدارية والسياسية وحتى الدينية من احتضانها لأضرحة الأولياء والصالحين، التي اتخذت مزارات للعديد من طبقات الشعب، كما أنها كانت مقرا

يُعقد فيه المجلس العلمي، إضافة إلى كونها مركزا اقتصاديا يستقطب رؤوس أموال وبضائع مصدرها الجهاد البحري والسلع القادمة من مختلف نواحي الجزائر (البياليك)[57].

وما جعل مدينة الجزائر قبلة للسكن وبالتالي ذات كثافة سكانية كبيرة، حالة الأمن التي كانت تعرفها وتتمتع بها، والإمكانيات الكبيرة التي تتيحها الأنشطة الاقتصادية التي جذبت إليها سكان الريف في إطار هجرة داخلية قوية، وهم الذين يبحثون عن حرف، غالبا ما تكون متواضعة. وبالعودة إلى مخلفات الكثافة السكانية، نلاحظ أن أزمة السكن قد كانت في ارتفاع، وأن المنطقة من الناحية الجغرافية تعقدت بشكل كبير، إذ لم يعد من السهل إيواء عدد كبير من السكان في منطقة محصورة طبيعيا، وحمايتهم من العدو الذي يتربص بهم، لذلك كانت المساكن تتزاحم وأخذت ترتفع فوق بعضها البعض، مثل حبات عنقود العنب، وبسبب عامل توفير الحماية لجميع السكان، ضغطت المدينة داخل الأسوار، وبهدف توفير المساكن أدت لظهور أحياء جديدة شديدة التسلق والتركيب فوق القصبة العلي[58]ا.

وانعكست أزمة السكن الخانقة سلبا، على بناء مرافق أخرى، ومنها بناء مرافق عمومية جديدة، وكانت أغلب المساجد في العهد العثماني تقوم على أنقاض منازل وحتى مساجد قديمة، مما يوحي بانحسار الأراضي و المواقع الشاغرة، ومن ذلك أن مسجد علي بتشين الذي شُيد حوالي 1622-1623، لم تتجاوز مساحته الخمسمائة متر مربع، وقد قام على أنقاض أحد القصور، والأمر نفسه يقال عن مسجد باب الجزيرة المعروف بمسجد شعبان خوجة، الذي بُني في العام 1693، وفوق أرض كانت في الأصل منازلا تم تهديمه، كما أن البناء الكامل لمسجد كتشاوة (1794-1795)، جاء على أنقاض مسجد قديم، كان يحمل نفس التسمية، وقد أشرف على إنجازه بصفة شخصية الداي حسن باشا (1798/1791)[59].

ورغم ضيق المساحة مقارنة بعدد السكان، فإن النمو الحضري قد تحقق داخل المدينة، أو على أطرافها وغالبا ما كانت يتم ذلك النمو داخل المدينة، عن طريق التكثيف وملء الفراغات، التي كانت قائمة في النسيج الحضري، كما كان يتحقق أيضا خارج المدينة عن

طريق امتدادها على هيئة ضواحي في الأغلب، وقد لاحظ أندرية ريموند عند دراسته للمدن العربية في العهد العثماني، إلى أن مدينة الجزائر كانت الأكثر تواضعا من حيث المساحة، مقارنة بالمدن العربية، فنواتها الأولى التي قامت عليها لم تتعد الخمسين هكتارا. في الحين أن عدد سكانها سنة 1830، قُدر بثلاثين ألف نسمة[60].

كما اعتبر مؤشر الكثافة السكانية بمدينة الجزائر المقدر ب246 نسمة في الهكتار، جدُ مرتفع، وهو أكبر كثافة من سكان القاهرة، ومع ذلك يمكن اعتباره مقبولا بالنظر إلى ارتفاع عدد السكان وانحصار مدينة الجزائر داخل السور، وكذا لكثافة المنشآت ولطابعها المعماري الذي كان رأسيا، بالإضافة إلى وجود السجون والثكنات، حيث يتمركز عدد كبير من جنود الانكشارية، يُقدرون بالآلاف، إضافة إلى عدد من الأسرى المسيحيين[61]، ونظرا لهذه الكثافة فقد تحولت الحمامات في المدينة عن وضيفتها الأساسية، لتصبح مراقد ليلية ومأوى للوافدين من العناصر البرانية والفئات الفقيرة، فضلا عن عدد كبير من إيوائها لعدد كبير من الأسرى والعبيد[62].

4. **خاتمة:** بعد استعراض التطور الديمغرافي لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، والعوامل المتحكمة فيه من حيث الارتفاع أو الانخفاض، وتبيان مرحلة النمو وأسبابها ونتائجها ومرحلة التراجع الديمغرافي وأسبابها وما ترتب عنها، يمكن استنباط التالي:

- أن الموقع الاستراتيجي للمدينة كان المتحكم الأساس في العملية الديمغرافية، صعودا ونزولا.
- شكلت الهجرات المختلفة إلى مدينة الجزائر في المرحلة محل الدراسة، دفعا مهما في تزايد وتطور الساكنة فيها.
- كما كان لتحسن الوضع الاقتصادي للدولة والمجتمع وتراجع وتيرة الحروب مع الخارج، خاصة الأسبان، دورهما في نمو وتطور المدينة على مختلف الأصعدة والميادين، ومنها الصعيد الديمغرافي.

– شهدت الجزائر مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ظهور موجة من حركات التمرد والاحتكاك مع الخارج وتراجع المستوى المعيشي، الذي أدى إلى العكوف عن الزواج أو تأخره، كلها عوامل كانت متحكمة في التراجع الديمغرافي في هذه المرحلة من تاريخ مدينة الجزائر.

– أن العوامل الطبيعية كان لها انعكاسها السلبي على هذا التطور، ومنها الزلازل وخاصة الأوبئة والأمراض التي شهدتها المدينة في هذه الحقبة وبخاصة في المرحلة الأخيرة من الوجود العثماني.

5.الهوامش

[1]–عبد الرحمن، الجيلالي. **تاريخ المدن الثلاث الجزائر ، المدية ، مليانة**، ط2، منشورات دار الأمة، الجزائر 2007، ص 10-11.

[2]– لم تحظ المدينة بما يكفي من اهتمام الدول المتعاقبة على احتلال المنطقة من وندال وبيزنطيين ورومان وقد عُرفت مدينة الجزائر في القديم ب إيكوسيوم(ICOSIUM) وهي كلمة مركبة من شقين (I)و هو اختزال لاسم (ISLA) أي الجزيرة، أما الشق الثاني (KOSIM) فيعني النوارس وهكذا تركب الاسم (ICOSIUM) أي "جزيرة النوارس" أنظر:–عبد الله، حمادي.**"جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الأسبان"**، مجلة المصادر ، عدد 6، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2002، ص 255-256.

[3]– أنظر : حسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا، ج1**ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2 ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمةودار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ص56.

[4]–أثناء الفتوح الإسلامية دُمرت مدينة الجزائر، وهجرها أهلها إلى أن جدد بناءها بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بأمر من والده و كان ذلك حوالي سنة 339هـ/950م. أنظر:

-TALEB, S. **« Djazair Banumazghana, de la fondation par Bologhine au XVIème siècle »,** Acte du colloque international-Alger lumière sur la ville, **V1**, Pub. L'EPAU, Alger, 2002, p 42.

[5]–جون، ب، **وولف**. **الجزائر و أوربا**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005 ص15.

[6]– الجيلالي. مرجع سابق، ص 215.

[7]– حليمي، عبد القادر. "**أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر**"، مجلة الأصالة، عدد 6، جانفي 1972.

[8]– نفسه، ص 99-100، وأنظر أيضا:

-FEDERICO, CRESTI. « **Notes sur le développement urbain d'Alger des origines a la période turque** », In : contributions a L'Histoire d'Alger, Ed. Centro Analsi Sociale Progtetti, Rome, 1993, pp 12-20.

[9]– عائشة، غطاس،"**ظهور الدولة الجزائرية الحديثة**"، **في** الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 11-17.

[10]– محمد العربي، الزبيري. **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، ص 32-33.

[11]– خير، الدين بربروس. **مـــذكـــرات**، ترجمة محمد دراج، دار الأصالة، الجزائر، 2010، ص 21-22.

[12]–راجع استغاثة أهل الأندلس بالسلطان العثماني:– جمال، قنان. **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500–1830**، طبعة خاصة، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009، ص47-48.

[13]– غطاس. "ظهور الدولة..."، مرجع سابق، ص 20-21.

[14]–خير، الدين بربروس. مصدر سابق، ص 113و 74.

[15]– ويشمل إقليم دار السلطان في الأصل مدينة الجزائر، المتيجة، والساحل من تنس غربا إلى دلس شرقا وتشكل جزء الإيالة الخاضع إلى سلطة الداي مباشرة ، وهذا الإقليم هو المقاطعة المركزية والتي خضعت لتنظيم محكم.

[16]– قنان. مرجع سابق، ص 15.

[17] –Cresti. Op.cit, p 63.

[18] -Ibid.

[19]– حليمي. مرجع سابق، ص 73.

[20]–الجيلالي. المرجع السابق، ص19.

[21] – Diego de HAEDO. « **Topographie et histoire général d'Alger** », trad de l'espagnol par Dr Monnereau et A Berbrugger, Revue.Africaine, **T 15**, 1871, p 43-44.

[22]– كان المواطنون يستعملون الجير لتبيض المنازل، مرة في السنة على الأقل، آملين بذلك السيطرة على الطاعون.

[23]–وولف. المرجع السابق، ص 150.

[24] -M. BLHAMISSI. **Alger –L'Europe et la guerre secrète (1518-1830)**, Ed. Dahleb, Alger, 1996, p p10-12.

[25]–فريد بنور. **المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782–1830**، منشورات كوشكار، الجزائر، 2008، ص 23 ، 50.

[26]– الجيلالي. المرجع السابق، ص 116-117.

[27]–على أن هذه المدينة كانت تعرف عند الأتراك باسم "جزائر الغرب"، تمييزا لها عن جزر اليونان، و جزائر الأرخبيل.

[28] –PIERRE. BOYER. **La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention Française**, ED. HACHETTE, Paris, 1963, p 50.

[29]– شرع في بناء القلعة من طرف عروج سنة 1513، حيث جهزها ببعض المدافع، ثم أتم بناءها خيضر باشا سنة 1590، وتحوي على عدة أقسام أو مراكز منها قصر الداي وقصر البايات وأجنحة خاصة ومنتزهات، ومسجد الداي ومصنع للبارود، كما يوجد بها قصر الأغا الواقع في الجهة الشمالية لحدائق الداي، وغرب المسجد، ويعتبر قصر الآغا من أفخم البنايات بعد قصر الداي، أنظر: –سعيد، مهيبل. **مواد و تقنيات البناء في قصر الداي بقلعة الجزائر في العهد العثماني –دراسة معمارية أثرية–**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص ص 20-24.

[30]–جيمس ويلسون، **ستيفنس**. **الأسرى الأمريكان في الجزائر 1785-1797**، ترجمة علي تابليت، دار ثالة للنشر، الجزائر، 2007، ص 211.

[31]–مصطفى، بن حموش. **المدينة و السلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني**، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، 1999، ص 46.

[32]–نجوى طوبال. **طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر(1700-1830) من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2008، ص 129-130.

[33] -Boyer, Op.cit, P 69.

[34]– وليام شالر، **مذكرات وليام شلر قنصل أمريكا في الجزائر (1816/1824)**، ترجمة و تقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص، 72.

[35] خليل ساحلي أوغلي. " **نسبة عدد سكان المدن إلى مجموع السكان في بعض الولايات العربية في الحكم العثماني**"، في: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني-بحوث و وثائق وقوانين، منشورات مركز الأبحاث للتريخ والفنون والثقافة الاسلامية (إرسيكا)، إسطنبول، 2000، ص 62.

[36] –Cresti. Op.cit, p 85.

[37]– أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري و فعاليته في العهد العثماني 926-1246هـ – 1519-1830**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص9.

[38]– البراني، جمعه البرانية تطلق مدلول الكلمة في التعبير الشعبي يعني كل غريب عن العائلة أو عن الحي أو المدينة. وكلمة البراني تعني كذلك الأجانب والغرباء، أنظر: – عزي بوخافة، **من قاموس العادات و التقاليد الجزائرية، ج 2** ، دار إسحاق الدين للكتاب، الجزائر، 2009، ص، 132.

[39]– أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي** ،**ج 1**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص، 46،47.

[40] - Farid Khiari. « **Une Caummunité Résurgente. Les Andalous a Alger de 1570 à 1670 »**, Revue d histoire Maghrébine N 69-70. 1995. p.p. 119-126.

[41]–من المؤشرات على كثافة الحضور الأندلسي في مدينة تونس، أنهم عمَروا حيين فيها عُرفا بهم، أحدهما أطلق عليه " زقاق الأندلس" وهو بداخل المدينة العتيقة، والثاني يسمى ب" حومة لأندلس" ويقع بريفها بباب السويقة، ودعموا ديمغرافيا عددا هاما من القرى المتوادة حول مدينة تونس بمحيط يشمل حوالي 60 كلم، وعليه قُدر عدد المهاجرين الأندلسيين بتونس وحدها ما بين 40 إلى 50 ألف مهاجر. أنظر: – عبد الحميد هنية. **تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال من القرن السادس عشر على منتصف القرن التاسع عشر**، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012، ص، 127.

[42]– أندرية ريمون ، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج، منشورات دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص، 42.

[43]–بن حموش، المدينة، مرجع سابق، ص ص، 191-215.

[44]– زكية زهرة. **"الجيش الانكشاري"** في : **الدولة الجزائرية الحديثة و مؤسساتها**، مرجع سابق، ص، 69.

[45]–أمين محرز. **الجزائر في عهد الأغوات** (**1659-1671**)، مذكرة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008/2009، ص، 85.

[46]– أندرية ريمون. **"الولايات العربية،(القرن السادس عشر-القرن الثامن عشر)"**، في: **تاريخ الدولة العثمانية، ج2**، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للنشر و الدراسات و التوزيع، القاهرة،1993، ص، 539.

[47]– عائشة غطاس،**الحرفيون بمدينة الجزائر، 1700-1830،مقاربة اجتماعية اقتصادية**، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص، 28.

[48]– شويتام، مرجع سابق، ص، 16.

[49] - Boubaker Sadok. **« La peste dans les pays des Maghreb Attitude face au fléau et impacte sur les activités commerciales XVIème- XVIIIème siècle»** Revue d histoire maghrébine N 69 -70 . 1995 ,p 312

– عائشة غطاس، " **أوضاع الجزائر المعاشية و الصحية أواخر العهد العثماني: المجاعات و الأوبئة، 1787، 1830**" المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية،عدد 16-17، 1998، ص، 361، 362.

[50] -Sadok. Op.cit, P 312.

[51]– فلة قشاعي موساوي، **"وباء الطاعون في مدينة الجزائر العثمانية: دوراته و سلم حدته و طرق انتشاره"**، مجلة دراسات إنسانية، عدد 01، 2001، ص، 143- 145.

[52] -Sadok. Op.cit, p324.

[53]– فرنسوا أرنولي. " **علم الأوبئة في البحر الأبيض المتوسط في القرن 17م –20م**"، مجلة التاريخ للدراسات العربية، ع 17–18 1998 ص،449.

[54]– غطاس. " أوضاع الجزائر المعايشية و الصحية..."، مرجع سابق، ص، 364.

[55] - Mohamed Amine **«La situation d Alger verre 1830 »,** Revue d histoire maghrébine; N 77-78.1995, p. 20

[56] -Devoolx. **«ELdjazair» Histoire d une cité d, Icosuime d Alger**, présenté par Badredine Belkadi et Mustapha Ben Hamouche. Ed, ENAG ; Alger, 2003 ; pp ; 261-273.

[57] - Khiari. « Une Caummunité… ». Op.cit p. 12.

[58]– حليمي، مرجع سابق، ص، 78.

[59] -Tel, shuval. **«Le dynamisme du waqf d, Alger au XVIII eme siècle », In :** Les fondations pieuse (wakf) en Méditerranée, enjeux du société, enjeux de pouvoir: d Augaf public fondation, Kuwait, 2005 p ,67.

[60]– في حين وخلال الفترة نفسها، نجد مدينة القاهرة قد تربعت على مساحة 730 هكتار، وعدد سكانها بلغ المائتين و ثلاث و ستون ألف نسمة، أما مدينة حلب بسوريا فقد قامت على مساحة قدرها 397 هكتار، و عدد ساكنيها بلغ التسعون ألف نسمة، أما مساحة تونس المدينة فقد كانت 620 هكتار و قُدر عدد سكانها بحوالي الثمانون ألف نسمة في العام 1860. راجع:– ريمون، المدن العربية...، مرجع سابق، ص، 47.

[61] – نفسه، ص51.

[62] - Farid Khiari**, vivre et mourir en Alger, L' Algérie ottomane aux XVI –XVI siècle : un destin confisait**, Ed. Harmattan, paris 2002, p. 12.

قائمة المصادر والمراجع

1–المصادر العربية

- بربروس (خير، الدين)، **مـــذكـرات**، ترجمة محمد دراج، دار الأصالة، الجزائر، 2010.
– شالر (وليام)، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1824/1816)**، ترجمة و تقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- الوزان (حسن بن محمد)، **وصف إفريقيا**، **ج1**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2 ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

2–المراجع العربية و الأجنبية

–بن حموش (مصطفى)، **المدينة و السلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني**، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، 1999.

-بنور(فريد)، **المخططات الفرنسية تجاه الجزائر 1782-1830**، منشورات كوشكار، الجزائر، 2008.

-الجيلالي (عبد الرحمن)، **تاريخ المدن الثلاث الجزائر ، المدية ، مليانة**، ط2، منشورات دار الأمة، الجزائر 2007.

- ريمون (أندرية)، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج، منشورات دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.

- الزبيري (محمد العربي)، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985.

-ستيفنس (جيمس ويلسون)، **الأسرى الأمريكان في الجزائر 1785-1797**، ترجمة علي تابليت، دار ثالة للنشر، الجزائر، 2007.

- سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي** ،ج **1**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

- شويتام (أرزقي)، **المجتمع الجزائري و فعاليته في العهد العثماني 926-1246هـ – 1519-1830**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.

- طوبال (نجوى)، **طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر(1700-1830) من خلال سجلات المحاكم الشرعية**، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2008.

- عزي بوخافة، **من قاموس العادات و التقاليد الجزائرية**، ج **2** ، دار إسحاق الدين للكتاب، الجزائر، 2009.

- غطاس (عائشة)، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، 1700-1830،مقاربة اجتماعية اقتصادية**، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

- قنان (جمال)، **نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830**، طبعة خاصة، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009.

- هنية (عبد الحميد)، **تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال من القرن السادس عشر على منتصف القرن التاسع عشر**، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012.

-وولف (جون، ب)، **الجزائر و أوربا**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

-BELHAMISSI (M.). **Alger –L'Europe et la guerre secrète (1518-1830)**, Ed. Dahleb, Alger, 1996.

–BOYER (PIERRE). **La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention Française**, ED. HACHETTE, Paris, 1963.

-Devoolx. **«ELdjazair» Histoire d une cité d, Icosuime d Alger**, présenté par Badredine Belkadi et Mustapha Ben Hamouche. Ed, ENAG ; Alger, 2003.

- Khiari (Farid). **vivre et mourir en Alger, L' Algérie ottomane aux XVI –XVI siècle : un destin confisait**, Ed. Harmattan, paris 2002.

3–الدراسات العربية والأجنبية

- أرنولي (فرنسوا)، " **علم الأوبئة في البحر الأبيض المتوسط في القرن 17م –20م**"، مجلة التاريخ للدراسات العربية، ع 17-18، 1998.

-أوغلي(خليل ساحلي)، " **نسبة عدد سكان المدن إلى مجموع السكان في بعض الولايات العربية في الحكم العثماني**"، في: من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني–بحوث و وثائق وقوانين، منشورات مركز الأبحاث للتريخ والفنون والثقافة الاسلامية (إرسيكا)، إسطنبول، 2000.

-حليمي (عبد القادر)، "**أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر**"، مجلة الأصالة، عدد 6، جانفي 1972.

– حمادي(عبد الله)،"**جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الأسبان**"، مجلة المصادر ، عدد 6، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2002.

– ريمون (أندرية)، "**الولايات العربية،(القرن السادس عشر–القرن الثامن عشر**"، في: **تاريخ الدولة العثمانية، ج2**، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للنشر و الدراسات و التوزيع، القاهرة،1993.

– زهرة (زكية)، "**الجيش الانكشاري**"، **في** الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

– غطاس (عائشة)،"" **أوضاع الجزائر المعاشية و الصحية أواخر العهد العثماني: المجاعات و الأوبئة 1787، 1830**" المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية،عدد 16-17، 1998.

– غطاس (عائشة)،"**ظهور الدولة الجزائرية الحديثة**"، **في** الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

– قشاعي– موساوي (فلة)، "**وباء الطاعون في مدينة الجزائر العثمانية: دوراته و سلم حدته و طرق انتشاره**"، مجلة دراسات إنسانية، عدد 01، 2001.

- Amine (Mohamed)._**«La situation d'Alger verre 1830 »,** Revue d'histoire maghrébine; N 77-78, Tunis, 1995.

- CRESTI (FEDERICO). **« Notes sur le développement urbain d'Alger des origines a la période turque »**, In : contributions a L'Histoire d'Alger, Ed. Centro Analsi Sociale Progtetti, Rome, 1993.

–HAEDO (Diego de). **« Topographie et histoire général d'Alger »,** trad de l'espagnol par Monnereau et A Berbrugger, revue.Africaine, **T 15, Alger,** 1871.

- Khiari (Farid). « **Une Caummunité Résurgente. Les Andalous à Alger de 1570 à 1670 »,** Revue d'histoire Maghrébine N 69-70, Tunis, 1995.

- Sadok (Boubaker). **« La peste dans les pays des Maghreb Attitude face au fléau et impacte sur les activités commerciales XVIème- XVIIIIème siècle»** Revue d'histoire maghrébine N 69 -70 , Tunis, 1995 .
- Shuval (Tel). **«Le dynamisme du waqf d, Alger au XVIII eme siècle », In :** Les fondations pieuse (wakf) en Méditerranée, enjeux du société, enjeux de pouvoir: d Augaf public fondation, Kuwait,2005.
-TALEB,(S). **« Djazair Banumazghana, de la fondation par Bologhine au XVIème siècle »,** Acte du colloque international-Alger lumière sur la ville, **V1**, Pub. L'EPAU, Alger, 2002 .

4- الرسائل الجامعية:

- محرز (أمين)، **الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)**، مذكرة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2008/2009.
- مهيبل (سعيد)، **مواد و تقنيات البناء في قصر الداي بقلعة الجزائر في العهد العثماني –دراسة معمارية أثرية–**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009.

الاغتيال السياسي في العصر الوسيط – لسان الدين ابن الخطيب نموذجا.

Political assassination in the middle ages, Lissane Eddine ibn al-Khatib as a model.

خديجة الكيلي

طالبة دكتوراه ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة ابن طفيل القنيطرة . المغرب.

البريد الالكتروني : khadijaguaili@gmail.com

تاريخ الاستلام: 12/02/2021 **تاريخ القبول**: 2021/04/14 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

يشكل الاغتيال أحد أهم القضايا الإنسانية التي انتشرت عبر التاريخ، ولم تستثن أي فترة زمنية منه، والذي بقي يمُارس حتى في عصرنا الحالي رغم ما عرفته الحضارات من تقدم فكري. إن ظاهرة الاغتيال مست جميع طبقات المجتمع بدءا من سلاطين العصر الوسيط وصولا إلى العامة من الناس ، حيث عرف الاغتيال انتشارا كبيرا في مجتمع دولة العصر الوسيط وكان من أهم أسبابه الدافع السياسي الذي راح ضحيته كثير من الشخصيات المشهورة من مفكرين وعلماء وفلاسفة.

ويعتبر لسان الدين ابن الخطيب واحد من أشهر علماء عصره الذين سقطوا ضحية للمكائد السياسية والمؤامرة التي أدت إلى اغتياله في نهاية الأمر.

الكلمات الدالة: اغتيال – قضايا – التاريخ – حضارة – طبقات – مجتمع –سلاطين – عصر وسيط – أسباب – سياسي. ضحية – شخصية – مكائد – مؤامرات.

Abstract:

The assassination is one of the most important humanitarian issues that have spread throughout history, and did not exclude any period of time. Which remained practiced until our current generation, despite what civilizations knew of intellectual progress. The phenomenon of assassination touched all classes of society from the medieval sultans to the general public. Where assassination was widespread in the state of the middle ages, and

one of the important reasons was the political motive that led to murder of many famous persons some of them are thinkers, scientists and philosophers.

"Lissan eddin Ibn al-Khatib" is one of the most famous scholars of his time who fell victim to political intrigue and conspiracies that led to his assassination by the end.

Key words: assassination, issues, history, civilizations, classes, society, Sultans, middle ages, reasons, political, victim, persons, intrigue, conspiracies.

1. مقدمة:

إن موضوع الاغتيال السياسي أحد أخطر الظواهر التي تهم حق الإنسان في الحياة، وتمس بمبدأ كرامته، ذلك أنه لم يستثن أي مرحلة تاريخية من مراحل التطور الإنساني بجميع مجالاته السياسية والاجتماعية والقانونية، بل ظل مرتبطا بما هو سياسي وديني وعرقي واقتصادي وأحيانا بالدولة ومؤسساتها وتنظيماتها فلا تكاد أي فترة تخلو من ظاهرة الاغتيال والتي لا تزال معالمها واضحة ومستمرة حتى في عصرنا الحالي، رغم التطور الذي شهده العا لم من قبيل الثورات الإنسانية الفكرية سواء في القرن الثامن عشر بأفكاره المستنيرة مع كبار المفكرين من قبيل روسو وفولتير[1]...والداعية لنبذ العنف والتسامح والتعايش[2] ووضع شرعية حقوق الإنسان لسنة 1789 م أو في الفترات المعاصرة.

ونظرا لما لهذا الموضوع من أهمية كونه مرتبط بحياة الفرد وحقه في العيش ؛ وذلك عبر قتله والتخلص منه بصفة نهائية ، انطلاقا من ذلك فقد أخذ الاهتمام يكبر من أجل سبر أغوار هذا الموضوع الحساس المتعلق بالاغتيال السياسي لما له من حمولة ثقيلة ولما لهذه الآفة من تهديد سواء على الفرد أو المجتمع . فمنذ القدم استهدف الاغتيال فئات معينة داخل المجتمع ، ولعل من أبرز الدوافع والأسباب المؤدية إلى مثل هذه التصفيات الجسدية يكون بدافع سياسي أو بدافع الثأر والانتقام، لكن يظل الدافع السياسي من أهم الأسباب نظرا لما

يلفه من غموض وطابع سري. إن هذه الظاهرة قديمة قدم الدهر، فمنذ الوهلة الأولى التي وجد فيها الإنسان ارتبط بهذا الصراع الدموي.[3]

إن ما يشهده عالمنا في المرحلة من مظاهر للعنف والاغتيالات إما بدافع الدين أو بدافع العرق أو حتى بدافع الاقتصاد يتطلب منا العودة الملحة لدراسة هذا الفعل الإجرامي الذي تعاقب عنه جميع القوانين في العالم باعتباره قتلا عمدا مع سبق الإصرار والترصد... فمهما كانت الغاية و الدافع فهو لا يسمح بسلب حياة شخص معين على حساب شخص آخر، ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يمارس العنف بشكل مجاني على فرد آخر لا لشيء لمجرد انفعالات نفسية من قبيل الكراهية والعنصرية أو الانتقام.

إن الهدف من دراسة هذا الموضوع بالذات لا لتشهير أو نشر أفكار تدعوا لممارسة العنف بكل تجلياته منها القتل و الاغتيال أو فضح الطابع الغريزي " الحيواني" الموجود في التركيبة البشرية، بل على العكس تماما هو دراسة موضوعية غايتها العودة إلى التاريخ من أجل البحث في هذا الفعل و السلوك الذي ظل مسكوت عنه طيلة عقود، ولأخذ العبرة من التجارب السابقة قصد فهم معمق وأكثر وضوحا لنبذ جل الأفكار الداعية للعنف والحقد والكراهية. فما أحوجنا اليوم إلى بناء إنسان سوي متصالح مع نفسه ومع الآخر مهما كانت اختلافاته العرقية والإثنية الدينية والى مجتمعات يسودها السلم والتعايش.

2. دوافع وأسباب الاغتيالات:

إن البحث في ظاهرة الاغتيال يدفعنا لنطرح عدة إشكالات لعل أهمها السؤال الأبرز والأهم وهو الدافع وراء عمليات الاغتيال التي شهدتها المرحلة الوسيطية، وإلى أي حد شكلت عملية القتل والاغتيالات تهديدا سواء على السلطة أو على المجتمع، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار العقلية المكونة لهذا المجتمع ودورها في تكريس مثل هذه الممارسات الخطيرة ولما لها من آثار على الجانبين، وعلى المجتمع بكل شرائحه من عبيد وعامة والمكونة من أجناس وطوائف دينية مختلفة شكلت أساس المجتمع الوسيط، هذا الغنى والتنوع الثقافي المكون لبنية المجتمع والذي لم تسلم منه أي طائفة أو عرق خاصة مع الصراعات السياسية

والاقتصادية التي عرفتها دول العصر الوسيط إذ كانت كل مرحلة بمثابة نفي لما سبقها ومحاولة لتشييد عقليات وترويج لأفكار وإيديولوجيات جديدة أخذت تارة أشكالا متباينة ذات طابع ديني في مرحلة معينة. ولعل أبرز مثال لذلك هو بداية تأسيس دولة الموحدين بزعامة رائدها ومؤسسها فكريا ودينيا "المهدي بن تومرت" وفكرته المهدوية، ليتزعم بذلك حملاته التطهيرية متخذا من فكرة المهدوية ودعوته المبنية على فكرة مفادها " النهي عن المنكر والأمر بالمعروف" أحد أبرز الدعامات التي استند لها للقيام بعمليات القتل (الميز) واغتيالات. وتارة أخرى نجد أن الدافع يمكن أن يكون اقتصاديا وخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن نهاية كل عصر يكون مصحوبا بمجموعة من الأزمات الاقتصادية من مجاعات وأوبئة...مما يضطر فئات المجتمع إلى الانتفاض والانقلاب على مؤسسات الحكم، وقيام ثورات وحركات لها مطالب ذات طابع اقتصادي تتخذ أفراد وشخصيات جديدة يمكن بدورها أن تؤسس وتروج لأفكار جديدة ذات طابع ديني أو عصبي قبلي في الأغلب.

وبذلك يمكن أن نلخص أهم الدوافع كالتالي:

1- الصراع على الحكم بين أفراد الأسر الحاكمة.

2 - ضعف السلطة.

3- الطمع في السلطة وتدبير المؤامرات والدسائس.

4- تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

5- الصراعات الدينية والمذهبية.

2.2 -الاغتيال السياسي:

يشكل الاغتيال أحد أخطر الجرائم البشرية، بوصفه أكثر مظاهر العنف ضررا وقسوة، الممارس في حق فرد معين له وزنه السياسي أو الاجتماعي، أو الاقتصادي أو يمارس في حق جماعة بأكملها حيث يتم إبادتها.

فإذا كان العنف بجل أشكاله، سواء التعذيب أو السجن أو النفي يمس بمبدأ كرامة الإنسان وحرمانه من قيمة الحرية، فإن الاغتيال يعد أكثرهم ضررا ورعبا إذ يتم سلب الإنسان

حقه في الحياة، ويقوده إلى هلاكه وموته، والتخلص منه بصفة نهائية، وللاغتيال أسباب متنوعة ربما كانت الحرب إحداها أو الثأر أو الخصام، وربما كان السبب سياسيا، وهذا هو محور مقالنا الذي سنقف عنده بالتفصيل.

الاغتيالات السياسية هي التصفيات الجسدية التي تستهدف الخصوم السياسيين من معارضين أو منافسين في قضايا ذات صلة بالصراع الاجتماعي. وهو كما عرفه أحد الباحثين[4] بأنه ظاهرة استخدام العنف والتصفية الجسدية، بحق شخصيات سياسية، كأسلوب من أساليب العمل والصراع السياسي ضد الخصوم، يهدف خدمة اتجاه معين أو غرض سياسي. كما يرتبط الاغتيال السياسي بجريمة القتل المتعمدة والمنظمة من طرف شخص أو أكثر لحساب مؤسسة، أو فرد، أو جماعة أو دولة، ويكون موجها من طرف ثان يحمل أفكارا مخالفة لجهة ما فعندما تغيب وسائل الإقناع يلجأ إلى استعمال القوة التي "تجسد حالة من الخواء الفكري والسياسي"[5].

ويحيط بالاغتيال نوع من الغموض والسرية التامة، إذ تقوم بتنفيذه جهات مختصة أو تنظيمات ذات طابع تكنيكي من محكم " لأنها العملية الأخيرة التي تلجأ إليها السلطة للتخلص من معارضيها وتصفيتهم جسديا[6]. كما تختلف أساليبها وظروف القيام بها باختلاف أهمية الضحية داخل الوسط الاجتماعي أما بالنسبة للدول العصر الوسيط فقد مورس هذا الأسلوب بشكل علني بطرق مباشرة، حيث كانت تعلق الأجساد ويتم صلبها أمام العامة، أو اغتيلت بطرق أخرى من بالتسميم والخنق.

3. اغتيال لسان الدين ابن الخطيب:

ولد لسان الدين ابن الخطيب بمدينة لوشة ،غرب غرناطة سنة713هـ /1313م وهو قرطبي الأصل،" انتقل أبوه عبد الله على غرناطة، واستعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحي ابن هذيلي، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه وامتلأ من خوض اللسان نظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى

فيها، وامتدح السلطان أبى الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدولة بمداحه"[7] ويصفه المقري [8] "انه الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة."

يعد ابن الخطيب شخصية سياسية مشهورة إلى جانب اشتغاله في الطب والفلسفة كما كان مؤرخا بارعا وكاتبا ووزير سياسي ما جعله يلقب ب" ذي الوزارتين" لجمعه بين الكتابة والوزارة[9] عندما رقاه السلطان فأصبح كاتبا "فأتبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوسا بابي الحسن ابن الحباب"[10] سرعان ما ولاه رياسة الكتابة فيما بعد كما كان" يشرف على تصريف شؤون الدولة المدنية و العسكرية في مملكة غرناطة في القرن 8ه/14م"[11] كما "صدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة. فداخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشاطرات، فجمع له بها أموالا. وبلغ في المخالصة إلى حيث لم يبلغه بأحد من قبله."[12]

لكن مع هلاك السلطان أبي الحجاج مقتولا ، حيث " عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطعنه وفاض لوقته ، وتعاورته سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء "[13] سيعرف مسار ابن الخطيب تغييرا جذريا فلم يعد كاتبا للدولة. بعد أن بويع محمد ابن السلطان أبو الحجاج . عين ابن الخطيب سفيرا بعد أن " كسب ثقة السلطان الغرناطي وأصبح قريبا منه وصاحب سره وكتاباته ونجح في سفارته مع المغرب والنصارى"[14] وقد كان لأسلوب ابن الخطيب الجيد في فن الخطابة والشعر عاملان قويان لتمكنه من النجاح في مهامه كسفير للعلاقات السياسية بين الأندلس والمغرب، خاصة بعد "رسائله بين سلطانه وسلطان ابن مرين"[15] ولعل خير مثال على ذلك رسالته للسلطان المريني ،حينما أرسل في مهمة فكتب شعرا في السلطان المريني:

خَليفَةَ اللهِ سَاعدَ القَـدرُ عُلاكَ ما لاَحَ في الدّجَى قَمرُ.
ودافَعَتْ عَنْكَ كفُّ قُدرَتِهِ ما ليْسَ يسْتطِيعُ دفْعُهُ البشَرُ.
وجْهُكَ في النّائباتِ بدرُ دُجَى لناَ وفِي المحْلِ كفُّكَ المطرُ.
والنّاسُ طُرّاً بأرضِ أندلُسٍ لوْلاَكَ مَا أوطَنوا ولا عمَروا.

وجُمْلةُ الأمْرِ أنّهُ وطن　　　في غيرِ عُلَيَاكَ ما لهُ وطرُ .[16]

من خلال هده الرسالة استطاع ابن الخطيب أن يجعل السلطان المريني يرضى بمطالب السلطان الغرناطي، فيقول هو نفسه في نجاح مهمته: " كان الانصراف بأفضل ما عاد به سفير من واد أصيل، وإمداد موهوب ومهادات أثيرة وفطار مجنون محمول، وطعمه مسوغة وكان الوصول في وسط محرم سنة 756 هـ وقد نجح السعي، وأثمر الجهد وصدقت المخيلة".[17]

بعد خدمته في غرناطة كسفير ناجح، لم يدم حاله حتى انقلبت حياته السياسية، ووقف حساده وأعدائه الذين تمكنوا من دس المكائد والمؤامرات قصد الإطاحة به فاستطاعوا أن يقصوا الحاكم الغرناطي الغني بالله من الحكم أما ابن الخطيب فلم يظل في الوزارة لمدة طويلة.[18]

عند نجاح ثورة غرناطة تمكن إسماعيل من الاستيلاء على العرش، انقلبت حياة ابن الخطيب وفقد كل نفوذه اثر هذه النكبة ،فثم القبض عليه وصادر السلطان الجديد جميع أملاكه.

بعد هذه الأحداث استقر بمدينة سلا سنة 760هـ بعد أن كان محبوسا في الأندلس ،حين تدخل السلطان المريني " طلب من السلطان الجديد السماح لأبن الخطيب الالتحاق بسلطانه الغني بالله إلى المغرب"[19] وبقي رفقته في المغرب مدة ثلاثة سنوات إلى حين مقتل إسماعيل عقب ثورة غرناطة وهذه المرة سنة763هـ/1361م.

استعاد الغني بالله مكانه كحاكم لغرناطة، ثم عاد إليها رفقة ابن الخطيب الذي استعاد بدوره مكانه ككاتب. لكن على الرغم من ذلك فلم يكن مرتاحا خاصة وان أعدائه لم يتركوا فرصة إلا وقاموا بدس المكائد ضده لسلطانه العائد "الغني بالله" ولما أحس انه لم يعد يحضا بثقة سلطانه كما عهده في السابق، لما بلغه أن كاتبه في تواصل مع سلطان المغرب. فما كان من لسان الدين إلا أن يسارع في طلب تأمين الحماية من السلطان المريني "عبد العزيز" ليتمكن من الرجوع إلى المغرب قادما من الأندلس. كما يذكر ابن خلدون: « أجمع التحويل

عن الأندلس إلى المغرب. واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، ومعه ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطنة. ولما حادى جبل الفتح، فرضة المجاز إلى العدوة، مال إليه وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقيه. وكان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز له الأسطول من حيته. فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسيم، ثم سلك لقصد السلطان، فقدم عليه ...فاهتزت له الدولة، وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله من مجلسه محل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان البنوة و العزة »[20].

حظي لسان الدين باستقبال أسطوري من طرف السلطان المزيني "عبد العزيز" فجعل له مكانة رفيعة داخل الدولة، وأرسل في طلب إحضار أهله وأولاده من الأندلس. وقام بمنحه إقطاعات. مما زاد من غيظ حساده ومنافسيه عليه" وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه. رفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن بن أبي الحسن فاستردها وسجل عليه بالزندقة"[21].

كانت خيوط المؤامرة قد بدأت تنسج خيوطها قصد التخلص من ابن الخطيب، غير أن السلطان المريني كان يتصدى لأي محاولة قد يذهب ضحيتها كاتب ومفكر مرموق من فصيلة لسان الدين ابن الخطيب، فلما بعث القاضي للسلطان بهدف الانتقام منه "وإمضاء حكم الله فيه" كان رد السلطان المريني له: "هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جواري."[22]

استقر ابن الخطيب بفاس فكان محبا للفن و الثقافة والعمران "فتأنق في بناء المساكن وإغراس الجنات"[23] واستمر في عمله السياسي داخل المغرب وكان يحضا بمكانة جيدة في الدولة المرينية، مما زاد من حقد حساده وكثرة مضايقات السلطان الغرناطي الغني بالله الذي أصبح يضيق سمعه لما يلقي من أخبار ابن الخطيب، فابلغوه أنه ما ينفك يحرض السلطان المريني أبا فارس عبد العزيز للانقضاض على غرناطة والإجهاز على بني الأحمر في الأندلس فألصقوا به العديد من التهم قصد "التصفية"[24].

بعد وفاة السلطان "عبد العزيز" في ربيع الثاني 774هـ/1372م[25] تولى من بعده الحكم " أبو زيان محمد بن عبد العزيز" وكان صبيا صغيرا لا يملك أي تجربة وحنكة سياسية فتحكم في شأنه وزيره "أبا بكر بن غازي" وكان يقوم بإعطاء جميع الأوامر، وضغط عليه سلطان غرناطة من أجل أن يسلمه ابن الخطيب ،غير أن الوزير لم يرضخ لطلبات السلطان الغرناطي نظرا لما كان يجمعه من صداقة مع ابن الخطيب واحترامه له ككاتب ومفكر .

اشتد حقد خصوم ابن الخطيب عليه ومنهم القاضي "أبو الحسن" الذي اتهمه بالزندقة والكفر وأمر "بجمع كتبه وصب الزيت عليها وإحراقها في حضرة غرناطة منتصف سنة 773هـ/1372م بحضور نفر من الفقهاء و المدرسين"[26].

وعلى إثر الأوضاع المتأزمة التي كانت تمر منها الدولة المرينية جراء التدخل في الشأن السياسي للمغرب من طرف حاكم بني الأحمر في غرناطة قام بتدبير مؤامرة هدفها الإطاحة بالملك "السعيد" ووزيره "ابن الغازي" وتنصيب الأمير " أحمد بن السلطان أبي سالم"[27] الذي نصب حاكما على المغرب سنة776هـ/1374م[28] بمساعدة من " الغني بالله" حاكم غرناطة، والذي كان يتربص بابن الخطيب، فقام بإبرام اتفاق مع "أحمد أبو العباس" كان من أهم بنوده شرطان أساسيان أولهما: تسليم ابن الخطيب ، و الثاني أخد جبل طارق[29] .

وبما أن أعداء ابن الخطيب كثر فان الفرصة كانت مواتية لتدبير مؤامرة اغتياله منهم الوزير "سليمان بن داود" الذي كان شديد الكره لابن الخطيب، نظرا لحسابات قديمة كانت بينهما مند كان ابن الخطيب في وزارة ابن الأحمر في غرناطة، كان يسعى الوزير إلى منصب مشيخة ورئاسة الغزاة بالأندلس، لكن بعد تدخل ابن الخطيب واستشارته من طرف سلطان ابن الأحمر تصدى لتلك الرئاسة ورأى أن "آل عبد الحق" من زناتة أحق بها. أما الوزير سليمان " فرجع بائسا حاقدا"[30] .وكانت هده من الأسباب التي أدت إلى نكبة ابن الخطيب ، حساده وأعدائه من وزراء وقضاة إلى جانب "الغني بالله" سلطان غرناطة واتفاقه مع السلطان المريني الجديد "أبو العباس" الذي أخد معه ابن الخطيب إلى مدينة طنجة لغزوها وفي هذه الأثناء تم القبض على لسان الدين وأخبروا سلطان ابن الأحمر فأرسل كاتبه

ووزيره إلى المغرب لإحضار ابن الخطيب إلى مجلس الشورى والخاصة. وكما يذكر ابن خلدون وهو الصديق لابن الخطيب الذي كان شاهدا على نكبته حينما اغتيل بطريقة انتقامية بشعة . "أحضر ابن الخطيب و عرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابته، فعضم النكير فيها ، فوبخ ونكل، وأمتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس، ثم ثل إلى محبسه. واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه و أفتى بعض الفقهاء فيه"[31] واتهموه بالإلحاد والزندقة.

وفي هذه الأثناء من محنة ابن الخطيب و تعذيبه بالسجن قام الوزير باستغلال الفرصة "فدس بعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة جاءوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقا في محبسه"[32] ولم يكتفوا فقط باغتياله بهذه الطريقة الماكرة حينما تنكر القتلة على هيئة خدم وسفراء، بل الأكثر من ذلك أنهم "أخرجوا شلوه من يومه ودفن بمقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شافة قبره ضريحا، وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه نارا واسود بشره، فأعيد إلى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته." [33]

إن هذه الطريقة المهينة التي قام بها "سليمان بن داود" جعلت الناس" يعتدونها عليه فعظم النكير عليه وعلى قومه وأهل دولته" ولأنه كان مقربا من سلطان ابن الأحمر، بعدما فعل فعلته، ذهب للإقامة لدى سلطانه إلى أن هلك هناك.

أما لسان الدين ابن الخطيب فكان بتوقع قرب أجله وهو في محبسه "فتجيش هواتفه لشعر يبكي نفسه ومما قال في ذلك:

بَعُدْناَ وإنْ جَاوَرَتْنَا البُيُوتْ — وَجِئْنَا بِوَعْظٍ ونحنُ صُموتْ
وَأنفَاسُنَا سَكَتَتْ دَفْعَةً — كَجَهْرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنُوتْ
وَكُنّا عِظَامًا فَصِرْنا عِظاماً — وكُنّا نَقوتُ فهَا نَحْنُ قُوتْ
وكُنّا شموس سماء العلى — غَربنَ فناحَتْ عليها البُيوتْ
فَكمْ جَدّلتْ ذا الحُسام الظّبيَ — وذَا البَختِ كَمْ خَذَلَتْهُ البُخوتْ

وكم سِيقَ للقبْرِ فِي خِرقةٍ فتىً مُلئَتْ من كَسَاهُ التخوتْ
فقل للعِدا ذهَبَ ابن الخَطيبِ وفاتَ ومن ذا الذّي لا يفُوتْ
فمن كَان يفرحُ منكم له فقُل يفْرح اليومَ من لا يموتْ.[34]

4. خاتمة:

خلاصة القول، يبقى الاغتيال السياسي ظاهرة خطيرة ومرعبة ومأساة حقيقية في صراع الإنسان "لامتلاك القوة"[35] تلجأ إليه الأطراف الضعيفة والمتعصبة التي تقوم بتدمير الحياة في سبيل الموت. ولعل أبرز مثال لذلك هو نهاية لسان الدين بن الخطيب الأديب والعالم الذي راح ضحية المؤامرة السياسية، فبعد ما عاشه من مجد وشهرة كونه العالم والكاتب والوزير الذي عاش في كنف القصور والملوك، الى المنفى والهروب ثم إلى اغتياله في النهاية.

يتضح أن ظاهرة الاغتيالات السياسية انتشرت بشكل كبير في دول العصر الوسيط فتارة استهدفت تصفية المعارضين والمشككين، وتارة استهدفت تصفية العلماء من مفكرين كتاب وفلاسفة كما تعددت أسبابها، إما بدافع الرغبة في التحكم بالدولة وشؤونها، وغريزة حب امتلاك السلطة والقوة والسيطرة الكاملة في العقل البشري[36]. والتي تكون لها نتائج وخيمة تؤدي إلى قيام حروب، أو تدفع إلى ارتكاب أبشع الجرائم المتمثلة في الاغتيال. أو بسبب الاستحواذ على ولايات المنافسين، أو رغبة في قلب نظام سياسي، أو بسبب الانتقام والثأر والغيرة والحسد التي قادت إلى تبادل التهم وتدبير المكائد، وأحيانا أخرى بدافع اقتصادي لكن يبقى الدافع السياسي أهم عوامل الاغتيال.

كما لم تسلم منه أي من الطبقات الاجتماعية فاتخذ تارة شكلا فرديا، وتارة أخرى أشكالا جماعية، أما المغتالون السياسيون في الفترة المدروسة فهم طبقات وأصناف نجد منها:

الطبقة الحاكمة بمن فيهم الخلفاء، الأمراء والولاة، إلى جانب أصحاب المناصب السياسية: كالوزراء والحجاب، والقادة، بصفتهم يتقلدون المناصب العليا في الدولة.

ونجد في الصنف الثاني أصحاب المناصب الإدارية: كالقضاة وولاة المدن.

أما الصنف الثالث: فهم المعارضون للسلطة الحاكمة وهم أصحاب الأفكار المعارضة من ضمنهم العلماء، الفقهاء والفلاسفة والمتصوفة، بالإضافة إلى الخارجين عن طاعة الدولة.

ومع تأزم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كانت تظهر العديد من الثورات المعارضة لدول الحاكمة، وقد مورس الاغتيال في مجتمع العصر الوسيط في حق المقربين إما الإخوة أو الأبناء... وبأشكال وأساليب متنوعة، إما خنقا كما حدث مع ابن الخطيب أو عن طريق التسميم او بالطعن... كما تختلف الوسائل من عصر إلى أخر.

5. قائمة المراجع:

- ابن خلدون : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السادس والسابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر.1431هـ- 2000م.
- لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ/ 2002م.
- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1،تحقيق عنان محمد عبد الله، ط2، حققه ووضع مقدمته و حواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م.
- أحمد محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق ذ راجان عباس،ج5، دار صادر بيروت1408هـ/1988م.
- أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، تحقيق ذ.محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1396هـ/1976م.
- هاني الخير، أهم وأشهر الاغتيالات السياسية في العالم، دار أسامة للطبع، 1985.
- عصام عبد الفتاح، أهم وأشهر الاغتيالات السياسية في التاريخ، دار الكنوز للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2012.

- عبد اللطيف الحناشي، السلطة والعنف في التاريخ الإسلامي، الدولة الأموية أنموذجا، مؤسسة دراسات و أبحاث ، الرباط، دت.
- عبد الهادي التازي، الموجز في العلاقات الدولية للمملكة المغربية، المغرب، 1980.
- عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين وبداية دولة الموحدين، ط2، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة 1441هـ/1990م.
- سيغموند فرويد، أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1977.
- يوسف علي الطويل ،مجلة صور الجديدة،2011.
- عبد الله كانون، نصوص وتاريخ ومناقب، مجلة مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، العدد2، جانفي 2016.

6.الهوامش:

---

1 VOLTAIRE: toleration and other essays. Translated, with introduction, by JOSEPH McCabe. Publisher New York and London, G.P. Putnam's sons, 1912.

2 IMMANUEL KANT: Perpetual Peace, translated with introduction and notes by M,CAMPBEL SMITH, M.A. London: GEORGE ALLEN & UNIWIN LTD. RUSKIN HOUSE. New York: the Macmillan company.

3 سيغموند فرويد، أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1977، ص10.

4 هاني الخير، أهم وأشهر الاغتيالات السياسية في العالم، دار أسامة للطبع، 1985، ص. 13 .

5 عصام عبد الفتاح، أهم وأشهر الاغتيالات السياسية في التاريخ، دار الكنوز للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2012، ص8.

6 عبد اللطيف الحناشي، السلطة والعنف في التاريخ الإسلامي، الدولة الأموية أنموذجا، مؤسسة دراسات و أبحاث ، الرباط، دت،ص.11.

7 ابن خلدون ، العبر، مج13، ج7،ص689./ لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423ه/ 2002م، ص 14.

8 احمد محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق ذ راجان عباس ، ج5، دار صادر بيروت1408ه/1988م، ص7.

9 يوسف علي الطويل ،مجلة صور الجديدة، ع1,2011،ص37.

10 ابن خلدون، العبر، مج13، ج7، ص690.

11 عبد الله كانون، نصوص وتاريخ ومناقب، مجلة مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، العدد2، جانفي 2016.

12 ابن خلدون، نفسه.

13 ابن خلدون، العبر،مج13،ج7، ص 690.

14 ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص14.

15 أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، تحقيق ذ.محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1396ه/1976م ص129.

16 ابن الخطيب، نفسه، ص27.

17 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1،تحقيق عنان محمد عبد الله، ط2،ص23.

18 انظر: ابن الخطيب، معيار الاختبار، ص15.

19 نفسه، ص16.

20 ابن خلدون، العبر، مج13، ج7، ص696.

21 نفسه.

22 نفسه،ص697.

23 نفسه.

24 احمد محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق ذ راجان عباس،ج5، دار صادر بيروت1408ه/1988م ص 105.

25 محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين وبداية دولة الموحدين، ط2، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة 1441ه/1990م ص78.

26 محمد عبد الله عنان، م س،ص104.

27 نفسه، ص105.

28 نفسه ،ص 478.

29 عبد الهادي التازي، الموجز في العلاقات الدولية للمملكة المغربية، المغرب، 1980، ص95. ابن خلدون، العبر، مج13، ج7، ص708.

30 ابن خلدون، العبر، مج13، ج7، ص708.

32 ابن خلدون، نفسه، ص708.

33 ابنٍ خلدون، نفسه، ص708-709.

34 ابن خلدون،العبر،مج13، ج7،ص709-710. المقري، نفح الطيب، ج5، ص111.

35 سيغموند فرويد، أفكار لأزمنة الحرب والموت"، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1977، ص10.

التطور التاريخي لتقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان

Historical development of teacher performance evaluation in the Sultanate of Oman

موزة بنت علي بن عبيد الشيادية(*)

سلطنة عُمَان/ مسقط/ جامعة السلطان قابوس

MOZN77MOZN@GMAIL.COM

سالم بن سليم الغنبوصي

سلطنة عُمَان/ مسقط/ جامعة السلطان قابوس

ghnbousi@squ.edu.om

عائشة بنت سالم الحارثية

سلطنة عُمَان/ مسقط/ جامعة السلطان قابوس

asa@squ.edu.om

تاريخ الاستلام: 2021/02/15 **تاريخ القبول**: 2021/04/25 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

في هذه الدراسة تَتَبَّعَ الفريق البحثي التطور التاريخي لنظام تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان، حيث انطلقت أهمية هذه الدراسة من الحاجة الملحة لمعرفة الأسس التي بُنِيَت عليها المعايير والسياسات الحديثة في تنمية الموارد البشرية، خاصَّةً المعلم في سلطنة عُمَان؛ بهدف الحصول على صورة واضحة. ومن خلالها؛ أوصت الدراسة ببناء وتطوير النُّظُم الحالية التي تعتمدها وزارة التربية والتعليم العُمَانية في تطوير أداء المعلم.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الوثائق المتاحة بشأن تطوُّر نظام تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان، كما أنها نفَّذت مجموعة من المقابلات التي استهدفت بها مجموعة مِمَّنْ عملوا في مهنة التعليم في السَّلطنة منذ عام 1970 إلى وقتنا الحالي. قُسِّمَتْ هذه الدراسة إلى محورين رئيسين؛ الأول: تناول تنامي الاهتمام بالتعليم، والمعلم منذ بداية النهضة في سلطنة عُمَان، والآخر: تناول فترات تطوُّر تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان.

الكلمات الدالة: التطور التاريخي – تقييم أداء المعلم – سلطنة عُمَان.

Abstract:

In this study, the research team traced the development of the teacher performance evaluation system in the Sultanate of Oman, where the importance of this study stemmed from the urgent need to know the foundations on which modern standards and policies were built in the development of human resources, especially the teacher in the Sultanate of Oman, in order to obtain a clear picture. And through it, it recommended building and developing the current systems that are approved by the Omani Ministry of Education in developing teacher performance.

To achieve this, the research team worked on studying the available documents on developing the teacher performance evaluation system in the Sultanate of Oman. It also carried out a set of interviews targeting a group of those who worked in the teaching profession in the Sultanate of Oman from 1970 to the present time.

This study was divided into two main axes. The first dealt with the growing interest in education and the teacher since the beginning of the renaissance in the Sultanate of Oman, and the other was the periods of development in evaluating teacher performance in the Sultanate of Oman.

Keywords: The Historical Development -Teacher performance evaluation – Sultanate of Oman.

1. مقدمة:

يُعَدُّ تقييم الأداء عنصراً أساساً تُعَوِّل عليه المؤسسات من أجل ضمان جودة منتجاتها أو خدماتها، وضمان ديمومة واستمرارية العمل فيها، حيث إن أبسط مقومات العدالة في مؤسسات العمل أن يحظى منتسبوها بأحكام عادلة لِمَا يقدمونه من أعمال، وهذا من شأنه أن يُكسِب الأفراد الكثير من الرضا والشعور بالانتماء لها.

لذلك احتلَّ تقييم عمل المعلم مكانته بين قائمة موضوعات البحوث والدراسات التربوية، "فالمعلم يمثِّل الدعامة الأساسية التي يُؤَسِّس عليها النُّمُوَّ المتكامل لدى الناشئة في أَيِّ مجتمع من المجتمعات، لأن مهمة المعلم لا تقتصر فقط على تلقين المادة العلمية باستخدام عدد من الأساليب والأنشطة التعليمية؛ إنَّمَا تتعدى ذلك أن يكون قادراً على متابعة تعلُّم التلاميذ ونُمُوِّهم".[1]

وقد تطورت الطرائق والمعايير التي اسْتُخْدِمَت على مَرِّ العصور لتقييم أداء المعلم، لاسيَّما أن هذا التطور جاء نتيجة التجربة والمحاولة؛ لِلتَّوَصُّل إلى نظام عادل من خلاله يستطيع المعلم الحصول على الفرص الأفضل من نواحٍ عِدَّة، كالأجور والترقِّي.

التساؤلات:

السؤال الرئيس: ما التطور التاريخي لتقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان، منذ عام 1970 حتى وقتنا الحالي – 2021؟

الإجابة عنه تتم من خلال السؤالين التاليين:

1– ما مدى تنامي الاهتمام بالتعليم والمعلم في سلطنة عُمَان منذ 1970م؟

2– ما التطوُّر الذي حدث لمنظومة تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان منذ 1970م؟

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى الكشف عن التطوُّر التاريخي لتقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان منذ عام 1970م حتى وقتنا الحالي، ويعود اختيار هذا الموضوع بالذات؛ لمعرفة ما لم يكن معروفاً من قبل، المتعلق بفترة تاريخية مهمة تُعَدُّ أساس النهضة الحديثة في سلطنة عُمَان.

كما أن أهمية هذه الدراسة تكمُن في الكَمِّ الذي قد تضيفه من معلومات، لأن الكتابة في العادة عن التطوُّرات التاريخية لبعض النُّظُم في سلطنة عُمَان يكتنفها بعض الغموض؛ لندرة الوثائق، وتواضع عدد الباحثين فيه.

كما أنها سوف تكشف لنا معلومات مهمة، ليست فقط للمهتمين بتطوير أداء المعلم وتعديل السياسات المتعلقة به؛ إنَّما أيضاً ستضع لنا تصوُّراً عن الأوضاع الاجتماعية، والمادية، والثقافية التي تحيط بتلك المِدَد.

ومن خلال مناقشة المحورين الرئيسين: تنامي الاهتمام بالتعليم والمعلم منذ بداية النهضة في سلطنة عُمَان، وفترات تطور تقييم أداء المعلم فيها؛ تم تَتَبُّع تطوُّر تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان.

المنهجية:

اعتمدت الدراسة على تحليل المصادر المذكورة في الوثائق؛ حيث تم تحليل الاستمارات التي تم العثور عليها، والتي كانت تُسْتَخْدَم لتقييم أداء المعلم خلال الحقبة من 1970م إلى الآن، كذلك تم تحليل دليل الإشراف التربوي باعتباره وثيقة مهمة؛ من خلالها تم التعرُّف إلى تطوُّر الإشراف التربوي الذي ارتبط بتقييم أداء المعلم بشكل مباشر.

1. المحور الأول: تنامي الاهتمام بالتعليم والمعلم في سلطنة عُمَان:

يتمتَّع المواطن العُمَاني بحقوق المواطنة التي يتمتع بها كل مواطني دول العالم المختلفة، ومن أهم الحقوق وأبرزها حَقُّ المواطن العُمَاني في التعليم، أُسْوَةً بغيره في دول العالم، وضُمِّنَ هذا الحقُّ بشكل واضح صريح في الكتاب الأبيض، الذي صدر بموجب المرسوم السُّلطاني 101/ 1996؛ حيث جاء في المادة (13) المبادئ المتعلقة بالتعليم، وتتمثل في:[2]

- التعليم ركن أساس لتقدُّم المجتمع؛ ترعاه الدولة، وتسعى لنشره وتعميمه.
- يهدف التعليم إلى رفع المستوى الثقافي العام، وتطويره وتنمية التفكير العلمي، وإذكاء روح البحث، وتلبية متطلبات الخطط الاقتصادية والاجتماعية، وإيجاد جيل قوي في بنيته وأخلاقه، يعتز بأمته ووطنه وتراثه، ويحافظ على منجزاته.
- توفِّر الدولة التعليم العام، وتعمل على مكافحة الأمية وتشجع على إنشاء المدارس والمعاهد الخاصة بإشراف من الدولة، ووفقاً لأحكام القانون.[3]

- تُخَصِّص الدولة ميزانيات ليست بالقليلة للإنفاق على التعليم، ما يعكس إيمانها الكبير بأهمية التعليم، والسعي حثيثاً من أجل إكساب الجميع حق التعليم وتمكينهم منه، وتشير الكتب الإحصائية السنوية الصادرة من وزارة التربية والتعليم؛ إلى أن حجم الإنفاق تنامَى بشكل مطَّرد من بداية عهد النهضة إلى يومنا هذا، حيث بلغ حجم الإنفاق على التعليم في عام 1998م؛ ما يعادل 11,9% من إيرادات الدولة، ثم تطوَّرَ ليصل إلى 13,3% من إيرادات الدولة في عام 2000م، تَبِعَهُ ارتفاع واضح في عام 2005م ليصل إلى 14,3% من إيرادات الدولة، ثم في عام 2015م؛ ارتفعت موازنة الإنفاق على التعليم لتصبح 22.8% من إيرادات الدولة، وعلى الرغم من الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي يمرُّ بها العالم أجمع؛ إلَّا أن حجم الإنفاق على التعليم لم يتغير كثيراً في عام 2020م، حيث كانت موازنة وزارة التربية والتعليم تشكِّل 21,3% من الإيرادات العامة للدولة.[4]

الاستراتيجية طويلة المدى الثانية (1996 – 2020):

اعتمدت السلطنة في الأول من يناير لعام 1996م، وبمقتضى المرسوم السُّلطاني رقم (1996/1)؛ استراتيجية تنموية طويلة المدى الثانية للمدة من 1996م حتى 2020م، سُمِّيَت " الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني 2020م".[5]

هدفت هذه الاستراتيجية إلى: توفير الخدمات الصحية والتعليمية، وتطويرها، وتدريب المواطنين العُمَانيين، وتنمية مهاراتهم، وانتهاج سياسات تهدف إلى تعزيز المستوى المعيشي للمواطن، والسعي إلى إحداث تغييرات هيكلية في الاقتصاد الوطني بغرض تنويع قاعدته الإنتاجية، وتعزيز دور القطاع الخاص في الاقتصاد الوطني وتنمية الموارد البشرية، وكان من أبرز محاورها: محور تنمية الموارد البشرية وتطوير قدرات ومهارات العُمَانيين؛ لمواكبة التطوُّر التقني وإدارة المتغيِّرات التي تحدث فيه بكفاءة عالية، ومواجهة الظروف المحلية والعالمية المتغيِّرة باستمرار في سوق العمل.

ولقد أولت الخطط الخمسية المنفِّذة لأهداف استراتيجية الاقتصاد العُمَاني 2020م أهمية خاصة لتنمية المورد البشري، من خلال توفير الموارد اللازمة للبدء في تنفيذ التوجُّهات المعتمَدة، ورفع نسبة مشاركة الكفاءات البشرية الوطنية في سوق العمل؛ باعتماد مجموعة من السياسات والبرامج لتحقيق هذا الهدف، وكان من أبرز تلك السياسات هي سياسات التعليم.

السياسات التعليمية التي اتُّبِعَتْ لتحقيق أهداف الاستراتيجية:

في إطار خطة تنمية الموارد البشرية ومحاورها وأهدافها؛ طرحت الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني 2020م، ثلاثة بدائل من السياسات التي يمكن اتِّبَاعها لتحقيق أهداف التعليم، استقرَّ الأمر بعدها على الأخذ بالبديل الأول؛ القاضي بإدخال التعليم الأساسي القائم على تعليم أساسي مُدَّتُهُ عشر سنوات، وتعليم ما بعد الأساسي مُدَّتُهُ سنتان؛ لتحقيق نوعية الكفاءة البشرية المطلوبة، وكان ذلك على أساس السياسات التعليمية المقَرَّة، منها التالية:

– توفير المعلمين والموجهين (المشرفين التربويين حاليّاً) وأمناء المختبرات والمكتبات والأخصائيين الاجتماعيين بالقدر المطلوب.

– تحسين أوضاع المعلمين؛ حتى تتمكن الوزارة من استقطاب الكفاءات ذات الإجادة.

– بذل الجهود لتدريب العاملين في المجال التربوي أثناء الخدمة؛ للنهوض بمستوى الأداء التربوي، والارتقاء بالكفايات المهنية لهم من خلال الدورات المختلفة، والورش والمشاغل المتعددة.

النظام التعليمي القائم على تلك السياسات:

باشرت وزارة التربية والتعليم بتفعيل السياسات التعليمية التي أُقِرَّت في الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني 2020م وخطة تنمية الموارد البشرية، ولقد اعتمدت خطة التَّحَوُّل على جملة من المرتكزات التي ينبغي أن يقوم عليها النظام التعليمي؛ منها:

التعليم، وفق الظروف التي يُوجدها الاقتصاد العالمي والمحلِّي الحديث، وبذلك فإن المخرجات يجب أن تتَّسم بقدرات عالية من التكيُّف، وخلفية قوية من المعارف والمهارات والاتجاهات الإيجابية.

– الاهتمام بالمعلمين؛ برفع مستويات تأهيل كافة المعلمين العُمَانيين إلى مستوى المؤهّل الجامعي الأول، وتحديد أعبائهم التدريسية لتصل إلى (25 – 30) حصة أسبوعية من أصل (40) حصة؛ على أن يرافق كل ذلك برامج تدريب نوعية أثناء الخدمة.

أثر السياسات التعليمية على تنمية الموارد البشرية في هذه الاستراتيجية:

– أعداد المعلمين: تزايدت أعداد المعلمين (عُمَاني/ وافد) من (26509) معلِّمين ومعلِّمةً عام 2000م إلى (55343) معلِّماً ومعلِّمةً عام 2013م.[6]

– تطوير برامج تدريب المعلمين: تزايدت أعداد البرامج التدريبية وأعداد المستهدفين بها من المعلمين والفئات الأخرى أثناء الخدمة خلال الأعوام الدراسية من 97/1998م حتى 2012م.[7]

ثانياً: الاستراتيجية طويلة المدى الثالثة (2020 – 2040):

اعتمدت السلطنة في 2018 استراتيجية تنمية طويلة المدى الثالثة للفترة من 2020م حتى 2040م سُمِّيَتْ بـ «رؤية عُمَان2040م».[8] وقد قامت الرؤية على ثلاثة محاور رئيسة: مجتمعٌ إنسانُهُ مُبْدِعٌ، واقتصادٌ بُنْيَتُهُ تنافسيَّةٌ، ودولةٌ أجهزتُها مسؤولةٌ، كما كان من أول أَوَّلِيَّات الرؤية التعليم، والتعلُّم، والبحث العلمي، والقدرات الوطنية، حيث إن أهمَّ توجُّه استراتيجي لهذه الأَوَّلية قائم على تعليم شامل، وتعلُّم مستدام، وبحث علمي يقود إلى مجتمع معرفي، وقدرات وطنية منافِسة، كما أن من أهم أهداف الرؤية فيما يتعلق بالتعليم؛ كفاءات مهنية ذات قدرات ديناميكية منافِسة محلِّيّاً وعالميّاً؛[9] وبالطبع هذه الكفاءات لن تأتي إلَّا بالعمل على رفع مستويات العمليات الأساسية التي تبني المعلم، ابتداءً من الإعداد، فالتدريب، ثم التقييم والتوجيه نحو الأفضل، وقد سَلَّطَ الضوء على تقييم أداء المعلم من أجل التطوير، وتحقيق أهداف تلك الاستراتيجيات؛ بما يتوافق وتلك الرؤى الاستراتيجية.

2. المحور الثاني: مُدَدُ تطوُّر تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان

يتناول هذا الجزء من الدراسة التطوُّر في تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان، الذي رافق التطوُّر المطَّرد في السلطنة على جميع المستويات، خلال المدة من 1970م إلى وقتنا الحالي. وقد عملت الدراسة على البحث عن الوثائق التي تظهر مراحل هذه المدة بصورة واضحة، ولكنْ كانت هنالك بعض التحديات التي واجهتنا في الحصول على كل الوثائق المؤرَّخة لتلك المدة؛ منها: انتقال مبنى وزارة التربية والتعليم إلى أكثر من مكان، وتعرُّض السلطنة للأنواء المناخية الاستثنائية[10] الذي أَفْقَدَ وزارة التربية والتعليم بالسَّلطنة الكثير من الوثائق التي كان يمكن أن يُعْتَدَّ بها في هذه الدراسة؛ من أجل توضيح مراحل تطوُّر تقييم أداء المعلمين في المدارس العُمَانية. إلَّا أنه بالرجوع إلى دليل الإشراف التربوي في نسخته الأخيرة بهدف الحصول على بعض المعلومات؛ أَثْرَتِ المعلومات المستقاة منه البحث بشكل أفضل. حيث لوحظ أن دليل الإشراف التربوي قَسَّمَ مراحل الإشراف التربوي التي مَرَّ بها الإشراف، ومتابعة أداء المعلم إلى ثلاث مُدَد سارت على النحو التالي: المدة الأولى (1971 – 1985)، ثم المدة الثانية (1986–1995)، ثم المدة الثالثة (1997–حتى الآن).[11]

ولذلك تَعْتَدُّ الدراسة بهذه المِدَد المؤرَّخة؛ لمناقشة تطوُّر تقييم أداء المعلم خلالها، بمناقشة وتحليل بعض طرائق التقييم الواردة ضمن تلك المِدَد، والاستمارات التي كانت تُسْتَخْدَم في تقييم

أداء المعلم، والأشخاص الذين كانت تُوْكَل إليهم عملية التقييم، فضلاً عن معرفة المؤثرات التي كان تستدعي التركيز على معايير ما، وحذف معايير أخرى؛ في كل مرحلة من تلك المراحل، وقد تم إجراء مقابلات فردية لبعض الأشخاص مِمَّنْ عملوا في مهنة التعليم في المدة الأولى من عام 1970إلى عام 1985م؛ وذلك لندرة الوثائق التي يمكن العودة لها كما ذكرنا مُسَبَّقاً.

المدة الأولى من 1970 إلى 1985م

بدأت منذ انطلاق النهضة المباركة، حيث كان في عام1970م ثلاث مدارس فقط، من ضمنها المدرسة السعيدية بمطرح، وقد أَجْرَتِ الدراسة الحالية مقابلة مع الأستاذ حاجي عثمان البلوشي[12]؛ حيث أُلْحِقَ بالهيئة التدريسية في المدرسة السعيدية بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة من دولة الكويت. عمل بعدها بمدرسة الوليد بن عبد الملك خلال العام الدراسي 1976/ 1977م.

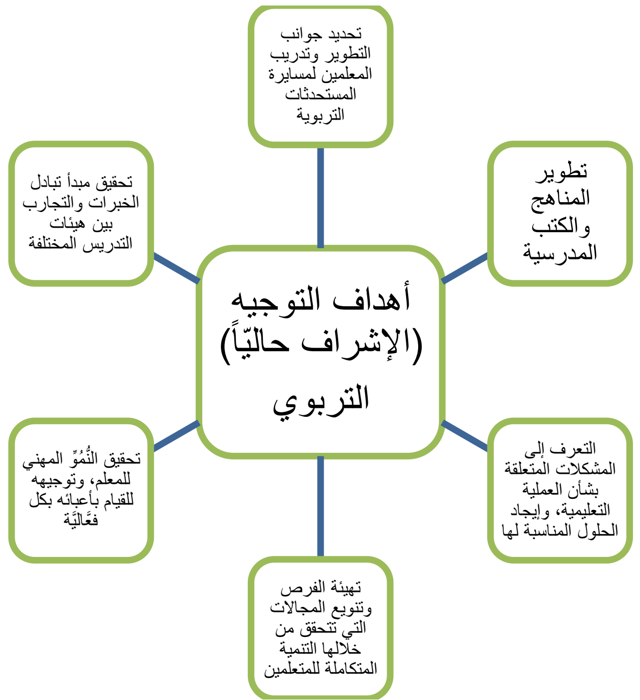
عمل الأستاذ حاجي عثمان معلِّماً لمواد (الرسم، والحساب، والعلوم)، وقد أوضح أنه لم تكن هناك متابعة لتقييم أداء المعلم؛ لا الختامي ولا في التقييم البنائي، قائلا: إن تجديد عقد المعلم يتم كل عام على معيار واحد فقط؛ هو إنهاؤُهُ للمنهاج الذي كُلِّفَ بتدريسه.

ذكر الأستاذ حاجي عثمان أن الوضع أخذ منحنًى آخر بعد عام 1975م؛ فأصبح هناك زيارة صفية يقوم بها مدير المدرسة بين المدة والأخرى، دون استخدام أَيِّ استمارات أو وثائق لرصد أداء المعلم، كما أن مدير المدرسة كان يعتمد على أداة الملاحظة؛ فكان يدوِّن ملحوظات كتابية في دفتر خاص بمتابعة المعلمين، ثم يقوم بتقديم تغذية راجعة للمعلم بشأن سلوكه وممارساته اليومية، دون استخدام وثيقة رسمية لرصد تلك الملحوظات، أو إِطْلَاع المعلم عليها.[13]

وأظهر دليل الإشراف التربوي[14] أيضاً؛ أنه خلال هذه المدة تركزت متابعة المعلمين من خلال الموجِّهين (المشرفين التربويين حاليّاً)، وقد بدأ ذلك فعليّاً عامَ 1972، وذُكِرَ في الدليل أن "هذه الفترة تميزت بمراقبة أداء المعلمين، وتدريب غير المؤهلين منهم على كيفية إعداد الدروس، وتنفيذ المنهج المدرسي، وإعداد الاختبارات؛ وذلك لإنشاء قسم مركزي ضمن الهيكل التنظيمي العام للوزارة (1972)؛ أُوْكِلَتْ إليه مهمة توجيه المعلمين وتدريبهم". وهذا بدوره يعطي مؤشِّراً واضحاً على أن تقييم أداء المعلم لتقويم أدائه قد أخذ منحنًى جديداً؛ تَضَمَّنَ التركيز على تأهيل الموجِّهين (المشرفين التربويين حاليّاً) لتدريب المعلمين في التخطيط والتنفيذ للمناهج، وكذلك إعداد

الاختبارات، وترى الدراسة الحالية -بناءً على هذا التوجُّه الذي ذكره دليل الإشراف- أنه لا بُدَّ أن تقييم الأداء قد وضع استمارات ذات معايير معينة من خلالها يتم فعلاً تقييم الأداء؛ متزامِناً وتطوُّرَ الإشراف التربوي في ذلك الوقت، ولكنْ لعدم الوصول إلى تلك الاستمارات؛ فإنه من الصعب توقُّع أهم المعايير التي اعْتُمِدَت في ذلك الوقت.

إلَّا أن الأمر قد تطوَّرَ قليلاً بعد عام 1980م، حيث ذكر دليل الإشراف التربوي أنه خلال ذلك الوقت "أخذ التوجيه مفهوماً ومنحًى آخر؛ نظراً للاهتمام بتطوير العملية التربوية، وقد تجاوز المفهوم الجديد العلاقة التقليدية الرأسية، وعَزَّزَ التعاون المشترك بين الموجِّه والمعلم"، وقد وُضِعَتْ مجموعة من الأهداف لذلك كما في المخطط التالي:



أهداف التوجيه (الإشراف حاليّاً) التربوي، من دليل الإشراف التربوي، تصميم الباحثة

وعليه، فإننا نستطيع ربط تقييم أداء المعلمين في تلك المدة؛ بممارسات التوجيه (الإشراف) التربوي التي كانت شائعة في ذلك الوقت.

المدة الثانية (1986-1995م):

في هذه المدة بدأ تقييم أداء المعلم يتطوَّر بطريقة اعتمدت على أداتين رئيستين؛ هما: استمارة الملاحظة، واستمارة الزيارة الصفية، وهذا ما ذكره الأستاذ سعيد الهاشمي[15]. إلَّا أنه لو ربطنا

تقييم أداء المعلم بعملية الإشراف التربوي التي كانت تُمَارَس لتقييم أدائه، كما قال المشاركون في المقابلات؛ لوجدنا مديري المدارس والمشرفين التربويين هم مَنْ كان يتابع أداء المعلمين في تلك الحقبة، إلّا أن هذا الأداء لم يكن يُقَيَّم كَمِّيّاً؛ إنَّما رَكَّزَ بشكل كبير على وصف تفاصيل الموقف الصفي (باعتباره تقييماً كيفيّاً)، مع وضع مجموعة من التوصيات التي من شأنها أن تقدِّم تغذية راجعة للمعلم، وقد اعتمدت تلك التقارير مجموعة من المعايير كما تظهر في ملحق (1)؛ هي: الإعداد والتخطيط، التنظيم، إعداد السجلات، متابعة الأعمال التحريرية والواجبات، ثم توجيهات الموجِّه (المشرف التربوي).

وبِتَتَبُّع الدراسة الحالية لهذه التقارير؛ وجدت أنه تم استخدامها حتى قرابة عام 1998م، إلَّا أن هناك موادَّ أخرى قد استخدمت استمارات مختلفة لتقييم المعلمين في ذلك الوقت؛ كما هو الحال في مواد التربية الأسرية التي وضعت بعض المعايير الواضحة لتقييم المعلم في ذلك الوقت كما في ملحق (2)، إلَّا أن مصدر الأنموذج الذي تم استخدامه لتصميم تلك الاستمارة مجهول -على حَدِّ علم الباحثة-لكنه يُعَدُّ أكثر تطوُّراً من التقرير الكتابي؛ الذي كان يُطَبَّق على المواد الأخرى غير التربية الأسرية.

وفيما يتعلق بتلك المدة، أوضح دليل الإشراف التربوي، أنه بصدور القرار الوزاري رقم (1989/25)[16] بشأن التنظيمات الإدارية للمديريات العامة للتربية والتعليم للمحافظات، التي تضمَّنت الهيكل الإداري للتوجيه (الإشراف التربوي حاليّاً)؛ أصبح هذا الأخير ضِمْنَ قسم التعليم العام الذي يُعَدُّ أحد أقسام دائرة الخدمات التعليمية في المحافظات التعليمية، ويقع ضِمْنَ مهامِّه متابعة المعلمين وتقييمهم، وتقويمهم، وتدريبهم.

هنا نستطيع القول: أن خلال هذه المدة بدأ تقييم أداء المعلم بالتطوُّر والتغيُّر وَفْقَ منحنى التوجُّهات العالمية في ذلك الوقت، حيث إن دليل الإشراف التربوي قد ذكر أنه تم "تشكيل لجنة عام 1991م لإعداد مشروع شامل لتطوير برنامج التوجيه (الإشراف حاليّاً) التربوي بالتعاون مع لجنة فنية من منظمة اليونسكو، وتم بناء البرامج المطوَّر في العام الدراسي 1992/91، وفي العام الدراسي التالي له؛ تم تدريب أول دفعة على نمط البرنامج المطوَّر، وفي العام الدراسي 1993/92، أصدرت الوزارة دليلاً للتوجيه (الإشراف حاليّاً) التربوي، مُبَيِّناً مفهوم التوجيه (الإشراف حاليّاً) وأساليبه في صورته الحديثة، وتقنين عملية تقويم أداء المعلمين بهدف تحقيق النُّمُوِّ المهني للمعلم".

المدة الثالثة (1997–2020)

شهدت هذه المدة تغيُّرات متتالية تتعلق بتطوُّر تقييم أداء المعلم، وتزامن ذلك مع صدور الهيكل التنظيمي للوزارة عام (1997) وفق القرار الوزاري رقم 1997/62،[17] وكان الهدف من ذلك كما ذكره دليل الإشراف التربوي "إعادة تنظيم أقسام الوزارة؛ لتنفيذ خطط التطوير الشامل للتربية المنبثقة عن الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني (2020)، الذي شمل إحداث تغيير في مُسَمَّى دائرة الخدمات التعليمية بالمديرية العامة للتربية والتعليم بالمحافظات التعليمية لتصبح دائرة الإشراف التربوي بدلاً من قسم التوجيه والإشراف التربوي، وبما يتوافق مع توجُّهات الوزارة لتطبيق نظام التعليم الأساسي الذي بدأ في العام الدراسي 1999/98م.

وبدأ في هذه المدة إصدار استمارات جديدة لتقييم أداء المعلم، وما تميزت به هذه المدة من التقييم، حيث كان تقييم أداء المعلم مُقَسَّماً بين المشرف التربوي، ومدير المدرسة من خلال استمارتين منفصلتين؛ فكانت استمارة المشرف التربوي تحتوي على بنود تتعلق بأداء المعلم التدريسي، وترتبط بأدائه داخل الغرفة الصفية، كما أنها ركزت على ثلاثة محاور هي: التخطيط للموقف التعليمي، وتنفيذ الموقف التعليمي، ثم النقاش بين المشرف والمعلم، واحتوت هذه الاستمارة في جزيئاتها على بنود تقييمية مفصَّلة، إلَّا أنه من المجهول؛ على أَيِّ أنموذج علمي اعتمدت وزارة التربية والتعليم في تصميم هذه الاستمارة. وبالمقابلات مع بعض المشرفين التربويين الأوائل من الخبرات؛ أوضحوا أنهم لا يعلمون مَنْ صَمَّمَ هذه الاستمارة! انظر ملحق (3).

أَمَّا الاستمارة المخصَّصة لمدير المدرسة فعنوانها "استمارة متابعة مدير للمعلم داخل وخارج الصف"، واحتوت على أربعة محاور هي: التخطيط للدرس والنشاطات التعليمية التعلُّمية، وشخصية المعلم في المحور الثالث، والمتابعة والرجع الميداني في المحور الرابع؛ كما في الاستمارة السابقة، وبمقابلة اثنين من المشرفين التربويين الأوائل من الخبرات قالوا: أنهم لا يعلمون مَنْ صَمَّمَ هذه الاستمارة أيضاً! انظر ملحق (4).

ومع بداية العام الدراسي 2021/2020م اعتمدت وزارة التربية والتعليم نظاماً واضحاً لتقييم أداء المعلم؛ حيث انقسمت ممارسات تقييم أداء المعلمين إلى قسمين: التقييم البنائي الذي يعتمد على الزيارات الصفية التي يقوم بها كُلٌّ من: المشرف التربوي والمعلم الأول ومدير المدرسة أو مساعد المدير، وتقوم على أساس تقييم الموقف الصفي، والتقييم الختامي؛ الذي من خلاله يتم

وضع تقييم سنوي للمعلم، ويشترك فيه كُلٌّ من: مدير المدرسة والمشرف التربوي، ويمكن عرضها مفصَّلة في التالي:

- **التقييم البنائي:**

يتم التقييم البنائي بشكل دوري، حيث تتم زيارة المعلم في الغرفة الصفية بشكل منتظم، لكلٍّ من: مدير المدرسة، والمشرف التربوي، والمعلم الأول؛ يقومون بزيارة المعلم وفق سنوات الخبرة له بناءً على المخاطبة (15188091/ 2020) من مدير دائرة تنمية الموارد البشرية، التي عَدَّلَتْ عدد زيارات المقيِّمين للمعلم وَفْقَ التالي:

- تتم زيارة المعلمين حديثي التعيين (1-3) سنوات، بعدد ثلاث زيارات إشرافية خلال الفصل الدراسي الواحد، كذلك الحال بالنسبة للمعلمين الذين سُجِّلَتْ عليهم ملحوظات مكرورة في ممارساتهم التدريسية؛ صرفاً بالنظر عن سنوات خبرتهم.
- القيام بزيارتين إشرافيتين هي الحَدُّ الأدنى خلال الفصل الدراسي الواحد للمعلمين الذين يدرِّسون الصفوف ذات التحصيل الدراسي المنخفض في موادِّهِم (نسبة د + هـ 40% فأكثر).
- زيارتان إشرافيتان هي الحَدُّ الأدنى خلال الفصل الدراسي الواحد للمعلمين ذوي الخبرة (4-6) سنوات خبرة دراسية.
- ثلاث زيارات إشرافية هي الحَدُّ الأدنى خلال العام الدراسي الواحد؛ للمعلمين ذوي الخبرة (7-15) سنة خبرة تدريسية.
- زيارة إشرافية واحدة فقط خلال الفصل الدراسي الواحد للمعلمين ذوي الخبرة (أكثر من 15 سنة خبرة تدريسية).
- وفي كل زيارة من هذه الزيارات لا بُدَّ من تحرير استمارة تُسَمَّى استمارة متابعة وتقويم أداء أعضاء الهيئات التدريسية والإدارية والإشرافية؛ يتم من خلالها تقييم أداء المعلم، صادرة من دائرة تطوير الأداء المدرسي بوزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان (2011/ 2012) بطبعتها التجريبية؛ التي تشتمل على (استمارة الزيارة الإشرافية، واستمارة الزيارة الاستطلاعية، والتقرير الفني السنوي)، وجميعها استمارات يتم من خلالها تقييم أداء

المعلم، وهي الأدوات الوحيدة التي يتم من خلالها رصد أدائه، كما أن جميعها تقيس الجانب الفني له، وتتدرَّج صعوداً من(12) معياراً في بعض المواد كاستمارة زيارة معلم مجال أول، إلى (17) معياراً في موادَّ منها: الفنون التشكيلية، والمهارات الحياتية، والمهارات الموسيقية؛ التي يُقَاسُ من خلالها الموقف الصفي أثناء أداء المعلم للحصة.

وأهمُّ هذه البنود –المعايير- المشتركة بين جميع الاستمارات هي: إعداد الخطة السنوية/ يومية متكاملة وفاعلة، والتسلسل المنطقي للموقف التعليمي، واستخدام لغة عربية سليمة، وإثارة دافعية الطلبة للتعلُّم، وفاعلية الإدارة الصفية، وفاعلية استراتيجيات التدريس، وتوظيف مصادر التعلُّم والمختبرات وتقنيات التعليم، وإكساب الطلبة المعارف والمهارات وتوظيفها، وتوجيه الطلبة للتعلُّم الذاتي، وتنمية الاتجاهات الإيجابية والقِيَم، والتنوُّع في طرح الأسئلة، وتوظيف نتائج أدوات التقويم في تطوير أداء الطلبة، ورفع تحصيلهم الدراسي، وتنفيذ خطط إثرائية وعلاجية فاعلة للطلبة، وتقويم المعلم لأدائه ذاتيّاً، وتوظيف أدوات التقويم المناسبة وتوثيقها، وقد تزيد أو تنقص هذه المعايير في بعض المواد، أو تبعاً لنوع المدارس أو بعض الصفوف؛ كصفوف الدمج الفكري، والسمعي، والبصري، لظروف تلك الصفوف وخصوصية التعليم بها.

وهي سِتُّ استمارات مقسَّمة على جميع المواد التي يتم تدريسها: استمارات زيارة إشرافية لمعلم مجال/ مادة، واستمارة زيارة إشرافية لمعلم لغة إنجليزية، واستمارة زيارة إشرافية لمعلمي المهارات الفردية (رياضة مدرسية/ فنون تشكيلية/ مهارات موسيقية)، واستمارة زيارة إشرافية لمعلم التربية الخاصة (إعاقة سمعية/ إعاقة ذهنية/ إعاقة بصرية)، واستمارة زيارة إشرافية لمعلم صعوبات التعلُّم، واستمارة زيارة إشرافية لمعلم مادة تقنية المعلومات (1-4).

- **التقييم الختامي للمعلمين:**

يجرى التقويم الختامي للموظفين عادة بشكل دوري سنوي، هدفه الأساس المحاسبية، ويرتبط هذا التقييم بالترقيات والنقل، وإنهاء الخدمات أحياناً، كما أنه يرتبط بأمور مالية؛ كتعديل الرواتب[18]. ولتقييم أداء المعلم في المدارس العُمَانية؛ فإنه يتم تطبيق أنموذج خاص بالمعلمين باعتبارهم موظفين منتسبين لوزارة الخدمة المدنية، وهو أنموذج تقويم

الأداء الوظيفي لشاغلي وظيفة معلم بالهيئة التدريسية، الذي تم اعتماده في العام الدراسي 2016/ 2017م ويُسْتَخْدَم إلى الآن،[19] ويحتوي على ثلاثة أجزاء؛ الجزء الأول يشتمل على البيانات الأساسية، أمَّا الجزء الثاني فيحتوي على جدول يتكون من 15 معياراً، لها مجموع نهائي 100 درجة، وتتوزع تقديرات المعلم في خمسة مستويات: ممتاز من 90 إلى 100، ثم جيد جِدّاً من 80 إلى أقل من 90، ثم تقدير جيد من 70 إلى أقل من 80، ثم متوسط من 55 إلى أقل من 70، ثم تقدير ضعيف وهو الحاصل على أقل من 55 درجة؛ يقوم بتعبئة هذا الجدول حسب الوثيقة كُلٌّ من: مدير المدرسة، أو مساعد مدير المدرسة، والمعلم الأول أو مشرف المجال/ المادة (في حال عدم وجود معلم أول في المدرسة)، والجزء الثالث يتكون من ملحوظات يضعها الرئيس الأعلى بشأن المعلم يَتْبَعُها اسم الرئيس.

3. النتائج:

مِمَّا سبق، ترى الدراسة الحالية أن تقييم أداء المعلم في المدارس العُمَانية؛ يمكن أن يلخَّص بصورة دقيقة في النقاط التالية:

- تَطَوَّرَ تقييم أداء المعلم في سلطنة عُمَان بشكل متسارع خلال المدة من (1970 إلى وقتنا الحالي).
- جميع المعايير التي اسْتُخْدِمَتْ طوال المِدَد السابقة؛ لم توضح على أَيِّ أنموذج من النماذج العالمية بُنِيَتْ.
- خلال المِدَد الثلاث التي تطوَّر فيها تقييم أداء المعلم؛ رَكَّزتِ المعايير جميعها على الأداء التدريسي الصفي، ولكنها في بعض المِدَد تناولت الأداء المهني للمعلم خارج الغرفة الصفية.
- يُقَيَّم أداء المعلم منذ عام 1970 في تقييمين لا يرتبط أحدهما بالآخر؛ هما تقييم بنائي يَتْبَع وزارة التربية والتعليم، وتقييم آخر ختامي يَتْبَع وزارة الخدمة المدنية.
- حاليّاً يعمل كُلٌّ من: مدير المدرسة، ومساعد المدير، والمشرف التربوي، والمعلم الأول على زيارة المعلم زيارتين خلال الشهر الواحد، أَيْ: بمعدَّل 8 زيارات خلال الفصل الدراسي الواحد، أَيْ: 16 زيارةً خلال العام الدراسي الواحد.

- جميع الزيارات تكون في الغرفة الصفية في الوقت الحالي، يتم من خلالها قياس الموقف الصفي بأبعاده المختلفة؛ كالتخطيط، والتنظيم، والتفاعل الصفي للطلبة، واستخدام مصادر التعلُّم، والتمكُّن من المادة العلمية.
- الاستمارات التي يتم تحريرها حاليّاً لتقييم أداء المعلم يُعْتَدُّ بها بشكلٍ جزئيٍّ وليس بشكلٍ كُلِّيٍّ؛ لتحرير تقرير التقييم الختامي الدوري.
- في الوقت الحالي، يُعْتَدُّ بالتقييم الختامي الدوري السنوي للمعلم في الترقية، والانتقال من وظيفة إلى أخرى في المسار الوظيفي، وفي صرف المكافآت والعلاوات، والدخول في المسابقات والتنافس على الفرص للترقِّي الوظيفي.
- كُلُّ ما يمارسه المعلم حاليّاً خارج الغرفة الصفية، كالتفاعل مع أولياء الأمور أو المجتمع المحلي، والمشاركة في برامج الإنماء المهني، والتطوُّر الذاتي للمعلم، أو المشاركة في المنافسات والمسابقات على المستويين المحلِّي أو الدولي؛ لا يُحْتَسَبُ بدرجات واضحة في استمارات مستقلة، أو مشتركة مع الاستمارات التي تقيِّم المعلم في التقييم البنائي.

4. الخاتمة

قدَّمَتِ الدراسة لمحة تاريخية عن التطوُّر التاريخي للتعليم والمعلم في سلطنة عُمَان، عَبْرَ مراحل التطوُّر التي مرَّت بها نُظُم التعليم في السلطنة بشكل عام؛ فقد كان مرتبطاً بالخطط الخمسية التي بدورها ترتبط برؤى السلطنة بشكل كبير، وأظهرت الدراسة تطوُّر إعداد المعلم في السلطنة من بدايات النهضة التي شهدتها عام 1970، وما زالت تشهد الاهتمام نفسه في العهد الجديد بتولِّي السلطان هيثم بن طارق المعظم – حفظه الله ورعاه –مقاليد الحكم في البلاد؛ لمواجهة التغيُّرات المرتبطة بالثورة الصناعية الرابعة من جهة، والتغيُّرات التي تطرأ على التعليم بعد أن تحوَّلَ من صورته التقليدية النمطية إلى الصورة الجديدة؛ لِمَا أحدثته جائحة كورونا – كوفيد 19– من متطلَّبات على مستوى العالم. وفي ضوء التَّتَبُّع التاريخي لأداء المعلم في سلطنة عُمَان؛ فإن الدراسة الحالية تتنبَّأ بالكثير من التغيُّرات وَفْقَ المعطيات المتاحة والظروف الراهنة، مقارنةً بالمِدَد السابقة.

5. المراجع:

المجلس الأعلى للتخطيط **https://www.scp.gov.om/**، الوثيقة الأولية لرؤية عُمَان 2040، (مسقط: مكتب الرؤية، د.ط، 2019).

المرسوم السلطاني رقم (1996/101)،"الباب الثاني: المبادئ الموجِّهة لسياسة الدولة؛ مادة (13) المبادئ الثقافية"، (مسقط: الجريدة الرسمية، ملحق خاص للعدد 587).

ملحم؛ سامي محمد، **القياس والتقويم في التربية وعلم النفس**، (عَمَّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، د.ط، 2005).

الهنداوي؛ ياسر فتحي، **إدارة المدرسة وإدارة الفصل: أصول نظرية وقضايا معاصرة**، (القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر، ط1، 2012).

وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 1998).

وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 2000).

وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 2005).

وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **دليل الإشراف التربوي** (مسقط: دائرة الإشراف التربوي، ط1، 2005).

وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 2015).

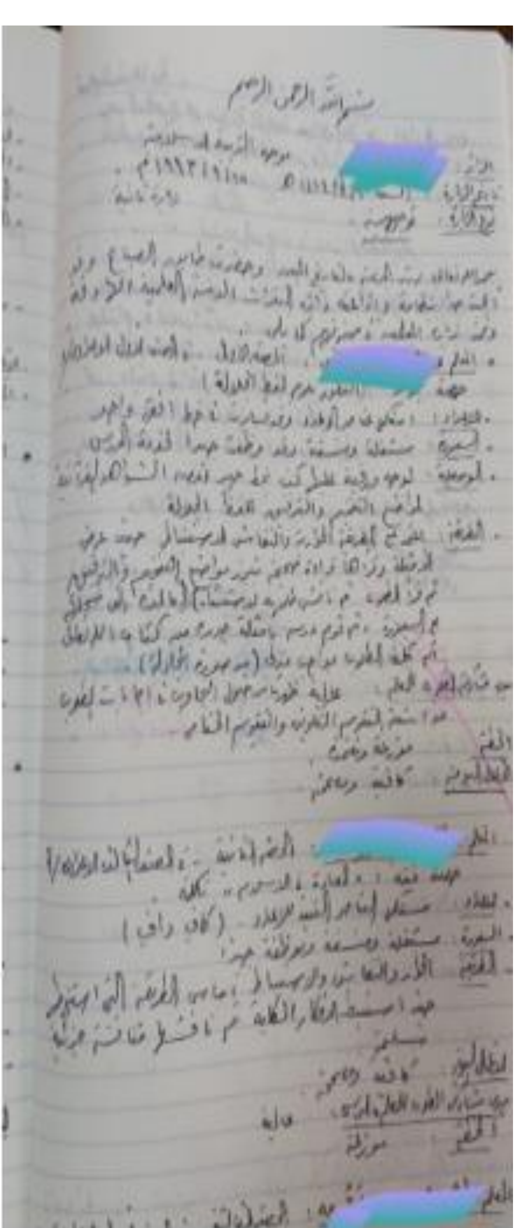
وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **نموذج تقويم الأداء الوظيفي لشاغلي وظيفة معلم بالهيئة التدريسية**، (سلطنة عُمَان، العام الدراسي 2020-2021م).

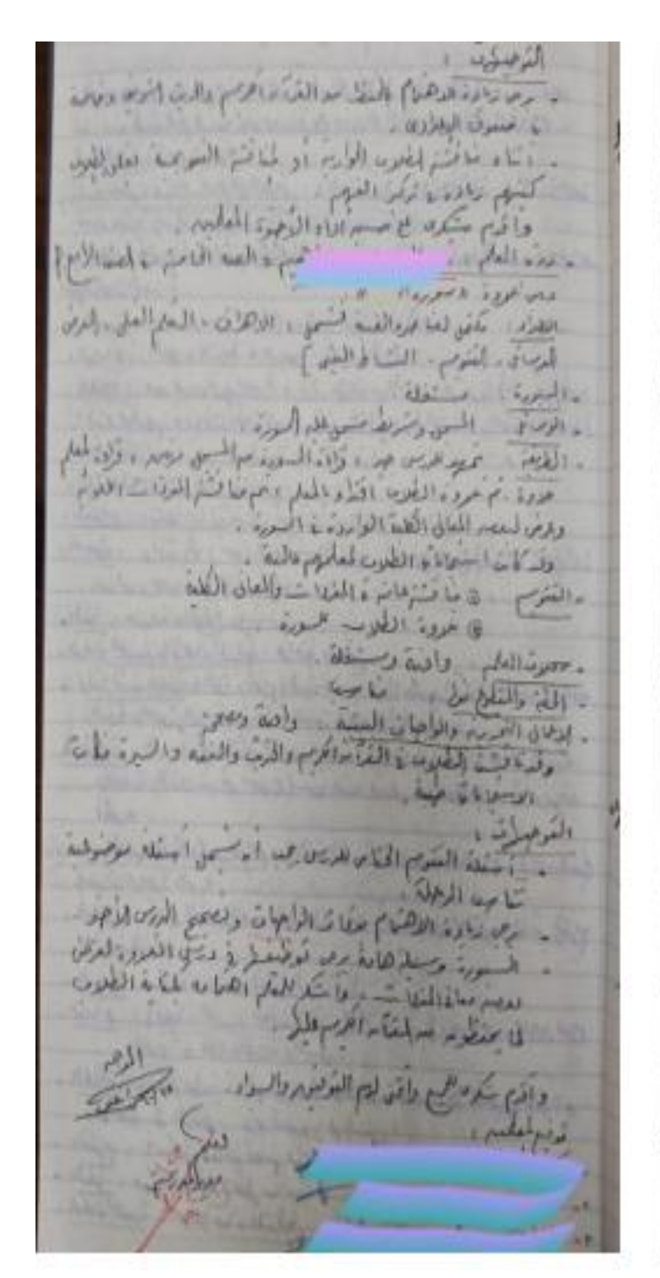
وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 2020م).

المرسوم السلطاني رقم (1996/1)،" الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني 2020م"، (مسقط: الجريدة الرسمية، العدد 566).

الملاحق

ملحق (1) استمارة زيارة المعلم في المدة الثانية (1986–1995)





ملحق (2) استمارة تقييم معلمات التربية الأسرية في المدة الثانية (1986-1995)

بسم الله الرحمن الرحيم

المديرية العامة للتربية والتعليم لمحافظة الباطنة
دائرة الخدمات التعليمية - قسم التعليم التقني

تقرير أداء معلمة تربية أسرية [illegible]

اسم المعلمة : [illegible] المدرسة : [illegible]

المؤهل الدراسي : بكالوريوس اقتصاد منزلي ٨٦

تاريخ استلام العمل بالسلطنة : [illegible] عدد حصص التربية ١٥ [illegible]

م	التقييم العام	ممتاز	جيد	مقبول	ضعيف	ملاحظات
١	الالتزام بالعمل .	✓				
٢	التعاون مع ادارة المدرسة .		✓			
٣	أثر على الطلاب والعناية بهم .		✓			
٤	الاهتمام بمعمل التربية	✓				
٥	سجلات المادة وأنشطتها .		✓			
٦	أداء الحصص .		✓			
٧	النشاط المدرسي :					
	- الوسائل التعليمية وتطويرها .		✓			
	- النشاط العملي .		✓			
	- خدمة البيئة المدرسية .		✓			
٨	الابتكار والقدرة على الابتكار .		✓			
٩	المستوى التحصيلي للطلاب .		✓			
١٠	قابلية تنفيذ التوجيهات .	✓				

١١ - السلبيات والمعوقات : [illegible]

١٢ - مقترحات وملاحظات لرفع مستوى المادة - [illegible]

معلم التربية [illegible] مدير المدرسة [illegible]

رأي القسم :

يعتمد / مدير دائرة الخدمات التعليمية

ملحق (3) استمارة تقييم أداء المعلم عامَ 1998، استمارة تقييم مشرف لمعلم



سلطنة عمان
وزارة التربية والتعليم
المديرية العامة للتربية والتعليم للمنطقة الداخلية
دائرة الخدمات التعليمية
قسم التعليم العام والتوجيه

استمارة زيارة توجيهية صفية

اسم المدرسة :
اسم الموجه :
المادة :

اسم المعلم :
المؤهل وتاريخه :
تاريخ التعيين :
تاريخ استلام العمل بالمدرسة :

الحصة	الفصل	حاضر	غائب	عدد الطلاب	موضوع الدرس

م	أولاً : تقييم مرحلة التخطيط للموقف التعليمي :
١	مراعاة تنفيذ الخطة السنوية
٢	دقة صياغة الأهداف السلوكية
٣	اختيار الأنشطة والأساليب المناسبة لتحقيق الأهداف
٤	اختيار أساليب التقويم وربطها بالأهداف
	ثانياً : تقييم مرحلة تنفيذ الموقف التعليمي :
٥	استثمار التعليم القبلي والخبرات السابقة .
٦	توظيف الأساليب والأنشطة التعليمية : (العملية والتحريرية والشفهية) ومتابعتها .
٧	استثارة دافعية الطلاب وتفاعلهم .
٨	استخدام الوسائل التعليمية المناسبة وتوظيفها .
٩	مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب .
١٠	ربط المادة الدراسية بحياة الطالب والبيئة المحلية .
١١	توجيه الطلاب للتعلم الذاتي .
١٢	استخدام التقويم المستمر وتوظيف نتائجه .
١٣	إدارة الصف وانضباط الطلاب .
١٤	التمكن من المادة العلمية .
١٥	الحرص على استخدام اللغة العربية السليمة .
١٦	الاهتمام بالنشاط البيئي والأنشطة المرتبطة بالمقررات الدراسية .
١٧	ملاحظة فعاليات الدرس لزمن الحصة .
١٨	الاهتمام بسجلات المستويات الشهرية وتوظيفها .

يحتاج إلى رعاية

ثالثاً : مرحلة اجتماع الموجه مع المعلم بعد الزيارة الصفية :

أ . النواحي الإيجابية في المعلم :

ب . الخطة المقترحة لتحسين أداء المعلم :

جـ . ملاحظات أخرى :

التاريخ : هـ : / / ١٤١
م : / / ١٩٩

توقيع المعلم :
توقيع مدير المدرسة :
توقيع الموجه :

ملحق (4) استمارة تقييم مدير المدرسة للمعلم عام 1998



سلطنة عمان
وزارة التربية والتعليم
المديرية العامة للتربية والتعليم للمنطقة الداخلية
دائرة الخدمات التعليمية
قسم التعليم العام والتوجيه

استمارة متابعة مدير المدرسة للمعلم
(داخل وخارج الصف)

اسم المدرسة : | اسم المدير : | المادة :

اسم المعلم :

المؤهل وتاريخه :

الحصة	الفصل	حاضر	غائب	عدد الطلاب	موضوع الدرس

م	أولاً : التخطيط للتدريس				يحتاج إلى رعاية	يحتاج إلى متابعة
١	الالتزام بالخطة السنوية .					
٢	استيفاء عناصر التحضير .					
٣	الصياغة السلوكية لأهداف الدرس					
	ثانياً : النشاطات التعليمية التعلمية :					
٤	تفاعل المعلم والطلاب .					
٥	استخدام الوسائل وتوظيفها .					
٦	استخدام الكتاب المدرسي بصورة حسنة .					
٧	مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب .					
٨	الأعمال التحريرية ، صفية وغير صفية ، ومعالجتها					
٩	توجيه الطلاب نحو التعلم الذاتي .					
١٠	مدى فعالية التقويم واستمراريته .					
١١	إدارة الصف .					
١٢	الحرص على استخدام اللغة العربية السليمة .					
	ثالثاً : شخصية المعلم :					
١٣	الالتزام بالمواعيد والنظام المدرسي .					
١٤	المظهر الشخصي .					
١٥	التعاون مع الزملاء وإدارة المدرسة .					
١٦	العلاقة مع أولياء الأمور والطلاب .					
١٧	النشاط الاجتماعي المدرسي والبيئي .					
١٨	الحرص على النمو المهني .					

رابعاً : المتابعة والرجع البنائي :

أ - النواحي الايجابية في المعلم :

ب - الخطة المقترحة لتحسين أداء المعلم :

جـ - ملاحظات أخرى :

التاريخ : هـ / / ١٤١ م / / ١٩٩

توقيع المعلم :

ختم المدرسة
توقيع مدير المدرسة :

الهوامش

(*) **المؤلف المرسل:** موزة بنت علي بن عبيد الشيادية، **البريد الإلكتروني:** MOZN77MOZN@GMAIL.COM

[1] ملحم؛ سامي محمد، **القياس والتقويم في التربية وعلم النفس**، (عَمَّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2005)، ص419.

[2] المرسوم السلطاني رقم (1996/101)،"**الباب الثاني: المبادئ الموجِّهة لسياسة الدولة؛ مادة (13) المبادئ الثقافية**"، (مسقط: الجريدة الرسمية، ملحق خاص للعدد 587)، ص8.

[3] الكتاب الأبيض: النظام الأساسي للدولة، 1996.

[4] وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، الكتاب السنوي للإحصاءات التعليمية، (مسقط: 1998م؛ 2000م؛ 2005م؛ 2015م؛ 2020م).

[5] المرسوم السلطاني رقم (1996/1)، "**الرؤية المستقبلية للاقتصاد العُمَاني 2020م**"، (مسقط: الجريدة الرسمية، العدد 566)، ص 24-30.

[6] وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **دليل الإشراف التربوي** (مسقط: دائرة الإشراف التربوي،2005).

[7] المرجع السابق نفسه.

[8] المجلس الأعلى للتخطيط **https://www.scp.gov.om/**، الوثيقة الأولية لرؤية عُمَان 2040، (مسقط: مكتب الرؤية، 2019)، د. ص.

[9] المرجع السابق نفسه.

[10] إعصار جونو عامَ2006.

[11] وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **دليل الإشراف التربوي** (مسقط: دائرة الإشراف التربوي،2005).

[12] عمل معلِّماً بالمدرسة السعيدية بمطرح في المدة من عام 1970 إلى عام 1975م.

[13] الأستاذ حاجي عثمان البلوشي (اتصال شخصي، 11 أبريل 2020).

[14] وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **دليل الإشراف التربوي** (مسقط: دائرة الإشراف التربوي،2005).

[15]اتصال شخصي بالأستاذ سعيد الهاشمي؛ المشرف الإداري بالمديرية العامة للتربية والتعليم بمحافظة شمال الباطنة، 11 مايو 2020.

[16]وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **دليل الإشراف التربوي** (مسقط: دائرة الإشراف التربوي،2005).

[17]المرجع السابق نفسه.

[18]الهنداوي؛ ياسر فتحي، **إدارة المدرسة وإدارة الفصل: أصول نظرية وقضايا معاصرة**، (القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر، 2012). د. ص.

[19]وزارة التربية والتعليم **www.moe.gov.om**، **نموذج تقويم الأداء الوظيفي لشاغلي وظيفة معلم بالهيئة التدريسية**، (سلطنة عُمَان، العام الدراسي 2020-2021م).

الصراع العربي الإسرائيلي حول المياه الفلسطينية والعربية

The Arab-Israeli Conflict over Arab and Palestinian Waters

رشيدة الشانك[1]

rachidaechanik2016@gmail.com

طالبة باحثة في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة –المغرب.

البريد الالكتروني rachidaechanik2016@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/12 **تاريخ القبول**: 2021/04/29 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص بالعربية:

تعتبر إسرائيل الثروة المائية مقدسة، وأحد شروط بقائها لتعمير الأراضي المغتصبة بالمهاجرين من القارات الخمس، في المقابل تهجير السكان الأصليين أصحاب الأرض الحقيقيين. لذا تغتصب بكل الوسائل المياه الفلسطينية والعربية مستغلة مبررات واهية دينية تاريخية لسيطرة على منابع المياه وتحكم فيها.. المياه بالنسبة لإسرائيل خط أحمر لا يمكن تجاوزه ولا تريد أن تقدم أي تنازل بشأنه ومن يريد السلام مع إسرائيل فلا ينبغي أن يجادل معها بشأن المياه ،فالأطماع الإسرائيلية في المياه العربية والفلسطينية سبقت قيام إسرائيل وشكلت محورا من محاور الحركة الصهيونية، وعنصرا لنجاح سياستها التوسعية الاستيطانية.

الكلمات الدالة: إسرائيل، صراع، فلسطين، مياه، توراة، حرب، الصهيونية، أطماع، إسرائيل، السلام.

Abstract:

Israel considers the water wealth sacred, and one of the conditions of its survival for the reconstruction of the lands usurped by immigrants from five continents, in return for the displacement of the indigenous people of the real landowners.

---

[1] رشيدة الشانك **rachidaechanik2016@gmail.com**

The water for Israel is a red line that cannot be crossed and does not want to make any concession sought and who wants peace with Israel should not argue with it about water, because Israeli ambitions in Arab and Palestinian waters preceded the establishment of Israel and formed an axis of the Zionist movement, and an element of the success of its expansionist settlement policy

Keywords: Israel, Conflict, Palestine, Water, Torah, War, Zionism, Ambitions, Israel, Peace.

1. مقدمة:

"إن المياه بالنسبة لنا بمثابة الدم في العروق" مقولة رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة (جولدا مايير) .[2]

"حدودك يا إسرائيل من النيل إلى الفرات" سفر التكوين (18_15)

"إن المياه حياتنا ولا نستطيع أن نضع هذه الثروة في أيدي أناس لدينا شك كبير في نواياهم نحونا" (حزب الليكود الإسرائيلي).

"حرية الوصول إلى المنبع هي أهم الشروط في ترسيم الحدود الإسرائيلية" (حزب العمل الإسرائيلي).

"علينا أن نتذكر أنه من أجل قدرة الدولة اليهودية على البقاء لابد أن تكون مياه الأردن والليطاني مشمولة داخل حدودنا"(بن غوريون) أول رئيس وزراء اسرائيلي.

هذه الأقوال تبين أهمية المياه في الإيديولوجية الصهيونية، التي عمل الآباء الأوائل للوطن القومي اليهودي في فلسطين هرتزل[3]– وايزمان[4]، وبن غوريون[5] على ترسيخها منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتي انتقلت مع مرور الزمن من دائرة الأحلام إلى دنيا الواقع، ومن مشاريع على الورق إلى مشاريع حقيقية فوق الأرض، حيث تتداخل الخريطة المائية مع الخريطة الأمنية لإسرائيل التي تربط بين فكرة الوطن والماء.

فالمياه بالنسبة لإسرائيل هي أهم ركائز المشروع الصهيوني القائم على: اغتصاب الأرض، مهاجرون يهود من شتى بقاع العالم، مياه تستخدم لإرضاء المستوطنين على حساب الفلسطينيين والدول العربية[6]. فالمياه كانت ولا تزال هوس الإسرائيليين الذين ينفذون ما رسمه هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية "من الفرات إلى النيل"[7].

إسرائيل منذ بداية تأسيسها تربط ما هو سياسي بما هو مائي، الماء بالنسبة لإسرائيل هو البقاء، الديمومة، هو جذب أكبر عدد من المهاجرين من كل بقاع العالم.

وللإحاطة بالموضوع ولمقاربة جانبا من تفاصيل هذه السيطرة المائية الإسرائيلية ارتأيت أن اختار الإشكالية التالية:

ما الأساطير الدينية الوهمية والتاريخية التي استغلتها إسرائيل لتبرير تواجدها وسيطرتها على خيرات المنطقة؟ كيف استولت إسرائيل على الثروة المائية الفلسطينية والعربية؟ ماهي أبرز الحروب التي أشعلتها إسرائيل للسيطرة على منابع المياه؟ وما هي مخططات السياسية المائية الإسرائيلية ومعاناة الشعب الفلسطيني الكبيرة مع قلة المياه واستمرار إسرائيل في سياسة العطش لشعب بكامله؟

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الجشع الإسرائيلي للمياه العربية الذي استمر مع كل مراحل بناء الدولة الاسرائيلية، ولم يتوقف حتى بعد تلويحها بشارة السلامة والتطبيع مع عدة دول عربية. سنجيب عن هذه التساؤلات من خلال الاستعانة بمجموعة من الأبحاث والدراسات، مذكرات رسمية للحكومات الإسرائيلية وما نتابعه من مقالات وحوارات تلفزية ومؤتمرات حول الصراع والسيطرة الإسرائيلية للثروة المائية الفلسطينية والعربية.

ومن خلال دراستنا هذه فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي لكونهما يتناسبان مع طبيعة الموضوع المدروس من خلال تشخيص واقع السيطرة الاسرائيلية على المياه الفلسطينية والعربية وتوتر الذي تحدثه بالمنطقة من جراء رفضها لأي تسوية متعلقة بقضية المياه من خلال تتبع عدة محطات من صراع العربي الفلسطيني حول المياه.

2.الجذور الدينية و التاريخية للأطماع الإسرائيلية في المياه العربية

2. 1. الجذور الدينية:

يتميز الصراع العربي الإسرائيلي عن غيره من الصراعات، أنه يشمل مختلف القطاعات: السياسية، العسكرية، الاقتصادية، المائية، هذا فضلا عن "الاستخدام المكثف من قبل العقيدة الصهيونية للأساطير والمزاعم الدينية المحرفة التي مزجها قادة المشروع الصهيوني مع العقيدة الأيدولوجية[8].

إسرائيل التوراتية، التي اعتمدت على الدين لتبرير توسعها، التوراة المرجع الديني الأول في تشجيع الأطماع اليهودية في المياه العربية، "هناك إشارات وعبارات تحفز اليهود على السيطرة على مناطق المياه العربية كواجب ديني أولا[9]، وضرورة حياتية ثانيا.

" أعدو المجن والترس وتقدموا للحرب اصقلوا الرماح، البسوا الدروع في الشمال بجانب نهر الفرات"(ارميا 3_6)

" من ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام عهدا قائلا "لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" (سفر التكوين 18_15) .

ولتبرير تقتيلهم وسيطرتهم وحصارهم لمدن أرض الموعد، رددوا أسطورة الوعد وهي ليست إلا ذريعة للاستعمار الدموي، "أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثا فلا تستبقوا فيها نسمة حية (سفر يشوع 16-18) "لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم، تستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم (سفر يشوع 6-16)

ويستمر سفر يشوع في الحكايات المقدسة عن فتح مدن وإبادة كل من فيها بالأمر الإلهي، تحت رعاية الدارسين المسلحين بالفاشية الدينية[10]، السياسة البربرية[11] وقد برع ساسة إسرائيل في تحويل العديد من الأساطير إلى تاريخ مزيف في خدمة الصهيونية، واستخدام

الدين كأداة سياسية من أجل تأمين العملية الاستعمارية. وفي حوار مع جولدا مائير قالت "هذه الدولة وجدت لتحقيق العهد الذي قطعه الله نفسه"[12].

دائما وتحت عنوان "إسرائيل التوراتية "[13] كتب المفكر الفرنسي روجيه جارودي: "سبق لابن جوريون عام 1937 أن رسم حدود إسرائيل استنادا إلى نصوص توراتية تنفيذا لإرادة الرب،حيث صرح في الكنيسة سنة 1956 بأن سيناء جزء من مملكة داوود وسليمان بل أن حدود الوعد اتسعت من النهر الكبير الفرات إلى نهر مصر" (سفر العدد 4.5/34)[14]

وذكر جارودي أن "حاخامات اليهود(الفاشية الدينية) ذهبوا إلى حد اعتبار المذابح مشروعة دينيا من أجل متطلبات القضية كنوع من التبرير التوراتي للقتل "وإضفاء الشرعية على الاعتداءات المتتالية وضم أرض الغير من طرف الدولة الصهيونية الحالية.[15] فقد استخدم مناخم باراش في عام 1974م، النصوص الدينية لكي يفسر التصرفات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين فقال عنهم "هذا الطاعون الذي أنكرته التوراة لأنهم استولوا على أرض الميعاد التي وعدنا بها رب إبراهيم،علينا أن نكون مثل يشوع من أجل استعادة أرض إسرائيل والاستقرار فيها كما أمرنا الكتاب المقدس".[16]

إن محاولة تسييس النصوص المقدسة عن طريق تحوير رسالتها إلى العالم واعتبار التوراة القانون الإلهي الذي يعطيهم حقا خاصا على أرض أباءهم وتلك المزاعم الخاصة بالتميز الناتج عن الاختيار الإلهي، كلها تستخدم لتبرير احتلال الفضاء الحيوي (الأرض–الماء) وطرد أهل الأرض الأصليين عن طريق تغليفها في الأسطورة تلك التي تقول إنها أرض الميعاد، والتي أصبحت جزءا مكملا للنظام الأيديولوجي للصهيونية الدينية.

2.2 الجذور التاريخية

إن الأطماع الإسرائيلية في مياه العربية و الفلسطينية، قضية سبقت قيام إسرائيل وقد شكلت محورا من محاور الحركة الصهيونية بل إن قضية الماء تحتل أهمية كبرى في الفكر الإسرائيلي .

قبل تأسيس دولة إسرائيل، والاعتراف الدولي بها سنة 1948م،كانت المخططات الإسرائيلية العالمية تربط بين فكرة الوطن و الماء، وتمتد جذور هذا الصراع إلى أواخر القرن 19،حيت شكلت الموارد المائية محورا مهما من محاور الحركة الصهيونية التي سعت إلى تعزيز هيمنتها على مناطق الموارد المائية الغنية و على الأراضي الخصبة في شمال فلسطين المحتلة، وباقي المناطق المجاورة [17].فقد تم تأكيد من طرف أقطاب الصهيونية على أن "مستقبل إسرائيل الاقتصادي كله يعتمد على موارد مياهها للري والقوة الكهربائية وتستمد موارد المياه بصورة رئيسية من منحدرات جبل جرمون ومن منابع الأردن ونهر الليطاني[18]".

من بين أبرز المحطات التاريخية التي كشفت عن خطط الصهيونية اليهودية في سرقة مياه المنطقة قبل تأسيس الدول الصهيونية ودور الامبريالية الأوربية خاصة البريطانية في دعم ذلك[19]،أنه في سنة 1902،تقدم هرتزل إلى حكومة بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا و إلى حكومة الخديوي عباس بطلب تحويل مياه النيل إلى سيناء لكن فشل بسبب الظروف الدولية ،ولتكن سنة 1917السند السياسي القوي تقديم وعد بلفور " أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية " [20]،وفي سنة 1919 إرسال مذكرة صهيونية لمؤتمر الصلح [21] في باريس تنص على: توسيع حدود إسرائيل خاصة الشمالية لتشمل منابع المياه النابعة من سلسلة جبل الشيخ " جبل الشيخ أبو المياه الحقيقي لفلسطين ولا يمكن فصله عنها يجب أن

يخضع كليا لسيطرة أولئك الذين يملكون القدرة الكافية لاستغلال إمكانياته حتى أقصى الحدود[22] .

رسالة إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا بتحسين حدود الوطن القومي اليهودي، بأن يشمل حوض الليطاني[23] جبل الشيخ[24] وبانياس[25] و اليرموك[26] .

ومن أهم المشاريع البريطانية إبان الانتداب البريطاني وبضغط من الجماعات اليهودية[27]:

- مشروع " لاودوميك 1944 :ركز على استغلال مياه نهر الأردن لصالح المصالح اليهودية.
- مشروع اديس جونستون 1956:تحويل مياه الأردن.
- مشروع قناة البحرين: ربط البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت[28]. وقد تفوت بشكل كبير أشكال التمركز الصهيوني في فلسطين باستيطان اليهود في أهم الأماكن من حيث الماء وإخضاع السكان المحليين لليهود والقضاء على من يتصفون بالصلابة من زعماء عرب[29] وخاصة بعد حروبها ضد فلسطين والعرب.

3.حروب إسرائيل المائية ضد فلسطين و الدول العربية و السلام المتعثر

3. 1 حروب إسرائيل المائية

فلسفة إسرائيل تقوم على تشجيع الهجرة شرط توفير المياه عن طريق استخدام القوة في الاستيلاء على الأرض فهي " تتحرك وفق انه كلما ازداد عدد المهاجرين ازدادت حاجتها للأرض وكلما ازدادت حاجتها للأرض ازدادت حاجتها للمياه وكلما ازدادت

حاجتها للمياه افتعلت الأزمات واستولت على الأراضي الغنية بالمياه "[30] وهنا قامت بعدوانين خطيرين حرب ثمانية وأربعين وحرب الستة أيام وحروب أخرى .

حرب 1948،تطلق عليها إسرائيل حرب الاستقلال، مع قيامها بدأ التطبيق الفعلي لمقررات أول مؤتمر صهيوني 1897 بمدينة بال السويسرية: العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود، تقوية وتغذية الشعور والوعي القومي اليهودي، تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية، والنتيجة تزايد المهاجرين إلى الكيان الجديد تزايدت الحاجة إلى المزيد من الماء[31] فكانت حرب 1948 بهدف الحصول على الأرض و المياه العربية بالقوة. تم ترحيل ألاف من الفلسطينيين من الأراضي التي تجاور الآبار و الينابيع و الأنهار وتلاه استيطان صهيوني للأرض ومنابع الماء، قاد هذه الحرب دافيد بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي بالمناسبة اختارته مجلة تام أهم مائة شخصية في القرن العشرين[32].

وبعد عام من هذه الحرب بين إسرائيل و العرب أصبح الإسرائيليون يسيطرون على 80 %من أرض بعد أن طردوا 770000 فلسطيني[33].

وتستمر المأساة مع حرب الستة أيام " النكسة العربية "مهدت إسرائيل لحرب الستة أيام أولا بغارات استهدفت نهر الحاصباني، تدمير المنشآت العربية على المجرى الأعلى لنهر الأردن وسد بن الوليد على نهر اليرموك بعدما كان السوريون و الأردنيون قد أنجزوا القسم الأول منه[34].

كان التوسع الإسرائيلي على حساب كل من مصر (سيناء) وسوريا (الجولان) الضفة العربية الأردن ومن وراء هذا العدوان حققت إسرائيل أكبر أهدافها الاستيلاء على الأرض وكلها أراض غنية بالمياه[35].

هضبة الجولان تتميز بموقعها الاستراتيجي المطل على إسرائيل لها مزايا عسكرية أولا يمكن السيطرة على العاصمة دمشق من مرتفعات هذه الهضبة ،ثانيا بسبب المستوطنات التي أنشأتها، كذلك اعتبارها أهم خزان مائي للمنطقة تنطلق منه العديد من الأنهار اللبنانية و الأردنية[36].

انسحاب إسرائيل من الجولان غير وارد، لأنه يعني التخلي على منابع أنهار بانياس، اليرموك، الحاصباني، ويعني كذلك حرمانها من أربعين مليون متر مكعب من المياه .[37]

سيطرة على منابع نهر الأردن، النهر المقدس عند المسيحيين، لأنه هو الذي تعمد فيه السيد المسيح، طوله 250 كلم ينبع من جبل الشيخ في لبنان وفلسطين يفصل ما بين الأردن وفلسطين. يتكون نهر الأردن بالتقاء ثلاثة روافد "بانياس" سوريا الجولان، ومن شمال فلسطين المحتلة نهر "اللدان" (نهر فلسطيني وهو أحد روافد نهر الأردن الرئيسية وينبع من سفوح جبل الشيخ)، ومن جهة لبنان "الحاصباني"، لتشكل هذه الروافد ما يسمى بنهر الأردن العلوي الذي يصب في بحيرة طبرية ويخرج النهر من بحيرة طبرية ويصب في نهر الأردن السفلي ولتكون نهايته البحر الميت، وقد حولت إسرائيل مجرى نهر الأردن وتسرق كميات كبيرة منه تسرق المياه الجوفية في الضفة العربية و الجولان السورية[38] ،استولت على مياه منطقة الباقورة الأردنية بموافقة هذه الأخيرة التي انفردت بتوقيع معاهدة السلام مع إسرائيل، مما اضعف الموقف السوري. استولت على مياه القدس العربية والضفة الغربية وأخيرا شبه الجزيرة سيناء، حيث سيطرت بشكل كلي على المصادر المائية بما فيها أحواض المياه الجوفية الفلسطينية مما حرم الفلسطينيين لحد الآن من مصادرهم المائية المشروعة واد اليرموك (طوله53 كلم)23 كلم في سوريا والباقي في الأردن وفلسطين يتغذى ببعض روافد كوادي الرقاد في الجولان المحتلة [39]

تعتمد إسرائيل حاليا في أكثر من 55% من استهلاكها من المياه على ما تم الإستيلاء عليه عقب حرب الستة أيام و[40]وحرب جنوب لبنان في الثمانينات القرن الماضي،

سيطرة على نهر الليطاني، واللدان يمتد من مدينة بعلبك حتى يصل إلى مدينة صور ليصب في البحر الأبيض المتوسط طوله 170 كلم يمر معظمه في سهل البقاع توجد بجانبه آلاف الآبار الجوفية[41].

تسرق إسرائيل 50% من مياهه لري شمال إسرائيل. وتنفق لبنان كثيرا من أجل معالجة آثار الحرب و الدمار التي أصابت البنية التحتية للمياه و المجاري المائية[42] .

ولا تخشى إسرائيل من لبنان لضعفها ولا تهتم كثيرا بالتوصل إلى اتفاق معها فهي تسيطر بالفعل على جنوب لبنان وموارد نهر الليطاني بمساعدة بعض القوى المتعاونة سعد حداد ومن بعده أنطوان لحد، وقبل بدأ عملية السلام أعلنت إسرائيل 11 مايو 1991 أنها لن تنسحب من جنوب لبنان قبل تعهدات بالحصول على حصتها من نهر الليطاني. كما أنها تسيطر على بحيرة طبرية، بحيرة في فلسطين حلوة المياه بين منطقتين الجليل والجولان تفصل بين الجزء العلوي والسفلي لنهر الأردن يبلغ طول سواحلها 53 و عرضها 13 كلم هي مصدر مياه شرب رئيسي في إسرائيل تقدم ربع المياه التي تستهلكها إسرائيل[43] .

"سيطرة إسرائيل على مصادر المياه الرئيسية في الأردن، سوريا، فلسطين، جعل الميزان المائي مختلا لغير صالح العرب، هذا الخلل يزداد مع الابتلاع الإسرائيلي المستمر لموارد المياه العربية[44] نظرا لأن المشروع الصهيوني نفسه كان يربط منذ ما قبل إسرائيل بين الأرض والمياه .

عملية السلام متعثرة بسبب التعنت الإسرائيلي وإصرارها الكبير في التحكم في مصادر المياه وضغطها المتواصل على أن تتضمن بنود مؤتمر السلام نصوصا خاصة بحقوقها في المياه العربية يعني شرعنة سرقتها.

لقد مثلت قضية الماء حجرة عثرة وسببا في إفشال جميع المحاولات الدولية والإقليمية لتسوية القضية الفلسطينية مع الجانب الإسرائيلي، كمباحثات فيينا 13،14 ماي 1992 المفاوضين الإسرائيليين رفضوا كل تخصيص جديد للموارد المائية في المنطقة[45]

اتفاق غزة أريحا سبتمبر 93 في أوسلو ضمنت إسرائيل مشاركة الفلسطينيين في منطقة الحكم الذاتي في أي مشروعات يقيموها للحصول على احتياجاتهم المائية وبهذا تضمن إسرائيل عدم تنفيذ أي مشروع يضر ولو من بعيد بحصة إسرائيل .

اتفاقية أوسلو الثانية 95 كانت بنودها عنصرية ضد الفلسطينيين لم تناقش احتياجات الشعب الفلسطيني المائية المتزايدة " ففي ضوء ميزان القوة المختل عربيا و المائل لصالح إسرائيل لن يعني السلام سوى أن تتحكم إسرائيل في المنطقة مائيا ثم اقتصاديا كما سبق أن أحكمت قبضتها عليها عسكريا[46]وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ومحاصرة السلطة الفلسطينية (2000-2004),

توالت عدة اجتماعات في العديد من العواصم العالمية وكانت الثروة المائية هي الموضوع الذي مازالت إسرائيل ترفض أي نقاش أو تنازل فيه رغم التنديد الدولي . ورغم ما تمارسه من قتل بطيء للشعب المحاصر بدون ماء فهي لا تكترث رغم انطلاق مظاهرات لتضامن مع الشعب الفلسطيني في كل أرجاء العا لم.

3.2.الوضعية الحالية بفلسطين وسيناريوهات المائية الجديدة في مخططات إسرائيل.

مجموعة من المحطات غيرت أوضاع منطقة الشرق الأوسط وأثرت قليلا في سياسة إسرائيل. ولكن دون زعزعة الثوابت، حرب أكتوبر 73،حرب لبنان 1982،تفكك الاتحاد السوفياتي_ انتفاضة الأقصى/ 2000، اجتياح غزة 2008.

لتضطر إسرائيل إلى بحث عن سيناريوهات جديدة للدولة اليهودية لتأمين حاجياتها المائية، فنلاحظ التقارب الإسرائيلي التركي حول الماء، رغبة إسرائيل في نقل المياه من تركيا. إلى جانب المضي في مشاريع تحلية مياه البحر، ثم التواجد الإسرائيلي لافت في إفريقيا وخاصة حوض النيل[47]، لضمان تدفق المياه والحصول عليه عند الحاجة بأقل التكاليف، فقد تزايد الجدل في حوض النيل (بسبب إسرائيل) بين دول المنبع والمصب وبخاصة مصر ،وحصتها في

مياه النهر ومدى إلزامية الاتفاقيات الدولية المبرمة منذ عقود في الحقبة الاستعمارية التي تحدد حصص الأطراف المختلفة والتزاماتها تجاه نهر النيل[48]،ومما قامت به إسرائيل في إطار التوسع نحو مصادر مائية خارجية: التقرب من أوغندا حيث فتح عايدي أمين أبوابه لإسرائيل، قدمت إسرائيل مساعدات لحكام أديس أبابا، ولا احد ينكر أصابع إسرائيل في جنوب السودان ،بل أنها الآن تدعو وتروج إلى فكرة إنشاء ناقلات المياه وفكرة إنشاء سوق دولية للمياه، واعتمار الماء سلعة قابلة للتعامل الاقتصادي .

تسيطر إسرائيل على ما يقرب من 86% من جميع المصادر المائية المتوفرة، في حين تفرض قراراتها العسكرية على 14% المتبقية من المياه للاستخدام لصالح الجانب الفلسطيني"[49]، كما تمنع الفلسطينيين من الحصول على الحصص المائية التي خصصت لهم في اتفاقية أوسلو الثانية والبالغة 118 مليون متر مكعب. بدل ذلك لم يحصلوا سوى على 20 مليون متر مكعب حتى أواخر 2015. وهذا ما يفسر الأزمة المائية التي تمر بها الأراضي الفلسطينية وبالتالي خلق حالة من عدم العدالة في توزيع الحصص على الصعيد المحلي. فحصة الفرد الفلسطيني للاستهلاك السنوي من المياه ما بين 25-38 مترا مكعب في الضفة بينما حصة الفرد الإسرائيلي 100 متر مكعب أي حوالي 4إلى5 أضعاف حصة الفلسطيني.

- الجانب الفلسطيني يغطي 40% من احتياجات شعبه .
- الجانب الإسرائيلي 100% من احتياجات شعبه كل هذه المؤشرات تدل أن هناك فائضا في المياه وهو ما يفسر سبب بيع إسرائيل مياه الفائض للفلسطينيين .

68 مليون متر مكعب المشترات 2016م،ضمنها 5 مليون تذهب لصالح قطاع غزة و الباقي لمحافظات الضفة الغربية. الكثافة السكانية كبيرة في غزة و الضفة العربية جعلت مخزون المياه الجوفية يجف إلى درجة أن مياه البحر بدأت تتسرب إليه .[50]

لا يقل أمن المياه أهمية عن الأمن القومي في إسرائيل، لهذا تستمر في فرض سياسة العطش على الفلسطينيين، ومع الارتفاع المستمر لمجموع سكان الضفة والقطاع سيزداد الطلب على المياه، لكن من الواضع أن المشكلة المائية ستكون بوتيرة عالية في قطاع غزة نظرا للكثافة السكانية والمساحة الضيقة التي لا تزيد عن 364كلم مربعا ويحتاج سكانها إلى مائة وعشرين مليون متر مكعب سنويا في وقت لا يتجمع لهم من مياه الأمطار سوى خمسة وأربعين مليون متر مكعب[51] الوضع كارثي حصار سياسي ومائي.

4.تحليل النتائج:

من خلال المعطيات المتحصل عليها بموضوع الصراع العربي الفلسطيني حول المياه نستخلص أن منطقة الشرق الأوسط وأكثر تحديدا منطقة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني العربي أكثر المناطق توترا بل اشتعالا بسبب اغتصاب الثروة المائية من طرف الكيان الإسرائيلي، وتعنته الكبير ورفضه أي حل لأزمة المياه مع جيرانه من الدول العربية وخاصة فلسطين الأكثر تضررا.. إسرائيل ترفض تماما أي تتنازل في قضية المياه في محادثاتها العديدة مع الأطراف المتضررة ،وتعتبر تدبيرها للثروة المائية عنصرا أساسيا لنجاح سياستها التوسعية الاستيطانية.

دائما وفي كل برامجها السياسية الماء خط احمر ،ودائما تصر على أن من يرد السلام معها فلا ينبغي أن يجادلها بشأن المياه، وأن أي تنازل في مسألة الماء هو مرفوض. ولن نبالغ إن أكدنا من خلال متابعتنا لهذا الملف أن مفتاح المياه في المنطقة بيد إسرائيل ففي ضوء ميزان القوى المختل عربيا والمائل لصالح إسرائيل تبقى هي المسيطرة فعلا وقولا.

النتائج والإحصائيات تؤكد التقاسم الغير العادل للمصادر المائية المشتركة بين إسرائيل وسلطة الفلسطينية، تقوم السلطة الفلسطينية بشراء كمية من الماء قدرت ثمانية وستين مليون متر مكعب أواخر 2015 من شركة المياه الإسرائيلية ميكورون، بتكلفة باهظة تزيد من نسبة الديون المستحقة على السلطة الفلسطينية ،أضف أن نسبة كبيرة من المياه المتوفرة غير قابلة للشرب الأوضاع المائية كارثية في قطاع غزة للكثافة السكانية، ولارتفاع الطلب وقلة العرض

،و للمراقبة الإسرائيلية الصارمة حتى على المياه غزة الملوثة ورفضها لأي مشروع إصلاح داخل الأراضي الفلسطينية إلا بعد موافقتها. هذا تعنت فظيع من طرف حكومة إسرائيل يقابله ضعف من طرف السلطة الفلسطينية العاجزة عن استرداد حقها المغتصب من الماء والأرض ونفس الشيء بالسبة لبلدان المنطقة التي فقدت الكثير من منابع المياه خاصة بعد حرب (الست أيام)كمنطقة الجولان المغتصبة الغنية بالمياه.

5. خاتمة:

ستكون خلاصة هذا المقال، من خلال مجموعة من التوصيات الشجاعة التي نشرت في تقرير المركز الفلسطيني للأبحاث السياسية والدراسات الاستراتيجية 2016، الذي قدم رؤيته للوضع المائي الفلسطيني وانتقد بحدة السلطة الفلسطينية وتهاونها في استرداد حق الماء للشعب المحاصر. يرى هذا التقرير أزمة شح المياه نتيجة سياسة الاحتلال الإسرائيلي وإجراءاته التعسفية، سوء إدارة قطاع المياه، والتوزيع الغير العادل للحصص المائية المتوفرة للمواطنين من قبل الجانب الفلسطيني، كل ذلك أدى إلى تفاقم الأزمة. فمن خلال تتبعنا للعديد من المحطات استنتجنا انه لا توجد إدارة سياسية فلسطينية من أجل تفعيل النضال حتى استرجاع الحقوق المائية المسلوبة إنما تكتفي بالحلول الجزئية كخطة الطوارئ في إدارة قطاع المياه. كذلك لا يتم التعامل مع مشكلة الماء من الجانب الفلسطيني كأولوية وطنية، لهذا لابد من إرادة وطنية واستنهاض المجتمع الدولي للاحتكام إلى مبادئ وقواعد قانون المياه الدولية ووجوب احترام حقوق الشعب الفلسطيني.

وجود لبس وغموض كبيرين في الاتفاقيات المبرمة ما بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي في ما يخص المصادر المائية، وخاصة المصادر المائية المشتركة، التقاسم الغير العادل لتلك المصادر، ،أضف حاليا أن المياه المتوفرة غير قابلة للشرب استنادا إلى مواصفات الصحة العالمية، واتفاقية أوسلو الثانية 1995 كانت بنودها عنصرية ضد الفلسطينيين لم تناقش احتياجات الشعب الفلسطيني المائية المتزايدة و أن المياه حق كامل للفلسطينيين .

بدون سيطرة الفلسطينيين على مصادرهم الطبيعية وخاصة الثروة المائية، لا يمكن الحديث عن دولة فلسطين مستقلة ذات سيادة بالمعنى الحقيقي ولاعن سلام بين العرب

وإسرائيل وذلك رغم الحديث عن تسويات محتملة يبقى مفتاح المياه في المنطقة بيد إسرائيل ففي ضوء ميزان القوى المختل عربيا والمائل لصالح إسرائيل، لن يعني السلام سوى أن تتحكم إسرائيل في المنطقة مائيا ثم اقتصاديا، كما سبقت أن أحكمت قبضتها عليها عسكريا وهنا نتذكر حكمة المثل ""وراعي الشاه يحمي الذئب منها ،فكيف إذا كان الذئاب هم الرعاة"".

6. هوامش:

[1]– مايير جولدا،(1898، 1978)رابع رئيس الوزراء للحكومة الإسرائيلية بين 1969 حتى 1974

[2]– هيرتزل تيودور،(1860 ،1904) صحفي يهودي نمساوي، مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة وواضع مقررات مؤتمر بال سويسرا 1897

[3]– وايزمان خاييم(1874،1952)أشهر شخصية صهيونية بعد تيودور هيرتزل لعب دورا في استصدار وعد بلفور 1917 كان رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية منذ 1920 إلى 1946

[4]– ابن غوريون دافيد 1886، 1973، أول رئيس وزراء إسرائيلي، قائد حرب 1948، التي يطلق عليها الإسرائيليون (حرب الاستقلال) مؤسس حزب العمل اختارته مجلة تام أحد أهم 100 شخصية في ق20

[5]– الشاعر كمال محمد، أثر الأطماع الإسرائيلية في المياه الجوفية الفلسطينية على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وترسيم الحدود الدولية ، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات الناشر جامعة فلسطين ... يونيو 2015صص 309الى346

[6]– غليوم الثاني، إمبراطور ألمانيا (1888،1918) دخل الحرب العالمية الأولى وانهزم فيها ليتخلى عن العرش سافر لهولندا ليقيم فيها حتى وفاته 1941

[7]– نصر الدين سعيد خلف، إشراف ومتابعة كمال الأسطل بعنوان إسرائيل و الأمن المائي العربي ،جامعة الأزهر غزه ،قسم العلوم السياسية ،مارس 2010، ص15

[8]– روجي جارودي، ملف إسرائيل دراسة للصهيونية السياسية ،دار الشروق للنشر والتوزيع1984م،ص18

[9]– ثابت أحمد ،جوانب الصراع العربي الإسرائيلي ومجالاته، أكتوبر 2004م،موقع الجزيرة الإخباري https://www.aljazeera.net/2004/10/03/%D8%AC%D9%88%D8%A7%D9%86%

[10] – حنان مصطفى اخميس، المطامع الإسرائيلية في المياه العربية و الفلسطينية ،مجلة دنيا الوطن ،22-9-2012

[11] – جارودي روجيه، محاكمة الصهيونية الإسرائيلية، ترجمة حسن حيدر، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة 2002 م ص208

[12] – جارودي، محاكمة الصهيونية، ص205

[13] – جريدة لومند الفرنسية، 15 أكتوبر 1971

[14] – جارودي، محاكمة الصهيونية، ص 19

[15] – جارودي، محاكمة الصهيونية، ص20

[16] – مسعود جمال عبد الهادي، قراءة في فكر علماء الاستراتيجية، الجولة الإسرائيلية، نشر دار الوفاء، ص75

[17] - جارودي، محاكمة الصهيونية، ص30

[18] – محمود سمير أحمد، المعارك المقبلة في الشرق الأوسط، القاهرة، دار المستقبل، ص137

[19] – مجلة تاريخ العرب والعا لم، العدد11،شتنمبر1979م، ص29

[20] - حسن أبو النمل، الاقتصاد إسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت،1998م، ص257

[21] – جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار الملايين، بيروت، الطبعة السابعة1982م ، ص374

[22] – مؤتمر الصلح، انعقد بباريس 1919 بعد نهاية الحرب العالمية الأولى من طرف الدول المنتصرة حيث تم فرض اتفاقيات قاسية على المنهزمين في الحرب كمعاهدة فرساي، معاهدة سفر ضد الإمبراطورية العثمانية.

[23] – مذكرة رسمية رفعتها المنظمة الصهيونية العالمية بالتعاون مع وزارة الخارجية البريطانية في شباط 1919 إلى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح بباريس بعنوان " تصريح المنظمة الصهيونية العالمية بصدد فلسطين " .

[24] – نهر الليطاني يمتد من مدينة بعلبك حتى يصل إلى مدينة صور ليصب في ب، أ ، م طوله 170 كلم يمر معظمه في سهل البقاع وهو أطول نهر له عدة روافد .

[25] – جبل الشيخ أو جبل الثلج يقع بين سوريا ولبنان ويطل على فلسطين و الأردن القسم الأكبر منه اليوم تحت الاحتلال الإسرائيلي ضمن هضبة الجولان أعلى قمم يصل ارتفاعها إلى 2814 ويعتبر جبل الشيخ المنبع الرئيسي لنهر الأردن و العديد من المجاري المائية في المنطقة .

[26] – بانياس ينبع من الجولان المحتلة أحد الروافد الهامة لنهر الأردن

[27] – نهر اليرموك طوله 57 كم منه 47 كم داخل الأراضي السورية، ينبع من بحيرة مزيريب في سوريا

[28] – الانتداب قيام دولة قوية بتقديم التوجيه والمساعدة لدولة ناشئة إلى أن تصبح قادرة على تسيير شؤونها وقد طبق ذلك على البلدان العربية

[29] –عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث ،1981،الطبعة الثامنة،ص35

[30] –الكيالي، تاريخ فلسطين،ص66

[31] - السقا طارق حسن، المياه وزوال الدولة اليهودية، مجلة الكترونية صيد الفوائد ، 2013 م، ص46

[32] -فرسون سميح، فلسطين والفلسطينيون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003 م ، ص 117

[33] – الكيالي، تاريخ فلسطين،ص35

[34] – جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 167

[35] – سلامة رمزي، الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية " استراتيجية وتاريخ"، ضمن كتاب مشكلة المياه في الوطن العربي دار النشر بيروت2008م، ص 86

[36] - عبد القادر رزيق، الأمن المائي العربي الحاجيات والمتطلبات، دار الفكر سوريا،دمشق،1999م ، ص52

[37] - محمد المومني، السياسية المائية للكيان الصهيوني، دراسة في الجغرافية السياسة، دار عمان للنشر،1986، ص166

[38] – نبيل السمان، حرب المياه من النيل إلى الفرات، دار المستقبل، الطبعة الثانية2001م141.

[39] – حنان مصطفى اخميس، المطامع الإسرائيلية في المياه العربية و الفلسطينية ،مجلة دنيا الوطن ، 22-9-2012

[40] – ياغي إسماعيل أحمد، تاريخ العالم العربي، مكتبة العبيكان الرياض،2000م، ص163- ياغي اسماعيل ، تاريخ العالم العربي، ص331

[41] – رمزي سلامة، الأطماع الإسرائيلية، ص89، عربيد وليد، المياه عامل استراتيجي في الصراع العربي الاسرائيلي، مكتبة لبنان 2016، ص 18

[42] – السهلي، إسرائيل وسرقة المياه الفلسطينية، الجزيرة نت،24-1-2010

[43] – رمزي سلامة، مشكلة المياه في الوطن العربي، احتمالات الصراع والتسوية، المعارف مصرن2001م، ص169

[44] – اديب محمد علي، الأطماع الكبرى لإسرائيل، مكتبة برج العلم، الطبعة الأولى 1997م ، ص154

[45] – ثابت أحمد ، جوانب الصراع العربي الإسرائيلي ومجالاته، أكتوبر 2004م،موقع الجزيرة الإخباري

[46] – عربيد وليد، المياه عامل استراتيجي في الصراع العربي الإسرائيلي، مكتبة الوراق سوريا ،2003م، ص132

[47] – سلامة رمزي، الأطماع الإسرائيلية في المياه العربية "استراتيجية وتاريخ" نبيل السهلي ،إسرائيل وسرقة المياه الفلسطينية، الجزيرة نت، 2010، الرابط https://www.aljazeera.net/opinions/2010/1/24/%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8

[48] – حول موضوع الدور الإسرائيلي في منطقة حوض النيل، أطروحة دكتوراه، في العلوم السياسة تخصص علاقات دولية، ليلى لعجال، إشراف حسين قادري، جامعة باتنة1،كلية الحقوق والعلوم الإنسانية، قسم العلوم السياسية .

[49] -مهند النداوي، اسرائيل في حوض النيل دراسة في الاستراتيجية الاسرائيلية ،الجزيرة نت،2014 الرابط
https://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/2014/2/15/%D8%A5%D8%- نبيل السهلي ،إسرائيل وسرقة المياه الفلسطينية، الجزيرة نت، 2010، الرابط https://www.aljazeera.net/opinions/2010/1/24/%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8

[50] – لبد أيمن، غدير عرفة، المركز الفلسطيني للأبحاث و السياسات و الدراسات الاستراتيجية، مسارات نوفمبر2016

التكنيكات العربية في تنمية الثروة السمكية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة.

Arab techniques in developing fish wealth in the Islamic Maghreb during the second and third centuries of migration.

عصام منصور صالح عبد المولى / كلية الآداب/ جامعة طبرق/ ليبيا.

البريد الالكتروني dr.esaam2020@gmail.com

تاريخ الاستلام: 12 /2021/02 **تاريخ القبول:**29 /2021/04 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

الملخص:

يتناول البحث واحدة من جملة التأثيرات الحضارية التي سارت في ركاب العرب عند دخولهم بلاد المغرب واستقرارهم فيه، فقد تعددت أوجه تأثيرهم المادي والمعنوي في كل جوانب الحياة اجتماعياً واقتصادياً ودينياً واثنياً وثقافياً وفكرياً وعلمياً وتقنياً، فلا محاكة في أن هذه الدراسة هي محاولة بسيطة في شكل إجابة جزئية عن حجم التأثير الحضاري العربي الإسلامي، فتنمية الثروة السمكية أرى أنها مساهمة ايجابية للعرب في اقتصاد بلاد المغرب، لا تقل أهمية عن أي مساهمات أخرى لهم، تجلت فيها عبقرية واضحة وعلم رصين وإبداع، طبقوا فيها علومهم الهندسية والبيولوجية والكيميائية والبيئية، سبيلهم في تنمية الثروة السمكية اتخاذ مزارع للسمك، تكاد تشابه المزارع السمكية في الوقت الحاضر، بل أكاد اجزم أنها هي الفكرة الأولى لها، باعتمادهم آليات وخطوات علمية منطقية، سنتحدث عنه جملة وتفصيلا في ثنايا البحث.

الكلمات الدالة : تربية الأسماك؛ الثروة السمكية؛ بلاد المغرب؛ التكنيكات؛ تغذية الأسماك.

Abstract:
The research deals with one of the civilizational influences that walked on the passengers of the Arabs upon entering the countries of the Maghreb and settling in it. The aspects of their material and moral influence in all aspects of life, socially, economically, religiously, ethnically, culturally, intellectually, scientifically and technically, have varied. Partly on the size of the Arab-Islamic civilization influence, as I see the development of fisheries as a positive contribution for the Arabs to the economy of the Maghreb countries, no less important than any other contributions to them And creativity, in which they applied their engineering, biological, chemical and environmental sciences, their way of developing fish wealth, taking fish farms, almost similar to fish farms at the present time, but almost certain that it is their first idea, relying on logical scientific mechanisms and steps, which we will talk about in whole and in detail in the folds of the research.

مقدمة:

من القول الخاطئ الذي يجافي الحقيقة ويجانب الصواب التعميم بأن العرب ليست أمة بحرية[1]، هو تعميماً ربما مفاده قياس كل العرب على عرب الحجاز[2]، تناسياً أو نسياً لعرب اليمن وعرب الشام وعرب الخليج، الواقع أن العرب لم يطرقوا أراضي بلاد المغرب بحراً أنما براً على ظهور أبلهم وخيولهم، وتقديراً أن زمن تعامل العرب مع البحر في بلاد المغرب صار أكثر

وضوحاً وبصراحة الخبر والنص التاريخيين في عهد حسان بن النعمان الغساني، وبما أن المصادر التاريخية أشارت صراحة إلى تربية العرب للأسماك في بلاد المغرب، في صهاريج الماء، التي صُممت أول الأمر لتخزين مياه الأمطار، ولكنها كعادتها غيبت كل تفاصيل الصنعة، وفي المقابل هي موجودة توشي عنها بعض النصوص التاريخية والإشارات المصدرية المقتضبة فتحمل دلالات علمية وهندسية وفيزيائية وميكانيكية وكيميائية وبيولوجية، تنم عن أن العرب بالفعل أقدموا على ذلك، ان العذر عذران الأول كون المصادر التي بين أيدينا ليس موضوعها موضوع التأريخ للعلوم والتقنيات التي ادخلها العرب لبلاد المغرب أو التي كانت موجودة أصلا، والثاني غياب دراسات أثرية حقيقية تنهض معا إلى جانب المصادر التاريخية لتثبت أو تنفي ما جاء في الأخيرة من إشارات مصدرية.

فلنا أن نرسمها مقاربة ونحاول إثباتها بداية من تجهيز أحواض السمك كاختيار مكانها، وهندسة بناءها، والمواد المستعملة في بنائها، وطرق ووسائل تعبئتها بالماء، والحفاظ عليها من التلوث والتسرب، ومنع ركود مائها، واختيار نوع السمك المراد تربيته، وجنسه أي تمييز ذكوره عن إناثه، وتغذيتها، وحجم إنتاجها وأسعارها في السوق.

في الواقع للعرب مساهمات عديدة في تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط[3]، كنا نعتقد عدم وجودها بالمرة، كما اعتقد غيرنا من الباحثين، تمثلت في تربية الأغنام والإبل والخيل والأبقار، كنا قد بينها في عمل سابق تحت عنوان[4]، الأمر الذي حفزنا على مواصلة البحث لإظهار مساهمتهم الأخرى في مواضيع ذات صلة مثل مساهمتهم في تربية الطيور[5]، وان كانت أهمية الموضوع تكمن في إدخالهم لبلاد المغرب أجناس غير التي وجدوها به لتزداد الثروة الحيوانية به وتتنوع[6]، بل تعددت آلياتهم وخبراتهم في زيادة الثروة وزيادة الإنتاج بإدخالهم لأنواع جديدة من الأعلاف للمغرب، لم تكن معروفة قبل استقرارهم فيه ومشاركتهم في الحياة الاقتصادية [7].

العرب والبحر في بلاد المغرب :

توسع نشاط العرب وازداد عندما تجاوز البر ليشمل البحر حيث ثروته السمكية، ولعل أولهم عرب مدينة تونس، المدينة العربية الصرفة، التي اتخذت كمركز لاستقرار العرب، عندما أُستحدثت على يد حسان بن النعمان الغساني سنة 82هـ، وأصبحت ثاني المراكز العربية لاستقرار العرب في افريقية[8]، وقد هدف لاتخاذ هذه المدينة الساحلية على البحر لتكون قوة وعدة للمسلمين، ومنطلقاً للقوات البحرية باتجاه سواحل البيزنطيين، لأشغالهم عن تهديد سواحل المغرب[9]، وتزايدت أهميتها سريعاً حتى عادلت القيروان في كثرة العرب المستقرين بها [10]، يعود الفضل للعرب اليمنية أول الأمر، بتأسيس حسان بن النعمان الغساني دار صناعة السفن في مدينة تونس[11].

لم يكن إنشاء مدينة تونس على يد حسان بن النعمان الغساني وحده، بقدر ما كانت على يد قبيلته الأزد، فالأزد وخاصة الغساسنة منهم قبيلة حسان بن النعمان، الذين سكنوا الشام، كانوا هم من دون العرب من يقومون بإدارة العمليات البحرية منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان، وذلك منذ أول حملة عربية وُجهت إلى جزيرة قبرص سنة 38هـ[12]، بل أنهم كانوا يقومون بصناعة السفن في الشام، حيث احتفظوا بتقاليدهم البحرية التي ورثوها عن أجدادهم[13]، ركبوا البحر منذ قديم الزمان، وخاصة في موطنهم الأول اليمن، الذي يحده البحر الأحمر من الغرب، والمحيط الهادي من الجنوب، واحتكاكهم بشعوب بحرية مثل الفرس والأحباش[14]، عندما استخدموه في التجارة، فطالت سفنهم السواحل الجنوبية الشرقية لأفريقيا، إضافة إلى امتهان بعض قبائلهم لصيد سمك البحر، والتي اشتهرت بها قبيلة الأزد، وخاصة أزد عمان، وأزد الشام[15].

اشتهرت تونس بثروتها السمكية، كان اعتماد أهلها عليه في غذائهم، حتى صار يضرب به المثل في ذلك : " **لولا البقونس لم يخالف أهل تونس**"، ذلك أنها خالفت عشرين مرة[16]، وكانت في الغالب تصمد أمام كل حصار لحصانتها، واعتماد أهلها في معاشهم على

ثروتها السمكية[17]، وفيها من العائلات العربية من قبيلة جذام[18]، وقبيلة همدان اليمنيتين من حملت لقب سماك[19].

تربية الأسماك:

لم يكتفوا بصيد الأسماك، بل قاموا بتربيتها في بحيرة صناعية بين المدينة والبحر، تبعد عنه أثني عشرة ميلاً[20]، وان كنا لا ندري هل كان استحداث البحيرة لأجل تربية الأسماك أولاً أم لحماية أسطولهم من أي اعتداء بحرية على السفن وحماية لها من العواصف وهي راسية داخلها[21]، **وفي سطفورة كان اتخاذ مزارع السمك فيها أكثر وضوحاَ حسب تلميح المصادر إلى وجودها، عندما وصفت البحيرة التي بها، وبأن السمك يتولد في البحر ويخرج منه صغيراً كالذر، فيتربى في البحيرة**[22]، **وهو احتمال كبير أنه كان يتم حجزها في البحيرة، أي حجزها بسد إلى أن تكبر ويسهل اصطيادها**، لإشادة المصادر الجغرافية بكثرة إنتاجها وجودة أسماكها وتعدد أجناسها [23]، وهي من **أقدم المناطق التي استقر بها العرب بُعيد الفتح**[24].

فقد أبدع المهندس العربي في هندسة السدود بداية من اختيار موقع إقامتها إلى شكلها الهندسي ونوعية مواد بناءها، فاختيار موقعها المناسب يدل على عبقرية وطول باع في معرفة خصائص سطح الأرض من صخور وتربة ومعدل تساقط الأمطار ومقياس الجريان.

فالعرب منذ فجر تاريخهم أعطوا أهمية للسدود التي تقام على الوديان لتوظيفها لغرضين, لعل أولهما درء خطر السيول وثانيهما حجز المياه وتجميعها وتخزينها لاستخدامها وقت الحاجة سواء للزراعة أو الشرب، وانتشرت بينهم هذه الخبرة وسارت في ركابهم أينما ذهبوا واستقروا، ففي الأندلس على سبيل المثال، وبحسب شهادة شاهد من أهلها . نورمان سميث . كان كل نهر أو وادٍ، صغيراً أو كبيراً أقاموا عليه السدود، وهو أمراً ليس بغريب عليهم فقد عرفوا الأساليب الفنية الأساسية لإنشاء السدود من أجدادهم، اذ لم يكونوا في حاجة إلى أن يذهبوا ابعد من حدود بلادهم ليعرفوا طريقة إنشاء السدود، حيث اليمن وسد مأرب الشهير

فيها، لذلك تتابعت إبداعاتهم، وخاصة اليمنيين منهم، في إنشاء غيره من السدود، فالخبرة والتقنية في انتقالها من مكان إلى أخر حاكت في التنقل والرحلة رحلة الإنسان، اي أنها سارت في ركاب اليمنيين، وحطت معهم أينما حطوا واستقروا، في الوقت الذي تم فيه توحيد بلاد العرب تحت راية الإسلام، وانسحوا فيها بالهجرة والاستقرار بعد الفتوح، فكان تشييدهم لسد الطائف بالحجاز، وتوالى إبداعهم وانتشر ليشمل العراق، حيث نهري دجلة والفرات، فتفوقوا على الفرس بتطويرهم شبكات الري الفارسية، التي وجدوها أمامهم، بل شيدوا عدة سدود جديدة كانت أكثر أبداع ودهشة، بل لهم من التصاميم الهندسية من السدود مدعاة للفخر وطول باع، بحسب شهادة المستشرق الانجليزي المهندس المؤرخ هيل المهتم بالتأريخ للهندسة والتكنولوجيا العربية الإسلامية في العصور الوسطى، حاكتها السدود التي أُنشئت حديثاً في أوروبا وغيرها[25].

على كل حال ظلت بحيرة سطفورة محتفظة بعطائها ووفرة إنتاجها حتى أواخر العصر الوسيط، حسب وصف الحسن الوزان، بقوله : " يصاد من البحيرة كمية وافرة من السمك خصوصا سمك المرجان الكبير الذي يزن من خمسة إلى ستة أرطال وعند انتهاء شهر أكتوبر يصطادون نوعا من السمك يسميه الأفارقة زرافة وأظن انه هو الذي يحمل اسم لاتشيا (الشابل) في روما " [26].

كنا نحبذ لو ان المصادر التي بين أيدينا لو كانت أكثر عطاء للمعلومات بأن تحدثنا عن المساهمة العربية في موضوع متصل، كأن تخصص فصولاَ أو أبواباَ مستقلة، عن دور العرب في تنمية الثروة الحيوانية في بلاد المغرب، من خلال حديثها عن مزارع السمك، وعن تقنياتهم وخبراتهم، لإعطاء كل ذي حق حقه مراعاة للتخصيص، ونسب كل حدث لفاعله من باب عدم بخس الناس أشياءهم، ولكن لا بأس من التقاط الإشارات المصدرية المتوفرة والمتناثرة في كل المصادر التي بين أيدينا، ووضعها جنباً إلى جنب، حسب تاريخيتها أي سياقها التاريخي، علاوة على استنطاق النصوص التاريخية الواردة بها، والتي تحمل بين طياتها وخلف سطورها

أحاديث عارضة وغير مباشرة عن كل ما نبحث عنه بما يفيد في رسم صورة أكثر وضوحاً، لا نخفي سراً في ذلك أنها إحدى صعوبات الموضوع، مثال ذلك نصاً نرى أنه صريحاَ أكثر من سواه، يحمل في طياته الكثير، اذ يفيدنا البكري باتخاذ الاغالبة أبناء قبيلة تميم العدنانية الذين تم لهم حكم بلاد المغرب من سنة 184 إلى سنة 296هـ، صهاريج وتعبئتها بماء البحر وشحنها بمختلف الأسماك[27]، غير أنه وللأسف مصادرنا التاريخية تعمد دائماَ إلى التأريخ للأرستقراطية، حكاماَ وأمراء وزعماء وقادة، لا بأس فان الذي يهمنا أن الناس على دين ملوكهم، فلا شك أنهم قلدوهم واقتدوا بهم، فأخذت التجربة والخبرة طريقها إلى الانتشار.

أن من مثالب مصادرنا التاريخية على اختلاف مشاربها سواء كانت تاريخية أو جغرافية أو فقهية أو أدبية لم تهتم بإيضاح كل ما يتعلق بهذه المزارع، اللهم إشارة البكري بأنها صهاريج تملئ بالسمك وماء البحر، ولم يصف لنا حجمها ولا كمية إنتاجها ولا نوعية الأسماك بها، وهو أمر يعاب حتى على الدراسات الحديثة التي لازالت متقاعسة في عمليات البحث الأثري، ولو أن الدراسات الأثرية نهضت بنهوض الدراسات التاريخية وسارتا جنبا إلى جنب، لتمكنا من إعطاء صورة أكثر وضوحاً عن مساهمة العرب في هذا المجال، وان كانت الإشارات المصدرية المتوفرة كافية عن إثبات حقيقة تاريخية من عدمها .

على ما يبدو أن خبرات كل ما يلزم صناعة المزارع السمكية لم تكتب بل كانت تُحفظ وتتناقلها الذاكرة جيل عن جيل حفظاً ومشافهة، وربما كُتبت وضاعت، وربما لم تكتب حفاظاً على احتكار المهنة.

صناعة أحواض السمك:

على كل حال كانت الصهاريج ضخمة أيام الاغالبة سواء التي كانت في رقادة أو تونس[28]، فقد أشاد الجغرافيين والرحالة بعظمة بناءها وهندستها وكأن لم يخلق مثلها في البلاد[29]، وبحسب الواقع فأن تشييدها كان يحتاج لخبرة هندسية وتقنية ومهارة في التنفيذ تفادياً للانهيار والتسريب، بداية من اختيار الأرضية، سواء كانت رخوة أو صلبة، إلى اختيار

واختبار المواد التي تدخل في عملية الإنشاء، أي انه اتُخذت كل الإجراءات التي تضمن الحفاظ عليه من التلوث بهندسة معمارية بالغة الدقة، وبتقنية تناسب أي بيئة يراد إنشائها فيها، للحفاظ عليها من الحجارة والطمي والشوائب[30]، وإمعاناً في المحافظة على نظافة الماء من الطحالب والتلوث الجرثومي كانت تبطن جدرانه بالآجر والحجارة الكلسية كانت تعرف بأسم النوره، وهي من المواد المعالجة والمعقمة للماء[31]، وكذلك طلاءها بنوع من الطلاء يجعل بين سافي الحجارة يسمى الملاط[32]، وربما من مواصفاته صنعه ممزوجاً مع مواد تمنع التلوث، وتصمد وتزداد تماسكاً مع الماء[33]، نكاد نجزم أنها بنيت بأدق حسابات هندسية إنشائية، مثلها مثل التي كانت في بلاد اليمن في سالف أيامها أيام بناء العرب اليمنيين لسد مأرب[34]، فالمغرب بعد فتح العرب له اتسع صدره لكل المؤثرات الحضارية العربية، وربط بالمشرق حضارياً وعلمياً وتقنياً، فليس في مجال الهندسة المائية فقط، وهو الأمر الذي سمح لمواكبة التطور في مجال الهندسة العربية، وانسيابها من المشرق نحو بلاد المغرب، وهو ما فعله الأغالبة العدنانيين عندما استقدموا مهندسين عرب من المشرق إلى المغرب لذات الغرض[35].

الثابت تاريخياً أن الصهاريج صُممت أول أمرها لجمع وحفظ مياه سيول الأمطار للاستفادة منها في الشرب والري[36]، ومن ثمة استُعملت في تربية اسماك، ولكن تبقى إمامنا محاولة فهم وتوضيح معرفة كيفية تعبئتها بماء البحر، خاصة وان القوانين المنظمة للعمران حسب الفقه الإسلامي، تفاديا لخطر فيضان البحر على الشاطئ، وضعت حدوداً جغرافية محظورة للبناء أياً كان نوعه في الأماكن المقابلة للبحر، حتى وان كانت الأرض مملوكة لأصحابها، يسمى بحريم البحر، ومقداره خمسمائة ذراع[37]، اي 363 متر تقريباً ، بما أن الذراع يعادل 72.815سم[38].

تعبئة الأحواض:

بما أن المصادر وكذلك الرصد الأثري لم تسعفانا بالتعرف على الطريقة التي كانت تتم بها تعبئة الصهاريج بماء البحر، لجاءنا إلى التخمين، على اعتبار أنها بُنيت بعيداً عن البحر، فربما

استخدموا قنوات لتوصيل الماء تبعاً لمهارتهم في شقها، مثلما فعلوا في ميناء مدينة تونس، أثناء ولاية موسى بن نصير اللخمي، بشقهم قناة بطول أثنى عشرة ميلاً، توصل بين الميناء رادس والمدينة نفسها، لترسو بها المراكب في فصل الشتاء حماية لها من العواصف[39]، وواضح أن براعتهم لا تقل عن براعة مهندسي الوقت الحاضر، باستخدامهم أدوات أشبه بالأجهزة لتسيير وجر المياه، تجلت فيها عبقرية واضحة، أطلق عليها أسم المرجيقل[40]، وهي شبيهة بالخيط الشاقولي[41]، لان الجهل بمستوى الانحدار يترك سلبيات تتمثل في سرعة جريان القناة، والبطء كذلك، حتى أن أدوات الحفر كانت عربية بامتياز تنوعت وتعددت تبعا لطبيعة استخدمها، بلغ عددها احد عشر نوعاَ، وهي جميعها عربية بامتياز، وانقسمت إلى قسمين نوع للتراب[42] ونوع للحجارة[43].

وسائل تعبئتها :

وربما مهارتهم في ابتكار وصناعة آلات رفع المياه وجرها ودفعها وجلبها من المشرق وإدخالها لبلاد المغرب مثل **الناعور : وهو من الأدوات التي نقلها العرب من بلاد الشام إلى بلاد المغرب والأندلس، واستخدمت لسقي الحقول ولا يزال مستعمل في بعض مناطق اسبانيا، ولا زال يعرف باسمه العربي في الوقت الحاضر (Noira)**[44]، وكذلك **الدولاب : وهو فارسي معرب[45] : هو يشبه الناعور ولكن تركيبه أكثر تعقيداً، ويختلف عنه من حيث القوة المشغلة له، حيث يدور بالاعتماد على حركة الحيوان، سواء كان جملاَ أو ثوراَ أو حصاناَ**[46].

ربما استخدموا هذه الآلات لتحريك الماء وتجديده وتصريفه ومنع ركوده، فركود الماء له مشاكل بيئية، وللعرب طول باع وخبرة في معرفة أجناس الماء وما يطرأ عليها من تغير، فقد جاءت إشارات الأطباء العرب في جل مصنفاتهم حول العلاقة بين المياه الراكدة وبين الهواء ودراجات الحرارة والرطوبة[47]، فمياه البحار تزداد ملوحة تبعاً للتبخر فتزداد كثافة الأملاح ـ فما بالك بأحواض صغيرة من ماءه ممثلة في أحواض تربية السمك ـ غير أن انفتاحها على

المحيطات عبر المضائق البحرية كانفتاح البحر المتوسط على المحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق، وبها تتم عملية واسعة تمنع ركود الماء البحر، حيث يستمر تدفق الماء من المحيط إلى البحر والعكس، مكونا تياراً مائياً والعكس، وهي خبرة لم تغب عن العرب[48]، وبما أنها ظاهرة كونية أهتم بها علماء البحار في وقتنا الحاضر، أضحت تُعرف عندهم بظاهرة التدفق المائي[49].

لا نستبعد أن العرب بحكم درايتهم بهذه الظاهرة أن صارت لهم الدراية الكافية بأن يطبقوها في المزارع بضرورة تجديد المياه، خاصة وأنهم كانت لهم مؤلفات قديمة جداً عن البحار تحلل مختلف ظواهره وتصف مسالكه، لعل أقدمها كتاب عجائب البحر، لهشام بن محمد السائب الكلبي المتوفى سنة 204هـ[50]، ويبقى أمامنا معرفة كيفية المحافظة على نظافة وعقم الماء وهي البيئة الصغرى داخل حوض السمك، وهي أساليب تعقيم المياه التي ترمي إلى دفع تلوثه الجرثومي.

الحفاظ علي المزارع من التلوث:

أولى واهم أسباب فساد المياه وتلوثها التقلبات الفصلية، وخاصة في الأوقات التي تحدث بها تغيرات قوية في درجة الحرارة والرطوبة، وهي عوامل قوية جداً لنشاط الجراثيم في الماء والهواء[51]، فالماء يكتسب خاصية ما يخالطه، وكيف أن القمامة والقاذورات تأثر فيه، حيث تتصاعد الأبخرة وتنقلها الرياح، أي فساد الهواء هو فساد الماء والعكس، وهنا تتجلى حضارة العرب وإلمامهم بالفكر البيئي، ولعل أولها طريقة تخلصهم من القمامة، بإبعادها عن كل ما من شأنه ان يناله ضررها[52]، وهو أمر ليس بالجديد، حيث حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " **أن الله طيب يحب الطيب فنظفوا أفناءكم وساحاتكم** "[53]، وهو أمر لم يهمله العلماء العرب عندما وضحوا كيف أن الهواء له تأثير أقوى من أي عنصر أخر في الطبيعة لإفساد الماء، فلم يدخر علماء العرب المسلمين وأطباءهم جهداً في توضيح وتدوين أساليب تعقيم الماء واستصلاحه، ما دونوه في مؤلفاتهم سهل عملية انتقال وتداول الخبرة في أي بلد

وصلت إليه، من مكان إلى أخر ومن جيل إلى جيل، كأبن قبيلة تميم، محمد بن احمد التميمي المقدسي، من رجال القرن الرابع الهجري، في كتابه مادة البقاء، وابن سينا الطبيب الفيلسوف العربي في كتابه القانون، اذ أن المؤلفات العلمية المشرقية التي كانت تظهر في المشرق سرعان ما كانت تجد طريقها إلى بلاد المغرب والأندلس فيستفيد منها أهله [54].

شحنها بالأسماك:

استمرار انسياب الخبرة من المشرق : استمر العمل في هذه المزارع وتطويرها من بعد الأغالبة حتى عهد من جاء للمغرب من بعدهم كإخوانهم الفاطميين أبناء قبيلة قريش، فقد واصل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله صنيع الأغالبة، عندما عمل على جلب أنواع نادرة من اسماك المحيط الأطلسي، تم جلبها في قلال ماء[55]، رغم بعد الشقة وطول المسافة بين افريقية والمحيط الأطلسي، وهو أمر ذو دلالة على مهارة تعاملهم مع الأسماك، والحفاظ عليها حية في أواني الحفظ التي أعدت لأجلها، ولازال الغموض يكتنف تفاصيل الخبرة حتى أنواع السمك المجلوب وكيفية توطينها في بيئة بحرية غير البيئة التي خُلقت فيها، وربما حتى الاغالبة جلبوا أنواع من الأسماك من المشرق، اذ كانوا حديثي عهد ببلاد المغرب، وما كان وصولهم إليه من المشرق على يد العباسيين كأسرة حاكمة، إلا أواخر القرن الثاني للهجرة، وظلت صلتهم ببلاد المشرق أقوى، اذ عملوا على ربطه بلاد المغرب بالمشرق سياسياً وحضارياً[56].

يفيدنا نص غاية في الطرافة والأهمية في آن واحد عن دراية للعرب بمعرفة ذكور الأسماك من إناثها وهي في عمق البحر حرة طليقة، وكانت لهم الخبرة على اصطياد كل منها على حدى، مما يقودنا إلى الاعتقاد الذي لا يخلطه شك أن غرضهم من ذلك حسب ما توحي به النصوص التاريخية، كان للاستفادة من إناثها لتربيتها في المزارع للتكاثر، وخاصة إناث سمك البوري، الذي يحسن التعايش في المياه الضحلة، أي مياه البحيرات المتصلة بالبحيرات[57]، استعملوا نوع من آلات أو أدوات الصيد يسمونها النقارة[58]، وواضح أنها نوع من آلات الصيد تستخدم فقط لاستخراج كبار الأسماك من الماء[59]، لم تصفح عن وصفها بشرح

مفصل، غير أن معاجم اللغة العربية كلسان العرب إفادتنا بأنها أداة تشبه الرمح[60]، وواضح أنها مخصصة مثل المخطاف أو غيره، لجلب الأسماك من أحواض مزارع الأسماك، للانتقاء الكبار منها فقط، بل أن عرب سفاقس اليمنيون" **تنوخ** و**لخم** و**الأزد** و**صدف** "[61]، كانت لهم نفس براعة عرب تونس أن لم تكن براعتهم أكبر، فقد كانت لهم أساليبهم في صيد السمك وانتقائه من الماء، وصفها لنا ابن حوقل بقوله : " **ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم، تصاد بحظائر قد زُربت وعُملت في الماء فتؤخذ بأيسر سعي** "[62]، **لا نرى مشاحة في القول ولا تثريب في الاعتقاد بأن هذه الطريقة في التعامل مع الأسماك دليل و قرينة بالدراية عن تصميم المزارع السمكية،** فالحظيرة عند العرب ما أحاط بالشيء وعادة ما تكون من قصب وخشب[63] .

الواقع أن مزارع تربية الأسماك وردت إشارات عديدة في كتب الفقه والنوازل المغاربية عن شيوعها وانتشارها، عندما تناول قضاياها الفقهاء للفصل في عديد المنازعات التي تنشأ حولها : " **سئل ابن أبي زيد عن صيد الحوت في غدرها فأجاب : غدر الحيتان فأن الُقي فيه أصول الحيتان فلصاحبها الحق منع غيره من الصيد فيها** "[64]، الغدر هو مستنقع الماء صغيراً كان أو كبيراً، وهي أشبه بالمستنقعات[65]، ولم تفصح معاجم اللغة العربية في وصفها أكثر من ذلك، أهي مستنقعات أو برك ماء تتكون بفعل الطبيعة، أم منشآت تبني بفعل الإنسان، بل أن جميل ما يذكر أن القائمين على الانتفاع من هذه المزارع أن حق لنا وصفها بذلك، كانت لهم الخبرة باستخراج الأسماك من الماء حسب طلب التجار من حيث النوع والحجم والعدد[66].

النهي عن الصيد الجائر :

ربما سبق العرب المسلمين العالم في هذا المضمار ففي ذلك حفاظاً على النوع من جهة، وحفاظاً على التوازن البيئي من جهة أخرى، الأمر الذي دفع بالفقيه سحنون بن سعيد التنوخي، ابن قبيلة تنوخ اليمنية، أن يخصص لها باباً مستقلاً في مدونته في النهي عنه[67]،

وكذلك ابن أبي زيد القيرواني في كتابه النوادر والزيادات[68]، **ولذلك كانت لبحيرة سطفورة نصيبها من ذلك الوعي، اذ عرفت عديد المشاكل، على رأسها الإفراط في الصيد فكان للدولة دور في حلها[69] على يد أمراء سطفورة، أي تقنين الصيد، وربما في الأوقات التي يُحجز في داخلها صغار السمك، وانتظار أوقات كبره وتسمينه، ولعل على رأس هؤلاء الأمراء أبناء أسرة بني الورد، سلالة قبيلة لخم اليمنية، اللذين كانوا قد استقروا فيها، منذ فترة مبكرة من فتح بلاد المغرب، أيام حملة موسى بن نصير اللخمي**[70].

من المنطق **أن وفرة الإنتاج واستمراريته لا تأتى إلا بإدارة راشدة حكيمة تتولى الإشراف على سير عمليات الاستخراج، والمحافظة على سلامة البيئة في البحيرة وما حولها، وبما تكون ورسخ في أذهان العرب بحكم الإسلام وتشريعاته،** انطلاقاً من الهدي النبوي وإتباع السنة النبوية، عندما أكد الإسلام على أهمية الطهارة في المكان والبدن، وجعلها شرطاً لأداء بعض العبادات، لعل أولها الصلاة حتى شاعت بين المسلمين مقولة النظافة من الأيمان، والتي عدها الرسول صلى الله عليه وسلم نصف الأيمان : "**الطهور شطر الأيمان** "[71]، و"**الأيمان بضع وسبعون درجة فأدناها إماطة الأذى عن الطريق**"[72]، لذلك نهى عن البصاق على الأرض وعده خطيئة كفارتها دفنه[73]، وذلك حرصاً على نظافة أي مكان على سطح الأرض: "**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فيصل**"[74]، وعليه نهى عن البول في موارد المياه وهي الآبار والعيون والأنهار والتبرز في الظل وقوارع الطرق[75]، وما لبث أن صارت وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وإرشاداته قوانين عمل بها المسلمين، وبنى عليها الفقهاء أحكاما شرعية وآداباً، وغدت شؤون البيئة موضوعاً أساسياً اشتملت عليها كتب الفقه والنوازل المغربية مواكبة للتطور الحاصل في الحركة العمرانية معتمدين الحديث النبوي الشريف: "**لا ضرر ولا ضرار**"[76]، لذلك نجد من الولاة خلال القرن الأول الهجري من اهتدى بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم بسن قوانين صارمة على

من يتسبب في تلويث البيئة ومعاقبة المخالفين بالسجن[77]، لا تثريب في القول أن هذه الإجراءات ضمنت المحافظة على البيئة بترويج العرب لثقافة بيئية انطلاقاً من نظرية قاعدة الوقاية خير من العلاج، فكانت النتيجة أن بلاد المغرب، وخاصة المناطق التي استقر فيها العرب بكثافة لم تسجل حالات وباء عظمى[78].

تفيدنا المصادر بمعلومات غاية في الأهمية بذكرها لأسماء أنواع الأسماك في تلك البحيرة خاصة فكان منها : البوري والقاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروص واللاج والجوجة والكحلاء والطنفلوا والقلا[79]، ولكن من المؤسف جداً ان مصادرنا التاريخية العربية لم تعر جل النواحي الحضارية اهتماما، عليه يستلزم الأمر اللجوء إلى أدوات بحث أرى أنها ذات جدوى، متمثلة في علم التأثيل وهو علم أصول الكلمات، أي الأصل التاريخي للكلمة، وهو علم يعتمد على التتبع التاريخي للكلمات من خلال الوثائق والمخطوطات، أو تاريخ المجموعات البشرية الناطقة بهذه الكلمات، لزيادة التأكيد على عربية الحرفة، من خلال أسماء الأسماك الواردة : البوري والقاجوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروص واللاج والجوجة والكحلاء والطنفلوا والقلا، وان عملية التعريب نالتها عندما نالت جل الأشياء في بلاد المغرب.

لا ننكر أنا حاولنا جاهدين مراراً وتكراراً فعجزنا عن استقصاء جل الموضوع والفصل فيه جملة واحدة، ربما جل الأسماء عربية أو بعضها مثل البوري وهو نوع من السمك العظمي منسوب إلى بورة، وهي قرية تقع بين تنيس ودمياط بمصر[80]، والشلبة عرفها العرب بمصر قبل ان يعرفوها بالمغرب[81]، والكحلاء اغلب الظن أنها تسمية عربية مأخوذة من الكحل، قد يكون لون سمك الكحلاء نفس لونه فنعت به.

التماسا للعذر لعله يكون مقنعاً كيف لي كباحث منفرد في بلد لم يعر البحث العلمي بالغ الأهمية، الإجابة المقنعة عن كل التساؤلات، وحل جل المشاكل العلمية التي تواجه عمله، خاصة وان كان باحث مبتدئ لا يزال يحبو وان بلغ في مجال تخصصه من الدرجات العلمية

ان يخوض غمار عمل يحتاج أول ما يحتاج لتظافر جهود وتعاون علمي، لعل أولها العمل الجماعي بالتزاوج بين علوم إنسانية وتطبيقية عدة على رأسها علم اللغة، وعلم الآثار، الذي هو أيضا يحتاج إلى عملا بالغ الدقة والتعقيد، معتمدا على علم الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والجيولوجيا والهندسة والرياضيات وغيرها، يكفي عرض المشكلة وأدراجها في صلب الدراسة، فأن مجرد التنويه عنها والتنبيه عليها ليس بالعجز فلعل الإجابة عنها ستكون في إعمال لاحقة أو التنبيه لغيرنا أن ينبري لها، ليجد حلا لها.

تغذية الأسماك:

تجدر الإشارة إلى أن تقنية زراعة السمك في أحواض، مشرقية قديمة جداً، عرفها الصينيون منذ أربعة آلاف سنة، وارتبطت بإنتاج الحرير، حيث استخدمت شرانق دود الحرير وخراجاتها في تغذية السمك المستزرع[82]، وبما أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا غظت الطرف عن الكيفية والوسائل التي كانت تتم لإنجاح عملية الاستزراع، فلا نستبعد أن تغذيتها مشرقية أيضاً شأنها شأن التي كانت في الصين، خاصة وانه لا يخفى علينا العلاقات التجارية بين بلاد العرب والصين منذ فجر التاريخ، فصناعة الحرير للعرب فضل إدخالها إلى بلاد المغرب، بكل ما يلزمها من تقنيات وأدوات وخبرات، بداية من نقل شجرة التوت . التي تتربى وتتغذى عليها دودة القز اي دودة الحرير . من بلاد المشرق موطنهم الأول، وتوطينها ببلاد المغرب موطنهم الثاني، والتي أساس نقلها والإقبال على نشرها والإكثار منها لصناعة الحرير، كونه من الصناعات المجدية ذات مردود مادي كبير، فانتشرت شجرة التوت في كل بقعة استقر بها العرب في بلاد المغرب ولعل على رأسها مدينة تونس[83].

تقنية حفظ الأسماك بالتجفيف:

عرفها العرب وعرفت طريقها إلى بلاد المغرب، مثلما عرفوا تقنية حفظ اللحوم، وحفظ الحبوب والفواكه[84]، وتعقيم المياه[85]، فطرق المعالجة كانت شائعة ومتاحة، وكذلك المواد المستخدمة فيها، من أعشاب ومواد صيدلة في متناول الجميع، مع براعة العرب في معرفة

خاصيتها، بما توصلوا إليه من خبرة بمعرفة خواص الأعشاب وفوائدها واستخداماتها، جمعيها خبرات احتوتها كتب الطب والفلاحة العربيتين[86]، دخلت بلاد المغرب، فلا مشاحة من قياسها على تقنية حفظ الأسماك، ولا تثريب من الارتقاء بها كقرينة، بما أن المصادر غظت الطرف عن حيثيات العملية والمهارات والخبرات المستخدمة، فالبكري في حديث عن بحيرة تونس، يوحي بإشارة مقتضبة على خبرة ناضجة وتقنية عالية، بإشارته إلى ما يحفظ من السمك يبقى سنوات صحيح الجرم ولا يتغير طعمه ولونه.[87]

حجم الإنتاج:

واضح أن حجم الإنتاج كان كبيراً حتى صار يصدر فائضه إلى القيروان البعيدة عن البحر، وذلك من خلال خبر وفاة القاضي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري، أثر تناوله سمك ولبن عند الوالي اليمني يزيد بن حاتم المهلبي[88]، ويحمل إلى مناطق أخرى تبعد عن مراكز الإنتاج مسافة تقدر بأكثر من مائة وعشرون ميلا[89]، وتميزت أسعارها بالبخس فكان ما يكفي مجموعة من الناس غذاء وعشاء لمدة يومين بدرهم، وأحياناً بخروبة أي سدس درهم[90].

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم أنيس، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله احمد، المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004م.
- أحمد زكي باشا، مقدمة كتاب الأصنام، لأبن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد السائب، ت : 204هـ، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1924م.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله، ت :560هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، لا.ت.

- الأصفهاني، أبو الفرج، ت : 356 هـ ، كتاب الأغاني، بيروت، دار مكتبة، الحياة، لا.ت.
- الاهوازي، علي بن عباس المجوسي، ت : 330 هـ، كامل الصناعة الطبية، تحقيق : مؤسسة إحياء طب طبيعي، إيران، 1387هـ .
- البخاري، إسماعيل بن إبراهيم، ت : 256هـ، صحيح البخاري، القاهرة، مطابع الشعب، 1378هـ.
- البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، بيروت، 1972م.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، ت : 578هـ، كتاب الصلة، تحقيق : إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989م.
- البغدادى، عبد القادر عمر، ت : 1093 هـ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق : محمد عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجى، 1986م.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ت : 487هـ، المسالك والممالك، تحقيق : جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م.
- البلخي، أبو زيد احمد بن بن سهل ت : 323هـ، مصالح الأبدان والأنفس، تحقيق : محمود المصري، القاهرة، معهد المخطوطات العربية ، 2005م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ت : 279هـ.
- (1) أنساب الأشراف، تحقيق : سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، لا.ت .
- (2) فتوح البلدان، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987م .
- الترمذي، أبو عيسي محمد بن عيسى، ت : 279هـ، الجامع الكبير، تحقيق : بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م.

- التميمي، محمد بن احمد التميمي المقدسي، (من رجال القرن الرابع الهجري)، مادة البقاء في اصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، تحقيق : يحي شهاب، القاهرة، معهد المخطوطات العربية ، 1999م.
- التيجاني، محمد أحمد، ت : 709هـ، رحلة التيجاني، قام بها سنة 706 الي708هـ، طرابلس، دار الفرجاني، لا.ت.
- جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، بيروت، دار العلم للملايين، 1992م.
- الجوذري، أبو علي منصور العزيزي، ت : النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق : محمد كامل حسين، ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، دار الفكر العربي، لا.ت.
- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، جمع : محمد العروسي المطوي، تونس، مكتبة المنار، 1972م.
- الحسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.
- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، لا.ت.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي، ت : 626هـ، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 2007م.
- الحفيظ، عماد محمد، وجودي، ناطق داود، النواعير في التراث العربي، ندوة النواعير، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد ، 1990م.
- الحميدي، أبو عبد الله محمد أبو نصر الأزدي، ت : 488هـ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1962م.
- الحميري، محمد عبد المنعم الصنهاجي، ت : 900هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1984م.

- ابن حنبل، أحمد بن محمد، ت : 241هـ، كتاب المسند، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1995م.
- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، ت : 367هـ، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، لا.ت.
- ابن خُرداذبه، أبو القاسم عُبيد الله بن عبد الله، ت : 300هـ، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، لا.ت.
- الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس، دراسة تراجم ونصوص، بيروت، دار الغرب الإسلامي، لا. ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت : 808 هـ.
- (1) تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006.
- (2) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، 2006م.
- (3) المقدمة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006م.
- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، ت : 696هـ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق : عبد المجيد خيالي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005م.
- ابن دحية، ذي النسبين أبو الخطاب عمر، ت : 633هـ، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق : إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد ،سوريا، دار العلم للجميع، لا.ت.
- دونالد ر. هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ت : احمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، العدد 305، الكويت، 2004م.

- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، ت: 456 هـ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
- ابن رضوان، علي بن الشيخ رضوان المصري، ت : 453 هـ، كتاب دفع المضار الأبدان بأرض مصر، تحقيق : عبد المجيد دياب، القاهرة، مكتبة ابن قتيبة، 1994م.
- الرقيق، إبراهيم بن القاسم القيرواني، توفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق : المنجي الكعبي، تونس، الدار العربية للكتاب، 2005م.
- ركندورف، " الأزد "، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب، 1969م.
- ابن زهر، عبد الملك بن محمد بن مروان، ت : 557هـ، كتاب الأغذية، تحقيق : اكبيراثيون غارثيا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العا لم العربي، 1992م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد، ت : أواسط القرن السادس الهجري، كتاب الجغرافية، تحقيق : محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، لا.ت.
- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، ت : 386هـ، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامُهات، تحقيق : محمد الأمين بو خبزة، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،1999م.
- سحنون بن سعيد التنوخي، ت : 240هـ، المدونة الكبرى، نشر : محمد ساسي التونسي المغربي، مصر، مطبعة السعادة، 1323هـ.

- ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى، ت : 685هـ، كتاب الجغرافيا، حققه وعلق عليه : إسماعيل العربي، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،1970م.
- السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1969م.
- ابن سينا، الشيخ الرئيس، الحسين بن عبد الله بن الحسن، ت : 428 هـ، القانون في الطب، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا.ت.
- شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، بيروت، دار العلم للملايين للملايين، 1982م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت : 310هـ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1992م.
- طلعت احمد محمد عبده، وحورية محمد حسين جاد الله، جغرافية البحار والمحيطات، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، لا.ت.
- عادل البكري, أساليب استخدام النواعير عند العرب, ندوة النواعير, مركز أحياء التراث العلمي العربي, بغداد، 1990م.
- عبد الحميد محمد عبد الحميد، أسس أنتاج واستزراع الأسماك، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 2009م.
- ابن عبد الرؤوف، احمد بن عبد الله، ت : 424هـ، آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب، تحقيق : ليفي بروفنسال، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م.

- عبد الكريم التميمي، أبو عبد الله محمد الفاسي، المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، تطوان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002م .
- عثمان الكعاك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1972م.
- ابن عذارى، محمد بن عذارى المراكشي، ت : نهاية القرن السابع الهجري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 1983م.
- عز الدين احمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، دار الشروق، 1983م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت : 395 هـ، الأوائل، تحقيق : عبد الرازق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م.
- عصام منصور صالح عبد المولى.
- (1) التقنيات العربية لتوفير مياه الشرب والري في بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ،" التجميع والحفظ نموذجاً ". بحث قيد النشر.
- (2) تنقية المياه وتعقيمها خبرة عربية لتوفير ماء الشرب ببلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، بحث قيد النشر.
- (3) الحرير في بلاد المغرب والأندلس صناعة عربية بامتياز، قيد النشر.
- (4) دور العرب في تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط ، " الأعلاف نموذجاً "، قيد النشر.
- (5) الرفق بالحيوانات ورعايتها الصحية نموذج من نماذج مساهمات العرب في تنمية الثروة الحيوانية في بلاد المغرب خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، مجلة أفاق

الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد 101، 2018م.

- (6) المحافظة على سلامة البيئة في بلاد المغرب مدينة القيروان نموذجاً، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 29، 2018م.
- (7) مساهمة العرب في تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط ،" السلالات الجديدة نموذجاً "، قيد النشر.
- (8) طرق وتقنيات رفع الماء في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط .. الآلات الميكانيكية، قيد النشر.
- (9) مساهمة العرب في تنمية الثروة الحيوانية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة،" الطيور نموذجاً "، قيد النشر.
- فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة : كامل العسلي، الأردن، الجامعة الأردنية، 2001م.
- علي حسني الخربوطلي، الإسلام في حوض البحر المتوسط، بيروت، دار العلم للملايين، 1970م.
- ابن فرحون المالكي، برهان الدين بن علي، ت : 799هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان أهل المذهب، ت : مأمون محي الدين الجنان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996م.
- الفرسطائي، أبو العباس احمد بن محمد النفوسي، ت : 504هـ، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق : بكير بن محمد الشيخ بلحاج، ومحمد بن صالح ناصر، الجزائر، المطبعة العربية غرادية، 1997م.

- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت : 276هـ، الإمامة والسياسة، القاهرة، مطبعة الحلبي، 1963م.
- القزويني, زكريا بن محمد بن محمود، ت : 682هـ، أثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، لا.ت.
- الكرخي، أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب، ت : 410 هـ، أنباط المياه الخفية، حيدر أباد الدكن، 1359هـ.
- ليون الافريقي، الحسن بن محمد الوزان، وصف افريقيا، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت :275 هـ، سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1953م.
- مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة : السيد عبد العزيز سالم، وعبد البديع لطفي، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1977م.
- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، 1986م .
- محمد الطالبي، حسان بن النعمان الغساني، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب، 1969م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت : 261 هـ، صحيح مسلم، المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن، الرياض، دار طيبة، 2006م.
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد، ت : 388هـ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، دار صادر، لا.ت.

- مقديش، محمود بن سعيد، ت : 1228هـ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق : علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م.
- موسى هواري.
- (1) تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، الجزائر، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، العدد 8، 2016م.
- (2) تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الموحدين، اطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2016م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال، ت : 711 هـ، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1955م.
- الناصري، أبو العباس احمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954م.
- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ترجمة : حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1992م.
- ابن وحشية، أبو بكر بن قيس الكسداني، توفى خلال القرن الرابع الهجري، الفلاحة النبطية، تحقيق : توفيق فهد، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، 1995م.
- الونشريسي، أحمد بن يحي، ت : 914هـ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج : جماعة من الفقهاء، بإشراف، محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990م.

- يحي أبو المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238 ـ 488هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2000م.

- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح، ت : 284هـ، كتاب البلدان، بغداد، مكتبة المثنى، لا.ت.

- Vonderheyden (M) La pêche sur Ies cotes barbaresques au moyen âge. Xairer de l'islam, Paris 1968.

الهوامش

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت : 808 هـ، المقدمة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006م، ص266.

[2] من الجدير بالذكر أن القبائل العدنانية وهم غالبية أهل الحجاز لم تكن لهم خبرة كخبرة القبائل اليمنية في ركوب البحر والتعامل معه، إذ كان يفزعهم ركوبه، ففي نص رسالة بعث بها عمرو بن العاص أثناء فتحه لمصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب: "**إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق**"، فنهاه عن ركوب البحر بقوله: "**لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً**"، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت: 310هـ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1992م، ج4، ص258،259؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص266؛ علي حسني الخربوطلي، الإسلام في حوض البحر المتوسط، بيروت، دار العلم للملايين،1970م، ص6 .

[3] باعتبار أن الأسماك حيوانات ومن ضمن الثروات الحيوانية، فهي علميا تصنف واحدة من الفئات الخمس الأساسية للحيوانات الفقارية، ذوات الدم البارد التي تعيش في الماء، خيشومية التنفس، وهو أنواع كثيرة لكل نوع اسم خاص يميزه صياد السمك، إبراهيم أنيس، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله احمد، المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004م، ص450؛ جبران مسعود، الرائد معجم لغوي عصري، بيروت، دار العلم للملايين، 1992م، ص 450.

[4] الرفق بالحيوانات ورعايتها الصحية نموذج من نماذج مساهمات العرب في تنمية الثروة الحيوانية في بلاد المغرب خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، مجلة أفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، العدد 101، 2018م.

[5] مساهمة العرب في تنمية الثروة الحيوانية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة،" الطيور نموذجاً "، قيد النشر.

[6] مساهمة العرب في تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، "السلالات الجديدة نموذجاً " ، قيد النشر.

[7] دور العرب في تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، " الأعلاف نموذجاً "، قيد النشر.

[8] البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ت : 487هـ، المسالك والممالك، تحقيق : جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م، ج2، ص211؛ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي، ت : 626هـ، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 2007م، ج2، ص61؛ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، 1986م، ص102.

[9] حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة ،مكتبة الثقافة الدينية، لا.ت، ص260؛ شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، بيروت، دار العلم للملايين للملايين، 1982م، ص177.

[10] الرقيق، إبراهيم بن القاسم القيرواني، توفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق : المنجي الكعبي، تونس، الدار العربية للكتاب، 2005م، ص223.

[11] ابن خلدون، المصدر السابق، ص267؛ مقديش، محمود بن سعيد، ت : 1228هـ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق : علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص224.

[12] البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ت : 279هـ، فتوح البلدان، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987م، ص181.

[13] السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1969م، ص18، 26 .

[14] نفسه، ص13 .

[15] ركندورف، " الأزد "، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب، 1969م، ج3، ص168؛ الرقيق، المصدر السابق، ص223، كما أنه كان اعتماد البحرية الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب وفي أول نشأتها على اليمنيين، حتى أن البلاذري يذكر بأن معاوية بن أبي سفيان لما كان يغزي الناس، يحمل اليمنية في البحر ويحمل مضر " **العدنانيين** " من البر ولمعاوية قول في ذلك : **أما كان في همدان حامي حقيقة .. ولا كان في عك ولا في**

الاشاعر، البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، ت : 279هـ، أنساب الأشراف، تحقيق : سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، لا.ت، ج5، ص107؛ الأصفهاني، أبو الفرج، ت : 356 هـ، كتاب الأغاني، بيروت، دار مكتبة، الحياة، لا.ت، ج18، ص163؛ البغدادى، عبد القادر عمر، ت : 1093 هـ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق : محمد عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجى، 1986م، ج3، ص68، **بل أن قبيلة الأشاعرة الذين أشاد بهم في شعره تذكر المصادر إن أول إسلامهم كان بقدوم خمسين رجل منهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في سفن البحر من اليمن[15]، إضافة إلى أن أول من غزا في البحر منذ فجر الفتوحات الإسلامية يمني من قبيلة حضرموت، هو العلاء بن الحضرمي والى البحرين للخليفة عمر بن الخطاب**، البلاذري، المصدر السابق، ص544؛ الطبري، المصدر السابق، ج4، ص79.

[16] الحموي، المصدر السابق، ج2، ص61؛ الحميري، محمد عبد المنعم الصنهاجي، ت : 900هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1984م، ص 144 .

[17] اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح، ت : 284هـ، كتاب البلدان، بغداد، مكتبة المثنى، لا.ت، ص349؛ ابن عذارى، محمد بن عذارى المراكشي، ت : نهاية القرن السابع الهجري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 1983م، ج1، ص110 .

[18] الجوذري، أبو علي منصور العزيزي، ت : النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق : محمد كامل حسين، ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة، دار الفكر العربي، لا.ت، ص175؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت : 808 هـ، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006م، ج4، ص39.

[19] الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، ت : 696هـ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق : عبد المجيد خيالي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005م، ج2، ص176.

[20] ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت : 276هـ، الإمامة والسياسة، القاهرة، مطبعة الحلبي ،1963م، ج2، ص69 ،70؛ محمد الطالبي، **حسان بن النعمان الغساني** ، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب، 1969م، ج14، ص315.

[21] البكرى، المصدر السابق، ج2، ص213؛ التيجاني، محمد أحمد، ت : 709هـ، رحلة التيجاني، قام بها سنة 706 الي708هـ، طرابلس، دار الفرجاني، لا.ت، ص7،6.

[22] البكري، المصدر السابق، ج2، ص237؛ مجهول، المصدر السابق، ص 125.

[23] البكري، المصدر السابق،ج2، ص 238؛ ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى، ت : 685هـ، كتاب الجغرافيا، حققه وعلق عليه : إسماعيل العربي، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،1970م، ص143.

[24] سكنتها قبيلة قضاعة حسب إشارة سريعة لليعقوبي دون أي تفاصيل، اليعقوبي، المصدر السابق، ص 348.

[25] دونالد ر. هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ت : احمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، العدد 305، الكويت، 2004، ص 268، وله العديد من الأبحاث عن الابتكارات العربية مع إيضاح تأثير العرب على الغرب، تُرجمت إلى اللغة العربية ضمن كتب سلسلة عالم المعرفة، لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانية.

26 الحسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ج2، ص68.

[27] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 213.

[28] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 695؛ الحميري، المصدر السابق، ص8.

[29] ابن خُرداذبه، أبو القاسم عُبيد الله بن عبد الله، ت : 300هـ، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، لا.ت، ص 87؛ المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد ، ت : 388هـ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، دار صادر، لا.ت، ص 224؛ مجهول، الاستبصار، مصدر سابق،، ص115، وكان من أكبرها وأعظمها شأناً وأفخمها منصباً على حد وصف البكري هو ماجل الأمير إبراهيم بن احمد بن الأغلب، وزاد في الوصف والإشادة بعظمته ما نقله عن الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (297 : 322 هـ) قوله: "رأيت بافريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق : الحفير الذي باب تونس - يعني الماجل - والقصر الذي بمدينة رقادة المعروف بقصر البحر"، البكري، المصدر السابق، ج2، ص198، 201.

[30] الكرخي، أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب، ت : 410 هـ، أنباط المياه الخفية، حيدر أباد الدكن، 1359هـ. ، ص 69؛ المقدسي، المصدر السابق، ص 168.

[31] ابن وحشية، أبو بكر بن قيس الكسداني، توفى خلال القرن الرابع الهجري، الفلاحة النبطية، تحقيق : توفيق فهد، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، 1995م، ج1، ص76.

[32] ابن منظور، أبو الفضل جمال، ت : 711 هـ، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1955م، ج7، ص406.

[33] مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة : السيد عبد العزيز سالم، وعبد البديع لطفي، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1977، ص80.

[34] للمزيد عصام منصور صالح، التقنيات العربية لتوفير مياه الشرب والري في بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ،" التجميع والحفظ نموذج"، بحث قيد النشر.

[35] حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، جمع : محمد العروسي المطوي، تونس، مكتبة المنار، 1972، ج3، ص321 .

[36] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص404؛ البكري، المصدر السابق، ج2، ص 695؛ الحميري، المصدر السابق، ص8، 172؛ القزويني, زكريا بن محمد بن محمود، ت : 682ه، أثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، لا.ت، ص 276؛ مجهول، المصدر السابق، ص8.

[37] الفرسطائي، أبو العباس احمد بن محمد النفوسي، ت : 504ه، القسمة وأصول الأرضين، تحقيق : بكير بن محمد الشيخ بلحاج، ومحمد بن صالح ناصر، الجزائر، المطبعة العربية غرادية، 1997م، ص 538.

[38] فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة : كامل العسلي، الأردن، الجامعة الأردنية، 2001م، ص89.

[39] ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، ج2، ص69، 70؛ محمد الطالبي، المرجع السابق، ج14، ص315.

[40] الكرخي، المصدر السابق، ص 39، 51.

[41] خشبة قدر ذراعين في رأسها زج أي حديدة ،تكون مع الزراع لوزن الأرض يجعل احدهم فيها رأس الحبل ويزرعها في الأرض ويتضبطها حتى يمدوا الحبل، ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص287، ج 11، ص 356.

[42] فكان منها : **المحفار** : وهي تشبه المسحاة أو المجرفة، و**المخدة** : وهي حديدة تشق الأرض، و**الكردين** : وهي فأس عظيمة ذات حد واحد، و**الحدأة** : وهي أصغر من السابقة وتتميز عنها بحدين، **والعودقة** : حديدة ذات ثلاث رؤوس يلتقط بها دلو التراب، **واللبجة** : وهي حديدة ذات شعب كأنها كف بأصابعها، ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص54، ج2 ، ص353، ج3، ص160، ج4، ص204، ج10، ص 238، ج13، ص 357.

[43] فكان منها : **المرزبة** : مطرقة كبيرة لتهشيم الحجارة، و**القطاطيس** : وهي أداة كالمسحاة تقشر الأرض وتقطع الأشياء الصلبة، ، و**المقراع** : وهي أيضا فأس تكسر الحجارة، و**المعول** : فأس ينقر به الحجر، و**المداق** : كالفأس يدك به الحجر ابن منظور، المصدر السابق، ج1، ص417، ج7، ص380،381، ج8، ص264، ج10، ص100، ج11، ص487.

[44] عادل البكري, أساليب استخدام النواعير عند العرب, ندوة النواعير, مركز أحياء التراث العلمي العربي, بغداد، 1990م, ص49.

[45] ابن منظور، المصدر السابق، **ج1، ص 377** .

[46] الحفيظ، عماد محمد، وجودي، ناطق داود، **النواعير في التراث العربي** ، ندوة النواعير ، مركز إحياء التراث العلمي العربي ، بغداد، 1990م ، ص2؛ للمزيد ينظر بحثنا : طرق وتقنيات رفع الماء في بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط .. الآلات الميكانيكية، قيد النشر.

[47] البلخي، أبو زيد احمد بن بن سهل ت : 323هـ، مصالح الأبدان والأنفس، تحقيق : محمود المصري، القاهرة، معهد المخطوطات العربية ، 2005م، ص323 ، الاهوازي، علي بن عباس المجوسي، ت : 330 هـ، كامل الصناعة الطبية، تحقيق : مؤسسة إحياء طب طبيعي، إيران، 1387هـ، ص468؛ ابن سينا، الشيخ الرئيس، الحسين بن عبد الله بن الحسن، ت : 428 هـ، القانون في الطب، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، لا.ت، ج1، ص 158، 181، 185؛ ابن رضوان، علي بن الشيخ رضوان المصري، ت : 453 هـ، كتاب دفع المضار الأبدان بأرض مصر، تحقيق : عبد المجيد دياب، القاهرة، مكتبة ابن قتيبة، 1994، ص 38، 39؛ التميمي محمد بن احمد التميمي المقدسي، (من رجال القرن الرابع الهجري)، مادة البقاء في أصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، تحقيق : يحي شهاب، القاهرة، معهد المخطوطات العربية ، 1999م، ص 81.

[48] القزويني، المصدر السابق، ص 504.

[49] طلعت احمد محمد عبده، وحورية محمد حسين جاد الله، جغرافية البحار والمحيطات، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، لا.ت، ص 344.

[50] أحمد زكي باشا، مقدمة كتاب الأصنام، لأبن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد السائب، ت : 204هـ، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1924م، ص 79.

[51] الاهوازي، المصدر السابق، ص468؛ ابن سينا، المصدر السابق، ج1، ص 158، 181، 185؛ ابن رضوان، المصدر السابق، ص 38، 39.

[52] الونشريسي، أحمد بن يحيى، ت : 914هـ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج : جماعة من الفقهاء، بإشراف، محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990م, ج 9, ص 571.

[53] الترمذي، أبو عيسي محمد بن عيسى، ت : 279هـ، الجامع الكبير، تحقيق : بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص 468.

[54] الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس، دراسة تراجم ونصوص، بيروت، دار الغرب الإسلامي، لا. ت، ج1، ص 15.

[55] الناصري، أبو العباس احمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954م، ج1، ص 199.

[56] حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ج1، ص26، 30، 73، 196، ج3 ص 321.

[57] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 238؛ مجهول، الاستبصار، مصدر سابق، ص 125.

[58] الزهري، أبو عبد الله محمد، ت : أواسط القرن السادس الهجري، كتاب الجغرافية، تحقيق : محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، لا.ت. ص 108.

[59] عبد الكريم التميمي، أبو عبد الله محمد الفاسي، المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق محمد الشريف، تطوان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2002م، ج2، ص 193 .

[60] ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص 229.

[61] ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، ت: 456 هـ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص279؛ الحميدي، أبو عبد الله محمد أبو نصر الأزدي، ت : 488هـ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1962م، ص303؛ ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، ت : 578هـ، كتاب الصلة، تحقيق : إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989م، ج2، ص595؛ ابن دحية، ذي النسبين أبو الخطاب عمر، ت : 633هـ، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق : إبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد ،سوريا، دار العلم للجميع، لا.ت، ص74؛ ابن فرحون المالكي، برهان الدين بن علي، ت : 799هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان أهل المذهب، ت : مأمون محي الدين الجنان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996م، ص298؛ ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد، ت: 808 هـ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، 2006م، ص32؛ مقديش، المصدر السابق، ج2، ص190؛ ص276؛ البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف، بيروت، 1972م، ج4، ص257.

[62] ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، ت : 367هـ، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، لا.ت، ص73.

[63] ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص 203.

[64] ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، ت : 386هـ، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الامُهات، تحقيق : محمد الأمين بو خبزة، بيروت، دار الغرب الإسلامي ،1999م، ج 9، ص 139.

[65] ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص 9.

[66] البكري، المصدر السابق،ج2، ص216؛ والزهري، المصدر السابق، ص108.

[67] سحنون بن سعيد التنوخي، ت : 240هـ، المدونة الكبرى، نشر : محمد ساسي التونسي المغربي، مصر، مطبعة السعادة، 1323هـ، ج3، ص 51 : 63 .

[68] ج4، ص341 : 358.

[69] ابن حوقل، المصدر السابق، ص 77؛ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 289.

[70] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 345، 347.

71 مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت : 261 هـ، صحيح مسلم، المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن، الرياض، دار طيبة، 2006م، ص140.

72 نفسه، ص 449 .

73 ابن حنبل، أحمد بن محمد، ت : 241هـ، كتاب المسند، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1995م،ج20، ص174، 175.

74 البخاري، إسماعيل بن إبراهيم، ت : 256هـ، صحيح البخاري، القاهرة، مطابع الشعب، 1378هـ، **ج1**، **ص95**.

75 مسلم، المصدر السابق، ص144؛ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت :275 هـ، سنن ابن ماجه، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1953م، ج1، ص 208.

[76] ابن أبي زيد، المصدر السابق، ج11، ص 37؛ ابن عبد الرؤوف، احمد بن عبد الله، ت : 424هـ، آداب الحسبة والمحتسب، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب، تحقيق : ليفي بروفنسال، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م، ص110؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص446؛ للمزيد راجع بحثنا : المحافظة على سلامة البيئة في بلاد المغرب مدينة القيروان نموذجاً، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 29، 2018م.

[77] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت : 395 هـ، الأوائل، تحقيق : عبد الرازق غالب المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، ص238.

[78] عصام منصور صالح، المحافظة على سلامة البيئة، مرجع سابق، ص 61.

[79] الادريسي، المصدر السابق، ج1، ص288؛ الزهري، المصدر السابق، ص 107.

[80] الحموي، المصدر السابق، ج1، ص506.

81 Vonderheyden (M) La pêche sur Ies cotes barbaresques au moyen âge. Xairer de l'islam paris 1968. P11.

[82] عبد الحميد محمد عبد الحميد، أسس أنتاج واستزراع الأسماك، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 2009م.

[83] الرقيق، المصدر السابق، ص223؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ترجمة : حمادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1992م، ج2، ص36؛ عثمان الكعاك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، تونس،

الشركة التونسية للتوزيع، 1972م، ص209؛ للمزيد : عصام منصور صالح، الحرير في بلاد المغرب والأندلس صناعة عربية بامتياز، قيد النشر.

[84] موسى هواري، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي حتى سقوط دولة الموحدين، اطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2016م، ص 224 إلى 235؛ موسى هواري، تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، الجزائر، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، العدد 8، 2016م؛ يحيى أبو المعاطي محمد عباسي، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238 ـ 488هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2000م، **ص 505**.

[85] عصام منصور صالح، تنقية المياه وتعقيمها خبرة عربية لتوفير ماء الشرب ببلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، بحث قيد النشر.

[86] ابن زهر، عبد الملك بن محمد بن مروان، ت : 557هـ، كتاب الأغذية، تحقيق : اكبيراثيون غارثيا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربي، 1992م، ص 121.

[87] البكري، المصدر السابق، ج2، ص 216.

[88] المالكي، المصدر السابق، ج1، ص160، 161.

[89] ليون الافريقي، الحسن بن محمد الوزان، وصف افريقيا، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983م، ج1، ص 325.

[90] المالكي، المصدر السابق، ج2، ص394 ، 395 .

الصهيونية العالمية بين المظلومية الزائفة والجرم الأكيد

Global Zionism between False Injustice and Sure Injustice

سعودي أحمد(*)

جامعة عمار ثليجي – الأغواط ، a.saoudi@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2021/02/04 **تاريخ القبول**:28 /2021/04 **تاريخ النشر** : 2021/05/05

ملخص:

تؤمن الشعوب العربية والإسلامية و أحرار العالم أن الكيان الإسرائيلي المغتصب لأرض فلسطين إنما قام على الأكاذيب التي أنتجتها مخابر الصهيونية العالمية منذ زمن بعيد والتي تبلورت في مؤتمر بازل 1798م، وقد استمرّت الصهيونية العالمية إلى يومنا هذا بصناعة الأكاذيب وبمساعدة الدول الاستعمارية التي صنعتها ومكنتها من الوجود على حساب شعب مظلوم في فلسطين.

وفي الوقت الذي بنت الصهيونية العالمية مبررات وجودها على مرتكزين أولهما ديني بأحقية اليهود كشعب الله المختار في العيش في أرض الميعاد، وثانيهما بهتاني محض بتعرض اليهود لاضطهاد الدول والحكومات في أوروبا الشرقية، ثم ما وصف بالمحرقة النازية في الحرب العالمية الثانية، فإن هؤلاء المظلومون زورا هم أنفسهم لم يتوانوا في استخدام العصابات اليهودية الإرهابية المسلحة وارتكاب المجازر الجماعية وتهويد الأرض والبشر والحجر في فلسطين من البحر إلى النهر، لتنجح الصهيونية العالمية فعلا في تقمص دور الضحية بدل الجاني.

الكلمات الدالة: الصهيونية، اليهود، هرتزل، فلسطين، مؤتمر بازل، الاستيطان، الهجرة.

Abstract:

The Arab and Islamic peoples and the liberals of the world believe that the Israeli usurper entity of the land of Palestine is based on the lies produced by the international Zionist and crystallized in the Basel Conference in 1798, and this Zionism has continued to this day by making lies.

At a time when Zionism built the justifications for its existence on two religious pillars, the first of which is the religious right as God's chosen people to live in the promised land, the Jews were subjected to the persecution of the states and governments in Europe, then what was described as the Nazi, these oppressed Falsely they use armed terrorist against Palestinians.

Keywords: Zionism; Jews; Herzl; Palestine; Basel conference; settlement; immigration.

1. مقدمة:

واجه العالم العربي والإسلامي منذ قرون تحديات سياسية وحضارية استهدفت وجوده ووحدته بالدرجة الأولى، بدأ بالحروب الصليبية وانتهاء بالاستعمار الأوروبي الحديث، ولعل من اكبر تلك التحديات على الإطلاق ، قيام الكيان الصهيوني المحتل في قلب الوطن العربي في أرض فلسطين المغتصبة، ويعتبر ظهور هذا الكيان علامة فارقة في تاريخ المنطقة بل وفي تاريخ قيام الدول و نشوئها ذلك أن طريقة قيامه ومقدمات وجوده تتداخل فيها عدة عوامل داخلية وخارجية وسياسية وفلسفية ودينية مركبة، وتلك كلها أمور تستحق الوقوف عندها بعين الملاحظة والدراسة ، فالكيان الصهيوني أو ما أصبح يسمى بدويلة إسرائيل المزعومة هو وليد للحركة الصهيونية العالمية أو بالأحرى هدفها الأول ومبرر ظهورها منذ البداية.

فالصهيونية تعتبر بالنسبة لمؤسسيها وأتباعها وحتى مؤيديها من السياسيين والمفكرين والشعوب الغربية حركة تحرير تاريخية للشعب اليهودي، فمنذ إجلاء اليهود من أرض فلسطين من طرف الأمم المجاورة وتراكم الأماني لدى اليهود بالعودة إلى "أورشليم" الأرض الموعودة المقدسة، ظلت هذه الأماني تداعب مخيلاتهم حتى أصبحت جزءا من معتقداتهم الراسخة وأختلط لدى اليهود مع تلك الأماني شعور بالحيف والظلم بسبب الشتات والاضطهاد فأصبح الإيمان بالعودة إلى الأرض المقدسة مسكنا لتخفيف آلام اليهود ومساعدتهم على التماسك داخل أسوار تجمعاتهم المتعلقة بما يحمله هذا المعتقد من آمال لخلاص اليهود وحلول السلام الأبدي، وبالأحرى الانتصار الأبدي لليهود على الأخر والعودة الجماعية إلى الأرض الموعودة فلسطين، إلا أنه وبهبوب رياح التنوير العقلي وحصار التعصب الديني في أوربا ، شكل هذا الأمر تحديا صارخا أمام اليهود المنغلقين في تجمعاتهم والمتعصبين لديانتهم وأفكارهم ، فإما أن يكونوا مواطنين داخل الدول أو غرباء عنها وهكذا بدأت تظهر محاولات لحل المشكلة التي أثارها اليهود في المجتمعات الغربية وبقائهم ضمن فلسفة الانغلاق، وبالرغم

من أن الأرثوذوكسية اليهودية والعودة إلى اليهودية الأولى أصبحت تمثل لدى الكثير شكلا من أشكال الرجعية في عصر التنوير، إلا أن مبدأ التنوير ذاته لم يستهوي تلك الجماعات اليهودية، شديدة التعصب و الانغلاق.

مع حلول القرن 19 شهدت الساحة السياسية والفكرية لدى اليهود المنتشرين في دول العالم والموجودون في قارة أوروبا بشكل خاص، فكرة إيجاد وطن قومي لليهود وبشكل نهائي، وبالرغم من أن الفكرة ذاتها لها مقدمات في التاريخ اليهودي وهو فكرة أرض الميعاد وشعب الله المختار، إلا أنه سيتم طرحها بثوب جديد خلال النصف الثاني من القرن 19 يكتسى طابع الجدية والواقعية لتظهر فكرة الصهيونية كبلورة حاسمة للحلم اليهودي القديم، ولكن بأدوات تساير التطورات السياسية والعسكرية للعالم الحديث ولتصبح الحركة الصهيونية ورموزها واقعا يفرض نفسه على الساحة العالمية بعد 1897م بعد تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية.

وسنسعى من خلال مقالنا هذا أن نجيب على مجموعة من التساؤلات ذات الصلة بموضوع البحث، فما هو مفهوم الحركة الصهيونية وعلاقتها بالفكر اليهودي القديم ؟ ومن هم أبرز دعاة ومؤسسي الفكر الصهيوني الحديث؟

فيما تتجلى أهداف الحركة الصهيونية العالمية ؟ وكيف تحولت الصهيونية من فكرة دينية و فلسفية بحتة إلى دولة فرضت على العالم العربي والإسلامي بمنطق القوة وسياسة الأمر الواقع؟

1.2 . مفهوم الصهيونيةSionisme(لغة و اصطلاحا):

لم يتداول مصطلح الصهيونية(**Sionisme**) بشكله الواسع، إلا في القرن التاسع عشر للميلاد، وهي بالمعنى الديني تشير إلى جبل صهيون والقدس وفسره اليهود أنفسهم في ثلاث معاني كبرى من حيث اعتماد كلمة صهيون:

أولا: أنها مدينة الملك الأعظم أي ملك إسرائيل [(1)].

ثانيا: موقع لحصن بيوسي أحتله داوود عليه السلام وسماه "بمدينة داوود" ثم آتى إليها بتابوت العهد فأخذ بذلك قداسة خاصة عند اليهود [(2)].

ثالثا: هي اسم جبل يقع على الشرق من القدس [(3)]

وعلى أي حال فمن كلمة صهيون تلك اشتق اصطلاح الحركة الصهيونية ذائعة الصيت، والتي تدعي أن هدفها الأساسي هو استرداد الشعب اليهودي الموجود في الشتات لوطن آبائه وأجداده حسب مرتكزات الفكر الصهيوني العنصري، وبالعودة إلى كلمة صهيون نفسها، فإننا نجد لها أصلا متفقا عليه وموحدا في اللغة العبرية وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل، بينما هناك من يفترض أنها كلمة مستعارة عن طريق البابليين بمعنى "المعبد" وهناك من يذهب إلى أن الكلمة تعني "الحرية" وهناك من فسر حصن صهيون بحصن الماء بمعنى الحصن الذي يحمي مورد ماء أورشليم. [(4)]

يستعمل اللفظ للإشارة على مكان ثابت يرتبط به اليهود كجماعة دينية والواقع أن العودة إلى صهيون فكرة محورية في النسق الديني اليهودي، إلا أن أتباع هذه العقيدة يؤمنون أن المسيح المخلص سيأتي في أخر الأيام ليأخذ شعبه إلى صهيون فيحكم العالم ويقوده نحو العدل و الرفاه، ولكلمة صهيون إيحاءات شعرية طاغية في الوجدان الديني الصهيوني حيث جاء في مزمور 137/1 على لسان جماعة من بني إسرائيل بعد تهجيرهم إلى بابل ما يلي: **"جلسنا على ضفاف أنهار بابل وذرفنا الدمعة عندما تذكرنا صهيون"**، كما يطلق اصطلاح الصهيونية على نظرة محددة لليهود تنظر إليهم باعتبارهم شعبا عضويا مختارا من الذات الإلهية، وطنه القدس في فلسطين ولذا يجب أن يهاجر إليه، ويستوطنها [(5)].

وقد برز مصطلح الصهيونية بشكل قوي في الأدبيات الحديثة مع المفكر اليهودي النمساوي ناثان برنابوم (**N.Brinbaum**) [(6)]في سنة1890 في مجلة **"الانعتاق الذاتي"** وشرح معناه في خطاب له في 6 نوفمبر 1891 م قائلا: "إن هدف الصهيونية هو إقامة منظمة تضم الحزب القومي السياسي بالإضافة إلى الحزب الديني ذي التوجه العملي" أحياء صهيون" [(7)] وهكذا فإن نيثان نقل إيجاد مصطلح الصهيونية من معناه الذي يشير

لليهود كجماعة دينية إلى جماعة عرقية، وأصبحت بذلك تعني الدعوة القومية اليهودية التي تجعل من السمات العرقية اليهودية قيمة نهائية مطلقة بدلا من الدين اليهودي كمحدد للهوية المطلقة ، وذلك ما ركز عليه عند حضوره المؤتمر الصهيوني الأول حيث صرح أن: "الصهيونية ترى أن القومية والشعب شيئا واحدا [(8)]، كما يرى نيثان أن الحركة تهدف إلى نقل اليهود إلى فلسطين والاهتمام بالحياة الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية لليهود [(9)]، مما يعني أن الهجرة والاستيطان اليهودي لأرض فلسطين كان من الناحية الفكرية مرتبطا دائما بالعقيدة اليهودية المحرفة.

أما الصهيونية بمفهومها الحديث فهي حركة سياسية استعمارية ظهرت في أوربا في أواخر القرن 19م قامت بمزج الدين بالقومية محولة اليهودية من مجرد ديانة سماوية إلى رابطة سياسية تهدف لتحشيد وجمع يهود العالم من الشتات إلى أرض فلسطين بدعوى أن لهم فيها حقوقا تاريخية وسياسية ،وهكذا يتضح لنا أن الصهيونية الحديثة ما هي إلا حركة يهودية قامت على استغلال مفاهيم اليهود الدينية المستقاة من مصادرهم الوضعية وتحريك مبالغ لعواطفهم العنصرية وما فيها من توجيهات استعمارية ونزعات استعلائية لتحقيق أهدافها في الاستيلاء على فلسطين تمهيدا للسيطرة على العالم كله على المدى البعيد، فقد ظهرت الصهيونية كفكرة محددة المعالم وكبرنامج سياسي عام 1897م عندما تمكن تيودوز هرتزل من عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل [(10)] وأعلن عن قيام المنظمة الصهيونية.

3. أنواع الصهيونية وتفرعاتها المختلفة:

يركز الباحثون في مجال الدراسات اليهودية والصهيونية على وجود صهيونيتين أساسيتين الأولى توطينية و الأخرى استيطانية.

1.3 الصهيونية التوطينية:

ظهرت في بداية الأمر بين الصهاينة غير اليهود من المسيحيين والعلمانيين وبين يهود الغرب المندمجين والمؤمنين بفوائد المواطنة وقابلية الذوبان، وعلى وجه الخصوص الأثرياء منهم وقد جاء مصطلح توطينية نظرا لطبيعة الدور الذي تقوم به هذه الجماعات سياسيا لتوطين

اليهود في فلسطين أو غيرها من الأراضي كأوغندا والأرجنتين أي أنها لا تشترط فلسطين كأرض هجرة وفقا لمبدأ أرض الميعاد، بل تعتبر أن أي إقليم يضمن تجميع اليهود من شتاتهم وإنهاء معاناتهم يمكن اعتماده.

2.3 الصهيونية الاستيطانية:

عبارة عن هيئة تسللية الفكر قبلت في البداية وجود اليهود ضمن المجتمعات الأوروبية مع بقاء اليهود كتجمعات منغلقة على نفسها لتحافظ على مقوماتها بصفتها أقلية، ومن هنا جاء مبدأ التسلل، ثم تحولت إلى صهيونية استيطانية بعد مرحلة هرتزل، ويجمع هذا التيار أهم الصهاينة الاستيطانيين من اليهود المتعصبين والذين عرفوا بتجميعهم لثروات مالية معتبرة، ومن أهم التيارات الاستيطانية هي التيار العمالي في شرق أوربا الذي برر الأمر باضطهاد اليهود وفرارهم من الدول التي كانوا يقطنون بها وتعرضوا فيها لاضطهاد ديني واجتماعي واقتصادي، مما يستدعي هجرتهم إلى فلسطين، ولكنه لا يضع أي بديل لها باعتبارها أرض الميعاد التي لا مفر من العودة إليها كتنفيذ لأمر إلهي [11].

وعرفها هرتزل بقوله "بأنها حركة الشعب اليهودي في طريقه على فلسطين"[12] فالصهيونية هي مصطلح يعود إلى عام 1890 اطلق على حركة اتخذت أهدافها عودة الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل ومنذ 1896 نسبت الصهيونية إلى الحركة السياسية التي أسسها هرتزل [13]

4 . ظروف نشأة الحركة الصهيونية:

1.4. أوضاع اليهود في شرق أوربا (1855-1897م):

في عهد القيصر الروسي ألكسندر الثاني 1818- 1881م، حظي اليهود في شرق أوربا بعناية خاصة تلك الإصلاحات التي شملت العديد التجمعات اليهودية، وكان هدف القيصر من ذلك هو تحديث روسيا وجعلها في مصاف الدول المتطورة فقامت السلطات القيصرية بدمج اليهود في المجتمع الروسي من خلال غلق المطابع التلمودية التي كانت سببا في العزلة اليهودية واتجهت الاصلاحات لعلمنة التعليم اليهودي وشجعت تعليم اليهود في

المدارس والجامعات الروسية كما منحت لهم امتيازات خاصة في الخدمة العسكرية وهذا ما أدى إلى ظهور طبقة المثقفين اليهود الأساتذة الذين أصبحوا أكثر توجها نحو الانفتاح على المجتمعات الغربية المسيحية ، كما منح ألكسندر الثاني لليهود حرية التجارة والتنقل في الأراضي الروسية فتحول صغار تجار اليهود إلى رأسماليين كبار ليتحكموا بذلك في اقتصاد الدولة وأصبحوا من صناع القرار ضمن السلطة القيصرية، وهو ما أثار قلق بعض الروس، فنلاحظ مثلا أنه و في العقد الأخير من عهد القيصر إلكسندر الثاني رفع حاكم بعض المناطق الجنوبية والغربية من روسيا مذكرة إلى قيصر عام 1870م لإخباره أن اليهود أصبحوا قوة اقتصادية كبيرة قد تنجح في الانقلاب على السلطة المركزية يوما ما، وهذا ما أدى إلى تشكيل لجنة فأظهرت تحقيقات اللجنة أن الإصلاحات أضرت بالشعب الروسي[14].

وفعلا جاءت أحداث أوديسا [15]لتؤكد تلك المخاوف فقد أدى تقرب اليهود من الدائرة الروسية وسيطرتهم على الاقتصاد الروسي إلى معاناة الشعب الروسي فوقعت أحداث أوديسا في تلك المدينة المزدهرة تجاريا وأمسك زمام اقتصادها التجار اليهود واليونانيين وأدى التنافس بين الطرفين إلى الشعور بالكراهية فقد اتهم اليونانيون اليهود بالاحتكار والتآمر لتحطيم تجارتهم ومصالحهم هناك، ونتيجة لهذه الاضطرابات قامت الحكومة القيصرية بتشكيل لجنة حكومية تحقيق لمعرفة دوافع تلك الأحداث وأظهرت نتائج التحقيقات ، ضلوع اليهود الأكيد في نشوبها فقامت بإغلاق المدارس اليهودية ومنع اليهود من المشاركة في مختلف المجالات مثل المجالس البلدية أو العمل في المستشفيات....الخ[16].

مست القرارات والإجراءات القيصرية يهود الروس فحاولوا الانتقام من القيصر بتشكيل جمعية إرهابية تدعى "بنارونافوليا" وتعني إرادة الشعب حيث قام عدد من الثوريين سنة 1881 م بالتخطيط لقتل القيصر الروسي واستطاعوا ذلك وعلى إثر ذلك اجتاحت روسيا موجة من الاضطهاد ضد اليهود الذين اتهموا بقتل القيصر[17] وقد شاعت بين الأوســاط تلك المذابـح التي أصابت الجماعة اليهودية في روسيـا والتي ا تمت بمعرفة الحكومة الروسيــة، واتهمت هذه الأوساط اليهودية جماعة من المثقفين في روسيا بالسلبية التامة وعدم

تصديهم لهذه الأحداث ، ولذلك اعتبرت فترة ما بين 1871م- 1881م فترة مهمة من تاريخ الحركة الصهيونية [(18)]أذ أن عددا من مفكري الروس حاولوا بلورة فكرة هذه دعمت الحركة الصهيونية بحجة ان اليهود قد تم ترويعهم و أنه لم يعد من الممكن لأي يهودي في العالم بعد هذه المذابح ان يعيش وسط أبناء أي بلد من غير اليهود، ومن ثم فإن طريق الخلاص هو في رأيهم يصبح العودة إلى أرض الأجداد أي استيطان فلسطين وتشجيع الهجرة اليهودية إليها [(19)]وفي هذا الصدد قام المفكر الصهيوني الروسي **موشيه ليبنلوم** (**Moshé Libnlhom**) بالتحول عن فكره الاندماجي السابق ليدعو صراحة إلى أن: "الحل المنطقي الوحيد لليهود هو الهجرة لبعث إسرائيل في أرض أجدادهم حيث تستطيع لأجيال القادمة أن تحيا حياة قومية عادية " [(20)].

2.4. الجمعيات التي سبقت الحركة الصهيونية:

جاءت الحركة الصهيونية المنظمة ابتداء من 1897م، بعد سنوات وأجيال من التطور التاريخي والمنطقي لهذا الفكر المتطرف والذي ساهمت فيه مجموعة من الجمعيات والتي من أهمها:

جمعية أحباء صهيون: اسم يطلق على مجموعة من الجمعيات الصغيرة في روسيا وبولندا ورومانيا والإمبراطورية النمساوية والمجرية وإنجلترا والولايات المتحدة، كما كانت هذه الجمعية في غرب أوربا تستقطب اليهود المهاجرين من شرق أوربا ، وقد حملت عدة أسماء تحمل دلالات حب صهيون أو الرغبة في العودة إليها، ورغم تعدد الأسماء والجمعيات إلا أن هذا لا يفرض التصور بأن جمعية أحباء صهيون كانت حركة جماهيرية اكتسحت غرب أوربا، فقد ظلت حتى النهاية تنظيمات صغيرة من المثقفين والبرجوازيين الصغار ويعود ظهور هذه الجمعية إلى تعثر عمليات التحديث في روسيا وشرق أوروبا والتي تناقض الحراك الطبيعي أمام بعض القطاعات هناك، وتصدر هذه الجمعيات للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد تهويدها وذلك من خلال تعميق المفاهيم اليهودية وشبه اليهودية في أوروبا مثل رفض

الاندماج داخل المجتمعات المسيحية والإيمان بأن معاداة اليهود ظاهرة أزلية وكذلك حل المسألة اليهودية هنا في الأرض وليس في السماء في أخر الأيام وفق العقائد التلمودية [21]

لقد كانت هذه الجمعيات تسعى لحل مشكلة يهود شرق أوروبا عن طريق جهودهم الذاتية دون الاعتماد على الدول الغربية وذلك بتهجير من يريد منهم إلى أي بقعة في العالم وتوطينه فيها ثم استقر الاختيار بشكل نهائي على فلسطين و قد عقدت جمعية أحباء صهيون أول مؤتمر لها في " كانوفيش 1884م" ومؤتمر أخر في " دروسيكني 1887" بروسيا وتم الاعتراف بالجمعية من طرف النظام القيصري بروسيا " 1890 " ثم تم فتح مكتب لها بمدينة يافا الفلسطينية بعد تنازلات من الدولة العثمانية للاستيطان بفلسطين، لكنه أغلق ثانية سنة 1891م بعد أن أصيب بخسائر مالية فادحة وبسبب شكاوى العرب للأستانة من هذه الحركة، بسبب الزيادة الكبيرة للمستوطنات الجديدة وقد قامت الجمعية بالإشراف على عملية التخطيط والتنفيذ السري لفكرة الاستعمار الاستيطاني اليهودي الصهيوني لبلاد فلسطين.

وحينما عقد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1798م، انضمت إليه معظم جماعات أحباء صهيون واستمرت الحركة بشكل مستقل، إلى أن قامت الشيوعية الجديدة في روسيا سنة 1920 م بحل الحركة، وبشكل عام فإن تاريخ أحباء صهيون هو تاريخ مصغر للحركة الصهيونية ولعل الاختلاف الأساسي هو إدراك الحركة الصهيونية بعد هرتزل حتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ.

جمعية البيلو : تعد أول حركة استيطانية تهجيرية حديثة اتخذت اسمها من الأحرف الأولى للعبارة الدينية " بيت يعقوب يحنى فنيلخاه " بمعنى أيام بيت يعقوب حيث نشأت الحركة على أيدي بعض الطلاب اليهود من أحباء صهيون 1882م كرد فعل على المذابح الروسية ولم تقتصر على الطلبة فقط بل أنتشرت بين الناس حيث بلغ عدد أعضائها 525 عضو في السنة الأولى لإنشائها ، وتنطلق البيلو من الإيمان بأن حضارة أوروبا لا مكان فيها لليهود وأنه لا بد من الإحياء القومي لليهود عن طريق الهجرة إلى فلسطين، وتضمن برنامج

البيلو على فكرة ضرورة تأسيس مركز سياسي للشعب اليهودي و كذلك مركزا روحيا لهم أي ان الخلافات التي وسمت الحركة الصهيونية ظهرت منذ البداية وتنقسم الحركة ذاتها إلى فريقين ففريق يدعو للهجرة التسللية والفريق الثاني يرى ضرورة الحصول على موافقة الباب العالي، وقد وصل فعلا الممثل عن الحركة لورانس أوليفانس وهو بريطاني غير يهودي إلى إستنبول وقابل السلطان **عبد الحميد** وطلب التوسط لليهود لدى السلطة العثمانية لتسمح لهم باستيطان فلسطين [22]و لكنه لم يوفق في مساعيه بعد رفض السلطان كليا للفكرة ، مما دفع الحركة لتشجيع الهجرة التسلسلية التي بدأت بتوجه 14 عضوا من الحركة سرا إلى فلسطين، ويمكن القول بأن عام 1882م يؤرخ فعليا لبداية الهجرة الصهيونية الاستيطانية نحو فلسطين، لكن الحركة في بدايتها أهملت فكرة الاعتماد على الإمبريالية لوضع المشروع الصهيوني في موضع التنفيذ وقد جاء هرتزل وأكتشف الألية الكبرى لتنفيذ المشروع الصهيوني أي استغلال الإمبريالية العالمية لخدمة هذا المشروع. [23]

5. نشأة وظهور المنظمة الصهيونية الحديثة :

من روسيا اندلعت أول شرارة للصهيونية كحركة سياسية متكاملة [24]مستغلة ما وصفته باضطهاد وملاحقة اليهود المستمرة في أوروبا الشرقية بل و تحولت مباشره للإرهاب الفعلي والميداني ففجرت عدة قنابل لإخافة اليهود وتشجيعهم للهجرة لفلسطين ، وقد وجدت الصهيونية تعبيرها الشكلي المتطرف والعنيف مع تأسيس المنظمة الصهيونية 1897 م في المؤتمر الصهيوني الأول الذي دعا إلى عقده تيودور هرتزل في سويسرا [25]وقام من خلاله باقتراح دولة يهودية ولقد اعتبره بعضهم من الحالمين السذج ، بينما اتهمه البعض الأخر بالتواطؤ مع الأوساط المناوئة للسامية [26].

اقترح هرتزل أن تكون الدولة اليهودية المنشودة في الأرجنتين كما فكر في استيطان الموزمبيق وأوغندا في إفريقيا حيث قال: " سنأخذ ما يعطى لنا وما يختاره الرأي العام اليهودي وسوف تقرر الجمعية كلا الأمرين [27]إن الأرجنتين من أكثر بلاد العالم خصوبة وهي تملك مساحات شاسعة أما فلسطين فهي وطننا التاريخي الذي لا تمحى ذكراه، إن اسم فلسطين

في حد ذاته سيجذب شعبنا بقوة وذات فعالية رائعة[28]" وبذلك يتأكد ان الارتباط الخاص المزعوم بين يهود العالم وفلسطين ليس سوى ادعاء صهيوني تدحضه نقاشات الصهيون أنفسهم[29] وقد تم اقتراح الدولة اليهودية في فلسطين التي تدعى الحركة بأنها أرض الميعاد وفق التوراة من طرف اليهود والصهاينة الأكثر تطرفا.

1.5. تيودر هرتزل ودوره في نشأة الحركة الصهيونية:

يعتبر هرتزل المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية الحديثة وإليه يعود الفضل في إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية فقد كرس العقد الأخير من عمره داعيا إلى تنظيم المجتمعات اليهودية والتنسيق فيما بينها تحت راية هذه المنظمة، كما قام بدور رئيسي في إبراز الصهيونية على مسرح السياسة العالمية حيث أخذت الدول الكبرى تبحث عن إمكانية التعامل معها كحليف يستخدم في خدمة وتنفيذ مصالحها الاستعمارية، ولد هرتزل في مدينة بودابست بالمجر عام 1865 و تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها، وفي عام 1878 م قررت أسرته الانتقال إلى العاصمة النمساوية فينا [30] ،حيث درس القانون بجامعتها وبعد التخرج اشتغل بالصحافة والأدب وعمل مراسلا بباريس في الصحيفة الجديدة الحرة **« new fraie presse »** التي تصدر بفيينا ثم أصبح محررا للقسم الأدبي في تلك الجريدة كما واصل دراساته إلى أن وصل إلى درجة الدكتوراه في الحقوق وكانت إقامته في فرنسا لعدة سنوات 1891م-1856م بحكم عمله كمراسل للجريدة الحرة هي ما جعله جعله يهتم بقضية دريفوس (**Dreyffus**)ذلك الضابط الفرنسي[31] اليهودي الذي أتهم بالخيانة عام 1894م نتيجه نقله أسرارا عسكرية إلى الألمان وحوكم أمام محكمة عسكرية فتمت أدانته، وكان هرتزل قد حضر المحاكمة بصفته مراسلا لصحيفة "الجديدة" الحرة وقد أعيدت محاكمة دريفوس تحت إلحاح الصحافي والأدبي الفرنسي " إميل زولا" الذي دافع عنه حتى برئ من تهمة التجسس وأعيد إلى الخدمة في الجيش الفرنسي ولم يكن هدف زولا تبرئة دريفوس بقدر ما كان إعلان عن برنامج سياسي يعتمد على الاشتراكية والديمقراطية في مواجهة البرجوازية المتواطئة خصوصا في الجيش ، جعلت من قضية دريفوس حدثا مهما في

التاريخ اليهودي فقد أصبحت نقطة تحول في حياة هرتزل الذي تحول إلى داعية صهيوني ولقد نجح في أن يستنبط (32) من هذه القضية ما وصفه بالمأساة العامة التي يكابدها اليهود ، ولذلك نجده في عام 1894م يضع فلسفة خاصة لظاهرة العداء للسامية تقوم على أسس تحليلي فقد وضع فو اصل حادة بين فكرة وفكرة. (33)

ومن الملاحظ في سيرة هرتزل إن ثقافته العبرية كانت ضعيفة لدرجة أنه عندما أراد تأدية الصلاة في كنيسة مدينة بازل قبل افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول اضطر إلى تعلم الكلمات العبرية الخاصة بالصلاة وعلق على ذلك في يومياته بقوله :" إن تلك الكلمات العبرية ضغطت علي أكثر من خطاب الافتتاح الاختتام في المؤتمر و أكثر من إدارة الجلسات بأسرها" ويتضح لنا من خلال ذلك عدم اكتراثه بالتقاليد اليهودية أيضا فها هو يعلن صراحة على لسان بطل رواية " الجيتو الجديد" رغبته في التحرر من قيود الجيتو اليهودي غير المنظور والخروج إلى العالم الواسع فأظهر ميلا للتبصير والاندماج في المجتمعات (34) الأوروبية وأظهر اهتماما واسعا بالثقافة الألمانية .

كما كانت إقامة هرتزل في باريس فرصة مواتية للتعرف على شتى جوانب المسألة اليهودية وتزعم الدعوة الصهيونية السياسية الحديثة ومما قاله في هذه الفترة: " إن النزعة اللاسامية تتزايد وتتزايد والسر في ذلك يعود إلى إجراءات تحرير اليهود، إن جميع الشعوب لا يتوفر لديها الإدراك التاريخي الوافي وبالتالي لا نستطيع أن نستوعب التجربة القاسية التي عاشها شعبنا بين العصور الماضية التي اتسمت بالشدة وضيق الأفق، إن لجوئنا للمال واكتنازه من صنع هذه الشعوب التي دفعتنا إليه بالقسوة والإرهاب ، فالكنيسة نفسها لم تشجع أبنائها على التعامل بالمال والصرفة، واستعانت بالحكام لإجبارنا على التعامل في هذه المهنة ، هم الذين جعلونا نتمسك بالمال ونصبح دائمي القلق عليه، خوفا من السلب أو النهب ولقد أصبح اليهود عبيد الحكام يجمعون الضرائب ويكنزون المال ثم يأتي دور هؤلاء الحكام ليسلبوهم هذا المال ويصادرونه وحينما تشتد الضائقة ويترك اليهود جمع المال جانبا ويتجهون في البحث عن مهن أخرى لكن سرعان من يقعون في ضائقة جديدة حينما يبدأ التنافس

بينهم وبين أفراد الطبقة الوسطى" ، ولم تلبث هذه القناعات التي توصل إليها أن دفعته إلى إجراء اتصالات مع كبار أقطاب المال لحثهم على ضرورة التوصل إلى خطط عملية لحل المسألة اليهودية ، وفي مايو من عام 1895م قابل هرتزل البارون موريس دي هيرش وقام بشرح وجهة نظره لحل المسألة اليهودية وذلك عن طريق شراء أرض واسعة في أي بقعة في العالم سواء كانت في فلسطين أو أي مكان أخر وطلب منه العون لإنشاء دولة يهودية فيها ولكن البارون لم يكن مستعدا للدخول في مغامرات غير مأمونة العواقب واعتبر مشروعه مجرد وهم كبير، وبقي متمسكا بمشروعه توطين اليهود في الأرجنتين وتحويلهم إلى شعب زراعي .[35]

لم يتخلى هرتزل عن مشروعه وإنما بقي يعمل على بلورة أرائه ومفاهيمه ويدونها بشكل منطقي ومنظم استعدادا لبدء محاولة اتصال جديدة مع ممولين يهود أخرين وخاصة مع آل روتشليد العائلة اليهودية الثرية المعروفة ، وقد نجح في تدوين أرائه وأفكاره ضمن كراس صدر بالألمانية في فبراير عام 1896م بعنوان " الدولة اليهودية" وألحق به عنوانا فرعيا واصفا الكتاب بأنه محاولة لإيجاد حل عصري للمسألة اليهودية ووجه أول نسخة منه إلى عائلة روتشليد في محاولة منه لكسب هذه العائلة إلى جانبه منذ البداية غير أن حظه من النجاح مع هذه العائلة لم يكن بأفضل من حظه مع البارون هيرش ولعل السبب الذي جعل أقطاب المال اليهود مترددين في تأييد مشروعه الرامي منه إلى إنشاء دولة يهودية خوفا منهم أن يؤدي قيام هذه الدولة إلى التأثير على أوضاعهم واختياراتهم في البلاد التي يعيشون فيها.[36]

6. برنامج مؤتمر بازل الصهيوني وأهم قرارته:

تم عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين 23-31 أوت عام 1897م وقد حضره 204 مندوب من مخلف الهيئات والمنظمات والجمعيات الصهيونية في العالم وكان هناك 70 مندوبا من روسيا وحدها وتم انتخاب هرتزل رئيسا للمؤتمر بالإضافة إلى انتخاب المجلس الرئيسي للمؤتمر وأمناء سر وأعضاء لجنة العمل التي اتخذت مدينة فينا مقرا لها وكان أهم إنجازين للمؤتمر هما [37]:

أ- إقرار برنامج الحركة الصهيونية الذي أصبح يعرف فيما بعد ببرنامج بازل الصهيوني .

ب-تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ هذا البرنامج، وجاء تحديد المؤتمر لهدف الصهيونية التي كانت تسعى للتحقيق على النحو التالي " أن غاية الصهيونية هي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين باعتراف دول العالم ويضمنه القانون الدولي ".

والملاحظ في هذا المجال أن المؤتمرين أثاروا استعمال تعبير **وطن** بدلا من **الدولة** كي لا يتسبب ذلك في إثارة ردود فعل معارضة لليهود من جانب العثمانيين وقد تم ذلك بناء على نصيحة هرتزل الذي دعى المؤتمرين إلى المواربة والدوران في استعمال الألفاظ كي يفيد لاتصالاته المستقبلية مع العثمانيين جميع الأجواء المناسبة، وقد علق هرتزل نفسه على ذلك بقوله "لا داعي للقلق على ألفاظ وسوف يقرؤها الناس دولة يهودية على أي حال .."

ولإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أقر المؤتمر الصهيوني مجموعة من البنود : [38]

1- تطوير أرض فلسطين لتشجيع استيطان العمال والمزارعين والصناعيين والحرفيين والمهنيين اليهود وفق أسس وظروف ملائمة.

2- تنظيم اليهودية العالمية وتجمعها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد طبقا لقانون كل دولة .

3- تعزيز وتشجيع الشعور القومي اليهودي.

4- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة حكومية حتى يكون ذلك ضروريا للوصول إلى أهداف الصهيونية بشكل دقيق ومحقق للأهداف [39].

كان المؤتمر الصهيوني الأول نقطة تحول رئيسية في تاريخ الحركة الصهيونية فإن جمع ذلك العدد الكبير من صهيوني العالم في مكان واحد لتحقيق هدف محدد فتح أمام الحركة الصهيونية أفاقا جديدة للعمل على تنفيذ مخططاتها وقد علق هرتزل في أعقاب عودته إلى فيينا على ذلك التجمع الصهيوني الكبير قائلا " ففي بازل أقمت الدولة اليهودية، وإذا ما قلت اليوم هذا القول علنا فسأواجه بسخريته من العالم، ولكن ربما بعد 5 سنوات وبالتأكيد بعد 50 سنة سيرى الدولة كل إنسان ويستعرف بها الجميع" [40].

وفي 15 ماي لعام 1948 بعد حوالي أي بعد 50 سنة قامت " دولة إسرائيل المزعومة" وبذلك فقد كان ظهور المنظمة الصهيونية العالمية بداية فعلية لمرحلة تنظيمية جديدة في العمل الصهيوني فأصبحت تلعب دور القيادة العليا لليهود العالمية وكانت المنظمة تتكون من أجهزة:

- **المؤتمر الصهيوني**: وهي السلطة العليا في المنظمة وكان يجتمع سنويا وأصبح يجتمع كل سنتين بعد ذلك وفي أي مدينة أوروبية ويرسل دافعوا التشكيل وهي عملية يهودية تعادل ½ دولار آنذاك اتخذتها إسرائيل مؤخرا وحدة أساسية لعملتها بدل الليرة، مندوبهم إلى المؤتمر وكل مجموعة تتكون من 100 عضو كما لها الحق في إرسال مندوب واحد وكانت مهام المؤتمر إقرار السياسة العامة للمنظمة والموافقة على الميزانية العامة بالإضافة إلى إنخاب رئيس المنظمة وأعضاء اللجنة التنفيذية والمجلس العام وقد شبه هرتزل المؤتمر "بجمعية اليهود".
- **لجنة العمل الكبرى (المجلس العام)**: وتتألف من 15 عضوا 5 منهم كان يجب أن يكونوا مقرهم الدائم في فيينا و10 الباقون كانوا ينتخبون في التجمعات الصهيونية المختلفة وفي واقع الأمر فإن 5 المعنيون بفيينا هم عمليا اللجنة التنفيذية الحقيقية.
- **اللجنة التنفيذية (لجنة العمل الصغرى)**: وكانت مهمتها متابعة تنفيذ القرارات وتقديم تقرير عن أعمالها للمؤتمر الصهيوني في موعد انعقاده.

وبالإضافة إلى هذه الأجهزة فقد كانت هناك بطبيعة الحال رئيس المنظمة الصهيونية ونائب الرئيس ومكتب التوجيه المركزي أما بالنسبة لبناء الجهاز المالي للمنظمة فإن هرتزل كان منذ البداية مهتما بإنشاء بنك استيطان يهودي يكون بمثابة الشركة اليهودية التي دعى إلى تأسيسها في كراسه " الدولة اليهودية " ولقد أعلن هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني سنة 1898 م عن قيام اللجنة التنفيذية الصهيونية بعد مؤتمر خاص بتأسيس صندوق الائتمان اليهودي الاستعماري وتوقع ان يباشر الصندوق أعماله خلال عام واحد وبالفعل انعقد المؤتمر الصهيوني الثالث سنة 1894 م وتبنى القرار المتضمن إنشاء الصندوق وقد تم تسجيله في لندن على شاكلة شركة مساهمة محدودة حصص 100 مساهم لتأسيسه البالغ عددها 200

لجنة تنفيذية في المنظمة اليهودية العالمية وذلك لضمان سيطرة هرتزل على الصندوق ونشاطه (41).

7. أهداف الصهيونية العالمية:

منذ البداية وضعت الصهيونية مجموعة من الأهداف المحددة الواجب تحقيقها ، سواء على يد اليهود انفسهم أو عن طريق اختراق القوى المالية والسياسية والثقافية العالمية، مع تحديد الوسائل التي تمكن من ذلك مثل : المال، الإعلام ، المنظمات الجماهيرية ...الخ، وفيما يلي أبرز أهداف الحركة الصهيونية:

الهدف الأول: يمكننا أن نجزم أن أول أهداف الاستراتيجية الصهيونية هو تحقيق حلم إسرائيل الكبير وإذا عدنا إلى ما كتبه مؤسس الكيان الصهيوني وقارناه مع ما نراه مرسوما الأن على خريطة الواقع بما هو مخطط للمستقبل المنظور "أفاق الثمانينيات" والمستقبل البعيد نسبيا لوجدنا أن إنشاء إسرائيل الكبرى هو الهدف الأساسي والأول للحركة الصهيونية التي تندرج في إطاره وتعمل لخدمته بقية الأهداف الأخرى فهرتزل مؤسس الصهيونية كتب في يومياته "الحدود الشمالية تركيا والحدود الجنوبية قناة السويس أما شعارنا فهو فلسطين داوود وسليمان"

وهكذا ترى أن الهدف الإقليمي للصهاينة غامض ويقترب دائما من باللغز المبهم فلا يصدر منهم أي عدم وضوح يعرف الكيان الصهيوني أو يرسم حدوده، ولقد اتفق الصهاينة على ضرورة الحصول على امتداد جغرافي واسع في ما يزعمون أنه "أرض إسرائيل" ولكن امتداد هذه الأرض لم يكن محددا تحديدا دقيقا في يوم من الأيام وعندما ألح الصحافيون على مناحيم بيعن أن يقول لهم أين تقع حدود إسرائيل فأجابهم "إن حدود إسرائيل هي عند قدم أخر جندي في جيش الدفاع الإسرائيلي" ومن ذلك تبرز عقدة التوسع المتأصلة في الحركة الصهيونية منذ قيامها المنظم على يد هرتزل وظهورها على المسرح السياسي العالمي إلى ما بعد قيام الدولة الصهيونية في فلسطين وتطلعنا منذ اللحظة الأولى لولادة إسرائيل مظاهر من الأهداف الاستراتيجية العسكرية التي خططوا لها ووضعوها موضع التنفيذ ووجوه من السياسة

الإسرائيلية العامة التي تتبنى من الغاية الصهيونية القومية القائمة على إنشاء إمبراطورية جمهورية في منطقة الشرق الأوسط العربي ضمن إطار المفهوم التاريخي الصهيوني " أرض إسرائيل" بجمع كل يهود العالم في الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات [(42)].

الهدف الثاني: الدعوة إلى الصهيونية في حواضر العالم وخاصة بين الرجال الحكم والسياسة في الدول التي بيدها مقاليد حكم أغلبية الشعوب فكانت الدعوة الصهيونية إما عن طريق الإقناع أو الإغراء بالنقود والمال وبأساليب مؤثرة على الشخصيات العالية والمهمة في الدول الرائدة بما يضمن حقهم سلميا اقتناعا أو عن طريق ممارسة الضغط القهري لتنفيذ المخططات الصهيونية وقد حاول هرتزل الحصول من السلطان عبد الحميد الثاني على تنازلات الصهاينة عن فلسطين مقابل 5 ملايين ليرة عثمانية وقرض للدولة قيمة مليون ليرة ذهبية يسددها طيلة مئة سنة وبدون فائدة ورغم ذلك رفض السلطان العثماني هذا العرض السخي والمغري لا يقف نشاط الصهاينة إلى الدعوة إلى الصهيونية بل يمتد إلى سلب خيرات الفرات والشعوب والدول التي تقيل تسلط الصهيونية وتنفيذ مخططاتها على الصهيونية كالأخطبوط الذي يتمكن من فريسته التي تقع في فمه حتى ينقض عليه ليبقيه تحت سيطرته ففي النهاية بعد أن يكون قد امتص خبراته لصالحه.

الهدف الثالث: غرس وتنمية الفكرة الصهيونية في أعماق أفراد اليهود حتى ما كانوا والعمل على تحقيقها ففي هذا الهدف ترى ان مؤسسي الصهيونية يعتمدون على الفرد اليهودي وقناعته لانطلاق ونشر الصهيونية في أنحاء العالم والمعروف حتى تنجح أي فكرة لا بد من إيجاد أناس مشربون ومقتنعون بمفاهيم هذه الفكرة ومن ثم يبدأ التنفيذ وكان الاقتناع لأبناء اليهودية الكامل بالصهيونية الأثر الأكبر الذي يساعد بل وأدى إلى تنفيذ ما رسم من مخططات صهيونية وهذا الذي مازال يرسخ في نفوس الصهاينة القدماء والصهاينة الجدد وهذا ما يؤدي إلى استمرارية نجاح هذه المخططات الصهيونية العفنة والعمل هو أكبر دليل ارتباط الفرد اليهودي بالصهيونية وحملاتهم التي يقومون بها لجمع تبرعات لدعم دولة إسرائيل فقد

كانوا يقومون دائمين تحت شعار ادفع دولارا تقتل عربيا وكانت للحملات مهمات تساهم في كثير من الدعم للقضية اليهودية.

الأثر المادي: الدعم الذي يقدم للصهاينة لشراء الأسلحة ولتدعيم دولتهم في العرب وفي فلسطين.

الأثر المعنوي: يكمن في أبناء الدول الغربية الذين اصبحوا ينظرون إلى هؤلاء الصهاينة بإعجاب وتقدير وهم يروهم يقومون بحملات لجمع المال فيكسبون عطفهم وتولد لدى هؤلاء انطباع حسن عن اليهود وتأكدهم أن للصهاينة الحق التاريخي في هذه الأرض التي يدعموها ولولا ذلك ما اجتهادهم بهذا القدر بل يحترمون في قرارة أنفسهم بأنها سلبت منهم لذا فهم يريدون استردادها مهما كانت الوسائل ولو أدى ذلك إلى التسول من أجل قضيتهم العادلة على حد زعمهم[43] .

الهدف الرابع: التعصب العنصري وخلق المجتمع العنصري الصهيوني هدف استراتيجي من أهداف الصهيونية وتقوم على بث روح التعصب في إيديولوجية الشباب والقائمة على فكرة الشعب المختار وسمو الشريعة السماوية.

الهدف الخامس: تأصيل روح العنف التي صاغتها في الأسطورة تأصيل روح العنف في المجتمع الإسرائيلي حيث تؤمن إسرائيل بحتمية الحروب مع العرب وأسبابها أن إسرائيل تؤكد كل يوم وفي كل وقت أنها كيان عدواني وأنها تسير بخط معاد لتيار التاريخ وهي حريصة دائما ان تمثل القاعدة الفكرية والعقابية للفاشية رغم أن قواعد الفاشية تتحطم في كل مكان[44]

الهدف السادس: إعداد الدول العظمى التي بيدها الحل والعقد بربط مصالحها بمصالح اليهود في إقامة دولتهم في فلسطين والتحدث ع كل دولة بما يتماشى في هواها بأهدافها القريبة والبعيدة وهذا يوضح شأن الصهيونية التي لم يكن من الغباء لتقف عن محاولة إغراء الأفراد ذوي المناصب بل استغلت نفوذها ليشمل حكومات عالمية صاحبة سلطة، فمنذ نشأتها بدأت الصهيونية باستخدام نفوذها للوصول إلى العلاقات مع الدول وأصحاب الحل والربط لتصل إلى أهدافها فها هو الصهيوني الاقتصادي روشيلد الذي كان يدعم الصهيونية

بكل احتياجاته المادية والذي كان يملك كبرى المؤسسات المالية والتجارية في بريطانيا وها هو يأخذ من وزير الخارجية البريطاني " بلفور" وقد تعهد به لبريطانيا العظمى آنذاك بتنفيذه وتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود وكان وعد بلفور نقطة تحول لصالح بني صهيون لبدء دولتهم واغتصاب فلسطين الحبيبة، وقد استغل الصهاينة القوى الكبرى للعالم للوصول لمأربهم فقد أعطت بريطانيا الضوء الأخضر بالبدء بتنفيذ المخطط الصهيوني للاستيطان في فلسطين وإنشاء الدولة الإسرائيلية وجاءت أمريكا لتعطي لأسر الدولة الإسرائيلية الضوء الأخضر للامتداد والتوسع وتحقيق باقي أهداف وغايات الصهيونية.

الهدف السابع: طمأنة العالم المسيحي على مستقبل الأماكن المقدسة في فلسطين طالما أنها بعيدة عن سيطرة المسلمين وتحت تصرف اليهود الذين سيأمنون لهم الحماية واسعة وصادقة وجاء وضع هذا الهدف بعد أن استطاعت الصهيونية تشويه الصورة عن الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية في العهد الإسلامي.[45]

8. خاتمة:

وفي خاتمة هذا البحث نخلص بوضوح إلى أن الحركة الصهيونية بنجاحها في إقامة الكيان الصهيوني واغتصابها لأرض فلسطين العربية المسلمة، قد ترجمت أفكارها العنصرية والمتطرفة على أرض الواقع، وظلت تراكم تجاربها بين الإخفاق والنجاح التي تراكمت عبر الزمن إلى أن وافقتها الظروف في استغلال الإمبريالية الغربية في احتلال وتقسيم الأرض العربية، تحت ذريعة الظلم والشتات الذي تعرض له اليهود والعجيب أنه من تلك الإمبريالية نفسها ، ووفي مقابل ذلك منحت لها أرض تدعى أنها محيطها الطبيعي والتاريخي، فأعطى من لا يملك لمن لا يستحق.

لقد التف حول الصهيونية لفيف من اليهود وغير اليهود من المسيحيين في الغرب لبناء وطن قومي لليهود وموطن قدم للاستعمار الغربي في أرض هي أرث تاريخي وحق قانوني للأمة العربية ليتأكد التحالف الأبدي بين الغرب المسيحي والصهيونية العالمية في تكريس استعمار تجزئة وتخلف البلاد العربية.

إن السبل والوسائل التي اعتمدتها الحركة الصهيونية في قمة الدناءة بحيث أكدت تبينيها لمنهج الميكافيلية أي أن الغاية تبرر الوسيلة فالغاية المزيفة هي استرجاع أرض الأجداد وإعادة بناء هيكل سليمان المزعوم، فأباحت استخدام كل الوسائل وباعتراف روادها أنفسهم الذين استخدموا كل أشكال التآمر وإظهار المسكنة والمظلومية والادعاء بأنهم الضحية لظلم الإنسانية جمعاء، دون أن ننسى تشجيعهم وترويجهم لكل مظاهر الانحدار الأخلاقي مثل الرشوة والكذب والتدليس والقتل وعدم توانيهم في ارتكاب أبشع الجرائم حتى في حق الشعوب التي استضافتهم ثم جرائمهم في حق راعي الصهيونية الأولى الاستعمار البريطاني بل وفي حق أبناء جلدتها حينما تركت مصيرهم أمام الاضطهاد النازي في سبل كسب الدعاية والأموال والمتعاطفين من المجتمعات الغربية لتختم جرائمها بسلب الأراضي العربية وسفك دماء أبنائها وتهجيرهم ومازالت إلى غاية اليوم تمارس دورها المرسوم لها بكل اقتدار، إنها بفعل الجلاد في دور الضحية والظالم في دور المظلوم.

9. قائمة المراجع:

1- أحمد فؤاد أنور ، تاريخ اليهود من تشويه الأنبياء إلى 11 ديسمبر، مركز الراية، (د.م.ن)، (ر.ت.).

2- ألفريد لبتنال، ثمن إسرائيل، تر: حبيب الخولي ، ط4، دار الأفاق الجديدة ، 1981.

3- أمين عبد الله محمود، مشاريع الإستيطان اليهودي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978، (د.م.ن.).

4- بيار نار غرانميه، إسرائيل، تر: محمد سميح السيد ، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1984.

5- تيودر هرتزل، الدولة اليهودية، (د.م.ن)، (د.ت).

6- ريجينا شريف ،الصهيونية الغير يهودية ، أحمد عبدالله عبد العزيز ،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت،1985.

7- عدنان السيد حسن، التوسع في الاستراتيجية اليهودية، دار النفائس، (د.م.ن)(د.ت).

8- عماد مصطفى طلاس، أفاق الإستراتيجية اليهودية، (د.د.ن) دمشق، (د.ت).

9- محمد باخربة، الصهيونية بإيجاز، ط1، (د.د.ن)، (د.م.ن).

10- محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1999.

11- محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية وطبيعتها وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي، ط1، دار المعارف ، (د، م، ن) 1981.

12- سيد فرح رشاد، دراسات الصهيونية وجذورها، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، 1991.

13- هيلة بنت سعد بن محمد السلمي، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث كلية الشريعة والدراسات العليا التاريخية والحضارة، مكة مكرمة، 2001.

-المواقع الإلكترونية:

https://www.palestinapedia.net/%D8%A3%D8%AD%D8%A8%D9%91%D8%A7%D8%A1%D8%B5%D9%87%D9%8A%D9%88%D9%86

http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=2073

الهوامش

(*) المؤلف المرسل: سعودي أحمد: a.saoudi@lagh-univ.dz

(1)- محمد باخربية، الصهيونية بإيجاز، ط1، (د.د.ن)، (د.م.ن)، 2001، ص 14.

(2)- محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1999، ص 40.

(3)- محمد باخربية، المرجع السابق، ص 14.

(4)- محمد بيومي مهران، المرجع السابق ، ص ص 41-42.

(5)- عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية، ج6 دار الشروق ، القاهرة ، 1999، ، ص 5

(6)- كاتب سياسي نمساوي ولد في مدينة فينا لعائلة دينية شديدة التعصب وتخلى عن العقيدة اليهودية وأشترك بتأسيس نيابة في منظمة قديمة 1882 وفي عام 1884 أصدر أول عدد من مجلته الانعتاق الذاتي " فلقد بلور الفكر الصهيوني قبل الظهور هرتزل ونشر كتابه عن المسالة اليهودية 1893 بعنوان البحث القومي للشعب اليهودي وتعاون في بداية الأمر مع المنظمة الصهيونية العالمية وحضر المؤتمر الصهيوني الأول 1897 وهو أول من استخدم كلمة الصهيونية بمعناها الحديث وله عدة مؤلفات " الاعترافات ، الجسر 1956 " وأكتشف قصور الصهيونية وأكتشف أن الدعوة القومية أمر لا يكفي إذ أكتشف أن اليهود ليسوا جماعة عرقية أثنية بل وإنما هو جماعة دينية وأن جوهر العقيدة اليهودية هو الوجود اليهودي (أنظر عبد الو هاب الميسري، ج6، ص 50.)

(7)- أحباء صهيون أو هواة صهيون، ترجمة للاسم العبري "حوفيفي تسيون" وهو اسم يطلق على جمعيات صهيونية نشأت في روسيا سنة 1881 بعد صدور قوانين أيار التي فرضت قيوداً على الأقلية

اليهودية هناك بين عامي 1881 -1883، وعلى حركة المهاجرين اليهود من روسيا وبولونيا ورومانيا إلى فلسطين (الهجرة الأولى 1881 – 1904). وكان هدف حركة أحباء صهيون محاربة اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، و"العودة إلى صهيون". وقد اتخذت شعاراً لها "إلى فلسطين" ودعت إلى الاستعداد للهجرة لشراء الأراضي فيها، و مساعدة الاستيطان اليهودي هناك. وكانت حركة أحباء صهيون همزة الوصل بين ما أطلق عليه "طلائع" الصهيونية في منتصف القرن التاسع عشر وبداية الصهيونية السياسية مع ظهور تيودور هرتسل وانعقاد المؤتمر الصهيوني* الأول في سنة 1897 ، أنظر : https://www.palestinapedia.net/%D8%A3%D8%AD%D8%A8%D9%91%D8%A7%D8%A1-%D8%B5%D9%87%D9%8A%D9%88%D9%86

(8)– عبد الوهاب المسيري ، المرجع السابق، ص 8.

(9)– حسين عبد الله يوسف أبو حلبية، تاريخ الأحزاب العمالية الصهيونية في فلسطين 1905-1948، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب ، قسم التاريخ والأثار، فلسطين ، 2011، ص 3.

(10) – هو المؤتمر الأشهر والأخطر في تاريخ اليهود، فبعد أن فشلت الجهود المحمومة التي قام بها الصحفي النمساوي «تيودور هيرتزل» من أجل إقناع الخليفة العثماني «عبد الحميد الثاني» ببيع فلسطين لليهود لتكون وطنًا قوميًا لهم، قرر زعماء اليهود وحكماؤهم الاجتماع لوضع الخطة اللازمة لتنفيذهم هدفهم المنشود ،فاجتمع زعماء اليهود في مدينة «بازل» بسويسرا في 2 ربيع الآخر 1315هـ . 29 أغسطس 1897م لوضع الحجر الأساسي للمأوى الذي سيقيم فيه اليهود، وقال هيرتزل كلمته الشهيرة «الصهيونية هي عودة اليهود لليهودية حتى قبل عودتهم إلى الأرض اليهودية» وهذا معناه حتمية صبغ الاتجاه لاغتصاب أرض فلسطين بالصبغة الدينية العقائدية، وفي نهاية المؤتمر قرر المتآمرون تأسيس وطن للشعب اليهودي على حد زعمهم في فلسطين يضمنه القانون العام، وتفتق هذا المؤتمر عن ميثاق العمل الصهيوني المعمول به حتى الآن والمشهور باسم بروتوكولات حكماء صهيون.، أنظر : مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية على الموقع : http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=2073

(11)– عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص 14.

(12)– أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، ط1، مكتبة مدبولي ، القاهرة، 1967، ص 325.

(13) –روجيه غارودي، غارودي يقاضي الصهيونية الإسرائيلية ، تر: رانية بوناصيف، ط2، دار عويدات ، بيروت، 2000، ص 23.

(14) – حسين عبدالله يوسف أبو حبيلة ، المرجع السابق، ص 18.

(15) – أوديسا مدينة بناها القياصرة على البحر الأسود مكان مدينة صغيرة تركية كانت تسمى " خاتيجي " استولت عليها القوات الروسية 1789 ولم يكن بها حينذاك سوى 6 من اليهود شكلت أوديسا مركزا ثانيا لأكبر تجمع يهودي في الإمبراطورية الروسية بعد وارسو عاصمة بولندا التابعة لروسيا (أنظر عبد الوهاب الميسري، ، موسوعة اليهود واليهودية، مج 4 ، ص 369.

(16) – حسين عبد الله، المرجع السابق، ص ص 15-16.

(17) – حسين عبد الله، يوسف ابن حبيلة، المرجع السابق، ص 17.

(18) – محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية وطبيعتها وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي، ط1، دار المعارف ، (د، م، ن) 1981، ص 84.

(19) – سيد فرح رشاد، دراسات الصهيونية وجذورها، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، 1991، ص 69.

(20) – عبد الو هاب المسيري، الإيديولوجية الصهيونية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1978، ص 73.

(21) –عبد الوهاب المسيري ، المرجع السابق ص 86.

(22) – عبد الوهاب الميسري، المرجع السابق، ص 65.

(23) – عبد الوهاب الميسري، المرجع السابق، ص 66.

(24) –ألفريد لبتنال، ثمن إسرائيل، تر: حبيب الخولي ، ط4، دار الأفاق الجديدة ، 1981 ، ص 16.

(25) –أحمد فؤاد انور ، تاريخ اليهود من تشويه الأنبياء إلى 11 ديسمبر، مركز الراية، (د.م.ن)، (ر.ت).ص 23.

(26) – بيار نار غرانميه، إسرائيل، تر: محمد سميح السيد ، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1984، ص 90.

(27) – عدنان السيد حسن، التوسع في الاستراتيجية اليهودية، دار النفائس، (د.م.ن)(د.ت)، ص 30.

(28) – تيودر هرتزل، الدولة اليهودية، (د.م.ن)، (د.ت)، ص 19.

(29) – عدنان السيد حسن، المرجع السابق ، ص 30.

[30]- أمين عبد الله محمود، المرجع السابق، ص 105.

[31]- هيلة بنت سعد بن محمد السلمي، دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث كلية الشريعة والدراسات العليا التاريخية والحضارة، مكة مكرمة، 2001، ص ص 64-65.

[32]- سيد فرج راشد، المرجع السابق، ص ص 89-90.

[33]-أمين عبد الله محمود، المرجع السابق، ص 106-107.

[34]- يُقال:إن الكلمة مشتقَّة من الكلمة الألمانية "جهتر" التي تَعني: "مكانا محاطا بالأسوار"، أو من الكلمة العبريَّة "جت"؛ بمعنى: الطلاق أو الانفصال، أو من الكلمة الإيطاليَّة التي تَعني: قسمًا صغيرًا من المدينة؛ أنظر ، عبد الوهاب محمد المسيري ،موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصِّهْيَونيَّة ، مؤسسة الاهرام – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية, 1975 ، ص 154.

[35]- رشاد *عبد الإله* ،الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية" ، *دار الزهراء، القاهرة*1991 م*.ص131* .

[36]- أمين عبد الله محمود، المرجع السابق، ص 108.

[37]- نفسه ، ص 113.

[38]-أمين عبد الله محمود ،المرجع السابق ،ص ص 113-114.

[39]-ريجينا شريف ،الصهيونية الغير يهودية ، أحمد عبدالله عبد العزيز ،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت،1985.ص114.

[40]- أمين عبد الله محمود ،المرجع السابق ،ص 114.

[41]- أمين عبد الله محمود ،المرجع السابق ،صص 114-115.

[42]- عماد مصطفى طلاس، أفاق الاستراتيجية اليهودية، (د.د.ن) دمشق، (د.ت) ص ص 38-41.

[43]-محمد باخربية، المرجع السابق، ص ص 42-45.

[44]- عماد مصطفى طلاس، المرجع السابق، ص ص 26-28.

[45]- محمد باخربية، المرجع السابق، ص ص 46-48.

فتوى جزائرية في شأن أهل الذمة سنة 1172 هـ/1758م

Algerian fatwa on dhimmis in 1172 H / 1758

فارس كعوان

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، fares_kaoaune@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/02/15 **تاريخ القبول**:14 /2021/04 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

برز النفوذ اليهودي في الجزائر خلال الفترة العثمانية بشكل واضح منذ القرن الثامن عشر وصار لهم نفوذ قوي في السياسة والاقتصاد، ولكن علاقتهم بالمجتمع المحلي كان يغلب عليها الاحتراز وعدم الثقة، وكثيرا ما دخل الطرفان في صراع خصوصا إن مس أحد الطرفين بعقيدة الطرف الآخر أو أهان رموزها.

واستغل اليهود نفوذهم لدى السلطة الحاكمة فيستفزون الناس بالتعدي على حرماتهم أو إهانة مقدساتهم، وكانت ظاهرة سب النبي صلى الله عليه وسلم من بين الظواهر التي عُرفت عند الأقليات اليهودية كل مرة تدخل في صراع مع المسلمين، مما ينتج عنه احتقان وتشنج لا ينتهي إلا بأعمال عنف كثيرا ما تتماهى معها الفتاوى الفقهية لتعطيها طابعا شرعيا كما حصل بالجزائر سنة 1758.

الكلمات الدالة: فتوى، الجزائر، أهل الذمة، اليهود، المفتي الحنفي.

Abstract:

The Jewish influence in Algeria emerged clearly during the Ottoman period since the eighteenth century, and they had a strong influence in politics and economics, but their relationship with the local community was predominantly cautious and distrustful, and the two parties often entered into conflict, especially if one of the parties violated the belief of the other party or insulted its symbols.

The Jews used to exploit their influence with the ruling authority and provoke the people by violating their sanctities or insulting their sanctities, and the phenomenon of insulting the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, was among the phenomena known to Jewish minorities every time they entered into a conflict with Muslims,

resulting in tension and convulsion that only ends with much violence The jurisprudential fatwas are not identical with them to give them a legal character, as happened in Algeria in 1758.

Keywords: Fatwa; Algeria; the dhimmis; the Jews; the Hanafi Mufti**.**

1. مقدمة:

نقدم في هذا المقال دراسة عن وثيقة هامة تعود للعهد العثماني، وهي وثيقة تعالج قضية تتعلق باليهود والنصارى الذين يسبون النبي صلى الله عليه وسلم وصاحب الوثيقة يشغل أعلى منصب ديني في الجزائر وهو منصب المفتي الحنفي.

والوثيقة لا زالت مخطوطة إلى يومنا هذا ولم تقدم حولها حسب علمنا دراسة تكشف قيمتها وأهميتها في مجال الدراسات التاريخية رغم ان المرحوم الدكتور سعد الله قد سبق له أن ذكرها وبيّن أهميتها في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي.

ولعل الأسئلة التي نود طرحها هنا هي: ما هو الظرف التاريخي الذي ظهرت فيه هذه الفتوى الغريبة؟ وكيف كان تأثيرها على نظرة الناس للطائفة اليهودية؟ وهل طُبّق فعلا حكم الحرق على أحد من يهود الجزائر؟

2.التعريف بالوثيقة:

1.2 . وصف الوثيقة:

هذه الوثيقة المخطوطة هي من بين الوثائق المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية، وهي تحمل رقم:2198، وتحمل هذه الوثيقة عنوان: "**سيف الودود في عنق من أعان اليهود**" وهو نفس العنوان الذي يظهر في الورقة الأولى من الوثيقة المخطوطة حيث يقول صاحب الفتوى:"... وسميت الرسالة بسيف الودود في عنق من أعان اليهود وأجبت بمشروعية إحراق اليهود والنصارى إذا يظهرون السب إلى رسول الله عليه السلام وأما أصل المشروعية بما رُوي عن نبينا عليه الصلاة والسلام في حق المرتد إن وجدتموه فأحرقوه وما قيل هذا الحديث منسوخ قوله منسوخ بعمل علي رضي الله عنه..."[1]

وجاء في صفحة الغلاف وبخط مغاير لخط باقي الوثيقة ما يلي: "إفتاء الولي سيدي محمد الحنفي في إفتاءه بإحراق اليهود والنصارى.

وجاءت الوثيقة في حجم خمس ورقات من الحجم المتوسط، أما الخط فهو خط مغربي صعب القراءة في الكثير من المواضع، ولا توجد أي فراغات في النص أو كلمات مطموسة، وتم نسخ المخطوط من قبل شخص يسمى محمد بن إبراهيم العسالي سنة 1237 هـ/ 1821 م .

2.2 صاحب الفتوى:

صاحب هذه الفتوى هو مفتي الحنفية بالجزائر: محمد بن مصطفى الواني الذي تولى الفتوى سنة 1171 هـ/ 1757 م وخرج منها سنة 1177 هـ/ 1763 م.[2]

ويذكر ألبير دوفو الذي اشتغل على الوثائق العائدة للعهد العثماني أن المفتي المذكور أي محمد بن مصطفى الواني هو المفتي الثالث والعشرون من مفاتي الأحناف في الجزائر ظهر اسمه أول مرة في نهاية جمادى الأولى 1171 هـ/1758[3] وذلك عندما قام رفقة القاضي الحنفي بالمجلس العلمي بإبطال حبس السيد حسين البابوبجي على زوجته كريمة وابنتهما آمنة لصالح الورثة الباقين[4] و ظهر اسمه للمرة الأخيرة في الوثائق بداية جمادى الثانية سنة 1177 هـ/ 1763 م.[5]

ورد اسم هذا المفتي في أحد العقود وهو عقد إبطال حبس سنة 1177 هـ/ 1763 م بهذا الشكل: أبو السعيد محمد بن المصطفى[6] وقد ذكر هذا المفتي أنه بمجرد توليه الفتوى الحنفية تلقى هذه الفتوى الغريبة " ... وبعد لما تصدرت للفتوى وسيئت لوقة الشكوى وقعت حادثة هذه الفتوى سنة ألف وماية واثني وسبعين في بلدة الجزاير صانها الله من الشراير في إحراق اليهود والنصارى إذا يسبون صدر السيادة ومعدن كل خير وسعادة صلى الله تعالى عليه وسلم وأصل الإحراق فهل هو جايز او غير مشروع او هو مختص في الله تعالى..." [7]

1.3 . أوضاع طائفة اليهود وعلاقتها بالمجتمع الجزائري:

يرجع التواجد اليهودي بالجزائر إلى آلاف السنين، وكان العهد العثماني هو الفترة التي عرفت فيها الحياة اليهودية تطورات على جميع الأصعدة، والتي غيرت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وأثرت على هيكلتها الطائفية الداخلية، وحتى على دورها السياسي[8].

وانتشر اليهود في العهد العثماني في مدن كثيرة، فقد ذكر الأسير البرتغالي ماسكارينهاس (1621-1626) أنه كان في مدينة الجزائر على عهده حوالي 150 منزلا لليهود موزعة على حيين، لكل حي معبده، ويوجد من بينهم يهود من أمم مختلفة.[9]

ارتفع عدد يهود المدينة ليصل عام 1808 حسب الجاسوس بوتان إلى عشرة آلاف شخص[10] لكن هذا العدد انخفض في أواخر الفترة العثمانية ليصل إلى خمسة آلاف شخص عام 1830[11].

تكوّنت فئة اليهود التي تواجدت بالجزائر من ثلاث مجموعات هي:

1- الطوشابيم أو اليهود الأهالي.

2- الميغورشيم أو اليهود الوافدين من الأندلس.

3- يهود ليفورنة.[12]

ومن حيث البنية الاجتماعية – المهنية ليهود الجزائر فقد كانوا يتشكّلون من طبقة غنية جدا وطبقة فقيرة جدا تتوسطهما طبقة التجار الصغار والحرفين، وكانت درجة الغنى تختلف حسب اختلاف أهمية المدن.[13]

اشتغل اليهود في مختلف المجالات الاقتصادية فقد عملوا في الحرف خاصة حرف الصياغة والصباغة والغزل والطرز، وكانوا يتولون إعداد ملابس الدايات وعائلاتهم.

كما عملوا في صناعة الزجاج وصناعة مقابض البنادق والصيد البحري واختص بعضهم في مراقبة صناعة النقود.[14]

وعمل فقراء اليهود في تنظيف الشوارع والأزقة، ودفن جثث الموتى الذين يُنفّذ فيهم حكم الإعدام.[15]

أدى اختلاف المستوي المعيشي بين اليهود إلى اختلاف نمط المعيشة ونوعية المسكن، فالمساكن الفخمة كانت من نصيب الأغنياء بجوار مساكن الطبقة الحاكمة أو أغنياء الحضر، في حين سكن فقراء اليهود في الحارات.

وفي المجال الديني تمتع اليهود بحرية تامة في ممارسة عقائدهم، وكانوا يخضعون لقوانينهم الدينية، وهم غير قابلين للاسترقاق، ويدفعون الجزية بصفتهم من أهل الذمة، كما كانت لهم محاكمهم الخاصة في المسائل القضائية– الجنائية مثل السرقة والخيانة والقتل.

وكان يهود الجزائر مستثنون من بعض الأشياء، فلم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أو حمل أي نوع من أنواع السلاح، بما في ذلك العصا، ويعد يوما السبت والأربعاء اليومين الوحيدين المسموح فيهما لليهود بالخروج من أحد أبواب مدينة الجزائر دون ترخيص مسبق من السلطة.[16]

كان يتصدر التنظيم الطائفي لليهود "مقدم" يقوم بدور الوساطة بين الطائفة اليهودية والسلطة العثمانية، وهوا القائد الإداري لليهود، والمكلف بالحفاظ على الأمن والنظام بين أفراد الطائفة، وأدنى عصيان تحت سلطته القضائية، فهو يقوم بدور قاضي الصلح في كل الخصومات التي تحدث بين اليهود، فيقوم بتنفيذ أوامر السلطة وتوقيف المجرمين.[17]

وفي مدينة الجزائر كان المقدم يعين مباشرة من طرف الداي، وكان له أربعة مساعدين، وباعتباره المسؤول الأول عن الطائفة فمن صلاحياته تعيين مساعديه الأربعة وباقي الموظفين من قضاة وحاخامات.[18]

والملاحظ أنه نتيجة للنشاط الاقتصادي الكبير لليهود فقد زاد نفوذهم بشكل كبير، ويذكر دوقرامون أن اليهود كانوا" الممولين بالمال للدايات وأنهم كانوا وسطائهم السياسيين ومستشاريهم ووزرائهم ".[19]

وكان يهود ليفورنة تحت حماية القنصل الفرنسي وتتم امورهم الادارية في مقر القنصلية الفرنسية واستمر هذا الوضع حتى الاحتلال الفرنسي.[20]

وبلغ هذا النفوذ حده الأقصى في عهد كل من حسن باشا ومصطفي الوزناجي في الفترة ما بين 1792-1805، وهذا ما تسبب في نقمة الناس واستياء أفراد الجيش.

2.3 . نماذج من تجاوزات يهود الجزائر في الفترة العثمانية:

رغم المكانة التي تمتع بها اليهود في الجزائر خصوصا من الناحية التجارية إلا أن المصادر كانت تسجل عددا من تجاوزاتهم ضد المجتمع الجزائري، فقد أشار الفكون مثلا إلى قضية اليهودي المختاري وهو يهودي أسلم وانخرط في عسكر الباي بقسنطينة ثم حدثت له مع بعض الناس مشاجرة فلجأ على إثرها إلى سب النبي صلى الله عليه وسلم مما أدى إلى هياج الناس فحبس واستفتي في أمره، وكان العسكر قد ضغطوا حتى لا يعاقب حفاظا على مكانتهم وسط الناس ووافقهم القاضي ابي زكريا على رأيهم مجاراة للأمير وجنده، ولكن الفكون الجد أصر على تنفيذ عقوبة القتل في ذلك اليهودي لتجاسره على النبي، وأصر على موقفه رغم الضغوطات الكبيرة التي مورست عليه.

وفي الأخير طلب منه القاضي أن يقدم رأيه مكتوبا فقدمه بالأدلة ولما قرىء ذلك على الناس اقتنعوا بوجوب تنفيذ تلك العقوبة وما كان من الأمير إلا أن يذعن في الأخير لرأي الفكون الجد وتم تنفيذ عقوبة القتل في حق اليهودي المختاري لتجاسره على سب النبي صلى الله عليه وسلم.[21]

وكانت تلك القضية نموذجا لما سيطرأ في قادم الأيام من قضايا مشابهة، حيث أن اليهود كانوا يلجؤون لاستفزاز الناس بسب النبي مع علمهم بالأثر الشديد لذلك التصرف على نفوس المسلمين.

ولعل ما أشارت له إحدى وثائق المحكمة الشرعية بالجزائر كان نتيجة لسلوك كهذا، فقد أشارت تلك الوثيقة التي تحمل رقم" م.ش.ع:121(32) لقضية مصادرة أملاك بعض اليهود وبيعها في المزاد، حيث أجمع عسكر الجزائر سنة 1705 م "على مصادرة أملاك أولاد شالوم بن فريحة اليهودي، وعيّن العسكر الأمير صاري مصطفى آغا بن احمد التركي الناظر وقت تاريخه على شغل المواريث المخزنية ببلد الجزائر المحمية نائبا عنهم" وتمثلت أملاك هؤلاء

اليهود في دار مخلفة عن والدهم شالوم مطلة على سوق الدخان وخمس محلات من محلات السنباولية ومخزنها الواقع بسقفها مع محل صغير بسوق السنباولية ملتف بين محل لصالح أوقاف مسجد المرسى في اعتماد باشا والي وبين محل الذمي يعقوب القزال هذا بالإضافة إلى مخزنين صغيرين يقع أحدهما بداخل محل الكبابجي قريب من باب الدار المذكورة فبعد كون ما ذكر شهد الأمير صاري مصطفى آغا شهيديه على نفسه أنه باع عن عسكر محروسة الجزائر بحكم الإذن منهم الأملاك المذكورة الى المعظم المحترم القبطان المجاهد خليل التركي."

وعلّقت نجوى طوبال على الحادثة بقولها :"نحن نجهل أسباب مصادرة أملاك أولاد اليهودي شالوم بن فريحة وطرحها في المزاد"[22] لكن يبدو أن ذلك إجراء انتقامي لما قد يكون قام به هؤلاء، وبدل قتلهم تقرّر مصادرة أملاكهم وبيعها.

ويروي إيزنبيث حادثة وقعت في 16 جويلية 1706 حيث أن الديوان اجتمع وأصدر الداي قرارا بتهديم كل المعابد اليهودية، وبدأ الناس في الهجوم على المعبد اليهودي الكبير في مدينة الجزائر ونهبه فسارع اليهود لتقديم هدايا ثمينة لأحد كبار الموظفين الذي تدخل كي يوقف قرار هدم المعابد اليهودية.[23]

ولا يقدم لنا ايزنبيث أي مبرر منطقي لإقدام الداي والديوان على إصدار مثل ذلك القرار الذي يرجعه في نظره لروح التعصب فقط ضد اليهود، ولكن لو كان الأمر كما يدعي فكيف يُفسّر تراجع السلطة عن ذلك القرار، واستمرار تمتع اليهود بامتيازات كبيرة.

نحن نرجح رغم أن الدليل يعوزنا أن الداي والديوان قد لجآ لإصدار مثل ذلك القرار إرضاء للناس بسبب عمل مشين قد يكون اليهود ارتكبوه ضد المسلمين، فلا يعقل أن تهدم معابدهم هكذا دون أي سبب قوي.

لكن هل كان الحرق فعلا عقوبة متوجبة على اليهود خلال العهد العثماني؟

يقول بايصونال"1725":" إن مكان تعذيب اليهود يقع قرب باب الواد قرب مقبرة اليهود والنصارى: وهناك يعاني اليهود المحكوم عليهم من آخر عذاب لهم والذي هو في العادة الحرق." [24]

ولكن بايصونال الذي ذكر هذا لم يذكر أن تلك العقوبة قد طبقت على أحد من اليهود، ويبدو أنه نقل تلك الأخبار عن بعض اليهود ممن يتقنون اللغة الفرنسية ودوّنها في رحلته كما هي دون مناقشة.

يذكر موريس إيزنبيث نقلا عن بلانتي"1834" قوله:" يتعرض النصارى واليهود لعقوبات قاسية كالنفي وبتر أحد الأعضاء والخنق والوضع في مدفع والشنق والوضع في سور و المحرقة، كل هذه العقوبات عوض الغرامة أو التنزيل من المنصب أو الضرب بالعصا المخصصة للأتراك.[25]

ويقول وليام سبنسر الذي ينقل عن مصادر لا يذكرها للأسف أنه في سنة 1760 قام داي الجزائر بتهديد اليهود بقتل جماعي بسبب خطفهم لطفل صغير من النصارى كانوا ينوون تقديمه قربانا ضمن طقوسهم الدينية، ولكن اليهود تجاوزا ذلك التهديد وقدموا للداي وأعوانه هدايا ضخمة.[26]

ولكن حوادث الحرق حتى وإن وجدت فهي حوادث معزولة ولا تُطبّق تلك العقوبة إلا بعد إقدام أحد هؤلاء على فعل مشين يستوجب تلك العقوبة كما حدث في تونس سنة 1764.

يشير ايزنبيث نقلا عن بعض المصادر إلى حادثة وقعت في تونس سنة في عهد حمودة باي سنة 1764 حيث تم القبض على بحار مسيحي من راقوزا" في كرواتيا حاليا" والذي تم ضبطه مع امرأة مسلمة في بيت أحد اليهود.

وأصدر الباي قراره بتطبيق أقصى العقاب على هؤلاء، فطبقت عقوبة قطع الرأس على القبطان، وأما المرأة المسلمة فقد تقرّر ربطها ووضعها داخل كيس و رميها في البحر، وأما اليهودي فقد تم حرقه حيا."[27]

ويفسر إيزنبيث ذلك كعادته بالتعصب ومقت اليهود متناسيا أن فعلا شنيعا مثل ذلك هو استفزاز لمشاعر المسلمين، فاليهودي بإيواءه للنصراني الذي ارتكب الزنى مع امرأة

مسلمة قد وضع نفسه في مواجهة مشاعر السخط التي عمت البلاد والتي كان لا بد للباي أن يجاريها ويرضخ لها.

وفي الجزائر وكما سبق أن أشرنا كان اليهود يلجئون إلى استفزاز مشاعر المسلمين بسلوكيات مماثلة، وأحيانا يلجئون إلى السب العلني للنبي صلى الله عليه وسلم، مستغلين في ذلك مكانتهم لدى عدد من الحكام، ونفوذهم حتى لدى القناصل الأوروبيين الذين كان بعضهم يتدخل لصالحهم.

3.3 . ظروف صدور الفتوى:

صدرت تلك الفتوى سنة 1172 هـ/ 1758 م في عهد الداي علي باشا بوصبع الذي تولى الحكم سنة 1168 هـ/ 1755 م.[28]

وشهدت البلاد في عهده بعض الحوادث كالزلزال الذي ضرب مدينة الجزائر في شتاء سنة 1169 هـ/ 1756 والذي استمر بهزاته الارتدادية شهرين كاملين،[29]كما هاجم سكان جبال زواوة برج بوغني وحطموه في شوال سنة 1170 هـ/ جويلية 1757 م وهلك قايد برج سباو المدعو أحمد، واستولى الثائرون كذلك على برج البويرة، واستمرت هجماتهم تلك حتى منتصف سنة 1758.[30]

وأصاب البلاد بعض الجوائح والأوبئة، ففي سنة 1756 عرفت البلاد سوءا في الأحوال الجوية مع انتشار الوباء، واستمر الوضع هكذا سنة 1757 أيضا و1758 و 1759.[31]

وفي عهده أيضا حدثت الحرب مع تونس حيث ذكر صاحب مخطوط بيان ملوك الجزائر خروج المحلة الجزائرية إلى تونس، والاستيلاء على أموال التونسيين عام 1172 هـ/1758 م.[32]

وأما عن اليهود فقد استمر نفوذهم السياسي والاقتصادي في تلك الفترة، وسيطروا على مفاصل اقتصاد الايالة، وأصبحوا الوسطاء الطبيعيين بين الإيالة الجزائرية والدول الأوروبية.[33]

وكانت علاقة اليهود بالمجتمع المحلي علاقة طبيعية بل أن المسلمين كانوا يتعاملون مع اليهود دون أي حرج، ولاحظنا انه حتى النساء كن يتعاملن مع اليهود بشكل طبيعي ودون أي حساسية، ولكن من حين لآخر تنشأ خلافات بين الطرفين يغذيها التعصب الديني وشعور المسلمين أن اليهود يتحكمون في كل مفاصل الحياة الاقتصادية وصاروا ينافسونهم حتى في مصادر رزقهم.

وقبل صدور الفتوى المذكورة بعام أي سنة 1757 قدم للجزائر أحد التجار اليهود الأثرياء وهو أبراهام بوشعرة قادما من ليفورنة ليقرر الاستقرار في مدينة الجزائر، فانخرط في أعمال والده ثم عمل لحسابه الخاص، وفي السنة التي قدم فيها قام بشراء عدد من العبيد الأوروبيين المنتمين لليفورنة وليشبونة وجنوة ونابولي.[34]

وزاد نفوذ اليهود بالجزائر في مختلف المجالات خصوصا بعد قدوم عائلات ثرية ومعروفة من ليفورنة، وهي التي تحكمت في مصير البلاد وصار الحكام كالدمى بين أيديها.

واستمرت الطائفة اليهودية متماسكة في تلك الفترة ومهيكلة في تنظيم ديني محكم، وكان قاضي الطائفة سنة 1757 هو ابراهيم بن ميمون حسب غطاس[35] او ابراهيم بن شلومو فريحة" 1744 – 1777 " حسب طوبال.[36]

ووجدنا صدى لهذه العلاقة المتوترة في بعض وثائق العصر، فقد ذكرت نجوى طوبال أن إحدى وثائق المحكمة الشرعية والتي تحمل رمز : م، ش،ع: 121 (32) بتاريخ 1213 هـ/1798 م، فقد كتب موثق أحد العقود واصفا الشاهدان اليهوديان بعبارة حادة هي : "شهدت به قاذورات اليهود لعنهم الله.."[37]

وهذا نص هذا العقد كما تفضلت بتزويدنا به الباحثة نجوى طوبال:

"الحمد لله..... شهد بمعرفة الذميين وهم مسعودة بنت هارون سماجة ويعقوب بن موشي الأشقر وعمران بن عمران الأشقر ويعقوب بن شلومو الأشقر وإبراهيم بن محبوب ازافه معرفة تامة قطعية...أملاكهم جميع الثمن الواحد ونصف الثمن من جميع الدار الكاينة بالسبع لويات المعروفة لدار عزيزة انجر لهم ذلك بالإرث من آبائهم....بتاريخ أواخر حجة الحرام فتح شهور عام اثني عشر ومائتين وألف من هجرته عليه السلام

شهدت به قاذورات اليهود لعنهم الله

الذمي سميح قاضي طايفة اليهود في التاريخ ابن عمران دران

والذمي إسحاق قاضي الطايفة المذكورة في التاريخ بن مرتخاي شموييل."[38]

وقالت الباحثة نجوى طوبال أن هذا يمكن أن يكون نتيجة الفتوى التي نحن بصددها لكن في اعتقادنا أن هذا مستبعد للبعد الزمني بين الفتوى" 1758" والوثيقة"1798" من جهة، و لأن الوثيقة كما قالت الباحثة هي نادرة، ولم يتكرّر الأمر في الوثائق الأخرى التي ذكرت اليهود، والتي كانت تكتفي بعبارة الذمي فقط دون أن تضيف أي شيء آخر.

4.3 . تحليل مضمون للفتوى:

ونعود لتلك الفتوى الغريبة التي جاء في مقدمتها : "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وانزل عليه الكتاب فبلغ ما انزل إليه وحقق وجعل أمته كأنبياء بني إسرائيل في شرح كل مغلق وفهم ما لم يكونوا يعلمون طريق الشرع".[39]

ويستند صاحب الفتوى على حديث نبوي ورد عنده بالصيغة التالية:" المرتد إن وجدتموه فأحرقوه " ولكن الحديث جاء في صحيح البخاري بصيغة أخرى مخالفة:" من بدل دينه فاقتلوه." [40]

ويبدو أن صاحب الفتوى يميل لاجتهاد الإمام علي في هذه المسألة رغم اقراره بمخالفة ابن عباس له في تلك المسألة،[41] حيث جاء في الصحيح أن علي بن ابي طالب رضي الله عنه أتى بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي

رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعذبوا بعذاب الله ولقتلتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "من بدل دينه فاقتلوه."[42]

وكنا نظن أن صاحب الفتوى قد اعتمد على رأي الشيخ المغيلي في المسألة ورأيه فيها معروف حيث وضع فتواه الشهيرة في يهود توات التي جاء فيها بخصوص اليهود:"...قد حلت دماؤهم وأموالهم ونساؤهم ولا ذمة لهم لأن الذمة التي ترفع السيف عنهم هي الذمة الشرعية لا الذمة الجاهلية وإنما تكون لهم الذمة الشرعية مع إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون."[43]

ووجدنا صاحب الفتوى يغرق في شرح الحديث السابق وحاول أن يقدم آراء بعض الداعمين لتفسيره هو للحديث، وأخذ منه ذلك باقي صفحات الوثيقة التي نحن بصددها ولم يقدم لنا أي حادثة وقعت في الجزائر تجعله يميل لهذا الرأي في حق اليهود، وبذلك فقد حرمنا من التعرف على مختلف الوقائع التي تلت صدور هذه الفتوى.

4. خاتمة:

عالجنا في موضوع هذا المقال فتوى أصدرها مفتي الحنفية بالجزائر وهو محمد بن مصطفى الواني سنة 1172 هـ / 1758 م في شأن أهل الذمة اليهود والتي أجاز فيها إحراقهم اعتمادا على تفسيره لأحد الأحاديث النبوية، وكان يميل لرأي يعتبر متطرفا حينها وحاول دعمه بعدد من الحجج الشرعية، وما لاحظناه أن صاحب الفتوى لم يقدم لنا ما دفعه لإصدار تلك الفتوى وبالتالي حرمنا من معرفة السياق التاريخي الذي جعله يصدرها ويصر على رأيه بخصوص اليهود، وإن كان قد اعتمد فقط على الاستدلال بمن يسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأوجب له عقوبة الحرق.

الهوامش:

[1] - محمد بن مصطفى الواني: سيف الودود في عنق من أعان اليهود، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:2198، ورقة 02 و.

[2] - ابو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1906، ص 473.

[3]-Devoulx, Albert: Les édifices religieux de l'ancien Alger, Adolphe Jourdan, Alger 1870, p 148.

[4] - لطيفة حمصي :المجتمع والسلطة القضائية المجلس العلمي بالجامع الاعظم بمدينة الجزائر 1710-1830 ، رسالة ماجستير في التاريخ، اشر اف عائشة غطاش، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2012، ص 157.

[5] -[5]-Devoulx, Albert: Les edifices religieux, p 148.

[6] - لطيفة حمصي :هيأة الإفتاء بمدينة الجزائر: قراءة في وثائق المحاكم الشرعية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، ع 41، جوان 2014، مجلد ب، ص 97.

[7] - محمد بن مصطفى الواني: المصدر السابق، ورقة 02 و.

[8] - Eisenbeth, M : Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque (1516-1830) in R.A 1952, p 134-135.

[9] - Mascarenhas,J :Esclave à Alger, trad de portugais par Paul Teyssier, Paris, Chandeigne 2eme éd, 1999, p 75.

[10] -Boutin : Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger , publié par G.Esquer Paris, Champion , 1927, p 76.

[11] - علي عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر : نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، 1972، ص 255.

[12] - Eisenbeth, M : Opcit, p 151.

[13] -Ibid, p 128-130.

[14] - وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر[1816-1824]، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، ش.و.ن.ت. 1982، ص 90-91.

[15] - علي عبد القادر حليمي: المرجع السابق، ص 257.

[16] - وليام شالر: المصدر السابق، ص 89 -91.

[17] - Ministère de la guerre : T. S .E . F 1840 , p 356.

[18] - غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830، مقاربة اجتماعية – اقتصادية، منشورات ANEP ، 2007، ص 45.

[19] -De Grammont H.D : Histoire D'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris , éd Ern est Leroux editeur , 1887, p 232- 233 .

[20] - بليل رحمونة: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، دار القدس العربي،وهران،2017، ص 210.

[21] - عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987،، ص 64 –66 .

[22] - نجوى طوبال: طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700 – 1830 من خلال سجلات المحاكم الشرعية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 56.

[23] - Eisenbeth, M : Opcit, p 146.

[24]-Peyssonel, J.A et Desfontaine : Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger,publier par Dureau De La Male, Paris, Librairie de Gide,1838, p 447.

[25]- Plantet, E : Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France 1570-1833, Tunis, Bouslama 1980, p 22.

[26] - وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر،2006،ص 101.

[27]- Eisenbeth, M : Ibid,in R.A 1952, p 144.

[28] - أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب أشراف الجزائر (1754-1830)، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1974 ، ص 15.

[29] - De Grammont H.D : Histoire D'Alger, p 310 .

[30] - Ibid, p 313 .

[31] - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر دار السلطان أواخر العهد العثماني 1791-1830، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2013، ص 331-332.

[32] - مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر وما وقع فيها من الأمور، مخ المكتبة الوطنية، الجزائر تحت رقم 1637، ص 3 .

[33] - De Grammont H.D : Opcit, p 360 .

[34] - M.J.M.Haddey : Le livre d'or des Israelites algériens, Alger,Imprimerie Typographique De Bouyer, 1872,p 62.

[35] - عائشة غطاس: الحرف والحرفيون، ص 46.

[36] - نجوى طوبال: المرجع السابق، ص 234.

[37] - المرجع نفسه، ص 46.

[38] - نتقدم بجزيل الشكر للباحثة نجوى طوبال لتفضلها بإرسال نص هذا العقد النادر إلكترونيا بتاريخ 2020/09/03 وقد نقلته بيدها من الأرشيف الوطني الجزائري.

[39] - محمد بن مصطفى الواني: المصدر السابق، ورقة 02 و.

[40] - البخاري محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح ، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط 1، 2002، "كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، حديث رقم6922 ص 1711.

[41] - محمد بن مصطفى الواني: المصدر السابق، ورقة 02 ظ.

[42] -البخاري: الجامع الصحيح ، ص 1711.

[43] - محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني : مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق : رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 53- 54.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

البخاري محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح ، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط 1، 2002.

بليل رحمونة: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، دار القدس العربي،وهران،2017.

الحفناوي بو القاسم: تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1906.

حليمي علي عبد القادر: مدينة الجزائر : نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، 1972.

حمصي لطيفة: المجتمع والسلطة القضائية المجلس العلمي بالجامع الاعظم بمدينة الجزائر 1710-1830 ، رسالة ماجستير في التاريخ، اشر اف عائشة غطاش، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2012.

حمصي لطيفة: هيأة الإفتاء بمدينة الجزائر: قراءة في وثائق المحاكم الشرعية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، ع 41، جوان 2014، مجلد ب.

الزهار أحمد الشريف: مذكرات نقيب أشراف الجزائر (1754–1830)، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1974.

سبنسر وليام: الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر،2006.

سعيدوني ناصر الدين: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر دار السلطان أواخر العهد العثماني 1791- 1830، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2013.

شالر وليام: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر[1816–1824]، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، ش.و.ن.ت. 1982.

طوبال نجوى: طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700 – 1830 من خلال سجلات المحاكم الشرعية، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.

غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700–1830، مقاربة اجتماعية – اقتصادية، منشورات ANEP ، 2007.

الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987.

المغيلي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني : مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق : رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.

مؤلف مجهول: بيان ملوك الجزائر وما وقع فيها من الأمور، مخ المكتبة الوطنية، الجزائر تحت رقم 1637.

الواني محمد بن مصطفى: سيف الودود في عنق من أعان اليهود، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم:2198.

باللغة الاجنبية

Boutin : Reconnaissance des villes, forts et batteries d’Alger, publié par G.Esquer Paris, Champion, 1927.

Devoulx, Albert: Les édifices religieux de l’ancien Alger, Adolphe Jourdan, Alger 1870.

Eisenbeth, M : Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque (1516-1830) in R.A (1952).
Grammont H.D : Histoire D'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris , éd Ern est Leroux éditeur , 1887.
Haddey M.J.M. : Le livre d'or des Israelites algériens, Alger, Imprimerie Typographique De Bouyer, 1872.
Mascarenhas, J :Esclave à Alger, trad de portugais par Paul Teyssier, Paris, Chandeigne 2eme éd, 1999.
Ministère de la guerre : T. S .E . F 1840.
Peyssonel, J.A et Desfontaine : Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger,publier par Dureau De La Male, Paris, Librairie de Gide,1838.
Plantet, E : Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France 1570-1833, Tunis, Bouslama 1980.

المسار التحديثيّ للتعليم العالي: منظومة أمد نموذجا

The Path to Modernization in Higher Education: LMD system as a case study

رمزي تاج[1]

[1] المعهد العالي للغات بقابس، ramzi.tej@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 16 /2021/01 تاريخ القبول:2021/04/28 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص:

هدفت الدراسة إلى الخوض في مسألة طالما كانت محل جدال متواصل بين المختصّين التربويين قصد الوقوف عند الأسباب غير المعلنة التي أوعزت للسلط المسؤولة طرح مسألة التغيير والتجديد على المستوى البيداغوجي، إلى جانب محاولة تتبّع الخطوات الأولى للمشروع التحديثي المزمع إرساءه حتّى يتسنّى لنا معاينة نسب نجاحه من عدمها على ضوء الخطى المتثاقلة التي وسمت بداياته.

ومن أبرز النتائج المتمخضة عن البحث نذكر أنّ الفكرة في مجملها قامت على مبادئ نظرية وقوانين تنظيمية قلّصت إلى حدّ كبير من الأهداف المنشودة والمنتظرة، إضافة إلى غياب رؤية بيداغوجيّة واضحة نتاج غلبة الجوانب البراغماتية أين تركّز الاهتمام على السوق التشغيلية أكثر من العناية بقيمة التكوين، ومستوى الخرجين.

الكلمات الدالة: منظومة أمد، المشروع التحديثي، المسلك، الأرصدة، الإجازة.

Abstract:

The present study examines a central and *contentious* issue that has long been raised among education specialists. It investigates the undeclared reasons that have pushed the responsible authorities to put forward the issue of change and innovation at the pedagogic level. Besides, this research tries to trace the initial steps of the envisioned project for modernization so that we can detect the probability of

[1]- **المؤلف المرسل: رمزي تاج: ramzi.tej@yahoo.com**

success in the light of agonizingly slow pace that has characterized the process from the start.

One of the most notable findings indicates that the whole idea rests on theoretical foundations and regulatory laws which largely reduce the anticipated and desired goals. Another interesting result stresses the absence of a clear pedagogic vision in favor of the predominance of pragmatic aspects where the chief focus is on employability rather than giving value to the importance of training and the high level of graduates.

Keywords: LMD system; project for modernization; path; credits; graduate studies.

1. مقدمة:

شكّلت العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين نقطة التحوّل الجذرية في الأساليب التعليمية المتوخّاة صلب التعليم العالي، وبات من الملحّ مراجعة النظم، والقوانين والبيداغوجيات المعتمدة للخروج من دائرة السائد والتليد، واعتماد مناهج تعليمية مبتكرة من شأنها الرفع من مستوى الشهادات العلمية، ومواكبة متطلّبات السوق التشغيلية على مستوى الاختصاصات المطلوبة.

ومثّل تاريخ استحداث منظومة أمد، وتركيزها كمنوذج موحّد للتعليم في أغلب الدوّل الأوروبيّة المحطّة الأولى في مشوار التعصير التربوي، وجسر عبور الجامعة من نظام سائد ارتآه البعض غير ذي جدوى، إلى آخر حاملا لعدّة من تغيّيرات ضمن استراتيجية جديدة هدفها ترميم مخلّفات مع كان سائدا، وتطوير منظومة التعليم العالي بما يحقّق الانسجام بين مختلف المنادين بفكرة الإصلاح.

وارتأينا اِستنادا لما سبق ذكره طرح التساؤلات التالية:

- ما الأسباب العميقة التي استوجبت إعادة هيكلة منظومة التعليم العالي في غالبية الدول الأوروبية؟
- إلى أي مدى ساهمت التغييرات المحدثة في إعادة تشكيل ملاح التعليم العالي؟

- هل بالإمكان اعتبار النظم المستحدثة البديل الأنجع لتعويض ما كان معمولا به خاصّة على مستوى الكيف؟

وتكمن أهمية البحث المطروح في الدوافع الحقيقية الكامنة وراء المراجعات التي ارتأتها جلّ الدول الأوروبية مع مطلع القرن الواحد والعشرين، والتي خوّلت لنا إقامة ضرب من المقارنة بين المناهج القائمة، وبين ما استحدث قصد الحكم على نجاح المشروع التحديثي من عدمه.

ويتوجّب على الباحث في هذا المستوى توخّي مناهج علمية صارمة من شأنها إثراء البحث وتدقيق محتواه، من قبيل المنهج التّاريخي الذي لا محيد من اعتماده، والذي يساهم إلى حدّ كبير في إماطة اللّثام عن الجزئيّات المتعلّقة بالمسألة، من خلال العودة إلى النشأة الأولى لفكرة التحديث في الحاضنة الأوروبية، الأمر الذي استوجب توظيف المنهج المقارن بهدف تحديد ملامح ما كان سائدا مقارنة بما ترنو الدول الأوروبية ترسيخه.

2. المفاهيم الجوهرية والمبادئ الهيكلية لمنظومة أمد:

يعدّ البحث في المسائل ذات الصلة بالجوانب النظريّة من الأهميّة بمكان، بالنظر للدور الذي تلعبه في تحديد المفاهيم، وتدقيق المعاني الاصطلاحية التي لفّها الغموض، الأمر الذي دفعنا إلى التطرّق إلى أهمّ المفاهيم الجوهرية، والمبادئ الأساسية المهيكلة لمنظومة أمد، قصد الوقوف في مرحلة أولى على جذورها التاريخية، ومن ثمة نقطة التحوّل الفعليّة في أسس هذه المنظومة المستحدثة ومبادئها.

1.2. الجذور الأولى لميلاد منظومة أمد في الحاضنة الأوروبية:

يعدّ نظام أمد نتاج محاولات عدد من الدوّل الأوروبيّة الهادفة إلى خلق فضاء أوروبيّ موحّد نوعا ما يخصّ التعليم العالي، وذلك قبل موفّى سنة 2010. وشمل النظام المقترح مستويات ثلاث، بدءا بالإجازة المعوّضة للأستاذية في النظام القديم، مرورا بالماجستير في صيغته الجديدة، حتّى بلوغ مرحلة الدكتورا"[1].

وليس النظام وليد الصدفة، أو مجرّد إفراز من إفرازات فشل النظم السابقة فحسب بل تمخّض عن عدّة من تقارير، خاصّة تقرير "آتالي" الصادر عن فرنسا سنة 1997. ويعتبر هذا الأخير ثمرة جملة من اللقاءات والمؤتمرات، من قبيل مؤتمر "السربون" سنة 1998 وبولونيا 1999، وبراغ 2001، والتي عملت منذ البدء على استقاء نظام موحّد جامع لنقاط التشابه بين مختلف الأنظمة التعليمية الأوروبية[2].

ونذكر في هذا السياق أهمّ ما جاء في بعض التقارير الصادرة عن الدوّل المجتمعة لدراسة سبل إيجاد نظم تعليميّة جديدة في جلّ الجامعات الأوروبية، خاصّة تقرير "جاك آتالي" أواخر القرن العشرين، ومنها ضرورة إعداد ملف متكامل يتضمّن وصفا دقيقا للنظم التعليمية القارة، والمعمول بها في أغلب الدول الأوروبيّة، واستخراج مكامن الخلل، والعمل على إيجاد آليّات، وطرائق أكثر نجاعة وفاعليّة من شأنها رتق الصدع الذي رافق مسار التعليم العالي الفرنسي منذ عقود[3].

وتضمّن التقرير في صيغته النهائية، ونسخته المنشورة سنة 1998 وجوب اعتماد صيغ تعليمية جديدة أخذت لاحقا تسمية منظومة أمد، أي ما يعرف بالإجازة في حيّز زمنيّ حدّد بثلاث سنوات في مرحلة أولى، ثمّ الماجستير في سنتين، وأخيرا مرحلة الدكتورا في ثلاث. ودعت الأطراف المسؤولة عن التعليم العالي الفرنسي إلى ضرورة إنشاء مجال جامعيّ مشترك جامع للطلبة[4].

ودعى التقرير في مجمله إلى تجاوز الأطر التعليمية الأوروبية المنفصلة، وبناء فضاء أوروبيّ مشترك خاص بالتعليم العالي، وهو المطلب ذاته الذي تضمّنه مؤتمر بولونيا سنة 1999، والذي يعتبر خطوة أساسية لاستكمال المشروع قبل موفّى سنة 2010، وهو ما يتطابق أيضا مع مطالب العديد من المختصّين في هذا المجال، الذين يؤيّدون هذا المطلب ويعتبرونه سابقا للتاريخ المذكور، ويعود إلى الفترة التي شهدت إعلان بيان السربون[5].

ويتلخّص الهدف المنشود بالنسبة للدول المشاركة في هذا المؤتمر، والمصادقة على ما جاء فيه في نقاط أساسيّة ثلاث لا محيد عنها؛ الأولى، في علاقة بتسهيل تنقّل الطلبة ضمن

الفضاء الأوروبي الموحّد قدر المستطاع[6]، والثانية، تتمحور حول إضفاء خاصيّة المرونة على الشعب التعليمية، في حين ركزت الثالثة، على مزيد توضيح مفهوم التكوين الجامعي الأوروبي. ومثل المشروع الجديد فرصة للتخلّي عن مختلف الحواجز المقامة بين أنظمة التعليم العالي الأوروبي[7].

وتعدّ مبادرة "آتالي" الحدث القادح لمشروع اعتبره مناصروه النواة الأولى لتغيير جذريّ في منظومة التعليم العالي الأوروبي، ونوعا من الوعي للخروج من دائرة الانطواء الدولية، والعزلة في ميدان التعليم، ولفتح آفاق شراكة أوروبية جديدة تقطع مع الماضي، وتعمل على مزيد الرقي بأنماط التعليم وطرائقه، لا على مستوى الدول الأربع صاحبة المبادرة فحسب، بل لتشمل أيضا كامل دول الاتّحاد الأوروبي، وعددا من الدول الأخرى غير المنظوية تحت رايته[8].

وتوسّع المشروع بعد مرور سنة واحدة، وشمل 29 دولة أوروبيّة، وذلك عقب "مؤتمر بولونيا[9]، أين تقرّر مواصلة العمل على نفس الوتيرة في المؤتمر السابق، وتمّ استكمالا لما سبق الاتّفاق عليه تحديد جملة من الأهداف الإصلاحية. ومثّل مشروع بولونيا محطّة للتوافق بين الدول الأعضاء صلب الاتّحاد الأوروبي، لتشييد فضاء أوروبي خاص بالتعليم العالي من ناحية، وتوحيد المحتوى التكويني – الجامعي من ناحية أخرى، من خلال وضع مخطّط أوروبي منظم للدراسات، الأمر الذي أفرز في النهاية ما يعرف اليوم بنظام أمد، والذي يسمى أيضا بمشروع بولونيا[10].

ويعدّ مؤتمر لشبونه المتمّم لإجراءات ترسيخ ثوابت هذا المشروع في شهر مارس من سنة 2000، حيث تقرّر تحويل المجتمع الأوروبي إلى أهمّ حاضنة تعليمية ذات نموّ مستمرّ وتركيبة اجتماعيّة متماسكة، إلى جانب ضرورة تكوين خرجين يسهل في مراحل لاحقة تشغيلهم في مختلف القطاعات، وهو ما نادى به المؤتمر المنعقد في مدينة نيس الفرنسية خلال شهر ديسمبر من السنة نفسها، والذي نصّ أيضا على وجوب الاعتراف بمصداقية الشهادات دوليا[11].

وتواصلت حتّى نهاية العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين سياسة المؤتمرات واللقاءات الأوروبية، الهادفة إلى خلق أرضية خصبة لتقبّل المنظومة التعليمية المستحدثة في مختلف الدول المصادقة عليها[12]، الأمر الذي جعل من اللقاءات تتكرّر وبشكل دوريّ إلى حين التوصّل إلى الصيغة النهائية التي ترضي جميع الأطراف.

وبقي النظام التعليمي المستحدث محلّ أخذ وردّ منذ أواخر القرن العشرين حتّى العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين، وذلك لعدّة من اعتبارات، لعلّ أهمّها اختلاف النظم التربوية والتعليمية المتّبعة من دولة إلى أخرى، إلى جانب التباين في الأساليب والطرائق المعتمدة. وأجبر هذا التناقض بين مجموع الدول الأعضاء على توخّي الحذر قدر الإمكان في تطبيق هذه المنظومة من ناحية، واتّباع سياسة المرحلية في الانتقال من النظم القديمة إلى الجديدة من ناحية ثانية، وذلك دون القطع مع ما كان معمولا به سابقا[13].

واختلفت وتيرة العمل بنظام أمد حسب الدول، بما في ذلك التي سلكت هذا النهج بخطى متثاقلة نسبيّا، حيث باشرت في تطبيقه مع مطلع سنة 2005، خلاف أخرى التي أتمّت الانتقال الفعلي، وأصبح نظام التعليم فيها قائما كليّا على هذه المنظومة، من قبيل ما شهدته مدن بلجيكيا، وإيطاليا، والبرتغال وهولندا والدول الاسكندينافية، إلى جانب المملكة المتّحدة البريطانية. واعتبرت فرنسا أنّ هذا التفاوت ستتجاوزه غالبية الدول الأوروبية مع مطلع سنة 2007، أي قبيل ثلاث سنوات من التاريخ المحدّد من طرف الأعضاء الذين قرّروا ذلك في مؤتمر بولونيا"[14].

وسعت فرنسا، في نطاق سياستها التحديثية، وعلى غرار ما تمّ انتهاجه من طرف الأغلبية، إلى تطبيق التمشّي التدريجي الخاصّ بالمنظومة، وذلك قصد تلمّس المسار بشكل يمكّن من تلافي أيّ نوع من الصعوبات التي قد تواجهها، الأمر الذي دفعها إلى ترك الحريّة المطلقة إلى الجامعات الفرنسية في اختيار التوقيت الذي تراه مناسبا، دون ضغوطات من شأنها أن تعجل بفشل المشروع بأكمله[15].

وكانت جلّ الجامعات الفرنسية حتّى السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين منتهجة لسياسة التدرّج المبالغ فيها، حيث لم يتجاوز عددها حتّى السنة الجامعية 2002 – 2003 الثلاث، وهي جامعة "ليل 2، و"آرتوا" و"فالونسيان"[16].

ويستنتج المتتبّع للسياسة المنتهجة من طرف السلط المسؤولة على التعليم العالي الفرنسي الغموض الذي لفّ عديد الجوانب، لاسيما المتعلّق بأسباب التثاقل في تطبيق المنظومة التعليمية الحديثة، حيث أنّ غالبية الجامعات بدأت التنفيذ الفعليّ للمشروع خلال الفترة الممتدّة من 2003 إلى 2005، أين تراوح العدد الجملي لها الأربعة عشرة جامعة، في حين ما تبقى انظمّ رسميا خلال السنة الموالية.

2.2. المبادئ الجوهرية للمنظومة المبتكرة:

تعتبر المسائل التعليمية، وخاصّة المتعلّقة بمناهج التدريس وطرائقه، إلى جانب الأبعاد المرسومة لها ذات أهميّة بالغة، وذلك لعدّة اعتبارات سنأتي على تبيانها قصد الوقوف على الأسباب الحقيقية التي دفعت الدول الأوروبية حينها لطرح المشروع كبديل لما هو قائم. وتزامن الحديث عن الأبعاد المقترحة للمنظومة المستحدثة خلال التوقيت نفسه الذي شهد ولادة الفكرة النواة، وبالتحديد خلال مؤتمر براغ في شهر ماي من سنة 2001، والذي كان يهدف إلى تقيّيم مخرجات مؤتمر بولونيا الذي شهد حضور عدد كبير من الدول، وبصفة خاصة التي صادقت على المشروع منذ بدايته، والتي بلغ عددها 32 دولة[17].

وجاء مؤتمر براغ بهدف الوقوف على مدى التقدّم الذي حصده المشروع، وكذلك بغاية تحديد المحاور ذات الأولوية المطلقة، والتي سيتمّ العمل عليها خلال السنوات الأولى التي تعتبر الأهمّ، لدورها في تشييد أركان نظام تعليمي على أسس صلبة ومتينة. واستند المنهج المتّبع على إيلاء التعليم العالي الأوروبي الأهمية الكبرى ضمن خارطة الطريق التي تمّ رسمها مسبقا، والعمل في السياق ذاته على جعله مصلحة عامّة تتجاوز سياسة الدول والأفراد لتلامس كافة الأطراف الاجتماعية على اختلاف أجناسها وألسنتها، وثقافاتها وحضاراتها.

وشدّد المشروع التعليمي الجديد على الجوانب الاجتماعيّة بالدرجة الأولى، لما لها من دور في تحديد نسبة النجاح من عدمها، وتمّ تبعا لذلك حصر نجاح منظومة أمد في نقاط أربع من شأنها إحداث تغيير جذريّ على أساليب التعليم التقليدية المتّبعة منذ عقود في جلّ الدول الأوروبية الغربية منها، أو الشرقية[18].

ونذكر من جملة الأبعاد التي طرحت على بساط البحث، تصنيف التعليم العالي ضمن خانة المسائل الحارقة التي تتطلّب تدخّلا عاجلا، إلى جانب الحرص على جعله نواة التماسك الاجتماعي، وقوّة الاقتصاد المعرفي. ونصّ المشروع في جانب منه على تشريك الطالب ضمن المنظومة التربوية – التعليمية كطرف فاعل، وشريك أساسيّ لا يمكن الاستغناء عنه.

واستكمالا لشبكة الأبعاد المرسومة، وقع الحرص على تجنّب سياسة الإقصاء، أو ما يعرف بالسياسة التعليمية الأحادية، التي طالما كانت محلّ نقد من طرف المختصّين، الأمر الذي سيجعل من الفضاء التعليمي مستقطبا للطلبة من ناحية، والمدرّسيين والباحثين من ناحية أخرى، وكلّ ذلك ضمن حلقة متراصة المكوّنات.

واستطاعت كلّ الدول الأعضاء المشاركة في مؤتمر بولونيا التوصّل إلى اتّفاق موحّد مفاده تشييد فضاء أوروبي خاصّ بالتعليم العالي، وجامع للهدف المنشود مع نهاية العشرية الأولى من القرن العشرين، وتحديدا سنة 2010. وانتهى في السياق ذاته، إلى صدور بيان تضمّن النقاط المتّفق عليها، والخطط المبتكرة الواجب تتبّعها[19].

وشمل البرنامج نقاطا ستّ ترجمت طموحات الدول الأوروبية في تغيير ملامح الوضع القائم، ذلك أنّ فكرة طرح مشروع بديل في حدّ ذاتها تحمل في طيّاتها إقرارا ضمنيّا بوجود خلل وجب تلافيه، وإيجاد حلّ يرقى إلى مستوى التطلّعات. ونذكر من النقاط المتّفق عليها والتي فتحت باب الخروج من النظم التقليدية ما يعرف بنظام الدرجات الأكاديمية، الذي مكّن من تذليل صعوبات ظلّت ملازمة لنظام التعليم العالي الغربي، وأردف بما يعرف بكمّل الدبلوم[20].

وصادق المؤتمر على نظام هامّ جدّا في نقطته الثانية، حيث أقرّ ضرورة إقامة نظام أساسيّ متكوّن من دورتين أساسيتين؛ الأولى، تسمّى ما قبل الإجازة، وتدوم ثلاث سنوات وتخوّل للمتحصّل عليها دخول سوق الشغل، في حين تعرف الثانية، بشهادة الدراسات العليا وتشترط النجاح في الدورة الأولى[21].

وتضمّن الاتّفاق تأكيدا صريحا على حتمية تركيز نظام تراكميّ ونظام أرصدة[22]، بمعنى عددا محدّدا من النقاط يخوّل لصاحبه الانتقال من مستوى إلى آخر، وذلك بهدف دفع الطلبة إلى مزيد البذل والعطاء لتحسين المستوى، والعمل على تطوير الملكات الذهنية، بيد أنّ ذلك قلّص من جودة التكوين، حيث مكّنت الآلية المعتمدة الطالب من تحصيل الأرصدة المطلوبة، والانتقال إلى السنة الموالية دون الحصول على المعدّل العلميّ للارتقاء.

ولم تغفل اللّجان المجتمعة في مؤتمر بولونيا إيلاء جوانب العلاقات الجامعيّة بين مختلف الجامعات الأوروبية الأهمية اللازمة، لتعزيز التبادلات على مستوى الطلبة، والمدرسين والباحثين، وذلك من خلال توفير الوسائط الضرورية، وتذليل الصعوبات الحدودية قدر الإمكان. ويرمي المشروع التعليمي المقترح، من خلال التنصيص على أهمّيّة العلاقات الدولية إلى تلاقح الحضارات، والانفتاح على التجارب الأجنبية، بغاية توطيد البعد الأوروبي، وجعل التعليم داخله نموذجًا يقتدى به[23].

وتهدف منظومة أمد من وراء إحداثها، إلى فتح أفاق جديدة أمام الطالب الأوروبي على وجه التخصيص، والطلبة عموما بهدف خلق جيل جديد مرتكز على رؤى، ومبادئ أكثر حداثة من تلك التي عهدناها مع النظم السابقة. ويبقى الهدف الموحّد والأسمى هو المساهمة في تكوين خرجين من ذوي الكفاءة، والقدرة على تطوير الذات بعد تلقّيهم المعارف، والعلوم اللازمة التي من شأنها أن تساهم في نحت شخصيّتهم، وتمنحهم فرصا أكبر في إيجاد عمل يتماشى ومؤهّلاتهم الأكاديمية.

وأمكننا بعد الخوض في حيثيّات منظومة أمد تتبّع – ولو جزئيّا – الخطوات الأولى لنشأتها، من خلال التطرّق إلى جملة التقارير، والملتقيات التي رافقت ولادة الفكرة، والتي يبقى

من أهمّها المرتبط بشخص "جاك آتالي" الذي يعتبر صاحب المشروع، والمثال الأبرز الذي اتّبعه مناصرو حتمية التغيير الجذريّ في منظومة التعليم العالي.

ومهّدت الظرفية التي زامنت بعث المبادرة الظروف الملائمة لتتالي انعقاد المؤتمرات في دول شتّى، والهادفة في المقام الأوّل إلى خلق فضاء أوروبي موحّد خاص بالتعليم العالي والسعي موازاة مع ذلك إلى تعزيز قيم المشاركة، وإلغاء مفهوم العزلة المحاليّة التي كانت السمة المميّزة لغالبية الدول الأوروبية.

وأفرز هذا المخاض ميلاد منظومة أمد، أو ما يسمى بمشروع بولونيا الذي حمل متغيّرات عدّة، وصيغا مخالفة لما هو متداول، حيث حوّر الصيغ التعليمية التقليدية، وساهم في بروز نظم مستحدثة جديدة عرفت بالإجازة، وذلك رغم سياسة الأخذ والردّ التي عطلت العمل بها في بعض البلدان.

3. الأسس الهيكلية والقوانين التنظيمية لمنظومة أمد:

1.3. الأسس الهيكلية المحدّدة للنظم التعليمية صلب نظام أمد:

تعرف مرحلة الإجازة بكونها المحطة الأولى التي تعقب مباشرة شهادة الباكالوريا، ونقطة التحوّل الجذرية في المسار التعليمي، من مرحلة الثانوية إلى الجامعية، وتمتدّ على ثلاث سنوات يكتسب خلالها الطالب رصيدا مهمّا من المعارف وفق أساليب، وطرائق مخالفة إلى حدّ كبير عن ما عهدوه سابقا. ويتّخذ نظام الإجازة في العموم مساران مختلفان؛ الأوّل، أساسي يتلقّى خلاله الطالب تكوينا أكثر عمقا في بعض جوانبه، لتمكينه من التسجيل لاحقا في الماجستير، والثاني، تطبيقي أقلّ أهمية من الذي سبقه[24].

ولا يتعلّق الأمر في نظام الإجازة بالتسميات بقدر ما يهتم بالتكوين، والحرص على الإلمام بكلّ الجزئيّات ذات الصلة بالاختصاص، وهو ما يفترض مرحلة تدوم ثلاث سنوات تجبر الطالب على الحصول على أرصدة تناهز 180، مقسّمة على ستّ سداسيات. وحدّد أهل الاختصاص الحيّز الزمني للسداسي الواحد بما يعادل 14 أسبوعا من الدروس كحدّ

أدنى. ويتضمّن السداسي عددا من الوحدات التعليمية، يتراوح بين خمس وستّ وحدات، أي ما يعادل 30 رصيدا[25].

وتشكّل الوحدات التعليمية صلب كلّ الشعب، النواة الأساسية للإجازة، وتنقسم إلى صنفين أساسيّين، حيث نجد وحدات إجبارية تحظى بنسبة 75% من الحجم المكوّن للوحدة التعليمية، وأخرى اختيارية لا تتجاوز نسبتها 25%. وتنقسم الوحدات الإجبارية بدورها إلى أساسية، وتمثّل 75% من الحجم الإجمالي لساعات التكوين الإجبارية، ووحدات أفقية بنسبة 25% للساعات نفسها، وتشمل في الغالب مجالات متنوّعة، من قبيل الإعلامية وثقافة المؤسّسات، وحقوق الإنسان والإنجليزية، أو غيرها من اللّغات، في حين تقسّم الوحدات الاختيارية إلى وحدة اختيارية أو أكثر[26]. وصيغ هذا التنظيم بهدف تمكين الطالب من تحصيل تكوين علمي يوازن في الآن نفسه بين مجموع الدروس النظرية، وبين الأشغال المسيّرة والتطبيقية، أو الميدانية.

وحرص في السياق نفسه، على رسم ملامح الإجازة الأساسية، من خلال ضبط شروط ضرورية لا مناص من ذكرها، تتعلق بالتسجيل الإداري البيداغوجي في مرحلة الإجازة مع وجوبا إسناد وحدة قياسية (تتراوح بين أربع وسبع أرصدة)، الأمر الذي يسمح للوحدة من إعطاء قيمة عدديّة للعمل المطلوب من الطلبة، شرط التزام الطالب بالحضور الدائم والمشاركة الفعّالة، سواء في الدروس المسيّرة، أو الأشغال التطبيقية، أو التربّصات وما شابهها[27].

ولم يغفل المشرفون على منظومة أمد إيلاء جانب أنظمة التقيّيم، والارتقاء، وشروط الحصول على الشهادة الوطنية للإجازة الأهمية اللازمة، وذلك بالربط المباشر بين مسألة الارتقاء، وبين التدرّج في المستوى التعليمي عبر نظام تقييمي خاص بالوحدات التعليمية والمصادقة عليه. وتمتاز هذه المنظومة بوجود مبدأين أساسيين لتقييم الوحدات خلال الامتحانات، لعلّ أهمّها على الإطلاق يبقى ذلك الذي يعرف بالنظام المزدوج، ويجمع بين الامتحانات النهائية، والمراقبة المستمرة[28]، والتي تشكّل بدورها الجزء الثاني المكمّل للمنظومة.

ويخصّص النظام المزدوج نسبة 70% لدورة الامتحانات النهائية، و30% للمراقبة المستمرة، في حين تخصّص نسبة 20% للفروض الحضورية، والأشغال التطبيقية، وما معدّله 10% لمختلف الصيغ الأخرى للاختبارات، مثل التمارين، والاختبارات الشفوية، أو العروض[29].

وإجمالا، تشكّل الإجازة الأساسية المرحلة الأولى في مسار التكوين الطلابي، وهي مرحلة تخضع إلى هيكلة محدّدة، ويعتمد فيها على نظام تقييم يمكن أن يعطي نتائج إيجابية ويساهم في تحديد مدى أهلية الطالب لنيل الشهادة الوطنية للإجازة الأساسيّة، التي تهدف في المقام الأوّل إلى تمكينه من الالتحاق بسوق الشغل، إلى جانب مساهمتها في تهيئة المجال للطلبة المتفوقين، من خلال تمكينهم من مواصلة المراحل المتقدّمة في دراستهم.

وموازاة مع ما سبق ذكره، تعتبر الدراسات العليا شغفا يخالج عديد الطلبة الراغبين في مواصلة مسارهم التعليمي، وذلك بهدف الارتقاء بمستواهم العلمي، وفتح آفاق الشغل بآمال أكبر، الأمر الذي يجعل من مسألة الالتحاق بالماجستير في مرحلة أولى، ثمّ الدكتورا لاحقا غاية في التعقيد، وصعبة المنال للنزر الأكبر من الطلبة.

ويستهل الطالب مرحلة الماجستير عقب ختم الإجازة، وتوفره على الشروط الواجبة للقبول. وتدوم سنتين، بيد أنّ الأمر ليس بالسهولة التي يتوقّعها البعض، ناهيك أنّ المسار المتّبع في هذه المرحلة يختلف كليّا عن ما عاشه الطالب، بدءا بنظام الأرصدة الذي يعادل في مجمله ثلثي أرصدة الإجازة في مستوياتها الثلاث (120 رصيدا)، موزّعة على أربع سداسيّات، بمعدّل 30 رصيدا لكلّ سداسي. وتخصّص السداسيات الثلاث الأولى للتكوين مقابل سداسيّ مخصّص للتربّصات، والأنشطة التكوينية – التطبيقية ومذكّرات الماجستير[30].

ولا تنفصل الشهادة الوطنية للماجستير عن الإجازة، سواء على مستوى الدراسة والتكوين، أو المبادئ والقوانين المهيكلة. ويتمّ تنظيم دراسات الماجستير على شكل تخصّصات نموذجية مصنّفة إلى مسلكين؛ الأوّل، يخوّل للطالب تلقّي تكوين يؤهّله لنيل

الشهادة الوطنية للماجستير المهني، والثاني، يمكّنه من الحصول على الشهادة الوطنية في ماجستير البحث[31].

ويمكّن هذا التفرّع في المسارات صلب الماجستير من خلق نوعين من الخريجين، صنف موجّه مباشرة إلى سوق الشغل، وذلك من خلال تكوين متخصّص في متطلّبات السوق الشغلية، وآخر يهدف إلى تعميق المعارف العلمية، وتطوير الملكات الذهنية للطالب[32]، إلى جانب تطوير مهاراته الذاتية في التخصّصات، والمجالات ذات الصلة بالميدان التكويني وبالدرجة الأولى إعداده بما يتلاءم ومستوى الشهادة الوطنية للدكتورا[33].

ويمرّ قبول الطلبة في مرحلة الماجستير بوجوب توفّر جملة من الشروط، تحدّدها لجان مختصّة يقع تكوينها في جميع مؤسّسات التعليم العالي، ومن أهمّ هذه الشروط، ضرورة تفوّق الطالب طيلة سنواته الثلاث، مع حتمية توخّي معيار تفاضلي في انتقاء الطلبة على أساس المعدّل السنوي، وذلك في حدود طاقة الاستيعاب المحدّدة مسبقا من قبل المؤسّسة[34].

ويخوّل النجاح في شهادة الماجستير المرور إلى المرحلة الختامية المسمّاة بالدكتورا، وهي من المراحل العليا الأخيرة في المسار التكويني للطالب، وتدوم ثلاث سنوات، وترتكز بدورها على نظام الأرصدة الذي يعادل أرصدة الإجازة بسنواتها الثلاث، إلى جانب مبدأ حذق أبجديّات البحث[35]. وتستند مرحلة الدكتورا على أسس منهجية بحتة تمكّن الباحث من التعرّف على المناهج البيداغوجية الحديثة، وتساهم إلى حدّ كبير في إكسابه القدرة والكفاءة العلمية، وكذلك المهنية صلب تخصّصه، ما يساعده على الاندماج المهني في مراحل لاحقة.

ولا تتوفّر جميع مؤسّسات التعليم العالي على الشروط الأساسية المطلوبة لاحتضان هذه الشهادة، نظرا لنقص الأطر الأكاديمية التي بإمكانها الإشراف على هذه الشهادة، وذلك اِستنادا إلى معايير مضبوطة من وزير التعليم العالي، وبعد استشارة مجلس الجامعات الراجع إليهم النظر. ويتوجّب على الطلبة المهتمين بهذه المرحلة، وبعد استيفاء الشروط السالفة ذكرها اختيار موضوع البحث بالتنسيق مع الأستاذ المشرف. ويخضع المترشح عقب استكمال بحثه إلى تقييم لجنة مختصّة في المجال قبل الحصول على شهادة الدكتورا[36].

ويعتبر اختيار موضوع البحث من أهمّ المراحل، حيث يشترط أن يقدّم الطالب موضوعا بكرا لم يستنزف، وعقب إتمامه، وإثر الحصول على موافقة المشرف على البحث يودع الطالب عمله لدى مؤسّسة التعليم العالي التي قام بالتسجيل فيها. ولا يقتصر الأمر على تحرير الأطروحة فحسب، بل يتوجّب على الطالب حضور دروس تكميلية تتماشى ونوعية اختصاصه، وذلك تزامنا مع فترة إعداد البحث، وتصنّف هذه الأخيرة على شكل أنظمة تكوين، ودروس مصاحبة تساهم إلى حدّ كبير في إثراء البحث، وحدّد عدد أرصدتها بثلاثين من إجماليّ مائة وثمانين رصيدا.

2.3. خصائص المنظومة التعليمية الجديدة: المسلك ونظام الأرصدة نموذجا:

يمثل المسلك، أو المسار، أو التخصّص كما هو متداول تمشّيا مرحليّا، وإستراتيجية معتمدة قائمة على عدد معيّن من السداسيّات لا تتجاوز الستة في مجموعها، وذلك لتعويض نظام سابق يعرف بالأستاذية. وارتكز التغيير وفق منظور أصحاب القرار على رؤية جماعية أساسها التقليص في عدد السداسيات من ناحية، والحرص على تثمين العلوم على اختلافها من ناحية أخرى، بمعنى إيلاء مسألة الجودة في المواد المدرّسة الجانب الأكبر من الأهميّة عوض المدّة الزمنية[37].

وحوت الشهادة الجديدة – الإجازة –مجموعة متجانسة من الوحدات التعليمية ذات الصلة المباشرة، سواء بمادة واحدة، أو بمجموعة من المواد (رأي اللجنة المصادقة على المنظومة المستحدثة في مؤتمر بولونيا)، الأمر الذي يعكس ضمنيا الدور المهمّ الذي تلعبه الوحدات التعليمية، خاصّة في نظام الدراسات بشقّيها الإجباري والاختياري، إضافة إلى مسألة الامتحانات[38].

ويأخذ التقسيم المعتمد في الوحدات التعليمية بعين الاعتبار مقاييس عدّة، من ذلك أنّ الوحدات الإجبارية لا فصال فيها، وهي تشمل جميع الطلبة المسجلين في المسلك وأرصدته، إضافة إلى تفرّعها إلى وحدات أساسية وأخرى أفقية. وترتبط الأولى حصرا

بالتخصّص، ويسند إليها ما معدّله ثلاثة أرباع الحجم الإجمالي للساعات المبرمجة للتكوين ونسبة موازية من الأرصدة[39].

وتشكّل الوحدات الأفقية نوعا من التكوين التكميلي للاختصاص، وتشمل مجالات متنوّعة من قبيل الإعلامية، و الثقافة المؤسّساتية، وحقوق الإنسان والإنجليزيّة، وغيرها من اللّغات الأخرى المقرّرة داخل الأقسام. وتمنح هذه الوحدات النسبة المتبقية من إجمالي الساعات، أي ما يعادل الربع، ويسند لها نسبة موازية من الأرصدة كما هو الحال مع الوحدات الأساسية[40].

ويعزى التقسيم المعتمد من اللجان الأكاديمية إلى سببين رئيسيين؛ الأوّل، على أساس التخصّص في حدّ ذاته، مع مراعاة صعوبة المسار، والثاني، تكميلي هدفه توسيع دائرة المعارف الخاصّة بالطالب. ولا نجانب الصواب إذا أقررنا أنّ الصنف الثاني من الوحدات، أي الاختيارية، هو ضرورة حتمية وليست ثانوية، حيث يساهم في تعميق التخصّص بالدرجة الأولى، ويفتح الآفاق على بعض التخصّصات الأخرى، قصد تهيئة الطالب مبكّرا للاندماج في الحياة المهنية.

ويمكن للطالب في هذا الإطار، أن يختار هذه الوحدات اِستنادا إلى قائمة تضعها الأطراف الإدارية المكلّفة بهذا الشأن داخل المؤسّسة الجامعية المعنية، وذلك بعد أمر مصادق عليه من رئيس الجامعة، أو المدير العام للدراسات التكنولوجية. وتضمّ هذه الوحدات ما يساوي 25٪ من مجموع الوحدات التعليمية للمسلك وأرصدته[41].

ويلحظ المهتمّ بالشأن الجامعي أدقّ التفاصيل التي حرص المشرّع على سنّها، إلى جانب مراعاة الملكات الذهنية للطالب في تقسيم الوحدات التعليمية، سواء الإجبارية، أو الاختيارية. وعمل المشرفون على هيكلة التعليم العالي على ترتيب هذه الوحدات ترتيبا كرونولوجيا، اِستنادا إلى التقسيم السداسي، مع الحرص في الآن نفسه، على ذكر العناصر المكوّنة لها، وحجم الساعات المخصّص لتدريسها، إضافة إلى عدد الأرصدة وضواربها.

ويصنّف نظام الأرصدة ضمن منظومة أمد من بين أبرز التغييرات المدخلة على برامج التعليم العالي، ويعرّف على كونه "وحدة قياسية تسمح بإسناد قيمة عددية لحجم العمل المطلوب من الطلبة لبلوغ الأهداف الخاصّة بكلّ وحدة تعليمية"[42]. ويمثّل الرصيد أيضا معيارا مشتركا، ونقطة التلاقي الأبرز بين جميع مؤسّسات التعليم العالي والبحث العلمي.

ويحتل هذا النظام من الأهميّة ما جعله يلعب دورا رئيسيا، وجوهريّا في تسهيل حركية الطلبة وتنقلهم، ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل يتحتّم على المشرفين على تطبيق هذا النظام برمجته، وإسناده إلى كلّ وحدة تعليمية، وذلك عن طريق فرض عدد محدّد من الأرصدة، التي تتراوح في مجملها بين أربع وسبع أرصدة بما يناسب حجم العمل المستوعب من الطلبة[43]. ويساعد نظام الأرصدة الطلبة على ختم مسار تعليمهم العالي، حيث إنّه يمثل شرطا أساسيا، وعاملا ضروريا يمكّن المتحصّل عليه من مواصلة المراحل المتبقيّة من المشروع سواء الماجستير عند استفاء الشروط المطلوبة، أو الدكتورا في حال اجتاز الطالب المرحلة الثانية بنجاح.

وتختلف منظومة أمد عن سابقاتها، حيث يتوجّب على الطالب الحصول على رصيد معيّن من النقاط في كلّ مرحلة، وخلاف ذلك تبقى الشهادة في كلّ مسلك رهينة استيفاء هذا الشرط. وتخضع طريقة احتساب الرصيد إلى عدّة عوامل، أبرزها نظام السداسيتين في المقام الأوّل، ثمّ المقرّرات والامتحانات، ليكون إجمالي الرصيد المطلوب 60 نقطة[44]، أي بمعدل النصف لكلّ سداسية[45].

وتنقسم السداسيات خلال السنوات الثلاث إلى ما معدّله أربعة عشر أسبوعا على أقلّ تقدير، متفرّعة بين دروس وامتحانات. وتتضمّن كلّ سداسية حوالي خمس، أو ست وحدات تعليمية، يقابلها ثلاثون رصيدا[46]. ويتفرّع الرصيد نظريّا بين عدد من ساعات الدرس يتوجّب على الطالب حضورها، والحرص على تأمينها، سواء كانت دروسا نظرية، أو مدمجة. ولا تتجاوز في أقصى الحالات الخمس عشرة ساعة، في حين أدناها لا يقلّ عن العشر ساعات[47].

وما يعاب على هذا النظام، أنّه يقلّص من قيمة الشهادة في حدّ ذاتها، ويحصرها في عامل واحد محدّد لمعيار النجاح، الأمر الذي من شأنه أن يعيق تقدّم الطلبة في اكتسابهم للمعرفة، حيث يرتبط هذا النظام في جزء منه بعدد من النقاط المسندة تبعا لنسب الحضور الذي هو واجب مؤكّد، بيد أنّه لا يعكس المستوى الحقيقي للطلبة، حيث يتعذّر على البعض حضورها لأسباب مختلفة، ويؤدّي أحيانا إلى حرمان الطالب من اجتياز الامتحانات والرسوب في أغلب الأحيان.

ويبقى نظام الأرصدة، رغم الهينات، مهمّا إلى حد كبير في جوانب أخرى غفلت عنها النظم السابقة، والتي نذكر منها على وجه التحديد العمل على توحيد المسار بين جميع مؤسّسات التعليم العالي دون استثناء.

4. تحليل النتائج:

اعتمد المشرّع لهذه المنظومة على مبادئ مخالفة لما كان معمولا به سابقا، حيث تمّ استحداث نظم، وإستراتيجيات جديدة قامت في مجملها على أساس الأرصدة لتسهيل التقييم من ناحية، ودفع الطالب إلى مزيد الحرص على دراسته بإخضاعه إلى معيار الأعداد من ناحية أخرى.

ولا نجانب الصواب عند الإقرار أنّ المنظومة المستحدثة حملت بذور تغييرات جذرية شملت مختلف الجوانب الخاصّة بالتعليم العالي، بيد أنّ هذا النفس التحديثي أغفل إعادة هيكلة البيداغوجيات التي تعتبر الجوهر والأساس في العملية التعليمية، واكتفى بصياغة الجوانب التنظيمية، من قبيل القوانين التسييرية التي شملها التغيير كليا.

وما يعاب عن الذين انتهجوا مسار التغيير، غياب رؤية واضحة، حيث يستجلي متتبّع المنظومة غياب الحديث عن المعلّم الذي وجب إيلاؤه الأهمية في هذا النظام التدريسي الجديد، من خلال دعمه، وتوفير الدورات التكوينية اللازمة، التي من شأنها جعله يواكب جميع المتغيرات، ويطور من طرائقه وآلياته المعتمدة في التدريس.

5. خاتمة:

يعتبر النظام المبتكر لبنة جديدة من لبنات التغييرات الجذرية التي لحقت بالتعليم العالي بمختلف شعبه وفروعه، وذلك على أساس مهيكل تعلّق في جانب كبير منه بمسألة التكوين الجامعي، وفق تقسيم ثلاثي متوازن، ومتكامل موزّعٍ على ثماني سنوات، بهدف رصد مستوى تطوّر الطلبة، والكفاءات المكتسبة، وكسر الحواجز بين مختلف المسالك التي طالما أعاقت تنمية ملكات المتعلّمين.

ويهدف التعليم العالي إلى صياغة تكوين نموذجيّ يخوّل لصاحبه تنمية شخصيته وتطوير كفاءاته، ونحت مسيرته المهنية، قصد المساهمة في مدّ المجتمع بخرّيجين على درجة كبيرة من المعرفة والثقافة، وذلك من خلال هيكلة قوانين، ونظم تتماشى والمنظومة التعليمية الواجب إصلاحها، أو تعديلها، إضافة إلى وجوب التقيّد بسياسة المراحل في تنفيذ البرنامج التحديثي، وعدم الانسياق وراء الآراء السطحية التي من شأنها أن تزيد في تعميق أزمة الهياكل التعليمية.

ووجب في هذا السياق على الأطر المشرفة على قطاع التعليم العالي السهر على مراجعة طرائق التدريس المعتمدة، وتشخيص مكامن الخلل بكلّ دقّة قبل مباشرة عملية الإصلاح، وذلك على مستوى مناهج التكوين، وبرامجه في مختلف المسالك.

6. قائمة المراجع:

Abir BELDI, Implémentation du système LMD en Tunisie, (présentation du LMD en Tunisie à Oran le 28-05-2012), p 46.

Catherine POTEL et Michel BRUNEAU: Comprendre la réforme dite LMD, Acoustique et Technique, N°37, 42-44, 2004, pp 42-44.

D. F IDIATA: L'Afrique dans le système LMD (Licence-Master-Doctorat): le cas du Gabon, (Paris, Harmattan, 2006), p 294.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Titre 3, Article N°5.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre III, Article N°19.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre II, Articles N°14 – 15 et 16.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre IV, Article N°21.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre V, Article N°24.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre III, Article N°20.

Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Chapitre V, Articles N°19 et 20.

Décret N°2012-1227 du 1er août 2012, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de mastère dans le système «LMD», Titre premier, Article N°2.

Décret N°2012-1227 du 1er août 2012, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de mastère dans le système «LMD», Titre premier, Articles N°12-13-14-15 et 16, p.1950.

Erasmus Mundus arrive, Soleo, Revue de l'agence nationale Socrates, N°7, juin 2004, pp 13-17.

Faut-il avoir peur du LMD?, Alternatives économiques, N°22l, janvier 2004, pp 8-9.

Harmoniser l'architecture du système européen d'enseignement supérieur, Déclaration de la Sorbonne, 25 mai 1995, pp 1-4.

J ATTALI, Pour un modèle européen d'enseignement supérieur, Rapport de la Commission présidée par Jacques Attali, (Paris, Stock, 1998), p 164.

J ITOUA: Histoire et enjeux du basculement de l'ancien système universitaire français au système européen LMD, Mémoire de Master 2 Recherche en sciences de l'éducation, (Lille 1, 2006-2007), p 34.

J ITOUA: Les enjeux de la Réforme LMD en France, Annales de l'Université Marien NGOUABI, 2010, 11-1, pp 15-40.

J. H LORENZI et J. J PAYAN: La réforme LMD et ses conséquences sur les universités françaises, Regards sur l'actualité, N°301, Août-septembre 2003, pp 37-42.

Journal Officiel de la République Tunisienne-21 août 2012, N°66, p.1948.

La décision de création d'Erasmus Mundus, N°2317 / 2003 / CE du Parlement européen et du Conseil du 5 décembre 2003.

La grande misère des universités françaises, Le Monde, 24 janvier 2004.

Lestrade SERBANESCU: Les diplômes universitaires en Europe: de la reconnaissance à l'harmonisation, communication lors de la première journée Jeunes chercheurs du 19 septembre 2003, Réseau d'études sur l'enseignement supérieur (RESUP)-IREDU-Dijon.

M HERBILLON: L'enseignement supérieur en Europe, Rapport d'information déposé par la délégation de l'Assemblée nationale pour l'Union européenne, (novembre 2004), pp 30-36.

M PERONNAU: Quels enjeux pour l'uniformisation européenne de l'enseignement?, Actualités, Diplômes-Mars 2003, p 2.

Madeleine BROCARD, La France: Le LMD (Licence, master, doctorat), Géographes associés, N°27, 2003, Quelle géographie enseigner demain à l'Université?, Géo forum de Liège, 23 et 25 mai 2003, pp 29-30.

Marien NGOUABI: Les enjeux de la réforme LMD en France, Annales de l'Université, N°11 (1), 2010, pp 15-20.

Mohamed Anis BACH TOBJI, Le guide LMD de l'étudiant ESEN, Université de la Manouba, (Ecole supérieure d'économie numérique, 24 juillet 2015), p 1-8.

Najem DHAHER: L'université dans la ville: quel cadre spatial?, Revue maghrébine d'aménagement de l'espace et de la construction, Archibat N°6, 2003, pp 80-83.

Olivier ARIFON, La rencontre interculturelle est-elle au centre de la construction de l'espace européen de l'enseignement

supérieur?, Quaderni, N°59, Hiver 2005-2006, Les politiques régionales: identités et territoires, pp 23-32.

République Algérienne Démocratique et Populaire Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, Guide pratique de mise en œuvre et de suivi du LMD-juin 2011.

Serbanescu LESTRADE: Les diplômes universitaires en Europe: de la reconnaissance à l’harmonisation, communication lors de la première journée Jeunes chercheurs du 19 septembre 2003, Réseau d’études sur l’enseignement supérieur (RESUP), IREDU-Dijon.

Viviane REDING: Accroître la mobilité des étudiants européens, Le Figaro, 9 mars 2004.

7. الهوامش:

[1]- Madeleine BROCARD: La France: Le LMD (Licence, master, doctorat), Géographes associés, N°27, 2003, pp.29-30.

[2]- Marien NGOUABI: Les enjeux de la réforme LMD en France, Annales de l'Université, N°11 (1), 2010, pp.15-20.

[3]- J ATTALI: Pour un modèle européen d'enseignement supérieur, Rapport de la Commission présidée par Jacques Attali, (Paris, Stock, 1998), pp.80-88.

[4]- Madeleine BROCARD: La France: Le LMD…op.cit., pp.29-30.

[5]- J. H LORENZI et J. J PAYAN: La réforme LMD et ses conséquences sur les universités françaises, Regards sur l'actualité, N°301, Août-septembre 2003, pp.37-42.

[6]- Harmoniser l'architecture du système européen d'enseignement supérieur, Déclaration de la Sorbonne, 25 mai 1995.

[7]- M HERBILLON: L'enseignement supérieur en Europe, Rapport d'information déposé par la délégation de l'Assemblée nationale pour l'Union européenne, (17 novembre 2004), pp.30-36.

[8]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle est-elle au centre de la construction de l'espace européen de l'enseignement supérieur?», Quaderni, N°59, Hiver 2005-2006, pp.23-25.

[9]- La décision de création d'Erasmus Mundus, N°2317/ 2003/ CE du Parlement européen et du Conseil du 5 décembre 2003.

[10]- J. H LORENZI et J. J. PAYAN: La réforme LMD et ses conséquences…op.cit., pp39-41.

[11]- Serbanescu LESTRADE: Les diplômes universitaires en Europe: de la reconnaissance à l'harmonisation, communication lors de la première journée Jeunes chercheurs du 19 septembre 2003, (Réseau d'études sur l'enseignement supérieur (RESUP)-IREDU-Dijon), p.8.

[12]- «Faut-il avoir peur du LMD?», Alternatives économiques, N°22l, janvier 2004, pp.8-9.

[13]- Catherine POTEL et Michel BRUNEAU: Comprendre la réforme dite LMD, Acoustique et Technique, N°37, 42-44, 2004, pp.42-44.

[14]- Viviane REDING: Accroître la mobilité des étudiants européens, Le Figaro, 9 mars 2004.

[15]- La grande misère des universités françaises, Le Monde, 24 janvier 2004.

[16]- Erasmus Mundus arrive, Soleo, Revue de l'agence nationale Socrates, N°7, juin 2004, pp.13-17.
[17]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle…op.cit., pp.26-27.
[18]- République Algérienne Démocratique et Populaire Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, (Guide pratique de mise en œuvre et de suivi du LMD-juin 2011), p.16.
[19]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle…op.cit., pp.26-27.
[20]- Mohamed Anis BACH TOBJI: Le guide LMD de l'étudiant ESEN, Université de la Manouba, (Ecole supérieure d'économie numérique, 24 juillet 2015), pp.3-4.
[21]- Ibidem.
[22]- Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de licence dans les différents domaines de formation, mentions, parcours et spécialités du système «LMD», Titre 3, Article N°5.
[23]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle…op.cit., pp.26-27.
[24]- J ITOUA: Les enjeux de la Réforme LMD en France, Annales de l'Université Marien NGOUABI, 2010, 11-1, pp.16-18.
[25]- Abir BELDI: Implémentation du système LMD en Tunisie, présentation du LMD en Tunisie à Oran le 28-05-2012, p.8.
[26]- Décret N°2008-3123 du 22 septembre 2008…op.cit., Chapitre III, Article N°19.
[27]- Ibid: Chapitre II, Articles N°14 – 15 et 16.
[28]- Ibid: Chapitre IV, Article N°21.
[29]- Ibidem.
[30]- Abir BELDI: Implémentation du système LMD…op.cit., pp.14-15.
[31]- Décret N°2012-1227 du 1er août 2012, fixant le cadre général du régime des études et les conditions d'obtention du diplôme national de mastère dans le système «LMD», Titre premier, Article N°2.
[32]- Journal Officiel de la République Tunisienne-21 août 2012, N°66, p.1948.
[33]- Ibidem.
[34]- Décret N°2012 – 1227 du 1er août 2012… op.cit., Articles N°12-13-14-15 et 16, p.1950.
[35]- Ibid: N°2008 – 3123 du 22 septembre 2008…op.cit., Chapitre V, Article N°24.
[36]- Ibidem.

[37]- Ibid: Chapitre III, Article N°20.
[38]- Ibid: Articles N°19 et 20.
[39]- D. F IDIATA: L'Afrique dans le système LMD (Licence-Master-Doctorat): le cas du Gabon, (Paris, Harmattan, 2006), pp.28-29.
[40]- J ATTALI: Pour un modèle européen d'enseignement…op.cit., pp.86-88.
[41]- J ITOUA: Histoire et enjeux du basculement de l'ancien système universitaire français au système européen LMD, Mémoire de Master 2 Recherche en sciences de l'éducation, (Lille 1, 2006-2007), p.34.
[42]- J. H LORENZI et J. J PAYAN : La réforme LMD et ses conséquences…op.cit., p.37-42.
[43]- SERBANESCU Lestrade: Diplômes universitaires en Europe…op.cit., p8.
[44]- M PERONNAU: Quels enjeux pour l'uniformisation européenne de l'enseignement?, Actualités, Diplômes-Mars 2003, p.2.
[45]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle…op.cit., pp.26-27.
[46]- Najem DHAHER: L'université dans la ville: quel cadre spatial?», Revue maghrébine d'aménagement de l'espace et de la construction, Archibat N°6, 2003, pp.80-83.
[47]- Olivier ARIFON: La rencontre interculturelle…op.cit., pp.26-27.

الاحتلال الفرنسي للجزائر والشرعية الدولية

بين المبدأ والتطبيق

–دراسة تحليلية نقدية–

Title in English the French occupation of Algeria and international legitimacy

-Between principle and application-

الدكتورة: عالم مليكة

[1] جامعة خميس مليانة / m.alem@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2021/02/11 **تاريخ القبول:** 2021/04/04 **تاريخ النشر:** **2021/05/05**

ملخص:

تعتبر الشرعية الدولية إحدى أهم المبادئ الأساسية التي تحكم العلاقات الدولية، من خلال الالتزام بالقوانين والمواثيق الأممية على غرار مبادئ حقوق الانسان واتفاقيات جنيف وكذا نصوص القانون الدولي والدولي الإنساني، حيث يعتبر الاحتلال الفرنسي للجزائر من أهم المتناقضات التي عرفها التاريخ الإنساني، من حيث التباين بين المبدأ العام والتطبيق الميداني، نظرا لعلاقة فرنسا بالإعلان العالمي لحقوق الانسان بالتوازي مع التوسع الاستعماري والاحتلال وسياساته وتشريعاته وقوانينه وممارساته اللاإنسانية تجاه الجزائريين.

الكلمات الدالة: الاحتلال الفرنسي، الجزائر، الشرعية الدولية، مبادئ حقوق الانسان، المواثيق الدولية.

Abstract:

International legitimacy is one of the most basic principles governing international relations, by adhering to international laws and charters similar to the principles of human rights and the Geneva Conventions as well as the texts of international and international humanitarian law, as the

French occupation of Algeria is one of the most important contradictions in human history, in terms of the discrepancy between the principle General and field application, given France's relationship with the Universal Declaration of Human Rights in parallel with colonial expansion and occupation, its policies, legislations, laws, and inhuman practices towards the Algerians.
Key words: the French occupation, Alegria, international legitimacy, human right principles, international treaties

1. مقدمة:

تعتبر مسألة الاحتلال أو الاستعمار ومخلفاته والعلاقات الدولية الناتجة عنه ، من القضايا الشائكة التي لاتزال تسيل الكثير من الحبر وتحضى بكثير من الاهتمام من طرف المؤرخين والباحثين في مختلف التخصصات ، سواء السياسية منها أو العسكرية ، الى جانب اهتمام علماء الاقتصاد والاجتماع وحتى بالنسبة للمهتمين بالثقافة والتراث (المادي واللامادي) إضافة الى علماء الآثار وكذا رجال الدين على حد سواء ، وذلك من خلال تبعاتها على كافة المستويات سواء المحلية منها أو الإقليمية والدولية على المديين القريب والبعيد، إذ لاتزال مشكلة التبعية الاستعمارية باختلاف مجالاتها من حيث عمليات الاستنزاف للطاقات المادية والبشرية، وكذا مظاهر التخلف وقضايا أخرى متعلقة بنتائج الاحتلال وانعكاساته ...، محل جدل واهتمام واسع من قبل الخبراء والباحثين الذين أجمعوا على أن استقلال الدول المستعمرة سابقا، لم يكتمل مع غياب الكثير من الآليات والمعطيات الأساسية لمعنى الاستقلال الشامل، الذي يضم كافة الميادين الحيوية للشعوب دون تمييز بين الأجناس من حيث اللون أو الجنس أو القومية أو الثقافة وكذا اللغة والدين .

ومن هذا المنطلق بات احتلال الجزائر من قبل فرنسا أحد أهم النماذج الاستعمارية العالمية من حيث القضايا العالقة التي لم يتم الفصل فيها، رغم حصول الجزائر على استقلالها

منذ سنة 1962، خاصة ما تعلق بموضوع الشرعية والقوانين الدولية ومدى تطابقها مع الاحتلال وسياساته، وقضايا الاعتراف بالجرائم المرتكبة في حق الجزائريين، وقضايا التعويضات واسترداد رفاة الشهداء، وكذا الأرشيف وبعض المعالم التاريخية ...، مما يحدد طبيعة العلاقة بين الجزائر وفرنسا حكومة وشعبا.

كما يمثل الجانب القانوني والشرعية الدولية وحقوق الانسان، جانبا آخر من الاهتمام لارتباط فرنسا الاستعمارية بالإعلان العالمي لحقوق الانسان وعلاقته المباشرة بفرنسا، باعتبارها مهدا له، حسب اجماع الدراسات التاريخية والقانونية، وهو ما يتناقض مع توقيت الاحتلال وطبيعته وسياساته وأساليب الاخضاع، مقارنة مع ما تضمنته وثيقة حقوق الانسان الفرنسية.

وعليه فان الإشكالية الرئيسية في البحث قيد الدراسة تتمحور حول: مدى توافق الاحتلال الفرنسي للجزائر وسياساته مع الشرعية الدولية من خلال القوانين والمواثيق الأممية والدولية من المنظور القانوني الفرنسي والدولي؟ وما مدى شرعية المقاومة وردود الأفعال الوطنية المختلفة مع القوانين الدولية في مواجهة الاحتلال وسياساته؟ وما هو موقف الهيئات الدولية من خلال القرارات الأممية لدعم القضية الجزائرية، نتائجها وانعكاساتها وأبعادها على كافة المستويات؟

وللإجابة عن الإشكالية الرئيسية والأسئلة الفرعية للدراسة، اتبعت المنهج التاريخي التحليلي الوصفي الاستنباطي، من خلال عملية الإسقاط على الأحداث التاريخية ومدى تطابقها مع القوانين الدولية والمواثيق والقرارات الأممية للوقوف على حقيقة الاحتلال وطبيعته القانونية وكذا شرعية ردود الأفعال الوطنية تجاهه.

2. إشكالية الاحتلال والمقاومة بين الشرعية والتطبيق:

أجمع الحقوقيون والمؤرخون والباحثون باختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم على أن الصفة القانونية للاحتلال سواء بالجزائر أو بغيرها، من الناحية المبدئية تعد لاغية و مناقضة للقوانين الدولية ، ذلك وأنه وحسب الدراسات التاريخية حول تاريخ الجزائر، فإن الجزائر قبل الاحتلال

كانت تمثل جزءا من المجتمع الدولي، معترف به في الساحة الدولية بحكم العلاقات التي كانت تربطها مع عدد كبير من دول العالم ، وكذا من خلال المعاهدات الدولية المبرمة معها [1] والمتمثلة في سلسلة الاتفاقيات الطويلة المبرمة مع الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ومع دول البحر المتوسط ، وكان أهمها و أكثرها عددا تلك التي عقدت مع فرنسا ما بين معاهدة سلام واتفاق تجارة ومذكرة نوايا وهدن فض النزاعات ......[2]

وعلى هذا الأساس اعتبر الحقوقيون من رجال القانون الاحتلال الفرنسي للجزائر(1830-1962) في حد ذاته خرقا للقانون الدولي ومواثيقه، كما كان من قبل كذلك بالنسبة لعدم التزامها بتعهداتها المالية تجاه الدولة الجزائرية ، والذي كان سببا لعملية الغزو، ومن ثم أصبح الكفاح المسلح أو مقاومة الاستعمار حق طبيعي مكفول بموجب القوانين الدولية، كما اكتسب مبدأ مناهضة الاستعمار في شريعة الأمم المتحدة تكريسا حقوقيا هاما، ذلك أن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها هو مبدأ حقوقي تضمنته المادتين الأولى والثانية من ميثاق الأمم المتحدة .[3]

إضافة الى نصوص اتفاقيات جنيف[4]، وقصد تحقيق الهدف من الدراسة وللوقوف على أهم الأحداث التي تحدد شرعية موقف الطرفين كل على حدا، بناء على الاتفاقات الأممية والقوانين العرفية والدولية وجب علينا الإشارة الى أساليب الطرفين ووسائلهما، اعتمادا على الدراسات التاريخية ومن ثم اعتماد الأطر القانونية الملائمة لكل فعل ورد فعل حسب القوانين، بين طرفي النزاع المعتدي أو الجاني ممثلا في سلطات الاحتلال من ساسة وعسكريين ومستوطنين، والطرف المعتدى عليه كضحية ممثلا في الوطن الجزائري أرضا وشعبا، من خلال الإطار القانوني لسياسات الاحتلال وتشريعاته، وكذا وسائله وأساليبه في مواجهة حركات المقاومة أو الثورة، عن طريق عملية إسقاط على مواقف الطرفين "المتنازعين" أو "المتحاربين" حسب الطبيعة القانونية، بغض النظر عن القوة الحربية أو العسكرية الخاصة بكليهما.

فاذا كان القانون الدولي هو جزء من القانون الدولي الإنساني[5]، ويتضمن مجموعة من القواعد العرفية التي يصفها القانون الدولي التقليدي بقانون الحرب، الذي كان مطبقا زمن

النزاع المسلح وما تعلق بوسائل القتال وحماية ضحايا النزاعات المسلحة، فانه يهدف كذلك إلى حماية الأفراد والجماعات والأقليات والشعوب، إضافة الى مجموعة النصوص القانونية والقواعد العرفية التي تحمي حقوق الانسان بصرف النظر عن مصدرها الدولي أو الوطني أو الديني[6]، إضافة الى كونها مجموعة من القيم والمبادئ والأخلاق التي تدعو في إطارها العام الى نبذ الحروب بين الدول والشعوب، لتخفيف المعاناة الناجمة عن الحرب من خلال توفير حماية أساسية لمن يؤثر عليهم " النزاع المسلح " تأثيرا مباشرا، [7] كبديل للمفهوم الاصطلاحي التقليدي الذي كان يوصف ب"قانون الحرب"، وأصبح يعبر عنه ب"النزاع المسلح" كمفهوم أشمل[8]، وذلك قبل اتفاقيات جنيف الأربعة 1949، وقانون لاهاي [9]، من أجل احتواء حالات قد لا يحتويها مصطلح "الحرب" قصد إضفاء طابع الإنسانية على "النزاع المسلح"[10].

وفي هذا الإطار فانه ومن خلال إجماع المؤرخين على أن ميلاد القوانين الإنسانية ومبادئ حقوق الانسان كان بفرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية 1789، فقد أصبح كأساس نظري فكري عالمي، تجسدت معالمه وصدر على إثره الإعلان العالمي لحقوق الانسان، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك مع كثير من المتناقضات، وعليه نطرح الاشكال التالي: كيف كان التعامل الفرنسي مع القوانين الدولية والمبادئ الإنسانية باحتلالهم للجزائر رغم أنها مهدا لحقوق الانسان والمبادئ والقوانين الدولية؟

وفي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا الوقوف على بعض الشواهد التاريخية من خلال تصريحات بعض المسؤولين الفرنسيين، من المدافعين عن المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر لنتفهم منطق الفرنسيين في التعامل مع الاحتلال، ومحاولة تكييفه مع تلك القوانين والقرارات خدمة للمشروع الاستعماري ككل، وعليه فإنه وقبل احتلالها للجزائر كانت فرنسا من المدافعين عن مبدأ الكرامة الإنسانية، حيث قام الفرنسيون بثورتهم الأولى سنة 1789 والتي أدت إلى إعلان حقوق الانسان والمواطن كما سبق الإشارة إليه سابقا ، لتتخذ بعد ذلك منحى عالميا [11]، حيث أنه وخلال فترة الاستيلاء على الجزائر سنة 1830، كانت فرنسا بالنسبة للغرب الأوربي تمثل قوة عالمية ذات خبرة في مجال حقوق الانسان، إلا

أن تصرفات الجيش الفرنسي في الجزائر كانت مناقضة للمبادئ المؤيدة في فرنسا، وظهر ذلك في ممارسات الجيش منذ الأشهر الأولى من الاحتلال ثم أضيف له الطابع المؤسسي بمرسوم ملكي يوم 22 جويلية 1834، وأصبحت الجزائر مستعمرة عسكرية تحت السلطة المباشرة لوزير الحرب وعلى رأسها الحاكم العام.[12]

وإلى جانب ذلك ومن خلال كتابات بعض المهتمين بالشأن الجزائري من الفرنسيين أنفسهم، ومن خلال تصريحات أحد النواب الفرنسيين "دوتوكفيل"[13]، الذي وصفه الكثيرون بالوسطية والاعتدال مدافعا فيه عن المشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر أمام البرلمان الفرنسي أنه يرى: "من خلال امتعاض بعضهم من السلوكيات اللاإنسانية التي يمارسها جيش الاحتلال، فإنها أمور مؤسفة حقا، لكن كل من يريد محاربة العرب يجد نفسه مضطرا لاقترافها ...، وأنني أرى وجوب استعمال كل الوسائل لتضييق الخناق على المقاومين والتضييق عليهم، ولا يستثنى من ذلك سوى الوسائل التي لا تقبلها الإنسانية والقانون الدولي".[14]

ونتساءل هنا كما تساءل الكثير من المؤرخين، حول الوسائل التي لا يتقبلها ذووا الضمائر الحية والمشاعر الحساسة، وتلك التي لا تتنافى والمبادئ الإنسانية والقانون الدولي، والتي تعتبر ضمن الوسائل المشروعة، من خلال قناعات هؤلاء القادة السياسيين والعسكريين والنواب حول الكثير من سياسات فرنسا وتشريعاتها وقوانينها الموجهة ضد الجزائريين؟

إلا أنه ورغم ذلك الامتعاض وحسب آراء الكثير من المؤرخين من الفرنسيين أنفسهم، فإن الأغلبية من النواب الفرنسيين قد اقتنعوا بفكرة الاستعمار وممارساته اللاإنسانية ضد الجزائريين، في الوقت الذي كان هناك عدد قليل من المعارضين للاستعمار بحد ذاته، بل واتحد جميع الفرنسيين حسبهم وتناسوا خلافاتهم التقليدية انطلاقا من قناعتهم الوطنية، التي وضعت الجزائر المستعمرة في قلب الرهانات التي تمس مستقبل فرنسا، وعدت من بين قضاياها المصيرية، و "أن بلوغ فرنسا غاياتها في الجزائر يعني نهوضها، وإذا فشلت فلها الخزي في الخارج والانهيار في الداخل"[15] حسبهم، كما تشترك دول الإمبراطوريات الاستعمارية في ظل

التنافس المحموم بين فرنسا وبريطانيا وغيرها في هذا الواقع الاستعماري الأليم...، وكذا انعكاسات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على المجتمع الفرنسي، ذلك أن أهمية الجزائر بالنسبة لفرنسا تتعدى كونها مجرد مستعمرة بل هي قضيتها الرابحة، ومن ثم باتت عمليات القمع المقننة وسيلة لبلوغ الغاية بشتى الوسائل، حتى وان تعدت المبادئ والقيم الروحية والأخلاقية والإنسانية بمفهومها وشكلها العام.

وكنماذج لتلك الممارسات اللاإنسانية والتي لا يسعنا المقام للتفصيل فيها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بوجه عام، عمليات القمع والإبادة التي لحقت قرى بأكملها نتيجة المقاومات، وتوجيهات الحكام العامين لجنودهم من خلال تصريحاتهم، مما يفسر السلوك العام لسلطة الاحتلال فيقول الحاكم العام تيرمان tirman [16](1881-1891): " من واجبنا ألا نقلق بشأن الاعتبارات الإنسانية، الأهم زرع الرعب في وسط الأهالي..."، وفي ذات السياق يقول رئيس المحكمة المدنية للجزائر "ريدموند نوريس " [17] سنة 1931 بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال: "منذ مدة ظل الأسلوب الفاجع لإخضاع المسلمين لإرادتنا قطع رقابهم وتهجيرهم ، أي تنفيذ أحكام الإعدام والأعمال الشاقة والإبعاد حول الأقاليم البعيدة" [18] ، الى جانب ذلك فان التاريخ المرير الذي عاشه الجزائريون في ظل "قانون الاندجينا" أو "قانون الأهالي" [19]، خير شاهد على السلوكيات اللاإنسانية في ظل التشريعات والقوانين الفرنسية المجحفة عبر عقود من الزمن منذ 1830 ، بداية من انتهاك سيادة البلد و هوما يتنافى مع القوانين الدولية [20]، كما تم الإشارة إليه سابقا إلى الانتهاكات المتكررة لحقوق الانسان في صور قمع المقاومات والإبادة الجماعية والإخلال بقوانين الحرب الدولية و الشرائع والقيم الأخلاقية الإنسانية، التي وصفها أحد المؤرخين بأنها وضعية تنزع من المقهور إنسانيته وتغتصب حقه في الإحساس بذاته وانتمائه لدولة ووطن [21]، كما تلكأت فرنسا في الاعتراف بحالة الحرب في الجزائر وحاولت تضليل الرأي الدولي العام بإعطاء تفسيرات مغلوطة للتحايل على بنود ميثاق الأمم المتحدة، فاعتبرت موضوع الجزائر شأنا

داخليا طبقا للفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، وهي الفقرة الخاصة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة من الدول.[22]

وفي هذا الإطار وانطلاقا من نظرية البطلان بأن ما بني على باطل فهو باطل ، فان الاحتلال في المنظور القانوني الدولي باطل وغير شرعي مهما اختلفت جنسياته وأساليبه ووسائله، ذلك أن نقل سيادة الدولة المحتلة الى دولة الاحتلال غير جائز، كما لا يجيز القانون ضم أو إلحاق الدولة " المعتدى عليها " ويعتبره غير قانوني ولا يمت للشرعية بصلة ، وهو ما ينطبق على حالة الاحتلال بالجزائر على اعتبار أن فرنسا هي "الطرف المعتدي" بموجب القانون الدولي وليس لها الحق في احتلال أراضي الدولة المحتلة أو الاعتداء على سكانها وسلب ممتلكاتهم.[23]

ومن هذا المنطلق باتت عملية الاحتلال قانونيا تحد وتعد صارخ للمنظومة القانونية الدولية القائمة على التأكيد على حرية الشعوب في تقرير مصيرها والحق الإنساني للبشرية جمعاء في الحرية والانعتاق، ومن أجل ذلك ظهرت الثورات وحركات التحرر المناهضة للاستعمار بشتى أساليبه ووسائله وكذا جنسياته، فكانت بذلك حقوق الإنسان والقوانين الدولية هي امتداد لحركة الشعوب في مناهضة الاستعمار باختلاف تسمياته، قوانينه وسياساته[24].

3. المقاومة الوطنية والثورة وعلاقتها بالشرعية الدولية :

وفي هذا الصدد ونظرا لعظم المهمة وصعوبتها في التصدي لأساليب فرنسا المدعومة من طرف القوى الدولية العظمى التي تعتبر فرنسا ضحية العناصر الإرهابية من الثوار والمقاومين بزعم القادة الفرنسيين وحلفائهم ، وعلى اعتبار أن الجزائر شأن داخلي لفرنسا، بكونها مقاطعة فرنسية بموجب قانون الإلحاق (1834)، وبالتوازي مع تلك السياسات والقوانين الفرنسية أصبحت المقاومة أو الثورة بشقيها المنظمة وغير المنظمة السياسية والعسكرية سبيلا وحيدا للتعبير عن رفضهم وعدم اعترافهم بفرنسا وبالاحتلال وبتشريعاته وقوانينه وممارساته، فأصبحت واحدة من النماذج الرائدة في مجال النضال الحقوقي القائم على المبادئ والقيم

الإنسانية والأعراف الدولية، الرامية إلى تقويض دعائم النظم الاستعمارية الممثلة في الهيئات والمنظمات القائمة على الظلم والاستبداد، والتي تسيطر عليها الدول العظمى، التي تعتبر سيدة القرار في العالم تحلل وتحرم، تمانع وتؤيد وتعارض وتتدخل بالقوة إن لم تتوافق مع مصالحها الخاصة، " إنه حكم القوي ولا مجال للقانون والإنسانية"[25] حسب آراء الكثير من الحقوقيين والمؤرخين، وبهذا المنطق اعتبرت ما جرى من أحداث في الجزائر على غرار ثورة أول نوفمبر 1954، على أنها عمليات تمرد لخارجين عن القانون[26]، ليدفعوا عنهم الأثر القانوني لحالة الحرب التي تدعو إلى احترام قانون الحرب أثناء الأعمال العدائية ، قصد تخفيف المعاناة الإنسانية الناجمة عن الحرب بين الطرفين، وهذا ما رفضت فرنسا الاعتراف به بإنكارها لحالة الحرب في حالة النزاع بينها وبين الجزائريين مما يسقط الطابع الإنساني عنه، ومن ثم إسقاط حق السجين عن المعتقلين الجزائريين المحبوسين، والذين يتعرضون لشتى عمليات التعذيب والتنكيل والقتل حتى من النساء ، وأحكام الإعدام المتزايدة في صفوف المجاهدين والتجاوزات في حق السكان المدنيين.[27]

وعملا بسياسة الكيل بمكيالين وكنتيجة لسياسات الدعم والتحالف الدولية للاحتلال الفرنسي بالجزائر، من قبل القوى الاستعمارية الكبرى، ووقوفها ضد إرادة ورغبة شعب أعزل يناضل ويثور من أجل حريته وحقوقه المشروعة بموجب القوانين الدولية ومواثيق الأمم المتحدة، وما زاد الأمر خطورة طريقة التعامل مع القوانين الدولية ونصوص الاتفاقيات من قبل فرنسا[28]، هو اقتسام أعضاء منظمة الحلف الأطلسي مسؤولية الجرائم التي اقترفها الفرنسيون في الجزائر، والتي جعلت من ميثاق الأطلسي أداة للاستعمار لحماية خرافة الجزائر الفرنسية على حد وصف بعض المؤرخين[29]، والتي ردت عليها الحكومة المؤقتة ممثلة بشخص رئيسها فرحات عباس بقوله: "بأن الشعب الجزائري لم تعتدي عليه فرنسا وحدها ، وإنما أيضا من قبل الحلف الأطلسي الذي يدعم فرنسا، وبالتالي فان الحكومة ترفض إدخال أراضي الجزائر ضمن ميثاقها أي (ميثاق الأطلسي)، الذي يمثل أداة للنشاط الاستعماري الموجه ضد الشعب الجزائري بوجه خاص"، ونتيجة لذلك أعلنت الحكومة الجزائرية رسميا نقض هذا

الميثاق وما يترتب عنه جراء تقديمهم للدعم المادي والدبلوماسي للغزاة المحتلين ، وتذكية نار الحرب وتغذيتها بكل الوسائل، وقد قضت دول الحلف بتلك الممارسات على محبة الشعوب الإفريقية والآسيوية التي تزداد قناعة بأن العالم المسمى بـ " الحر " لا يدخر وسعا في عرقلة انتصار حريتها واستقلالها.[30]

4. القضية الجزائرية والشرعية الدولية :

اتخذ مبدأ تدويل القضية الجزائرية ومناقشتها، المنصوص عليه في بيان أول نوفمبر 1954 حيزا واسعا في انشغالات قادة جبهة التحرير الوطني، وأصبح من أهم اهتماماتهم، نظرا لعمليات التضييق أو الإقصاء المنهجة التي تتعرض لها من قبل فرنسا وعملائها، وذلك بمقتضى الفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة ، التي تنص على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة من الدول، وذلك لإيمان الدول العظمى خاصة الاستعمارية منها ، بأن القضية الجزائرية قضية داخلية لفرنسا بحكم القانون المحلي لفرنسا تاريخيا، بدعوى أن الجزائر قطعة من فرنسا بموجب مرسوم 1834 ، والأهالي الجزائريين مسلمين أو مسيحيين هم رعايا فرنسيون[31]، ومن ثم فان الجزائر بالنسبة للمجتمع الدولي هي جزء من فرنسا ، وعليه لا يجب التدخل في الشؤون الداخلية لفرنسا [32].

إلا أن ذلك لم يدم طويلا خاصة بعد مؤتمر باندونغ 1955 الذي تم فيه الاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير والاستقلال ، إضافة الى الحملة الدعائية الواسعة في صفوف المؤتمرين والتي تكللت على إثرها جهود الدول الأفرو – آسيوية مع الدبلوماسية الجزائرية ممثلة لجبهة التحرير الوطني، بموافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة بتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة، حيث ثمنت في مذكرتها تلك، أهمية قرار حق تقرير المصير في إشارة للقرار رقم 637 ، الذي أقرته أغلبية أعضاء الجمعية العامة بهذا الشأن [33]، و بعد تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة في 19 سبتمبر 1958 وتوالي الاعتراف بها من قبل الدول، إضافة الى الدعم المادي والمعنوي والدبلوماسي من الدول العربية والآفرو – آسيوية، وبانضمامها لاتفاقيات جنيف الأربع في 20 جوان 1960 ، دفع الحكومة الفرنسية

الى إرغامها على احترام الالتزامات الواردة في القانون الدولي الإنساني إزاء ما يجري في الجزائر، بما في ذلك ما يحدث من جنودها ضد المدنيين العزل [34] ، وتمكن الوفد الجزائري من عرض القضية الجزائرية في جميع دورات الأمم المتحدة الى الدورة الخامسة عشر في (ديسمبر 1960) ، التي أقرت بمسؤولية الأمم المتحدة في المساهمة في إقرار مبدأ تقرير المصير، وإجراء الاستفتاء في الجزائر بتنظيم ومراقبة الأمم المتحدة للسماح للشعب الجزائري باختيار مصيره بكل حرية، وفي ديسمبر 1961 في الدورة 16 صادقت الجمعية العامة بالأغلبية على لائحة تدعو الحكومة الفرنسية إلى قبول استئناف المفاوضات لتطبيق حق تقرير المصير للشعب الجزائري في إطار احترام السيادة الكاملة لوحدة التراب الجزائري.

5. خاتمة:

تطبيقا لنظرية البطلان وعملا بمبدأ ما بني على باطل فهو باطل، فان الاحتلال الفرنسي أصبح بموجب القرارات الأممية والقوانين الدولية المؤيدة لحق تقرير المصير وحماية الإنسانية من ويلات الحرب باطلا ولا يرتكز على أي أساس قانوني، وأن الانتصار الدبلوماسي للجزائريين في الأمم المتحدة يعد انتصارا للقوانين الدولية وغلبة للمبادئ والحقوق الإنسانية المشروعة التي تبناها الجزائريون طيلة عقود من الاحتلال.

6. الهوامش:

[1] – محمد لبجاوي، الثورة الجزائرية والقانون، ترجمة على الخش، دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، 1968، دمشق، ص 37،38.

[2] –عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، دار هومة الجزائر، 2004، ص 6،5.

[3] –ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، منشورات الأمم المتحدة، نيويورك، 1999، موقع https://www.un.org

[4] –زياد عبد اللطيف سعيد القريشي، الاحتلال في القانون الدولي، الحقوق والواجبات، دار النهضة العربية، 2007، ص 37.

[5] – عمر سعد الله، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 59.

[6] –عمر سعد الله، مدخل في القانون الدولي لحقوق الانسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة 2003، الجزائر، ص ص16، 17

[7] –عبد القادر حوبة، الوضع القانوني للمقاتلين في القانون الدولي الإنساني، رسالة دكتوراه في العلوم القانونية، تخصص القانون الدولي الإنساني، 2013–2014، جامعة باتنة، ص 82.

[8] –نفسه، ص4.

[9] –البلتاجي، سامح جابر البلتاجي ، حماية المدنيين في زمن النزاعات المسلحة ،الجريمة وآليات الحماية ، دراسة تحليلية عن الوضع في الأراضي العربية المحتلة ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية ، 2006 ، ص 11.

[10] –حوبة، مرجع سابق، ص ص1–4.

[11] –مصطفى خياطي، حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، وحدة الطباعة، الرويبة، 2013، ص 11.

[12] –أوليفيي لوكوغ غرانميزون، الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر 200، ص 6، العنوان الأصلي للكتاب:

Olivier le cour grand maison; coloniser exterminer sur la guerre de l'état coloniale

[13] –للمزيد أنظر: غرانميزون، الاستعمار ...، مرجع سابق ص ص 07–13.

[14] –غراميزون، مرجع سابق، ص 6،7

[15] –نفسه، ص 8، 9.

[16]- للمزيد أنظر : George Bonnefoy ; histoire de l'administration civile dans la province d'auvergne et le département du puy-de-dôme : depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours ,volume 1, ; E.lechevalier ; 1895 .
موقع: Galica.bn.f.fr

[17] Edmond norés; l'œuvre de la France en Algérie; collection centenaire ;(libraire Felix alcane; Paris 1931; pp370-371.
موقع: https://data.bnf.fr

[18]-حسين بوزاهر، العدالة القمعية في الجزائر المستعمرة 1830-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 7. العنوان الأصلي للكتاب:
La justice repressive dans l'algérie coloniale1830-1962.

[19]- للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة الجزائر 2009 ص 448 – 450.

[20]-عمر سعد الله، القانون الدولي...، مرجع سابق، صص 50-60.

[21]-محمد العربي ولد خليفة، المحنة الكبرى مدخل لدراسة توصيفية عن معاناة شعبنا ومقاومته البطولية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 20.

[22]-العسيلي، الله أكبر وانطلقت ثورة التحرير، ط2، دار النفائس، بيروت، 1986، ص 29.

[23]-أحمد لعروسي، مسؤولية دولة الاحتلال عن انتهاك حقوق الانسان، مذكرة ماجستير، جامعة 2006، ص20.

[24]-بشير بومعزة "الاستعمار جريمة ضد الإنسانية ...جريمة حرب "، مجلة المصادر، ع3، ماي 2003، م ود ت وث أول نوفمبر1954، ص 14.

[25]-محمد لبجاوي، مرجع سابق، ص27.

[26]- مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة المجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 337.

[27]- بشير بومعزة، مرجع سابق، ص14.

[28]- للمزيد أنظر عمر سعد الله، القانون الدولي. مرجع سابق، ص 212، 113.

[29]- أنظر: العسلي الثورة الجزائرية...، صص 546-557.

[30]-فرحات عباس، الحكومة الجزائرية المؤقتة، تونس في 19-سبتمبر 1960 للمزيد أنظر: مصطفى طلاس، بسام العسلي، الثورة الجزائرية، طبعة خاصة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 557.

[31]-علي تابليت، القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة، منشورات م.د.ت المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة لأول نوفمبر 1954، 2008، ص، ص **40**، **41**.

[32]–نفسه، ص 52.

[33]–عامر رخيلة، الطرح الأول للقضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة والظروف العامة، المصادر، ال عدد13، السداسي الأول،2006، ص217

[34] –عمر سعد الله، الحكومة الجزائرية المؤقتة والقانون الدولي الإنساني، مجلة المصادر، العدد 14، السداسي الثاني، 2006، ص92.

7.قائمة المصادر والمراجع:

- **– المؤلفات:**

بالعربية:

[1]–حمد لبجاوي، الثورة الجزائرية والقانون، ترجمة على الخش، دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، 1968، دمشق، ص 37،38.

[2] –عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، دار هومة الجزائر، 2004، ص 5،6.

[3]–ياد عبد اللطيف سعيد القريشي، الاحتلال في القانون الدولي، الحقوق والواجبات، دار النهضة العربية، 2007، ص 37.

[4]– عمر سعد الله، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 59.

[5]–عمر سعد الله، مدخل في القانون الدولي لحقوق الانسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة 2003، الجزائر، ص ص16، 17.

[6] – البلتاجي ...

[7]–مصطفى خياطي، حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، وحدة الطباعة، الرويبة، 2013، ص 11.

[8] –أوليفيي لوكوغ غرانميزون، الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر 200، ص 6، العنوان الأصلي للكتاب:

Olivier le cour grand maison; coloniser exterminer sur la guerre de l'état coloniale

[9]–حسين بوزاهر، العدالة القمعية في الجزائر المستعمرة 1830–1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 7. العنوان الأصلي للكتاب:

La justice repressive dans l'algérie coloniale1830-1962.

[10]-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة الجزائر 2009 ص 448 – 450.

[11]-محمد العربي ولد خليفة، المحنة الكبرى مدخل لدراسة توصيفية عن معاناة شعبنا ومقاومته البطولية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 20.

[12] –العسيلي، الله أكبر وانطلقت ثورة التحرير، ط2، دار النفائس، بيروت، 1986، ص 29.

[13] –فرحات عباس، الحكومة الجزائرية المؤقتة، تونس في 19-سبتمبر 1960

[14]-مصطفى طلاس، بسام العسلي، الثورة الجزائرية، طبعة خاصة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 557.

[15] – على تابليت، القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة، منشورات م.د.ت المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة لأول نوفمبر 1954، 2008، ص، ص **40**، **41**.

بالأجنبية:

George Bonnefoy; histoire de l'administration civile dans la province d'auvergne et le département du puy-de- dôme: depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, volume 1; E.lechevalier; 1895.

- **– المقالات:**

[1]-بشير بومعزة "الاستعمار جريمة ضد الإنسانية ...جريمة حرب"، مجلة المصادر، ع3، ماي 2003، م ود ت وث أول نوفمبر1954، ص 14.

[2]-عامر رخيلة، الطرح الأول للقضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة والظروف العامة، المصادر، ال عدد13، السداسي الأول،2006، ص217

[3] –عمر سعد الله، الحكومة الجزائرية المؤقتة والقانون الدولي الإنساني، مجلة المصادر، العدد 14، السداسي الثاني، 2006، ص92.

- **– أطروحات ورسائل الماجستير:**

[1] أحمد لعروسي، مسؤولية دولة الاحتلال عن انتهاك حقوق الانسان، مذكرة ماجستير، جامعة 2006، ص20.

[2] –عبد القادر حوبة، الوضع القانوني للمقاتلين في القانون الدولي الإنساني، رسالة دكتوراه في العلوم القانونية، تخصص القانون الدولي الإنساني، 2013-2014، جامعة باتنة، ص 82.

- **مواقع الأنترنت:**

1. Galica.bn.f.fr

2. https://data.bnf.fr

3-https://www.un.org.

عامر رخيلة، الطرح الأول للقضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة والظروف العامة، المصادر، ال عدد13، السداسي الأول،2006، ص217،

الحكومة الجزائرية المؤقتة والقانون الدولي الإنساني، مجلة المصادر، العدد 14، السداسي الثاني، 2006، ص92.

[1] – محمد لبجاوي، الثورة الجزائرية والقانون، ترجمة على الخش، دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، 1968، دمشق، ص 37،38.

[2] – عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية (على ضوء وثائق جديدة)، دار هومة الجزائر، 2004، ص ص 5،6.

[3] – **ميثاق الأمم المتحدة**: وقع في جوان 1945 في سان فرانسيسكو، وأصبح نافذا في أوت 1945 بعد إجراء تعديلات على بعض مواده، وهو أول وثيقة في تاريخ البشرية تشير بصراحة ووضوح كامل الى مسؤولية المجتمع الدولي الى إقرار حماية الانسان، للمزيد أنظر ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، منشورات الأمم المتحدة، نيويورك، 1999، موقع https://www.un.org

[4] – **اتفاقيات جنيف لعام 1949**: فتعد جوهر القانون الدولي الإنساني، من أهدافها الأساسية: السعي لتقرير احترام حقوق الانسان والحريات الأساسية ...، للمزيد حول الموضوع أنظر: زياد عبد اللطيف سعيد القريشي، الاحتلال في القانون الدولي، الحقوق والواجبات، دار النهضة العربية، 2007، ص 37.

[5] – عمر سعد الله، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 59.

[6] – عمر سعد الله، مدخل في القانون الدولي لحقوق الانسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة 2003، الجزائر، ص ص16، 17

[7] –عبد القادر حوبة، الوضع القانوني للمقاتلين في القانون الدولي الإنساني، رسالة دكتوراه في العلوم القانونية، تخصص القانون الدولي الإنساني، 2013-2014، جامعة باتنة، ص 82.

[8] – نفسه، ص4.

[9] – **قانون لاهاي**: يرتبط بتنظيم وسائل القتال، الى جانب اتفاقيات جنيف الأولى والثانية والثالثة لعام 1949 وكذا البروتوكول الإضافي الأول والثاني لعام 1977، الذي يعد دعامة أساسية لحماية المقاتلين في النزاعات المسلحة، حيث تنص المواد القانونية من القسم الرابع للوائح لاهاي في المادتين (52 – 56) على عدم شرعية الاحتلال

قانونيا ...، أنظر: البلتاجي، مسامح جابر البلتاجي ، حماية المدنيين في زمن النزاعات المسلحة ،الجريمة وآليات الحماية ، دراسة تحليلية عن الوضع في الأراضي العربية المحتلة ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية ، 2006 ، ص 11 . (وهذا ما ينعكس على حالة الجزائر في منظور قانون لاهاي).

[10] – حوبة، مرجع سابق، ص ص1-4.

[11]–خياطي، حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، وحدة الطباعة، الروبية، 2013، ص 11.

[12] - أوليفيي لوكوغ غرانميزون، الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر 200، ص 6، العنوان الأصلي للكتاب:

Olivier le cour grand maison ; coloniser exterminer sur la guerre de l'état coloniale

[13]–**الكسيس دوتوكفيل Alexis de Tocqueville**: (1805 – 1859)، مؤرخ ومنظر ورجل سياسي ذو نفوذ، كاتب فرنسي صاحب كتاب بعنوان " الديمقراطية في أمريكا »، نائب في البرلمان الفرنسي، اعتبر نموذجا للوسطية والاعتدال، ومدافعا عن المساواة والحريات الأساسية، وعضو في اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة مشروع قانون يتعلق باستعمار الجزائر، عين مقررا للجنة البرلمانية ذاتها، اعتبر من المختصين في الشؤون الخارجية وفي القضية الجزائرية ....، للمزيد أنظر: غرانميزون، الاستعمار ...، مرجع سابق صص 07-13.

[14]–غرانميزون، مرجع سابق، ص 6،7

[15]–نفسه، ص 8، 9.

[16]– **لويس تيرمان** : Louis tirman: ولد في 1837 ، حكم أطول فترة في الجزائر من 26نوفمبر 1881 الى 18 ابريل 1891 ، متحصل على شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة باريس، كان من المؤيدين لفكرة الجزائر الفرنسية ، وقف الى جانب المستوطنين ، عرفت الجزائر في عهده أبشع صور القمع والوحشية والحرمان تجاه الجزائريين ، أصدر قانون الحالة المدنية بالجزائر ، للمزيد عنه أنظر : - histoire de l'administration civile dans la province d'auvergne et le département du puy-de- dôme : depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours ,volume 1,George Bonnefoy ; E.lechevalier ; 1895

[17] – **ايدموند نوريس:Edmond de norés** 1866 – 1945 رئيس المحكمة المدنية بمحكمة باتنة بالجزائر (موقع: https://data.bnf.fr

للمزيد حوله أنظر : - Edmond norés ; l'œuvre de

la France en Algérie ; collection de centenaire ;(libraire Felix alcane ; paris 1931 ; pp370-371

[18]– حسين بوزاهر، العدالة القمعية في الجزائر المستعمرة 1830-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 7. العنوان الأصلي للكتاب:

La justice repressive dans l'algérie coloniale1830-1962.

[19]– **قانون الأهالي** (code de l'indigénat): مجموعة القوانين والنصوص والإجراءات الاستثنائية التي سنها ووظفها المسؤولون الفرنسيون ضد الجزائريين الذين يشكون في ولائهم، بداية من 1871 ثم أضيفت إليه بنود أخرى خلال السبعينات وبداية الثمانينات 1881، وأضيفت له بنود أخرى بعد ذلك ودام هذا القانون القمعي إلى غاية 1944 للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة الجزائر 2009 ص 448 – 450.

[20]– عمر سعد الله، القانون الدولي...، مرجع سابق، صص 50-60.

[21] – محمد العربي ولد خليفة، المحنة الكبرى مدخل لدراسة توصيفية عن معاناة شعبنا ومقاومته البطولية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 20.

[22]– العسيلي، الله أكبر وانطلقت ثورة التحرير، ط2، دار النفائس، بيروت، 1986، ص 29.

[23]-أحمد لعروسي، مسؤولية دولة الاحتلال عن انتهاك حقوق الانسان، مذكرة ماجستير، جامعة ، 2006، ص20.

[24] –بشير بومعزة "الاستعمار جريمة ضد الإنسانية ...جريمة حرب "، مجلة المصادر، ع3، ماي 2003، م ود ت وث أول نوفمبر1954، ص 14.

[25] محمد لبجاوي، مرجع سابق، ص27.

[26]– مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة المجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 337.

[27]– بشير بومعزة، مرجع سابق، ص14.

[28]– تستند إلى **نصوص المادة 143** الفقرة الخامسة من اتفاقية جنيف الرابعة التي بموجبها يتعين على سلطات الاحتلال الفرنسي قبول تدخل اللجنة الدولية للصليب الأحمر في حالة الجزائر – وفي الحرب التي تدور فيها. للمزيد أنظر عمر سعد الله، القانون الدولي. مرجع سابق، ص 212، 113.

[29]– للمزيد: أنظر العسلي الثورة الجزائرية...، صص 546-557.

[30]– فرحات عباس، الحكومة الجزائرية المؤقتة، تونس في 19 سبتمبر 1960 للمزيد أنظر: مصطفى طلاس، بسام العسلي، الثورة الجزائرية، طبعة خاصة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 557.

[31]– على تابليت، القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة، منشورات م.د.ت المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة لأول نوفمبر 1954، 2008، ص، ص **40**، **41**.

[32]– نفسه، ص 52.

[33]– عامر رخيلة، الطرح الأول للقضية الجزائرية على هيئة الأمم المتحدة والظروف العامة، المصادر، ال عدد13، السداسي الأول،2006، ص217

[34] – عمر سعد الله، الحكومة الجزائرية المؤقتة والقانون الدولي الإنساني، مجلة المصادر، العدد 14، السداسي الثاني، 2006، ص92.

اللغة العربية وإشكالية الهوية خلال الحقبة الاستعمارية للمغرب

The Arabic language and the problem of identity during the Colonial era in Morocco

ربيع عوادي (*)

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

ra.aouadi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 14 /2021/02 **تاريخ القبول:** 2021/04/24 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز السياسة الاستعمارية التي نهجتها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب ضد الأهالي رغبة منها في القضاء على هويتهم الأصيلة ومحاولة دمجهم في المجتمع الفرنسي، فالاستعمار الفرنسي سعى جاهدا إلى نسف الهوية المغربية عبر المساس بالدين الاسلامي والقضاء على اللغة العربية ونشر المسيحية خاصة في الوسط البربري.

وعت فرنسا بأن الحفاظ على مصالحها بالمغرب يمر عبر ترسيخ استعمار بديل يعوض الانسحاب العسكري، وهو أخطر من سابقه لأنه يعتمد على الاستعمار الثقافي، لذلك توجه قادة الاستعمار منذ البداية إلى إخضاع النفوس والعقول ثقافيا للتمكن من إخضاع الأجساد، وحتى إذا ما توهمت الأجساد التحرر بالاستقلال تبقى العقول والنفوس مقيدة. وقد كانت وسيلتها لتحقيق ذلك على المستوى التعليمي تأسيس مدارس فرنسية مختلفة ومتنوعة تقدم تعليما باللغة الفرنسية والبربرية مع غياب شبه تام للغة العربية ضمن المقررات الدراسية، وقد اقتصرت هذه المدارس على نخبة معينة عقد عليها المسؤولون الفرنسيون آمالا مستقبلة.

الكلمات الدالة: الاستغلال الاستعماري، اللغة العربية، إشكالية الهوية، الحماية الفرنسية بالمغرب، الظهير البربري.

(*) **المؤلف المرسل: ربيع عوادي: ra.aouadi@gmail.com**

Abstract:

This research aims to highlight the colonial policy that the French protection authorities in Morocco approached against the people in their desire to eliminate their authentic identity and try to integrate them into French society. The French colonialism strived to destroy the Moroccan identity by undermining the Islamic religion, eliminating the Arabic language and spreading Christianity, especially in the barbarian milieu.

France was aware that preserving its interests in Morocco passes through establishing an alternative colonialism that compensates for the military withdrawal, it is more dangerous because it depends on cultural colonialism. Therefore, colonial leaders directed their attention to subjugate souls and minds culturally in order to be able to subjugate the bodies, and even if the bodies are deluded of liberation with independence, their minds and souls are remained tied. And Its way to achieve this in the educational field was to establish different and varied French schools that provide education in the French and Berber language, with an almost complete absence of the Arabic language within the courses, and these schools were limited to a certain elite for which the French officials held future hopes.

Keywords: Colonial exploitation, Arabic language, identity problem, the French protection in Morocco, the barbarian Dahir.

1. مقدمة:

تعود جذور تحرش السياسة الاستعمارية باللغة العربية إلى نهاية القرن التاسع عشر، خصوصا بعد تزايد الضغوط الاستعمارية وكثرة الوجود الأجنبي بالمدن والحواضر الكبرى فضلا عن انفتاح المغرب "مكرها" على الدول الأوروبية، فخلال هاته الفترة بدأت الإرهاصات الأولى لتداول بعض المفردات من اللغات الأجنبية خاصة لدى فئة من الناس الذين تربطهم علاقات مباشرة مع الأجانب سواء عبر التجارة أو السفر للحج أو غيرها، ثم بعد ذلك ذاع انتشار اللغة الفرنسية لدى عامة الناس بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب، لاسيما بعد

تمكين الاحتلال اللسان الفرنسي على حساب اللسان العربي من خلال مخططات استعمارية مكشوفة تارة ومستترة تارة أخرى.

أدخلت السلطات الاستعمارية اللغة الفرنسية إلى المغرب وفرضتها قسرا حتى أصبحت لغة الإدارة والتعليم والاعلام، واقتصر استخدام اللغة العربية الفصحى على الوظائف الدينية والثقافية التقليدية باعتبارها لغة الثقافة العربية الاسلامية، وبذلك حاولت إدارة الحماية ربط مصطلح "الحضارة والتقدم" بالثقافة واللغة الفرنسية.

كانت فرنسا تعلم بأن جيوشها الاستعمارية عائدة إلى بلدها لا محالة فسعت إلى تحقيق السيطرة على مستعمراتها واستغلالها لأطول فترة ممكنة، وقد رأت في الحفاظ على سلطة لسانها أفضل السبل لذلك، فعملت على تعليم النخب المغربية التي ستتسلم السلطة بعد الاستقلال الثقافة الفرنسية لتنوب عنها في تنفيذ سياساتها في الداخل، لأنها تدرك بأن الهيمنة الثقافية استثمار طويل الأمد في مشروع الهيمنة السياسية والاقتصادية.

انطلاقا مما سبق تُطرح مجموعة من التساؤلات التي تتبلور في إطارها العام الإشكالية الأساسية لهذه الدراسة، قصد تحليل مضمونها وإبراز آثار الاحتلال الفرنسي على اللغة العربية والهوية الوطنية، فبناء على ذلك ما هو السر وراء الهجوم الفرنسي على اللغة العربية؟، وإلى أي حد تمكنت السياسة الاستعمارية النيل من اللغة العربية؟، وماهي مظاهر استهداف الهوية العربية الاسلامية؟ وكيف أثرت السياسة البربرية على اللغة العربية والهوية الاسلامية والوحدة الوطنية؟.

تكمن أهمية هذا المساهمة في تناولها اللغة العربية وإشكالية الهوية خلال الحقبة الاستعمارية للمغرب، وذلك من خلال القرارات والاجراءات التي اتخذتها سلطات الحماية للقضاء على اللغة العربية وإحلال مكانها اللغة الفرنسية عبر إصدار مجموعة من الظهائر، ولعل الظهير البربري لسنة 1930م يبقى أخطرها على الاطلاق لكونه شكل منعطفا خطيرا مس الهوية الاسلامية واللغوية والوطنية في الصميم، فضلا عن تشجيع التعليم باللغة الفرنسية والتضييق

على المؤسسات التعليمية الوطنية التي تدرس باللغة العربية، وكذا استخدام اللغة الفرنسية في الإدارات وغيرها.

استقبل المغاربة هذه الاجراءات التي تنال من الدين الاسلامي ووحدتهم الوطنية واللغة العربية باعتبارها أركان أساسية في هويتهم بالاستنكار والرفض الشعبي، فقام الجميع للدفاع عنها بمختلف الطرق وشتى الوسائل.

لذلك ارتأينا أن نتطرق لهذا الموضوع بالدراسة والتحليل من خلال العناصر التالية:

- وعي المستعمِر بأهمية اللغة العربية في تشكيل الهوية المغربية
- الحماية بالمغرب من الاستعمار اللغوي إلى الاستغلال الاستعماري
- أثر السياسة البربرية على الهوية المغربية.

2. وعي المستعمِر بأهمية اللغة العربية في تشكيل الهوية المغربية

ظهرت الحاجة إلى توسيع النفوذ الفرنسي بالمغرب من خلال تدريس اللغة الفرنسية والتمكين لها نهاية القرن التاسع عشر، ومن المنطقي جدا أن تلتقي اللغة الفرنسية باللغة الإسبانية شمال المغرب، حيث بدأت تنتشر بشكل جيد نسبيا لأسباب متعلقة بالعلاقات التاريخية للبلدين مع المغرب ولقربهما وجوارهما الجغرافي، حتى قبل خضوع المغرب لنفوذ الحمايتين الإسبانية والفرنسية[1].

فأسست في البداية أربع مدارس تابعة للفرنسيين بمدينة طنجة، ثم بدأت سلسلة من المدارس الفرنسية تفتح في القصر الكبير وتطوان والتي تُكمل الخطوط العريضة لمنطقة النفوذ الإسبانية بالمغرب تمهيدا للاختراق الأوروبي، وقد كانت مدينة فاس واحدة من النقاط الأكثر حساسية في الجنوب لأنها مدينة جذابة سياسيا ورمزيا، وهي قفل في منظور النفوذ المتزايد لفرنسا[2].

استغلت فرنسا الجوار الجزائري للعب دور قيادي في المغرب، حيث ظهرت عائلات ومجموعات جزائرية كبيرة لجأت إلى المغرب تتمتع بنفوذ حقيقي، لذلك كان من مصلحة فرنسا نشر استخدام اللغة الفرنسية بينهم لجذب أطفالهم إلى المدارس الفرنسية.

ولما كانت اللغة المدخل الرئيسي لتشكيل الهوية فإن فرنسا وعبر اختراقها اللغوي لمستعمراتها السابقة كانت تضرب عصفورين بحجر واحد، فهي من جهة تسعى إلى تكسير هويات المستعمر حتى تشل حركتها على المقاومة، لأن الجسد المقاوم هو روح وفكر متماسكين دينيا ولغويا وثقافيا، ومن جهة أخرى تسعى إلى تعويض هذه الهويات بهوية استعمارية بديلة[3]، لذلك فرضت سلطات الحماية اللغة الفرنسية لتشكيل هوية جديدة تنسجم مع اللغات المحلية، وهي نفسها على اتصال بإعادة بناء الهوية[4].

ولعل الهدف الاستراتيجي الذي سعت فرنسا الوصول إليه هو تحقيق السيطرة على المستعمرات لأطول وقت ممكن لاستمرار استغلالها الاقتصادي، سواء كمناجم للمواد الأولية وأيدي عاملة رخيصة أو كسوق استهلاكية واسعة، فهي لم تكتف من مستعمراتها بذلك، بل كانت تطلب إنجاز "جراحة ثقافية ولغوية تستتبع المستعمَر للمستعمِر، وتأتي بمعاول الهدم على استقلال شخصيته وكيانه فتدفعه إلى الاقتداء بالغالب والإذناب له، والتماهي معه وفقدان القدرة على وعيه لذاته إلا في علاقته الانجذابية به"[5].

رسمت فرنسا لحركتها الاستعمارية منذ البداية شكلا جديدا ركزت فيه على الاستعمار الثقافي وهو في جوهره أقوى وأعنف من الاستعمار العسكري، فالهدف من الشكلين معا هو الهيمنة والاستغلال الاقتصادي، غير أن الشكل الأول قابل للمقاومة المسلحة عكس الشكل الثاني من الاستعمار، حيث يمكنه التسلل خفية ويحقق أهدافه الاستراتيجية بكل يسر وأمان، بل وبمساعدة من المستعمَر[6].

وفي هذا الإطار يمكننا الحديث عن السلاح الثقافي للثقافة من خلال ثنائية أو ازدواجية اللغة التي تم تأسيسها بالفعل إلا أنهما غير متساويين؛ فاللغة الفرنسية لغة مهيمنة استوعبها المغاربة وتم تحويل استخدامها إلى أداة اجتماعية وسياسية للتمييز[7].

كان التركيز على طمس المعالم الحضارية العربية الإسلامية لغة ودينا وثقافة، إذ حدث عدوان صريح على اللغة العربية التي اختفى تعلمها في المدارس الثانوية[8]، ولما كان منطلق الاستعمار الثقافي مرتبط باللغة الفرنسية باعتبار أن اللغة هي صانعة الهوية والشخصية

الانسانية فقد تم خوض معركة شرسة ضد كل معالم التواجد اللغوي العربي لأنه يشكل عائقا أساسيا أمام الهيمنة الثقافية واللغوية الاستعمارية[9].

ولتوفير شروط ديمومة سيطرتها على المستعمرات حتى بعد الجلاء عنها بذلت فرنسا جهودا كبيرة للاستيلاء على العقل واللسان والوجدان استدرارا لصلة اتباع يرتبط بها المغلوب بالغالب، وقد كان ذلك أساس عناية السياسة الاستعمارية الفرنسية بما من شأنه أن ينتج الشروخ والفواصل العميقة للنسيج الاجتماعي والوطني[10]، وقد كان المدخل لذلك عنايتهم بالتعليم من أجل استئصال كل معالم الحضارة العربية الاسلامية وتعويضها بمعطيات حضارية جديدة مرتبطة بالاستعمار، وهذا ما أكده "بول مارتي" في كتابه مغرب الغد بالقول: "إن كل تعليم للعربية وكل تدخل من الفقيه وكل وجود إسلامي سوف يتم إبعاده بكل قوة، وبذلك نجذب إلينا الأطفال الشلوح (البربر) عن طريق مدرستنا وحدها ونبعد متعمدين كل مرحلة من مراحل نشر الإسلام"[11].

ولعل فرنسا بتفضيلها خيار الاستعمار الثقافي كانت أحدّ ذكاء من سائر الدول الاستعمارية التي شغلتها شهية النهب الاقتصادي للخيرات في إحراز أهداف أخرى بعيدة المدى عظيمة الفوائد، فتاريخ اللغة الفرنسية على التراب المغربي القائم على استبدال المشهد اللغوي التعددي قصد إعادة بناء الهوية يبرز بالملموس أنها أصبحت لغة الكثيرين على مر السنين مما سمح لها بالاستمرار في الوجود والتطور داخل المجتمع المغربي[12]، لا سيما مع نزوع العديد من أفراد البورجوازية الفاسية نحو العصرنة والتطلع للعيش على الطريقة الأوروبية والاقبال على تعلم اللغة الفرنسية، حيث تم التركيز على تعلمها من قِبل الأعيان، بل منهم من يضع أبناءه لدى عائلات فرنسية ظنا منه أن الوجود في مثل هذا الوسط يساعد لا محالة على التربية الحسنة[13].

يظهر المجال اللغوي المغربي خلال الحقبة الاستعمارية كموقع بناء حقيقي لإعادة بناء الهوية، وهو في حالة اضطراب مستمر، فاللغة الفرنسية في المغرب لغة اتصال وهي مكون عضوي لفسيفساء اللغات التي تتداخل مع بعضها البعض، لذلك ليس من المستغرب أن

يحمل كل منها بدرجات متفاوتة آثار رموز وأنواع مختلفة من اللغات التي تشكل رقعة الشطرنج اللغوية الخاصة به[14].

3. الحماية بالمغرب من الاستعمار اللغوي إلى الاستغلال الاستعماري

تميزت السياسة الثقافية الفرنسية في المغرب منذ وقت مبكر بالرغبة في فرض لغتها وثقافتها على حساب اللغات المحلية، وخاصة اللغة العربية التي رأت فيها فرنسا عدوها الأول بامتياز بسبب ارتباطها بالدين الاسلامي المحرك الأساسي لثقافة المقاومة، فشنت عليها حربا ضروسا تلخصها على المستوى التنظيري المنشورات والرسائل التي أصدرها المقيمون العامون وبعض أركان السلطة الفرنسية بالمغرب[15].

وعلى المستوى العملي تأسيس المدارس الفرنسية والمدارس الفرنسية البربرية والمدارس الفرنسية الإسلامية، التي هدفت جميعها إلى تكريس اللغة الفرنسية والثقافة الأوروبية ضمن المناهج التربوية، بل وأكثر من ذلك كان للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب سقف لا تتجاوزه مرتبط أساسا بتحقيق الأهداف الاستعمارية الفرنسية، فلم يكن المطلوب إذا تخريج طبقات متعلمة واعية بل مجرد تقديم تعليم لمختلف الطبقات حتى يسخروا لخدمة فرنسا[16].

وهذا ما أكده "جورج هاردي" مدير التعليم خلال الفترة الاستعمارية بالقول: "إن أكثر ما يجب أن نهتم به هو أن نحرص على أن لا تصنع لنا المدارس الأهلية رجالا صالحين لكل شيء ولا يصلحون لشيء، يجب أن يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملا يناسب التكوين الذي تلقاه حتى لا يكون من جملة أولئك العارفين المزيفين، أولئك اللامنتمون طبقيا العاجزون عن القيام بعمل مفيد والذي تنحصر مهمتهم في المطالبة؛ هؤلاء الذين عملوا على جعل التعليم الأهلي منبعا للاضطراب الاجتماعي"، وهو ما يبرز توجسه من تحول المدارس الأهلية من إنتاج "آلات بشرية" تخدم مصلحة المستعمر وسياساته إلى خريجين ذوي توجهات ثورية تعكر صفو السياسة الاستعمارية أو تقف حاجزا أمامها وعائقا لاستقرارها[17].

فرضت فرنسا انتقائية في التعليم، إذ ميزت بين طبقات المجتمع في تلقي أنماط التعليم بما يخدم مخططاتها للاستغلال الاستعماري، ولم يكن التعليم الموجه للمغاربة بالضرورة ذو توجه

واحد بل تميز بعضه عن بعض في الأهداف والطرق والوسائل، وهكذا وفرت سلطات الحماية تعليما خاص بالنخبة يُفتح في وجه الأرستقراطيات المثقفة من الأعيان المغاربة، ويقدم لها تعليما وتكوينا في ميدان الإدارة والتجارة، وتعليما شعبيا خاصا بالجماهير الفقيرة يتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي؛ في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية مثل البناء والحرف، وفي البادية يُوجه التعليم نحو الفلاحة، وفي المدن الشاطئية يُوجه نحو الصيد البحري والفلاحة، أما اللغة التي ستُدرس بها هذه المواد حسب "جورج هاردي" "هي اللغة الفرنسية التي بواسطتها سنتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا"[18].

وقد عبر "بول مارتي" عن نفس التوجه بالقول: "يجب أن لا نهتم بالكم يجب أن لا نصنع في المغرب سنة بعد أخرى وبشكل مطرد وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربي ومصلحة الإمبراطورية الفرنسية رجالا يُنمي فيهم التعليم أذواقا وحاجات وآمالا لن يقدروا على إرضائها بأنفسهم، ولن تقدر لا الحماية ولا المخزن ولا المستعمرة ولا الاقتصاد المغربي على تحقيقها لهم"[19]، فمن المهم عند "بول مارتي" أن يكون للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب سقف محدود يقتصر على الاستغلال الاستعماري فقط ولا يتجاوزه إلى تطوير وتحديث المجتمع.

لذلك عملت فرنسا كل ما بوسعها لأن تُبقي اللغة الفرنسية أداة اتصال بالنسبة للمغاربة وليست أداة ثقافة، وإن كانت هي اللغة المعتمدة في التدريس فإن تعلمها كان فقط من أجل تكوين الأشخاص المهارات التي تمكنهم من الاشتغال لصالح الحماية الفرنسية، وهذا ما يؤكده "لابي" بقوله: "نحن على أهبة الاستعداد لافتراض أن اللغة الفرنسية أداة اتصال بصفة مؤقتة، وإننا ندرك استمرار الخطر الذي نخاطر بالوقوع فيه والمتمثل في افتراض هذه اللغة كأداة للثقافة"[20].

كانت فرنسا على وعي تام بأن تحقيق الاستمرارية في بسط الهيمنة على مستعمراتها لا يمر بالضرورة عبر التواجد العسكري، ولكن قد يكون الأمر أقل تكلفة وأكثر ربحا من منظور الاستعمار الثقافي، وما دامت اللغة هي المدخل الرئيسي في أي استعمار بهذا الشكل فقد يتطلب الأمر التفكير في الوسائل اللازمة لفرض اللغة الفرنسية على المستعمرات، وكان تعليم

اللغة الفرنسية في المدارس حسب ما ادعته سلطات الحماية يهدف إلى تحرير عقول الناس قدر الإمكان ودمجهم في الأنظمة العقلانية للثقافة الأوروبية[21]، إلا أن هذا الطرح لا يصمد أمام الهدف الحقيقي من الغزو الثقافي الفرنسي والذي كانت تهدف من ورائه فضلا عن الاستغلال الاستعماري التحكم في الأجسام عبر التحكم في العقول والأرواح.

وهذا ما قصده بالضبط "جورج هاردي" حين أكد على أن انتصار السلاح لا يعني النصر الكامل لأن القوة التي تبني الإمبراطوريات لا تضمن لها الاستمرار والدوام، ويضيف "إن الرؤوس تنحني أمام المدافع في حين تظل القلوب تغذي نار الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان، وإن كانت هذه المهمة أقل صخبا من الأولى فإنها صعبة مثلها وهي تتطلب في الغالب وقتا أطول"[22].

لهذا راهنت سلطات الحماية الفرنسية على الغزو الثقافي بقدر ما راهنت على الغزو العسكري، لا سيما وأن الغزو الثقافي لا يتطلب إمكانيات الغزو العسكري ومردوديته ونتائجه المرتبطة بالاستغلال الاستعماري تفوق ما يحققه الغزو العسكري، كما أنه يتميز بديمومته خصوصا وأنها كونت جيلا من المثقفين المغاربة ذوي الثقافة الفرنسية والذين يحمون المصالح الفرنسية ويدافعون عنها حتى بعد جلاء الاستعمار.

وبذلك تمكنت فرنسا باتباعها سياسات تعليمية ممنهجة من تحقيق السيطرة وتسريعها والحد من ممانعتها والتقليل منها في أقل الأحوال[23]، ليخلو لها المجال لتحقيق أقصى ما يمكن من الاستغلال الاستعماري للمغرب على جميع الميادين ومختلف المجالات.

4. أثر السياسة البربرية على الهوية المغربية

ظل الفرنسيون منذ احتلال الجزائر يبحثون عن الوسيلة التي تمكنهم من السيطرة على شمال إفريقيا، وكان يقف في طريقهم السكان الأصليين المتمسكين بإسلامهم ووحدتهم وعروبتهم، إلى أن أقدمت سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب في 16 ماي 1930م على إصدار الظهير البربري، وقد علق علال الفاسي على هذا الفعل بقوله: "والحقيقة أن هذه

السياسة هي آخر ما اهتدى إليه الفكر الفرنسي للقضاء على مقومات المغرب العربي وإدماجه في حظيرة العائلة الفرنسية"[24].

بدأت السياسة البربرية بظهير سبتمبر 1914م الذي أصدره المارشال ليوطي بدعوى احترام التقاليد البربرية، واستمرت هذه السياسة في مظاهر متعددة إلى أن تجلت فيما سمي بالظهير البربري الصادر في 16 ماي 1930م، ومع أن هذا الظهير غامض الدلالة إلا أنه جرد الحكومة الشريفة من سيادتها على القبائل البربرية وأحدث محاكم عرفية لم يشهدها المغرب في تاريخه[25].

وقد توخت الحماية الفرنسية من تطبيقها السياسة البربرية المس بالهوية المغربية، وذلك بهدف إحداث شقاق وفرقة في المجتمع المغربي عبر تنفيد سياسة "فرق تسد"، والتي عملت من خلالها على إبراز أوجه الاختلاف بين العنصر العربي والعنصر البربري المكونِيَن الرئيسيين للمجتمع المغربي، واختبار مدى استعداد العنصر البربري للاندماج في المجتمع الفرنسي.

وفي هذا الصدد يقول "ليوطي" المقيم العام الفرنسي بالمغرب: "لقد عملت في حدود حمايتنا بالمغرب على تنويع الصيغ والأساليب لتتلاءم مع كل الأوضاع بهذا البلد متعدد العناصر، إنني لا أجهل أن مصلحتنا في المجال الديني كما في المجال السياسي تكمن في أن نفرق أكثر من أن نوحد"[26]. هكذا عمل نظام الحماية على فصل الهويات ضمن حدود السيطرة الفرنسية، وإن كان بقاء الحكومة المغربية والمخزن في مكانه يوحي بوجود ازدواجية منظمة في الادارة والعدالة؛ المسلمون مقابل الأوروبيين والقانون الاسلامي مقابل القانون الفرنسي[27].

ويرى المنظرون الاستعماريون أن البربر بصفة خاصة لم يعرفوا من الاسلام سوى الاسم، فنجد منهم بقايا الوثنية والمسيحية ولذلك فهم أبعد ما يكون عن الاسلام وأقرب إلى المسيحية، ومن تم فمن السهل تنصيرهم وإلحاقهم دفعة واحدة بالمجتمع الفرنسي، سيما وأنهم يشكلون كتلة محافظة لها تقاليدها وأعرافها وأنماط تفكيرها وعيشها، فهاته الفكرة سياسة

عنصرية ودينية لأنها تجاوزت الاحتلال العسكري والاداري والاقتصادي إلى تمزيق وحدة البلاد، ظنا منهم أنها السبيل الأقرب لإخضاع مناطق المقاومة بالمغرب[28].

راهنت فرنسا من خلال سياستها البربرية على الفصل بين البربر وبين كل ما جاء به العرب من لغة وقضاء وثقافة، ليُمس البربر في وجدانهم الخاص ويبحثوا عن الروحانية المسيحية القديمة، وليس بعيدا أن يتمسحوا ويندمجوا في فرنسا التي تحررهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية[29].

لكن اتحاد كل القوى الوطنية في صف واحد نسف مخططات السياسة البربرية التي تستهدف الامتداد العربي الاسلامي للمغرب، وهكذا استغلت الحركة الوطنية السياسية صدور الظهير البربري لتحقيق هدفين أوليين:

- مزيد من التوعية الشعبية في المدن والقرى
- مواجهة الاستعمار وكشف مساسه بالدين الاسلامي ضدا على بنود الحماية التي تؤكد احترام الاسلام وتقاليده[30].

اندلعت في مختلف أرجاء البلاد مظاهرات شعبية واسعة منددة بهذا المخطط الفرنسي البغيض، الذي يستهدف في عمقه ضرب الوحدة الوطنية للمغرب والنيل من مقوماته العقدية والحضارية، وقد تجاوز صدى الظهير البربري وقمع السلطات الفرنسية للمتظاهرين المغرب إلى بعض دول العالم الاسلامي وأوروبا، ففي مصر قام الحسن بوعياد بدور فعال في تحريك الرأي العام ضد السياسة الفرنسية[31].

كما عمل شكيب أرسلان على مقاومة الظهير البربري بإرسال رسائل شخصية إلى الشخصيات المؤثرة في الأوساط العربية والفرنسية، والتنسيق مع رجال الحركة الوطنية واختيار أفضل وأنجع السبل للمقاومة، وقد اعتبرت جريدة "الطان" الفرنسية الصادرة بتاريخ 4 نونبر 1930م شكيب أرسلان المسؤول عن تحريك الطلبة المغاربة بباريس، وهؤلاء هم الذين حركوا الشعب المغربي وكذلك مصر والعالم الاسلامي، فكل تلك الحركات بين الشرق والغرب هي من الأمير شكيب أرسلان[32].

وإذا كانت السلطات الفرنسية قد فشلت في المواجهة الشعبية التي تقودها الحركة الوطنية فإن توجهها كان نحو التعليم باعتباره مجالا خصبا لزرع بذور الثقافة الفرنسية، وكان التركيز هذه المرة على اللغة باعتبارها الركن الأساسي في الهوية المغربية، وذلك من خلال محاربة اللغة العربية في المدارس وتعويضها باللغة الفرنسية[33].

وهكذا قررت فرنسا إنشاء مدارس فرنسية بربرية لتمزيق الهوية المغربية، وتكوين جيل تابع لها هجين الثقافة مفتقد للهوية ومستعد للتضحية من أجلها عند أول نداء، فهي تدرك بأن ترك المغاربة كتلة واحدة ملتحمة تجمعها اللغة والدين الواحد يشكل خطرا عليها، لذلك بادرت إلى تطبيق سياسة "فرق تسد" لصالحها، وفي هذا الإطار يؤكد "جود فروي دمونبيين" بأن "وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي، ويمكننا أن نستعمله ضد المخزن نفسه"[34].

وقد أفصحت فرنسا بوضوح عن هذا الهدف بإنشاء مدارس بربرية لتلقين أبناء البربر اللغة الفرنسية واللغة البربرية فقط، يسيطر عليها اتجاه مهني فلاحي، واشتمل البرنامج الدراسي في هذه المدارس على دراسة تطبيقية للغة الفرنسية تواصلا وكتابة، وكذا الحساب والتاريخ والجغرافيا، فكانت هذه المدارس إذن كما خطط لها بول مارتي "مدارس فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ، وليس هناك أي مجال لوسيط أجنبي، إن أي شكل من أشكال تعليم العربية أو أي تدخل من جانب الفقيه أو أي مظهر من المظاهر الاسلامية لن يجد مكانه في هذه المدارس بل سيُقصى منها جميع ما ذكر بصرامة"[35].

بذلت فرنسا قصارى جهدها لفصل البربر عما تراه هوية دخيلة عليهم، بل حتى سلخهم عن هويتهم الأم الأمازيغية وهويتهم الإسلامية، التي تعد حسب ليوطي عقبة في طريق فرض اللغة الفرنسية على الأمازيغ؛ فكونهم مسلمين يعني ارتباطهم بالقرآن، وارتباطهم بالقرآن يعني ارتباطهم باللغة العربية تعليما وتعلما وممارسة لغوية، وبالتالي فالعربية عنصر أسلمة لكونها تلقن في القرآن وهو ما يتعارض مع مصلحة فرنسا، فكانت السياسة البربرية انطلاقا من

الظهائر والمراسيم مرورا بالتعليم البربري محاولة فرنسية لتمزيق الهوية والوحدة المغربية ودمج العنصر البربري في المجتمع الفرنسي.

5. خاتمة:

رغبت سلطات الحماية الفرنسية من خلال محاولتها الاختراق اللغوي للمغرب في تشكيل هوية جديدة، تعتمد على الثقافة واللغة الفرنسية بعد القضاء على اللغة العربية والدين الاسلامي، وإحداث شرخ في الجسد المغربي عبر الفصل بين مكوناته المجتمعية من خلال إصدار الظهير البربري وكذا تكريس نشر اللغة الفرنسية عبر التعليم.

ولما كان منطلق الاستعمار الثقافي مرتبط باللغة الفرنسية باعتبار اللغة هي صانعة الهوية والشخصية الانسانية، فقد تم خوض معركة شرسة ضد كل معالم التواجد اللغوي العربي لأنه سيشكل عائقا أساسيا أمام الهيمنة الثقافية واللغوية الاستعمارية.

استطاعت فرنسا عبر اتباعها لسياسة تعليمية ممنهجة من تحقيق السيطرة على المغرب وتسريعها، وكذا الحد من الممانعة والمقاومة أو التقليل منها في أقل الأحوال، ليخلو لها المجال بغية تحقيق أقصى ما يمكن من الاستغلال الاستعماري على جميع الميادين ومختلف المجالات.

6. قائمة المراجع:

- محمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994).
- عبد النبي باقدير، شكيب أرسلان ودوره في تحرير المغرب العربي (ليبيا–الجزائر– المغرب الأقصى)، (تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، 2018م).
- قاسم الزهيري، إسهامات مصر في كفاح المغرب، ضمن ندوة "العلاقات التاريخية المصرية المغربية رصيد وآفاق"، (سلا: دار الثقافة للطبع والنشر، 1988).
- عبد الاله بلقزيز، الفرنكفونية إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي_لغوي، حلقة نقاشية نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011).

- عبد الكريم غلاب، قراءات جديدة في تاريخ المغرب العربي، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 2005م).
- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، (الدار البيضاء: مؤسسة علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، 1993م).
- محمد عمراني، جامعة القرويين والحماية 1912_1934، (الرباط: منشورات الرباط نت، 2016).
- ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي،
http://www.arabtimes.com/portal/article_display.cfm?Action=&Preview=No&ArticleID=22718-, 2020_11_13
- خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب،
http://islamport.com/w/amm/Web/135/4312.htm, 2020_12_12
- حاتم بن محمد الكوراجي، التعليم في المغرب في عهد "الحماية" الفرنسية بين الفرنسة وسلخ الهوية،
https://www.alukah.net/social/0/112376/, 7/2/2017.
- بشرى زكاغ، تدبير الشأن الثقافي في المغرب خلال مرحلة الاستعمار، يوليوز 2016، عمران للعلوم الاجتماعية.
https://omran.dohainstitute.org/ar/issue017/Pages/art02.aspx, 2020_11_10 .
- محمد اليزيدي، النخبة المغربية والتعليم الأوروبي زمن الحماية،
https://www.aljabriabed.net/n77_09yazidi.(2).htm
18 _ 01 _2021.

- CAROLINE, VABRET, POUR UNE ETHIQUE DE LA FRANCOPHONIE, https ://etlettres.com/CAROLINE_VABRET_POUR_UNE_éthique_de_la-francophonie, 8 juillet 2019.

- FRANCIS, MANZANO, Sur l'implantation du français au Maghreb: Systémique et fractures identitaires au tournant des XIXème et XXème siècles, https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-00357266/, 29 jan 2009.

- FOUZIA, BENZAKOUR, Langue française et langues locales en terre marocaine : rapports de force et reconstructions identitaires, https://www.cairn.info/revue-herodote-2007-3-page-45.htm, 1_9_ 2007.

- G .JACQUETON, La colonisation francaise au Maroc, https://www.persee.fr/doc/geo_0003-4010_1924_num_33_183_9685, 11_11_2020.

- (wikipedia l'encyclopédie libre), Langue française au Maroc, https://fr.wikipedia,org/wiki/langue_française_au_Maroc, 14_11_2020.

_ FOUZIA, BENZAKOUR, Le français au Maroc. De la blessure identitaire à la langue du multiple et de la «copropriation», dorif Universita, https://www.dorif.it/ezine/ezine_articles.php?art_id=47, 6_11_2020.

_ LUCETTE, HELLER GOLDENBERG, La littérature francophone au Maroc. L'acculturation, persee, https://www.persee.fr/doc/camed_03959317_1989_num_38_1_1770camed_0395_9317_19898_num_ 38_1_1770, 8_11_2020.

7. هوامش:

[1]_ FRANCIS, MANZANO,(2009), Sur l'implantation du françaisau Maghreb: Systémique et fractures identitaires au tournant des XIXème et XXème siècles, hal.archives-ouverte. fr, https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-00357266/, 12_11_2020.

[2] -Ibid.

[3]. ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي، Arab Times Blogs, http://www.arabtimes.com/portal/article_display.cfm?Action=&Preview=No&ArticleID=22718-,_11_13_2020

[4]_FOUZIA, BENZAKOUR, Langue française et langues locales en terre marocaine : rapports de force et reconstructions identitaires, 1_9_ 2007,cairn.info, 8_11_2020. https://www.cairn.info/revue-herodote-2007-3-page-45.htm

[5]- عبد الاله بلقزيز، الفرنكفونية إيديولوجيا، سياسات، تحد ثقافي_لغوي، ماي 2011، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (د. ت)، ص 19.

[6]- ادريس جنداري، الفرنكفونية إيديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي، م س.

[7] -CAROLINE,VABRET, POUR UNE ETHIQUE DE LA FRANCOPHONIE, 8 juillet 2019, EN TOUTES LETTRES, 10-11-2020.

https ://etlettres.com/CAROLINE_VABRET_POUR_UNE_éthique_de_la-francophonie.

[8]- FRANCIS, MANZANO, Op Cit.

[9]- ادريس جنداري، م س.

[10]. عبد الاله بلقزيز، م س، ص 20.

[11]- ادريس جنداري، م س.

[12] -FOUZIA, BENZAKOUR, Le français au Maroc. De la blessure identitaire à la langue du multiple et de la «copropriation», dorif Universita, 6_11_2020.

https://www.dorif.it/ezine/ezine_articles.php?art_id=47

[13]- محمد اليزيدي، النخبة المغربية والتعليم الأوروبي زمن الحماية،

https://www.aljabriabed.net/n77_09yazidi.(2).htm

[14] -FOUZIA, BENZAKOUR , Op cit.

[15]- بشرى زكاغ، تدبير الشأن الثقافي في المغرب خلال مرحلة الاستعمار، يوليوز 2016، عمران للعلوم الاجتماعية، 10_11_2020.

https://omran.dohainstitute.org/ar/issue017/Pages/art02.aspx

[16]- حاتم بن محمد الكوراجي، التعليم في المغرب في عهد "الحماية" الفرنسية بين الفرنسة وسلخ الهوية، 7/2/2017، الألوكة الاجتماعية، 2020/10/28.

https://www.alukah.net/social/0/112376/

17. حاتم بن محمد الكوراجي، نفسه.

[18]. خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب الكتاب، الموسوعة الشاملة

www.islamport.com، 2020_12_12.
http://islamport.com/w/amm/Web/135/4312.htm

[19]. حاتم بن محمد الكوراجي، م س.

[20] . LUCETTE, HELLER GOLDENBERG, La littérature francophone au Maroc. L'acculturation, persee, 8_11_2020.
https://www.persee.fr/doc/camed_0395-9317_1989_num_38_1_1770camed_0395_9317_19898_num_ 38_1_1770

[21] FRANCIS, MANZANO, Op Cit.

[22]. ادريس جنداري، م س.

[23]. حاتم بن محمد الكوراجي، م س.

[24] علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 162.

[25]- نفسه، ص 164.

[26]- محمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1994، ص 194.

[27] -MANZANO, FRANCIS, Op Cit.

[28]- غلاب عبد الكريم، قراءات جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2005م، ص 338.

[29]- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 162.

[30]- عبد الكريم غلاب، م س، صص 338 339.

[31]- قاسم الزهيري، إسهامات مصر في كفاح المغرب، ضمن "العلاقات التاريخية المصرية المغربية رصيد وآفاق"، دار الثقافة للطبع والنشر، سلا، يوليوز 1988م، ص 182.

[32]- عبد النبي باقدير، شكيب أرسلان ودوره في تحرير المغرب العربي (ليبيا-الجزائر- المغرب الأقصى)، جامعة أبو بكر بلقايد كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، تلمسان، 2018م.

[33]- خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، م س.

[34]- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م س، ص 163.

[35]- خالد الصمدي، جوانب من تأثير الفرنكوفونية في نظام التربية والتعليم بالمغرب، م س.

أضواء جديدة على نشاط رابح بوكابوية في معسكر الهلال الألماني خلال الحرب العالمية الأولى.

New highlights of Rabeh Bocaboya's activity in the German camp Al Hilal during first world war

د. مولود قرين(*)

جامعة الدكتور يحي فارس المدية

mouloudgrine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/ 11 **تاريخ القبول:** 2021/03/28 **تاريخ النشر:** **2021/05/05**

ملخص:

تتناول الدراسة النشاط الدّعائي لرابح بوكابوية (الحاج عبد الله) الملازم الجزائري الذي تمكّن من الفرار من الجيش الفرنسي سنة 1915م ليلتحق بمعسكر الهلال الألماني في برلين (المعسكر الخاص بالأسرى المسلمين)، حيث أضطلع بدور دعائي كبير لصالح ألمانيا والدولة العثمانية، وذلك من خلال الخطب والمحاضرات التي كان يلقيها أمام الأسرى المسلمين، أو من خلال المنشورات التي كان يوزعها أو الكتيبات التي كان يؤلفها. لذلك ستحاول هذه الدراسة رصد نشاط بوكابوية وأفكاره الدعائية من خلال وثائق جديدة من الأرشيف الألماني.

الكلمات الدالة: رابح بوكابوية (الحاج عبد الله)، المجندون الجزائريون، الدعاية الألمانية العثمانية، الأسرى المسلمون، معسكر الهلال الألماني.

Abstract:

The study deals with the propaganda activity of Rabeh Boukabouia (Hajj Abdallah), the Algerian lieutenant, who managed to escape from the French army in 1915 AD to join the German Crescent camp in Berlin (the camp for Muslim prisoners), where he played a major propaganda role for Germany and the Ottoman state, through speeches and lectures Which he used to deliver in front of the Muslim prisoners, or through leaflets that he used to distribute or pamphlets that he was composing. Therefore, this study will attempt to capture Bukabuya's

(*) **المؤلف المرسل: مولود قرين: mouloudgrine@gmail.com**

activity and propaganda ideas through new documents from the German Archives.
Keywords: Rabeh Boukabouia (Haji Abdallah); Algerian recruits; German-Ottoman propaganda; Muslim captives; German Hilal camp.

1. مقدمة:

يبدو أن موضوع الدعاية الألمانية– العثمانية في الجزائر خلال الحرب العالمية الأولى (1914م- 1918م) لم يحض باهتمام الباحثين والمؤرخين الجزائريين، إذ تناولته بعض الدراسات عرضاً فقط، لذلك قد آن الأوان لطرق هذه المواضيع، ونفض الغبار عن الشخصيات الجزائرية الفاعلة في الدعاية. خاصة وأن الشخصيات المغاربية والعربية (الوطنيون العرب والمعاربة)[1]، قد حضيوا بدراسات وافية سواء في الجزائر أو خارجها، لتبقى نشاطات الوطنيين الجزائريين تنتظر من يخرج أعمالها إلى النور، وهذا ما يتطلب جهدا مضنياً، لا سيما وأن أعمالها وما تركته من أثار منتشرة في مختلف دور الأرشيف العالمية، خاصة في دور الأرشيف التركية والألمانية والسويسرية، لأن نشاطهم تمحور أساسا في فترة الحرب الأولى في كل من إسطنبول، وتركيا، وجنيف.

ولعل من أشهر روّاد الدعاية الألمانية العثمانية في الجزائر، الضابط والمثقف بالثقافة المزدوجة رابح بوكابوية (الحاج عبد الله)[2]، الجند في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، الذي ساءته ظروف المجندين المسلمين في الجيش الفرنسي في جبهات القتال، ونظرة الازدراء التي كانوا يُقَابلون بها من طرف القادة الفرنسيين، لذلك فرّ في أفريل 1915م ليلتحق بالمعسكر الألماني، أين سيظلع بدور محوري هام تمثل أساساً في الترويج للدعاية الألمانية العثمانية في مختلف معسكرات الأسر الخاصة بالمسلمين، فما هي ملابسات وظروف فرار بوكابوية؟ وفيما تمثلّ دوره في معسكرات الأسر الألماني؟ ماهي الأفكار التي تضمنتها منشوراته وكتاباته؟، وما موقف الإدارة الاستعمارية من نشاطه وماهي الإجراءات التي اتخذتها لمنع تسرب أفكاره؟.

قبل الإجابة على إشكالية الدراسة، يجب أن نقدم تعريفاً مقتضباً لشخصية رابح بوكابوية، ونقدم لمحة مختصرة حول الدعاية الألمانية العثمانية، وسنركز على وجه الخصوص الدعاية بين صفوف المجندين المسلمين في جبهات القتال، وكذلك الدعاية بين الأسرى المسلمين في معسكرات الأسر الألماني، لننتقل فيما بعد لنشاط بوكابوية والأفكار التي تضمنتها منشوراته وكتيباته.

2. رابح بوكابوية تعريف مقتضب:

ينحدر "بوكابوية" من أسرة بورجوازية من الشرق الجزائري، ولد بميلة سنة 1871م، تخرج من "مدرسة المعلمين" في بوزريعة[3]، ثم وظّف كمعلّم، واشتغل في كلّ من مدينة (Saint -Aurnaud) "العلمة" بسطيف حاليا، ثم بمدينة "عين البيضاء" في ولاية أم البواقي، ثم في مدرسة بحي "الحامة" بمدينة الجزائر، ثم انتقل إلى مدينة الحروش بولاية سكيكدة، وذلك منذ سبتمبر 1890م إلى جانفي 1893م تاريخ استقالته، احتجاً على الرفض الذي قوبل به في مطلبه للحصول على عطلة لمدة ثلاثة أشهر[4].

ومما لا شك فيه أن مدرسة المعلمين ببوزريعة ذات النظام التربوي الصارم، والموجه في ذات الوقت، قد جعلت من رابح بوكابوية يكتشف الحضارة الغربية، ومبادئ الثورة الفرنسية، ويتعرف عن فلاسفة التنوير الفرنسين، ويتمكن من اللغة الفرنسية جيدا[5]، وهذا ما نلمسه في مختلف كتاباته باللغة الفرنسية التي كان متمكن فيها جدا. ولكن الرّاجح أنه لم يتأثر بها وببرامجها، كما تأثر زملاؤه المعلمين المغالين في مطالبهم الاندماجية، أمثال: "رابح زناتي"، و"سعيد فاسي"، و"عمر بن سعيد بوليفة"، و"العربي فخّار"[6] وغيرهم. وربما يعود ذلك إلى البيئة التي نشأ فيها، وإلى بيئة المناطق التي اشتغل فيها كمعلّم، إذ اسقر في قسنطينة منذ سنة 1910م[7]. فقسنطينة في مطلع القرن 20م شهدت حراكا ثقافيا كبيرا، بفضل نشاط النخب والمثقفين القسنطنيين خاصة في "نادي صالح" باي الذي أسس سنة 1907م[8].

إلى جانب أنه كان في احتكاك مع بعض الشبان الجزائريين أمثال الدكتور موسى بن شنّوف، والمحامي المختار حاج السّعيد[9] وغيرهم من المثقفين الجزائريين الذين حملوا على

عاتقهم الدفاع عن قضايا ومصالح المسلمين الجزائريين، وكانوا يسعون إلى النهوض به في كلّ المجالات، وهذا جعله يدرك المطالب الحقيقية للمسلمين الجزائريين، ويعايش واقعهم البائس في كل المجالات، وهذا ما عبّر عنه في مختلف كتاباته ومنشوراته التي سنحللها فيما بعد.

وبعدها انخرط في صفوف الجيش الفرنسي وتقلّد رتبة ملازم ولا ندري هل تم تجنيده عنوة في إطار التجنيد الإجباري، أم تجند طواعية. شارك في الحرب إلى جانب المجندين الجزائريين في الفرقة السابعة (التيرايور)، غير أنه فرّ من الجيش الفرنسي في 14أفريل 1915م، وذلك بسبب سياسة التهميش والتّمييز، وحرمانه من رتبة "نقيب" بعد مقتل قائد فصيلته، حيث استبدل بمعمر من الجزائر خريج مدرسة "مليانة العسكرية"، إضافة إلى ذلك فقد كان متذمراً من المراقبة المستمرة، فكانت فرنسا تخضع الفرق الجزائرية خاصة فيالق الخيالة والتيرايور إلى رقابة شديدة[10].

تذهب الكثير من الدراسات إلى أن "بوكابوية" فرّ رفقة عشرات من المجندين المسلمين في الفرقة السابعة للترايور، غير أن الرسالة التي وجهها الحاكم العام في الجزائر إلى المقيم العام في تونس بتاريخ 12 فيفري 1916م، والتي جاء فيها: "أن شهر أفريل شهد بالفعل فرار العديد من المجندين، وكان ذلك على النحو التالي: يوم 12 أفريل فرّ أحد التيرايور التابع للوحدة الأولى من الفوج السابع للتيرايور الجزائري، وهي نفس الوحدة التي فرّ منها يوم 14 أفريل الملازم "رابح بوكابوية" بمعية رقيب واحد من نفس الوحدة، ثم تتالت حالات الفرار أيام 17 و18 و21 و 22 و 25 أفريل حتى بلغ عدد الفارين 7 لكنهم من وحدات مختلفة تابعة للفوج الثالث وليس للفوج السابع الذي كان ينتمي إليه بوكابوية[11].

ويذكر المؤرخ الفرنسي جلبرت ميني استنادا إلى أرشيف الجيش الفرنسي أن عدد الفارين من الجيش مع بوكابوية لا يتعدى العشرة، أغلبهم ينحدرون من قسنطينة، وقد حكم عليه ومن فرّ معه بالإعدام غيابيا[12].

3. ظروف فرار بوكابوية والتحاقه بمعسكر الهلال الألماني:

إن الحديث عن ظروف فرار بوكابوية من الجيش الفرنسي يقودنا حتماً إلى موضوعين رئيسين وهما: ظروف المجندين الجزائريين في جبهات الحرب، والدعاية الألمانية- العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى.

أما بالنسبة لظروف المجندين الجزائريين الذين بلغ عددهم حوالي 17300 ألف مجند فكانت في بداية الحرب مزرية للغاية، خاصة الظروف الصحية، فانتشرت بينهم الأمراض المختلفة خاصة المعدية منها، نتيجة البرد الشديد والرطوبة العالية من جهة، وسوء التغذية وانعدام شروط النظافة من جهة أخرى، وهذا ما توضحه تقارير الأطباء المجندين، التي تشير بقلق إلى الانتشار الواسع "لحالات التهاب القصبات الهوائية، والالتهابات الرئوية، والسل، وغيرها من الحالات التي انتشرت بين المجندين الأهالي بشكل كبير[13].

إضافة إلى العنصرية وسوء المعاملة، وعدم احترام لمشاعر المسلمين، وهذا ما توضحه رسالة أحد المجندين لأهله في الجزائر، التي يظهر فيها تضمره من عدم قدرته على تحديد القبلة للصلاة إلا في وقت الفجر، وعدم قدرته على الوضوء، كذلك بين أنّهم لا يعلمون مصدر اللحوم التي تأتيهم إلى الجبهات والخنادق إن كانت حلالاً أم حراماً"[14].

أما بالنسبة للدعاية الألمانية- العثمانية، فقد كانت على أشدها خاصة على جبهات القتال، إذ لم تقتصر فتوى الجهاد (الفتوى الشريفة) التي أصدرها شيخ الإسلام "خيري بن عون الأركوبي"في 14 نوفمبر 1914م على الشعوب الإسلامية فقط، بل شملت كذلك المجندين في جيوش العدو، واعتبرت أن من يوالي الكفّار فهو في ضلال مبين، وأن من يموت وهو يقاتل المسلمين فسيكون مصيره الخلود في جهنّم[15].

تلى فتوى الجهاد "بيان" حرّره شيخ الإسلام رفقة أعضاء المجلس الديني الأعلى في دار الفتوى، ومما تضّمنه البيان أن الأعداء جندّوا رعياهم المسلمين واستعملوهم ضد خليفة المسلمين، ووضعوهم في الخطوط الأمامية لجبهات القتال، لذلك فمن الواجب عليهم وضع حد لتلك الأعمال الشنيعة، ومن يسارع منهم إلى المشاركة في الجهاد والتضحية بكل غالي

ونفيس من أجل إعلاء الشريعة سيكون من يقتل منهم في عداد الشهداء، وسيكون الخلود في الجنة جزاؤه[16].

إضافة إلى فتوى الجهاد وبيان العلماء، فقدت حرّرت أثناء الحرب الكثير من المنشورات سواء في تركيا أو ألمانيا، تدعوا المسلمين الجزائريين إلى عدم الامتثال للتجنيد الإجباري، وضرورة الفرار من جبهات القتال والالتحاق بألمانيا والدولة العثمانية. لقد عثرنا على رصيد ضخم من هذه المنشورات في كل من أرشيف "آكس أون بروفانس" بفرنسا (A.N.O.M) أو في أرشيف "مركز الدراسات الشرقية ببرلين" (Z.M.O.B)، سنكتفي بسياقة مثالين، عن هذه المنشورات:

المنشور الأول كان بمثابة نداء لمسلمي الجزائر وتونس ومراكش يدعوهم إلى عدم الامتثال لأوامر التجنيد سواء التجنيد الإجباري، أو الاختياري، وذلك "أن هذا العسكر سيقدمه عدو الله وعدوكم وعدو وطنكم الفرانسيس إلى نيران الألمان التي لا تحصى ولا تطاق، ويريقون دمهم في الصفوف الأولى ويحافظون على ولاء الفرنسيين ...يقدمون المسلمين إلى الصف الأول، ويلزمونهم بالثبات حتى يفنوا كلّهم المساكين إلا القليل"[17]. ويؤكد المنشور بأن ولاء المسلم للكافر لا يجوز شرعاً، خاصة إذا ولاه في محاربة أخيه المسلم، فجاء فيه: "...يا إخواننا إن هؤلاء العسكر المسلمين سيحاربون بهم إخوانكم المسلمين وإخوانكم الألمان المحالفين للمسلمين والمتحدين معهم في الجهاد في سبيل الله، ولا شك يا مسلمين ستكونون في صف الكفر وصف الشيطان ضد صف الإيمان وصفّ الرحمن فالميت منكم قطعاً مؤبد في النار، والحي منكم ملعون على ألسنة الإسلام إلى الأبد ..."[18].

أما المنشور الثاني فمكتوب باللغة العربية الدارجة موجه إلى المجندين المسلمين المجندين في الجبهات والخنادق، تحت عنوان: "والآن خمّوا شوية على حالتكم في الوقت الحاضر وفي المستقبل"، ومما جاء فيه: " راكم اليوم مطيشين في البرد والعذاب قاعدين في الحفر والترونشيات في مضرة شديدة والقرايدية متاعكم يضربوكم ويعذبوكم مثل الحمير ...وأنتم عرب ما تحبوش الذّل، راكم مساكين غايضنا حالكم، واش قدامكم غدوة ... راكم تلقاو

قدّامكم جهنم خالدون وأنتم تقاتلوا ضد الألمان اللي هما أحباب العرب وتقاتلوا في سبيل اليهود والفرانسيس اللي هما أعداءكم، وما كمش تقاتلوا في سبيل الله وفي سبيل بلادكم وتموتوا موت الخائنين الذين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب أليم"[19].

كانت أغلب هذه المنشورات تطلق من الطائرات الألمانية في الجبهات التي يتواجد فيها المجنّدون المسلمون، واستهدفت الدعاية بوجه خاص الخنادق أين يتواجد المسلمون بكثرة موظفة في ذلك الوازع الديني لإقناعهم بالفرار والانضمام للجهاد الذي تقوده الدولة العثمانية وألمانيا[20].

وكثيراً ما كان يخرج الجنود الألمان من خنادقهم رافعين رايات بيضاء وهم ينادون باسم الرسول صلى الله عليه وسلم، كما كانوا يحملون صوراً للسلطان العثماني بين الصفوف الأمر الذي كان يؤدي في بعض الأحيان إلى التململ أوساط المجندين المسلمين وفرارهم من الجيش الفرنسي[21].

4. نشاطه الدعائي في معسكر الهلال الألماني:

4. 1 . معسكر الهلال:

حاولت ألمانيا في إطار نشاطها الدعائي أن تستغل أسرى الحرب لصالح مشروعها، إذ أنشأت لهم مراكز أسر خاصة، وجهزتها بتجهيزات خاصة، ومن بين أهم معسكراتها معسكر الهلال (Halbmondager) الذي أنشأته في برلين في أوت 1915م. ويبدو أن اختيار اسم "الهلال" لم يكن اعتباطيا، نظرا لما تمثله رمزية الهلال في وجدان المسلمين.

لقد وصل عدد الأسرى فيه إلى 3046 أسير، معظمهم من الجزائر وتونس، وفي إطار المعاملة الخاصة التي عنو بها، بُنِيَ لهم حمّام على الطّراز الشّرقي، ومساكنٌ من خشب، وكانوا يخضعون دورياً لفحوصات طبية، وأمدّوهم بثلاثة ألاف مصحف ليتمكّنوا من تلاوة القرآن، وراعوا أكلهم الحلال، وبلغت العناية بهم إلى درجة أن بنوا لهم مسجداً للصلاة أقيمت فيه أول صلاة في أول رمضان 1334هـ (13جويلية 1915م) في حفل بهيج حضره نواب عن

الحكومتين الألمانية والعثمانية. وأنشأوا لهم جريدة أطلق عليها جريدة "الجهاد" باللغة العربية التي فتحت صفحاتها للأسرى حتى يكتبوا معاناتهم ضمن جيوش الأعداء[22]، وبذلك يصبحون أنفسهم يرجون لسياسة ألمانيا بين بني جلدتهم من المسلمين. وإلى جانب جريدة الجهاد أصدرت مجلة باللغة العربية "عالم الإسلام"، ومجلة "العدل"، ودورية "دار الإسلام" وجريدة "الواجب" (Le Devoire) باللغة الفرنسية، كانت موجهة على ما يبدو للمثقفين المسلمين الذين يقرأون إلا بالفرنسية، وكانت تروج بأن ألمانيا صديقة الإسلام والمسلمين عكس فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين[23].

وقد استعانت ألمانيا بمجموعة من المثقفين العرب والمغاربة لترويج دعايتها بين الأسرى وإقناعهم بضرورة الالتحاق بالجهاد الذي تقوده الدولة العثمانية المتحالفة مع ألمانيا، ومن بين الذين اعتمدت عليهم، "صالح الشريف التونسي"[24]، "الأمير علي بن الأمير عبد القادر"[25]، "شكيب أرسلان"[26]، "الخضر حسين"[27]، و"رابح بكابوية" وغيرهم.

4. 2 . نشاطه الدعائي وموقف فرنسا منه:

عندما فرر "بوكابوية" من الجيش الفرنسي والتحق بألمانيا وضع تحت الرقابة في معسكر الهلال، وبعد أن أصبح محلّ ثقة للألمان، التحق بالجيش الألماني واضطلع بعدة مهام في صفوفه، فكافأته القيادة العسكرية الألمانية برتبة عقيد في الجيش الألماني، وأصبح لا يقوم إلاّ بزيارات قليلة إلى معتقل زوسن، ليقوم بالدعاية في صفوف الأسرى المغاربة، ثم انتقل إلى العمل في "مكتب الشرق" ببرلين، ثم إلى تركيا التي مكث فيها إلى غاية نهاية الحرب[28].

إضافة إلى هذه المهام عمد "بوكابوية" إلى تحرير كتيبات دعائية باسم مستعار، حاولت ألمانيا ترويجها داخل المستعمرات الفرنسية قصد تأليب المسلمين ضد فرنسا، وتحريض الشبّان على عدم الانضمام إلى جيوشها مقابل دعم ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية.

وأهم ما كتبه كتيب "الإسلام في الجيش الفرنسي" (L'Islam dans l'armée Française)، نشره سنة 1915م بإسطنبول، وأعيد طبعه في لوزان بسويسرا سنة 1917م. بين فيه التضحيات الجسام التي قدّمها الجنود المغاربة عامة والجزائريون خاصة في

الحرب إلى جانب فرنسا، غير أنهم قوبلوا بنظرة الاستعلاء والاستخفاف، وظلوا يعانون من التمييز العنصري، والمعاملة غير اللائقة، عكس الألمان الذين وصفهم "بالأصدقاء وحماة الإسلام"، حيث وفّروا للأسرى كل سبل الراحة، وهيؤوا لهم معتقل "الهلال" وفق ما يتماشى مع عقيدة المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم، فبنيت لهم الحمّات على الطراز التركي، والمقاهي على النمط المغاربي، و "مسجداً رائعاً للأسرى المسلمين لأداء واجباتهم الدينية"[29].

والعدد الكبير للمجندين من المغاربة المسلمين في الجيش الفرنسي كانوا خاضعين لسيطرة غلاة الضباط الفرنسيين الذين يحملون غلا وكراهية للعرب والمسلمين، حيث حدثت أعمال شنيعة في جبهات القتال، فكان الجنود المسلمون "يجلدون، بلا رحمة، ويوصفون بأوصاف دنيئة، وكان القادة الفرنسيون لا يتوانون في رمي المسلمين بالرصاص، وهم يرددون: كلما مات أكثر، كلما كان هناك مكان أكبر للبلجيكيين في الجزائر"[30].

ثم ينتقل "بوكابوية" ليبين سياسة الإقصاء والتهميش التي تمارس ضد الضباط المسلمين، وفي معرض حديثه عن ذلك بين التسلسل الهرمي للجيش الفرنسي، من رتبة عريف، إلى رتبة لواء، ومن كل هذه الرتب أربعة فقط متاحة للجنود للمسلمين، فلا يمكن للضابط المسلم يتجاوز رتبة ملازم، كما أن قيادة هؤلاء الضباط قيادة شكلية فقط، "فصلاحيات المحاسبة أو الإدارة، أو القيادة الفعلية لا يمكن للمسلمين الوصول إليها"[31].

وحجة الفرنسيين في ذلك هي ضعف تكوين الإطارات المسلمة وعدم قدرتها على القيادة، لذلك يتساءل "بوكابوية" إن كان العجز بسبب نقص التعليم، ماذا فعلت فرنسا بالملايين التي تجنيها من الضرائب إن لم توجهها لتعليم الجماهير؟، "أليس عار على فرنسا، التي تدعي أنها اخترعت الحضارة والإنسانية، أن يكون لها ملازمون لا يعرفون القراءة والكتابة؟"[32]. ويوضح "بوكابوية" أنه منذ سبعين سنة في الجزائر لم تفتح الإدارة الاستعمارية مدارسها لأطفال الجزائر عدا أبناء العائلات الكبرى، والقياد المتعاونين معها.

وكان الجنود المسلمين حسب "بوكابوية" خاضعين لرقابة سرية صارمة وشديدة للغاية، كما أن القيادات الفرنسية تلقت أوامر سرية لقتل كل مجند أظهر "أدنى بادرة تساهل تجاه الأتراك أو الألمان"[33].

هذا ما جعل نفسية المجندين المسلمين منهارة، لأن المسلمين لم يتعودوا على إهانات المراقبة السرية، وسيأتي اليوم، حسب ما قاله "بوكابوية": "الذي سيكسرون فيه مظاهر العبودية المخزية التي فرضتها عليهم فرنسا"[34].

وينتقد نظام التجنيد الذي فرضته فرنسا على التونسيين والمغاربة، ويعتبره غير قانوني، ففي نظره، لا يجوز نقل المجندين التونسيين والمغاربة الخاضعين لنظام خاص (الحماية) إلى جبهات القتال خارج بلدانهم، ويتساءل: "بأي حق دفعت فرنسا بالفوجين التونسي والمغربي للقتال على الحدود الفرنسية الألمانية؟"، هذا ما دفع التونسيين والمغاربة إلى الفرار من الجيش الفرنسي، غير أن فرنسا ارتكبت ضدهم جرائم مخالفة للقانون الدولي، حيث أعدمت 27 تونسيا بدون محاكمة، وتمّ اعتقال باي تونس (محمد الناصر 1906- 1922م) ، بطرقة تعسفية، وضعت سلطان المغرب (السلطان مولاي يوسف 1912-1927م) في الإقامة الجبرية في الرّباط[35].

إضافة إلى الظروف المزرية التي كان يعيشها المجندون المغاربة كسوء التغذية، والأمراض المعدية، فإنهم كانوا يوضعون في الخط الأمامي لامتصاص الصدمة، وهذا ما يسمي ب (Les éléments de choke)، وهذا ما أدى في الكثير من الأحيان إلى القضاء على كتائب بأكملها[36].

يستمر "بوكابوية" في إبراز وضعية المجندين المسلمين المزرية، وينتقد بشدة ازدراء فرنسا للديانة الإسلامية، وعدم احترامها لمشاعر المسلمين، فلم توفر لهم أماكن العبادة، ولم تراع طقوس دفن موتى المسلمين، عكس الديانات الأخرى المسيحية واليهودية[37]. في حين ألمانيا المحبة للإسلام، فقد أمر إمبراطورها "وليام الثاني" بالاهتمام بأسرى الحرب، وبناء مسجد خاص بهم، ويقول مشيدا بالإمبراطور: "أن تأسيس هذا النصب هو علامة على الاهتمام

الذي يوليه جلالة الامبراطور للإسلام"، ويضيف " أتمنى أن يرحب المسلمون باللفتة المهيبة لإمبراطورنا بامتنان شديد"[38].

ويختم "بوكابوية" أن هدف كتابه هو الكشف عن سلسلة المظالم التي طالت المجندين المغاربة في الجيش الفرنسي، بسبب نزعة الكراهية لدى الفرنسيين، وازدرائهم الشديد بالإسلام. وأن ما دفعه للكتابة هو عدم وجود ممثلين منتخبين في شمال إفريقيا للدفاع عن مصالحهم ومصالح بني جلدتهم، هذا وقد جعلت الإدارة الاستعمارية المسلمين في وضعية بائسة، وفي أسفل السّلم الاجتماعي، مما جعلهم محل ظلم من طرف المستعمر. وينتقد كذلك "بوكابوية" الدعاية الفرنسية خاصة في الصحافة التي "اخترعت حسب قوله الخطر الوهمي: "للقومية الإسلامية (الجامعة الإسلامية)، وانتقدت الوجود الخيالي لحركة الشباب التركي، والشباب التونسي، وحتى الشباب المغربي، وقللت من شأن دين المسلمين وعاداتهم"[39].

وإلى جانب تأليف لهذا الكتيب كان يكتب المحاضرات وينشرها بين الأسرى أوفي الجرائد الدعائية، وهذا ما نلمسه في تقرير ألماني مؤرخ في 09 ديسمير 1915م يبين أن "بوكابوية" قد كتب مقالا بعنوان: "باريس لا يوجد فيها مسجد"، نشر بين أسرى معسكر الهلال، وأرسل كذلك للنشر في جريدة "العدل"[40].

والمقال عبارة عن ردّ على جريدة "صدى وهران" (Echo d'Oron) التي نشرت في 15 سبتمبر 1915م بأن فرنسا تفكر بجد في بناء مسجد للمسلمين في باريس، فيرد عليه "بوكابوية" أن فرنسا لا تحترم دينها، فكيف لها أن تحترم دين الإسلام أو تبني مسجدا للمسلمين، ويقول "بوكابوية" أن صاحب المقال ينطبق عليه المثل المشهور: "صلى وصام لأمر كان يقضيه، ولمّا قضي الأمر لا صلى ولا صام أي كان يخدع في البسطاء فقط"[41].

لذلك على المسلمين، في نظره، أن لا ينخدعوا بالوعود الكاذبة، وأن يفهم المسلم جيداً حالة العالم الإسلامي الخطيرة المهددة من طرف أعدائها، كما يجب عليه التفكير في كيفية التخلص من استبدادهم، لأن التي احتلت بها فرنسا وغيرها من الدول بلاد الإسلام

هي كاذبة، فادعوا أنهم احتلوا بلاد الإسلام لتمدينها ونشر العلم بين أهلها، ثم يتساءل أين ذلك من واقع المسلمين[42]. ويقول: "...فيخجل الإنسان لما يرى أن بين أهل الجزائر لا يوجد واحد في المائة يحسن القراءة والكتابة، وذلك بعد احتلال طال وقته أزيد من خمسة وثمانين عاماً، فأين المدنية والعلم التي ادعت فرنسا نشرها في بلاد الإسلام، وإنما ذلك كذب وبهتان لتغليط الرأي العام البشري ..." [43].

ويؤكد "بوكابوية" أن الفرق كبير بين فرنسا وألمانيا في تعاملهما مع المسلمين، فألمانيا يقول فمنذ أن علمت حاجة الأسرى المسلمين إلى مسجد يؤدون فيه فرائضهم الدينية "لم تأل جهدا في بناء مسجد تام الأركان محكم البناء ...والأسرى المسلمون اليوم في ألمانيا في غاية الراحة يعاملون معاملة الضيف الكريم، ويأدون واجباتهم الدينية كأنهم في أوطانهم عند أهليهم، جلبت الدولة الألمانية لهؤلاء المسلمين علماء راسخين وخطباء بارعين بوجبات التعليم الذي قال فيه السّيد الأعظم صاحب الرّسالة (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)" [44].

لقد أحدث كتابات بوكابوية ضجة كبيرة، ولم تبق فرنسا مكتوفة الأيدي حيال أفكاره الدّعائية ، فعملت جاهدة على تفنيدها، وذلك بالاستعانة برموز وشخصيات إسلامية من أئمة وعلماء رسميين ورجال الطرق الصوفية، ففي 27 أفريل 1914م أصدر وزير الحرب الفرنسي قرارا لاستقدام أئمة إلى فرنسا، لذلك قامت السلطات الفرنسية بتوجيه سبعة أئمة إلى الحكومة العسكرية بباريس والفيالق: الرابع، والخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر أين يوجد المسلمون المعالجون بالمستشفيات، وكان من بين الذين اختارهم الحاكم العام في الجزائر: "بومزراق الوانوغي المقراني"[45] ابن احد أبرز قيادي انتفاضة 1871م ومفتي الأصنام ومدّرسها، و"عبد الرحمن القطرانجي" الذي كان يشغل بمحكمة مدينة الجزائر. لقد استحسنت الصحف الفرنسية ذلك التعيين، واعتبرت أن الجلين عائلتين نبيلتين، وهما من خرجي المدرسة الفرنسية، وأنهم أوفياء لفرنسا[46].

وللإشارة فإن الشيخ "الوانوغي" تسلم إمامة مسجد "نوجون"[47] أو "مسجد البستان الاستعماري" في أفريل 1916م، واستغل منبره للدعاية بالنصر لفرنسا، ففي خطاب ألقاه سنة 1917م تناقلته أغلب الصحف الفرنسية، أكد فيه ولاء المسلمين الجزائريين لفرنسا، ووقوف جميعهم إلى صفها، الأغنياء بأموالهم، والفقراء بأسلحتهم[48].

كما استعملا الرجلين للرد على منشورات "بوكابوية" وألفا كتيبا يفندا فيه أقوله، وجاء الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان: (L'Islam dans L'Armée Française, Réplique des mensonges) ، وجاء باللغة العربية تحت عنوان: "القول الناصح في مجادلة الخائن الكاشح".

رغم جهودنا المضنية في الحصول على كتاب "القول الناصح" إلا أننا لم نتمكن من ذلك، فتحصلنا فقط من الأرشيف الألماني، إلا على واجهة الكتاب، النسخة الفرنسية، والنسخة العربية، وخاتمته فقط (انظر الملاحق)، إلا أن أفكارهما تظهر في الرد الذي تضمنه كتاب بوكابوية:(Les soldats musulmans au service de la France) الذي طبعه في لوزان بسويسرا سنة 1917م، وأهم ما جاء فيه ردّه على مزاعم الشيخان "الونوغي" و"القطرانجي"، فهما، حسبه، ادعيا زوراً بأن هناك شخصيات في العالم الإسلامي تقوم في برلين بدعاية مغرضة تستهدف فرنسا[49].

ويقول "بوكابوية" أنه جاء في كتابهما ص (42-43-44) ما يلي: "بادئ ذي بدء نود أن ندد بالإجراءات البغيضة التي يستخدمها الألمان اتجاه أشقائنا السجناء، بهد اجبارهم على الخدمة العسكرية في تركيا، والدعاية كان أول من قام بها، شخصيات مصرية وتركية وسورية، ومن بين هؤلاء الأمير علي بن الأمير عبد القادر، غير أن جهود هؤلاء ذهبت أدراج الرّياح، فحاولت ألمانيا إغرائهم بالأموال وبعد أن فشلت كذلك هددتهم بأعمال انتقامية"[50].

ويقولا كذلك حسب "بوكابوية" في وصفهما لحالة الأسرى المسلمين: " ...لقد تعرضوا لأقسى أنواع الأعمال، وأنهم محرومين من الطعام، ولم يكن الرجال وحدهم من يهدد الأسرى، فحتى النساء الألمانيات فعلن الشيء نفسه، أبلغنا أسير مصاب بجروح خطيرة أن

راهبة قالت له ذات يوم: عندما تلتئم ستذهب وتقاتل فرنسا في صفوف الأتراك، وبعد أن ردّ عليها بغضب، قالت له: حسنا ستذهب بالقوة مثل جميع إخوانك"[51].

ويرى "بوكابوية" أنه من الوجب الرّد عليهما، وتفنيد أكاذيبهما، ذلك أن الأسرى أصبحوا يشكلون مستعمرة كاملة من العرب في البلاد الواقعة وراء نهر الرّاين، فأقيمت لهم المخيمات في انسجام تام مع مراعاة الطابع العربي، والأسرى المتميزون أي شيوخ وعلماء الدين والقياديين والمسؤولين من جميع الرتب لا يزالون يرتادون شاراتهم المختلفة ويشغلون أماكن خاصة مع الموظفين، كما وفّرت لهم أماكن للراحة مثل المقاهي ذات الطّراز العربي، وغرف خاصة بالدراسة والقراءة، إضافة إلى تعليمهم اللغة الألمانية[52].

وقد نشر كذلك مقالاً في الجريدة السويسرية (La Gazette de Lausanne) سنة 1917م يرّد فيه على أحد قدماء الضباط الأجانب المجندين في الجيش الفرنسي، وهو السيد "شارل كارول" (Charles Carroll) الذي انتقد بوكابوية في جريدة "لوزان"، فوضّح بوكابوية أن كتاباته لا تستهدف الفرنسيين أو الجنود البسطاء وإنما انتقاداته كانت موجهة إلى إطارات الجيش الفرنسي وقياداته خاصة المتحكمة في القوات الأهلية[53].

5. خاتمة:

يمثل رابح بوكابوية عينة من الجزائريين المجندين قسرا في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، الذين ساءتهم ظروف المجندين المسلمين في جبهات القتال، وعبّروا عن استيائهم سواء بالفرار إلى ألمانيا أو الاستسلام لها، أو حتى بالرسائل التي كانوا يرسلونها إلى أهلهم ويصورن فيها حجم معاناتهم.

والدّارس لكتابات "بوكابوية" سيلاحظ مدى تمسك المجند المسلم بدينه وعقيدته، ففكرة عدم احترام الدين الإسلامي كانت المحور الرئيسي في أغلب كتابات بوكابوية. كما أن أفكاره تفند طروحات المستعمر خلال الحرب القائلة بأن الجزائريين وسكان المغرب العربي كانوا على ولاء تام ومطلق لفرنسا، وتبين كذلك النجاح الذي حققته الدعاية الألمانية-العثمانية ولو نسبياً بين الجزائريين عامة والمجندين في الجيش الفرنسي خاصة.

كما أن كتاباته لم تكن بالبسيطة فجعلت فرنسا تحاول تغيير سياستها اتجاه المجندين المسلمين، فبنت لهم مسجدا سنة 1916م، واستقدمت لهم أئمة وجندت بعضهم للرّد على بكابوية وتكذيب أرائه وتخوينه.

6. قائمة المراجع:

- الأرشيف:

- A. N. O. M, 9 H/ 5.
- Zentrum Moderner Orient, Berlin, No, 008-10-01.
- Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 118-02-06.
-Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 01-24-00.
- Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 02-4-1917.

- الجرائد:

- جريدة الجهاد، ع 07، برلين، 20 ماي 1915م.
- Le XIX Siècle, 3juillet 1915.

- المؤلفات:

- بن حبيلس شريف، الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر: عبد الله حمادي وآخرون، بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م.

- العجيلي التليلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918م، ط2، دار الجنوب للنشر، تونس، 2010.

- العجيلي التليلي، المعهد الإسلامي وجامع باريس، السياسة الإسلامية لفرنسا اللائكية 1920- 1939م، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرّسم، تونس، 2016م.

-نخبة من أفاضل الكتاب، تاريخ الذّكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرباض الجزائرية حياة طيّب الذّكر، وضع برعاية نجل الفقيد الأكبر الأمير محمد سعيد، مطبعة الترقي، دمشق 1918م.

- Lieutenant indigène Boukabouya (Hadj Abdallah), L'Islam dans l'armée française : (Guerre de 1914-1915), Constantinople, 1915.

-Lieutenant indigène Boukabouya (Hadj Abdallah), Les soldats musulmans au service de la France, Nouvelle de Lausanne, Lausanne, 1917.

- Bardin Pierre , Algériens et Tunisiens dans L'empire Ottoman de 1848-1914, éd : CNRS, Paris , 1979,pp.190-191.

- Etat-major des armées, Service historique, Les armées françaises dans la Grande guerre. T : IX. 9,1, France, 1930-1939.

- Gilbert Meynier , L' Algérie Rèvèlèe - La guerre 1914-1918 et Le premier quart du xx° siècle, Librairie Droz, Genève,1980.

- المقالات:

- بلحسن كريمة، "المتجنسون: مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، ع 30، مجلد أ، ديسمبر 2008، ص ص 127-143.

- نفيسة دويدة، "دور مدرسة بوزريعة ولمحة عن اهتمامات المعلمين المسلمين 1865-1939م، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع7، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، ديسمبر 2013م، ص 120.

- قرين مولود، "أضواء على مؤسسات التعليم الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19م: دراسة في الخلفيات والأهداف والنتائج"، في: مجموعة من الباحثين، المدارس التعليمية في الجزائر

خلال فترة الاحتلال الفرنسي (1830- 1962م)، تحرير وإشراف: عمراني بلخير، مركز البحث في العلوم إسلامية والحضارة، الأغواط، 2019م، ص ص 88-89.

- حنفي هلايلي، " الجزائريون الفارون من الجيش الفرنسي واتصالهم بألمانيا واتصالاتهم بألمانيا والدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى في ضوء انطباعات الملازم بوكابوية 1915-1917م، مجلة الحوار المتوسطي، ع1، مج 10، مارس 2019، ص 71.

- كعوان فارس، "مفتي الشلف الوانوغي بومزراق المقراني 1867- 1948: سيرته ومواقفه من خلال مراسلاته والمصادر المعاصرة له"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم إنسانية، المجلد 33، ع 03، قسنطينة، الجزائر، ديسمبر 2019م، ص 576.

- يحياوي علاء الدين، " الأسرى المسلمون في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى ذلك التاريخ المجهول"، في: مئة عام على الحرب العالمية الأولى، المجلد الثاني، مجتمعات البلدان العربية: الأحول والتحولّات، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، 2018م، ص ص 183- 184.

-Gilbert Meynier, « Le problème du loyalisme des Algériens dans L'armée Française (1914-1918), in : Bulletin de la Société d'histoire moderne, N°10, France, 1980, p.04.

- المداخلات:

- Gilbert Meynier, « Les Algériens dans L'Armée Française 1914-1918 », In : Workshops : Afrikaner und Asiaten in Europäischen Kriegen, Zentrum Moderner Orient, Berlin, 11 und 12 juni 1999.

- الرسائل الجامعية:

- مانع الأجنف، مجندو المغرب العربي أثناء الحرب العالمية الأولى ضريبة الدم: التضحية والثمن 1914- 1939م"، أطروحة دكتورة في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منوبة، تونس 2017م.

7. هوامش:

[1]– عادة ما يتم وصف النشطاء المغاربة والعرب خلال الحرب العالمية الأولى أو الثانية بمصطلح الوطنيين المغاربة أو العرب، لأنهم حاولوا استغلال البيئة الأوروبية وظروف الحرب للدفاع عن أوطانهم، ولعلّ أشهر هؤلاء، الشيخ صالح الشريف التونسي، والخضر حسين، ومحمد باش حامبة، وشكيب أرسلان، وعبد العزيز جاوويش وغيرهم.

[2]– من خلال كتابات بوكابوية يظهر أنه كان مزدوج اللغة، فكان يكتب باللغة الفرنسية، واللغة العربية بأسلوب راقي جداً، وهذا ما يظهر من خلال أحد المنشورات، انتقد فيها السياسة الفرنسية، والتي سنحللها في متن الدراسة.

[3]– مدرسة المعلمين ببوزريعة: أسست مدرسة العلمين بموجب مرسوم إمبراطوري أصدره نابليون الثالث في 4 مارس 1865م، في مدينة الجزائر بتليملي قبل أن تنتقل إلى أعالي بوزريعة سنة 1888م، للمزيد عنها انظر:– مولود قرين، "أضواء على مؤسسات التعليم الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19م: دراسة في الخلفيات والأهداف والنتائج"، في: مجموعة من الباحثين، المدارس التعليمية في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي (1830– 1962م)، تحرير وإشراف: عمراني بلخير، مركز البحث في العلوم إسلامية والحضارة، الأغواط، 2019م، ص ص 88-89.

[4]– مانع الأجنف، مجندو المغرب العربي أثناء الحرب العالمية الأولى ضريبة الدم: التضحية والثمن 1914-1939م"، أطروحة دكتورة في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منوبة، تونس 2017م، ص 141، نقلاً عن:

A.N.T, E 440A 18/83, Lettre du G.G. de L'Algérie au R.G. de La république Française à Tunis, Alger le 12/02/1916.

[5]- كانت السياسة التعليمية في مدرسة المعلمين ببوزريعة ترمي إلى تكوين نخبة جزائرية مفرنسة قادرة على غرس مشاريع فرنسا التغريبية والاندماجية في أذهان التلاميذ، كان طلبتها خاضعين لنظام تربوي صارم، فكان لا يسمح لهم بجلب الكتب التي لا تقيدها القائمة الرسمية للمدرسة، ويمنع عنهم الحديث مع الأجانب عن المدرسة لأي سبب من الأسباب، وذلك في خرجاتهم الميدانية، أوخلال استقبالهم للزيارات العائلية، انظر:

- نفيسة دويدة، "دور مدرسة بوزريعة ولمحة عن اهتمامات المعلمين المسلمين 1865- 1939م، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع7، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، ديسمبر 2013م، ص 120.

[6]- للمزيد حول أفكار هؤلاء الاندماجيين راجع: - كريمة بلحسن، "المتجنسون: مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، ع 30، مجلد أ، ديسمبر 2008، ص ص 127-143.

[7]- حنفي هلايلي، " الجزائريون الفارون من الجيش الفرنسي واتصالهم بألمانيا واتصالاتهم بألمانيا والدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى في ضوء انطباعات الملازم بوكابوية 1915- 1917م، مجلة الحوار المتوسطي، ع1، مج 10، مارس 2019، ص 71.

[8]- نادي صالح باي: تأسس في قسنطينة سنة 1907م باسم جمعية الدراسات الأدبية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية من طرف مجموعة من المثقفين، ترأسه موظف فرنسي يدعى "عريب" (Arrip)، وقد لخص "بن حبيلس" أهدافه والمتمثلة في تثقيف الناشئة وتكوينها وغرس روح التضامن بين أفراد المجتمع الجزائري من جهة، والعمل على التقريب بين العنصرين المسلم والأوروبي من جهة أخرى، وأن نشاط النادي لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، فهدفه إزالة البغض ومعالجة الأمراض الأخلاقية ومحاربة الأنانية والظلم ومساعدة الجزائريين على إظهار مواهبهم الأدبية، للمزيد:

- شريف بن حبيلس، الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر: عبد الله حمادي وآخرون، بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م، ص ص 82-83.

[9]- هلايلي، المرجع السابق، ص 71.

[10] -Gilbert Meynier, « Le problème du loyalisme des Algériens dans L'armée Française (1914-1918), in : Bulletin de la Société d'histoire moderne, N°10, France, 1980, p.04.

[11]- الأجنف، المرجع السابق، ص 143.

[12]- Meynier, « Les Algériens dans L'Armée Française 1914-1918 », In : Workshops : Afrikaner und Asiaten in Europäischen Kriegen, Zentrum Moderner Orient, Berlin, 11 und 12 juni 1999, p.12.
[13]- Ibid, p.03.
[14]- Ibid, p.09.

[15]- فتوى الجهاد (الفتوى الشريفة): حرّرها يوم 14 نوفمبر شيخ الإسلام "خيري بن عون الأركوبي"، والتي اعتبرت أن مهاجمة الأعداء للديار الإسلامية يفرض على المسلمين جميعاً الجهاد، وقد جاءت الفتوى على شكل سؤال وجواب، فإذا تعرضت البلاد الإسلامية لاعتداء أجنبي، ودعا السلطان إلى النفير العام وإلى الجهاد، "فصار بذلك الجهاد فرضاً على جميع الموحدين، وصارت مسارعتهم لذلك بالنفس والمال فرض عين"، للاطلاع على نص الفتوى انظر:

- A. N. O. M, 9 H/ 5.

[16]- العجيلي التليلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918م، ط2، دار الجنوب للنشر، تونس، 2010، ص 234.

[17] - A. N. O. M, op-cit.
[18] - A. N. O. M, op-cit.
[19] - Zentrum Moderner Orient, Berlin, No, 008-10-01.
[20] - Etat-major des armées, Service historique, Les armées françaises dans la Grande guerre. T : IX. 9,1, France, 1930-1939, p. 215.

[21]- الأجنف، المرجع السابق، ص 154. وينظر كذلك:

- Meynier ,op-cit .p.452.

[22] - علاء الدين يحياوي، " الأسرى المسلمون في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى ذلك التاريخ المجهول"، في: مئة عام على الحرب العالمية الأولى، المجلد الثاني، مجتمعات البلدان العربية: الأحول والتحولاّت، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، 2018م، ص ص 183-184.

[23] - Gilbert Meynier , L' Algérie Rèvèlèe - La guerre 1914-1918 et Le premier quart du xx° siècle -, Librairie Droz, Genève,1980,pp. 508-509.

[24]- صالح الشريف التونسي: صالح الشريف: ينحدر من أصول جزائرية هاجرت عائلته بعد احتلال الجزائر، ولد في تونس سنة 1862م، درس في جامع الزيتونة، ثم أصبح مدرساً فيه، هاجر إلى الأستانة سنة

1906م، وكان من أشد المدافعين على فكرة الجامعة الإسلامية، كلفه السلطان بعدة مهام، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى هاجر إلى ألمانيا لينشر الدعاية الألمانية العثمانية بين الأسرى، للمزيد انظر:

- Pierre Bardin , Algériens et Tunisiens dans L'empire Ottoman de 1848-1914, éd : CNRS, Paris , 1979,pp.190-191.

[25]- الأمير علي بن الأمير عبد القادر (1859- 1918م): هو ابن الأمير عبد القادر الجزائري، لعب دور كبير في مقاومة الاحتلال الإيطالي لليبيا (1911- 1912)، اعتمدت عليه الدولة العثمانية وألمانيا في نشر الدعاية بين أسرى الحرب خلال الحرب العالمية الأولى للمزيد عن حياته ونشاطه، انظر:- نخبة من أفاضل الكتاب، تاريخ الذّكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرباض الجزائرية حياة طيّب الذّكر، وضع برعاية نجل الفقيد الأكبر الأمير محمد سعيد، مطبعة الترقي، دمشق 1918م، ص ص 20- 21.

[26]- شكيب أرسلان (1869- 1946): حسب أحد التقارير الألمانية فإن ولادته كانت 5 ديسمبر 1870م في الشويفات ببلاد الشام (لبنان)، وهو مفكر وأديب وسياسي، يعد من رواد الجامعة الإسلامية، شارك في الجهاد ضد الإيطاليين في طرابلس الغرب سنة 1912م، عيّن في مجلس المبعوثان العثماني سنة 1913م، كان من أنصار الدولة العثمانية، زار برلين سنة 1917م، أنشأ في جنيف بسويسرا مجلة الأمة العربية (La Nation Arabe)، للمزيد عنه انظر: تقرير ألماني مؤرخ في 29 جانفي 1946م:

-Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 01-24-00.

[27]- الخضر حسين (1873- 1958م): من أصول جزائرية استقرت عائلته في تونس بعد احتلال الجزائر، تعلّم في الزيتونة، غادر تونس سنة 1912م واستقر في دمشق، وأثناء الحرب أرسل إلى ألمانيا فقدّم الكثير من المحاضرات لفائدة أسرى الهلال ونشر نشرت بعضها في جريدة الهلال، عيّن شيخاً للأزهر سنة 1952- 1954م، انظر:

- جريدة الجهاد، ع 07، برلين، 20 ماي 1915م.

[28]- الأجنف، المرجع السابق، ص 143.

[29] - Abdallah El Hadj Lieutenant, L'Islam dans l'armée française : (Guerre de 1914-1915), Constantinople, p.05.

[30] -Ibid, p.13.

[31] -Ibid, p.14.

[32] -Ibid, p.17.
[33] -Ibid, pp.18-19.
[34] -Ibid, p.20.
[35] -Ibid, p.26.
[36] -Ibid, p.30.
[37] -Ibid, p.34.
[38] -Ibid, p.35.
[39] -Ibid, p.39.
[40] - Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 118-02-06.
[41] -Ibid.
[42] -Ibid.
[43] -Ibid.
[44] -Ibid.
[45] – للمزيد حوله راجع: – فارس كعوان، "مفتي الشلف الوانوغي بومزراق المقراني 1867- 1948: سيرته ومواقفه من خلال مراسلاته والمصادر المعاصرة له"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم إنسانية، المجلد 33، ع 03، قسنطينة، الجزائر، ديسمبر 2019م، ص 576.
[46] - Le XIX Siècle, 3juillet 1915.
[47] – وقد أثار مسجد معتقل "زوسن الألماني" ردود أفعال الكثير من الفرنسيين الذين ألحوا على ضرورة بناء مسجد مماثل للمجندين المسلمين، وفعلا تم بناء مسجد "نوجون–سور –مارن"، الذي تم افتتاحه يوم 14 أفريل 1916م، فتزامن ذلك مع المولد النبوي الشريف، فاستغلت فرنسا الحدث، وروجت له عبر الصحافة وحاولت أن تظهر نفسها بمظهر المحب والمحترم للإسلام والمسلمين، للمزيد انظر:
– العجيلي التليلي، المعهد الإسلامي وجامع باريس، السياسة الإسلامية لفرنسا اللائكية 1920-1939م، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرّسم، تونس، 2016م، ص 63.
[48]– L'Afrique Française, 1917, p94.
[49] -Lieutenant indigène Boukabouya (Hadj Abdallah), Les soldats musulmans au service de la France, Nouvelle de Lausanne, Lausanne, 1917,p. 62.
[50] -Ibid, p.63.
[51] -Ibidem.
[52] -Ibid, p.64.
[53] - Zentrum Moderner Orient; Berlin, No- 02-4-1917.

سياق تحرير وثيقة المطالبة بالاستقلال 11 يناير 1944 وأهميتها في استقلال المغرب

The context of issuing the document of demanding independence on january11, 1944 and its importance in fulfilling Morocco's independence

فاطمة الزهرة الموغة (*)[1]

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي، المملكة المغربية

fatima.z.elmougha@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/15 **تاريخ القبول**: 2021/04/04 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

شهد تاريخ المغرب المعاصر أحداثا متسارعة ومتلاحقة ساهمت بشكل كبير في ترك الأثر الكبير على كل المستويات منها: السياسية، الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ الراهن باعتبار التسلسل التاريخي والاستمرار فيما بين السابق واللاحق من الفترات وانعدام القطيعة التاريخية ضمن مساره العام. وتعتبر فترة الحماية الفرنسية أهم مقطع زمني ترسبت خلاله كل التغيرات العميقة التي لحقت البلاد والمغاربة فيما بعد، وعلى هذا الأساس فان موضوع المقال يأخذ أهميته من سياق وجاذبية المرحلة الزمنية التي اختص بدراستها وبأهم حدث الذي اعتبر مفصليا في العلاقات بين المغرب وفرنسا والذي يتعلق بتقديم "وثيقة المطالبة بالاستقلال" التي كان لها عندئذ وقعا كبيرا ودورا أساسيا في انتقال الحركة الوطنية من المطالبة بالإصلاح إلى المطالبة بالاستقلال ودعوتها الصريحة إلى فك الارتباط بفرنسا انسجاما مع الموجة الدولية التي كانت آنذاك تساير مطالب تصفية الاستعمار.

الكلمات الدالة: الحماية الفرنسية، وثيقة المطالبة بالاستقلال، الحركة الوطنية، تصفية الاستعمار، الإصلاح.

(*) **المؤلف المرسل: فاطمة الزهرة الموغة:** fatima.z.elmougha@hotmail.com

Abstract:

The contemporary history of Morocco has witnessed rapid and successive events that have contributed greatly in impacting its current history on all levels: political, economic and social due to the historical sequence and continuity between the previous and the later period and the absence of a historical rupture within its general course. However, the period of the French protectorate is considered to be the most important segment of time during which all profound changes occurred to the country and its people and have deposited since then.
In line with this, the importance of the topic of this article lies in both; the context and attractiveness of the time period that it studies in addition to the most important event that is considered pivotal in the Moroccan- French relations which is, the presentation of “independence demand document”. The later document had a great impact then and played a fundamental role in shifting national movement up from demanding reforming to demanding independence and explicitly call to disengage from France in line with the international wave that was at that time calling for decolonization.
Keywords: French protectorate; the document of demanding independence ; national movement; decolonization; reformation.

1. مقدمة:

إن المواكبين لكل أو معظم حقب الحركة الوطنية المغربية، يؤكدون أن المنطلق العملي لمعركة الاستقلال بمفهومها الجريء العلني، كان مع إشراقة يوم 11 يناير 1944، الذي انبعثت فيه مفاجأة المطالبة الفعلية بالاستقلال. وذلك عن طريق معركة طويلة المدى امتدت تسعة عشر عاما كاملة، ابتدأت ببروز الحركة الوطنية، ثم الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب في الفترات المتتالية من تاريخه، مما جعل هذه الوثيقة تعتبر محطة بارزة في مسار الكفاح الوطني من أجل الحرية والاستقلال، وتحقيق الوحدة الترابية والسيادة الوطنية.

خاصة وأنه مع مطلع الأربعينيات، تغيرت الظروف في الخارج، فساهم تطور السياق الدولي، واندلاع الحرب العالمية الثانية وبروز الصوت الأمريكي والسوفياتي المنادي بحق التحرير

وارتفاع المساندة العربية للقضايا المغاربية والقضية المغربية، في تحول رواد الحركة الوطنية للمطالبة بالاستقلال متجاوزين الإقامة العامة ومقترحاتها بشأن إمكانية تطبيق الإصلاحات، وهو ما جسدوه بوثيقة الاستقلال في 11 يناير 1944 كما سبق الذكر.

وقد سجلت هذه المرحلة صراعا حادا بين الحركة الوطنية والإقامة العامة الفرنسية التي حاولت عزلها عن المجتمع المغربي وعن السلطان، إلا أن هذا الأخير أدرك بأن الثوابت التاريخية تفرض الإنصات إلى مطالب الشعب، وعدم الانصياع للضغوطات الفرنسية إلى أن تمت القطيعة بينه وبين الشعب المغربي مع عملية نفيه سنة 1953.

فما هو إذن السياق الذي حررت فيه هذه الوثيقة؟ وما هي ردود فعل كل من السلطان والإقامة العامة عند تقديمها؟ وما هي المفاوضات التي حددت مصير المغرب المستعمر آنذاك؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه باعتماد المنهج التحليلي المعتمد النهج التاريخي وصفا وتحليلا وتركيبا، عبر النبش في الظروف والعوامل التي مهدت لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال ومضامينها والمستجدات التي خلقتها بين المؤيدين والمعارضين لها، وما شكلته من تأثير على أحداث المغرب إلى حدوث الاستقلال.

2: ظروف تحرير وثيقة المطالبة بالاستقلال والمساهمين في تحريرها

قبل الخوض في ظروف تحرير الوثيقة والمساهمون في تحريرها، يجب الإشارة أولا إلى أنه عكس الكتابات التي تجمع أغلبها على أن حزب الاستقلال هو الطرف الوحيد الذي ساهم في إعلان مطلب الاستقلال بشكل واضح في وجه فرنسا، فقد تم إعلان المطالبة بالاستقلال في وقت واحد تقريبا من طرف "الأحزاب الوطنية"، أولها بمنطقة الحماية الاسبانية في 14 فبراير1943 ، ثم الحزب الشيوعي المغربي 1943، ليأتي دور حزب الاستقلال سنة 1944.[1]

فما هي أهم الظروف الدولية والوطنية التي ساهمت، وميزت فترة بداية الأربعينيات، بانتقال أحزاب الحركة(حزب الاستقلال)، من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال؟

إجمالا يمكن القول بأن الساحة الدولية في بداية الأربعينيات عرفت مستجدات شجعت الوطنيين على المطالبة بالاستقلال، ففي سنة 1939، انطلقت شرارة الحرب العالمية الثانية، التي فتحت حقبة جديدة في عهد "السلطان" الذي اتخذ موقفا شجاعا خدم القضية الوطنية، خاصة وأنه بعدما انهزمت فرنسا أمام القوات الألمانية، ارتفعت معنويات الوطنيين المغاربة الذين أصبحوا يتطلعون لتحقيق الاستقلال مع القصر[2]. ثم توقيع "الميثاق الأطلسي" في غشت 1941، بعد اجتماع" تشرشل Churchill" و "روزفلت Roosevelt". فأعادت نصوصه ذكرى مبادئ "ويلسون wilson". حينما قالت: " أن الدولتين تحترمان حق الشعوب في اختيار نوع الحكم الذي ستعيش في ظله، وأنهما ستناضلان بعد الحرب لمساعدة الدول الأخرى صغيرها وكبيرها لتحرز الرخاء، وتحسن مستوياتها الاقتصادية"[3]. وكان المغرب من الدول المعنية بهذا الميثاق باعتباره من بين الدول التي شاركت في الحرب إلى جانب الحلفاء.

كما ساهم نزول قوات الحلفاء يوم 8 نونبر 1942 على شواطئ المغرب لمحاربة النازية[4]. في زيادة أمل المغاربة.

لتأتي سنة 1943، التي سيظهر فيها السلطان "محمد الخامس" في لقاء مع "روزفلت" في مؤتمر" أنفا" بالدار البيضاء [5]. ولأول مرة في حكمه سيتحدث "محمد الخامس" بدون رقابة فرنسية إلى سياسي أجنبي كبير.[6]

ليكون هذا اللقاء بمثابة فاتحة عهد جديد في تاريخ المغرب، حيث بعث الأمل في نفس "السلطان" و"الشعب"، لأنهم اكتسبوا صداقة حليف يتمكنون في النهاية عن طريق نفوذه من استعادة كيان الوطن واستقلاله.[7] لاسيما أن المغاربة أدركوا أن مصيرهم لم يعد معلقا بفرنسا فقط بل بانجلترا وأمريكا بشكل خاص.

كما عرف المغرب عدة مستجدات أخرى شجعت رجال الحركة باتفاق مع "السلطان" على تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال. من أهمها:

خروج المعتقلين السياسيين من السجون سنة 1938، رغم أنه لم يكن بإمكانهم القيام بأي عمل سياسي نظرا لتشديد الخناق عليهم من طرف السلطات الاستعمارية[8].

زيادة على ذلك كانت هناك عوامل أخرى مساهمة، نجد في مقدمتها استقلال "لبنان" و" سوريا" في نونبر 1943، ثم ظهور الحكومتان المتصارعتان، (اللتين ظهرتا بعد انهزام فرنسا أمام ألمانيا).

ليتم في خضم هذه الظروف والأحداث تقديم وثيقة 11 يناير 1944، بعد أن وحد أعضاء الحركة الوطنية صفوفهم من جديد، وعقدوا عدة اجتماعات مع "السلطان" حيث عرضوا عليه فكرة المطالبة بالاستقلال فتحمس لها ووافقهم ذلك.[9]

وبما أن الرئيس الأمريكي كان قد وعد السلطان المغربي بالعمل على تحقيق استقلال البلاد، كقضية مطروحة لدى رجال الحركة الوطنية، الذين شرعوا في العمل على تأسيس حزب الاستقلال، الذي أصبح "بلافريج" كاتبا عاما له، وفي 11 يناير 1944 سيقدم الحزب "بيانا إلى السلطان والسلطات الفرنسية والحلفاء، يطالب فيه بالاستقلال".[10]

وسلم هذا المشروع إلى اللجنة التي كانت مهمتها الإشراف على إعداد الوثيقة النهائي، بعدما اجتمعت الطائفة،[11] وأعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وعرضت عليها فكرة الاستقلال، فقررت الطائفة تبنيها وتهيئة وثيقة تتضمن ذلك المطلب.[12]

ويتضمن البيان سلسلة من "الحيثيات" يبتدئ بها، هي بمثابة مقدمة تحاكم نظام الحماية، ثم يعرض مطالب الحزب، مناديا بوحدة واستقلال المغرب، ويقترح من أجل ذلك إجراء مفاوضات مع الأمم المعنية، ويلتمس انخراط المغرب في ميثاق الأطلسي، ومساهمته في مؤتمر السلام، كما يقترح بالإضافة إلى ذلك بعض الإصلاحات على الصعيد الداخلي[13].

وكما أجمع المؤرخون فإن عدد الموقعين على البيان، في المجموع 58 مثقفين ممن كانوا ينتمون في معظمهم للبرجوازية المتوسطة، وكان إلى جانبهم بعض التجار الأغنياء من رجال الأعمال والملاكين العقاريين.[14]وقد عملوا على توزيع البيان على نطاق واسع كما عرف نجاحا باهرا.[15]

وقد شكل تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال ضربة قوية لسياسة الاستعمار (الفرنسية-الاسبانية)، خاصة وأن هذه الوثيقة جاءت بالارتباط مع سلسلة من المواقف الهامة التي بينت التلاحم المتين بين الشعب والقصر الملكي. مما أدى إلى بروز مواقف تأرجحت بين التأييد والمعارضة.

3:موقف السلطان والإقامة العامة من تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال

1.3. موقف السلطان

قام السلطان "محمد الخامس" بعد استلامه وثيقة المطالبة بالاستقلال، بالدعوة إلى عقد اجتماع يوم 13 من يناير 1944، حضره الوزراء والقادة والقضاة، حيث أبلغهم بالوثيقة التي قدمها إليه حزب الاستقلال، وتمكن من كسب أصواتهم لصالح الوثيقة. ثم قرر تشكيل لجنة ضمت رئيس التشريفات، وعدد من الوزراء لتتصل باللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، للبحث في الوسائل التي يتفق عليها لتحقيق مطالب وثيقة الاستقلال.[16]

لتتفق تلك اللجان بعد تشاورها على ضرورة إلغاء الحماية والبدء بالاتصال بالإقامة العامة الفرنسية، فاستمرت تلك الاتصالات ثلاثة أيام، أوضحت فيها لجنة حزب الاستقلال موقفها، ولكن الإقامة العامة طلبت حذف كلمة الاستقلال من الوثيقة مقابل إعلانها المساواة بين المغاربة والفرنسيين.[17] ليبدأ ظهور الموقف الفرنسي تجاه مطلب الاستقلال.

وبعدما شعرت الحماية بأن مصالحها أصبحت تهدد، وأدركت أن تضامن "الملك" مع "الوطنيين" أصبح حقيقة لا غبار عليها.[18] التجأت إلى سياسة التصالح المؤقتة، الشيء الذي أدى إلى تعيين المقيم العام المدني" إيريك لابون" سنة 1946، بدل "غابرييل بيو"،[19] الذي اعتبر حدث تعيينه دليلا يشير إلى رغبة فرنسا في إنهاء جو التوتر الذي ساد المغرب آنذاك بعد صدور وثيقة الاستقلال، فحاول المقيم العام الجديد القيام بمجموعة من الإصلاحات لصرف المغاربة عن مطلب الاستقلال، فقام بالتقرب من

"السلطان" و"الوطنيين" بفتح حوار بينه وبينهم، وعمل على إطلاق سراح المعتقلين السياسيين وإرجاع المنفيين، لكن انفتاحه كان شكليا فقط.[20]

لأن إصلاحاته لم تكن إلا تكريسا لنظام الحماية المفروض على البلاد، وهو في ذلك يختلف عما سبقه، فجميع الأفكار التي عبر عنها تدل على أنه ما زال يفكر في دائرة نظام الحماية،[21] في حين أن المغرب يطمح لتحقيق الاستقلال.

فدفع هذا بالسلطان "محمد الخامس" للقيام بزيارته لمدينة طنجة في أبريل 1947، والتي كان الهدف منها تثبيت وحدة الوطن، وإقرار سيادته على معظم مناطق البلاد، واستغلال الوضع الدولي الذي تمتاز به المدينة للتعريف بالقضية المغربية في المحافل الدولية، في وقت زادت فيه فرنسا من مناوراتها الرامية إلى دمج المغرب ضمن الاتحاد الفرنسي.[22]

هذا ما يبين بوضوح اختيار السلطان لمدينة طنجة دون غيرها من المدن المغربية. فلجأت فرنسا إلى العمل على خلق عدة عراقيل لمنع "السلطان" من القيام بزيارته بعدما أدركت أبعاد هذه الزيارة.

لكن رغم اعتراض السلطات الاستعمارية، انطلقت الرحلة في موعدها من الرباط إلى طنجة على متن القطار، ليحطم بذلك الحدود الوهمية التي عمل على خلقها الاستعمار(الفرنسي-الاسباني) لفصل الشمال عن الجنوب، فجاءت هذه الزيارة لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي وتلم الشمل من جديد.[23]

وصباح يوم الخميس10أبريل كان موعد استقبال "السلطان" لأعضاء السلك الديبلوماسي وأعيان المدينة ووفود الجهات، وفي مساء هذا اليوم ألقى خطابه التاريخي الذي زعزع أركان الاستعمار، معلنا إرادة المغرب في "الاستقلال" ومحددا سياسته الخارجية، بتأكيده على رغبته في الانتماء إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، ومما أعطى لهذه الرحلة التاريخية مكانتها في الساحة الدولية هو ذلك الاهتمام الذي حظيت به من طرف الصحافة العالمية العربية والأجنبية، التي أجمعت على أهمية الزيارة وبعدها السياسي سواء في الداخل أو الخارج. ونجد في هذا الصدد الأستاذ"عبد العزيز التمسماني خلوق" يقول:

"لقد حظيت الرحلة الملكية في أبريل 1947 إلى طنجة باهتمام العديد من كتاب المذكرات والصحافيين المؤرخين، فكان لها وقع في نفوس جميع المغاربة وأثر عميق على وجدان أهالي المدينة الذين كانوا أشد إحساسا بالظروف القاسية التي عانوها منذ فرض النظام الدولي، وطيلة فترة الاحتلال الاسباني. وهكذا أثارت هذه الرحلة التاريخية موجة من الحماس، وخلفت أصداء واسعة خارج حدود المدينة".[24]

وتجدر الإشارة إلى أن أهمية هذه الزيارة الملكية للمدينة لا تكمن في تخطي الحدود الوهمية التي وضعها الاستعمار، بل في لقاء الملك مع أبناء شعبه في الشمال، ومطالبته برد حقوق المغاربة، أهمها، "حق الوحدة والتحرير من جميع القيود".[25] فكان للرحلة أثر في جعل "القضية المغربية"، تصبح قضية دولية تبحث في الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة.

2.3 موقف الإقامة العامة الفرنسية

إن أول ما قامت به الإقامة العامة الفرنسية في شخص "غابرييل بيو" كرد فعل على تقديم الوثيقة المتضمنة لمطلب الاستقلال، هو قيامه بإبلاغ السلطان "محمد الخامس" في 13يناير 1944، بقرار الإقامة العامة المتمثل في رفض المطالبة بالاستقلال، مشيرا إلى استعداد الحكومة الفرنسية إدخال عدد من الإصلاحات التي من شأنها رفع المستوى العام للمغرب.[26]

وتوالت ردود فعل الإقامة العامة الفرنسية، بدءا بقيامها بنشر عدد من الدعايات التي تقول بان حزب الاستقلال يريد أن يقوم بأعمال من شأنها أن تهدد مصالح الحلفاء في مقاومة دول المحور، ثم أصبحوا يأخذون الضمانات من حلفائهم، ولا سيما أن الأمريكيين بدورهم لا يؤيدون ولا يناصرون المغاربة الذين يطالبون بالاستقلال فأصبحت الحالة تتأزم يوما بعد يوم، لذلك أصدر حزب الاستقلال بيانا فند فيه دعوى الإقامة العامة بأنه لا يريد أن يضر مصالح الحلفاء بمطالبته بالاستقلال، وأنه طالب بحق مشروع، وفي دائرة المشروعية ونطاق المواثيق الدولية، وفي طليعتها ميثاق الأطلسي الذي صدر عن الحلفاء أنفسهم، ومن ضمنهم فرنسا الحرة نفسها.[27]

وبدأت الإقامة العامة بمطاردة كل من وفد إلى الرباط مؤيدا لمطالب الاستقلال، ثم أخذ المسؤولين الفرنسيين بفصل الموظفين المغاربة من أعمالهم كونهم أيدوا وثيقة الاستقلال، بعدما أعطيت الأوامر لمراكز الشرطة بأخذ الحيطة والحذر.[28]

وفي ليلة 29/28 يناير توجت فرنسا ضغوطها بإلقاء القبض على قادة الحزب وفي مقدمتهم "أحمد بلافريج" و"محمد اليزيدي" و"أحمد مكوار" و"عبد العزيز بن ادريس" و"الهاشمي الفلالي" بتهمة الاتصال بألمانيا والإعداد لثورة مسلحة في المغرب، مما أدى إلى

اندلاع انتفاضة يناير في عدد من المدن كالرباط وسلا وفاس ووجدة والدار البيضاء مطالبين بإطلاق سراح الزعماء، فتصدت لها سلطات الحماية بعنف شديد، وأصدرت أحكاما بالإعدام وأخرى بالسجن في حق عدد من المتظاهرين.[29]

بحيث تجمع سكان مدينة الرباط في ساحة القصر الملكي، وهم يهتفون بتحرير "أحمد بلافريج" و"محمد اليزيدي"، كما بقيت الهتافات قوية وعنيفة واشتد هياج المتظاهرين حين خرج لهم مدير التشريفات ودعاهم للتفرق موضحا لهم بأن "أحمد بلافريج" له اتصال مع الألمان، فما كان من المتظاهرين، إلا أن هاجموه مستمرين بالهتافات والمطالبة بإطلاق سراح "بلافريج" و"اليزيدي".[30]

كما اعترض السلطان على إجراءات الإقامة العامة الفرنسية باعتقال "بلافريج" و "اليزيدي" قائلا: "لا يلقى القبض على أي شخص من المواطنين إلا إذا كان كانت هناك حجة تبرر ذلك، ف "بلافريج" الذي تتهمونه بزيارة ألمانيا والاتصال بزعماء المحور، لابد أن تعرض قضيته على رجال العدل، ولو كانوا من العسكريين، ولابد أن يعين إلى جانبه محامون، ليتابعوا قضيته ويشدوا أزره لتظهر براءته التي نحن متيقنون منها، أما "اليزيدي" فليس لديكم أي اتهام ضده، فضلا عن أنه هو الذي يستطيع أن يهدئ من ثورة المحتجين، والمتظاهرين الذين قصدونا في قصرنا مطالبين بإطلاق سراح المعتقلين".[31] فأطلق سراح "اليزيدي" في اليوم نفسه.

أما مدينة سلا فعرفت بدورها تظاهرة نظمها أعضاء حزب الاستقلال في اليوم 29يناير1944. ابتدأت من المسجد الأعظم، واستمرت في مسيرتها على الرغم من وجود قوات الجيش الفرنسي التي أطلقت النار على المتظاهرين في حي الباشا، فأصيب عدد منهم

بجروح، وعلى الرغم من ذلك تحدت التظاهرة قوة الجيش، واتجهت مجموعة من المتظاهرين نحو الرباط.[32]

فحاول المراقب المدني الفرنسي التفاوض مع المتظاهرين، وذلك الأسلوب اتبعته الإقامة العامة لاكتشاف قادة التظاهرة واعتقالهم، وفي أثر ذلك حاول أحد الجزائريين إصابة المراقب المدني بسكين، عندها أطلق الرصاص من كل جانب وأخذ الشهداء يتساقطون وقد تجمع المتظاهرين في اليوم التالي لدفن ضحاياهم في مقبرة واحدة، فاستغلت قوات الجيش ذلك، واحتلت المدينة وقامت بنهبها، واعتقلت عدد كبير من أعضاء حزب الاستقلال من بينهم أبو بكر القادري.[33]

كما تجدر الإشارة إلى أنه نتيجة القمع الشديد التي قامت به الإقامة العامة الفرنسية وقعت عدة معارك بين الوطنيين والجيش الفرنسي قتل فيها ستون مغربيا، وجرح فيها مئة شخص، واعتقل نحو ألف شخص، ودامت معارك فاس نحو أسبوعين تم خلالها ذبح أحد عملاء الإقامة العامة الذي تسرب إلى مسجد القرويين، وأخذ يدون علنا أسماء قادة التظاهرة والخطباء وأقوالهم، فتذرعت الإقامة العامة بهذا الحادث لتذيع بيانا تحذر فيه باحتلال المساجد، إن لم تتوقف التظاهرات، وتعود المدينة عن فك إضرابها العام، مما أدى بالوطنيين إلى إنهاء الإضراب.[34]

وقد كان في اعتقاد الحكومة الفرنسية أن باعتقالها ونفي "أحمد بلافريج" سوف تجهض فكرة المطالبة بالاستقلال، لكن ذلك لم يقلل من عزيمة رجال الحركة الوطنية بل العكس، لو يزدهم الاعتقال والنفي إلا إصرارا على مواصلة مشوار "بلافريج" لنيل الاستقلال المنشود.

فكانت البداية لبروز أحداث ومواقف أخرى في الساحة السياسية المغربية.

4: المفاوضات التي حددت مصير المغرب المستقل

لا يزال استقلال المغرب، رغم كل هذه السنوات التي تراكمت، يثير شهية النبش في سيرته بالنظر إلى أن عددا من حلقات هذا الاستقلال، وقبله، لا تزال مفقودة، ومن بين هذه الحلقات حقيقة المفاوضات التي جاء على إثرها الاستقلال. كمفاوضات "اكس ليبان" والتي يرفض البعض بأن يدعوها مفاوضات بل يعمدون إلى إيرادها تحت اسم "مؤتمر إكس ليبان". وتعد هذه المفاوضات نقطة هامة في مسار الاستقلال.

فما هي الأهداف التي نتجت عنها؟ وما هي حقيقة هذه المفاوضات؟

بعد نفي محمد بن يوسف مباشرة استأنف النضال التحرري ضد الاستعمار الفرنسي على شكل مقاومة مسلحة في جميع جهات المغرب بعد هذه الفترة أصبح كل مغربي يعلم أنه عليه أن يشارك في المقاومة ضد السلطات الاستعمارية بكل الوسائل المتوفرة له.

وأمام ازدياد هذه المقاومة المسلحة وتصاعدها، هنا أخذت السلطات الاستعمارية الفرنسية تبحث عن حلول لما أسمته ب "الأزمة المغربية"، أمام ذلك بدأت فرنسا تبحث عن حل لضمان المصالح الحيوية.[35]

وبعد أن فشلت الإدارة الفرنسية في تنصيب ملك بديل، حينما اختارت لهذا الدور "محمد بن عرفة"، كان لابد من البحث عن صيغة لإنهاء هذا الاحتقان، لذلك كان الحل هو الترتيب لمعاهدة "اكس ليبان"، والتي حضرها من الجانب المغربي ممثلون عن حزب الاستقلال، وحزب الشورى والاستقلال، وممثلون عن السلطان وبعض قواد الاستعمار.

وقد دامت المفاوضات حسب البعض ثلاثة أيام حيث تم الاتفاق خلالها على رجوع السلطان "محمد الخامس" من منفاه بمدغشقر، وإعلان "نية" فرنسا منح المغرب "استقلالا" في 2نونبر1955، على أن تكون تفاصيله محددة فيما بعد من الإعلان المشترك، والبروتوكول

الملحق به في 2مارس 1956. وبهذا الاتفاق سيتم التنازل من طرف الإدارة الفرنسية عن قسط صغير من الثروات لصالح البورجوازية التي نشأت في حضنها بالبلد كي تستطيع تأمين الجزء الأكبر، وستسهر على بناء نظام سياسي على مقاسها.

ولعل النجاح الفرنسي في هذه المهمة، هو الذي شجع الاستعمار الاسباني على توقيع اتفاق2 أبريل 1956 مع السلطان محمد الخامس.[36]

وللإجابة على السؤال المطروح سنستند على مجموعة من الشهادات لمن شاركوا في هذه المفاوضات وبعض من عاصروا الحدث وكتبوا عنه كذلك. ومن رفض المشاركة فيها.

نجد في هذا الصدد "عبد الهادي بوطالب"، الذي كان ضمن الوفد المغربي عن حزب الشورى والاستقلال، بلقاءات "اكس ليبان" واصفا الهدف منها الذي كان يراد منه أن يكون مؤتمر حوار مغربي– مغربي، أي بين التقليديين والوطنيين ليصلوا إلى وفاق بينهم في موضوع العرش على أرضية مشتركة يمكن أن يستقر عليها الطرفان بالتراضي. والذي يقول: " لما وصلنا إلى "اكس ليبان" يوم 22 غشت 1955 قيل لنا إن الباشا التهامي الكلاوي والقواد الآخرين موجودون بالمدينة، فامتنعنا عن لقائهم وقلنا:" نرفض هؤلاء، فهم ليسوا معنيين بالأمر، هم عملاء الإقامة العامة...".

أفهم وفد الوطنيين المغاربة أعضاء الحكومة الفرنسية، الموفدة إلى "اكس ليبان" بأن إقامتها العامة في المغرب تخدعها وتكذب عليها، واضطر الفرنسيون بعد تلكؤهم ثم بإمعان النظر إلى القبول بوجهة نظر الوفد المغربي، فأرجعوا في نهاية الأمر القواد الموالين للإقامة العامة إلى المغرب. ولذلك فإن مؤتمر "اكس ليبان" الذي يتحدث عنه التاريخ– بحسب بوطالب– لم يكن مؤتمرا لأنه لم يجتمع قط. وقد سبق أن كتب هذا في الثمانينات في "موسوعة ذاكرة المغرب" باللغة الفرنسية بعنوان" المؤتمر الذي لم ينعقد"..''لأننا لم نجتمع مع أولئك العملاء. واضطر الوزراء الفرنسيون الذين جاءوا إلى"اكس ليبان" لاستدعائهم –من بعد– وحدهم

فاجتمعوا بهم منفردين. وصرفوهم فرجعوا إلى المغرب من حيث أتوا. واستدعونا نحن واجتمعوا بنا وحدنا. فأطلعناهم على وجهة نظرنا ووضعنا الأمور في نصابها. إن مؤتمر "اكس ليبان" انتهى كما قلت قبل أن يبدأ، وبالتالي لم يدخل قط التاريخ..."

لقد انقطعت الاتصالات بين الوطنيين، وبين السلطان محمد بن يوسف لأن الحصار كان مضروبا عليه بمنفاه. ولكن مع توالي الأيام وانتهاء معركة ما سمي ب "خدعة اكس ليبان" تبين لفرنسا أنه لا حل للأزمة المغربية إلا بالدخول في محاورة مباشرة مع الوطنيين في جبهة العمل الوطني، مستبعدة الحوار مع نفسها–أي بواسطة القواد والباشوات والعملاء التقليديين– وأنشأت فرنسا داخل الحكومة الفرنسية وزارة خاصة باسم وزارة الشؤون المغربية والتونسية، كان يشرف عليه الوزير" بيير جولي". [37]

كما أن هناك من رفض المشاركة في هذه المفاوضة ك " بوعبيد" في القسم الثالث من مذكراته، الذي فك فيه باعتباره أحد الذين تتبعوا عن كثب وشاركوا في مخاض استقلال المغرب بعضا من طلاسم المفاوضات التي قادت إلى استقلال المغرب، وقدم الراحل "بوعبيد" عبر مساحة مذكراته توضيحات هامة. حول أسئلة وتساؤلات متعددة تخص "اكس ليبان" وآراء القادة الاستقلاليين وبعض الخفايا التي ارتبطت بمفاوضات الاستقلال، وألقت بظلالها على المغرب المستقل. فكانت أول نقطة تطرق لها، هي التذكير بالظروف التي أجريت فيها لقاءات" اكس ليبان"، التي عارضها الزعيم "علال الفاسي"–بدوره– علانية.

روى "بوعبيد"، أنه خلال اجتماع عمل اللجنة التنفيذية للحزب، وقبل بدء المفاوضات. كان الهدف من هذا اللقاء. هو "تبديد أي غموض" أو تأويل خاطئ"، وذلك في حال استدعاء الحزب إلى" اكس ليبان". وسيظهر لاحقا أن الغاية من "اكس ليبان" لم تكن لأجل تفاوض زعماء الحركة الوطنية مع الحكومة الفرنسية المغربية، بل من أجل عرض وجهة نظر حزب الاستقلال كحزب فقط.

فهم الوفد المغربي سريعا، أن الهدف اللقاء قرره الرئيس "إدغارفور" من أجل أن يكون الوزير الفرنسي في الشؤون الخارجية، على وجه الخصوص على اطلاع ب "الملف المغربي"، كشبه تمرين بيداغوجي. وقد اشترط السيد "انطوان بيناي"، أحد أعمدة أغلبية الرئيس "فور" استدعاء كل التيارات، بما فيها أقطاب المخزن والباشوات وقيادة الحماية...

كما أكد "بوعبيد" على مسألة جوهرية، تمثلت في أنه" لم تكن هناك مفاوضات في"اكس ليبان" ولا مشاركة في أية مائدة مستديرة من أي نوع. أكثر من تلبية للدعوة الفرنسية لأجل شرح المغاربة لموقفهم، وطرح شروط حل حقيقي وفعلي للأزمة. والتي كان احتمال رفضها، سيشكل خطأ سياسيا لا يمكن تفسيره ولا قبوله من طرف الرأي العام الدولي.[38]

كما يعتبر "المهدي المنجرة" من أبرز من رفعوا الستار عن مفاوضات" اكس ليبان"، فقد تحدى في حياته أيا كان يقول بأن "اكس ليبان" كانت مفاوضات دارت حول استقلال المغرب، واعتبر أنها مجرد تسوية بين زعماء سياسيين والمستعمر الفرنسي.[39]

ثم "البصري" الذي يقول بدوره في قضية "اكس ليبان": "لابد لنا أن نعترف باعتبارنا ساهمنا في هذه المرحلة كأعضاء أو مسؤولين في حزب الاستقلال من أن عملية اكس ليبان كانت ضربة موجهة إلى النضال ونكسة لاستقلال المغرب".

وقال أيضا: "الاستعمار عمل على حسم الموقف بتحويله الصراع معه إلى الصراع على السلطة وتجزئة الوحدة الوطنية التي خلقها النضال السياسي بتسليمه الحركة الوطنية هدية مسمومة سميت بالاستقلال".

وكذلك "المهدي بن بركة" اعترف بذلك في كتابه "الاختيار الثوري"، حيث اعتبر مفاوضات "اكس ليبان" من الأخطاء القاتلة. ومحمد بن عبد الكريم الخطابي الذي رفض كذلك هذه المفاوضات وسمى الاستقلال بالاستحلال.

لتكون بذلك قد أجمعت كل مذكرات الوطنيين ك –شهود عيان– على أنها لم تكن سوى "تغليف" للاستقلال "الممنوح".

كما تجدر الإشارة إلى أنه لفهم ما جرى في مفاوضات "إكس ليبان" يوم 2نونبر 1955، التي توجت ببنود الاستقلال الشكلي للمغرب، لابد من الرجوع لبرتوكول أو إعلان "سيل سان كلو" بين فرنسا وعملائها بزعماء القصر، والتي ستحدد تفاصيله فيما بعد من الإعلان المشترك والبروتوكول الملحق به في 2 مارس 1956. وهو البرتوكول الذي شجع الاستعمار الاسباني أيضا على توقيع اتفاق 2 أبريل 1956 مع السلطان محمد الخامس للانسحاب من شمال المغرب.

كان قد جاء في ديباجة الإعلان المشترك أنه حصل الاتفاق بين حكومة جمهورية فرنسا وسلطان المغرب محمد الخامس، وفي تفاصيله –أي الإعلان المشترك– بأن مفاوضات ستجمع في باريس بين المغرب وفرنسا هدفها توقيع اتفاقيات جديدة لتنظيم العلاقات بين البلدين في مجالات المصلحة المشتركة أساسا: الدفاع، العلاقات الخارجية، الاقتصادية، والثقافية، والتي تضمن حقوق وحريات الفرنسيين المقيمين في المغرب والمغاربة المقيمين في فرنسا. ويضيف الإعلان المشترك ، في انتظار توقيع الاتفاقيات الجديدة بين الطرفين وبناء المؤسسات الجديدة، لن يتم المس بوضعية الجيش الفرنسي، وأن الجيش الذي سيتوفر عليه سلطان المغرب سيتم تشكيله برعاية فرنسية. أما الفقرة الأولى من البروتوكول الملحق فقد تم فرض من خلالها الاطلاع على جميع مشاريع الظهائر والمراسيم من طرف ممثل فرنسا بالمغرب لأجل وضع ملاحظاته على النصوص، سيما فيما يتعلق بالمس بمصالح فرنسا والفرنسيين أو الأجانب.

5. خاتمة:

ختاما يمكن القول انطلاقا مما سبق أن الموضوع يتميز بنوع من الخصائص المرتبطة بانفتاحه على مجموعة من الإشكالات المتداخلة في التاريخ السياسي للمغرب المعاصر، والتي تشكلت أسسها بشكل كبير في عهد الاستعمار 1912-1956 ، وهو ما يجعل مهمة الدراسة التاريخية تحتفي بأهمية تتجلى في قدرتها على طرح تساؤلات حول السياقات التي أنتجت حدث عريضة الاستقلال والأطراف المتفاعلة معها، وحيثيات خروجها وانعكاساتها على أفق نضالات الحركة الوطنية وعلاقتها بالسلطان المغربي وكيف أنها أسست لواقع جديد فرض على فرنسا تغيير خططها الاستعمارية وتفكيرها في إيجاد حل للقضية المغربية ليكون بذلك حدث تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال 11يناير 1944 بالمنطقة السلطانية حدثا مفصليا في تاريخ المقاومة المغربية ضد المستعمر.

6. هوامش:

[1] - مجيد أيور، "وثيقة 11يناير 1944،سياق استحواذ البرجوازية بقيادة النضال ضد الاستعمار"، الجريدة الالكترونية "المناضل-ة"، العدد 11، مارس 2006.

[2]- روم لاندو، "تاريخ المغرب في القرن 20"، ترجمة: نيقولا زيادة، مراجعة الدكتور أنيس فرحة، نشر دار الكتاب الدار البيضاء بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1980، ص 259.

[3]- عبد الكريم غلاب، " تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب"، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الثانية 1987، الجزء الأول، ص 216.

[4]-محمد حمو الادريسي،"الحركة الوطنية في الشمال ودورها في استقلال المغرب والجزائر"، ص 49.

[5]- عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 218.

[6]- روم لاندو، "أزمة المغرب في القرن20"، ص 251.

[7]- روم لاندو" أزمة المغرب الأقصى"، ترجمة اسماعيل علي الحوت، الجزء الأول، طباعة الألوان المتحدة، القاهرة 1961، ص 252.

[8]- مارية دادي،" سنة 1940 المنعرج التاريخي الهام في مسير المقاومة المغربية"، مجلة المقاومة، العدد 36، شتنبر 1994، ص ص 56-66، ص 57.

[9]- عبد الكريم غلاب، "تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب"، الجزء الأول، ص 223.

[10]- ألبير عياش، " المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية"، ص 396.

[11]- الطائفة: هي المجموعة السرية التي تعد القيادة العليا للحزب الوطني التي كانت تخرج القرارات عنها.

12- أبو بكر القادري، "مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1941 إلى 1945"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، الجزء الثاني، ص 156.

13- علال الفاسي، " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، ص 250.

[14]- وقع البيان من طرف 8تجار أو صناعيين، و5 فلاحين أو ملاكين عقاريين و 6 موظفين مخزنيين، و 4 قضاة، و 7 من أعضاء المهن الحرة و 10 علماء و 18 من أعضاء سلك التعليم، " البير عياش"، المرجع السابق، ص 396.

15- البير عياش، "المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية"، ص 396.

[16]- عبد الكريم غلاب، "تاريخ الحركة الوطنية المغربية"، الجزء الأول، ص 293-294.

17- إرشاد حسن، "حزب الاستقلال(1944-1974) من الأمة إلى الطبقة"، مجلة الجسور، الرباط العدد الثالث، السنة الأولى، تشرين الأول، كانون الأول، 1981، ص 46.

[18]- أبو بكر القادري، " محمد الخامس، ملامح من حياته وصور من جهاده"، ص 85.

[19]- عبد الخالق الرحموني، التحدي الحضري ورهان الاستقلال"، مجلة المقاومة، العدد: 43، يونيو1996، ص ص (33-37) ص 35.

20- رقية بلمقدم، "زيارة سيدي محمد بن يوسف إلى طنجة، التوقيت واختيار المدينة"، زيارة السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى طنجة، ص ص(80-99)، ص 96.

[21]- علال الفاسي،" نداء القاهرة"، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الثانية، 1981، ص 159.

[22]- عبد الله كنون، "رحلة محمد الخامس التاريخية لطنجة"، مجلة دار النيابة، العدد 10، السنة الثالثة، 1996، ص ص (47-56)، ص 50.

23- محمد حمو الإدريسي، الحركة الوطنية في الشمال ودورها في استقلال المغرب والجزائر"، ص 59.

[24]- عبد العزيز التمسماني خلوق، " ملامح من تاريخ طنجة المعاصر"، منشورات سليكي إخوان، طبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، ص 72.

[25]- عبد الله كنون، "رحلة محمد الخامس التاريخية إلى طنجة"، مجلة دار النيابة، العدد 10، السنة الثالثة، ربيع 1996، ص ص(47-56)، ص 50.

[26]- علال الفاسي، "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، مطبعة الرسالة، الطبعة الرابعة، ص 258.

[27]- أحمد عبد السلام السامرائي، "جهود أحمد بلافريج في تقديم وثيقة الاستقلال المغربية عام 1944"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية(مجلة علمية محكمة)، المجلد السابع، العدد 20، أبريل2015، ص 103.

[28]- قاسم الزهيري، "محمد الخامس الملك البطل"، مطبعة أكدال، الرباط.

29- اسية بنعدادة، "الملك محمد الخامس والمطالبة بالاستقلال"، ميثاق11يناير 1944 وردود الفعل المختلفة".

[30]- أحمد عسة، "المعجزة المغربية"، دار العلم للطباعة، بيروت 1975، ص 231.

31- أبو بكر القادري، "مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية"، الجزء الثاني، ص 241-242.

[32]- أحمد عبد السلام السامرائي، "جهود أحمد بلافريج في تقديم وثيقة الاستقلال المغربية عام 1944"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية(مجلة علمية محكمة)، المجلد السابع، العدد 20، أبريل 2015، ص 105.

[33]- نعمة السعيد، "المغرب العربي، استعراض للمعالم الحضارية لأقطار المغرب العربي وتطور أنظمتها السياسية ما قبل وبعد الاستقلال"، دار الحرية، بغداد، ص 101.

[34]- صلاح العقاد، " المغرب العربي من الاستعمار إلى التحرر القومي"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الجزء الثاني، ص 223-224.

[35]- "مفاوضات اكس ليبان"، مقال إلكتروني، سنة 2015، ص 1.

[36]– "معاهدة اكس ليبان تفتح شهية المستفيدين من الاستقلال"، جريدة "المساء"، العدد 2594، سنة 2015، ص 20.

[37]– "بوطالب: مؤتمر"اكس ليبان" انتهى قبل أن يبدأ"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014، ص 8.

[38]– " لهذه الأسباب رفض بوعبيد مفاوضات"اكس ليبان"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014، ص 9.

[39]– "عندما صرخ المهدي المنجرة: " إنها خيانة"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014، ص 10.

7. قائمة المراجع:

– أبو بكر القادري، "مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1941 إلى 1945"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، الجزء الثاني.

– أبو بكر القادري، "محمد الخامس: ملامح من حياته وصور من جهاده"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1990.

– أحمد عبد السلام السامرائي، "جهود أحمد بلافريج في تقديم وثيقة الاستقلال المغربية عام 1944"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية(مجلة علمية محكمة)، المجلد7، العدد20، أبريل 2015-06-09.

– أحمد عسة، "المعجزة المغربية"، دار العلم للطباعة، بيروت 1975.

– ألبير عياش، "المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية"، سلسلة معرفة الممارسة، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، أبريل 1985.

– إرشاد حسن، "حزب الاستقلال(1944-1974) من الأمة إلى الطبقة"، مجلة الجسور، الرباط العدد الثالث، السنة الأولى، تشرين الأول، كانون الأول، 1981.

– آسية بنعدادة، "الملك محمد الخامس والمطالبة بالاستقلال،ميثاق 11 يناير 1944 وردود الفعل المختلفة".

– روم لاندو، "تاريخ المغرب في القرن 20"، ترجمة: نيقولا زيادة، مراجعة الدكتور أنيس فرحة، نشر دار الكتاب الدار البيضاء بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1980.

– روم لاندو،" أزمة المغرب الأقصى"، ترجمة اسماعيل علي الحوت، الجزء الأول، طباعة الألوان المتحدة، القاهرة 1961.

- رقية بلمقدم، "زيارة سيدي محمد بن يوسف إلى طنجة، التوقيت واختيار المدينة"، زيارة السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى طنجة.
- عبد الكريم غلاب، " تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب"، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الثانية 1987، الجزء الأول.
- عبد الله كنون، "رحلة محمد الخامس التاريخية لطنجة"، مجلة دار النيابة، العدد 10، السنة الثالثة، 1996.
- عبد العزيز التمسماني خلوق،" ملامح من تاريخ طنجة المعاصر"، منشورات سليكي إخوان، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996.
- عبد الخالق الرحموني، التحدي الحضري ورهان الاستقلال"، مجلة المقاومة، العدد: 43، يونيو1996.
- علال الفاسي، "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، مطبعة الرسالة، الطبعة الرابعة.
- علال الفاسي، "نداء القاهرة"، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الثانية، 1981.
- صلاح العقاد، " المغرب العربي من الاستعمار إلى التحرر القومي"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الجزء الثاني.
- قاسم الزهيري،"محمد الخامس الملك البطل"، مطبعة أكدال، الرباط.
- مارية دادي،" سنة 1940 المنعرج التاريخي الهام في مسير المقاومة المغربية"، مجلة المقاومة، العدد 36، شتنبر 1994.
- محمد حمو الإدريسي، "الحركة الوطنية في الشمال دورها في استقلال المغرب والجزائر"، مطابع البوغاز، طنجة، الطبعة الأولى 1990.
- مجيد أيور، "وثيقة 11يناير 1944،سياق استحواذ البرجوازية بقيادة النضال ضد الاستعمار"، الجريدة الالكترونية"المناضل-ة"، العدد 11، مارس 2006.
- "مفاوضات اكس ليبان"، مقال إلكتروني، سنة 2015.
- نعمة السعيد، "المغرب العربي، استعراض للمعالم الحضارية لأقطار المغرب العربي وتطور أنظمتها السياسية ما قبل وبعد الاستقلال"، دار الحرية، بغداد.

الجرائد

- "معاهدة اكس ليبان تفتح شهية المستفيدين من الاستقلال"، جريدة "المساء"، العدد 2594، سنة 2015.
- "بوطالب: مؤتمر"اكس ليبان" انتهى قبل أن يبدأ"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014.
- " لهذه الأسباب رفض بوعبيد مفاوضات "اكس ليبان"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014.
- "عندما صرخ المهدي المنجرة: " إنها خيانة"، جريدة "المساء"، العدد 2529، سنة 2014.

الرحلات العلمية التوّاتية نحو المغرب الأقصى في الفترة الحديثة – دراسة في ظاهرتي التأثير و التأثّر

The Scientific Journeys of Touat towards Morocco during the Modern Era–A Study in the Phenomena of Influence and Affectedness

د. سالم بوتدارة

جامعة أدرار/ الجزائر، salem2900@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/14 **تاريخ القبول:** 28 /2021/01 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

ملخص:

تعتبر الرحلة في طلب العلم مظهرا من مظاهر الحركة العلمية والنشاط الثقافي، ففيها تحصل الملاقاة بأعيان العلماء ونبهاء الطلبة، وبها يكتسب طالب العلم مَلَكات جديدة، وبسببها يتم جلب أمهات الكتب ونفائس المصنفات العلمية..، ولقد أدرك التواتيون كغيرهم من الجزائريين هذه الفوائد فشدوا الرحال لتقصيها وتحصيلها، فقصدوا حواضر شتى كتونس ومصر وحواضر المشرق العربي وبلاد السودان الغربي والمغرب الأقصى، هذا الأخير الذي شكلت حواضره منذ قرون محط أنظار العديد من العلماء وطلبة العلم التواتيين الذين نزلوا بالمغرب مؤثرين في الحركة العلمية هناك ومتأثرين بها، ومساهمين في بناء علاقات ثقافية نشيطة بين حاضرتهم وحواضر المغرب الأقصى في الفترة الحديثة.

الكلمات الدالة: توات، المغرب، الرحلات، العلماء، المخطوطات.

Abstract:

Journeys to seek knowledge are considered aspects of scientific movement and the cultural activity, in which excellent scholars and students meet to exchange knowledge, precious books and valuable volumes. Like the other Algerians, people of Touat have been aware of these benefits; as a result, they have traveled to different cities such as Tunisia, Egypt, Arabic cities in the East, Western Sudan and Morocco. This latter has been the direction of scholars and students of Touat since centuries where they have affected the scientific movement and they have been affected as well. They have also enriched the cultural

relationships between Touat and the cities of Morocco in the Modern Era.

Keywords: Touat ,Morocco, Travelling, Scientists, Scripts.

مقدمة:

تعتبر منطقة توات الواقعة بالجنوب الغربي الجزائري، ملتقى تجمع واستقرار بشري منذ فترة قديمة، وقد شكلت نقطة تواصل هامة بحكم موقعها الجغرافي بين حواضر ومدن المغرب الإسلامي في الشمال والمراكز الحضارية الواقعة جنوب الصحراء، وربطت مع حواضر تلك البلدان علاقات ثقافية شاملة تأثيرا وتأثّرا، عن طريق الرحلات العلمية لطلبة العلم والعلماء.

وسترصد هذه الدراسة – عن طريق المنهج التاريخي وأدواته- إجابة مقتضبة عن إشكالية محورية تتعلق أساسا بدوافع وظروف الرحلات التواتية نحو المغرب الأقصى في الفترة الحديثة، والتعرف على أشهر العلماء الذين رحلوا إلى هناك، ومدى مساهمتهم في إثراء المشهد الثقافي بالمغرب.

1. لمحة عن المكانة العلمية لحاضرة توات وحواضر المغرب الأقصى في الفترة الحديثة

تتربع توات حاليا على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراست بالجزائر، وقد حددت هذه الأجزاء التي عرفت بإقليم توات من طرف المؤرخين المتقدمين[1] الذين رسموا لها معالم متباينة اتّسمت بالبساطة أحيانا وبالتركيب أحايين أخرى.

وقد تميزت منطقة توات بكثرة المراكز والبيوتات العلمية خلال الفترة الحديثة، وازدهار النشاط العلمي بها، ومردّ ذلك جملة من المعطيات التاريخية، شكّلت خلفيات متراكمة لانبعاث الحركية الثقافية بالمنطقة، حيث توزعت المراكز والمدارس والزوايا عبر ربوع القصور التواتية من شمالها إلى جنوبها، مع تسجيل نوع من التّمايز في المستويات والقدرات، أملته طبيعة كلّ قصر وخصوصياته، وكان لتلك المراكز والعلماء القائمين عليها عظيم الفضل في تكوين نخب علمية.

وبالرغم من صعوبة الوصول إلى توات في تلك الفترة، نظرا لوقوعها في أقاصي الصحراء، فإن ذلك لم يحل دون تفاعلها مع محيطها الخارجي، حيث تمكنت من رسم علاقات ثقافية متعددة مع الحواضر والبلدان في الشمال والجنوب، شكلت على مر العقود شبكة واسعة من التقارب والتواصل العلمي وتبوّأت بذلك مكانة بين الحواضر السائدة في الفترة الحديثة.

وإذا كان هذا عن حاضرة توات، فإن بلاد المغرب الأقصى وما تحتويه من حواضر علمية هامّة تُعتبر بمثابة مركز إشعاع ثقافي في شمال إفريقيا خلال الفترة الحديثة، لذا اتخذها طلبة العلم والعلماء التواتيون وجهتهم العلمية الأولى، فشدوا الرحال للتعلم في المدارس والجوامع هناك، فارتسمت بذلك معالم العلاقات الثقافية بعد أن كانت مجرد هجرات تحمل طابع اجتماعي بحثا عن الرزق أو الأمن بين حاضرة توات وحواضر بلاد المغرب الأقصى.

وقد كان لوقوع توات على محور الحج المغربي في أزمنة خلت دور مهم في صنع وتمتين العلاقات العلمية من خلال رحلات الحجاج المغاربة، وهجرات بعضهم إلى توات واستقرارهم بها، حيث يعود الفضل في التأسيس العلمي لحاضرة توات إلى كثير ممن حلّوا بها قادمين من المغرب الأقصى، حاملين معهم بذور الإزدهار العلمي.

ولم يكن الأعلام أو العلماء المغاربة وحدهم من جسدوا تلك الصلات العلمية بين حواضر المغرب الأقصى وحاضرة توات، فقد كان القسط الأكبر في هذه العلاقات قد صنعه طلبة العلم التواتيون الذين فرضوا وجودهم على المشهد الثقافي بالمغرب، رغم المنافسة العلمية الحادة، وجعلوا من التّتلمذ على علمائها والحصول من عندهم على إجازات علمية مفخرة وهدف أسمى يتكبدون عناء السفر ومشقته لتحصيله، مما أهّل الكثير منهم إلى الانتصاب في منابر العديد من حواضر المغرب، وطاب لهم المقام هناك، حتى وافت المنية بعضهم هناك فدفنوا بها، ومقابرهم – إلى يوم الناس هذا- شاهدة على ذكراهم التي جمعت بين توات وحواضر المغرب الأقصى في تواصل علمي منقطع النظير.

2. العوامل المشجعة للرحلات العلمية

للرحلات العلمية عوامل ومسببات، يُعدّ توفرها محرك قوي ساعد طلبة العلم والعلماء على السفر والترحال، ومن تلك العوامل نذكر:

1.2 . الوحدة المذهبية:

إن عموم المذهب الملكي في بلاد المغرب الإسلامي بما فيه توات، ساعد على تبادل الآراء في القضايا والنوازل الفقهية بين أهل توات والحواضر الأخرى ومثال ذلك نازلة اليهود التي وصل صداها إلى فاس والجزائر العاصمة وتلمسان وتونس، إضافة إلى أن الوحدة الدينية والمذهبية سهّلت على بعض أعلام توات في رحلاتهم تبوأ مقاعد للتدريس والإفتاء[2]، كلها أسباب مهدت لهم توطيد الصلة ببلاد المغرب الأقصى.

2.2 . طلب الإجازات العلمية:

الإجازة مصطلح علمي ابتكره علماء الإسلام في بداية عصور الرواية، وهي في معاجم اللغة مأخوذة من الإذن[3]، الهدف منها توثيق العلوم المتمثلة في ذلك الوقت بالقرآن الكريم ومرويات السنة المطهرة، ثم تطورت لتشمل الكثير من العلوم.

يحصل الباحث من خلال الإجازة على حق الرواية، أي الإذن في الرواية وبذلك يمكنه المشاركة في الساحة العلمية، وتكون الإجازة بإذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه، ولو لم يقرأها عليه، وذلك بقوله أجزت لك أن تروي عني كتابي هذا أو كتاب فلان الذي حدثني به، أو ما صحّ عندك من مسموعاتي.[4]

وعندما يجيز الشيخ الطالب في علم أو مجموعة من العلوم أخذها عنه، يذكر سنده في ذلك العلوم، مبينا الشيوخ الذين أخذ عنهم، متسلسلين إلى مصدرها الأول، فقد كان ذكر السند من علامات الثقة لذا أصبح العديد من طلبة العلم التواتيون يشدون الرحال إلى المغرب لأجل الحصول على إجازة من عا لم مشهود له.

3.2. تقارب مناهج التعليم والثقافة:

حيث أن التشابه الحاصل في طرق التدريس ومناهج التلقي بين توات وحواضر المغرب الأقصى، يسهل على الوافدين الاستيعاب في الحلقات العلمية والفائدة نفسها بالنسبة للطلبة

التواتيين عند تنقلهم إلى المغرب الأقصى، والأمر هذا شجع كذلك العلماء والشيوخ على عقد مجالس علمية لهم بالمغرب، وعموما نجد ابن خلدون يشيد بنجاعة هذه المناهج وثرائها عند تعرضه لمناهج التلقي في المشرق والمغرب[5].

4.2. الموقع الوسط بين حواضر الشمال وبلاد السودان:

حيث تعتبر توات همزة وصل ما بين الشمال والجنوب حيث تمر بها الكثير من طرق القوافل التجارية وركب الحجيج والمسافرين، ولم تكن هذه القوافل بمنأى عن الاحتكاك العلمي، وخلق ظاهرتي التأثير والتأثر[6]، مما ولّد علاقات علمية انعكست إيجابيا على الحركة العلمية والفكرية بتوات.

5.2. الزوايا والمؤسسات التعليمية:

إن تعدّد وظائف الزوايا تعليم وإطعام وإيواء جعل طلبة العلم وعابري السبيل يقصدونها من كل جهة فساهم ذلك في تعرفهم على المنطقة، فكانوا بمثابة همزة الوصل بين مناطقهم المختلفة وتوات، هذا إضافة إلى الدور التي مارسته الزوايا الصوفية بطرقها المختلفة.

6.2. مساهمة الطرق الصوفية في تشجيع الرحلات التواتية إلى المغرب الأقصى:

عرفت الطرق الصوفية انتشارا واسعا في بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري نتيجة الإتصال بالمشرق عن طريق الحج والرحلات، والتتلمذ على أعلام التصوف، وانتشار المؤلفات الصوفية كالرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، فظهرت ببلاد المغرب عدة طرق صوفية، انبثقت عن طريقتين أساسيتين هما الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية.

وقد تنوع نشاط هذه الطرق، فقامت بأدوار متنوعة من خلال نشاط شيوخها وزواياها المتواجدة في مختلف المناطق، حيث ساهمت بدور فاعل في التواصل بين دول المغرب العربي وكانت دافعا إلى شد الرحال من أجل ملاقاة شيوخ الطريقة واخذ الأوراد[7].

كما ساهمت الزوايا التي أسسها شيوخ الطرق في كل من الجزائر والمغرب، من خلال الدور الذي كانت تقوم به والوظائف المتعددة التي أنيطت بها، في مظاهر التواصل بين هاته المناطق، وهذا بفضل التعليم الذي جعلته في متناول المجتمع، وبنشاط شيوخها، الذين ساهموا

في نشر التصوف، والعلوم الدينية، حيث صارت قبلة للطلبة والأتباع من مختلف الجهات، فأصبحت لزوايا الغرب والجنوب الغربي الجزائري بما فيه توات صلة بزوايا المغرب الأقصى.

ومن هنا اكتسبت الظاهرة الصوفية في شكلها الطرقي، أهميتها وخصوصيتها المتميزة عن طريق الإنتشار خارج الحدود الجغرافية، وبرز التصوف المغاربي كعامل موحد بين الشعوب والأقطار المغاربية، وساهمت فيه الثقافة المشتركة التي سمحت بالتواصل وتعزيز الروابط ووحدة الإنتماء، وخلق صلات روحية بين سكان المغرب الأقصى ومنطقة توات.

7.2. تقارب العادات والتقاليد:

وذلك عن طريق الهجرات والتواصل الاجتماعي، وهكذا نلاحظ تشابها كبيرا بين ساكنة توات من جهة وأهل فاس وغيرها من حواضر المغرب الأقصى من جهة أخرى، خاصة فيما يتعلق بأساليب الحياة الاقتصادية والحِرَف والصناعات وغيرها من أساليب إقامة الأفراح والمناسبات، مما يشجع الطلبة والعلماء على التنقل أو الاستقرار مساهمين بذلك في تفعيل حركية المعاملات والعلاقات المختلفة بما فيها العلمية والفكرية.

8.2. حركية التجارة والتجار:

تعتبر حركة التجارة والشغف بالتعلم عاملان أساسيان في فتح أبواب التعامل بين الشعوب الإفريقية، ومن ثمة أثرهما المباشر على العلاقات العلمية بين هذه الشعوب، حيث زاد نشاط التجار الفقهاء، وراجت تجارة الكتب رغم وقوع بعض المناطق في أقاصي الصحراء حيث تكثر المعيقات الطبيعية التي تعرقل مسيرة قاصديها، ومثال ذلك منطقة توات التي رغم موقعها البعيد عن عواصم الدول وحواضر العلم الكبرى القائمة في العصر الحديث، إلاّ أن استطاعت بفضل علمائها وموقعها على نقطة تقاطع طريقي القوافل التجارية شمالا وجنوبا مع خط قوافل الحجيج شرقا وغربا، أنْ تشكل شبكة واسعة من التقارب والتواصل العلمي.

ونظرا للموقع الإستراتيجي لمنطقة توات، بحكم كونها همزة وصل بين الشمال والجنوب، فقد حرصت القوافل التجارية، ومواكب الحجاج، والمسافرين المارين بها، التوقف

بأسواقها، قصد التزود بما تحتاجه إليه من المؤن والماء، فضلا عن التبادلات التجارية، التي كانت توفرها تلك الأسواق التواتية للحجاج، والمسافرين.[8]

فقد كانت تمنطيط مركزا تجاريا بحكم توسطها الطريق الجنوبي، القادم من سجلماسة، والعائد إليها من تمبكتو، وصحراء التكرور، كما كانت تأتيها القوافل التجارية من الطريق الشرقي، والذي ينطلق من طرابلس، ليمر ببجاية، والمنيعة، ثم تمنطيط ليصل أخيرا إلى السودان الغربي[9].

كما كانت هناك طرق تجارية أخرى تمر على توات، منها الطريق الوسط الشمالي، الذي ينطلق من توات، ليمر على واد الناموس، وعين الصفراء، والمشرية، وسعيدة، ليصل إلى مناطق الوسط من الشمال[10].

والطريق الغربي الذي يتبع مجرى واد الساورة، وتسلكه القوافل التجارية المتجهة نحو سجلماسة، ومراكش، وفاس[11].

وترتبط توات كذلك بأسواق السودان الغربي عن طريق خط عين صالح، وأقبلي، المتجه نحو تمبكتو، المار بقصر المبروك، وأروان.[12]

هذا فضلا عن استعمال تلك الطرق التجارية، من طرف مواكب الحجاج، والمسافرين لمقاصد مختلفة.[13]

ولم تكن هذه القوافل التجارية، ومواكب الحجاج بمنأى عن الاحتكاك العلمي، وخلق ظاهرة التأثر، والتأثير، مما انعكس إيجابا على الحركة العلمية، والحضارية بمنطقة توات.

3. الرحلات العلمية التواتية نحو حواضر المغرب الأقصى:

لِتبيان تلك الصِّلات العلمية سنركز على العنصر الفاعل فيها وهو المشائخ والعلماء الذين صنعوها وجسدوها على أرض الواقع، إضافة إلى إبراز القضايا والمسائل التي ساهمت بدورها في خلق جو التواصل الثقافي، وأيضا إظهار طبيعة هذه العلاقات.

1.3. نحو حاضرة فاس:

تعتبر فاس[14] العاصمة العلمية ومركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأقصى، لذا اتخذها التواتيون وجهتهم العلمية الأولى، فشدوا الرحال للتعلم في مدارسها وجوامعها كالمدرسة المصباحية[15] وجامع القرويين[16] الذي تعاظم إشعاعه الفكري والحضاري رغم تداعي الدول قياماً وسقوطاً، فارتسمت بذلك معالم العلاقات الثقافية بعد أن كانت مجرد هجرات تحمل طابع اجتماعي بحثا عن الرزق أو الأمن بين الحاضرتين.

وقد كان لوقوع توات على محور الحج المغربي دور مهم في صنع وتمتين العلاقات العلمية من خلال رحلات الحجاج المغاربة، وهجرات بعضهم إلى توات واستقرارهم بها، حيث يعود الفضل في التأسيس العلمي لحاضرة توات إلى كثير ممن حلّوا بها قادمين من فاس، حاملين معهم بذور الازدهار العلمي، كالشيخ سليمان بن علي الإدريسي الذي نزل بالديار التواتية قادما من فاس سنة 580هـ/1184م، وأسّس بأولاد وشن زاويته التي أصبحت مقصدا لطلبة العلم من كل مكان.[17] وكذلك الشيخ ميمون بن عمرو بن محمد الباز الذي قدم مع أبيه وأخيه التهامي من فاس ونزلوا بتمنطيط ثم استقروا بأولاد محمود،[18] ويعد الشيخ ميمون أب العائلة البكرية بتمنطيط التي تميزت بعلمائها الذين كان لهم الفضل في إدارة عجلة الحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في العصر الحديث.

ولم يكن الأعلام أو العلماء الفاسيين وحدهم من جسدوا تلك الصلات العلمية بين حاضرتي توات وفاس، فقد كان القسط الأكبر في هذه العلاقات قد صنعه طلبة العلم التواتيون الذين فرضوا وجودهم على المشهد الثقافي بفاس، رغم المنافسة العلمية الحادة، وجعلوا من التّتلمذ على علمائها والحصول من عندهم على إجازات علمية مفخرة وهدف أسمى يتكبدون عناء السفر ومشقته لتحصيله، مما أهّل العديد منهم إلى الإنتصاب في منابر فاس للتدريس، وتعدّت شهرتهم هذه المدينة إلى المغرب الأقصى برمته، وطاب لهم المقام بفاس حتى وافت المنية بعضهم هناك فدفنوا بها، ومقابرهم – إلى يوم الناس هذا– شاهدة على ذكراهم التي جمعت بين توات وفاس في تواصل علمي منقطع النظير، ومن هؤلاء:

- **الشيخ أبو الحسن علي بن الحاج التواتي:** (ت 1058هـ / 1648م) ، الذي اشتهر بالعلم والصلاح، وضريحه بين المدن عدوة فاس، قرب مسجد الشوك، يُزار ويُتبرك به، وإليه يشير الشاعر في قوله[19]:

وسيدي علي التواتي بجامع الشوك من السُرات.

- **الشيخ عبد الرحمان المعروف بمعاذ التواتي (ت1104هـ /1693م)** ، كان مشهورا بالصلاح عند الكافة من أهل فاس، ذا أحوال وكرامات، لا يأكل إلا من عمل يديه، أحبه الناس في حياته، ثم اختلفوا حول موضع دفنه بعد وفاته، فحفر له ثلاثة مقابر، كل يبتغي البركة من وراء ذلك[20] . وقد أشار إليه وإلى كراماته صاحب ارجوزة صلحاء فاس قائلا.[21]:

كذا التواتي له كرامه *** من زاره نال به مرامه

- **الشيخ عبد السلام بن محمد الجعفري التواتي (ت 1155هـ / 1742م)** من المشهورين بعلمهم وتقواهم بفاس، لازم الجلوس في القرويين، وكان يجلس له أقوام لاستماع معارفه، فيأتي من ذلك بما يسحر الألباب ويقضي منه العجب العجاب، اعتلى مراتب الطريق والولاية، فكان يقول " الطريق أولها فنون ووسطها جنون وآخرها قيل يكون وقيل لا يكون ".[22]

- **الشيخ الكوش التواتي الموري (ت 1158هـ /1745م)**: كان آدم اللون، من أهل توات الذين استقروا بفاس، ثم انتقل إلى جزيرة المورة قرب البندقية، بعد أن سيطر عليها الأتراك العثمانيون، مقدما للطريقة الطيبية الوزانية، فانتشر صيته واشتهر بملازمة السنة واجتناب البدعة[23].

- **الحاج محمد التواتي (ت 1183هـ / 1769م)**: دفن بفاس ، وحضر جنازته جمع عظيم ، وكذا زوجته فقد كانت طيبة العشرة ، كان هو يدعي أنها السبب في صلاحه وتقواه، بينما كانت هي تدعي في حياته وبعد مماته أنه السبب في صلاحها وتقواها، ولم تلبث حتى توفيت بعده ودفنت بإزائه[24].

– **أبو العباس أحمد بن محمد بن الونان التواتي (ت 1187هـ / 1773م)**: من فحول الشعراء، يعود نسبه إلى العرب من بني معقل ممن توطنوا توات، كان والده من ندماء سلطان المغرب محمد بن عبد الله العلوي، وهو من كنّيَ بأبو الشمقمق تشبيها بالشاعر الكوفي الماجن المشهور. ثم انتقل ذلك اللقب إلى أبنائه ، ومنهم أبو العباس بن الونان.[25] ، كان صاحب قريحة سيّالة، وخاطر متدفق وفكر نقاد ، قصد السلطان العلوي محمد بن عبد الله ، ولما تعذر عليه الوصول إليه ، اعترضه في موكبه ونادى بأعلى صوته :

يا سيدي سبط النبي *** أبو الشمقمق أبي

فعرفه السلطان وأمر بإحضاره إلى منزله، فحضر وأنشد بين يديه الأرجوزة الشهيرة التي أصبحت تعرف بالشمقمقية، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهارا لا مزيد عليه، لما احتوته من أغراض شعرية وفنون أدبية مختلفة، مثل الغزل والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها، مما يدل على غزارة علمه وقوة ملكته، وهي قصيدة قافية في نحو ثلاثمائة بيت[26].

وفضلا عن أولئك العلماء ذوي الأصل التواتي الذين عاشوا ودُفنوا بفاس، تذكر المصادر المحلية عشرات الأعلام التواتيون الذين اتخذوا هذه الحاضرة محطة رئيسة من محطات حياتهم العلمية، وتصدّروا حِلق التدريس والإفتاء خلال الفترة الحديثة، وقد عاد معظمهم إلى قصور توات محمّلا برصيد معرفي هام وخبرات متراكمة، ومساهماً في تنشيط الحركية الثقافية بتوات، ومن أبرز هؤلاء الشيوخ:

- **الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني** الذي رحل إلى فاس ومكث بها ثلاثَ عشرة سنة، حيث تتلمذ على عدة علماء معروفين بتضلعهم في اللغة والنحو بحاضرة فاس، منهم العلامة النحوي محمد بن زكري الفاسي[27]، ومحمد العربي بن محمد مقلب الفاسي[28]، وإدريس المشاط[29]، كما تصدر للتدريس بالمدرسة المصباحية وبجامع القرويين.[30]

- **الشيخ البكري بن عبد الكريم بن أمحمد** الذي شدّ الرحال إلى مراكز العلم ومواطن العلماء فزار مراكش وفاس.[31]
- **الشيخ الشاذلي بن عمر بن عبد القادر التنلاني** (ت1760/1173م): تتلمذ ودرّس بفاس مثل والده المذكور آنفا وتوفي هناك.[32]
- **الشيخ عبد الرحيم بن محمد التواتي** (1189هـ/1775م): تنقل إلى فاس لطلب العلم فحفظ القرآن بالقراءات السبع، ثم عاد إلى توات.[33]

ولم تكن الرحلات العلمية وتنقل الأشخاص إلى فاس وحدهما من يصورا تلك العلاقات العلمية التي ربطت بين حاضرتي توات وفاس، بل كذلك المراسلات والمحاورات والفتاوى خاصة تلك المرتبطة بالنوازل كالذي حصل مع نازلة اليهود – كما تقدم ذكره-، أو كتلك المراسلة العلمية[34] التي كاتب الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني علماء فاس حول ثلاث مسائل فقهية مستشكلاً كلام الشيخ علي الأجهوري، والشيخ الشبرخيتي، والشيخ الخرشي والشيخ الزرقاني في شروحهم على مختصر خليل، منتقدا كلامهم، مما حفّز الفقيهين المغربيين الشيخ التاودني بن سودة لوضع حاشية على الزرقاني، والشيخ الهلالي لضبط منهج دراسة كتب المذهب.[35]

2.3. نحو حاضرة سجلماسة:

اعتبرت سجلماسة عبر تاريخها الطويل مركز استقطاب للعلماء ورجال العلم والأدب، وذلك بفعل عمقها التاريخي وثقلها الحضاري، وبفعل ساكنتها المختلطة النشيطة، وبفضل التيارات الفكرية والمذهبية.[36]

وقد كانت تربطها مع توات طرق القوافل التجارية ومراكب الحجيج، حيث يذكر العياشي في رحلته أن طريق سجلماسة – توات، كانت من أفضل طرق الحج،[37] كما أن المحاولات التي قامت بها سجلماسة من أجل تنويع علاقاتها الثقافية سواء مع المشرق العربي أو مع المراكز الحضارية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، لم تكن لتصل درجة محاولاتها لصنع علاقات متميزة بالممالك الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، إذ رغم صعوبة مسالك

الصحراء الكبرى فإنها لم تكن أبدا حاجزا،[38] والمعلوم أن توات تتوسط الطريق الرابط بين سجلماسة والحواضر الإفريقية جنوب الصحراء كتنبكتو.

وكثيرا ما كانت قوافل ركب الحجيج أو حتى القوافل التجارية السجلماسية تحمل معها علماء أجلاء نزلوا بتوات، فتهافت طلبة العلم التواتيون على حلقاتهم مستغلين تواجدهم بينهم للحصول على العلم والإجازات، ومثال ذلك ما حصل للشيخ محمد المكي بن الصالح السجلماسي (ت.ق12هـ)، الذي نزل أثناء أحد رحلاته بتيمي من بلاد توات، فقصده طلبة العلم ومنهم عبد الرحمان بن عمر التنلاني، حيث أخذ عنه علم التجويد بالقراءات السبع.[39]

ولم يتّكل طلبة توات على من يحلّ بديارهم من العلماء لأخذ العلم عنه، بل ارتحلوا إلى مواطن أولئك العلماء لحضور مجالسهم، وذلك الذي بادر إلى فعله الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني نفسه، إذْ ارتحل إلى سجلماسة للتعلم على يد الشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي[40]، وصالح بن محمد السجلماسي.[41]

ولقد حاول محمد بن عبد الرحمان بن عمر التنلاني تتبّع خطى أبيه، فقصد سجلماسة للدراسة على يد عالمها أحمد بن هلال السجلماسي، الذي أشاد بالمستوى العلمي لتلميذه، فراسل أباه عبد الرحمان مُخبراً إيّاه بقوله:

إن الهلال إذا رأيت نموه *** أيقنتَ أن سيكون بدرا كاملاً.[42]

وهي إشارة من الشيخ الهلالي إلى أن علامات النجابة بادية على محمد بن عبد الرحمان التنلاني، وصفات العلماء ظاهرة عنده.

كما قصد الشيخ الفقيه الحاج محمد البلبالي حاضرة سجلماسة ومكث بها زمنا طويلا قبل أن يعود إلى توات ويعتزل الحياة وتصاريفها.[43]

ولم تقتصر العلاقات العلمية بين حاضرتي توات وسجلماسة على الملاقاة الشخصية الناتجة عن شدّ الرحال، بل شملت كذلك المراسلات، كتلك التي كان يقوم بها أحيانا بعض طلبة توات حين يسافر شيخهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي إلى المشرق ويبطئ

عليهم مجيئه، أو يتعذر عليهم لقاؤه، فإنهم يلجئون إلى مراسلته كتابيا في الزاوية التي كان يدرّس بها في سجلماسة.[44]

وقد أرسل الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي برسالة إلى القاضي محمد عبد الله القراري (ت1035هـ/1625م) يشهد له فيها بالتقدم في العلم والصلاح.[45]

وتجدر الإشارة إلى أن عدد من طلبة توات تتلمذوا على يد الشيخ ابن أبي محلي السجلماسي، منهم الشيخ عبد الكريم بن أمحمد التمنطيطي (ت1042هـ/1633م) الذي التقى به سنة 1013هـ/1605م، في مدينة بني عباس بالساورة فأخذ عنه النصف الأخير من ابن التلمساني في الفرائض.[46]

خاتمة:

خلاصة ما سبق فإن النشاط العلمي كان أحد أهم دواعي الرحلات التواتية نحو المغرب الأقصى، وقد ساهمت تلك الرحلات في فسح المجال للتأثير والتأثر العلميين، وتدعيم العلاقات العلمية، حيث أعطتها نفسا جديدا، وذلك بتنويع المناهج والأساليب الدراسية، وتوسيع علاقات علماء الحواضر فيما بينهم، ووصْل علومهم بأسانيد ومرجعيات راسخة عن ثقات الأمة ورجالها، نتج عن ذلك إجازات علمية مُنحت لهم في حواضر المغرب الأقصى العلمية.

كما كان لركْب الحجيج دور فعّال في إعطاء مزيد من التواصل والاحتكاك بين العلماء والطلبة، مثّلت محطات التوقف فيه فضاء واسع لهذا الاحتكاك.

ومثّلت أيضا المحاورات والمناظرات العلمية سبيلا للرحلات من أجل التواصل الفكري بين علماء المغرب ومنطقة توات، ووسيلة إلى توحيد الأفهام والاجتهادات، لتجسّد دورا مهما تمثل في إخراج العلوم من دائرة التلقين والتلقّي إلى دائرة النقاش والبحث.

الهوامش:

[1] – اعتبر العياشي (ت 1090هـ/ 1679م) قرى تسابيت أول عمالة توات من جهة الشمال. يُنظر: أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ج1، ص 79. بينما تمتد توات في نظر محمد بن عبد الكريم البكري (ت 1374هـ/1955م) من تبلكوزة (70كلم شمالي تيميمون) شمالا إلى عين صالح جنوبا. يُنظر: محمد بن عبد الكريم البكري، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة الشيخ عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، ص 10. في حين حصره مارتان (MARTIN) بين مقاطعتي بودة شمالا ورقان جنوبا. يُنظر:

A.G.P Martin: Quatre Siècle d'histoire Marocain, Librairie Félix Alcan, Paris 1923, p 10.

[2] – أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ج2 ص 215.

[3] – ورد في القاموس المحيط أن الإجازة من الفعل استجاز أي طلب الإجازة بمعنى طلب الإذن، وقال ابن الفارس:" الجواز: الماء الذي يسقاه المال من الماشية والحرث، يقال منه استجرت فلانا من أجازني إذا استسقاك ماء لأرضك أو ماشيتك." ينظر: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتبة تحقيق التراث، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط 8، 2005، ص 507.

[4] – محمد بن علي اليلو الجزولي، الإجازات العلمية وعناية المغاربة بها، مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث الشريف والسيرة العطرة، المغرب. www.alqwatan.ma/Article 2020/09/18

[5] – عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، ج2، ص 702.

[6] – عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14هـ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 1، 2005، ص37.

[7] – ابن سعيد علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق :إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة بيروت، 1970،ص126.

[8] – فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنيين 18 و 19، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص78.

[9] . مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص71.

[10] . نفسه، ص26.

[11] . فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص78.

[12] . مبروك مقدم، المرجع نفسه، ص26.

[13] . نفسه ، ص27.

[14] – **فاس**: أهم مدن المغرب الأقصى، أسسها السلطان إدريس الثاني ابن إدريس الأكبر سنة 192هـ /808م بعد أن ضاقت مدينة وليلي عاصمة الأدارسة الأولى بسكانها، وهي مدينتان: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. وقد تصاعدت عمارتها وتفجرت عيونها واستمر إشعاعها زمنا طويلا، خاصة بعد تأسيس جامع القرويين. أما اسمها فقيل أنه بسبب حمل السلطان إدريس فأسا يبدأ به الحفر ويختط به الأساسات، وقيل بسبب العثور على فأس كبيرة أثناء الحفر، وقيل بتغيير وقلب اسم مدينة قديمة كانت هناك منذ ألف سنة واسمها ساف. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1977م ، ج04 ، ص 230 .

[15] – **المدرسة المصباحية**: بناها السلطان ابو الحسن المريني، سميت نسبة إلى أبي الضياء مصباح أول من درّس بها، ينظر: محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاذاة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية، المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 95، ج1، ص56.

[16] – **جامع القرويين**: تم بناؤه من طرف السيدة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني ، بمالها الخاص الذي ورثته عن والدها بدءا من شهر رمضان سنة245هـ /859م ، في عهد السلطان يحي بن محمد بن إدريس، ثم صلت فيه شكرا لله تعالى الذي وفقها لذلك . ومع اتساع مدينة فاس أقيمت فيه الخطبة ، وصنع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول من خطب فيه الشيخ عبد الله بن علي الفارسي. ينظر: علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تحقيق : عبد الوهاب ابن منصور ، الرباط : المطبعة الملكية، ط 2، 1991م، ص46 .

[17] – مبارك جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون، الجزائر، 2009، ص123-124.

18- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، درة الأقلام، مصدر سابق، ص30-32.

19- الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن قبر من العلماء والصلحاء بفاس ، تحقيق : محمد حمزة بن علي الكتاني ، ط 4 ، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس ، 2005م ، ج 01 ، ص340 .

20- محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1996م، ج 05 ، ص1827.

21- محمد المشرع النجار الأندلسي، أرجوزة في مشاهير صلحاء فاس ، تحقيق: خالد بن أحمد الصقلي، ظهر المهراز، فاس، (د.ت)، ص15.

22 – محمد حجي، المصدر السابق، ج06، ص2126.

23 – نفسه، ج06، ص2260.

24 – محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م ، ص108.

25 – مبارك جعفري، علماء توات في حاضرة القرويين بفاس ،خلال القرن 12هـ ، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، 14- 15 أبريل 2009، جامعة أدرار، أدرار، ص139.

26 – عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، المغرب، 1960م، ج01، ص31.

27 – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن زكري، من أعلام فاس. توفي عام 1144هـ/1731م. يُنظر: أبي العباس أحمد المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 165.

28- هو أبو عبد الله محمد العربي بن مقلب الفاسي، فقيها متضلعا في القراءات السبع، يُنظر: محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، مصدر سابق، ج5، ص1961.

29- هو إدريس بن المهدي المشاط المنافي. توفي سنة 1142هـ. ينظر: محمد حجي، نفسه، ج5، ص2024.

30- نقل تلميذه عبد الرحمان بن عمر صورة حية عن أسلوب الإقراء والإلقاء قائلا: "... ولما اشتهر أمره وظهر حاله وفاح طيبه، طُلب منه الإقراء بجامع القرويين ، فأقرأ به مدة جالسا على الأرض ، ثم إن الطلبة لما كبرت الحلقة وضعف عن إبلاغ أقصاها نصبوا له كرسيا ليجلس عليه ، فلما جاء لموضعه على العادة وجده فأبى أن يجلس عليه وجلس بحذائه ، فلما انفض المجلس ألح عليه الطلبة في الجلوس عليه وشكوه

عذرهم فلم يسعفهم بمرادهم وأبى ذلك كل الإباية، فلما رأوا ذلك منه طلبوا حيلة يتوصلون بها لمرادهم، فاتفق رأيهم على أن لا يتركوا له موضعا يجلس فيه إلا موضع الكرسي، فلما جاء غداة ذلك اليوم إلى المجلس، نظر فلم ير موضعا يجلس فيه إلا الكرسي، فجلس عليه. وأخبرني بعض أهل المجلس أنه لما جلس عليه ، لم يزل لونه يحمر ويصفر حتى انفض المجلس، حياء منه وتواضعا رحمه الله ". ينظر: عبد الرحمان التنلاني، تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني (فهرسة الشيوخ)، مخطوط بخزانة تينيلان، أدرار، الجزائر، ص82 .

[31] –محمد بن عبد الكريم بكراوي، المصدر السابق، –نسخة اولف–، ص 01.

[32] – عبد القادر بن عمر المهداوي، الدرة الفاخرة في ذكر مشايخ التواتية، مخطوط بخزانة شاري الطيب، كوسام، أدرار، الجزائر.، مصدر سابق، ص 12.

[33] – عبد الرحمان بن عمر التنلاني، فهرسة الشيوخ، مصدر سابق، ص 153.

[34]– عقب الشيخ عبد الرحمان انتقاده لكلام الشيوخ بقوله: " وبالجملة فكلام هؤلاء الشراح ومن اعتمدهم في الحكم والفتوى والعمل دون مراجعة من تقدمهم ممن يحرر النقول كالشارحين وابن غازي والحطاب والمواق والتوضيح وابن عرفة وغيرهم كابن ناجي والقلشاني من شراح الرسالة لاشك انه لا يسلم من الخطأ لعدم تصدي هؤلاء رحمهم الله لتحرير النقل، وقد كنت إذا خالفتهم في نازلة لم يظهر لي من مخالفتهما النقل المحرر أو القياس الصحيح، يشتد نكير طلبة الصحراء عليَّ لتقليدهم كلام هؤلاء الشراح، فنطلب ممن وقف على هذا المسطور من فقهاء مدينة فاس وفقهم الله تعالى وحرسها من البأس أو غيرها من بلاد مغربنا الأقصى أن يتأمله فإن كان صوابا تفضلا من الله تعالى فليعلم ذلك بخطه ليكون حجة لكاتبه، وإن كان خطأ فقد صدر من محله فلينبه راقمه ليرجع عنه ليتوب إلى الله تعالى وممن تبع عثرات هؤلاء السادات الذين لا يغترف إلا من فضلهم، ولا يسري هذا المسرى إلا بدلالتهم، والسلام على من يقف عليه من السادات ورحمة الله وبركاته، من خديمكم عبد الرحمان بن عمر التواتي وفقه الله". ينظر: عبد الكريم البلبالي، غاية الأماني من أجوبة أبي زيد التنلاني، مخطوط بخزانة الأنصار، أنزجمير، أدرار، جزء البيوع وما شاكلها، ص05.

[35] – زهير قزان، حاضرة توات المالكية أعلامها نوازلها وخصائصها، مذكرة ماجستير، إشراف محمد حوتية، جامعة أدرار، قسم الشريعة، تخصص فقه مالكي، السنة الجامعية 2010-2011، ص 58.

[36] – لحسن تاوشيخت، سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرّامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999م، ص 230.

[37] – أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 71.

[38] – لحسن تاوشيخت، المرجع نفسه، ص 230.

[39] – عبد الرحمان بن عمر التنلاني، فهرسة الشيوخ، مصدر سابق، ص 187.

[40] – هو أبو العباس أحمد بن علي بن إسحاق بن إبراهيم السجلماسي، كان إماما فقيها مشاركا في علوم مختلفة. توفي عام 1175هـ/1761م. ينظر: محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، مصدر سابق، ج7، ص 237.

[41] – عبد الرحمان بن عمر التنلاني، المصدر نفسه، ص 195.

[42] – نفسه.

[43] – عبد الرحمان الجنتوري، نوازل الجنتوري: مخطوط بخزانة الصوفي، بدريان، أدرار، الجزائر.، ص 116.

[44] – عبد الرحمان بن عمر التنلاني، المصدر نفسه، ص 187.

[45] – جاء في نص الرسالة التي بعث بها ابن أبي محلي السجلماسي إلى الشيخ أمحمد عبد الله الجراري ما يلي: " إلى من لا يزال فلك المودة على قطب أشكاله في البرية يدور، وسماء الولاية دائما بقمر شهود أمثاله في الحنادس ينور، ظريف الشمائل، وشريف الوسائل، شمس أحبائه، وسري اصفيائه، غرة وجه القبول، وشامة خد الوصول، العالم العامل، الحاكم العادل، العارف بنفسه فلا يضره العجب، الراغب في أنسه فلا يسره غير القرب، الفقيه النبيه، السيد الوجيه، قاضي الجماعة، وسخي المجاعة، أبي عبد الله امحمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي ثم الجراري". ينظر: عبد الكريم بن أمحمد التواتي: الرحلة في طلب العلم، مخطوط بخزانة الشيخ احمد ديدي، تمنطيط، ص14.

[46] – نفسه، ص 15.

سمك الشابل بنهر أم الربيع (أزمور) زمن الحماية الفرنسية 1912–1956

The Chapel fish in Um Rabia River (Azemmour) during the French protectorate from 1912 to1956

مصطفى الزعير [1(*)]

[1] جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء ، mustaphaezzair@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/11 **تاريخ القبول:** 15/ 2021/04 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

ملخص:

تعد الثروة السمكية مكونا أساسا في المنظومة الإحيائية البحرية والنهرية المغربية ومصدرا مهما لجلب العملة الصعبة بفعل تصديره إلى العديد من الدول على رأسها الاتحاد الأوربي، لكن هذا الكنز الطبيعي يعاني الاستنزاف نتيجة الاستغلال المفرط الأمر الذي يهدد استمراريته، ناهيك عن تعرض جزء مهم للانقراض وعلى رأسه سمك الشابل الذي شكل عنصرا أساسا بالأنهار الرئيسية المغربية سواء بالواجهة الساحلية المتوسطية أو الأطلسية لاسيما نهر أم الربيع، فقد احتل شابل هذا النهر مكانة أساسية في مختلف جوانب الحياة بالمناطق المجاورة للنهر خاصة مدينة أزمور خلال فترة الحماية سواء على مستوى العادات، الطبخ، نمط العيش والحرف، لكن اختفاءه نتيجة عوامل طبيعية وبشرية، انعكس سلبا على مختلف جوانب الحياة بأزمور اقتصاديا واجتماعيا.

الكلمات الدالة: الثروة السمكية، الشابل، نهر أم الربيع، أزمور، الصيادون، الحماية.

Abstract:

Fishery and the abundance of fish are considered as basic components in the Moroccan sea and river system and important source of foreign currency because fish is exported to a lot of countries especially the European Union. However, this natural treasure suffers from depletion which is a threat to its sustainability. In addition, other species face extinction such as the Chapel fish which has been abundant in most Moroccan rivers that are close to the Mediterranean or the Atlantic ocean especially Um Rabia River. People in Azemmour and the surrounding regions relied on the Chapel fish for their livelihood cuisine,

(*) **المؤلف المرسل: مصطفى الزعير** : mustaphaezzair@gmail.com

customs during the French protectorate. The Chapel fish extinction, due to many natural and human factors, had several repercussions on the social and economic aspect of life in Azemmour.

Keywords: fishery, the chapel fish, Um Rabia River, Azemmour, The fishermen, The protectorate.

1. مقدمة:

يزخر المغرب بالعديد من الأنهار والوديان سواء بالواجهة الساحلية الأطلسية أو المتوسطية، تشكل وسطا بيئيا ملائما يكتنز مجموعة من الكائنات الحية التي تعتبر إحدى المكونات الأساسية للمنظومة البيئية خاصة في فصل الشتاء الذي يتسم بارتفاع منسوب مياهها العذبة .

إن إبراز الأهمية البيولوجية الكبيرة للأنهار المغربية ولاسيما غناها السمكي يفرض بالأساس استحضار أحد مكوناتها الأساسية التي تتمثل في سمك "الشابل"، أهم أنواع الأسماك التي شكلت لعدة قرون جزءا هاما بمملكة الأحياء المائية للأنهار المغربية، لقد حضي هذا السمك بمكانة هامة، حيث شكل لمدة طويلة السمك المفضل لدى معظم المغاربة، كان صيده نشاطا موسميا أساسيا لا يقل أهمية عن باقي الأنشطة الفلاحية لعدد كبير من الساكنة المحلية المجاورة للأنهار الرئيسية المغربية لاسيما نهر أم الربيع .

يعد نهر أم الربيع[1] وسطا بيئيا ملائما احتضن لقرون عديدة مجموعة من الكائنات الحية أهمها سمك الشابل، مثل خلالها عنصرا أساسيا في مختلف جوانب الحياة بمدينة أزمور، العادات، الطبخ، ونمط العيش. وقد ازدادت أهميته خلال فترة الحماية الفرنسية بالمغرب، إذ حظي باهتمام كبير من طرف الفرنسيين[2]، استمرت مكانته إلى بداية التسعينات من القرن 20 حيث اختفى نهائيا بفعل عوامل طبيعية، بشرية وتقنية. وبالرغم من مرور عقدين على اختفاء "الشابل"، لا يزال هذا السمك حاضرا في مخيال المغاربة .

سنحاول خلال هذا المقال، رصد تاريخ الشابل بنهر أم الربيع إبان القرن 20 ولاسيما خلال فترة الحماية، من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية : ماهي الخصوصيات التي اتسم بها سمك الشابل بالمغرب وخاصة بنهر أم الربيع ؟ ماهي فترة صيده والأدوات المستعملة في ذلك ؟ ما أهم

الطقوس والعادات المتبعة في صيده بأزمور؟ أين تكمن أهميته الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة لساكنة أزمور؟ وأخيرا ماهي أهم عوامل انقراضه؟.

2. صيد سمك الشابل بنهر أم الربيع : خصائص سمك الشابل، موسم صيده ، طقوسه،أدوات وطرق صيده.

1.2خصائص سمك الشابل

ينتمي سمك الشابل إلى عائلة الصابوغيات Clupéidés التي تضم كذلك السردين والأنشوجة[3].يعد الشابل سمك سطحي بحري يعيش في مجموعات متعددة الأفراد كما أنه سمك مهاجر يقوم بهجرات طويلة المسافة، يقطع 700 كيلومتر داخل الأنهار ويلج أعالي مياه الأنهار العذبة لوضع البيض على سطح الماء ثم يستقر في الأعماق ويعود الكبار مباشرة بعد وضعه إلى البحر، وبعد أربعة أيام إلى ثمانية تخرج الصغار من البيض في مياه تتراوح حرارتها ما بين 17 و18 درجة، تضل الصغار سنة أو سنتين في الأنهار قبل الذهاب للبحر حيث تضل به إلى أن تصل قمة نموها ونضجها بعد مرور أربع سنوات لتعود للنهر الذي ولدت فيه لوضع البيض[4].

يميز العلماء بين ثلاثة أنواع رئيسة تتميز بتشابهها الكبير في خصائصها مع السردين، رأس صغير، عيون كبيرة ومستديرة، زعانف قليلة النمو، مع اختلاف طفيف جدا في بعض الخصائص الثانوية، يسمى النوع الأول Alosa sapidissima أو شابل الولايات المتحدة الأمريكية، بينما الثاني Alosavulgaris Cuvier أما الثالث يطلق عليه[5] Alosafinta Cuvier .

يوجد بالمغرب المطل على واجهتين بحريتين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط نوعان من الشابل، الأول يسمى أسماك الشابل الكبير أو الحقيقي ألوزا ألوزا Alosavulgaris يبلغ طوله ما بين 70 و80 سنتيمتر ولديه بقعة سوداء واحدة فقط خلف الخياشم ويحتوي على ما بين 60 و80 من الخياشيم. أما الثاني يسمى الشابل الصغير ألوزا فالاكس Alosafinta أصغر حجما من الشابل الكبير يصل طوله ما بين 50 إلى 52 سنتيمتر، ظهره أزرق داكن وجوانبه فضية لديه ستة إلى سبع بقع سوداء حيث يظل العدد مختلف لكنه يتجاوز دائما ثلاثة بقع يتوفر على 25 إلى 30 من الخياشيم[6].

تجدر الإشارة إلى أن الذكر أقل جودة من الأنثى لما تحتوي عليه من الدهون والبيض يتراوح وزنها ما بين كيلوغرامان وخمسة كيلوغرامات[7].



الصورة 1 : منطقة صيد الشابل بواد أم الربيع

المصدر: Gruvel Abel, op.cit, p124 .

1.3 فترة الصيد بنهر أم الربيع

يتميز سمك الشابل بموسم خاص لصيده ينطلق في نهر سبو نهاية نونبر أو بداية دجنبر لتنتهي فترة الصيد في مارس أو أبريل، يمتد في بعض الأحيان إلى غاية ماي كحد أقصى، أما في نهر أبي رقراق فيبدأ من دجنبر إلى غاية ماي من كل سنة، في حين يمتد بنهر أم الربيع من منتصف أكتوبر وينتهي في ماي[8] .

يظهر سمك الشابل في نهر أم الربيع في مطلع شهر أكتوبر لكنه يظل في مصب النهر ولا يصعد للأحواض المتوسطة والعليا للتيار المائي إلا في شهر يناير مما يقلص مدة الصيد التي لا تنطلق إلا في يناير وتنتهي في ماي، وتعزى أسباب بقاء سمك الشابل بالمصب إلى حاجته للتأقلم الضروري لإتاحة الفرصة أمامه من أجل العبور التدريجي والسلس من مياه البحر المالحة لمياه النهر العذبة. لكن مدينة أزمور محظوظة نظرا لتواجدها قرب المصب حيث يستفيد الصيادون من بداية صعود الشابل، لذلك يمارسون صيده طيلة الفترة الممتدة من منتصف أكتوبر إلى غاية ماي، كما أنهم يستفيدون من فترة نزول السمك ابتداء من مارس لكن النزول أقل استفادة للصيادين لأن السمك ينزل ضعيف البنية لكونه لا يتغذى في الماء العذب وخلال فترة طرح البيض[9].

3.2 طقوس وعادات صيد الشابل بأزمور.

يتسم صيد الشابل بنهر أم الربيع بعدة طقوس وممارسات أساسية يمارسها الصيادون لكسب الرزق والحصول على صيد وفير وثمين خلال موسم الصيد من أهم هذه الطقوس: يتم افتتاح موسم الصيد بأزمور في منتصف شهر أكتوبر إلى غاية نهاية شهر ماي[10]، يدشن الموسم بطقس هام يتجلى في قيام تعاونية صيادي أزمور بذبح ستة خرفان هدية للأولياء الستة الأكثر حظوة وأهمية بالمدينة الذين يسهرون على حماية النهر وهم سيدي قاسم مول الولجة، مولاي بوشعيب، سيدي عبد القادر الجيلالي، سيدي وعدود، سيدي امْحيدَة بلحاج ولالة عيشة البحرية .

يقوم الصيادون بطقس ثان يتمثل في توزيع أول سمكة جيدة يتم اصطيادها من طرف كل قارب على المتسولين، ويمنحون 1% أو% 2 دون عد الأسماك الصغيرة صدقة على الفقراء الذين تهدد لعنتهم الصيادين الذين يبخلون عليهم بالعطاء والصدقة[11].

إضافة لهذا يستعد مختلف المتدخلون لموسم الصيد عن طريق عقد اجتماع يضم الصيادين وأصحاب الزوارق في ضريح مولاي بوشعيب أو ضريح سيدي وعدود أو في إحدى زوايا المدينة الثلاث: الحمدوشية والدرقاوية والعيساوية. وقد أضحى رجالات هذه الزوايا يشرفون على الاستعداد لموسم الصيد بغية تشجيع الصيادين على الصيد[12].

يتجلى الطقس الرابع في تقديم وجبات لحم الثيران والأبقار للفقراء في سنوات الصيد السيئ لجلب البركة والرزق[13]، ويتم اقتطاع مصاريف هذه الذبائح والهبات من عدة أطراف متدخلة في عملية صيد الشابل بأزمور كالآتي : 1/16 للريس الكبير، 1/16 لريس المركب، 7/16 لطاقم المركب أي أربعة صيادين والريس الذي يدفع مرتين، وأخيرا 7/16 لمالكي المراكب[14].

تعرف مدينة أزمور عادة وصول عدد كبير من الفقراء للاستفادة من هبات سمك الشابل التي يمنحها إياهم الصيادون جلبا للخير والرزق الوفير [15]. ويحظى السلطان بنصيبه من الأعراف إذ دأب الصيادون على إرسال السمكتين الأولتين من صيد سمك الشابل لمطبخه الخاص[16]، ويرسلون إليه سنويا حوالي 100 سمكة من الشابل ضريبة[17].

4.2 أدوات وطرق الصيد

تتكون أدوات الصيد من قارب يتم صنعه من طرف النجارين المحليين بواسطة مراكب خشبية لا يتعدى طولها 5 أمتار وشباك تحيكها النساء. ثم تطورت باستعمال الشباك المستقيمة الثابتة البالغ طولها ما بين 180 إلى 230 وعرضها مترين، تنصب الشباك متعامدة مع النهر خلال فترة الجزر وتجمع حوالي كل نصف ساعة لاستخراج الصيد الذي يتكون من الشابل والبوري وأحيانا الدرعي وسمك موسى أي الصول[18]. وقد بلغ عدد مراكب الصيد86 مطلع الحماية 1914[19].

يتم الصيد بالشباك حيث يمسك بها صياد على الضفة ويركب صيادون في المركب مكونين نصف دائرة لا تتجاوز خمسين مترا ثم يقطعون عنده للضفة وعندما تملأ الشبكة بالسمك يحاولون جرها نحو البر. وقد استعملوا أيضا طريقة أخرى بعد ذلك، إذ أضحوا يجعلون فردا منهم يمسك برأس الشبكة على الضفة ويذهب الصيادون الآخرون إلى الضفة الأخرى ويجرون الشبكة لمسافة طويلة تتجاوز مئة متر وعندما يحسون بامتلائها يجمعونها في اتجاه الضفة القريبة ونستشف من الطريقة الثانية أن سمك الشابل بدأ يقل بالنهر[20].

اتبع الصيادون أسلوب منظم في الصيد لتفادي فوات أوقاته إذ كونوا فرقا تتكون ما بين ثلاثة وخمسة وكل فريق يصطاد ليلة بالتناوب، ويلتزم كل فريق بموعد صيده وصيد الآخرين حيث يسهر الأمين على تنظيم الصيد ومراقبة احترام الصيادين لمواعيد صيدهم[21].

بلغت تكاليف أدوات الصيد إبان الحرب العالمية الأولى ما بين 325 و400 فرنك، أما سنة 1923 فقد بلغت ما بين 900 إلى 1200 فرنك، بينما ارتفعت سنة 1926 ليناهز 1500 فرنك وقد انخفضت خلال الثلاثينات من القرن العشرين لحوالي 750 فرنك ثم ل 500 فرنك. تعد هذه الأرقام كبيرة جدا وتعكس ارتفاع قيمة تكلفة معدات الصيد إذ تتجاوز إمكانيات الصيادين لذلك أصبحت البرجوازية الصغيرة لأزمور تمول معدات الصيد (القوارب –الشباك [22].)

3.الأهمية الاقتصادية والاجتماعية لشابل نهر أم الربيع.

1.3 الإنتاج

تميزت الأنهار المغربية في عهد الحماية بإنتاج مهم لسمك الشابل بلغ حوالي 1000 طن سنويا حوالي 600 إلى 800 طن بنهر سبو، ما بين 20 و30 طن بأبي رقراق، إضافة لحوالي 200 طن بواد أم الربيع وكمية قليلة في نهر ملوية وسوس. يحتل نهر أم الربيع المرتبة الثانية بعد نهر سبو في

إنتاج الشابل وقد عرف الإنتاج اختلافا خلال سنوات الحماية بأزمور حيث بلغ الصيد سنة 1917 -1918 مامجموعه45728[23]. أما سنة 1921 حوالي 8675 سمكة شابل وهو رقم جد ضعيف، في حين ارتفع الإنتاج بشكل كبير خلال السنة الموالية ليصل30371 سمكة وزعت عبر أشهر السنة كالآتي :

الجدول 1 : إنتاج الشابل بنهر أم الربيع خلال الخمس الأشهر الأولى لسنة **1921**

الشهر	الإنتاج بالواحدة
يناير	1326
فبراير	5058
مارس	9027
أبريل	5680
ماي	9820
المجموع	30371

المصدر:.**Gruvel Abel, op.cit, p163**

بلغت المداخيل المالية لسمك الشابل بنهر أم الربيع في عهد السلطان المولى عبد العزيز ما بين 1000 و1500 فرنك، لكن في ظل الاضطرابات التي عرفها عهد المولى عبد الحفيظ اختفت الرسوم، مباشرة بعد فرض معاهدة الحماية قامت سلطاتها بفرض 75 فرنك على كل شبكة صيد مما أدى ارتفاع المداخل التي بلغت 12000 فرنك سنة 1914-1915 و13850 سنة 1915 - 1916 ليصل 14175 خلال 1916 -1917[24] .

لم تكن هذه الأرقام كافية لسلطات الحماية لذلك سعت للرفع من قيمة الأرباح فقامت بمنح حق الصيد بنهر أم الربيع بموجب مزاد علني بلغت قيمته 25000 فرنك، فاز به اثنين من مدينة سلا مدعمين من طرف الأوربيين، فرضوا على مالكي القوارب رسوما قدرها 35 فرنك على كل شبكة إضافة إلى ربع الإنتاج الإجمالي للصيد. لكن هذا الأمر أثار استياء أصحاب القوارب وتعاونية صيادي أزمور الذين احتجوا نظرا لتضرر مصالحهم ومصالح أولياء وفقراء المدينة وطلبوا بإلغاء الرسوم المستحقة عن كل شباك ومنح المخزن جزء من الشابل المصطاد يصل ل 200 واحدة للمخزن، إضافة لحصة لفقراء وأولياء المدينة وذلك من ربع الإنتاج قبل منحه للفائزين بالمزاد العلني[25].

لم يتم القبول بهذه الشروط فارتفعت ذروة الاحتجاج ورفض المالكون وضع قواربهم تحت تصرف السلاويين كمظهر للمقاومة والرفض مما جعل رئيس منطقة دكالة weisgerber ورئيس إدارة شؤون الأهالي الكولونيلBerrian يقومون بإلغاء العقد بحجة عدم استيفاء الفائزين بالمزاد كل الشروط وأهمها إيداع أسماء الصيادين الذين يعتزمون تشغيلهم في أجل شهر واحد، وحصلت بذلك تعاونية الصيادين بأزمور على امتياز صيد الشابل بالنهر حيث احتكرت الصيد مع الحرص على الرفع من قيمة الإيجار تدريجيا حتى وصل 100000 فرنك مع رفض جميع العروض رغم ارتفاع قيمتها والتي تراوحت ما بين 115000 فرنك لأحد الرباطيين و فرنك 150000 قدمه أحد الفاسيين[26].

لكن خلال الثلاثينات بدأت الأرقام تنخفض حيث استأجر النهر 1934 ب 20000 فرنك لينخفض 1935 إلى 3000 فرنك ليصل 1936 لحوالي 2000 فرنك فقط[27].

2.3 أسعار سمك الشابل

يتميز ثمن بيع سمك الشابل بعدم الاستقرار وذلك باختلاف فترات الصيد حيث يتميز بارتفاع سعره في بداية موسم الصيد، خصوصا أولى الشابلات التي تراوحت أسعارها بين 10 فرنكات في بداية موسم الصيدو 2 إلى 3 فرنكات خلال العقد الثاني من القرن العشرين[28].أما في العشرينات من القرن نفسه فتراوح الثمن مابين 15 إلى 18 فرنك للواحدة، أما في موسم الذروة فتنخفض الأسعار بشكل كبير إلى ما بين 1.5 و2 فرنك للواحدة، علاوة على ذلك فان هذا السمك يحظى بشعبية كبيرة لدى المغاربة مما يجعل جميع الإنتاج يباع بشكل سريع في مختلف الأسواق الداخلية الكبرى على غرار مكناس، فاس و مراكش التي تصل إليها في وضعية طرية أو بعد تمليحها[29].

بلغ مجموع سمك الشابل المصطاد بأزمور 1917 -1918 ما مجموعه 45728 بيعت في المتوسط ب 4.5 فرنك للواحدة، أما في بداية موسم الصيد فبلغ ثمنه 10 فرنك للواحدة، في حين وصل ثمنه في بداية فصل الصيد سنة 1923 ما بين 5 و25 فرنك[30].

يعرف السعر اختلافا كبيرا بين بداية موسم الصيد وباقي الفترات، ففي شهر أكتوبر يتميز ثمن الشابل بأزمور بكونه متوسطا ويتسم بجودة عالية وبكميات كافية. ومع بداية يناير تتراجع الوفرة مما يؤدي لارتفاع ثمنه بشكل كبير، مما يجعله لا يعدو في متناول الجميع إلا في شهر مارس، لكنه يغدو قليل اللذة والفائدة والدهون بسبب وضع البيض، هذا ما يجسده المثل الشعبي في المدينة إذ يقول

"شابل يناير يأكله أصحاب الشكاير، أي الأغنياء، وشابل مارس يأكله الدراويش، يعني الفقراء والمساكين[31]".

3.3 طاقم الصيد

يتكون طاقم الصيد من قائد الطاقم يسمى الرايس وطاقم المركب أي أربعة صيادين[32]. بلغ عدد الصيادين سنة 1928 حوالي 900 صياد في حين انخفض العدد خلال سنة 1936 إلى 440 صياد دون احتساب الصيادين الملتزمين بالعمل في نهر سبو، يرجع هذا الانخفاض إلى التدهور الذي بدأ يعرفه الصيد منذ ثلاثينات القرن العشرين، مما فرض على العديد من الصيادين التوجه نحو نهر سبو للعمل، إذ دأبت الشاحنات على نقلهم من أزمور ومنحهم امتيازات متعددة لتحفيزهم من أهمها 40 فرنكا منحة الالتزام و40 فرنك قرض إضافة إلى توفير المأكل والمشرب .

يعود الصيادون في نهاية موسم الصيد بربح وفير ما بين 100 و200 فرنك وقد يصل أحيانا إلى 500 فرنك[33]. مارس الصيد بعض السكان الريفيين المجاورين للنهر على غرار البروج بني مسكين تادلة ولاد زيدوح وأيضا من طرف الأمازيغ القادمين من الأطلس[34].

4. عوامل انقراض سمك الشابل بنهر أم الربيع

عرفت كمية صيد سمك الشابل بالأنهار المغربية خلال أواخر القرن العشرين تراجعا كبيرا، فقد انخفضت من ألف طن سنة 1917 إلى 671 طن سنة 1965[35]، ثم زادت وثيرة التراجع حيث وصلت الكمية إلى 260 طن سنة1966[36]، ثم 19 طن سنة 1986 وبين3 إلى 8 أطنان خلال التسعينات من القرن العشرين[37]، وقد شمل هذا الانخفاض معظم الأنهار المغربية وعلى رأسها نهر أم الربيع .

أدت عدة عوامل لانقراض سمك الشابل بالمغرب عامة وبنهر أم الربيع على وجه الخصوص، يمكن تصنيفها إلى صنفين أساسيين :

4.1 عوامل بشرية

يبرز على رأسها الاستغلال المفرط والعشوائي لهذه الثروة منذ الاحتلال البرتغالي لمدينة أزمور الواقعة عند مصب نهر أم الربيع إبان القرن السادس عشر، استغله البرتغاليون بشكل كبير جدا لتزويد الأسواق المحلية بل وتصديره إلى للأسواق البرتغالية مملحا ومجففا[38]. لم يقف الاستغلال غير المعلقن في عهد الاحتلال البرتغالي، بل استمر عقب ذلك من طرف المغاربة، لكن ذروة الصيد المكثف

للشابل بنهر أم الربيع مارسها الاحتلال الفرنسي ما بين 1912- 1956، مما أثر سلبا على وضعيته بالنهر.

يتجلى العامل البشري الثاني في بناء العديد من السدود على النهر بلغ عددها اثنا عشر سدا، يعد سد سيدي معاشو أولها يعود إنشاؤه لسنة 1929 بهدف الرفع من إنتاج الطاقة الكهربائية وسقي المناطق الفلاحية المحيطة به وسد حاجيات المدن المجاورة من الماء المستعمل في الميدان الصناعي أو الماء الصالح للشرب[39]، مما أدى إلى ارتفاع وثيرة الترمل في مجرى الوادي ومصبه حيث أضحى حاجزا أمام صعود أسماك الشابل إلى مرتفعات النهر لوضع بيضها.

يتمثل العامل الثالث في التلوث الذي تتعدد مصادره يعد أبرزها ضخ سكان المدن المجاورة كخنيفرة وقصبة تادلة لآلاف الأمتار المكعبة من المياه العادمة والنفايات والأزبال، إضافة للتلوث الناتج عن المخلفات الصناعية المقذوفة في مجاري الأنهار أهمها نفايات مصانع السكر الثلاثة الكبرى التي تطرح موادها الملوثة في النهر، المصنع الأول SUTA الذي أنشئ سنة 1966 ينتج 3600 طن في اليوم، المصنع الثاني SUBM تأسس 1969 وينتج يوميا 3800 طن، المصنع الثالث SUNAT تأسس 1971 الذي ينتج ما بين 4000 و6000 طن في اليوم[40].إضافة لنفايات معاصر الزيتون ومعمل السيلولوز والدباغة[41] .

كما أن النهر يستقبل نفايات فوسفاط المكتب الوطني للفوسفاط ورواسب المبيدات الزراعية المستعملة في الأراضي الفلاحية القريبة من النهر بتادلة ودكالة (حوالي 160 طن من المواد الكيماوية الكلورية العضوية و حوالي 100 طن من الفوسفاط العضوية[42]).

4.2عوامل طبيعية

عرف المغرب خلال القرن العشرين العديد من سنوات الجفاف وخاصة خلال السبعينات والثمانينات، مما أدى إلى ضعف المياه بالأنهار و صبيب السدود كسد سيدي معاشو الشيء الذي نتج عنه غياب الظروف المواتية لتكاثر سمك الشابل[43].

صورة 2 : احتضار مصب أم الربيع بأزمور



المصدر:http://eljadida24.com/ar/1200984

تجدر الإشارة أن الدولة قامت بتشكيل لجنة حكومية سنة 1987 لدراسة أسباب انخفاض أعداد سمك "الشابل" في الأنهار المغربية، وأصدرت قرار وزاري من طرف وزارة الصيد البحري سنة 1996 استندت فيه لرأي المعهد العلمي للصيد البحري منعت بمقتضاه اصطياد سمك الشابل في جميع الأنهار والشواطئ المغربية لمدة سنتين ومنحت كل الصلاحيات لمدير الصيد البحري وتربية الأحياء المائية لتنفيذ هذا القرار[44]، لكن هذه الإجراءات لم تكن كافية لحمايته من الاختفاء بشكل تدريجي .

5 خاتمة

شكل سمك الشابل جزءا لا يتجزأ من تاريخ نهر أم الربيع ومدينة أزمور لمدة تزيد عن ستة قرون، أثر خلالها بشكل جلي على مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل وحتى السياسية للمدينة، بل أضحى رمزا من رموزها، لفت اهتمام المستعمر الفرنسي خلال فترة الحماية، استغله بشكل كبير مما أثر على استمراريته وديمومته، زاد الأمر تعاظما بعد الاستقلال في ظل غياب استراتجيات وبرامج للمحافظة على هذا المكون الإحيائي المهم، الشيء الذي أسهم في انقراضه بشكل نهائي خلال نهاية القرن العشرين.

لكن رغم ذلك يظل الشابل مكونا أساسيا من مكونات المخيال والذاكرة المغربية وخاصة السكان المجاورين للأنهار، في انتظار دراسات وأبحاث علمية تدرس إمكانية إرجاعه للأنهار بالمغرب من السواحل الأطلسية الأوربية وتوفير الظروف المواتية لتكاثره ونهج برامج من شأنها المحافظة عليه.

6.قائمة المصادر والمراجع :

1. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا ، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ، الطبعة الثانية،1983، ص247.
2. عبد اللطيف العوام، وادي أم الربيع الصعود والانحدار، أعمال ندوة أزمور حاضرة دكالة،2004، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، المغرب، ص ص 262.-265
3. محمد رمضاني، مادة الشابل، معلمة المغرب، ج 15، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، مطابع سلا، د(.ط)،2002،ص ص 5229-5230.
4. الجريدة الرسمية، عدد4436، 5 دجنبر1996، ص2670.
5. Abel Gruvel, L'industrie des pêches Maroc, son état actuel, son avenir, Mémoire de la Société des sciences naturelles du Maroc, t3, N 2, paris, 1923, pp159-164.
6. Faucherand, les pêches et industries Maritimes au Maroc, 6 congres nationales Des pêches Maritimes, Tunis, 1914,p26.
7. François Bernard, Le Maroc économique et agricole, Paris, 1917, p189.
8. Jean Collignon, Les pêches Maritimes au Maroc en 1966 Résultat Statistique, Bulletin de l'institut des pêches maritimes du Maroc, N 15, 1967, p 60.
9. Ch. Le Cœur, Grandeur et décadence des pécheurs d'Alose d'Azemmour, Bulletin Economique et social du Maroc, Volume 4, N16, 1937, pp130-132.
10. Marc-Richard Sabatier, Recherche sur l'écologie et la biologie des aloses au Maroc, exploitation et taxinomie des population atlantiques biologie des aloses de l'oued Sebou, Université de Bretagne occidentale, 1993,p27-28.
11. R.SABATIÉ, J. BAGLINIÈRE, Quelques traits bioécologiques des aloses du Maroc; un patrimoine culturel et socio-économique récemment disparu, Bulletin Français de la pêche pisciculture, N 362 -363,200, p903.

12. Watier .ch. La pèche de l’alose au Maroc, Tome 30, Annales de l'université de Grenoble, 1918,p98-111.
13. http://eljadida24.com/ar/1200984,05-12-2020.

7.الهوامش

[1]. يعتبر نهر أم الربيع أحد أكبر الأنهار المغربية ينبع من جبال الأطلس يبلغ طوله حوالي 600 كلمتر، يصب في المحيط الأطلسي بمدينة أزمور .

[2] . Watier .ch. La pèche de L’alose au Maroc, Tome 30, Annales de l'université de Grenoble, 1918, p 110.

[3] . . Gruvel Abel, L'industrie des Pêches Maroc, Son état actuel. Son avenir, Mémoire de la Société des Sciences Naturelles du Maroc, t3, N 2, paris, 1923, p159.

[4]. محمد رمضاني، مادة الشابل، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ج15، مطابع سلا، 2002، ص 5229.

[5] . Watier .ch, op.cit, p98-99.

[6] . Gruvel Abel, op. cit, P159.

[7]. عبد اللطيف العوام، وادي أم الربيع الصعود والانحدار، أعمال ندوة أزمور حاضرة دكالة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، 2004، ص265.

[8] . Gruvel Abel, op.cit, p161.

[9] . Watier .ch, op.cit, p110.

[10] . Gruvel Abel, op.cit., P161.

[11] . Ch. Le Cœur, Grandeur et décadence des pécheurs d'alose d'Azemmour, Bulletin économique et social du Maroc, Volume 4, N16, 1937, P130.

[12]. عبد اللطيف العوام، مرجع سابق، ص 262-263.

[13] . Ch. Le Cœur, op.cit, P132.

[14] . Ibid., P130.

[15] . Gruvel Abel, op.cit, p162.

.[16] . Ibid., p 163

[17] . François Bernard, Le Maroc économique et agricole, Paris, 1917, .p189

[18].محمد رمضاني ، مادة الشابل ، معلمة المغرب، مرجع سابق، ص5230.

[19] .Faucherand, les pêches et industries Maritimes au Maroc, 6 congres nationales des pêches Maritimes, Tunis, 1914, p26.

[20].عبد اللطيف العوام، وادي أم الربيع الصعود والانحدار، مرجع سابق، ص263.

[21].المرجع نفسه، ص263.

[22] . Ch. Le Cœur, op.cit, P131

[23] . Ibid, P130.

[24] . Ch. Le Cœur, op.cit, P131.

[25] . Ibid, P131.

[26]. Ibid, p 131.

[27] .Ibid, P132.

[28] . Ibid, p131.

[29] . Gruvel Abel, op.cit, p163-164

[30] . Ch. Le Cœur, op.cit, P130.

[31].عبد اللطيف العوام، وادي أم الربيع الصعود والانحدار، مرجع سابق، ص265.

[32] . Ch. Le Cœur, op.cit, P130

[33] . Ibid, P132.

[34] . Watier Ch, op.cit, p111.

[35].محمد رمضاني، مادة الشابل، مرجع سابق، ص5230.

[36] . Jean Collignon, les pêches maritimes au Maroc en 1966 Résultat Statistique, Bulletin de l'institut des pêches maritimes du Maroc, N 15, 1967, p 60.

[37].محمد رمضاني، مادة الشابل، مرجع سابق، ص5230.

[38] . SABATIÉ, J.L. BAGLINIÈRE, Quelques traits bioécologiques des aloses du Maroc; un patrimoine culturel et socio-économique récemment disparu, Bulletin français de la pêche pisciculture, N 362 -363, 2001 p903.

- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني ،الطبعة الثانية 1983 ، ص247.

1. [39].Marc-Richard Sabatier, Recherche sur l'écologie et la biologie des aloses au Maroc, exploitation et taxinomie des population atlantiques biologie des aloses de l'oued sebou, Université de Bretagne occidentale, 1993, P27.

[40] . Ibid, p 28.

[41].محمد رمضاني ، مادة الشابل، مرجع سابق، ص5230

[42] . Marc-Richard Sabatier, op.cit, p 28.

[43] . Ibid, p 28.

[44] . الجريدة الرسمية، عدد4436، 5 دجنبر1996، ص2670.

تاريخ الصحافة المكتوبة في الجزائر ما بين الحرب العالمية الأولى والاستقلال 1962

History of the written press in Algeria between World War I and independence in 1962

نصيرة بلحوسين (*) 1

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

تاريخ الاستلام: 2021/02/09 **تاريخ القبول:** 2021/03/26 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

ملخص:

يعد التاريخ من أهم أدوات المعرفة، المتعلقة بماضي وحاضر الشعوب والدول، ومما لا شك فيه أن للصحافة المكتوبة دور فعال في تأريخ وأرشفة الأحداث التي تقع خلال فترة صدورها، وذلك من خلال المقالات والريبورتاجات، والصور التي تنشرها.

وقد عرفت الجزائر الصحافة المكتوبة، إبان الغزو الفرنسي لها سنة 1830،وشهدت الصحافة عدة صعوبات وعراقيل كثيرة من طرف الإدارة الاستعمارية التي حاولت تقويض وإفشال تجربة الصحافة في الجزائر، لكونها ترى في الصحافة صوت الشعب والقلم الذي ينشر الوعي لدى أوساط الشعب، وكذا المدافع عن الهوية الوطنية والمقاوم لكل محاولات الاستعمار لطمس الشخصية الجزائرية.

لذا تهدف دراستنا لتقديم عرض تاريخي لأهم العناوين الصحفية الصادرة في الجزائر من الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى إلى غاية عشية استقلال الجزائر 1962، في عمالة وهران وما جاورها والصحراء الجزائرية.

الكلمات الدالة: الصحافة المكتوبة، الصحافة الجزائرية.

Abstract:

History is the most important tool for learning about the past and present of peoples and nations, and there is no doubt that the written press has an active role in the history and archiving of events that occur

(*) نصيرة بلحوسين: belhocinenacera15@gmail.com

during the period of its publication, through articles, reports, and images it publishes about the facts at the time of their occurrence.
Algeria knew the written press during the French colonization in 1830, and the press witnessed several challenges and obstacles on the part of the colonial administration, which tried to undermine and thwart the experience of journalism in Algeria, because it sees in the press the voice of the people and the pen that spreads awareness among them, as well as the defender of national identity and the resistance to all attempts by colonialism to obliterate its character.
Our study aims to present the history of the most important newspaper headlines published in Algeria from The Period from World War I to the eve of Algeria's independence in 1962 in the Oran region and the adjacent Algerian Sahara.
Keywords: The Written Press, Algerian Press .

1. مقدمة:

تجمع المصادر التاريخية على أن نشأة الصحافة المكتوبة في الجزائر تعود إلى بداية الغزو الفرنسي، فالمعروف تاريخيا أن الدول المستعمرة عندما تحتل شعبا من الشعوب، تلجأ قبل كل شيء إلى نشر ثقافتها وعقيدتها الدينية، وعادات مجتمعها لكي تهيمن على هذه الشعوب وخيراتها بحجج إنسانية وهي أنها تحمل الحضارة الراقية لتثقيف هؤلاء البدائيين الجاهلين ولو بالسلاح[1].

لهذا كان أول مبتكرات الحملة الفرنسية للجزائر ميلاد المطبعة وظهور الصحافة، إذ أدرك وزير الحربية الفرنسي "دوبورمون" الأهمية الكبيرة للصحافة والمطبعة في نشر اللغة الفرنسية والديانة المسيحية ،والمجالات الثقافية الأخرى والفنون والأهم من كل ذلك في تلك الظروف نشر أخبار الحملات العسكرية وانتصاراتها. لذلك رأى أن فكرة إصدار صحيفة فوق التراب الجزائري تخدم أهداف الحكومة الفرنسية والجيش، بحيث يتم توزيع هذه الصحيفة داخل فرنسا من أجل إقناع الرأي العام الفرنسي بأهمية هذه الحملة وتقديم أهم الفوائد والمكاسب للدولة من وراء استعمار الجزائر[2]، وتحقيقا لذلك بعث " دوبورمون " رسالة إلى رئيس الوزراء يشرح

له فيها وجهة نظرته حول هذا المشروع ، فالرسالة قد حددت سياسة الجريدة قبل تأسيسها، وتسطر لها الطريق الذي تسير عليه، وتضبط لها أهدافها القريبة والبعيدة . فالجيش هو الذي يشرف عليها ويسيرها دون أن يكون لها الطابع الرسمي للتحدث باسمه. فهو يهاجم فيها من يشاء، ويبالغ بواسطتها في نشر أكاذيب انتصاراته الزائفة على الرأي العام ، ثم ينشر فيها تعليماته، وأوامره، وإعلاناته لأهل البلاد.

وبكلمة واحدة فقد أعطى "دوبورمون" هذه الجريدة قيمة كبرى وأهمية خطيرة وذلك لأنها كانت تعتبر بالنسبة للحكومة مهمة بقدر أهمية الوحدات العسكرية المتوجهة إلى غزو الجزائر .و لنقرأ الرسالة (المنهجية) التي بعث بها " دوبورمون " في اليوم الثامن عشر من شهر مايو عام 1830 من مدينة " تولون " إلى الأمير " بولينياك " لإدراك الأهمية الكبرى التي أعطيت لهذه الجريدة : " ولقد أحسست بالضرورة قبل مغادرتي فرنسا لا للاحتمال أو مكافحة مثل هذه الوسائل التي ستستغل بالتأكيد عندما تصبح جيوش الملك على شواطئ إفريقيا لهذا فكرت في أن جريدة تصدر في مركز قيادتي وتعطي عرضا مضبوطا لأحداث الحملة دون أن يكون لها طابع رسمي، ستحطم دون تقصير ... المقاصد السيئة لنشر حياة هذا البلد. أنها على الأقل وجهة نظر جميع الأشخاص الذين استشرتهم في هذا الموضوع.

وهذه الوسيلة التي تعطي أخبار الجيش دون أن يتحمل أي مسؤولية بأي طريقة كانت بدت لي جد بسيطة و جد ملائمة.

وها أنا أرسل إليكم أيها الأمير ببيان هذه الجريدة (تصميم لهيكل الجريدة)وسترى على أي شرط ستصدر، وما هو هدفها وأهميتها " .

وفي تلك الأيام شرع السيد " ميرل " بالبحث في مدينة " مارسيليا " عن الآلات اللازمة ، والمستخدمين الضروريين للطباعة ، وفي مدة قصيرة استطاع أن يجمع كل ما يريد وما يحتاج إليه صناعة الصحافة ، أي في أقل من أسبوع جمع لوازم الطباعة ، واثنين من المطبعيين و اثنين من الصحفيين. وحملهم على ظهر سفينة كانت قد انضمت إلى الأسطول الذي كان موجودا في عرض المياه، وذلك بيوم قبل الإبحار...". ومما يؤكد الأهمية التي أعطيت لتأسيس

هذه الجريدة التي سوف تكون الناطق الرسمي للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والمدافع عن مشاريعه العدوانية التوسعية ، تلك الدعاية الواسعة التي أقيمت لها في فرنسا، والمنشورات التي وزعت لهذا الغرض، والتي جاءت لتعلن للفرنسيين عن قرب صدور جريدة على شواطئ الشمال الإفريقي، وأنها ستصف على ضفاف نهر الحراش، أو فوق الجبال، أو في قصر الداي.

ولقد ذهبت هذه المنشورات إلى حد بعيد في إعطاء الوعود الكثيرة إلى جمهور القراء والمشتركين الذين سيشتركون، ثم بادروا بفتح مكتب لها بمدينة " تولون " لاستقبال الاشتراكات والمراسلات، وهو الذي يتكلف في نفس الوقت بتوزيع هذه الجريدة فوق التراب الفرنسي . كما أعلن في هذه المنشورات عن الاسم الذي تم اختياره لهذه الجريدة، والتي كتب لها أن تكون أول جريدة فرنسية تأسست فوق تراب الجزائر، فكان عنوانها " ESTAFETTE D'ALGER"أي " بريد الجزائر " وعنوانها الفرعي " جريدة تاريخية سياسية وعسكرية[3].

وقبل الشروع في ذكر أهم الصحف التي صدرت في الجزائر إبان الفترة الاستعمارية فإننا ارتأينا ذكرها حسب المنطقة التي ظهرت فيها، ولقد اعتمدنا في ذلك التقسيم الإداري الذي تبنته الإدارة الفرنسية خلال فترة تواجدها في الجزائر، ففي 1834 أعلنت فرنسا أن الجزائر " أرض فرنسية "، وقسمتها إداريا إلى ثلاث ولايات أو عمالات " ديبارمان " تحت المراقبة المباشرة للحاكم العام، وكل ولاية كانت قد قسمت إلى دوائر " أروندسمان " وبلديات " كومون "، تماما مثلما كان في فرنسا. وهذه الإجراءات الاندماجية كانت قد أصبحت شرعية بدستور 1848 الذي نص على أن الجزائر كانت تشكل جزءا مكملا لفرنسا .(كانت الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي مقسمة إلى ثلاث ولايات: وهران في الغرب ، وقسنطينة في الشرق، وطيطري في الوسط ، وكان على رأس كل ولاية باي معين من طرف الداي ، رئيس الدولة ، أما مدينة الجزائر نفسها فقد كانت مقر الحكومة، والعاصمة الوطنية لكامل القطر ، وقد ورث الفرنسيون نفس النظام وحافظوا عليه[4].

إذن تم تقسيم الجزائر إداريا إلى قسمين : القسم الشمالي وهو الأرض المدنية ويشمل عمالة قسنطينة ، وعمالة الجزائر ، وعمالة وهران ، والقسم الجنوبي، وهو الأرض العسكرية ، ويشمل منطقة تفرت ومنطقة غرداية ، ومنطقة عين الصفراء ، ويلي ذلك ملحقات الصحراء بأرض الجزائر وتدعى منطقة الواحات [5].

كما سنعتمد في عرضنا للتطور التاريخي الصحافة المكتوبة الصادرة في الجزائر من بداية الحرب العالمية الأولى إلى غاية الاستقلال 1962 في كل من عمالة وهران وما جاورها والصحف الصادرة في الصحراء الجزائرية على التسلسل الكرونولوجي أي الترتيب الزمني لظهورها، وهي كالتالي:

2. صحافة عمالة وهران وما جاورها

2-1-صحافة مدينة وهران:

- صوت البسطاء LA VOIX DES HUMBLES :

صدر العدد الأول منها في شهر ماي 1922، من طرف الأستاذ "فاس "M.FACI [6] وهي لسان حال جمعية المعلمين الجزائريين[7]،وقد أعلنت المجلة أنها "مجلة بعيدة عن التحزب السياسي، وبعيدة عن كل تعصب"، وتعلل ابتعادها عن السياسة بـ:

-النزعة الفردانية الطبيعية (التيار الطبيعي) الذي لقي تأييدا من طرف قدامى الجنود الفرنسيين، و المعلمين، فقد كان لنزعتهم الطبيعية ميالة لسياسة التي يدعمها كل من " BENTAMI"و."SOUALH ".

-إن المعلمين والمدرسين الذين هي لسان حالهم ،كانوا ميالين للثقافة الفرنسية اللائكية، فهم في تكوينهم التعليمي ينفرون من كل ما له علاقة بالدين الإسلامي، دين أبائهم.

أ-توجه المجلة

في الحقيقة أن توجه مجلة "صوت البسطاء" يظهر جليا في عددها الأول فقالت:" إن الأمر المتعلق بسياسة الأهالي يشغل اهتمامنا ، وذلك لأهميته القصوى... و نستبعد سياسة "نشر الكره بين الأعراق" ، وندعو إلى الابتعاد عن الشك ، والصراع."، وكانت تدعو أيضا

إلى سياسة الفرنسة ، المطالبة الإدماج، وتحقيق التقارب، الذوبان بين الأعراق من وجهة نظرنا، هي العوامل الأساسية لتحقيق السلام وتطور البلاد، ومن أجل تحقيق ما ذكر قامت في عددها التاسع والستون حملة كبيرة مادحة فيه الثقافة الفرنسية اللائكية، ومظهرة فيه مساوئ وعيوب التعصب الديني، كما قدمت أيضا مقالات تحليلية تظهر فيه أهمية المدارس الفرنسية في تطوير الأهالي الجزائريين.

ب- الخصائص الفنية للمجلة

كانت " صوت البسطاء" عبارة عن مجلة شهرية تطبع بحجم **X16**25، تحرر باللغة الفرنسية، وفي بدايتها كانت تصدر في 22 صفحة، ثم 48 صفحة ، لكن في بعض الأحيان كانت تصدر في 8 صفحات، وقد عرفت عدة صعوبات على مستوى الإدارة والتسيير، فمن شهر نوفمبر 1922 إلى غاية شهر جوان 1923 تقوم دوما بجمع عددين أو ثلاثة أعداد في عدد واحد، وفي شهر جوان 1923 ولسبب إداري يضطر مديرها إلى الاستقالة، فتولى السيد "ZENATI "مهمة إدارتها ، وبالتالي غيرت مقر صدورها من مدينة وهران إلى مدينة قسنطينة.

وفي شهر سبتمبر1928 قامت بتغير توقيت صدورها من مجلة شهرية إلى مجلة نصف شهرية، وهكذا تعرف تشهد عدم انتظام في صدورها إلى أن توقفت عن الصدور بعد أن صدر منها تسعة وستون عدد، ثم تعاود الظهور في شهر جويلية 1939 بعدد يحمل رقم 194. ومن ناحية التمويل فقد كان مضمونا من طرف أعضاء الجمعية، وقد كانت طريقة التمويل يتم عن طريق الاكتتاب في المجلة، والباقي يجمع من الاشتراكات والإشهار، وإما قرائها فلم يتجاوز حدود أعضاء الجمعية، وبعض المثقفين الفرنسيين[8]، ما جعلها تطبع 3000 عدد فقط[9].

-الاتحاد L'UNION EL ITIHAD :

صدرت هذه الصحيفة في 15 جويلية 1927، من طرف"BEN AOUDA HADJ "والمستشار البلدي لولاية وهران السيد"HACéENE BACHARZI "، أما التمويل فقد

تكفل به إلى غاية 16 جوان 1928 من طرف السيد"R.OLIVI DE BAILLEUL "، أين تم تغيير عنوان وممول الصحيفة، فبعدما كان عنوانها "الاتحاد" أصبح عنوانها " ES SANDJAK"، أما التمويل فقد تكفل به مديرها إلى غاية 7 جويلية 1928 أين أصبح السيد "SEBBGH MOSTEFA " ممولا لها إلى غاية 14 أكتوبر 1928 ليخلفه السيد." BOUZIAN ".

وقد كانت الصحيفة تطبع بحجم صغير 50 **X30**على أربع صفحات، أين خصصت الصفحة الرابعة للإشهار، وتم تحريرها باللغة الفرنسية، وتصدر مرتين في الشهر، إلا أنها شهدت عدة انقطاعات في الصدور بسبب صعوبات تقنية و مادية، وبالرغم من هذه الصعوبات استمرت بالصدور إلى غاية الفاتح ماي 1929ن أين توقفت عن الصدور، بعد أن صدر منها 32 عددن منها 17 عدد عندما كان عنونها "الاتحاد"، و15 منها عندما كان عنوانها." ES SANDJAK "

أ‌- الخصائص التحريرية للصحيفة

لقد حرصت الصحيفة من عددها الأول على إبراز أهدافها، وهي " تعريف الأهالي الجزائريين القاطنين في القرى، والمناطق النائية، والبعيدة عن مستعمرنا الجميل (السلطات الفرنسية)، الحرص على تقديم فوائد و مزايا الحضارة الفرنسية، وتعريف الأهالي بالواجبات الملقاة على عاتقهم تجاه الوطن الأم، وتفند كل الترهات و الادعاءات الموجودة في رؤوس أعدائنا الذين يحاولون من خلال أفعالهم و تصرفاتهم إشعال نار الفتنة، وإراقة الدماء في بلدنا".

والملاحظ هنا أن الصحيفة لم تحدد هوية أعدائها الحقيقيين، كما دعت إلى تطوير جانب تعليم الأهالي الجزائريين، وهذه هي أهداف ومساعي الصحيفة قبل تغيير عنوانها ، بالتالي قاما بتغيير توجهها، أصبح شعارها:" الصوت المدافع عن مصالح الأهالي المسلمين الجزائريين"، وهكذا تخلت عن أصدقائها القدامى، وبذلك أصبحت ذلت لهجة قوية تهاجم فيها اللاعدل والظلم ، لكنها حددت حدود لهجتها.

وقد تسببت الحملة التي قادتها ضد المستشار البلدي "BENACEF " إلى تغريمها بغرامة مالية قدرت ب 200 فرنك فرنسي، 1000 فرنك فوائد، ما جعلها تشهد بعض الانقطاعات في صدورها، لكنها تعود للصدور بعد بضعة أسابيع من شهر ماي 1929 وذلك بغية القيام بحملة انتخابية التي كان مديرها مرشح في انتخابات المجلس البلدي بوهران وهذه الحملة هو أخر ما قامت به، إذ توقفت عن الصدور صبيحة هذه الانتخابات. أما فيما يخص توزيعها فقد أعلنت " ES SANDJAK " في عددها 22 الصادر في 21 جويلية 1928:" أنها تملك 1.300مشترك، وتسعى إلى الوصول إلى 2.000 مشترك." وهذا الرقم جد مهم بالنسبة لهذه الصحيفة المحلية ، فهو يدل على أنها ذات حضور، وتأثير في عمالة وهران[10].

-الزراع LE SEMEUR :

صدرت هذه الصحيفة سنة 1929 ، وهي لسان حال حزب القسم الفرنسي للأممية العمالية وهران، وتوقفت عن الصدور سنة1933 [11].

-المغرب العربي AL MAGHRIB EL ARABI

صدر العدد من هذه الصحيفة الأسبوعية في شهر ماي 1937 ، معلنة عن نفسها أنها" لسان حال للشباب الإسلامي"[12] ، وقد أشرف على إصدارها أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الأديب "حمزة بوكوشة" ، وقد سمى هذه الصحيفة ب"المغرب العربي" كردة فعلا عن المصطلح الفرنسي "شمال إفريقيا" ذي البعد الجغرافي ، أما عنوان الصحيفة فهو ذا بعد حضاري[13] ، وصاحب امتيازها "بله محمود" ، وكانت تطبع في أربع صفحات بمطبعة خاصة بها، وحجم عادي.

وصحيفة "المغرب العربي" ذات توجه إصلاحي وطني، مقاوم للفساد الإداري والاجتماعي، و تهاجم بصفة خاصة القياد، والباشاغوات، والنواب الذين يعملون ضد مصلحة الأهالي، ويبدو أنها كانت تستعمل في مخاطبتها إياهم أسلوب قوي، ما أثر حقد

السلطة الفرنسية ضدها، فمنعت عنها " رخصة التوزيع بالبريد"، وهو ما جعل صاحبها يطلب المساعدة من الشباب الإصلاحي لتوزيعها في كبريات المدن.

ويبدو أن تأثيرها كان كبيرا ما جعل عامل عمالة وهران يستدعي رئيس تحريرها، ويوجه إليه كاتب العمالة تهديدا بتعطيل الصحيفة، إن هي استمرت في ملاحقة الحكام المحليين فما كان من "حمزة بوكوشة" إلا أن نشر فصلا من تلك المحادثة التي جرت بينه وبين ذلك الكاتب، تحت عنوان "إلى من نشتكي عنت الليالي"، وهو تعريض واضح للظلم، والتعسف فمكان من الإدارة الفرنسية إلا أن ضايقت صاحب الامتياز والممول الوحيد للصحيفة، فتوقفت عن الصدور بعد أن صدر منها حوالي خمسة أعداد[14] ، وكان ذلك سنة1938[15].

وقد شارك في تحريرها كل من الأستاذ "علي مرحوم"، والشاعر "جلواح العباسي" الذي نشر فيها قصيدة يهنأ فيها بصدور الصحيفة. و كانت الصحيفة تنشر في صفحاتها الأخيرة مقتطفات من الأدب الأندلسي، وبالخاصة ما يتعلق ب"ابن عمار الأندلسي"- تملأ بذلك الفراغ المتبقي من صفحتها الأخيرة [16].

-الوفاق :

صدر العدد الأول منها في 23 مارس 1938، من طرف "محمد السعيد الزاهري" الذي تولى فيها مهمة الإدارة والتحرير، وقد جاء في تعريفها ما يلي:" صحيفة أسبوعية سياسية، تخدم العروبة ، والإسلام"، ومن أجل تطبيق الأهداف التي سطرتها راحت تلح إلحاحا في كل المناسبات على توحيد صفوف الشعب، وتقريب مسافة الخلاف، وتناسي الأحقاد التي فرقت بين أحزابه، فأخذت الصحيفة تكرس صفحاتها لتحقيق هدفها السياسي.

وللافت للنظر في هذه الصحيفة غلبة المواضيع السياسية على حساب المواضيع الأخرى ماعدا ما نشر حول الخصام الذي كان بين الصحيفة، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبينها وبين مشايخ الطرق الصوفية، وأيضا فصول صغيرة عن "التبشير المسيحي "، ومقالا عن التعليم العربي الحر بعد صدور قانون 8 مارس1938 [17].

وقد حاول "الزاهري" أن يبرز صحيفته في إخراج عصري بديع ، فقام بنشر إلى جانب الأحداث الهامة صورا فوتوغرافية عنها، فنجد صورا عن الحرب الدائرة آنذاك في كل من اسبانيان الحبشة ، وصورا كاريكاتورية عن هتلر، وموسولوني، وفرانكو.

وبالرغم من هذه الجهود المبذولة من صاحبها إلا أن الصحيفة عانت من صعوبات مادية وفنية، فقد طبعت في بدايتها في وهران بمطبع خاصة بها، لتتوقف عن الصدور بعد عددها الواحد والعشرين لمدة خمسة أشهر، ثم عاودت الصدور في 23 فيفري 1939 لتصدر مرتين في الشهر ، بعد أن كانت صحيفة أسبوعية، وأصبحت تطبع بالمطبعة العربية بالعاصمة، وصدر منها خمسة أعداد (22-26) في مدة عشرة أشهر، وبداية من 31 ديسمبر 1939 عادت للصدور بوهران، وفي هذه الفترة نجد صاحبها يعلن في عددها السابع والثلاثين والأخير:" إن الوفاق لا يصدر بانتظام ...إلا أن الحق فيه على المشتركين الذين لم يسددوا بدلات الاشتراك، ثم هذه الصعوبات التي أوجدتها الظروف الحاضرة."، وبالتالي فهو يشير هنا إلى الصعوبات الإدارية والمالية التي كانت تعاني منها الصحيفة، وبعد هذا الإعلان تتوقف عن الصدور في عددها السابع والثلاثين المؤرخ في 30 جويلية 1940 [18].

2-2-صحافة مدينة مستغانم

-صحيفة البلاغ الجزائري EL BALAAGH EL DJEZAIRI

صدر العدد الأول منها في 18 جمادى الثانية 1345ه الموافق ل24 ديسمبر 1926 وهي ثاني تجربة صحافية التي خاضتها الزاوية العلوية بإشراف و توجيه الشيخ "العلوي" رحمه الله.

وهي صحيفة تصدر كل يوم جمعة من كل أسبوع ب 1500عدد [19]،و 700 مشترك ابتداء من عددها الأول [20] ، وقد شرحت الصحيفة سبب اختيار هذا الاسم للصحيفة لتمييز هذه الصحيفة عن صحف أخرى تحمل نفس الاسم، فهناك البلاغ المصرية، والبلاغ اللبنانية فأضفيت البلاغ إلى الوطن العزيز الجزائر فاختار لها المسيرون اسم "البلاغ الجزائري".

أما بالنسبة لانتقال الصحيفة من مستغانم إلى العاصمة ، فقد قدم الشيخ "عدة بن تونس" تفسير لذلك فقال:" أما الداعي لهذه الانتقال فانه لا يخفى، وأن الصحيفة تعمل تحت إشراف حزب من رجال الجزائر المؤمنين العاملين جهد المستطاع في حماية الدين، وتنشيط أبناء المسلمين للتدبر في مبادئه، و التعلق بها تعلق الصبي بثدي أمه، وهم وحدهم أيديهم الله بروح منه اقتضى نظرهم انتقال الصحيفة لعاصمة الجزائر لأن ذلك من الترقية لصحيفتهم ما أمره لا يحتاج إلى دليل ، وهذا زيادة على رغبة رجال الإدارة المحترمين، وحيث كان الغرض من ذلك هو توطيد مركز الصحيفة ، وترقيتها" [21].

وقد رفعت صحيفة "البلاغ" شعار " نحن" مسلمون ، إلا أنها قد قامت بتغيير شعارها في عقدها الرابع من القرن العشرين، لتصبح " صحيفة دينية، علمية ، إرشادية، إخبارية" وكانت الصحيفة في أعداها الأولى تصدر في أربع صفحات بحجم 52**X27**، في حين أن أعداد السنة الخامسة أصبحت تصدر في ستة صفحات بدل من أربع صفحات، غير أنها عادت في أواخر أيامها إلى أصلها الأول خلال الحرب العالمية الثانية 1943. والملاحظ أيضا أنه كان يكتب فيها كتاب مغربة ترد مقالاتهم من طنجة، وفاس، والرباط بوجه خاص، وكان هؤلاء الكتاب يمثلون التيار الرجعي في المغرب الأقصى أيضا، إذ كانوا في معظمهم طرقيين، أو متعاطفين مع الطرقية[22].

كما لوحظ أن الصحيفة قد انتصبت لمقاومة مجلة "الشهاب" ، وأصبحت " البلاغ" لسان حال جماعة الزوايا والتعليم الديني الرسمي الذي كانت تسمح به السلطات الاستعمارية[23] وهكذا خاضت الصحيفة معركة مع التيار الإصلاحي تراوحت بين الهجوم والرد على الهجوم بين الفريقين تتراوح بين العنف و دونه و الأدب حينا، وعدم الحشمة حينا أخر، ولقد تخلل هذا العداء فترة وئام ووقف لتبادل الشتم، والتنابز بين الفريقين، وذلك لأسباب من بينها سعي من الخيريين والمتألمين من الأمر السيئ الذي بين خير رجال الأمة ، وقدوتها ومثلها الأعلى فوردت رسالة إلى مجلة "الشهاب" بتوقيع الشيخ" محمد بن بلقاسم" الحفيد البوجيليلي، شيخ مشايخ الزواوة فيها "دعوة إلى حق وخير ونصح للجرائد التي طلقت

ألسنتها في الأعراض بالسب و الشتم مما لا يجيزه الدين ولا تقبله المروءة و يعود على الوطن كله بالعار والنقيصة– بادرنا إلى نشرها موافقين لصاحبها عليها سائلين من الله تعالى ظهور أثرها متبرئين إليه من كل سب و عيب من أي شخص كان....وقوله صلى الله عليه وسلم " من ترك المراء وهو محق بني الله له بيتا في أعلى الجنة، ومن تركه وهو مبطل بني الله له بيتا في بض الجنة" [24].

وأما من ناحية المضمون فقد كان مضمونها متنوع ، فنجد في مقالها الافتتاحي الذي كثيرا ما يكون حول التصوف، أو أمور الدين، أو الأخلاق، أو المناسبات الدينية كالصوم والأعياد يكون مقالا أخر في الصفحة الأولى يهتم بنفس الجانب، ثم في الصفحة الثانية تكون التتمة لأحد المقالين الأوليين أو للواحد منهما، وأخبارا علمية ، وأخرى طرقية من نشأة رجال الطائفة العلوية في مختلف الجهات داخل و خارج الوطن. وهناك أيضا ركن مفردات ، وهو عبارة عن أخبار محلية قصيرة، واهتمت فيه صحيفة "البلاغ" بالشعر فخصصت له ركن يسمى "عكاضيات" وكثيرا ما كانت ترد للصحيفة قصيدة بتوقيع شاعر ، أو ذو الفقار، أو شاعر السنة.

والملاحظ أيضا أنه بالرغم من كون الإشهار مهم في حياة الصحيفة ، فان الإشهار في صحيفة "البلاغ" كان يظهر من حين لأخر، وغالبا ما يتعلق بالإعلانات الاشهارية في حدود الحلال والحياد، وتجنبا للوقوع في أزمة مالية قام مدير الصحيفة بالتجوال لجمع الاشتراكات ، وتحصيل قيمة المبيعات السابقة ، وتلقي المساعدة من المحسنين الذين يتولوا استقبال و استضافة مديرنا ومراسل الصحيفة في بيوتهم. وقد توقفت الجريدة عن الصدور في 19 مارس 1948، بعد أن صدر منها 703عدد[25].

–المرشد:

صدر العدد الأول منها في شهر شوال 1345هـ الموافق لشهر أوت 1946، لصاحبها "الشيخ عدة بن تونس" ، وقدرت قيمة الاشتراكات فيها ب 20 فرنك فرنسي ، وعدد النسخ التي تطبعها هو 200 نسخة شهريا ، و كانت تحرر ثماني صفحات باللغة العربية

وصفحتان باللغة الفرنسية، والغرض من تحريرها باللغتين هو الوصول إلى الفئة المفرنسة التي لا تتقن اللغة العربية، وتعاني من قصور في معارفها الدينية.

وقد قام صاحبها بشرح أسباب إصداره للمجلة فقال:" لا غرض لنا من إصدارها إلا إحياء القلوب ، وتنوير البصائر، والدعوة إلى الله بالحكمة و الموعظة الحسنة عساه ينتبه الغافل "، وبالرجوع إلى المواضيع التي تطرقت إليها المجلة نجدها ترد على أعداء التصوف كما ساهمت في نشر قيم الإسلام ، وتعاليمه السمحة[26] ، هذا تطبيقا لما نعتت به نفسها انه :" مجلة إسلامية، دينية، دفاعية، إخبارية، تصدرها جماعة من المؤمنين على رأس كل شهر قمري[27]" .

ومن بين هذه المواضيع التي عالجتها المجلة، و نذكر:

أ- تناول "المرشد" لموضوع التصوف

لقد أولت المجلة اهتماما كبير للحديث التصوف، والدفاع عن التصوف النظيف المبني على الكتاب و السنة، وصحيح المنقول والمعقول، وسعت لإزالة الشبهات التي يتخذ منها أعداء التصوف ذريعة للهجوم عليه، لذا قامت بالتحدث عن هذا الموضوع من جانبه الشرعي فشرحت تعاليمه ، وتطرقت إلى أحوال المتصوفين وسلوكياتهم، وتناولت تاريخ التصوف ودافعت عن عرض رجال الطرق الصوفية[28].

ب- العناية بالجانب الاجتماعي

لقد تنوعت مساهمات المجلة في علاج المشكلات الاجتماعية ، وتعددت المقالات التي اندرجت في هذا الإطار الهام إلى جانب الموضوعات المتعلقة بالأسرة ، والمرأة ، والسفور والحجاب، و البغاء ، والانحلال الخلقي، لانعدام الموضوعات التي تحث على الإخاء والصدق، واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله ،و أعماله بالانتهاء عما نهى عنه، والطاعة كما أمر به، و قد اتسمت المقالات التي نشرت في المجلة بالحدود الشرعية التي جاءت في الكتاب، والسنة بشأنها فلم تبتعد عن الشرع ، ودعت إلى التمسك بالقيم، و

التعاليم الإسلامية، و دعمت كل أرائها ومواقفها من هذه القضايا الاجتماعية، بما ورد بشأنها من أدلة ، وبراهين من أي الذكر الحكيم.

ج-القضايا السياسية

لقد عاصرت المجلة جملة من القضايا السياسية على مختلف الأصعدة الوطنية، والعربية والإسلامية، والعالمية، فلم تنل من بين تلك القضايا ما نلته من اهتمام قضية فلسطين واستيلاء اليهود على جانب من القدس الشريف، فبتصفح لأعداد المجلة نجد ما يزيد عن عشرة مقالات كلها تهتم بمشكلة فلسطين، والقدس الشريف، وتعبر المجلة عن موقف الشعب الجزائري المتضامن مع الشعب الفلسطيني، واستنهضت جل الصحافة الصوفية همم الجزائريين لدعم، وتأييد الأخوة الأشقاء في فلسطين بجمع التبرعات، والتطوع بالنفس و النفيس من أجل محاربة الصهاينة، وتتبعت نشاطات الهيئة الجزائرية للدفاع عن فلسطين ونددت بمأساة اللاجئين، واستعطفت الضمائر [29]. وهكذا استمرت المجلة بالصدور إلى غاية 1952، أين توقفت عن الصدور، بعد أن صدر منها حوالي ستين عدد [30].

2-3- صحافة ولاية تلمسان:

-العبقرية :

مجلة شهرية أصدرها الأديب" عبد الوهاب بن منصور" بمساعدة تلامذته في مدينة تلمسان في شهر أفريل 1947، وهي ذات توجه إصلاحي ، ولكنها لم تستمر طويلا ، فلم يصدر منها سوى أعداد قليلة جدا[31].

- صحيفة الذكرى:

صدر العدد الأول منها يوم الأربعاء 19 ربيع الثاني 1374هـ الموافق ل15 ديسمبر 1954، و هي صحيفة إرشادية، دينية، إخبارية تصدر مرة بالشهر مؤقتا، و قيمة اشتراكها السنوي يقدر بألف فرنك ، وقد اتخذت الشعارات التالية، فنجد على اليمين قوله تعالى " وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين"، وعن اليسار قوله تعالى" سيذكر من يخشى و يتجنبها

الأشقى"، ولقد طرأ تغيير على آيات بإيراد ما يماثلها في المعنى في بقية الأعداد، وكانت في البداية تصدر في أربع صفحات، وبعد العدد الخامس تم اضافت لها صفحتين.

وقد قامت الصحيفة في مقالها الافتتاحي المعنون ب"الفاتحة بعد البسملة" بتحديد الغاية من صدورها، والمتمثلة في جعل" الذكرى" مصباحا ينير سواء السبيل بنور الإيمان بالله الذي يلزمنا إلزاما ،لأن ننظر كثيرا ، ونتأمل في كل ما نراه صالحا لأفرادنا، ومجتمعنا نظرا يكون أصله المستهدي ديننا الذي ليست لنا السعادة دنيوية، وأخروية ترجى سواه، ولهذا السبب قامت جماعة لها مبدؤها السامي فأخرجت الصحيفة راجية من علماء الأمة ، وكتابها وشعرائها، أن ينظروها بعين الرضا، وأن يؤيدوها بما ينفع أبناؤها بوعظهم الشافي وعظا ، وأمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر[32] ، ومن بين أهم المواضيع التي عالجتها، نذكر:

أ-**التصوف**:

لقد احتل موضوع التصوف محل الصدارة في الصحيفة، و شغل حيزا هاما فيها، فتضمنت جل أعدادها مقالات متفاوتة في الأهمية، ومن حيث العمق، والسطحية، ومن حيث الفائدة غير أنها في مجملها لم تأت بشيء جديد، نظرا للمستوى المحدود للذين تناولوا هذا الموضوع، وهي في معظمها كتابات بدون إمضاء صريح للذين كتبوا تلك المقالات، وقد تنوعت هذه المقالات بين نثر حينا، والشعر حينا أخر.

ب- المناظرات:

لقد تتبعت صحيفة "الذكرى" ما تنشره صحيفة "البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من مواقف، وأراء ، تختلف فيها مع العلماء المحافظين الطرقيين الذين لم يبق في الساحة الإعلامية صحيفة تدافع عن أرائهم، وتبين سداد مواقفهم إلا هذا الصحيفة الحديثة النشأة، والتي ليس لها الأقلام التي تعول عليها في دفع الهجومات المتوالية على رجال التصوف، وشيوخ الطريقة ، والانتقاص من دور الزوايا، والتشكيك في إيمانهم، والاتهام الصريح حينا، والعلني حينا أخر في وطنيتهم، وتدينهم.

وبعد ثمانية أشهر من صدورها ، تتوقف الصحيفة عن الصدور في 31 أوت 1955، بعد أن صدر منها ثمانية أعداد فقط[33].

3-الصحف الصادرة في الصحراء

3-1-الصحافة الصادرة في بسكرة

- **صدى الصحراء**L' ECHO DU SAHARA SADA ESSAHRA

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة في 23 نوفمبر 1925 ، وهي صحيفة علمية، أدبية، اجتماعية، انتقادية، شعارها " العمل على درء المفسدة قبل جلب المصلحة، وكانت تصدر كل يوم الاثنين من كل أسبوع. وقد كان يديرها و يشرف على تحريرها السيد "أحمد بن العابد العقبي"، وكانت تطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة [34]، و لوحظ أن الصحيفة بعد عددها السابع أضافت إلى عنوانها الجملة التالية:" من تسامح في حقوق بلاده و لو مرة واحدة، بقي أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان"، ثم تلتها جملة "حب الوطن من الإيمان. "[35]

وقد شارك في إصدار هذه الصحيفة كل من الأمين العمودي، والشيخ الطيب العقبي ومحمد العيد الشاعر، ومن خلال شعاراتها يتبين لنا أنه كانت تهدف إلى ملاحقة البدع وتعقب الطرقية الضالة، كما كانت غالب مقالاتها تدعو إلى إصلاح هذا الدين مما علق به من شعوذة، وتضليل ، وسارت في الخط نفسه الذي سارت فيه "الشهاب" ، وتبدو نزعة " صدى الصحراء" الوطنية الإصلاحية جلية في أول أمرها، فقد كانت تهاجم الصحف ذات التوجه الانتفاعي، المسالمة للحكم الفرنسي كالجريدة "النجاح . "[36]

لكن على ما يبدو أن الظروف لم تسمح للصحيفة لاستكمال مهمتها، وتبليغ لرسالتها فابتداء من عددها العاشر المؤرخ في 8 فيفري 1926 تدخل في أزمة على مستوى الإدارة فقد كان هناك خلاف بين مديرها وممولها حول الأحقية بملكية الصحيفة، و ما أدى إلى عدم انتظامها في الصدور، وبالتالي تتوقف عن الصدور في 29 مارس 1926 في عددها الرابع عشر[37].

وقد دام توقفها هذا ثماني سنوات ، لتعود للصدور مرة أخرى في 25 سبتمبر 1934 بمناسبة الانتخابات الإقليمية ، التي ناصرت فيها الصحيفة الاندماجين [38]، وبذلك خلعت لبوسها الإصلاحي ، فقامت بمهاجمة صحيفة "الثبات" لعبابسة الأخضري بكلمات فيها كثير من الوقاحة، وسوء الأدب، وهاجمت في عددها السابع عشر جمعية العلماء صراحة لأنها كانت تناصر الدكتور "سعدان"، والحكيم" جلول"، إذ قالت:" إلى جمعية العلماء... لقد كنا نحترمك و نقدرك لوظيفتك الدينية، أما اليوم قد دخلت في السياسة، واشتغلت بالانتخاب فلم يبقى لنا من احترام نحوك ولا تقدير"[39] .

–الخصائص الفنية للصحيفة

لقد تولى "أحمد بن العبد العقبي" مهمة تسير الصحيفة، و أما التمويل فكان مضمونا من طرف "موسى بن عمر العقبي" ، وذلك إلى غاية العدد العاشر المؤرخ في 8 فيفري 1926، فابتداء من العدد الحادي عشر الصادر في الفاتح مارس 1926 تولى السيد" أحمد العابد العقبي" مهمة إدارة ، وتحرير ، تمويل الصحيفة.

وقد كانت صحيفة" صدى الصحراء" تصدر بصفة أسبوعية، تحرر باللغة العربية، وتصدر في أربع صفحات بحجم متوسط **X3855**، لكن الجريدة لم تستمر طويلا، فقد توقفت عن الصدور في 12 أكتوبر 1934، بعد أن صدر منها في مرحلتها الثانية هذه سوى ستة أعداد من أثل عشرين عدد المجموع الكلي [40]، ومن بين الكتاب الدين كتبوا في هذه الصحيفة في مرحلتها الأولى ، نجد: "أبو يعلي الزواوي"، و"أحمد بن الدارجي العقبي" "محمد الصالح خبشاش"، و"أبو اليقظان"، و"عسول بن علي"، و"الفرقد" ، غيرهم، كما نجد فيها كتاب من تونس أمثال" سوسي القيرواني"، و"مصطفى بن شعبان"، و"محمد الفائز القيرواني"، والملاحظ أنها كانت تستخدم أسماء مختصرة، أو رمزية أمثال: "غضنفر" و"مصلح"،و "القفاري"، و"الصحرواي"، و"مشجع"، و"مفكر"، و"متسائل"، و"ابن عدي"، و"الغريب ق.س"، وغيرهم [41].

–الحق البسكرية LA Vérité EL HACK

صدر العدد الأول منها في 10 شوال 1344هـ الموافق لـ23 أفريل 1926، وقد صدرت من المطبعة الصحراوية باسم "علي موسى العقبي" مديرها ، وصاحب امتيازها، وكان شعارها "حب الوطن و الاتحاد"، ومباحثها:" العلم، و الدين، والتهذيب، والآداب السياسية" [42]، وعلى الرغم من هذه الشعارات الضخمة مثل" الحق يعلو ولا يعلى عليه" فإنها كانت في الواقع هزيلة في مواضيعها، فقيرة في تنوعها، ضعيفة في إخراجها، ولم يلتف الكتاب حولها، فلم يوجد فيها سوى مقالات قليلة" للشيخ العقبي"، و"صالح خبشاش"، أما أسلوب صاحبها فقد كان ركيكا ضعيفا، بحكم ثقافته المحدودة، وانشغاله بالتجارة.

ويلاحظ غلبة الاتجاه الديني على هذه الصحيفة، ويبدو من مقالات صاحبها تحمسه للطريقة العليوية، وإيمانه بنزعتها الدينية، ولعل اتجاهها هذا جعل الشيخ " الطيب العقبي" و "الأديب " صالح خبشاش" ، يتخليان عن الكتابة فيها، فانقطعت عن الصدور بعد أن فقدت المشتركين، والقراء، وأعوزها العون المادي [43]، وقد كان تاريخ توقفها عن الصدور في 18 سبتمبر 1926، بعد أن صدر منها خمسة عشر عدد، وكانت تحرر في صفحتين بحجم 50. **X32**[44].

- الإصلاح

صدر العدد الأول منها في 8 سبتمبر 1927[45] ، من طرف الشيخ "الطيب العقبي" الداعية الإصلاحي من أجل العمل على تحطيم الخرقات [46]، وقد جاء في تعريفها أنها " صحيفة نصف شهرية، تصدر باللغة العربية، و هي ذات بعد ديني ، بعيدة كل البعد عن الميولات السياسية"[47] ، أو هي بتعبير أخر "صحيفة إسلامية حرة (حرة في مباحثها، و هي دينية قبل كل شيء) تصدر مرة في الأسبوع. "[48]

وفعلا فقد أحدثت صحيفة " الإصلاح" هزة قوية في دوائر أصحاب الطرق و الزوايا يومئذ نظرا لشدة لهجتها، وقوة حجتها في مهاجمة كل أنواع البدع و الضلالات السائدة آنذاك في أرجاء الوطن، و التي كانت تتنافى مع روح الإسلام الصحيح.[49]

وقد حاول الشيخ "العقبي" في البداية طباعة الصحيفة في تونس، فلم يتمكن من ذلك لوجود عراقيل متعلقة بالطبع و النقل، ليحاول فيما بعد إنشاء مطبعة لها في بسكرة ، وفعلا نجح في ذلك [50]، وقد فتحت الصحيفة منذ البداية جبهة واسعة لملاحقة الخرافات و الأوهام، وفضحت ما في الزوايا من خبايا، وهو ما جعل صحيفة "البلا غ الجزائري" لسان حال العليوية تتصدى لها هي الأخرى من حين لأخر، وتحقيقا لهدفها استعان بمجموعة من الكتاب ذوي الأقلام المتحمسة، والأساليب الراقية، أمثال " الشيخ المبارك الميلي"، و"محمد الأمين العمودي"، و"محمد السعيد الزاهري. [51]"

وشهدت الصحيفة عدم انتظام في الصدور إلى غاية سنة 1930 ، أين توقفت عن الصدور في عددها الرابع عشر، لكن تعاود الظهور مرة أخرى سنة1939 [52] بالعاصمة أين كان "الشيخ الطيب العقبي" مرابطا في نادي الترقي، وقد تم طباعة الصحيفة في المطبعة العربية التي كان يملكها "الشيخ أبو اليقظان" [53] ، وقد تصدر هذه الطبعة العاصمية الآية الكريمة" إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب" وكانت عريضة الصفحات، تصدر بحجم 56 **X37**على أربع صفحات[54] ،و قد خصص "الشيخ الطيب العقبي" الصفحة الرابعة لمجاني الأدب، وفيه ينشر مختارات شعرية لشعراء جزائريين: "محمد العيد"، و" محمد بسكر"، و"مفدي زكرياء"،" ورمضان حمود"، وغيرهم من الشعراء الذين ترجم لهم السنوسي في كتابه "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، ويوجد أيضا ركن خاص بالمسابقات الشعرية التي تدعو إلى تشطير بعض الأبيات، فتكون بذلك مجالا للمنافسة و التباين، وركنا ثالثا لمأثور القول من الأحاديث، والأمثال و الحكم، وكانت صحيفة "الإصلاح" تعنى بحياة رجال الفكر و الأدب، فنشرت التفاصيل الدقيقة عن حياة الرسام الشهير "ناصر الدين" بمناسبة وفاته، كما اهتمت ب"رمضان حموه "، وكتبت عن حياته، وآدابه بمناسبة وفاته.

وقد شهدت الصحيفة توقف عن الصدور أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك في 22 فيفري 1942، لتعود للصدور أسبوعية في 10 ماي 1947، إلى أن توقفت نهائيا عن الصدور في 3 مارس 1948، بعد أن صدر منها ما يقرب من ثلاثة وسبعين عدد [55].

4. خاتمة:

من خلال ما تم تقديمه من معلومات عن أهم العناوين الصحفية التي صدرت في الجزائر خلال الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى إلى غاية عشية الاستقلال 1962 يمكننا القول أن الجزائر إبان الحقبة الاستدمار الفرنسي عرفت صدور عناوين صحيفة تابعة استعمارية حاولت بكل جهدها إقناع الشعب الجزائري:

أولا: بأهمية الوجود الفرنسي في الجزائر كعامل للتحضر والدخول في مصف الدول المتقدمة.

ثانيا: القيام بالدعاية من أجل تجيد الجزائريين في الجيش الفرنسي ابن الحرب العالميتين، وذلك بغية مساعدة الدولة الفرنسية "الأم الحنون" في الدفاع عن أراضيها ضد الغازي الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك بإعطاء السلطات الاستعمارية وعود شتى للجزائريين.

ثالثا: التصدي لكل الخطابات الأخرى الداعية الشعب الجزائري لانعتاق من الاستعمار الفرنسي، بالخصوص بعد الهزيمة التي تلقها جيشها أمام الجيش النازي وبذلك سقطت أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وتخلص الشعب الجزائري من عقدة الخزف من القوات الفرنسية.

كما وجدنا هناك صحافة الأهالي التي أسسها جزائريون محاولون بذلك إصدار صحف من طرف جزائريين من حيث الملكية والتسيير، وذلك من أجل الدفاع عن حقوق الجزائريين ونشر الوعي في أوساطهم، والتصدي للدعاية التي تقوم بها سواء الصحف الاستعمارية أو الصحف الموالية للاستعمار، وقد كانت هذه الصحف تصدر باللغة العربية والفرنسية، لكن عرفت الصحف الصادرة باللغة الفرنسية على العموم رقابة شديدة من طرف الإدارة الفرنسية تصل إلى حد التوقيف عن الصدور، وحتى الصحف الصادرة باللغة العربية عرفت على

الخصوص ملاحقة من طرف الإدارة الاستعمارية لتضيق الخناق عليها ومنعها من الصدور وتوقيف محرريها وإيداعهم السجن أو نفيهم خارج الجزائر، لكن رغم كل تلك المضايقات التي عانت منها الصحافة الجزائرية إلا أنها تمكنت من إيصال صوتها إلى الشعب الجزائري وتوعيته بحقيقة ما يحدث حوله، وإيصال صوتها إلى العالم الخارجي ودعوة العالم لمعرفة حقيقة الجرائم التي ترتكبها فرنسا في الجزائر ضد شعبها.

وفي الأخير نؤكد على ضرورة ايلاء أهمية كبيرة للصحافة الصادرة في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي إلى غاية الاستقلال، فهذه الصحف تحمل في طياتها أرشيف ثري أو هي ذاكرة غنية تعرفنا بأهم ما كان يكتب عن الجزائر، أهم ما قاله محررو تلك الفترة ، كيف أثرت هذه الصحف على النخب الجزائرية في تشكيل وعيها الوطني بالخصوص صحافة الحركة الوطنية، وغيرها من المواضيع التي تساعدنا في المعرفة الجيدة لتاريخنا المجيد الذي يحتاج منا إلى الكثير من الجهد والبحث.

5. قائمة المراجع:

أولا الكتب باللغة العربية

1- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 1998

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، 1830- 1954، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 211- 213.

أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، 3.1931-

4- ايت علجت الصالح، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2001.

5- دليو فضيل، تاريخ الصحافة المكتوبة 1830- 2013، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.

6- الزبير سيف الإسلام ، تاريخ الصحافة في الجزائر ، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 .

7- قداش محفوظ ، ترجمة محمد بن البار، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ج2،، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

8- زاهر احدادن، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة 1930، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.

9- مفدي زكرياء، تحقيق أحمد حمدي، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، منشورات مفدي زكرياء، 2003.

- فليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، د.ت.10

11- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، ألفا ديزاين، قصر المعارض، المحمدية، الجزائر، ط2، 2006.

ثانيا الكتب باللغة الفرنسية

12-ZAHIR IHADDADADEN , HISTOIRE DE LA PRESSE INDIGENE EN ALGERIE DES ORIGINES JUSQUEEN 1930, ENTPRISE NATIONALE DU LIVRE , ALGER , 1983 ,P 384.

ثالثا: المقالات باللغة العربية

13- عبد الملك مرتاض، حول تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، الحلقة الأولى، مجلة الثقافة، العدد 44، ربيع الثاني جماد الأولى 1398هـ الموافق ل أبريل – مايو 1978.

رابعا: المقالات باللغة الفرنسية

14- CLAUDE COLLOT LE REGIME LURIDIQUE DE LA PRESSE MUSLMANE ALGERIENNE, REVUE ALGERIENNE DES SCIENCES JURIDIQUE Économique et politique, volume VI-N2, JUIN 1969,P 363.

6. هوامش:(*)2

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، 1830 -1954، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 211 -213. بتصرف.

[2] – المرجع نفسه ،، ص89-91. بتصرف.

[3]– الزبير سيف الإسلام ، تاريخ الصحافة في الجزائر، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1982 ، ص9-12.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1998 ، ص20 .

[5]– أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، 1931، ص177.

[6] -ZAHIR IHADDADADEN , HISTOIRE DE LA PRESSE INDIGENE EN ALGERIE DES ORIGINES JUSQUEEN 1930, ENTPRISE NATIONALE DU LIVRE , ALGER , 1983 ,P 384.

[7]– محفوظ قداش، ترجمة محمد بن البار، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ج2،، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 1358.

[8] ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT,P 383- 385 -

[9]- -CLAUDE COLLOT LE REGIME LURIDIQUE DE LA PRESSE MUSLMANE ALGERIENNE, REVUE ALGERIENNE DES SCIENCES JURIDIQUE Économique et politique, volume VI-N2, JUIN 1969,P 363.

[10]- ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT, P 349-351.

[11]–محفوظ قداش، ترجمة محمد بن البار، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية،ج2، مرجع سبق ذكره، ص 1362.

[12] CLAUDE COLLOT, OP.CIT, P 375.

[13]- فضيل دليو، تاريخ الصحافة المكتوبة 1830- 2013، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 103.

[14] - محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، ألفا ديزاين، قصر المعارض، المحمدية، الجزائر، ط2، 2006، ص 230 ،231.

[15] CLAUDE COLLOT,OP.CIT, P 375..-

[16]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 231.

[17] - محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947 ، مرجع سبق ذكره، ص 241- 245.

[18]- المرجع نفسه، ص 246،247.

[19]- الصالح ايت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2001، ص 67.

[20] -CLAUDE COLLOT,OP.CIT,P 375. -

[21]- الصالح ايت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955،مرجع سبق ذكره، ص 67- 72.

[22]- عبد الملك مرتاض، حول تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، الحلقة الأولى، مجلة الثقافة، العدد 44، ربيع الثاني جماد الأولى 1398هـ الموافق ل أبريل – مايو 1978، ص 34.

[23]- زاهر احدادن، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة 1930، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ، ص 41.

[24]- الصالح ايت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955،مرجع سبق ذكره، ص 76،77.

[25]- المرجع نفسه، ص 108-110.

[26]- المرجع نفسه، ص 132،133.

[27]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية، من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 262.

[28]- الصالح ايت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955، مرجع يبق ذكره، ص 134،135.

[29]- المرجع نفسه، ص141-144.

[30]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، 262.

[31]- المرجع نفسه، ص 262.

[32]- الصالح ايت علجت، صحف التصوف الجزائرية من 1338هـ-1337هـ 1920 إلى 1955،مرجع سبق ذكره، ص 149،150.

[33]- المرجع نفسه، ص 152 -154.

[34]- مفدي زكرياء، تحقيق أحمد حمدي، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، منشورات مفدي زكرياء، 2003، ص 152.

[35]- فضيل دليو، تاريخ الصحافة المكتوبة 1830 -2013،مرجع سبق ذكره، ص 89.

[36]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 68،69.

[37] - -ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT, P 377.

[38]-محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 70.

[39]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 70.

[40] - ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT, P 377,378.

[41]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 255.

[42]-فضيل دليو، تاريخ الصحافة المكتوبة 1830 -2013، مرجع سبق ذكره، ص 89.

[43]- محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 86.

[44]- زاهر احدادن، الصحافة الإسلامية الجزائرية من بدايتها إلى سنة 1930، مرجع سبق ذكره، ص 40.

[45]–فليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ص 264،265.

[46]– محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 93.

[47] - ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT,P388.

[48]– مفدي زكرياء، تحقيق أحمد حمدي،رتاريخ الصحافة العربية في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص 181.

[49]– علي مرحوم، نظرة على تاريخ الصحافة العربية الجزائرية، الحلقة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص 31.

[50]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج5، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 255.

[51]– محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 94،95.

[52] - ZAHIR IHADDADEN,OP.CIT,P 388.

[53]– محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 99.

[54]– عبد المالك مرتاض، حول تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، الحلقة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص 29،30.

[55]– محمد بن صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1830 إلى 1947، مرجع سبق ذكره، ص 98،99.

البنية النصية للرسالة المخزنية وبعض أشكال تمظهر السلطة الرمزية

The textual structure of the Makhzen letter and some forms of symbolic [1]authority

د. عبد الغني العمراني(*)

دكتوراه في التاريخ المعاصر. جامعة الحسن الثاني. المغرب.

تاريخ الاستلام: 25 /2021/01 تاريخ القبول:24 /2021/04 تاريخ النشر: 2021/02/05

الملخص: تنفرد الرسالة السلطانية أو الرسالة المخزنية بوجه عام ببنية نصية خاصة تعكس الخصوصية المغربية الإسلامية، وعراقة المملكة التي تمتد إلى اثنتا عشر قرناً من الزمن، فعلى الرغم من تعاقب عدد من الدول على حكم البلاد فإن البنية النصية العامة للرسالة المخزنية ظلت محافظة على النسق نفسه تقريباً، وإن طرأ تغير طفيف مع مرور الزمن بسبب رغبة بعض السلاطين الكبار في التفرد بمظاهر العظمة والجلالة، ومن بين أبرز ما تضمنته المراسلات المخزنية وجود خطابين أحدهما مباشر والثاني مبطن غير مباشر. سنحاول في هذه الدراسة الوقوف على البنية النصية للرسالة السلطانية الدبلوماسية خلال مطلع القرن العشرين، متلمسين في الوقت عينه بعض أشكال تمظر السلطة الرمزية بين ثنايا سطورها.

الكلمات الدالة: المخزن، السلطان، المغرب، السلطة الرمزية، الرسالة المخزنية.

Abstract :

The Sultan's Letter or the Makhzan's Letter in general is unique in its special text structure that reflects the Moroccan-Islamic peculiarity, and the kingdom's legacy that extends twelve centuries back, In spite of the succession of a number of countries to rule the country, the general textual structure of the Makhzan's letter has remained almost the same, although there was a slight change with time due to the desire of some great sultans

who were unique to manifestations of greatness and majesty. Among the most prominent of what was included in the Makhzan's correspondence were the presence of two Speeches, one is direct and the second, indirect. In this study, we will identify the textual structure of the sultan's diplomatic Letter during the early twentieth century, highlighting at the same time some forms of symbolic authority among its lines.

Keywords : Makhzen, Sultan, Morocco, Symbolic authority,Makhzen's letter.

(*) المؤلف المرسل: عبد الغني العمراني Pr.ghaniho@gmail.com

مقدمة

تميزت المراسلات السلطانية الموجهة إلى خدّام المخزن وإلى ممثلي الأمم الأجنبية ببنية نصية فريدة وخصائص متفردة شكلاً ومضموناً، أما على مستوى المتن فقد أبطنت رموزاً مختلفة توخى منها السلاطين تمرير رسائل مشفرة لتحقيق جملة من الأهداف والغايات، سنعالج في هذه الدراسة بنية المراسلات المخزنية الموجهة بصفة خاصة إلى ممثلي دولة هولندة وبعض أشكال تمظهر السلطة الرمزية بين ثناياها وتحديداً خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

1–البنية النصية للرسالة المخزنية

تندرج الوثيقة الدبلوماسية المخزنية أو بالأحرى الرسالة السلطانية بوجه خاص إلى هولندة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ضمن ما يُصطلح عليه بالرسالة الديوانية أو الرسالة الإنشائية التي تتعلق بالنثر الرسمي. وقد اتسمت بمستوى أدبي رفيع تجسد في صور الاستعارة، وفي المهارة اللغوية، من استعمال لأسلوب السجع والمقابلة، مما يدل على إحاطة كاتبيها بقواعد اللغة العربية، وتمكنهم من علومها وأساليبها البلاغية، ويكثر استعمال ذلك خصوصاً عند الديباجة والتحلية، اللتين تتضمنان مصطلحات تحمل معاني العظمة، والإكبار، والتقدير، نمثل لذلك برسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندة، بتاريخ 27 صفر 1326هـ/1908م فمما جاء فيها قوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إلى المحِبِّ الودود الموسوم من التدبير والسياسة بكل وصفٍ محمودٍ، الساعي في مساعي الخير والصلاح، على بساط كمال الائتلاف في حسن الاستصلاح، جناب عظيم دولة هلندة الفخيمة السائدة المقدار، الرَّاسية قواعد مجدها على رجاحة العقل وكماله في جميع الأنظار، حماكم الله وأبقى دوحة دولتكم المكرَّمة يانعة الأفنان بوجودكم. أما بعد، حمد الله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد»[1].

ولم تخل الرسالة المخزنية من بعض المصطلحات الأجنبية أو من الألفاظ التي يندر تداولها في اللغة العربية المعاصرة، أو من بعض الكلمات التي يصعب على غير المغاربة فهمها كالعامية المغربية على وجه التحديد، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ففي رسالة بعث بها النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوسْطُ فْرِيسِينِطْ (Augusto Fraissinet) [2] سنة 1854م ورد فيها ما يلي: «لأنك رَجُولٌ مَليحٌ ....ونحن **توحَّشناك**[3]كثير، نطلب الله يلاقينا معك عن قريب في ساعة سعيدة»[4].

ويمكن الإشارة أيضاً إلى ما ورد في رسالته إلى القنصل نفسه سنة 1855م حينما قرر هذا الأخير مغادرة المغرب في اتجاه بلاده لطول إقامته في الخدمة القنصلية إذ خاطبه قائلاً: «لأنه مَن يكون مثلك خصَّه الله بالعقل...، فلا **يَسْخَى**[5] أحدٌ بفراقه» [6]، وإلى ما ورد في رسالة القائد أحمد بن عبد المالك السعيدي إلى نائب دولة البرازيل سنة 1898م قوله «**الباشدور مْتَاعْنا**» التي تعني سفيرنا [7]. ونقرأ في مرسوم السلطان مولاي عبد

العزيز حول إحداث ضريبة الترتيب وكيفية تنظيمها وإجرائها قوله: «وعلى كل رأسٍ من البقر نصف ريالٍ، وعلى **الضرائب** [8]منها ذكوراً وإناثاً للرأس رُبُع ريال» [9].

وقد تميز الخطاب المخزني في بعض الأحيان بإيجاز كبير وبأسلوب مغري، غير مزخرف بالصور البلاغية، يبدأ ببرتكول الافتتاح المتعارف عليه إسلامياً وهي البسملة، والطابع السلطاني، ثم موضوع المراسلة، وينتهي بخاتمة تكون عبارة عن تاريخ الرسالة، وندلل على ذلك برسالة جوابية للسلطان مولاي عبد الرحمن إلى القنصل الدانماركي يُوهَان أرناط كريسطرسن (Johan Arnat Kristerson) سنة 1835م التي يخبره فيها باستلام رسالته التي تتضمن الإخبار بوفاة ملك الدانمارك واستخلاف نجله الذي أبدى رغبته في الإبقاء على المهادنة والمصالحة بين الدولتين، وبأن السلطان المغربي بدوره معه على نفس العلائق التي كانت مع والده، فيما يلي نصها:

« الحمد لله وحده

(الطابع السلطاني)

الخديم الناصح كرسطن سن، قونص جنس دينمارك ونائب جنس النبريال.

أما بعدُ، فقد وافى حضرتنا العلية بالله كتابك مُخبراً بوفاة عظيم جنس دينمارك واستخلاف ولده مكانه، وأنه على ما كان عليه والده معنا من المهادنة والمصالحة والمعاونة فنحن معه على ذلك إن شاء الله، والسلام. في 13 المحرم الحرام فاتح عام 1251»[10].

2- بعض أشكال تمظهر السلطة الرمزية في الرسالة السلطانية

لقد أبطن الخطاب المخزني رموزاً مختلفة وُظِّفت لأجل إظهار سلطة مؤسسة المخزن وهيبتها سواء في علاقتها بالرعية أو بالدبلوماسيين الأجانب عامة ومع الهولنديين بوجه خاص. فالرمزية شكل من أشكال تمظهر السلطة، وهي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها [11]،« فالرموز شأنها شأن أي نوع من الدلائل، إنما هي دائماً أبداً نتيجة تطور استحدث علاقة لا إرادية بين الأشياء لا تخترع ولا تأتي بغتة» [12] وتكون تلك الرموز غير المباشرة لسانية وغير لسانية على السواء، ففي الحالة الأولى تتخذ صورة قضيتين، وفي الثانية صورة حادثين، وعندما تكون على هذه الصورة الأخيرة يمكن أن يدركها المناطقة وعامة الأميين[13].

تنوعت أبعاد السلطة الرمزية في الرسالة المخزنية، واختلفت هذه الأبعاد باختلاف طبيعة السلطة التي يتوخى المخزن تبيانها أو ممارستها على الرعية و على الأجانب، فالحركات مثلاً أو الحملات التأديبية – التي دأب المخزن على تنظيمها بشكل دوري ضداً على القبائل التي شقت عصا الطاعة، أو ضداً على تلك التي احترفت أعمال اللصوصية في شمال المغرب أو في جنوبه– تُبطن أبعاداً رمزية لها من الأهمية بمكان، بحيث أن الخطاب الذي جاءت به تلك المراسلات الخاصة بالحملات التأديبية تتضمن رموزاً غير مباشرة توخى منها المخزن تحقيق جملة من الغايات التي تثبِّت سلطته في صيغتها المادية، وللتدليل على ذلك نذكر في هذا الصدد رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرِّيس إلى الوزير المفوّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون

منتسينگن(Friedrich von Mentzingen) [14]بتاريخ 18 يناير 1903م، والتي يُعلمه فيها بـ«ما صدر من أهل مداشر الفحص من الزيغ والانحراف والفساد وقلة المروءة، وبما وقع من العزم على تربيتهم وإعمال المتَعيَّن في حقهم» [15] ، طالباً منه أن يُعلم التجار والمحميين الهولنديين بتصفية معاملاتهم التجارية مع أهل منطقة الفحص حتى لا تتعرض للخسارة والضياع قائلاً: «وأعلمناكم لتأذنوا تجارَكم ورعاياكم بحيازة ما عسى أن يكون لهم عندهم»[16] ، ورسالته إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن (Friedrich Rosan)، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/30 مارس 1906م التي يخبره فيها بأن السلطان مولاي عبد العزيز قد أصدر أمره «لكبير المحلة الحوزية مولاي الأمين بأن يُعْلِمَ القناصل بالدار البيضاء على يد نائب عاملها بما عزم عليه من إجراء التربية على قبيلة زناتة (إحدى قبائل الشاوية) بعد أجل قدره شهر كامل من تاريخ الإعلام ليحوز في خلاله تجارهم ما عسى أن يكون لهم عند أهل تلك القبيلة من أمور المخالطة» [17] ، وغيرهما من المراسلات الكثيرة التي حررها المخزن قبل توجيه حملاته التأديبية نحو هذه الجهة أو تلك بشكل سنوي من مناطقه لأجل إعادة استتباب الأمن أو لجباية الضرائب، إلى الحد الذي دفع الباحث جون وطربوري (John waterbury) يُعرِّف المخزن على أنه «نظيمة راسخة من العنف المستديم»[18] .[18]

فمن خلال الرسالتين السالفتين يتبين لنا بشكل ملموس، أنه علاوة على رغبة المخزن في تبيان حرصه المستمر على حماية مصالح التجار الهولنديين من الضياع لأجل ضمان ديمومة العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع هولندة، فإنه كان يراهن بين الفنة والأخرى على الحملات التأديبية الكبيرة باعتبارها إحدى أهم الركائز في ممارسة شؤون الحكم، وللتعبير عن سلطته الرمزية من خلال التعريف بقوة الآلة السلطانية، وبقدرتها على اقتحام فضاء المحكومين أو على الأقل إيهامهم بذلك[19] ، لذلك لا يمكن اختزال وظيفة هذه الحملات في مجرد تحرك مخزني لإرغام القبائل على الطاعة وأداء ما بذمتها من ضرائب، بل إنها تجسيد لحضور مخزني في شكل عاصمة متحركة للسلطان تندفع داخل البوادي بهالة وهيبة مستمدة من حجمها وعددها وعدتها وقت تحركها، ومن شكل تموضعها وهندسة مقامها لحظة حلولها [20].

كما مثلت أيضاً أبرز المواكب إثارة سواء من حيث حجمها وشكلها، أو امتدادها في الزمان والمكان، أو من خلال الأهداف المتوخاة من تمظهراتها، فكان يتم الإعداد لها بعناية كبيرة لتعبر عن سمات التفاخر الممثلة لعظمة المخزن، لذلك روعي في تنظيمها وطريقة سيرها وأساليب تعاملها مع الرعايا جملة من الضوابط التي أضحت تمثل قاعدة عامة ميزت هذا الصنف من التنقلات[21] .[21]

فمن الأمثلة على ذلك، دخول السلطان مولاي الحسن مدينة مكناس سنة 1873م قادماً إليها من مراكش «في حفل بهي وسط زغاريد النساء، وطلقات البنادق متجهاً إلى دار المخزن، في حين ذهب الجيش الكبير والمسخرين للاستراحة في معسكر سيدي بوزكري» [22]، [22]وفضلاً عن الجيش اصطحب معه «ثلاثين من

النساء بما فيهم محضياته وجواريه وخدمه، وكن يركبن... البغال التي يحرسها خمسة عشر عبداً من الخصيان وتحت مراقبة طابور عسكر العبيد، وكان وصول السلطان الجديد إلى مكناس بداية لأسبوع من الحفلات والأفراح، حيث خلد الشعب أفراحه، ونشط التجار، وشويت وطهيت الأطعمة الشهية في كل أطراف المدينة....، وفي كل مساء عقب كل صلاة عصر تُقام حفلات الخيالة التبوريدة في ساحة باب المنصور العلج»[(23)(23)].

واتخذ السلاطين من مسألة الإشراف على حل المنازعات بين الرعايا المغاربة أو بينهم وبين الرعايا الأجانب وسيلة لإظهار سلطتهم في ميدان التحكيم التي اختزنت حمولة رمزية تراوحت بين إبانة القدرة على تحقيق الإنصاف المادي في صيغته الأخلاقية، وبين ترسيخ ثقافة سمو المؤسسة السلطانية على الرعية والأطر المخزنية من خلال حرصها على حماية مصالح السكان، وتتبع قضاياهم، ومحاسبة كل من تجرأ على ارتكاب تجاوزات أو تعسفات في حقهم[(24) (24)].

ولا أدل على ذلك أكثر من قضية النائب عن قنصل دولة هولندة بأسفي الذي بعث برسالة إلى قنصله العام بطنجة أگوسْطُ فْرِيسِينِطْ بتاريخ 11 أكتوبر 1842م يشتكي له فيها تعرضه لاعتداءٍ من طرف شاب بينما كان يتجول في سوق المدينة، وإقدام قائد المدينة على تطويف النائب في أحياء آسفي وإيداعه السجن بعدما حاول الدفاع عن نفسه برد الاعتداء المذكور، وبأن القنصل العام لم يجد لإنصاف نائبه بآسفي غير مطالبة السلطان مولاي عبد الرحمان بإحقاق الحق في هذه النازلة فمما جاء في رسالته:

«فالإعلام لمقام مولانا أعزَّه الله ونصره بأن النائب عن جنسنا في الخدمة القنصوية بآسفي قد كتب إلينا يُعلمنا فيه بأنه كان ذات يومٍ في السوق وصدف صبيا كبيراً بالغاً، واشتغل يسبه الصبي وقال له ما يكره، والخليفة لم يرد يجاوبه أبداً، وبعد ذلك ... ضربه الصبي بحجرٍ على كتفه حتى ضرَّه، وبحرارةٍ من الضربة التفتَ إليه الخليفةُ وضربه ضربةً واحدة في ظهره، وبعد فوات نصف ذلك من الواقع قد وجَّه قائد البلد على خليفتنا، ومن غير سؤاله عن الواقع كيف توقع أمر بتطويفه في زقاق البلد، ثم وجَّهه إلى سجنٍ... ولا يتمكن لي تستر عن سيدنا نصره الله أمر واقع مثل هذا الواقع، فخليفتنا من غير شكوتي على سيدنا نصره الله بأمره، ونرجو من فضل مولانا نصره الله يأمر بجعل الحق في ذلك، بحيث لم يتوقع مثله أبداً، وهذا ما نرجو من فضل مولانا، فالله يدوم عزَّه وعُلاه آمين» [(25)].

ولم يلبث أن استجاب السلطان مولاي عبد الرحمن لطلب القنصل الهولندي، فأصدر أوامره بإطلاق سراح النائب المذكور، وتوقيره واحترامه، ومعاملته معاملة حسنة تليق بمقامه الدبلوماسي قائلاً: «فقد وافى حضرتنا العلية بالله كتابك، وعرفنا مضمنه، وما ذكرتَ على شأن ما كتب لك به نائب جنسك من ثغر آسفي حرسه الله من الخصام الصادر بينه وبين صبي من الثغر المذكور، وما صدر من العامل في جانبه، فها نحن كتبنا له وأمرناه أن يُحسن معاملتَه وأن يُظهِر عليه أثر العناية وجميل الرعاية، ولا يترك مَن يتعرَّض له بمثل ذلك»[(26)].

وتدخله في النزاع الذي دار بين قبيلتي هنفيفة وأولاد بوسبع المقيمتين بمراكش في قدم الأطلس الكبير سنة 1850م، الذي اندلع نتيجة استيطان أولاد بوسبع أراضي قبيلة هنفيفة التي اضطر أهلها تحت وقع المجاعة إلى الهجرة، وحين عودتها وجدت عائلات أولاد بوسبع قد وطدت مقامها هناك، ورفضت الرحيل البتة، ومن ثم قام النزاع الذي ظل معلقاً إلى حين إشعار السلطان الذي أوفد إلى عين المكان لجنة تحقيق ومصالحة سنة 1854م متكونة من ثلاثة عدول للنظر في الجانب الشرعي للقضية، ومن ضابطين من جيشه يمثلان السلطة، وتمكن السلطان بناءً على النتائج التي توصل إليها أعضاء اللجنة من حسم القضية بما يرضي خاطر الجانبين [27].
والأمثلة على تدخل السلطان في حل المنازعات كثيرة، اقتصرنا على ما ذكرنا منها تجنباً للإطالة.

ولتوسيع قاعدة الأبعاد الرمزية، وظَّف المخزن في إطار علاقته بالرعية أو بالدبلوماسيين الأجانب سلطة الكرم والجود التي أبطنت أبعاداً رمزية وسياسية تجسدت في التعبير عن الأبهة المستوحاة من النسب الشريف من جهة، وتكريس فكرة مؤداها أن السلطان مصدراً لمختلف أشكال العطاء من جهة ثانية، مثلما فعل السلطان سيدي محمد بن عبد الله مع أهل الذمة حينما شملهم بالرعاية والاهتمام، وفتح في وجههم مرسى مدينة الصويرة بعد تأسيسها عام 1764م، ومنحهم امتيازات تجارية مهمة، بغرض تطوير هذه المدينة من الناحية الاقتصادية، فتركزت بأيديهم دواليب الحركة التجارية بها إلى جانب الأوروبيين، وخاصة منهم التجار الهولنديين [28] ، وحينما خصَّ السلطان مولاي سليمان القنصل العام الهولندي كارلوس نيسن (Carlos Neissen) بحظوة معتبرة، ومنح التجار الهولنديين امتيازات إضافية رغبة منه في تكثيف المبادلات التجارية بين الجانبين مثلما يبدو من رسالته إلى القنصل المذكور قائلا له: «بلغنا كتابك وقد قبلناك، ولك من المرتبة والتمييز ما لغيرك من قنصوات الأجناس، ولا تخرق عليكم عادة في شيء، ولا على مراكبكم فيما يُوسقون إن شاء الله» [29] . وكذلك حينما أنعم السلطان مولاي عبد الرحمن على التاجر الذمي مَيِّر بن مقنين [30]بوسق الثيران من مينائَي طنجة وتطوان إلى هولندة مع تخفيضات مغرية في الرسوم الجمركية قائلاً له:

«فاعلم أننا أنعمنا على خديمنا التاجر مَيِّر بن مقنين بوسق الثيران من مراسينا السعيدتيْن طنجة وتطوان عمرهما الله، وقصرنا وسق الثيران في المرستين المذكورتين عليه، وأن لا يسقه بهما أحد غيره ما عدا الثلاثة والثمانين رأساً التي يسق اللنجليز عن كل شهر من طنجة ومثلها من تطوان، فإن ذلك يوسق، وأما غير هذا فلا يسق أحد ثوراً غيره، والوسق يكون على يده أو على يد أصحابه، ولا مدخل لك في صاكة ما وسقه من ذلك، وإنما تُعْلمنا بالعدد الذي يسقه، وأما الصاكة فبيننا وبينه» [31] .

وإنعامه أيضاً على القنصل الدنماركي يُوهَان أرناط كريسطرسن (Johan Arnat Kristerson) بـ«عرصة» بمدينة طنجة سنة 1832م بمقتضى ظهير سلطاني شريف [32]، [32]وغيرها من العطايا والمنح الكثيرة التي حاول السلاطين المغاربة من خلالها إظهار تفردهم الذي يتداخل فيه الديني والسياسي بشكل غامض. فالجود السلطاني يبدو مجانياً وتطوعياً على الأقل من الظاهر، لكنه في الواقع يُبطن خاصية أساسية متمثلة في قدرته على

إخفاء كونه دَيْناً، فحتى مجرد إعطاء الطعام الدال على السخاء والكرم فإنه يستلزم في المقابل اعترافاً بالطاعم والخضوع له أحياناً[33]. [33]

خاتمة

هكذا نستخلص مما سبق، أن البناء النصي للمراسلات المخزنية يعكس خطاب السلطان بكل منعطفاته، لأنه هو أصل الخطاب، الآمر بإنشائه، المستبد بقوة القلم أيضاً، وبأن تسرُّب التعبير العامي -كما رأينا- إلى اللغة الدبلوماسية المخزنية، مع طغيان الحشو على المضمون أدى إلى خروج بعض الرسائل أحياناً عن قواعد المكاتبات الدبلوماسية. لكن تبقى البنية العامة للوثائق شبه ثابتة، وبأن المخزن عوَّل في كثير من الأحيان على سلطة الرمز للتعبير عن أشكال تمظر سلطته في صيغتها المادية سواء مع الرعية أو مع الأجانب، لأن القوة وحدها لا تخول الزعامة الكاملة ما دام يمكنها ممارسة الإكراه وليس الإقناع الذي لا يتم تحقيقه إلاَّ بالسلطة الرمزية، ولأجل التعبير أيضاً عن القدرة على تحقيق الإنصاف المادي في صيغته الأخلاقية من خلال الفصل في المنازعات الشائكة والمعقدة، وإظهار الجود السلطاني مع الرعية ومع الأجانب من خلال تمتيعهم بشتى أصناف الامتيازات.

الملحق:

رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندة، بتاريخ 27 صفر 1326هـ/31 مارس 1908م، [*] **الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.03، وزارة الشؤون الخارجية 1940–1815.**



بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من أمير المؤمنين المفوض أمره إلى رب العالمين سلطان الإسلام والمغرب ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان وهو

إلى المحب الودود الموسوم من التدبير والسياسة بكل وصف محمود الساعي في مساعي الخير والصلاح على بساط كمال الائتلاف في حسن الاستصلاح جناب عظيم دولة هولندة الفخيمة [illegible] الراسية قواعد مجدها على رجاحة العقل وكماله في جميع الأفكار حماكم الله وأبقى وحدة دولتكم المكرمة بالنعم [illegible] بوجودكم أما بعد حمد الله [illegible] الفعال لما يريد فقد كررنا إليكم على يد [illegible] المكاتيب في الأغراض الشائعة والتي [illegible] لنا مع سائر دول أوروبا [illegible] المهادنة لتبقى علائق الائتلاف محفوظة وأردنا تغيير الحالة الحاضرة ما بين دولتنا المغربية وبين دولة من شأنها [illegible] على القواعد والقوانين الدولية استنتاجا لراحة الخواطر [illegible] في المغرب إلا ما دام الحال على ما هو الآن فيما بين [illegible] اشتعال الفتن [illegible] في الحالة سواء بجهة دولة من شأنها الفخيمة أو بجهة مولاي عبد العزيز الذي خلعته الأمة كافة لتمامها أجمعها عربا وحوزا فاسا ومراكشا وسائر القبائل والعمالات عن طوع كامل ومبايعة تامة وعقدت بتمامها الولاية التي لشريف جنابنا وانتصبنا على كرسي [illegible] الله وما زالت نوايانا الكريمة متفقة على ذلك وقدمنا الكلام في المخابرة في القضية كتابة لعظيم دولتكم الفخيم ولسائر عظماء الدول المحترمين [illegible] عقلاء نبلاء [illegible] الشريفة على يد عظماء الدول الأماجد المسمين [illegible] والمقصود هو تغيير الحالة الحاضرة ما بين دولتنا السعيدة وبين دولة من شأنها الفخيمة ونسأل الله تعالى أن يسهل هذا السعي المحمود ويجعل نتائجه خيرا وصلاحا عاما بحول الله ويبقي دولتكم الفخيمة بكل غاية المسرة والانشراح وسعة الانبساط ودواعي الأفراح لمنه وكرمه في سابع وعشري صفر الخير عام 1326

دولة الجلالة الفخيمة
[illegible]
[illegible] المحترمة
[illegible] المعتبرة

الهوامش

(1) **من رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ بن الحسن إلى عظيم دولة هولندة، بتاريخ 27 صفر عام 1326هـ/1908م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.03، وزارة الشؤون الخارجية 1871–1918، رقم 27**

(2) **من رسالة الوزير الحاج الطالب بن جلون إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوسْطُ جُونْ فْرِيسِينِطْ، بتاريخ 15 ذو الحجة 1251هـ/1835م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.1 ، قنصلية طنجة، 1830–1907، رقم 30.**

(3) تعبير عامي يقصد به اشتقنا إليك في اللسان العربي الفصيح.

(4) تولى الخدمة القنصلية بالمغرب لفائدة هولندا عام 1835م. انظر: **رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوسْطُ فْرِيسِينِطْ، 17 ذو الحجة 1270هـ/1854م، الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 32.**

(5) لا يسخى تعبير عامي يقصد به في اللسان العربي الفصيح لا يمل.

(6) **من رسالة النائب السلطاني محمد الخطيب إلى القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أگوسْطُ فْرِيسِينِطْ، بتاريخ 12 رمضان 1271هـ/1855م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 32.**

انظر **رسالة القائد أحمد بن عبد المالك السعيدي إلى نائب دولة البرازيل بالعرائش، 15 ربيع الأول 1316هـ/1898م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 15.** (7)

(8) الضرائب، جمع ضروبة، تعبير عامي يُقصَد به البقرة البكر التي لم تلد بعدُ.

(9) انظر **مرسوم السلطان مولاي عبد العزيز حول إحداث ضريبة الترتيب وكيفية تنظيمها وإجرائها، غير مؤرخ. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 16.**

(10) **رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى قنصل الدنمارك بطنجة يُوهَان أرناط كريسطرسن، 13 محرم 1251هـ/1835م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 30.**

(11) بيير بورديو، **الرمز والسلطة**، منشورات دار توبقال الدار البيضاء، ط. الثالثة 2007م، ص.84.

(12) تزفيتان تودوروف، **نظريات في الرمز**، ترجمة محمد الزكراوي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، ط.الأولى 2012، بيروت، ص.458.

(13) **المرجع نفسه**، ص ص.34- 35.

(14) فريدريش فون منتسينگن (Friedrich von Mentzingen) (1858–1922م)، المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة خلال الفترة الممتدة ما بين 1899–1904.

(15) **من رسالة النائب السلطاني محمد بن العربي الطُّرِّيس إلى الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة البارون فريدريش فون منتسينگن، بتاريخ 17 شوال 1320هـ/18 يناير 1903م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907، رقم 16**

(16) **الرسالة نفسها.**

(17) **من رسالة أحمد بن محمد بن العربي الطُّرِّيس خليفة النائب السلطاني إلى الوزير المفوَّض لدولة ألمانيا والقنصل العام لدولة هولندة بطنجة الدكتور فريدريش رُوزن، بتاريخ 3 صفر 1324هـ/30 مارس 1906م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 16.**

(18) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.الأولى 1986 ص.147.

(19) محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2011، ص. 198

(20) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915م**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. الأولى 2011، ص. 154.

(21) محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب** ....، م.س، ص. 192.

(22) لويس أرنو، **زمن المحلات السلطانية الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين** 1860 و1912، ترجمة محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق، ط.الأولى 2002، الدار البيضاء، ص .27.

(23) **المصدر والصفحة نفسهما.**

(24) محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**...، م.س، ص. 185.

(25) **من رسالة القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوسْطُ فْرِيسِينِطْ إلى القائد محمد أشعاش، بتاريخ 5 رمضان 1258هـ/11 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي،** سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 31

(26) **من رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القنصل العام لدولة هولندة بطنجة أگوسْطُ جُونْ فْرِيسِينِطْ، بتاريخ 14 رمضان 1258هـ/20 أكتوبر 1842م. الأرشيف الوطني بلاهاي،** سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907، رقم 31.

(27) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**....، م.س، ص ص.156-157.

(28) محمد العمراني، **المغرب زمن العلويين الأوائل**، مطابع الرباط نت، الرباط، ط. الأولى 2013، ص.104.

(29) **من رسالة السلطان مولاي سليمان إلى القنصل العام الهولندي كارلوس نيسن، بتاريخ 15 محرم سنة 1231هـ/1816م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830، رقم 40**

(30) هو الولد البكر لأبراهام كوهين، ولد بمراكش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ثم رحل مع أبيه وإخوته شلومو، مسعود، دافيد إلى مدينة الصويرة بعد تأسيسها عام 1764م. وقد أصبح مايير أكثر الوسطاء أهمية ومكانة بين جهاز المخزن المركزي والدول الأوروبية خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، أي أيام حكم السلطان المولى سليمان، وأثناء العقدين الأولين من القرن التاسع عشر أولى مايير اهتمامه بممارسة التجارة لحسابه الخاص ولفائدة السلطان المولى سليمان في الوقت نفسه. واشتهر مقنين في أوساط التجار الأوربيين، الذين كانت لهم معاملات تجارية مع المغرب بأنه إنسان وغد وسيء السمعة لا تليق عشرته، وبأن الديون الثقيلة تراكمت عليه تباعاً في المراكز المالية الأوروبية، من جراء عمليات غير سليمة قام بها بتواطؤ محكم مع أخيه ومع زمرة من المتعاونين من التجار اليهود المقيمين في الصويرة. وعلى الرغم من سمعته السيئة الذائعة الصيت في أوروبا، ظل مقنين قادرا على عقد الصفقات مع التجار الذين اعتبروه شرا لابد منه بصفته منفذا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه لبلوغ مراكز السلطة وأصحاب القرار في الوسط المخزني بالمغرب. للاطلاع أكثر على شخصية مايير بن مقنين انظر: دانييل شروتر، **يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفرد**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ط. الأولى 2011، ص. 63 وما بعدها.

(31) **من رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أميمون، بتاريخ 22 صفر عام 1239هـ/1823م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815–1830، رقم 40.**

(32) انظر **ظهير السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام بمنح قنصل الدنمارك عَرْصَةً بطنجة، بتاريخ 13 شعبان 1248هـ/1832م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830–1907**، رقم 30.

(33) سالم حميش، في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية، **ضمن كتاب جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب**، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.الأولى 1992، ص.180.

المصادر والمراجع

وثائق الأرشيف الوطني بلاهاي: سلسلة 2.05.22، قنصلية طنجة 1815-1830. وسلسلة 2.05.15.15، قنصلية طنجة 1830-1907.

بورديو (بيير)، **الرمز والسلطة**، منشورات دار توبقال الدار البيضاء، ط. الثالثة 2007م،

بياض (الطيب)، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب** 1880-1915م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. الأولى 2011، ص. 154.

تودوروف (تزفيتان)، **نظريات في الرمز**، ترجمة محمد الزكراوي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، ط.الأولى 2012، بيروت.

جادور (محمد)، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2011.

جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.الأولى 1986.

حميش (سالم)، في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية، **ضمن كتاب جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب**، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.الأولى 1992، ص.180.

شروتر (دانييل) **يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفرد**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ط. الأولى 2011.

العمراني (محمد)، **المغرب زمن العلويين الأوائل**، مطابع الرباط نت، الرباط، ط. الأولى 2013.

لويس أرنو، **زمن المحلات السلطانية الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين** 1860 و1912، ترجمة محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق، ط.الأولى 2002، الدار البيضاء.

إسهامات علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم
ابن الخطيب وكتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» نموذجاً

Contributions of scholars of Andalusia in the service of history and translations
Ibn al-Khatib and his book "The Briefing in the News of Granada" as a model

د. محمد سيف الإسلام بـوفـلاقـــــة[(*)1]،

كلية الآداب، جامعة عنابة ،الجزائر saifalislamsaad@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/12/ 26 **تاريخ القبول:**04 /2021/01 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص:

موضوع هذا البحث هو «إسهامات علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم –ابن الخطيب وكتابه الإحاطة في أخبار غرناطة نموذجاً–»،وهو موضوع يتناول حياة مؤلف الكتاب ابن الخطيب،ويقدم دراسة تحليلية لكتاب الإحاطة، الذي يعد أهمّ مصدر، بعد كتاب: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري ،في دراسة التاريخ السياسي، والثقافي، والأدبي للأندلس، والمغرب، فقد قدّم لنا ابن الخطيب الأندلس تاريخاً ،وثقافة من خلال غرناطة، وهو عبارة عن موسوعة أدبية شاملة، فيها من أنباء غرناطة، وسير ملوكها، ووزرائها، وأخبار شعرائها وكُتّابها، وفيه من المعلومات–بحسب علمي– ما لا مثيل له في أي كتابٍ أندلسي آخر ، وقد قسمت البحث إلى قسمين رئيسين: في القسم الأول منه، قدمت صورة عن حياة ابن الخطيب، معتمداً في ذلك على ما ذكره ابن الخطيب عن نفسه في بعض مؤلفاته، كما اعتمدت على كتب التراجم في القديم، والحديث، وفي القسم الثاني منه قدمت تعريفاً بكتاب الإحاطة، وتحدثت عن بواعث تأليفه، ومنهجه، وأسلوبه، وأتممت البحث بفذلكة سجلت فيها أبرز الجوانب التي تستحق التنويه، والذكر.

الكلمات الدالة: الأندلس، علماء، جهود، التراجم، التاريخ.

(*) **المؤلف المرسل: د. محمد سيف الإسلام بـوفـلاقـــة** saifalislamsaad@yahoo.fr

Abstract:

The topic of this research is “The Contributions of Andalusian Scholars in the Service of History and Translations - Ibn al-Khatib and his book The Briefing in the News of Granada as a model -” and it is a topic that deals with the life of the author of the book Ibn al-Khatib, and provides an analytical study of the book of briefing, which is the most important source, after the book: Al-Maqri, in the study of the political, cultural, and literary history of Andalusia and Morocco, Ibn Al-Khatib Al-Andalus provided us with history and culture through Granada, and it is a comprehensive literary encyclopedia, in which it contains news of Granada, and the biography of its kings and ministers And the news of its poets and writers, and it contains information - according to my knowledge - that is unparalleled in any other Andalusian book, and I divided the research into two main parts: In the first part of it, I presented a picture of Ibn al-Khatib's life, relying on what Ibn al-Khatib said about He himself in some of his books, as I relied on books of translations in the old and the hadith, and in the second section of it I presented an introduction to the briefing book, talked about the motives of its authorship, its methodology, and its style, and I completed the research with cleverness, in which I recorded the most important aspects that deserve mention and mention.

Key words: Andalusia, scholars, efforts, translations, history.

القسم الأول: لسان الدين بن الخطيب: سيرة وعطاء

تعددت الأسفار، والدراسات التي تطرقت إلى حياة ابن الخطيب، ولعل ابن الخطيب كان في طليعة علماء الأندلس الذين حظوا باهتمام كبير من لدن مختلف الباحثين، والدارسين القدماء، والمعاصرين المشارقة، والمغاربة على السواء، وهذا الأمر يعود إلى جملة من الأسباب، قد يكون في مقدمتها موسوعية، وغزارة إنتاج ابن الخطيب، فالرجل خاض في شتى أصناف المعرفة،وهو شخصية متعددة الجوانب فهو الشاعر، والمؤرخ البارع، والأديب، والصوفي، والفيلسوف، والوزير، والسياسي، وهذا ما ينجم عنه صعوبة حصر جميع ما كُتب عنه.

إن ابن الخطيب يعتبر أحد كبار العلماء الموسوعيين، ويؤكد عدد كبير من المؤرخين،والدارسين على أنه أعظم شخصية ظهرت بالأندلس في القرن الثامن، وقد كان عبقرية متعددة النواحي.

كان ابن الخطيب «يمثل بعبقريته، وقوة نفسه، وأصالة تفكيره، وروعة بيانه، وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى من قبل تلك النماذج العلمية، والأدبية الباهرة، التي يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسي، وكان بتعدد جوانبه، وسعة آفاقه، أكثر من وزير، وسياسي، وكاتب، وشاعر. كان مزيجاً من عبقريات متعددة،بلغ القمة في كل منها، ويندر أن تجتمع في شخص واحد،وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة، أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته، ومن ثم فإنا نراه خلال حياته المضطربة، سواء في المغرب أو الأندلس، يرتفع حيناً إلى الذروة،وينحدر أحياناً إلى غمر المحنة، تلاحقه تلك القوى الخصيمة، التي تضيق بنبوغه، وخلاله اللامعة.

وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة، في نهاية كتاب (الإحاطة)، عدا ما أورده في سياق الكتاب،و في مواضع عدة، عن مراحل خدمته السلطانية، وقص علينا كثيراً من حوادث حياته الشخصية، والسياسية في مختلف كتبه الأخرى، ولاسيما (نفاضة الجراب)، الذي يقص علينا فيه حوادث إقامته الأولى في المغرب، وسلا، و(اللمحة البدرية)، و(ريحانة الكتاب) الذي يضم كثيراً من رسائله السلطانية[1]،وقد دون له معاصره،وصديقه الفيلسوف ابن خلدون ترجمة في تاريخه الكبير،ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر»[2]

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، وذلك نسبة إلى سلمان، وهي بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية، أو حي من مراد من اليمن ،عرب اليمن القحطانية، وتنتمي أسرة ابن الخطيب إلى إحدى هذه القبائل،وقد وفدوا على الأندلس بعد الفتح،ومنهم جماعة من الشام،واتخذوا قرطبة مقراً لهم،«وقد كانت قرطبة،وأحوازها منذ الفتح منزل قبائل الشام الوافدة على القطر الجديد،والظاهر أن بني سلمان كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلاط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس،فلما حدثت واقعة الربض المشهورة(ضاحية قرطبة)،وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم(سنة:202هـ-817م)،واستطاع الحكم أن يمزق الثورة،وأن ينكل بأهل الربض،غادر قرطبة كثير من المعارضين من

الفقهاء،وغيرهم،وكانت منهم أسرة لسان الدين»[3]التي هاجرت إلى طليطلة وفق ما ذكره ابن الخطيب نفسه في مقدمة الإحاطة،وقد مكثت أسرته ما يقارب القرن ونصف القرن بالمدينة،وحينما شعرت بالأخطار المحدقة بها،حينما أضحت (طليطلة) عرضة لهجمات النصارى،غادرتها إلى مدينة(لوشة)،وهي المدينة التي ولد بها ابن الخطيب في الخامس والعشرين من رجب713هـ،(16نوفمبر1313م) [4].

وبالنسبة إلى لقب(الخطيب)ذكر لسان الدين أن بيتهم كان يطلق عليه تسمية(بني الوزير)ثم سموا(ببني الخطيب)،وهذه التسمية ترجع إلى عهد جده سعيد،الذي يعتبر أول من استوطن مدينة(لوشة)من أسرتهم[5]،وقد كان«عالماً ورعاً،وكان يلقي دروسه،ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته،ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية ماراً بلوشة، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب،وأورث هذا اللقب لبنيه،فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين.ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله،وكان من أكابر العلماء،والخاصة،ويترجم لنا في الإحاطة.وقد ولد سنة:672هـ، واستقر حيناً في غرناطة،ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم،ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل،وهو الذي جلس على عرش غرناطة في سنة:713هـ (1314م)،ولما توفي السلطان أبو الوليد إسماعيل قتيلاً في سنة:725هـ (1325م)،خدم عبد الله من بعده ولده السلطان أبا عبد الله محمد،ثم شقيقه السلطان (أبو الحجاج يوسف) أعظم سلاطين غرناطة،وقد ولي العرش سنة:733هـ (1332م).وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء،مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجياب، وأسبغ عليه لقب الوزارة، ثم توفي قتيلاً مع ولده الأكبر أخ لسان الدين في موقعة طريف الشهيرة التي هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبي الحسن المريني عاهل المغرب،والسلطان أبي الحجاج يوسف أشنع هزيمة،وذلك في جمادى الأولى سنة:741هـ(أكتوبر سنة1340م)،وسقطت على إثرها طريف،والجزيرة الخضراء في أيدي النصارى،وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون في المغرب،والأندلس مثلها منذ زمن بعيد».[6]

دخل لسان الدين الكتاب بمدينة(لوشة)مسقط رأسه،حيث حفظ القرآن الكريم وجوده،ثم تعلم مبادئ اللغة العربية على مجموعة من المعلمين من بينهم(أبو القاسم بن جزي)،كما أخذ النحو عن شيخ النحاة الإمام أبي عبد الله الفخار الألبيري[7]، وغيره من العلماء، والمربين، والفقهاء، وقد عرف

ابن الخطيب منذ طفولته بطموحه،وقد أعانه على ذلك الطموح ذكاؤه الحاد،وفهمه الثاقب،ورؤيته البعيدة المدى،وقد كان انتقال أسرته من (لوشة) إلى (غرناطة) نقطة تحول، حيث عين والده عبد الله مقتصداً في بلاط ابن الأحمر الذي استعمله على مخازن الطعام،وقد أتاحت له الفرصة في غرناطة الدراسة على عدد من كبار العلماء المتميزين فأخذ عنهم الأدب كشيخ العدوتين الرئيس أبي الحسن بن الجياب، والفيلسوف أبي زكريا بن هذيل الذي اختص بصحبته،وفي هذه الفترة بدأ يظهر تفوقه،ونبوغه في الشعر،والترسل،والطب،والفلسفة،والتاريخ،وبعد سنوات قليلة لمع نجمه[8]. فقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده،وحينما توفي والده دعي للحلول مكانه،وكان في الثامنة والعشرين من عمره،فتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس الذي كان يشغل منصب الوزارة لدى السلطان(أبو الحجاج يوسف الأول النصري)،وقد استفاد ابن الخطيب استفادة كبيرة من أستاذه ابن الجياب في ديوان الإنشاء،وتأثر أيما تأثر به في أساليب النظم،والنثر،فملك زمام أرفع الأساليب النثرية والشعرية،وقد تجلت آثار أستاذه في رسائله السلطانية[9]،التي كتبها على لسان ملوك الأندلس،والمغرب وقد وصفها العلاّمة ابن خلدون بالغرائب،نظراً لسحرها،وجمالها،وروعتها[10].

وبعد وفاة ابن الجياب في الطاعون الجارف الذي حل بالمدينة في شوال سنة:749هـ(يناير سنة:1349م)،تولى لسان الدين رئاسة الكتاب[11]،وهناك خلاف في تاريخ توليه منصب الوزارة الأولى،وقد سعى الدكتور محمد الشريف قاهر إلى تصويب الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين فقال: «تولى ابن الخطيب منصب الوزارة للمرة الأولى في أخريات شوال من عام:749هـ لأمير المسلمين بالأندلس السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وثلاثين عاماً تقريباً.وقد أخطأ جرجي زيدان حين جعل توليه الوزارة للمرة الأولى عام:733هـ،عقب اعتلاء أبي الحجاج لعرش غرناطة.فبالإضافة إلى تصريح المقري بتاريخ:749هـ في نفح الطيب،فيزيد تأكيداً بأنه تولى الوزارة بعد شيخه أبي الحسن علي ابن الجياب الذي توفي عام:749هـ بسبب مرض الطاعون الجارف الذي عم بلاد الأندلس والمغرب آنذاك ،وأودى بخيرة رجال العلم،والأدب،وبقي ابن الجياب وزيراً حتى وفاته،وكان ابن الخطيب مساعداً له،وأميناً لسره»[12].

وقد كسب ابن الخطيب ثقة السلطان،وصار من المقربين إليه،وفي هذه المرحلة تألق نجمه،و «عظمت منزلته،وأغدق السلطان عليه عطفه،وآثره بثقته،وجعله كاتب سره،ولسانه في المكاتبات السلطانية،وصدر منها بقلم ابن الخطيب طائفة من أبدع الرسائل الملوكية...،وجمع الكثير منها فيما بعد في كتابه(ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، وكذلك نقل إلينا المقري في(نفح الطيب)مجموعة منها[13].

ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته في(الإحاطة) مركزه في الوزارة يومئذ، ومكانته، وما حباه به السلطان من الثقة،والإيثار في قوله(فقلدني السلطان سره،ولما يستكمل الشباب،ويجتمع السن،معززة بالقيادة،ورسوم الوزارة،واستعملني في السفارة إلى الملوك،واستنابني بدار ملكه،ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه)،ولما توفي السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلاً في يوم عيد الفطر سنة:755هـ(أكتوبر1354م)خلفه في الملك ولده السلطان أبو عبد الله محمد،الذي لقب فيما بعد بالغني بالله،واستمر الحاجب رضوان مضطلعاً برئاسة الوزارة،واستمر ابن الخطيب في منصبه معاوناً له،وندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفي. وأرسله السلطان الجديد لأول ولايته سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان المريني عاهل المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس،وهو يعرب في رسالته إليه عن أمله في تجديد أواصر المحبة،والوصل التي كانت بين أبيه،وبين السلطان أبي عنان،ويستنصره،ويطلب عونه على مقاومة ملك قشتالة»[14].

ولقد استقبل ابن الخطيب استقبالاً مميزاً، وحظي برعاية كريمة، وتقدير عميق من قبل السلطان أبي عنان،وكان استقباله في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة:755هـ[15].

ويفصل الدكتور محمد الشريف قاهر رحلة ابن الخطيب إلى المغرب فيذكر أن في أواخر عام:755هـ «على إثر مقتل السلطان أبي الحجاج أمير المسلمين بغرناطة بعث السلطان الجديد(محمد الغني بالله)وفداً إلى المغرب لطلب النجدة، والغوث، وتجديد عهد الصداقة، والتعاون بين العدوتين، الأندلس والمغرب، على نحو ما جرت عيه العادة منذ قديم الزمان، وكانت رئاسة الوفد لوزيره ابن الخطيب الذي وفق توفيقاً كاملاً في أداء مهمته، وقد أنشد أبا عنان قصيدة رائعة مطلعها:

خَلِيفَةَ اللهِ سَاعَدَ القَدَرُ   عُلاَكَ مَا لاَحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ

فتأثر السلطان المريني أبو عنان،والحاضرون في الحفل بالقصيدة أيما تأثر،وقال السلطان لابن الخطيب:اجلس،والله ما ترجع إليهم إلا بكل طلباتهم،وقديماً قيل:إن من البيان لسحرا،وإن من الشعر لحكمة.وعاد الوفد إلى غرناطة محملاً بالهدايا الثمينة،والوعود الصادقة الخالصة بفضل سياسة رئيس الوفد، ولباقته، وجميل إشارته، وفصيح لسانه، وفي هذه السفارة توطدت العلاقة بين ابن الخطيب، وبين المغرب، حكومة وشعباً، وعلماء، وأدباء، فبقي قلبه معلقاً بالمغرب »[16].

وفي عام:760هـ تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن الخطيب،ففي هذه السنة اندلعت الثورة بغرناطة في شهر رمضان، وقد أدت هذه الثورة إلى فقدان السلطان الغني بالله الملك،وتولى الملك مكانه شقيقه الأمير إسماعيل،وقد قتل أثناء هذه الثورة الحاجب (أبو النعيم رضوان)،وفر الغني بالله إلى وادي آش[17].

وفيما يتعلق بتفاصيل تلك الثورة فسببها[18]. أن الأمير إسماعيل«كان معتقلاً في بعض أبراج قلعة الحمراء،وكانت تؤازره جماعة من الزعماء الناقمين على الغني بالله، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله،وتعمل سراً لإسقاط الغني بالله، وإجلاسه في الملك مكانه، وكانت أمه المقيمة بالقصر،تؤيد مشاريعه بالسعي،والبذل الوفير،وكان السلطان قد تحول بولده إلى سكنى قصر (جنة العريف) الواقع شمال شرقي قصر الحمراء،فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك وهاجموا قلعة الحمراء(28رمضان سنة:760هـ)، ونفذوا إلى دار الحاجب رضوان، وقتلوه بين أهله، وولده، ونادوا بإسماعيل أخي السلطان ملكاً مكانه.وشعر محمد الغني بالله بعبث المقاومة ففر إلى وادي آش»[19].

أمام هذه التغيرات التي طرأت أضحى ابن الخطيب في وضعية جد حرجة،فالملك الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة أزيح عن الحكم،ولم يجد من طريقة للحفاظ على منصبه سوى مصانعة الملك الجديد، وسعى إلى استمالته، فمنحه منصب الوزارة مؤقتاً[20]، وبعد تحريض مجموعة من حساد ابن الخطيب، ومنافسيه، شكك في نواياه، وقرر القبض عليه، وتمت مصادرة جميع أملاكه، ومتاعه، وبين عشية، وضحاها، فقد ابن الخطيب ثروته العريضة[21].

وقد قص علينا تفاصيل هذه المحنة في كتاب (الإحاطة)بقوله:« وتُقبض علي،ونكث ما أبرم من أماني،واعتقلت بحال ترفيه،وبعد أن كبست المنازل،والدور،واستكثر من الحرس وختم على الأعلاق،

وأبرد إلى ما نأى، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر، ولا ربات الأمثال، في تبحر الغلة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العدة، ووفور الكتب، إلى الآنية والفرش والماعون، والزجاج والطيب، والذخيرة، والمضارب والأقمشة، واكتسحت السائمة، وثيران الحرث، وظهر الحمولة، وقوام الفلاحة، وأذواد الخيل، فأخذ الجميع البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البخس، ورزأتها الخونة، وشمل الخاصة، والأقارب الطلب، واستخلصت القرى، والجنات، وأعملت الحيل، ودست الإخافة، وطوقت الذنوب، وأمد الله بالصبر، وأنزل السكينة، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وتعلقت الآمال به، وطبقت نكبة مُصحفية مطلوبها الذات،وسبب إفاتتها المال،حسبما قلت،عند إقالة العثرة،والخلاص من الهفوة»(22).

بيد أن نكبة ابن الخطيب لم تطل، فقد أرسل ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره(الشريف أبا القاسم التلمساني)إلى ملك غرناطة الجديد،وطلب منه السماح للملك المخلوع(الغني بالله)ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس، والمجيء إلى المغرب، فاستجاب سلطان غرناطة لطلبه، وذلك رغبة منه في الإبقاء على أواصر الود مع بني مرين،والحفاظ على صداقتهم،للاستعانة بهم لضمان مستقبل الدولة الإسلامية التي كانت تتعرض بين الفينة، والأخرى لهجمات النصارى(23)، فتم إطلاق سراح ابن الخطيب مع نفر كبير من الحاشية،والتحقوا بالسلطان الذي كان بوادي آش، ومن ثم وصلوا إلى المغرب الأقصى،وحلوا بمدينة فاس في محرم:761هـ(ديسمبر1358م)،وقد استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً،وأقام على شرفهم حفلاً عظيماً،وبهذه المناسبة ألقى ابن الخطيب قصيدة أصبحت من أروع قصائده،دعاه فيها إلى نصرة سلطانه(24)،يقول في مطلعها:

سَلاَ هَلْ لَدَيْهَا مِن مُخَبَّرَةٍ ذِكْرُ وهَلْ أَعْشَبَ الوَادِي ونَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

وقد شهد ابن خلدون ذلك الحفل بصفته من كبار رجال البلاط المريني، وتحدث عن ابن الخطيب فقال: « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه،فأبكاهم تأثراً،وأسفاً».

ووصف ابن الخطيب ذلك الحفل بأن القوم كانوا يرتجفون تأثراً، وتسيل منهم العبرات.

وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب الأقصى، وحظي بعناية فائقة من قبل السلطان أبي سالم،وفي هذه الفترة توثقت الصداقة بينه،وبين ابن خلدون«وقد كان كل منهما يسمع عن

صاحبه،ويتوق إلى لقائه،حتى جمعت بينهما الحوادث،فقد كان كلاهما أستاذ عصره،وقطره في التفكير،والكتابة،وكان كلاهما وزيراً مستبداً،ومستشاراً لأمراء عصره.

والواقع أن ابن الخطيب قد وجد الحفاوة،والاحترام أينما حل بالمغرب من السلطان ووزرائه،ومن الشعب،وشخصياته،فأنزله السلطان أبو سالم في قصر من قصوره محفوفاً بالعناية،والتعظيم،ثم طلب ابن الخطيب الإذن من أبي سالم في الاستقرار بمدينة(سلا) ليخلو إلى العبادة،والتأليف،وملاقاة العلماء،والصالحين،والزهاد،فأسعف قصده،ولبى طلبه،وقصد ابن الخطيب مع أهله(سلا)،واستقر بها مدة،ثم استأذن السلطان المريني أبا سالم في التجول في جهات مراكش، وزيارة معالمها الأثرية، والتبرك بقبور الصالحين بها، فأذن له بذلك، وكتب إلى ولاته باستقباله، وإكرامه، وتحقيق رغائبه[25]،وكان من نتائج هذه الرحلة الشائقة أن أخرج لنا ابن الخطيب كتابه(نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)واصفاً فيه هذه الرحلة أجمل وصف،وأدقه،فقد ذكر فيه من لقيه من العلماء،والأدباء،والولاة،والكبراء،والشخصيات مع وصف الإقليم جغرافياً،واقتصادياً وكرم سكانه،وعاداتهم»[26].

وفي هذه الفترة توفيت زوجة ابن الخطيب في السادس من ذي القعدة من عام:762هـ،حينما كان مقيماً بمدينة(سلا)،وقد تألم ألماً شديداً لوفاتها[27]،وقال عن هذا الرزء الفادح الذي حل به، وهو في المنفى:« وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة طرقني ما كدر شربي،ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران، وإناث في بلد الغربة، وتحت سرادق الحشمة، ودون أذيال النكبة، فجلت عليها حسرتي، واشتد جزعي، وأشفيت لعظم حزني، إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة،وصبراً،ومكارم أخلاق،حازت بذلك مزية الشهرة،حيث حلت من القطرين،فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة(سلا)،ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولي القراءة دائماً عليها،وصدر عني مما كتبت على ضريحها،وقد أغرى به التنويه والاحتفال:

رَوْعَ بَالِي وَهَاجَ بِلَبَالِي وَسَامَنِي الثَكَلُ بَعدَ إِقبَالِ

ذَخِيرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِي وَعُدَتِي فِي اشتِدَادِ أهوَالِ

أَمَا وقَد غَابَ فِي تُرَابِ سَلا وجهُكِ عَنِي فسَلتُ بالسَالِي

فانَتظِرِيني فَالشوقُ يُقَلِقُنِي ويَقتَضِي سُرعَتِي وإِعجَالِي»[28].

وعلى الرغم من المحن التي تعرض لها ابن الخطيب في هذه الفترة،فإنه لم يتوقف عن الإنتاج،والتأليف،ومن أهم المؤلفات التي كتبها في تلك الفترة:

1-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار.

2-نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

3-اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية.

4-الحلل المرقوقة في اللمع المنظومة.

5-رقم الحلل في نظم الدول.

6-كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

7-رسائل في فنون مختلفة، معظمها نظمه شعراً.

وفي هذه الأثناء وقعت ثورة في فاس فقد فيه السلطان أبو سالم عرشه في التاسع عشر من ذي القعدة762هـ(1361م) [29]،واستولى على الحكم مدبر الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله حيث أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره،وساعده في استرجاع عرشه حينما اندلعت ثورة جديدة في غرناطة صرع فيها السلطان إسماعيل ابن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد،وقد ساعده الوزير عمر بن عبد الله بمنحه مدينة(رندة) التي كانت تابعة لأملاك بني مرين ،واتخذها مركزاً له لتدبير خططه، وبعد فترة غزا ثغر(مالقة)، واستولى على غرناطة، وتربع على العرش من جديد في جمادى الآخرة عام:763هـ(1361م) [30].

وبعد فترة قليلة كتب رسالة إلى الوزير المنفي لسان الدين بن الخطيب بتاريخ:14جمادى الآخرة يدعوه فيها إلى تقلد منصبه السابق،وقد أثنى فيها عليه أيما ثناء ،ومما جاء فيها قوله:« الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد،المشير،العالم العلم الكبير الرفيع الشهير...إمام البلغاء، وصدر الخطباء، وعلم العلماء، وكبير الرؤساء...»،فاستجاب ابن الخطيب، وعاد رفقة أسرته، وصحبه، ففي الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان قراراً بإعادته إلى منصبه،وفي هذه المرحلة تغيرت الأوضاع،ووجد من يدبر له المكائد،ويزاحمه منصبه،وينافسه على السلطة وهو شيخ الغزاة(عثمان بن أبي يحيى)الذي كان له الفضل

الكبير في استرجاع السلطان للعرش،وقد نشب بينهما خلاف،وتمكن ابن الخطيب من التغلب عليه،وأخاف الملك من غدره،ومكائد أشياعه،فاستجاب السلطان لنصائحه،وقضى عليه في شهر رمضان:764هـ(1363م).

وما كاد ابن الخطيب يتخلص من مكائد عثمان، حتى شعر بما يحيط به من دسائس، ومكائد، وفي هذه المرة أحس أن السلطان يستجيب لخصومه(31)، وقد تزعم الحملة ضده هذه المرة كل من:

الشاعر محمد بن يوسف المعروف ب(ابن زمرك)، وهو تلميذ ابن الخطيب، ومعاونه في الوزارة.

و قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، ولي نعمة ابن الخطيب.

وبعد أن خشي ابن الخطيب من دسائس الرجلين قرر مغادرة الأندلس نهائياً، فوصل إلى سبتة، والتحق بتلمسان، واستقبله فيها السلطان عبد العزيز بحفاوة كبيرة،وأكرمه،كما راسل سفراءه للحديث مع السلطان حتى يسمح إجازة أسرة ابن الخطيب،فاستجاب ابن الأحمر لطلبه سنة:773هـ(1371م) (32).

على الرغم من ابتعاد ابن الخطيب عن غرناطة، إلا أن حقد أعدائه لم يتوقف، وظلوا متخوفين من عودته، فأخذوا يسعون إلى الإطاحة به(33)، والتخلص منه بصفة نهائية،فأخذوا يراجعون ما كتبه أيام شبابه،وكهولته،ولاسيما في كتابه«روضة التعريف في الحب الشريف»، فاتهموه بالزندقة، والخروج عن شريعة الإسلام، وذهبوا إلى أن فيها طعناً في النبي،ومجاراة لمذهب الفلاسفة الملحدين،وروجوا في أوساط العلماء أن كتبه التاريخية الكثير منها هو من قبيل(الغيبة المحرمة).و كان زعيم،ومُروِّج هذه الدعاية تلميذه ابن زمرك الذي خلفه في الوزارة،وتولى تلفيق الاتهام،وصياغته القاضي أبو الحسن النباهي، وأصدر فتوى بضرورة إحراق كتب ابن الخطيب،وتم إحراقها في منتصف سنة:773هـ،وذلك بمحضر الفقهاء،والمدرسين من العلماء،و أماثيل الفقهاء(34).

وما تجدر الإشارة إليه أن القاضي النباهي كان من أنصار ابن الخطيب،ومن أشد المدافعين عنه،والمحبين له،وتعيينه قاضياً للجماعة تم على يدي ابن الخطيب،وفي كتاب(الإحاطة)نلفي ترجمة متميزة له وضعها ابن الخطيب،ووصفه فيها بأحسن الأوصاف، وبعد أن خبا نجم ابن الخطيب وقف النباهي إلى جانب ابن زمرك،وصار من أشد خصومه(35).

وقد وجه النباهي رسالة إلى ابن الخطيب ملأها بمثالبه،واتهمه بالإلحاد،والزندقة،كما عهد إلى قضاة غرناطة يطالبهم باستصدار حكم الإعدام فيه، وحصل على موافقة السلطان،وبعث القاضي أبو الحسن نوابه إلى السلطان عبد العزيز لمطالبته بتنفيذ الحكم في لسان الدين،غير أن السلطان رفض ذلك(36)، وخاطبهم قائلاً: هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم،وأنتم عالمون بما كان عليه». كما بالغ السلطان عبد العزيز في العناية بابن الخطيب وإكرامه، ومما يُذكر أن ابن الخطيب قد طالب السلطان عبد العزيز بضم غرناطة إلى مملكته بعد أن لاحظ قوة المغرب،وبعد مدة قصيرة يموت السلطان عبد العزيز،ويجلس على عرش المغرب ابنه(أبو زيان محمد السعيد)، وهو ما يزال طفلاً،وفي ربيع الآخر774هـ(1372م) يستولى على السلطة الوزير(أبو بكر بن غازي)، وفي هذه الفترة حاول السلطان ابن الأحمر الإيقاع بابن الخطيب،وطلب من ابن غازي أن يبعث به إليه،ولكنه رفض،فتوترت العلاقة بين النظام القائم في فاس، وغرناطة.(37)

وبعد أن كثرت الأقاويل في الوزير ابن غازي بسبب مبايعته لصبي صغير،ألف ابن الخطيب كتاباً له وسمه ب«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام».

بعد أن ساءت العلاقة بين فاس وغرناطة بذل ابن الأحمر جهوداً كبيرة لإسقاط نظام ابن غازي فأوغر صدور الأمراء المرينيين، وحرضهم على الثورة، كما سعى إلى إقناع حكام الأقاليم،ولاسيما منهم حاكم سبتة بأنه من الأحسن أن يكون الملك رجلاً عاقلاً راشداً،لا طفلاً صغيراً،وتم الاتفاق على تنصيب الأمير المريني(أبو العباس أحمد بن أبي سالم)ملكاً على المغرب، وأن يكون محمد بن عثمان الوزير مستقبلاً(38)، وقدم له مساعدات ضخمة للإطاحة بالحكم،شريطة تحقيق ثلاثة مطالب رئيسة بعد نجاح العملية:

1-تسليم ابن الخطيب.

2-تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر.

3-تسليم جبل طارق.

بعد أن وقعت بعض الحوادث بالمغرب الأقصى، اندلعت الثورة، وحدث الانقلاب الذي طالما سعى ابن الأحمر من أجل إحداثه، وتم تعيين الأمير(أحمد بن السلطان أبي سالم) والياً على المغرب سنة:776هـ(1374م).

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أمر بالقبض على ابن الخطيب،وسجنه،وذلك تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه،ووصل الوزير ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب إلى فاس يترأس وفداً يحمل عريضة الاتهام،وقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود، وهو واحد من ألد خصوم ابن الخطيب، وتم إحضاره إلى المشور، ومناقشته حول ما نسب إليه من الإدعاءات حول ما ورد في بعض كتبه،وقد أفتى بعض الفقهاء بقتله،وفي الليل دس سليمان بن داود بعض المرتزقة، والأوغاد من حاشيته فدخلوا عليه السجن وقتلوه خنقاً،ودفن بمقبرة(باب المحروق)،وفي الصباح ثم سحب جثته من جديد، وإحراقها[39] ،ولذلك لقب ابن الخطيب بذي الميتتين، كما لقب بذي الوزارتين، أي السيف والقلم، ويقال له ذو العمرين، لاشتغاله بالتأليف، والكتابة والتصنيف في الليل، وتدبير شؤون الوزارة والمملكة في النهار[40]، وقد كان مقتله في أواخر عام: 776هـ(1375م) [41].

وبخصوص العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب،وأدباء عصره،فيمكن أن نمثل لهذه العلاقة بشخصية الأديب الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن الأحمر، فقد فصلها الباحث محمد رضوان الداية تفصيلاً دقيقاً،وقدم متابعة تاريخية لها،ولذلك سنستند إلى رؤيته المقدمة عن هذه العلاقة،فهو يرى في البدء أن العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب،وابن الأحمر غامضة لسببين اثنين:

«الأول:أن ما ذكره ابن الأحمر عن تلك العلاقة كان تلميحاً دون الإيضاح،والثاني إعراض لسان الدين عن ذكر إسماعيل بن الأحمر باسمه في أي موضع مما نعرف من مصنفاته، فمنهجه في اللمحة البدرية، والكتيبة الكامنة، وحتى الإحاطة يقتضي أن يذكر إسماعيل هذا فيها،أو في بعضها باعتباره من الأسرة النصرية، أو ممن عنوا بالفقه، والأدب، والثقافة. وما كان حظ إسماعيل هذا من لسان الدين إلا إشارة عابرة فيها من التنكير أكثر مما فيها من التعريف حين قال: (وليوسف هذا ابن يباشر خدمة السلطان).

ولا نعلم شيئاً عن علاقتهما في الأندلس،وعلى كل حال فإن ابن الأحمر غادر الأندلس قبل أن يحتل لسان الدين مكان أستاذه ابن الجياب بعد أن توفي في الطاعون الجارف سنة 749هـ.

أما في المغرب،فقد تردد لسان الدين على فاس مرات،منها سفرة سنة:755هـ،قدم فيها من الغني بالله إلى أبي عنان، ومنها إقامته في فاس، وغيرها من المدن المغربية، وقت لجوئه مع مخدومه النصري سنة:761هـ،وآخرها حين لجأ لسان الديني إلى البلاط المريني سنة:773هـ.وكان دأب ابن الأحمر أن يتصل بالقادمين من وطنه،يتسقط أخباره،ويفيد علماً،وأدباً.ومن ذلك ما رواه في نثير الجمان،من أنه لقي أبا البركات البلفيقي (محمد بن محمد السلمي)لما قدم رسولاً من الغني بالله إلى السلطان المريني أبي سا لم إبراهيم،ولقي أيضاً لسان الدين،وقد ترجم ابن الأحمر لابن الخطيب مرتين:في نثير الجمان،وفي نثير فرائد الجمان،وذكر نتفاً من أخباره متفرقات خلال الكتابين.ومما يؤسف له حقاً أن ترجمة لسان الدين مفقودة من كتاب نثير الجمان،وهي كما أظن أهم من ترجمته في نثير فرائد الجمان لأنها كتبت في وقت قريب من مصرع ابن الخطيب»(42).

وقد مرت العلاقة بين ابن الخطيب، وابن الأحمر بفترتين:

الأولى:شملت المدة التي سبق لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين،وهي مرحلة يصفها محمد رضوان الداية بالعادية«لا يشوبها شيء يعكر صفوها، بل ربما كانت بينهما صداقة،أو علاقة شيخ بمستفيد،فقد سماه في ترجمته لمحمد بن محمد العريف الغرناطي (شيخنا ذو الوزارتين ابن الخطيب...)، وقال في موضع آخر(وأنشدني في الحنين إلى الأوطان ذو الوزارتين الحاجب القائد الخطيب الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى أبو عبد الله محمد بن الفقيه الخطيب الكاتب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن الخطيب السلماني الأندلسي بفاس بتشوق معاهده بالأندلس لما كان بالعدوة، حين خلع عن ملكه مخدومه ابن عمنا السلطان الغني بالله محمد:

أُحِبُك يا مَغنَى الحُقُوق بواجِبِ وأقْطَعُ في أَوصَافِك الغُرِ أَوقَاتِي

تَقسَّم منك التُربُ أَهلِي وَجِيرَتِي فَفِي الظُهَرِ أَحَيَائِي وفي البَطَنِ أَموَاتِي

وقال في مقدمة ترجمته (أدركته وخاطبته وخاطبني...)، وهذه الأخبار كافية للدلالة على تلك العلاقة.

والثانية:تشمل مدة لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين،أو معظمها،إذا سلمنا بما قاله ابن الأحمر من أنهما تصافيا بعد خصام.وقال ابن الأحمر في ترجمة لسان الدين في نثير فرائد الجمان بعد أن عظّمه،ومدحه:(لكن صل لسانه في الهجاء لسع،ونجاد نطاقه في ذلك اتسع،حتى صدمني،وعلى القول فيه أقدمني،بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي،سلطان ذلك الوطن في النفر الجني،والإنسي.ثم صفحتُ عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير الصادر،لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات،ولا يحمد له تتبع العثرات، اتباعاً للشرع الكريم في تحريم الغيبة...).

وفيما عدا هذه الثغرة التي يقول ابن الأحمر إنه رأبها،وفحوى كلامه تدل-بالطبع-على أن ذلك تم في حياة لسان الدين،لأنه لا معنى للصفح عمن صار في الأموات دون الأحياء،فإن مطالع كتب ابن الأحمر، والنقول التي نقلت عنه يشعر بأن إسماعيل بن الأحمر لا يذكر لسان الدين إلا بالإجلال،والإكبار حتى أنه لقبه ب(شيخنا).وقد خصص نحواً من ربع كتابه(نثير فرائد الجمان)لشعر ابن الخطيب،ونثره،وذكر كتبه،وأخباره.ولكننا مع كل هذا لا ندري ما هو السر الذي جعل لسان الدين يُعرض عن ذكر ابن الأحمر، وحدا به لأن يهمله هذا الإهمال المزري مع احتفاله بمن هم دونه»[43].

القسم الثاني: التعريف بالكتاب:بواعث تأليفه،ومنهجه،وأسلوبه:

1- التعريف بكتاب الإحاطة:

يعد كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين ابن الخطيب من أهم الكتب الأدبية، و التاريخية في الأندلس، وهو من أشهر مؤلفات ابن الخطيب، تناول فيه أخبار هذه المدينة الشهيرة عاصمة بني الأحمر (633-897هـ)، تاريخيا، وأدبيا، وجغرافيا، وسياسيا، واجتماعيا، منذ الفتح الإسلامي لإيبيرية (إسبانية والبرتغال حالياً)سنة 92هـ، حتى عصر المؤلف (دولة بني الأحمر)، منتهيا منه إلى عهد السلطان الغني بالله محمد الخامس ثامن ملوك بني الأحمر، حيث وزر له مرتين،وهو دراسة متميزة لسيرة أعلام غرناطة،ومن وفد عليها، ويتألف من خمسة عشر سفرا، أو اثني عشر سفرا[44]، كما في ريحانة الكتاب[45] ، وهذه الأسفار في مجموعها، قسمان كما ورد في نهاية مقدمة الكتاب.

القسم الأول«في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن» وهو الخاص بغرناطة بني الأحمر.

والقسم الثاني «في حلى الزائر والقاطن، والمتحرك والساكن» وهو لب الكتاب، وفيه تناول تراجم الشعراء والأدباء والملوك، والوزراء، والعلماء، وسواهم، متبعا الترتيب الهجائي التاريخي، ويرجع تأليف ابن الخطيب للكتاب إلى ما قبل سنة 760 هـ، ولكنه لم يفرغ منه إلا في أواسط عام 765هـ (46).

وقد تحدث الباحث محمد عبد الله عنان،محقق النسخة التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا بالتفصيل عن تاريخ تأليفه فأشار إلى أن ابن الخطيب قد يكون بدأ في كتابته،أو جمع مواده قبل محنته الأولى، حينما عُزل سلطانُه، ونفي معه إلى المغرب، وذلك في سنة:761هـ،وقد استأنف الكتابة فيه عقب عودته من منفاه بالمغرب إلى غرناطة في سنة:763هـ،وبعد استمراره في وزارته الثانية ،والتي دامت زهاء عشرة أعوام،وهي المرحلة التي توصف بأنها ألمع فترات حياته،وأخصبها إنتاجاً استمر في كتابة تراجم الإحاطة،وهذا ما ظهر في كثير من إشاراته،حيث ذكر في رسالة إلى ابن خلدون مؤرخة في جمادى الأولى سنة:769هـ، أنه أتمه قبل أوائل سنة:769هـ،وأنه بعث بنسخة من«الإحاطة»إلى المشرق،كما يستشف أيضاً من إشارات كثيرة أن ابن الخطيب استمر في تدوين، تراجم الإحاطة، وتنقيحها إلى غاية أوائل سنة:772هـ(47)

ويذكر محمد عبد الله عنان أن أول من نسخ كتاب«الإحاطة» هو تلميذ ابن الخطيب أبو عبد الله الشريشي، مؤدب أولاد السلطان من مسودات ابن الخطيب،حيث كان يثق فيه،ووفق ما حدثنا المقري فقد جاءت النسخة الأولى في ستة مجلدات،وينبه محمد عبد الله عنان إلى أن النسخة الوحيدة المقول بأنها هي النسخة الكاملة التي انتهت إلينا من«الإحاطة» هي نسخة جامع الزيتونة،وهي تقع في ثلاثة مجلدات(48).

وقد صدر كتاب الإحاطة على مراحل عن منشورات مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة، بتحقيق محمد عبد الله عنان بين سنتي 1978/1973م في أربعة مجلدات، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في دراستنا.

ويصف جرجي زيدان كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) بأنه « معجم تاريخي لمشاهير غرناطة في ثلاثة مجلدات،مرتبة على حروف الهجاء.في صدره فذلكة جغرافية خطط فيها ولاية غرناطة، وما يتبعها، وذكر عادات أهلها، ومعايشهم، وأزياءهم، وجندهم، وسلاحهم، وكثيراً من أحوالهم الاجتماعية لعهده.ثم أتى على التراجم،وقسم ترجمة كل رجل إلى أبواب في تاريخ حياته،ومناقبه،وسائر أحواله على ما تقتضيه ترجمته. وختم الكتاب بترجمة نفسه. ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني، والأسكوريال. واهتمت شركة طبع الكتب المصرية بنشره فوجدت الجزء الأول منه في دار الكتب المصرية،وأخذت تبحث عن الجزئين الآخرين.فصدر الجزء الأول منه مطبوعاً في نحو400صفحة،والثاني في308صفحات سنة:1319.وقد لخص هذا الكتاب كازيري. وله مختصر اسمه:(مركز الإحاطة بأخبار غرناطة) في برلين، وباريس، ومدريد»(49).

إن كتاب :(الإحاطة في أخبار غرناطة)يصف أدق وصف التاريخ السياسي،والأدبي،والاجتماعي لمدينة غرناطة في الحقبة التي عاش فيها لسان الدين بن الخطيب،ويتحدث فيه بإسهاب عن المراحل السابقة،كما يسلط الأضواء على أمور دقيقة تتصل بالطبيعة،والأرض، وسماتها،ومدينة غرناطة،وجنانها،وأنهارها،ويرصد فيه ابن الخطيب تاريخ المدينة،ويصفها وصفاً دقيقاً شافياً،ووافياً في بلاغة،وبراعة،فضلاً عن كونه يحوي ترجمات وافية للأعلام القدامى،والمعاصرين لابن الخطيب،فهو كتاب أدب،وفن،وتاريخ،وسياسة،ولم يخل من تقويمات جغرافية،واقتصادية،واجتماعية، إضافة إلى أنه يعتبر معجماً من المعاجم النفيسة التي تحوي تراجم ضافية للعلماء من شتى الأصناف.

وقد أجمع عدد كبير من كبار الدارسين،والمؤرخين على أنه كتاب فريد بين كتب التاريخ في موضوعه،وذهبوا إلى أنه أهم كتاب وصل إلينا من مؤلفات ابن الخطيب،وهو لا يقتصر على التأريخ لمدينة غرناطة فحسب،ولكنه«عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة، من الأخبار، والأوصاف، والمعالم، فهو يتناول وصف جغرافيتها، وخِططها، ومواقعها، وما يحيط بها من المروج،والجبال،ثم يتناول تاريخها منذ نزل بها العرب الأوائل، وأخبار من كان بها، ومن نزلها أو مر بها من الكتّاب،والشعراء،والأدباء،والوزراء،والمتغلبين،كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف ابن الأحمر حتى عصر

المؤلف.وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين»[50].

ويصف الباحث محمد الشريف قاهر الكتاب بأنه موسوعة جامعة لكل ما يتصل بغرناطة تاريخياً،وجغرافياً،واقتصادياً،وإنتاجاً فكرياً،منذ الفتح الإسلامي إلى عصر ابن الخطيب،ويعتني بصفة خاصة بترجمة أكابر العلماء،والشعراء من المعاصرين له في الأندلس،والمغرب،ويلتزم الترتيب الأبجدي لأصحاب التراجم[51].

وقد تحدث المقري عن المكانة التي تحتلها الإحاطة في النفوس، ولاسيما لدى علماء المشرق فقال:« وأما كتاب الإحاطة، فهو الطائر الصيت بالمشرق، والمغرب، والمشارقة أشد إعجاباً به من المغاربة، وأكثر لهجاً بذكره، مع قلته في هذه البلاد المشرقية، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير«البشتكي» محمد بن إبراهيم الدمشقي المتوفى عام:830هـ،وسماه(مركز الإحاطة في أدباء غرناطة)» . ويقع اختصاره في سفرين،اطلع المقري على السفر الثاني منهما،و«نص على كون البشتكي اختصر أربعة أسفار من أصل الإحاطة في سفرٍ،أي أن الكتاب فقد ثلاثة أرباعه،وهذه المواصفات لا تتماشى مع مواصفات هذا السفر أنه من حيث المادة التي يحتويها يزيد حتى على النص المطبوع بأكثر من الضعف،ولعل مختصر البشتكي لا يتجاوز نصف النص المطبوع من الإحاطة»[52].

ونظراً للأهمية الكبيرة التي يمثلها كتاب(الإحاطة)،فقد اختصر عدة مرات،من قبل العديد من الأدباء، والمشائخ، ومن مختصري الإحاطة كذلك الشيخ(أبو جعفر البقني)،فقد نقل عنه«فيما يظهر صاحب النيل،وأبو جعفر البقني عاش بعد سنة ست وثمانين أي بعد تاريخ نسخ السفر موضوع الحديث.ومن ثم فقد أضاف في مختصره إلى نص الإحاطة أشياء حدثت بعد وفاة ابن الخطيب،وذلك كما وقع في ترجمة ابن خلدون مثلاً»[53].

2- بواعث تأليف الكتاب:

يشكل كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» امتدادًا لبعض الدراسات السابقة التي قام بها بعض المؤرخين في المشرق، والمغرب، وقد ذكر ابن الخطيب بواعث تأليف كتاب الإحاطة،

ومصادره في مقدمة كتابه فقال: «... ولما كان الفن التاريخي مأرب البشر، ووسيلة إلى ضم النشر يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعاً، وطبعاً وما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرفيه ،ويستدلون ببعض ما يبدي به الدهر ويشفيه، ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإسلام، ويخفيه، ويمر على مصارع الجبابرة فيحسبه بذلك واعظاً ويكفيه. وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهد لهذا الفن ويوفيه. قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [54]».

وقال عز من قائل: « نَحنُ نَقُصُ عَلَيكَ أَحسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوحَينَا إِلَيكَ هَذَا القُرءَانَ، وَإِن كُنتَ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ»[55].

فوضح سبيل مبين، وظهر أن القول بفضله يقتضيه عقل ودين. وإن بعض المصنفين ممن ترك نومه لمن دونه، وأنزف ماء شبابه مودعاً إياه بطن كتابه يقصده الناس، ويردونه اختلفت في مثل هذا الباب أغراضهم. فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان عجزاً عن الإحاطة بهذا الشأن، عموما في أكثر الأقطار،وخصوصاً في بعض البلدان.

فتذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخاً هز إليها–علم الله– وفاءٌ وكرمٌ، ودار عليها،بقول الله من رحمته الواسعة،حرمٌ، كتاريخ مدينة بخاري لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار. وتاريخ إصبهان لأبي نعيم احمد بن عبد الله الحافظ بن عبد العزيز بن القصار.

وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر بن ثابت، وأخبار بغداد لأحمد بن أبي طاهر. وتاريخ واسط لأبي الحسين على بن الطيب الخلافي. وتاريخ من نزل حمص من الصحابة ومن دخلها، ومن ارتحل عنها. وتاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسين بن عساكر. وتاريخ مكة للأزرقي. وتاريخ المدينة لابن النجار. وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس. وتاريخ الإسكندرية. وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبي محمد بن عبد الله بن أبي العباس بن خلف التميمي. وعنوان الدراية في ذكر من كان في المائة السابعة ببجاية، صاحب الحلية. وتاريخ إصبهان أيضا لأبي زكريا يحي بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ. وتاريخ نيسابور[56] للحاكم أبي عبد الله بن اليسع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل. وتاريخ همذان لأبي شجاع شيرويه بن شهر دار. وتاريخ طبقات أهل شيزار لأبي عبد الله محمد

لأبي العباس الغبريني. وتاريخ تلمسان لابن الأصفر. وتاريخها أيضا لابن هدية. وتاريخ فاس لابن عبد الكريم. وتاريخها أيضا لابن أبي زرع. وتاريخ فاس أيضا للقونجي. وتاريخ سبته المسمى بالفنون الستة،لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض. وتاريخ بلنسية لابن علقمة. وتاريخ إلبيرة لأبي القاسم محمد الغافقي الملاحي،وتاريخ شقورة لابن إدريس،وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر، تركه غير تام،فأتمه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خمسين. والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة، لأبي العباس أصبغ بن العباس. والاحتفال في أعلام الرجال، لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرج القيسى. وتاريخ قرطبة، منتخب كتاب الاحتفال. وتاريخ الرؤساء، والفقهاء، والقضاة بطليطلة، لأبي جعفر بن مظاهر. ومنتخبه لأبي القاسم بن بشكوال. وتاريخ فقهاء قرطبة، لابن حيان. وتاريخ الجزيرة الخضراء لابن خمسين ،وتاريخ قلعة يحصِب المسمى بالطالع السعيد، لأبي الحسن ابن سعيد. وتاريخ بقيرة لأبي عبد الله بن المؤذن. والدرة المكنونة في أخبار لشبونة،لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفارابي العالوسي. ومزية المرية،لأبي جعفر أحمد بن خاتمة من أصحابنا. وتاريخ المرية وباجة، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج، متع الله بإفادته، وهو في مُبيضته، لم يرمها بعد.

فداخلتني عصبية لا تقدح في دين، ولا منصب، وحميةٌ لا يذم في مثلها متعصب،... ورأيت أن هذه الحضرة[57] التي لا خفاء بما وفر الله من أسباب إيثارها،وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغر[58] الإسلام، ومتبوأ العرب الأعلام قبيل[59] رسوله عليه أفضل الصلاة ،وأزكى السلام ،وما خصها من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار...نزلها العرب الكرام عند دخولهم مختطين فعمروا وأولدوا، وأثبتوا المفاخر وخلدوا........

وقد كان أبو القاسم الغافقي[60] ،من أهل غرناطة، قد قام من هذا الغرض بفرض، وأتى من كل ببعض. فلم يشف من غلة، ولا سد خلة، ولا كثّر قلة[61] فقمت بهذا الوظيف، وانتدبت للتأليف. ورجوت على نزارة حظ الصحة، وازدحام الشواغل[62]. الملحة أن اضطلع من هذا القصد بالعبء الذي طالما طأطأت له الأكتاد»[63].

والجدير بالذكر أن الأندلسيين قد اهتموا اهتماماً كبيراً بكتب التراجم في مختلف مراحل حياتهم الثقافية،إذ ركزوا على«تاريخ بلادهم،وتاريخ الفكر الإسلامي بصفة عامة،وقد ظهر ذلك منذ وقت

مبكر...،وكان من أوائل المؤرخين عبد الملك بن حبيب(238هـ)،وآل الرازي محمد بن موسى الرازي(249هـ)،وابنه محمد بن أحمد(324هـ)،وابن القوطية (327هـ)،مؤلف تاريخ الأندلس،وغريب بن سعيد(369هـ)،مؤلف مختصر كتاب الطبري،وحبان ابن خلف(377هـ)،مؤلف المآثر العامرية،وابن رزين(470هـ)،وابن حزم القرطبي مؤلف جمهرة أنساب العرب،وأبو القاسم صاعد الطليطلي(420هـ)،مؤلف طبقات الأمم وابن صاحب الصلاة(577هـ)،وبنو سعيد عبد الملك بن سعيد(560هـ)،وابنه محمد(519هـ)،وأبو جعفر أحمد(559هـ)،وعلي بن سعيد المغربي المولود(605هـ)،مؤلف المغرب في حلى المغرب،والمراكشي مؤلف المعجب(581-618هـ).وأخيراً بلغت الدراسات التاريخية للبلاد الأندلسية قمتها في القرن الرابع عشر الميلادي على يد ابن الخطيب المؤرخ الجامع للأخبار،والمحيط بالنشاطات السياسية،والاجتماعية،والفكرية،والوجدانية ثم ابن خلدون الفيلسوف الاجتماعي الذي اعتمد على رصيد المؤرخين ليضع علم الاجتماع»[(64)].

وأما الأمير ابن الأحمر،حفيد السلطان الغني بالله فقد أورد لدى حديثه عن أصل تأليف كتاب«الإحاطة»رواية لخصها الباحث محمد عبد الله عنان في أن«الأديب الغرناطي أبا عبد الله محمد بن جُزي، كاتب السلطان أبي الحجاج، عبر إلى العدوة، مغضوباً عليه ملتجئاً إلى السلطان أبي عنان سنة:703هـ،فأكرم أبو عنان وفادته،وطلب إليه أن يضع مؤلفاً عن الأندلس،فوضع في ذلك كتاباً متقناً جامعاً.ولما عبر ابن الخطيب إلى المغرب في أواخر سنة:755هـ عقب مصرع السلطان أبي الحجاج،سفيراً عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان أبي عنان،اطلع على مؤلف ابن جزي المذكور،وأعجب بمحتوياته،وخطر له أن يقوم بوضع كتاب في (الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة).ويقول لنا ابن الخطيب نفسه في ترجمته لابن جزي الواردة بالجزء الثاني من الإحاطة إنه اطلع على أجزاء من مؤلف ابن جزي المذكور تشهد باضطلاعه،وأي أنه ابن جزي قيد بخطه من الأجزاء الحديثة، والفوائد، والأشعار، ما يفوت الوصف، ويفوق الحد. ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس،وألفى الحاجب الكبير أبا نعيم رضوان متربعاً في منصب الحجابة، والوزارة، وشعر أنه لا يستطيع إلى جانبه أن يزاول ما كان يطمح إليه من السلطان انتهز فرصة هذا الانتباذ، وعكف على تأليف كتاب(الإحاطة)وأخذ يدون تاريخ المواليد،والوفيات،والأسماء،والألقاب،ويراجع مختلف المصنفات،وكان

ساعده الأيمن في ذلك أبو عبد الله الشريشي، فهو الذي تولى نقل المسودات،وترتيبها،وتبويبها،حتى تم الكتاب في ستة مجلدات،ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس،عقب انتهاء محنته الأولى في سنة:763هـ،عاد إلى مراجعة كتاب(الإحاطة) والزيادة فيه،حتى تحقق ما كان يبغيه له من السعة،والإحاطة،وتمت نسخته الأولى في اثني عشر سفراً»[65].

3–منهجه:

تحدث ابن الخطيب عن منهجه في كتاب«الإحاطة»فقال: « والترتيب الذي انتهت إليه حيلتي ،وصرفت في اختياره مخيلتي هو أنني ذكرت البلدة[66]، حاطها الله، منبها منها على قديمها، وطيب هوائها وأديمها، وإشراق علاها ،ومحاسن حلاها، ومن سكنها وتولاها، وأحوال أناسها ومن دال بها من ضروب القبائل ،وأجناسها، وأعطيت صورتها وأرخت في الفخر ضرورتها. وذكرت الأسماء على الحروف المبوبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتبة: فذكرت الملوك، والأمراء ثم الأعيان، والكبراء ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المقرئين والعلماء ثم المحدثين، والفقهاء ،وسائر الطلبة النجباء ثم الكتاب ،والشعراء، ثم العمال والأثراء، ثم الزهاد، والصلحاء، والصوفية والفقراء ليكون الابتداء بالملك ،والاختتام بالمسك، ولينظم الجميع انتظام السلك[67]. وكل طبقة تنقسم إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار أو طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار أو خاض إليها– وهو الغريب– أثباج[68] البحار، أو ألم بها ولو ساعة من نهار. فإن كثرت الأسماء نوعت وتوسعت، وإن قلت اختصرت وجمعت. وآثرت ترتيب الحروف في الأسماء ثم في الأجداد ،والآباء لشرود الوفيات ،والمواليد التي رتبها الزمان عن الاستقصاء. وذهبت إلى أن أذكر الرجل ،ونسبه، وأصالته، وحسبه ومولده ،وبلده، ومذاهبه، وأنحاله، والفن الذي دعا إلى ذكره، وحليته ،ومشيخته – إن كان ممن قيد علما أو كتبه– ومآثره إن كان ممن وصل الفضل بسببه[69] وشعره إن كان شاعرا، وأدبه، وتصانيفه إن كان ممن ألف في فن وهذبه، ومحنته إن كان ممن بزه الدهر، وسلبه، ثم وفاته ،ومنقلبه إذا استرجع الله من محنته حياته ما وهبه»[70].

وما نلاحظه بالنسبة لمنهج ابن الخطيب في ترجمته لأعلام غرناطة أنه قد استفاد من الطرائق التي استخدمها المؤرخون من قبله،كما أنه لم يستخدم منهجاً واحداً وطبقه على الجميع،حيث إننا نجد

تنوعاً في رصده للشخصيات التي يترجم لها،وقد«قسمه إلى أقسام قسم للملوك،والأمراء،وقسم للعمال،وثالث لذوي النباهة كالقضاة،والمتحققين بعلوم القرآن،والمحدثين،والفقهاء، ومن إليهم»[71].

كما أنه كثيراً ما يكشف النقاب عن الحياة العامة،ويهتم بالأحوال الاجتماعية،والاقتصادية التي وقعت،ويسرد الأحداث بدقة،ويؤرخ للتحولات السياسية،والثقافية،والفكرية،كما يقدم تراجم دقيقة لرجالات الأدب،والفكر،والدولة،وطبقاتهم من وزراء،وحجاب،وقضاة،وكتاب.

وفيما يتعلق بالخطوط العامة لمنهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية،والأدبية،والترجمة للأعلام فهو في أغلب الحالات يبدأ في عرض الشخصية المترجم لها كالآتي:اسمه،وكنيته،وأوليته(نسبه)،حاله(ثقافته-تخصصه)،نباهته،مشيخته،دخوله غرناطة(إن كان ليس من ساكنيها)، شعره، تصانيفه، محنته (لمن وقعت عليه المحنة)، مولده، وفاته.

وقد جعل ابن الخطيب من نظام الأسفار أساساً لتبويب الكتاب،وقاعدة لتقسيمه،فهو يحتوي على إثني عشر سفراً،«يضم مخطوط الإسكوريال منها ستة أسفار،من السفر السابع إلى السفر الثاني عشر،ويلي هذا السفر الأخير ترجمة ابن الخطيب مكتوبة بقلمه.وهذه الأسفار فيما يبدو-عدا السفر الأخير-متقاربة الأحجام،يحتوي كل منها على نحو أربعين ترجمة،وهذا عدا السفر الأخير الذي يضم ثمان تراجم فقط.ومعنى ذلك أن مخطوط الإسكوريال بحجمه،وعدد أسفاره نصف المؤلف الأصلي،وتكون نسخة الإسكوريال هذه مكونة من جزئين كبيرين،وصل إلينا منهما فقط هذا الجزء الثاني،الموسوم فوق صفحته الأولى بأنه(السفر الثاني)من مختصر الإحاطة،وهو من محتويات المكتبة الزيدانية الشهيرة،التي استولى عليها الإسبان في عرض البحر في أوائل القرن السابع عشر، وضمت إلى محتويات المكتبة الملكية بالإسكوريال»[72].

4-أسلوبه:

ومن المسلم به أن أسلوب لسان الدين ابن الخطيب يتسم بالجزالة،والقوة،فهو معروف ببلاغته،ومستواه الرفيع في اللغة،والأدب،وشتى أصناف المعرفة،فضلاً عن براعته في سرد الأحداث بطريقة شائقة،وممتعة،على الرغم من أن القارئ قد يجد صعوبة في فهم بعض العبارات،نظراً للبعد الزمني.

إن أسلوب لسان الدين ابن الخطيب الذي تجلى من خلال كتاب«الإحاطة في أخبار غرناطة»،هو أسلوب قوي،وجزل،وجميل،وقد وصف الباحث الحسن بن محمد السائح أسلوبه بأنه«أسلوب مطبوع حاول فيه أن يظهر قدرته على الافتتان،والتلاعب بالكلمات،والجمل،وإظهار الثقافة العامة،والإطلاع الواسع على مختلف فروع المعرفة،ولا غرو فابن الخطيب قرأ كثيراً،واستوعب ما قرأ فعبر عن ذلك بأسلوبه الخاص الذي حاول فيه أن يكون مجدداً غير مقلد،قوياً غير ضعيف،فهو شأن كتاب عصره يكثر من السجع،ويكرر الفكرة مرتين،أو ثلاث في جمل متعددة،على أنه في كتاب(الإحاطة) لم يكثر من السجع،وحاول أن ينقل الفكرة دون تزويق أو تنميق،أما في باقي كتبه فهو يسرف في السجع دون اقتصاد،وقد تكون الجملة تحمل أفكاراً واضحة كما في كتاب(روضة التعريف)،وأحياناً يكون مملاً كما في إنتاجه الأدبي،وخصوصاً في شبابه حين يظهر غرامه بالإطناب»[73].

وقد لاحظ الباحث شوقي ضيف أن رسائله تتميز بإطناب مسرف ينطوي على اللف والدوران،ويذكر بأصحاب(التصنيع) في المشرق،إضافة إلى أن نثر ابن الخطيب يتسم بإطناب يفقد قارئه النشاط،ذلك أن منظر المعاني ينبسط أمام بصره انبساطاً يخرجها من حظيرة التنوع إلى حظيرة الاستمرار،والإملال.

وقد اقتبس النقد الذي كتبه المقري متحدثاً فيه عن أسلوب ابن الخطيب،حيث وصفه بأنه« كاتب مسترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار،الذي لا يخلو من عثار، والإطناب الذي يفضي إلى الاجتناب،والإسهاب الذي يعقد الاهاب».

أما أسلوبه العام الذي تجلى في شتى تصانيفه فقد لاحظ الباحث شوقي ضيف أن ابن الخطيب إضافة إلى أنه اتبع التصنيع،فقد اقترن تصنيعه بظاهرة أخرى معروفة عند أصحاب التصنع«وهي ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم،وبالأخص اللغوية...كما يلاحظ أن ابن الخطيب يضيف إلى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع،وزخارفه.والواقع أن ابن الخطيب له أسلوبه الخاص فجمله المنتقاة تحمل معاني واضحة،وهو في كتاب(روضة التعريف)،رغم سجعاته يضمن كتابه أفكاراً مركزة واضحة في جمل أدبية

رائعة،كما أنه في الإحاطة قلما يسجع،وإنما يصنع المذاهب الكلامية حين يقصد إلى ذلك متباهياً بقدرته على التلاعب بالبديع،والبيان»(74).

ومن خصائص الكتابة التاريخية عند ابن الخطيب أنه يمعن في الدقة، والضبط، إضافة إلى استبلاغه في التفصيل الواسع،وقد رأى الباحث محمد عبد الله عنان أن رسائل ابن الخطيب في الإحاطة تمتاز«بالأسلوب الرصين المشرق،واللفظ الجزل المختار.وبالرغم أن معظمها يجري على قاعدة السجع،فإنها على الأغلب خالية من روح التكلف،الذي يجني أحياناً على الأسلوب، والمعنى.ولابن الخطيب براعة خاصة في تخير الألفاظ،وإبراز المعاني،لا يجاريه فيها الكثيرون من أكابر الكتاب.

ولابن الخطيب مقدرة فائقة على تخير أساليب المدح،والذم،ومديحه غالباً من النوع الرفيع الذي لا يشوبه التنزل الوضيع،بل تطبعه على الأغلب نزعة من الاعتزاز،والكرامة.ويبدو ذلك في كثير من تراجم الإحاطة،وفي كثير من رسائله السلطانية.ونستطيع أن نقدم لمديحه الأدبي مثلاً بترجمة صديقه،وأستاذه أحمد بن صفوان المالقي في الإحاطة،وما كتبه عنه في(الدرر الفاخرة)،وهو الديوان الذي جمعه من شعره،وما ورد في ترجمته لشيخه أبي البركات بن الحاج البلفيقي، وفي ترجمة صديقه ابن خاتمة،شاعر المرية الكبير،وأن نقدم مثلاً لمديحه السياسي،بما كتبه عن سلاطين غرناطة المعاصرين،وما ورد في ترجمة صديقه وزميله الوزير الكبير الحاجب رضوان النصري. ففي هذه التراجم عبارات مختارة من أساليب المدح الرفيع،الذي يفيض اعتزازاً،وكرامة،واتزاناً في الوصف،والتصوير»(75).

فذلكة:

لقد توقفنا في هذا البحث مع ابن الخطيب،وكتابه(الإحاطة في أخبار غرناطة)،وركزنا على الجوانب التاريخية،والأدبية فيه،فقد كشف البحث عن حياة ابن الخطيب،وتنقله بين العدوتين(المغرب العربي والأندلس)،ثم رحلاته،وسفارته لدى السلطان أبي عنان،من قبل السلطان محمد بن أبي الحجاج بن الأحمر،كما تتبعنا حياته في مختلف مراحلها،وتحولاتها من حقبة إلى أخرى،و ذكرنا خصائص كل فترة من الفترات في ظل التغيرات ،والتقلبات الكثيرة التي شهدها العصر.

كما أشرنا إلى أن الفترة التي عاش فيها ابن الخطيب (القرن الثامن الهجري) كانت فترة اضطراب،وصراع بين غرناطة الصامدة في وجه هجمات الغرب المسيحي،وحركة الاسترجاع(المسيحية)،وكانت نقطة قمة الجبل الذي أتمت فيه الحضارة الإسلامية نهاية صعودها،وبدأت تأخذ طريقها نحو التراجع،والانحدار،وبدأ يضمر توهجها.

وقد سلط البحث الضوء على منهج ابن الخطيب في كتاب(الإحاطة) ،وعلى طريقة الترجمة فيه،وقد استطاع أن يجعل كل ترجمة مركزاً لدائرة معارف(تاريخية وأدبية)تحوي نسبه، وكنيته، واسمه، وحاله، ومشيخته، وتآليفه، وشعره، ومحنته (إن كان قد تعرض إلى محنة في حياته)،ووفاته.وقد رسم ابن الخطيب خطة، ومنهجاً واضحين، رتب عناصرهما ترتيباً حسناً، وتغلغل في التفاصيل، وتعمق، ورصد أخبار المترجم له ،متابعاً أوليته(نسبه)،وقد تأثر بمنهجه هذا المقري في كتابيه(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)،و(أزهار الرياض في أخبار عياض).

تتجلى القيمة العلمية،والأدبية والتاريخية لكتاب(الإحاطة في أخبار غرناطة)، من حيث إنه يعد أحد المصادر المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها في تاريخ غرناطة الأدبي،والسياسي،والاجتماعي،وهو ينفرد عن الكتب القديمة كونه يكشف النقاب عن الحركة العلمية، والأدبية والتاريخية السائدة، من خلال تقديم تراجم وافية عن أدباء،وعلماء غرناطة من مختلف العصور،كما يكتسي أهمية بالغة كونه يحوي رسائل،ومقطوعات نثرية ،وشعرية، الكثير منها غير متوفر في مصادر أخرى.

وفي النهاية، يمكن القول إن ابن الخطيب هو خير من أعطانا صورة وافية عن التاريخ الأدبي،والسياسي،والاجتماعي لغرناطة عبر عدة عصور من خلال هذا السفر النفيس الذي كان موضوع هذا البحث.

الهوامش:

(1) محمد عبد الله عنان:مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، ص:18.

(2)ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ص:404.

(3)محمد عبد الله عنان:المصدر نفسه،ص:19.

(4) جرجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية،مج2،ص:225.

(5) عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي، ج6،ص:503.

(6) خير الدين الزركلي:الأعلام، ج6،ص:235.

(7)الحسن بن محمد السائح:منوعات ابن الخطيب،ص:35.

(8)عبد الهادي بوطالب:وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب،ص:48،وما بعدها.

(9) المقري التلمساني:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6،ص:13-162.

(10)عبد الله عنان:المصدر السابق،مج1،ص:22 وما بعدها.

(11)محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي:الأدب المغربي،ص:232.

(12)ابن خلدون:كتاب العبر، ج7،ص:690.

(13)محمد الطيب محمد عبد النافع وإبراهيم عبد الرحيم يوسف:تاريخ الأدب والنصوص الأدبية،ص:459.

(14) دراسة وتحقيق ديوان الصيب،والجهام،والماضي،والكهام،ص:55 وما بعدها.

(15)دراسة وتحقيق ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص: 57وما بعدها.

(16)خير الدين الزركلي:المرجع السابق، ج6،ص:235.

(17) ينظر:ابن الخطيب:اللمحة البدرية في الدولة النصرية، القسم الخامس الخاص بنسق الدول،واتصال الأواخر منها بالأول،ص:42 وما بعدها.

(18)عبد الله عنان:المصدر السابق،مج1،ص:24.

(19) محمد رضوان الداية: نثير فرائد الجمان لابن الأحمر،ودراسة في حياته،وأدبه،ص:23.

(20) عمر فروخ:المرجع السابق، ج6،ص:505.

(21) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة،مج1،ص:24 وما بعدها.

(22) عمر فروخ:المرجع السابق، ج6،ص:505.

(23)إحسان عباس:الكتبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب،المقدمة،ص:8 وما بعدها.

(24)ينظر :محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي:المرجع السابق،بحث خاص عن ابن الخطيب في المغرب،ص:232-248.

(25)محمد الشريف قاهر: المرجع السابق،ص: 60 وما بعدها.

(26)عبد المجيد التركي: مقدمة كتاب مثلى الطريقة في ذم الوثيقة للسان الدين بن الخطيب،ص: 14.

(27)ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب،تحقيق:د.أحمد مختار العبادي، ج:02،ص: 205.

(28) محمد الشريف قاهر: المرجع السابق،ص: 60 وما بعدها.

(29)حمدان حجاجي: حياة وآثار ابن زمرك،شاعر الحمراء،ص: 10.

(30) محمد رضوان الداية: الأدب الأندلسي والمغربي-أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي-،ص: 257.

(31)محمد كمال شبانة: مقدمة كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للسان الدين بن الخطيب،ص:17 وما بعدها.

(32)جرجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية،مج2،ص:225.

(33)محمد عبد الله عنان:مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة،ص:36.

(34) ينظر:ابن خلدون:كتاب العبر،مج7،الخبر عن مقتل ابن الخطيب،ص:404 وما بعدها.

(35) ينظر:المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج2، مخاطبات ابن زمرك للسان الدين،ص:75 وما بعدها.

(36) محمد كمال شبانة:المرجع السابق،ص:20 وما بعدها.

(37) عبد المجيد التركي:المرجع السابق ،ص:13.

(38) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ،ص:85.

(39) خير الدين الزركلي: المرجع السابق،مج6، ،ص:235.

(40) ينظر: بطرس البستاني:أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث،ص:35 و159.

(41)محمد رضوان الداية: دراسة وتحقيق: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان،ص:78 وما بعدها.

(42)محمد رضوان الداية: المرجع السابق،ص:80 وما بعدها.

(43) محمد عبد الله عنان،مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة،مج:1،ص:53.

(44) محمد كمال شبانة،مقدمة كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار،ص:29 وما بعدها.

(45) محمد عبد الله عنان :المصدر السابق،ص:36.

(46) ينظر: مخطوط الريحانة بالخزانة العامة بالرباط، لوحة: 13، اقتبسه محمد الشريف قاهر في كتابه:دراسة وتحقيق ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام للسان الدين بن الخطيب،ص:97.

(47) ابن الخطيب: المصدر السابق،مج1، ص:31.

(48)ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج 1 ،المقدمة ،ص:5 وما بعدها(بتصرف).

(49)المصدر نفسه،ص:6.

(50)تاريخ آداب اللغة العربية، مج2 ،ص:225 وما بعدها.

(51)ابن الخطيب:المصدر السابق،ص:3 وما بعدها.

(52)تحقيق ودراسة الصيب والجهام والماضي والكهام،ص:95 وما بعدها.

(53)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،مج:09،ص:308.

(54) سورة هود،الآية:120.

(55) سورة يوسف،الآية:3.

(56) نيسابور: مدينة قديمة من مدن خراسان تقع جنوب غربي طوس، وكان لها أيام الدولة الإسلامية شأن عظيم، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء.ينظر:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج5،ص:331 وما بعدها.

(57) الحضرة: العاصمة (غرناطة) وهي القاعدة والعاصمة.

(58)الثغر: المكان الذي يخشى منه مجيء العدو (حدود البلاد الإسلامية على بلاد الأعداء المحاربين).

(59) المتبوأ: المسكن والمستقر. القبيل: القوم،الأهل.

(60) يشير ابن الخطيب هنا إلى أبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي المعروف بالملاحي نسبة إلى الملاحة(lamala)، وهي قرية في جنوب غربي غرناطة، ما تزال قائمة حتى اليوم، وهو مؤلف كتاب "تاريخ علماء إلبيرة"، وهي عاصمة ولاية غرناطة القديمة (ينظر كتاب الإحاطة،ج1،ص85، هامش2).

(61) الغلة: العطش. الخلة: الفرجة، الثقب الصغير، الحاجة والفقر. الوظيف: عظم دقيق في الساق (وهو يقصد الوظيفة: العمل الذي يقدر الإنسان عليه). وانتدبت (نفسي) للتأليف.

(62) الشواغل ليست في القاموس. المقصود الأشاغيل جمع أشغولة(بالضم): ما يشغل (بفتح العين الإنسان ويلهيه. الكند (بفتح ففتح): الكاهل (مجتمع الكتفين).

(63) ابن الخطيب:المصدر السابق،مج1،ص:85.

(64)الحسن بن محمد السائح:منوعات ابن الخطيب،ص:49.

(65)ابن الخطيب:الإحاطة،مج2، ص:6 وما بعدها.

(66)بالملك (أهل القوة). الاختتام بالمسك(بأهل الصلاح). انتظام السلك (ليكون الكتاب ممثلا لجميع طبقات المجتمع على الترتيب المخصوص).

(67) الثبج: وسط الشيء (ووسط البحر أيضا).

(68)وصل إلى مكانته في قومه بسبب علمه (!)

(69)ابن الخطيب:الإحاطة،مج:1،ص:514 وما بعدها.

(70)الحسن بن محمد السائح:منوعات ابن الخطيب،ص:49.

(71) ابن الخطيب: المصدر السابق، مج: 2، ص:5 .

(72)الحسن بن محمد السائح:المرجع السابق،ص:51.

(73)المرجع السابق،ص:54.

(74) ابن الخطيب:المصدر السابق،مج:1،ص:46.

(75) محمد عبد الله عنان:المصدر السابق،مج:1،ص:22.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً:المصادر:

1-ابن الأحمر،إسماعيل بن يوسف محمد:

-روضة النسرين في دولة بني مرين،تصدير الأستاذ عبد الوهاب بن منصور،الطبعة الثانية،المطبعة الملكية بالرباط،1382هـ،1962م.

2-ابن الأحمر،إسماعيل بن يوسف محمد:

-نثير فرائد الجمان في نظم فحول تلمسان،دراسة وتحقيق الأستاذ رضوان الداية،دار الثقافة للطباعة والنشر،بيروت،1967م.

3-ابن بطوطة،محمد بن عبد الله اللواتي(ت:779هـ،1378م):

-تحفة الأنظار في غرائب الأمصار،وعجائب الأخبار المعروفة:برحلة ابن بطوطة،دار صادر،ودار بيروت للطباعة،والنشر-بيروت،1384هـ،1964م.

4-ابن حجر،شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني(ت:852هـ،1449م):

-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،الطبعة الأولى،مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية،حيدرأباد الدكن،الهند1930-1932م.

5-ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-الإحاطة في أخبار غرناطة،أربعة أجزاء،الطبعة الثانية،مكتبة الخانجي بالقاهرة،1393هـ-1973م.

6-ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام،تحقيق:ليفي بروفنسال،ونشر تحت عنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية،الطبعة الثانية،دار المكشوف،بيروت،1956م،والقسم الثالث،تحقيق:الدكتور أحمد مختار العبادي،والأستاذ إبراهيم الكتاني،ونشر تحت عنوان:تاريخ المغرب في العصر الوسيط،دار الكتاب،الدار البيضاء،1964م.

7- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-جيش التوشيح،تحقيق:الأستاذ هلال ناجي،مطبعة المنار،تونس،1967م.

8- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-رقم الحلل في نظم الدول،المطبعة العمومية،تونس،1316هـ.

9- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-روضة التعريف بالحب الشريف،تحقيق:الأستاذ عبد القادر أحمد عطا،الطبعة الأولى،طبع ونشر دار الفكر العربي،القاهرة،1387هـ،1968م.

10- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة،تحقيق:الدكتور إحسان عباس،نشر دار الثقافة،مطبعة عيتاني الجديدة،بيروت،1963م.

11- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-كناسة الدكان بعد انتقال السكان،تحقيق:الدكتور محمد كمال شبانه،دار الكاتب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،1386هـ،1966م.

12- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-اللمحة البدرية في الدولة العصرية،نشر بعناية محب الدين الخطيب،المطبعة السلفية ومكتبتها،القاهرة،1347هـ.

13- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس«مجموعة من رسائله»،تحقيق:الدكتور أحمد مختار العبادي،مطبعة جامعة الاسكندرية،1958م،الاسكندرية.

14- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):

-معيار الاختيار في مركز المعاهد والديار،مطبعة أحمد يمني،فاس،1325هـ.

15- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين،(ت:776هـ):
-نفاضة الجراب في علالة الاغتراب،تحقيق:الدكتور أحمد مختار العبادي،دار الكاتب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،1968م.
16-ابن الخطيب القسنطيني،أبو العباس أحمد بن حسن بن علي،الشهير بابن قنفذ(ت:810هـ،1480م):
-الوفيات،المطبعة الثعالبية،الجزائر،بلا تاريخ.
17-ابن خلدون،أبو زيد عبد الرحمن،(ت:808هـ،1406م):
-العبر،وديوان المبتدأ والخبر،في أيام العرب والعجم والبربر،في سبعة مجلدات،الطبعة الثانية،مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت،1956-1961م.
18-ابن خلدون،أبو أبو زكرياء يحي،(ت:1378م):
-بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،الطبعة الأولى،مطبعة بيير فونتانة،الجزائر الشرقية1903-1910م.
19-ابن خلكان،أبو العباس،أحمد بن محمد،شمس الدين،(ت:681هـ،1281م):
-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،نشر بعناية:محمد محي الدين عبد الحميد،الطبعة الأولى،مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة،1367هـ-1948م.
20 - الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت784 هـ) :
-سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 هـ/1985 م.
21-ابن سلام،أبو عبد الله محمد الجمحي البصري،(ت:232هـ):
-طبقات الشعراء،نشر حامد عجان الحديد الكتبي،مطبعة السعادة،بجوار محافظة مصر،بلا تاريخ.
22 - ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت327 هـ) :
-طبائع النساء، تحقيق : محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة.
23-ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت571 هـ) :
-تاريخ مدينة دمشق – تراجم النساء – تحقيق : سكينة الشهابي، دمشق،1982م
24-ابن العماد،أبو الفلاح عبد الحي،(ت:1089هـ):
-شذرات الذهب في أخبار من ذهب،في ثمانية مجلدات،مكتبة القديس،القاهرة،1350هـ-1351هـ.
25-ابن غازي،أبو عبد الله محمد المكناسي،(ت:917هـ):
الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون،المطبعة الملكية،الرباط،384هـ،1964م.

26-ابن القاضي،أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي،(ت:1025هـ،1916م):
-جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس،طبعة حجرية،فاس،1309هـ.
27-ابن القاضي،أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي،(ت:1025هـ،1916م):
-درة الحجال في غرة أسماء الرجال،نشر،ش،علوش،رباط الفتح،المطبعة الجديدة،1934م.
28-القالي، أبو علي إسماعيل (ت356 هـ) :
-الأمالي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1407 هـ/1987 م.
29-ابن قتيبة،أبو محمد عبد الله بن مسلم،(ت:276هـ،889م):
-الشعر والشعراء،في مجلدين،تحقيق وشرح:الأستاذ محمد شاكر،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة،ج:01،طبع عام1364هـ-وج2،طبع عام:1366هـ.
30- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت821 هـ) :
- قلائد الجمان، دار الكتب المصرية القاهرة، 1982 م.
31- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمرو، (ت774 هـ) :
- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1972 م.
32- ابن مريم،أبو عبد الله محمد التلمساني،(ت: بعد1014هـ،1605م):
-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان،المطبعة الثعالبية،الجزائر،1326هـ،1908م.
33- ابن منظور، المصري (ت711 هـ) :
-لسان العرب، تحقيق، يوسف الخياط، بيروت.
34-المقري،شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت:1041هـ):
-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،دار صادر،بيروت،لبنان،1388هـ-1968م.
35-المقري،شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت:1041هـ):
-أزهار الرياض في أخبار عياض،في ثلاثة أجزاء،تحقيق الاساتذة:مصطفى السقا،إبراهيم الأبياري،عبد الحفيظ شلبي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1939-1942م.
36-الناصري،أبو العباس أحمد السلاوي(ت:1897م):
-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،في تسعة أجزاء،تحقيق ولدي المؤلف الأستاذين:جعفر،ومحمد،مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء،1954-1956م.
37-ابن النديم،محمد بن اسحاق،(توفي حوالي:1047م):
-الفهرست،مطبعة الاستقامة،القاهرة،بلا تاريخ.

38-ياقوت الحموي،أبو عبد الله الرومي البغدادي(ت:626ه،1229م):
معجم البلدان،في أربعة مجلدات،منشورات مكتبة الأسدي،طهران،1965م.

ثانياً:المراجع:

1-أحمد أمين،(ت:1954م):
-ظهر الإسلام،في أربعة مجلدات،الطبعة الخامسة،منشورات دار الكتاب اللبناني،بيروت،1965م.
2-أحمد حسن الزيات:
تاريخ الأدب العربي،الطبعة الثالثة والعشرون،مكتبة نهضة مصر بالفجالة،القاهرة،بلا تاريخ.
3-أنيس المقدسي:
-تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي،الطبعة الثانية،دار العلم للملايين،بيروت،1960م.
4-بالنثيا،انخل جنثالث :
-تاريخ الفكر الأندلسي،نقله عن الاسبانية الدكتور حسين مؤنس،الطبعة الأولى،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1955م.
5-بروكلمان،كارل(ت:1956م):
-تاريخ الشعوب الإسلامية،نقله إلى العربية:نبيه أمين فارس،ومنير البعلبكي،الطبعة الرابعة،دار العلم للملايين،بيروت،1965م.
6-بطرس البستاني(ت:1883م):
-أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث،الطبعة الخامسة،دار صادر،بيروت،1958م.
7- بوملحم (علي) :
- في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، لبنان.
8-ابن الخطيب في دائرة المعارف،قاموس عام لكل فن ومطلب،بإدارة فؤاد أفرام البستاني،المجلد الثالث،بيروت،1960م.
9-التطواني،محمد بن أبي بكر :
-ابن الخطيب من خلال كتبه،في جزأين،الجزء الأول،نشر دار الطباعة المغربية،تطوان،1954م.
الجزء الثاني،طبع دار الطباعة كريما ديس،تطوان،1959م.
10-جرجي زيدان(ت:1914م):
-تاريخ آداب اللغة العربية،في أربعة أجزاء،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،1967م.
11-خالد الصوفي:

-تاريخ العرب في إسبانيا،الطبعة الأولى،نشر وتوزيع مكتبة دار الشرق بحلب.
12-خفاجي،محمد عبد المنعم:
-قصة الأدب في الأندلس،المطبعة المنيرية،1955-1956م.
13-داغر يوسف أسعد:
-مصادر الدراسة الأدبية،الجزء الأول،مطبعة دير المخلص،صيدا،لبنان.
14-الرافعي،مصطفى صادق(ت:1937م):
-تاريخ آداب العرب،في ثلاثة أجزاء،تصحيح:محمد سعيد العريان،مطبعة الاستقامة،القاهرة1359هـ،1940م.
15-الركابي جودت:
-في الأدب الأندلسي،دار المعارف،القاهرة،1966م.
16-الركابي جودت:
-الطبيعة في الشعر الأندلسي،دمشق،مطبعة الجامعة1959م.
17-الزركلي،خير الدين:
-الأعلام:قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين،والمستشرقين،في عشر مجلدات:الطبعة الثانية،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان.
18-شبانة محمد كمال :
-المؤرخ الوزير،لسان الدين ابن الخطيب،بحث نشر في«دعوة الحق»،مجلة تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية،العدد الثاني من السنة التاسعة،جوان1966م.
19-شكيب أرسلان(ت:1946م):
-الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية،في ثلاثة أجزاء،منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت،لبنان،بلا تاريخ.
20--شوقي ضيف:
-الفن ومذاهبه في النثر العربي،الطبعة الثالثة،منشورات مكتبة الأندلس،بيروت،لبنان،1956م.
21-شوقي ضيف:
-الفن ومذاهبه في الشعر العربي،الطبعة الرابعة،دار المعارف،القاهرة،1965م.
22-طه حسين:
-حديث الأربعاء،الجزء الأول،دار المعارف بمصر،1959م.

23- عبد العزيز بن عبد الله:
-الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب،دار الطباعة المغربية،تطوان،1953م.
24-عبد الهادي بوطالب:
-وزير غرناطة،لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني،الطبعة الثانية،نشر دار الكتاب بالدار البيضاء،1960م.
25-عبد السلام هارون:
-تحقيق النصوص ونشرها،مطبعة الخانجي،القاهرة،1954م.
26-عبد الله كنون:
-لسان الدين بن الخطيب:الكاتب الساخر،فصلة من مجلة البحث العلمي،يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي،الرباط،العدد الثاني،السنة الأولى1384هـ،1964م،مطبعة فضالة المحمدية.
27-عبد الله كنون:
-النبوغ المغربي،ثلاثة أجزاء في مجلد واحد،الطبعة الثانية مكتبة المدرسة،ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر،بيروت،1961م.
28-عبد العزيز الأهواني:
-الزجل في الأندلس،مطبعة الرسالة،القاهرة1957م.
29-عبد العزيز محمد عيسى :
-الأدب العربي في الأندلس،مطبعة الاستقامة،القاهرة،سنة:1936م.
30-غومس،اميليو،غرسية :
-الشعر الأندلسي،بحث في تطوره، وخصائصه،نقله عن الاسبانية:الدكتور حسين مؤنس،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1952م.
31- -كامل كيلاني:
-نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي،الطبعة الأولى،المكتبة التجارية الكبرى،القاهرة،1924م.
32 -الكتاني عبد الحي:
-فهرس الفهارس والإثبات،ومعجم المعاجم والمشيخات،والمسلسلات،في مجلدين:المطبعة الجديدة،بطالعة فاس:1946م-1947م.
33-كحالة عمر رضا:

-معجم المؤلفين:تراجم مصنفي الكتب العربية،خمسة عشر جزءاً في ثمانية مجلدات،مطبعة الترقي،دمشق،1957-1961م.

34-ليفي بروفنسال:

-حضارة العرب في الأندلس،ترجمة:ذوقان قرقوط،دار مكتبة الحياة،بيروت،بلا تاريخ.

35-محمد عبد الله عنان :

- لسان الدين ابن الخطيب،حياته وتراثه الفكري،الطبعة الأولى،نشر مكتبة الخانجي،مطبعة الاستقلال الكبرى،1388هـ،1968م.

36-محمد عبد الله عنان:

-نهاية الأندلس،وتاريخ العرب المنتصرين،الطبعة الثانية،مطبعة مصر،شركة مساهمة مصرية القاهرة،1978هـ-1958م.

37-محمد كرد علي:

-غابر الأندلس وحاضرها،الطبعة الأولى،المطبعة الرحمانية بمصر،القاهرة،1341هـ،1923م.

38-محمد كرد علي:

-كنوز الأجداد،مطبعة الترقي،دمشق،1950م.

39-محمد بن محمد مخلوف(ت:1936م)

-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،في جزأين،المطبعة السلفية ومكتبتها،القاهرة،1949هـ.

40-المراكشي،عباس بن إبراهيم:

-الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام،في ثمانية مجلدات،طبع منه خمسة مجلدات،المطبعة الجديدة بطالعة فاس،1936-.1939

41--مكي الطاهر أحمد:

-دراسة في مصادر الأدب،الطبعة الثانية،دار المعارف،القاهرة،1971م.

42-الميلي مبارك بن محمد:

-تاريخ الجزائر في القديم والحديث،بيروت،لبنان،1963م.

43-مجهول

-تاريخ تأسيس مدينة فاس

ثالثاً:الموسوعات:

1-دائرة المعارف الإسلامية،ترجمة:محمد ثابت الفندي،أحمد الشنتناوي،إبراهيم زكي خورشيد،عبد الحميد يونس،خمسة عشر جزءاً في اثني عشر مجلداً.

2-دائرة المعارف،قاموس لكل فن ومطلب،بإدارة فؤاد أفرام البستاني،في سبعة مجلدات،طبع ببيروت،1956-1967م.

3-دائرة معارف القرن العشرين،فريد وجدي محمد،في عشر مجلدات،الطبعة الثالثة،دار المعارف للطباعة والنشر،بيروت،لبنان1971م.

4-الموسوعة العربية الميسرة،تحت إشراف:غربال،محمد شفيق،دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،القاهرة،1965م.

حملات الصّوائف والشواتي في بلاد الشّام خلال العهد الأموي (41-132هـ)

The Sâwa’if (summer military campaigns) and the Shâwati(winter military campaigns)in al-Shâm during The Umayyad era (41-132 AH)

محمّد لطيّف (*) 1

1 كليّة العلوم الانسانية والاجتماعية –جامعة تونس الأولى

mohamed.ltaief1991@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2012/02/02 **تاريخ القبول:** **2021/03/30** **تاريخ النشر:** **2021/05/05**

ملخص:

الصّوائف والشّواتي هي حملات فصليّة وجّهها المسلمون إلى مناطق الثغور لمناوشة أعدائهم. وقد كانت هذه الحملات أكثر انتظاما في منطقة الثغور الإسلامية –البيزنطية وذلك لأن التهديد البيزنطي ظلّ قائما وهو ما اقتضى عناية خاصّة من السّلطة بهذه الجبهة منذ السيطرة على بلاد الشام.

تهدف هذه الدراسة إلى رصد تطور مفهوم الصوائف والشواتي وأهداف تنظيمها وعرض أهم الحملات التي وجهها الأمويون إلى مناطق الثغور خلال حكمهم والوقوف على ما حققته من نتائج عسكرية. كما يرمي بحثنا إلى تبيّن التحسينات والإضافات التي أدخلها الأمويون على الصوائف والشواتي في إطار السياسة التي رسموها لحماية الحدود عامة وحدود بلاد الشام- مركز خلافتهم – خاصة.

الكلمات الدّالة: صوائف، شواتي ،ثغور، الأمويون، الشام ، بيزنطة.

Abstract:

The Sâwa’if and the Shâwati were seasonal campaigns directed by the Muslims to border areas in order to skirmish their enemies.

(*) محمّد لطيّف: **mohamed.ltaief1991@gmail.com**

These campaigns had been more regular on the Islamic –byzantine borders as the Byzantine threat persisted and it required attention on this front starting from the conquest of Syria.

This study aims to highlight the notion's development of the sawaif and the shawati as well as the objectives behind their organization.It also displays the most prominent campaigns directed to the confines by the Umayyads during their rule, thus determining the military results they achieved. Furthermore, our research intends to elucidate the improvements and additions introduced to the sawaif and shawati by the Umayyads within the policy they set to protect the borders generally and the borders of Syria-the center of their Caliphate-particularly.

Keywords: summer military campaigns, winter military campaigns,Borders, The Umayyads, Syria , Byzance.

1. مقدمة

ظلّت الحدود بين الامبراطوريّة الإسلاميّة وبيزنطة تمثّل جبهة قتاليّة مفتوحة بالنّسبة للمسلمين. وقد ظهر اهتمام مبكّر بهذه الجبهة منذ فتح بلاد الشاّم في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب. ولم يقتصر المسلمون في هذه المنطقة على الحروب الدّفاعية بل نظّموا بدورهم غزوات توغّلت عبر التخّوم مع بيزنطة تسميها المصادر ب"الصّوائف" و"الشّواتي ". وقد انطلقت هذه الغزوات بشكل منتظم وشارك فيها أساسا أهل الشّام وحرص الخلفاء على تجهيزها بشكل جيّد نظرا لقوّة العدوّ البيزنطي وصعوبة هذه الجبهة وامتدادها.

ولئن لم يكن بنو أميّة هم المبادرين بتنظيم هذه الحملات في الأصل، فقد طوّروها إلى حدّ كبير وحوّلوها من مجرّد غزوات متقطّعة إلى نظام عسكري متكامل . لكنّ نسق الصّوائف والشّواتي لم يكن مستقرّا وارتبط إلى حدّ بعيد بالتقلّبات والأحداث السياسيّة داخل الإمبراطورية الإسلاميّة فضلا عن خضوعه لخيارات الخلفاء الأمويّن .

فماهي الصوائف والشواتي؟ وماهي دوافع تنظيمها؟ وماهي أهم الحملات التي وقع تنظيمها في العهد الأموي ؟ وأي تحسينات على مستوى التنظيم والتجهيز أدخلها الأمويون على هذه البعوث ؟

سعيا للإحاطة بهذه الاشكالية اعتمدت دراستنا على المنهج التحليلي من أجل التعمّق في قضية تنظيم الصوائف والشواتي خلال العهد الأموي .واستند عملنا أيضا إلى منهج المقارنة بين الروايات حتى يتسنى تقديم عرض متماسك حول النظام العسكري المدروس.

2.تعريف الصوائف والشواتي وأهداف تنظيمها

1.2 تعريف الصوائف والشواتي

الصّوائف والشّواتي هي حملات موسميّة نظّمها المسلمون باتّجاه التّخوم البيزنطية. وترتبط هذه التّسميات بمواقيت تنظيم كلّ حملة فالصّوائف[1] تنطلق تقريبا خلال شهر جويلية وتمتدّ إلى أواخر سبتمبر [2] أمّا الشواتي[3] فتنطلق في شهر فيفري وتمتدّ إلى أواخر مارس4 فهي بذلك حملات قصيرة لا تتوغّل كثيرا في أرض العدوّ[5] نظرا لصعوبة الظّروف المناخيّة بها خلال فصل الشتاء[6].

تشير الرّوايات إلى أنّ هذه الحملات انطلقت منذ أن تمكّن المسلمون من فتح بلاد الشام[7] لكن تنظيمها بصفة فعليّة تمّ على يد الخليفة عمر بن الخطّاب أثناء زيارته إلى الشام سنة 17 هجري[8]. ويندرج هذا الإجراء العسكري في إطار سعي المسلمين لحماية ثغور بلاد الشام[9] خصوصا وأن الخطر البيزنطي ظلّ قائما على هذه الجبهة الشمّالية الممتدّة [10] .لكن يظهر أيضا أنّ مبادرة عمر تتنزّل ضمن سياسة متكاملة للخلافة تقوم على السّماح للجيوش الإسلامية بالتوغّل في الأراضي البيزنطيّة والفارسيّة على السواء حيث تستعمل المصادر مصطلح "الانسياح في الأرض " للدّلالة على سماح الخليفة للعرب بالقيام بحملات

توغلية في التراب الفارسي والبيزنطي[11]شارك فيها أهل الشام وأهل العراق استكمالا لجهود الفتوحات الأولى.

يبدو أن مدلول الشّواتي والصّوائف عرف تطورا في الزّمن فلئن كان ينطبق في البداية على الحملات التي نظّمها المسلمون في دواخل التّراب الفارسي والبيزنطي انطلاقا من العراق والشام فقد تقلّص تدريجيا ليصبح مقتصرا على غزوات أهل الشّام على الجبهة البيزنطية. وتتضح هذه الدلالة الضيقة خصوصا خلال العهد الأموي عندما أصبحت حملات أهل الشامّ أكثر انتظاما. وفضلا عن ذلك، فإن الإشارة إلى حملات المسلمين في الشام باتجاه التراب البيزنطي خصوصا خلال مرحلتها الأولى- ترد بصيغ أخرى. فإلى جانب ما ذكرناه من مصطلحات، تستعمل المصادر أيضا عبارة الدروب 12 في إشارة إلى المسالك الجبلية التي يمرّ عبرها المسلمون للوصول إلى أرض الروم13. وخلال العهد الأموي، ظهرت تسميات أخرى مثل الصّائفة الكبرى والصّائفة الصغرى[14] وكذلك الصائفة اليمنى والصّائفة اليسرى15. وفضلا عن ذلك فقد ميّزت المصادر بين شواتي أو صوائف بريّة وأخرى بحريّة 16.غير أن الحملات الشتوية كانت أقل انتظاما بل أنها توقفت تقريبا في أواخر العهد الأموي17. ويظهر تتبع الروايات مدى تزامن الحملات البريّة والبحريّة في العهد الأموي لإشغال العدو على جبهتين خصوصا إذا ما كانت الغاية من الغزو السيطرة على مدينة أو حصن هام. وقد ظهر هذا التزامن عندما تعلق الأمر مثلا باستعادة أنطاكية أو بمحاولة السيطرة على القسطنطينية في أكثر مناسبة كما سنبيّن لاحقا.

ويتبيّن لنا من خلال تتبّع تطور المصطلحات المتواترة في المصادر للدّلالة على حملات المسلمين في الأراضي البيزنطيّة بأن تسميات الصّوائف والشواتي تنطبق على النظام العسكري الذي استقر خلال العهد الأموي أي عندما أصبح الخروج إلى الجبهة البيزنطية عملية دوريّة ومنتظمة. بيد أنّ المصادر أسقطت على ما يبدو هذه التسميات على الحملات الأولى

للمسلمين في هذه المناطق باعتبار تشابه أهدافها وطبيعة تنظيمها مع البعوث المرسلة في العهد الأموي.

وقد عرفت الصوائف والشواتي تطوّرا على مستوى التنظيم أيضا. فلئن كانت هذه الحملات تضم ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة مقاتل في البداية18، فإن الأمويين حوّلوها إلى غزوات كبرى شارك فيها ما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل19. وكانت هذه الحملات تنطلق غالبا من معسكر مرج دابق 20 بالقرب من حلب والذّي يعدّ نقطة تجمّع للمقاتلة. وقد كان بعض الخلفاء الأمويين يخرجون أحيانا للمرابطة بهذا المعسكر خصوصا عند تخوّفهم من فشل الحملات التي أرسلوها و ذلك لحماية الشّام من الخطر البيزنطي. كما يردّ خروج بعضهم إلى هذا المعسكر إلى رغبته في تشجيع النّاس على المشاركة في هذه الغزوات التي أحجم البعض عن الانخراط فيها نظرا لما تنطوي عليه من مخاطر.

تعددت دوافع تنظيم الصّوائف والشّواتي إذ أنها لا ترتبط بالصّراع بين المسلمين وبيزنطة فحسب بل كذلك وأيضا بخصوصيّة الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة للشّام الذي أصبح مركزا للخلافة الأموية.

2.2أهداف تنظيم حملات الصوائف والشواتي

يندرج تنظيم الصّوائف والشّواتي في إطار سياسة المسلمين لحماية حدودهم مع بيزنطة21. وتكمّل هذه الحملات دور الحصون والمسالح الواقعة على الثغور22 إذ أنها تكفل مراقبة الرّوم عن كثب وتمكّن من صدّهم. وهي تعكس عدم اقتصار المسلمين على الحرب الدفاعيّة بل سعيهم إلى مهاجمة الروم على أراضيهم وإشغالهم عن الوصول إلى تخوم بلاد الشّام وبالتالي يمكن اعتبارها بمثابة الحروب الاستباقيّة التي تهدف إلى إضعاف الرّوم ومنعهم من تنظيم حملات جبهويّة كبرى. وتتجلى هذه الأهداف من خلال انتظام الحملات الصيفيّة و الشتويّة بل واتجاه الخلفاء الأمويّين إلى إسنادها بحملات أخرى وسيطة ربيعية وخريفية مما

يعني أن النّشاط العسكري للمسلمين في الأراضي البيزنطيّة أصبح يمتدّ على كامل السّنة تقريبا23.

مكّن انتظام الصّوائف والشّواتي م المسلمين من صدّ خطر البيزنطيين ثمّ المبادرة بتشييد شبكة من المسالح على امتداد المنطقة الواقعة بين جبال طوروس وقيصرية24 وكان الروم قد توصلوا في بعض الأحيان إلى السّيطرة على بعض الحصون والمدن الهامّة خصوصا خلال فترات انشغال الخلافة بالجبهات الأخرى في المشرق والمغرب أو بالفتن والحروب الداخلية25. وبالتالي فقد كانت بعوث المسلمين بمثابة تمهيد لانتشار عسكري مكثّف على الحدود مع بيزنطة ومن ثمّة الانتقال من الحروب الخاطفة إلى الحروب المنظمة والتي تمتدّ على طول السّنة تقريبا.

على صعيد آخر، يبدو أن تنظيم الصّوائف والشّواتي ارتبط بخصوصية الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة لبلاد الشّام. فلم يكن لهذا الإقليم أفق توسعيّة كبرى وذلك لتوقّف حركة الفتح فيه بشكل مبكّر26 وهو ما طرح على السّلطة صعوبات عديدة متعلقة بتدبير عطاء الأرستقراطيّات العربيّة التي استقرت في هذه المنطقة27.لذلك فقد عملت العلى الحفاظ على الصّبغة العسكريّة للحضور العربي والحيلولة دون تحول المقاتلة إلى مزارعين فطبقت نظام الأجناد الذي جعلهم مدرّبين على الحرب والجهاد28.

حوّل الأمويّون الصّوائف والشّواتي إلى آليّة سياسيّة للحفاظ على دعم وولاء مقاتلة الشّام الذين شكّلوا جيشا اعتمدت عليه الخلافة في دمشق لقمع الثّورات والانتفاضات في مختلف أقاليم الإمبراطوريّة29.فقد ضمن تشريك المقاتلة في البعوث التي وفّرت لهم غنائم هامّة التفافهم حول البيت الأموي وبالتالي قابلية تطويعهم لأهداف الخلافة ومشاريعها. وقد وضع معاوية بن أبي سفيان قاعدة هذه السّياسة منذ أن كان واليا على الشام30غير أنه طوّرها بشكل كبير بعد أن آلت له الخلافة سنة 41 هجري31 على إثر التأييد الذي حظي به من طرف أهل هذا الإقليم أثناء الفتنة 32. وواصل بقية خلفاء البيت الأمويّ اتباع هذه

السّياسة نظرا لاعتمادهم بصفة أساسية على أجناد الشام في حكمهم وجعلوا من المشاركة في الصّوائف والشّواتي حكرا على مقاتلة هذا الإقليم33 و لم يقع تشريك مقاتلة المدينة والعراق إلا في مناسبات قليلة إما أثناء الحملات الكبرى أو في شكل إمدادات خصوصا إثر هزيمة مقاتلة الشّام ضدّ الرّوم34.

يتّضح بالتّالي بأن حرص السّلطة على انتظام الصوائف والشواتي يفسّر أساسا بالرغبة في الحفاظ على استقرار الأوضاع في منطقة واجهت صعوبات ناتجة عن توقّف الفتح مقابل تزايد حاجيات مقاتلة الشام الذين شكلوا مقوما أساسيا من مقومات الحكم35 إذ أن استمرارية هذه الحملات كانت تضمن انسجام إقليم الشام وتماسك حزام الأنصار والحلفاء الذي توصل بنو أمية إلى تشكيله حول خلافتهم.

على صعيد آخر، ارتبط حرص المسلمين على تنظيم الصّوائف والشّواتي برغبتهم أيضا في إشغال الرّوم عن بقيّة الجبهات ويظهر ذلك من خلال تزامن هذه الغزوات مع الحملات الكبرى التي نظّموها في بلاد المغرب على وجه التّحديد والتي واجهوا خلالها مقاومة من الجانب البيزنطي36. ويبدو أن الانتصارات التي حقّقتها الجيوش الإسلاميّة أمام البيزنطييّن خلال فترة الخلافة الرّاشدة والعهد الأموي ارتبطت إلى حدّ بعيد بإنهاك جيوش بيزنطة على الجبهة الشّمالية لبلاد الشّام وذلك بنقل الصّراع أحيانا من المناطق الطّرفية التي يصعب إرسال الإمدادات إليها إلى المناطق القريبة من مركز الثّقل العسكري للإمبراطورية الإسلاميّة أين يمكن التّعبئة للغزوات بكيفيّة سريعة وناجعة على اعتبار أن المقاتلة لم يكونوا يعتبرونها تجميرا في البعوث مثل تلك الحملات في الأقاليم البعيدة37.

تسارع نسق الصّوائف والشّواتي خلال العهد الأموي نظرا للدّوافع التي ذكرناها. وقد تطوّرت هذه الحملات على مستوى التّجهيز والتنظيم وهو ما مكّن الجيوش الإسلامية من تحقيق نتائج عسكرية هامّة في مناطق الثّغور.

3.حملات الصوائف والشواتي خلال العهد الأموي ونتائجها العسكرية

رغم عدم استقرار نسقها، فقد استمر تنظيم حملات الصّوائف والشّواتي على امتداد كامل العهد الأموي تقريبا. وقد أصبحت هذه الحملات جزءا من سياسة متكاملة وضعها الأمويون لحماية الحدود الشّماليّة للشّام.

1.3 الصّوائف و الشّواتي خلال العهد السفيانيّ(41-64هـ)

منذ وصوله إلى الخلافة في 41 هجري إثر نهاية الفتنة الأولى ، عاد معاوية إلى الاهتمام بالجبهة البيزنطيّة بعدما انشغل عنها المسلمون لفترة من الزّمن38 استطاع خلالها الروم استعادة السّيطرة على عدّة حصون وقرى ومدن حدودية بل و شرعوا في الإعداد إلى حملة واسعة على الشّام كما تذكر بعض الروايات39.وكان معاوية بن أبي سفيان يدرك جيّدا أهميّة حماية الحدود مع بيزنطة فضلا عن معرفته بتنظيم الصّوائف والشّواتي باعتبار أنّه تولىّ تجهيز وقيادة أولى الحملات باتّجاه الدّروب الرّومية منذ خلافة عمر بن الخطّاب40 كما مكّنته ولايته الطويلة على بلاد الشّام من بلورة سياسة دفاعيّة متكاملة ضمنت عدم تقدم العدوّ عبر الحدود الشماليّة الممتدّة 41. لذلك وبعد نهاية الفتنة الأولى، وجد الخليفة الأموي متّسعا لاستعادة النّشاط العسكري على التّخوم الإسلامية-البيزنطيّة خصوصا وأن حماية الشام باتت أكثر أهمية باعتبار أنه صار المركز الجديد للخلافة. ولم يقتصر معاوية على التّجهيز لحملات الصّوائف والشّواتي فحسب بل اهتم وبقيّة الخلفاء الأمويّين بالمدن الحدوديّة والثّغور42 إذ تذكر بعض الروايات43 في هذا الصدد بأنّه قام سنة 42 هـ بنقل أعداد كبيرة من سكان البصرة والكوفة وبعلبك وحمص إلى مدينة أنطاكية التي شكّلت إحدى أهم المدن الحدوديّة المعرضّة بصفة دائمة لغزوات الرّوم44. وبهدف تشجيع هذه الجماعات على الاستقرار، وزّعت عليها الاقطاعات ووطنّها على امتداد ظهير المدينة45.وتندرج هذه الإجراءات في إطار سياسة استهّلها معاوية منذ وصوله إلى الخلافة تقوم على إعادة استيطان المدن التي خرج منها البيزنطيون46. إلى جانب ذلك، استطاع الخليفة الأموي خلال هذه

المرحلة السّيطرة على عدّة حصون هامة 47 كما أعاد تحصين بعض المدن الساحليّة مثل عكاّ وصور 48 ونقل إليها أعداد من المسلمين بهدف استيطانها49.

بناء على ما تقدّم، يمكن القول بأنّ مجهودات معاوية لإعادة تحصين وترميم المدن والمسالح الحدوديّة تعدّ بمثابة تمهيد لاستعادة الحملات التوغّلية في الأراضي البيزنطيّة. ومن ثمّة فإنّ خلافته تعدّ نقطة تحوّل هامّة في الصّراع الحدودي الإسلامي –البيزنطي إذ انتقل المسلمون خلال هذه المرحلة من الحملات المتقطعة إلى نظام عسكري قوامه التّكامل بين الدّفاعات والتّحصينات من ناحية والبعوث إلى الأراضي البيزنطيّة من ناحية أخرى50 وذلك بعد أن مكّن تأمين وتحصين المدن الحدوديّة البحريّة والبريّة المسلمين من التوغل أكثر في التّراب البيزنطي. كما أن توطين جاليات جديدة في مناطق التّخوم أمّن مسالك الإمداد للجيوش وحوّل الوجود الإسلامي من محض انتشار ظرفيّ مرتبط بالبعوث إلى استقرار دائم في شكل مرابطة للجماعات العربيّة التي مثّلت خطّ الدفاع الأوّل أمام الرّوم.

وفقا لبعض الرّوايات 51 بادر معاوية بإرسال أولى الحملات باتجاه الأراضي البيزنطية منذ سنة 41 هـ. لكن تواتر أخبار كثيرة في المصادر حول إبرامه صلحا مع الرّوم في هذه السنة52 يدفعنا إلى عدم القبول بهذه التّورخة .ومن المرجّح حينئذ بأن الصّوائف والشّواتي انطلقت فعليا سنة 42 هـ أو حتّى بعد ذلك إذ أن أوّل حملة تتوفر حولها معطيات دقيقة في المصادر هي حملة بسر بن أرطاة الّذي تولى قيادة شاتية سنة 43 هـ53. وقد انطلقت هذه الحملة بعد أن أتمّ المسلمون تجهيز دفاعاتهم في الثّغور وتوطين المجموعات التي تم نقلها إلى المدن الحدوديّة كما ذكرنا.

وفي سنة 44 للهجرة وقع تنظيم حملة شتويّة كبيرة توغّلت بعيدا في الأراضي البيزنطية54. ويتضح جليّا من خلال المصادر أن هذه الشّاتية انطلقت من أنطاكية مما يعكس نجاعة عمليّة توطين الجماعات العربية في المدن الحدودية خصوصا وأن عدد المقاتلة المشاركين في هذه الحملات ارتفع نسبيا55. ويبدو أنه تمّ في نفس هذه السّنة تنظيم حملة

بحريّة قادها أيضا بسر بن أرطأة، غير أن الإشارات المتوفرة حولها مضطربة إذ لم يقع تحديد مسارها أو ذكر ما حقّقته من نتائج عسكريّة. ويتضّح تبعا لما تقدّم بأنّ المسلمين أدخلوا تعديلات تنظيميّة على البعوث المرسلة ضدّ بيزنطة قوامها التنسيق بين الحملات البحريّة والحملات البريّة بهدف تشتيت القوّات البيزنطيّة ومن ثمّة إمكانية التقدّم أكثر فأكثر باتجاه المدن الثغريّة.

شهدت سنة 45 هـ تنظيم حملتين56 قاد الأولى عبد الرحمن بن خالد والثّانية قادها سفيان بن عون الغامدي57. لكن هذه الحملات واجهت فيما يبدو عدّة صعوبات وأفضت إلى هزيمة الجيوش الإسلاميّة58. ويعود فشل حملات سنة 45 هجري ربّما إلى انشغال الخلافة الأموية بفتح بلاد المغرب إذ أن معاوية أرسل في هذه السنة حملة كبيرة بقيادة معاوية بن حديج السّكوني 59. وفي السّنة الموالية أرسل الأمويّون شاتية قادها على ما يبدو مالك بن هبيرة السكوني60 كما قاد بسر بن أرطأة صائفة وتوغلت إلى حدود أضنة61 .

وتشير الروايات إلى شاتيتين سنة 47هـ62 لكن عند تتبع مراحلهما بدقّة يتّضح أن الأمر يتعلق بحملة واحدة قسّم أثناءها المقاتلة إلى جيشين توغّل أوّلهما بقيادة مالك بن هبيرة في الأراضي البيزنطيّة في حين ظلّ القسم الثاني من الجيش في أنطاكية لحماية ظهور المسلمين ومراقبة السّواحل خشية الهجمات البحريّة. ويظهر أيضا أن حملات سنة 48 هـ اتصلت من حيث أهدافها ومسارها بصوائف وشواتي السّنة السّابقة إذ أن النّشاط العسكري للمسلمين تركّز على حماية السّواحل وتعزيز حضورهم في أنطاكية63 التي باتت نواة التّنظيم العسكري على الحدود مع بيزنطة64.

كثّف المسلمون حملاتهم الصيفيّة والشتويّة على الأراضي البيزنطيّة خلال هذه المرحلة إذ تشير المصادر إلى عدّة بعوث خلال سنة 49 هـ65. ويبدو أنّ هذه الحملات انطلقت بشكل متزامن في بعض الأحيان وأنّ هدفها كان إنهاك الحاميات البيزنطيّة تمهيدا للحملة الكبرى التي كانت الخلافة تستعدّ لتوجيهها ضدّ القسطنطينيّة. وقد انطلقت هذه الحملة

فعلا في السّنة الموالية بقيادة سفيان بن عوف الذي أمدّته الخلافة بجيش هام على رأسه يزيد بن معاوية66. ولئن تقدم المصادر إشارات مضطربة بل ومتناقضة أحيانا حول هذه الحملة التي فشلت نتيجة انتشار الطاعون في الجيش67 فهي تكشف مدى ما بغلته الصوّائف والشّواتي من تنظيم إذ يتّضح بأنّ حملات المسلمين لم تعد مقتصرة على إشغال الرّوم أو حماية الحدود بل أصبحت تهدف إلى السّيطرة على أهم المدن البيزنطيّة بما في ذلك عاصمة بيزنطة نفسها68. ويبدو أن الأمويين استفادوا خلال هذه المرحلة من وهن الإمبراطوريّة البيزنطيّة التي تراجع نفوذها بشكل كبير نظرا لتفاقم أزمتها السياسيّة وتشتت جهودها العسكريّة نتيجة احتدام الصّراع مع المسلمين في حوض المتوسط69.

وخلال سنة 52 هـ ، أرسلت أيضا عدّة حملات شتويّة وصيفيّة عيّن على رأسها قادة تمرّسوا في حرب الروم. ويتبيّن لنا من خلال تزامن هذه الحملات انتقال المسلمين من تنظيم حملتين موسميّتين إلى إرسال عدّة بعوث بشكل متزامن سواء خلال فصل الشّتاء أو الصّيف. وقد أضحت هذه الحملات متّصلة أي أن الحرب مع الرّوم أصبحت تمتدّ تقريبا على كامل السّنة وهو ما دفع معاوية إلى إدخال بعض التّعديلات على تنظيم هذه البعوث إذ وقعت المراوحة بين إرسال قسم من الجيش إلى الأراضي البيزنطيةّ وإبقاء قسم آخر من المقاتلة مرابطين في الثّغور والمدن الحدوديّة. وقد مكّنت إراحة قسم من الجيوش المشاركة في الصّوائف والشّواتي من الإبقاء على المقاتلة في وضعية استعداد دائم وعدم ترك مجال للحاميات والجيوش الرّومية لاستعادة قوّتها. كما نسّقت الخلافة بين نشاط الأسطول البحري والحملات البرية فقامت بتشتيت جهود الروم ونقلت عمليّا الصّراع من التّخوم إلى قلب أراضيهم. وإلى جانب ما تقدّم ، يردّ نجاح الجهود العسكرية للمسلمين وتقدّمهم داخل الأراضي البيزنطية إلى بروز نخبة من القادة "المهنيّين" الموالين بشدة لبني أمية "اختصّوا" تقريبا في هذا النّوع من الحروب. وباعتبار أن أغلبهم لم يكن من ذوي الشّرف القبلي الأثيل، فقد أصبحت مكانتهم رهينة بما قاموا به من جهود على الجبهة البيزنطيّة. وبالتّالي يمكن القول

بأنّ معاوية بن أبي سفيان حوّل من وصوله إلى الخلافة الصّوائف والشّواتي إلى نظام عسكريّ متكامل الأبعاد.

تواصلت الحملات بشكل منتظم خلال الفترة المتبقية من حكم معاوية بن أبي سفيان .ففي سنة 51هـ وقع إرسال بعثين بقيادة كل من فضالة بن عبيد و بسر بن أبي أرطأة70. وقد كان بسر على رأس شاتية العام الموالي وتولى محمد بن عبد الله الثقفي قيادة الصّائفة71. أما سنة 53 للهجرة ، فقد توصّل المسلمون إلى فتح طرطوس التي شكّلت إحدى أهم المدن على الحدود مع بيزنطة72 كما سيطروا على جزيرة رودس73 التيّ كانت لها مكانة استراتيجية هامّة بالنّسبة للطّرفين المتحاربين. وهيّأت هذه الانتصارات وما حقّقه المسلمون من تقدّم على الدّروب الرّومية إلى التجهيز لحملة ثانية ضدّ القسطنطينية فيما بين سنة 54 و 55 هـ . وفي الحقيقة كانت هذه الحملة الكبرى ضدّ عاصمة الرّوم تتألّف من مجموعة من البعوث والسرايا البريّة والبحريّة أرسلها المسلمون بشكل متزامن مما أدى إلى تشتيت القوّات البيزنطية وإنهاكها. وقد برز خلال هذه الحملة دور الجاليات العربيّة المتوطّنة حديثا في المدن الحدوديّة إذ وقع إمداد الجيوش بعدّة فرق من هذه المجموعات فضلا عن مساهمتها في توفير المؤن الضّرورية لمثل هذه الحملات الطّويلة التي كانت تدور في ظروف مناخيّة قاسية في بعض الأحيان. وواصل المسلمون مهاجمة القسطنطينيّة بين سنتي 56 و 57 هـ إذ تولى يزيد بن معاوية قيادة القوّات البريّة وعهد إلى عياض بن الحارث بقيادة الأسطول البحريّ74. وتشير المصادر75 إلى تكثّف الإمدادات العسكريّة التي أرسلها معاوية والمتكوّنة من جند مصر وجند المدينة نظرا لاستماتة الرّوم في الدفاع عن عاصمتهم. وعلى وجه العموم فقد ركّز المسلمون حملاتهم الصّيفيّة والشتويّة خلال ما تبقيّ من خلافة معاوية بن أبي سفيان على القسطنطينية76. ولئن لم تفض هذه البعوث إلى السّيطرة على عاصمة الرّوم إلا أن تمكّن المسلمين من التوغل في التراب البيزنطي يعكس مدى ما بلغته نظمهم الدّفاعيّة من وهن مما سمح بتوغّل المسلمين بعيدا في أراضيهم.

يمكن القول بناء على ما سبق ذكره بأن معاوية اهتمّ طوال حكمه بمحاربة الرّوم على الجبهة الشماليّة77.ورغم اضطراب الرّوايات وخلطها بين الصّوائف والشّواتي في بعض الأحيان، يمكن إحصاء ما يربو عن ثلاثين حملة أرسلها معاوية خلال خلافته إلى الأراضي البيزنطيّة. وقد تطوّرت هذه الحملات على المستوى التّنظيمي وحوّلها الخليفة الأموي من محض غزوات متقطّعة إلى بعوث منتظمة على رأسها قادة متمرّسون. ويردّ نجاحه في تطوير الحرب ضد بيزنطة إلى استقرار الأوضاع السياسيّة طوال عهده فباستثناء النّشاط المتقطع وغير المنظم للخوارج وبعض التحركات الشيعية الضعيفة ، لم يشهد حكم ابن أبي سفيان أزمات سياسيّة عميقة. كما استفاد الخليفة من ولاء أجناد الشام والتفافهم حول المشروع الأموي مما مكّنه من توجيههم نحو هذه الجبهة الهامّة التي توفّرت على إمكانيات غنيميّة هامّة. ويتّضح في هذا الصّدد بأنّ قيادة هذه الحملات أضحت بمثابة الشّرف الذي تسابق لنيله المحيطون بالخليفة .فقد اعتبرت هذه الحملات جهاد للعدو فنال المشاركون فيها نوعا من الامتياز الديني والمعنوي فضلا على أن هذه المشاركة عززت شرعية الأمويين الذي ظهروا بمظهر حماة أرض الإسلام والمنافرين عنها. ولئن عوّل معاوية على نخبة من القادة المهنيّين، فإنّه عهد في مناسبات عديدة – وخصوصا في أواخر عهده – بقيادة البعوث إلى ابنه يزيد ويتنزّل ذلك ربّما في إطار مساعيه ليورثّه الحكم والتي تحتاج إلى إسنادها بتعزيز ولاء أجناد الشّام له من خلال قيادتهم في الحملات العسكريّة فضمان ولاء هذا الجند من خلال توفير إمكانيات غنيمية دائمة له يعتبر مقوما أساسيا من مقومات استقرار الحكم الأموي78 وآليّة للحفاظ على تماسك شبكة التحالفات الكثيفة التي ربطت بني أميّة بزعماء أهل الشام ورؤسائهم.

رغم تواصل حملات الصّوائف والشّواتي خلال خلافة يزيد بن معاوية (60-64هـ)، فإنها لم تعد منتظمة إذ تراجع نسقها بشكل ملحوظ. وتشير المصادر في هذا الصدد إلى إرسال حملة اتجهت نحو قونية سنة 60هـ79 لكنّها لا تذكر بدقّة إذا ما كان الأمر متعلّقا بصائفة أم شاتية. ولا تتوفّر أيّ إشارة تقريبا إلى انطلاق حملات باتّجاه الأراضي البيزنطيّة

سنة 61 هجري وذلك ارتباطا ربّما بالأوضاع الدّاخلية للإمبراطورية الإسلاميّة أي أساسا تحرّك الحسين بن علي الذّي انطلق في الحجاز ثم امتد إلى العراق80. وقد وقع استئناف النّشاط العسكري على الحدود مع بيزنطة سنة 62 هـ إذ تشير الرّوايات81 إلى حملتين في منطقة قيساريّة82لكنها لا تحدّد بشكل دقيق مواقيتها هذه إذ تصنّفها بعض الرّوايات كشواتي فيما اعتبرتها أخرى إلى أنها صوائف83.أمّا سنة 63 هـ فقد انشغلت الخلافة الأمويّة بالأزمة الدّاخلية المتمثّلة في ثورة أهل المدينة ولم تنظّم أي حملة باتجاه الأراضي الرّومية. وفي السّنة الموالية وقع استعادة النّشاط العسكري على الثّغور بشكل تدريجيّ وذلك من خلال تنظيم بعض الحملات الصّغيرة التي لا تقّدم حولها المصادر سوى إشارات قليلة ومتقطعة84. وعلى وجه العموم، يفسّر توقف هذه البعوث إلى الأزمة العميقة التي شهدها حكم يزيد بن معاوية إذ اندلعت عدّة انتفاضات وفتن في العراق وفي الحجاز خاصة85. وقد دفعت هذه الأزمة يزيدا إلى سحب أعداد كبيرة من مقاتلة الشّام المتمركزين في قبرص للاستعانة بهم في قمع الثّورات ضدّ الحكم الأموي86 ويعدّ ذلك أهمّ تعديل أدخله الخليفة على النّظام العسكري الذي أرساه والده معاوية. وقد فسح انسحاب المسلمين من قبرص المجال لبيزنطة لاستعادة عدّة مدن وحصون أخرى فقدتها أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان87.

يعكس تراجع نسق الصّوائف والشّواتي في عهد يزيد مدى تأثير الأوضاع الدّاخلية على الحرب مع بيزنطة. فبالرغم ممّا حقّقه المسلمون من انتصارات في بعض المناطق الحدوديّة، فإنهم لم يتوصلوا إلى الاستقرار نهائيا بها وضمّها إلى المجال الإمبراطوريّ ويعود ذلك إلى تعويلهم في البعوث بشكل حصريّ تقريبا على أجناد الشّام التّي تم سحبها في مناسبات عديدة من الثّغور وإرسالها لقمع حركات المعارضة في مختلف أجزاء الإمبراطوريّة.

لم يتمكّن المسلمون على امتداد العهد السّفياني من دحر البيزنطيّين على الحدود الشّمالية. ويمكن القول أن تراجع بعوث الصّوائف والشّواتي خلال خلافة يزيد وضعت على

المحكّ ما حققه المسلمون من تقدّم في أراضي أعدائهم. كما أنّ اندلاع الفتنة الثانية سمح للبيزنطيّين بالتقدّم واستعادة عدّة مدن حدوديّة لم يتمكّن المسلمون من استرجاعها إلا خلال خلافة عبد الملك بن مروان.

2.3الحملات في العهد المرواني (65-132هـ)

واصل الخلفاء المروانيّون إتباع نفس سياسة أسلافهم السفيانيّن فيما يتعلّق بحماية الحدود الشّماليّة لبلاد الشّام وذلك من خلال الحرص على تنظيم الصّوائف الشواتي التي تعتبر مقوّما أساسيّا من مقوّمات النّظام الدّفاعي الإسلاميّ ضدّ بيزنطة. ولئن انقطعت هذه الحملات خلال الفترة الممتدّة بين نهاية حكم يزيد بن معاوية وتوليّ عبد الملك بن مروان للخلافة، فقد استعادت نسقها تدريجيا بعد أن استقرّت الأوضاع السياسيّة نسبيّا.

مثّل عهد عبد الملك بن مروان(65-86هـ/685-705م) نقطة تحوّل في طبيعة الصّراع بين المسلمين وبيزنطة. فلئن واصل هذا الخليفة اتّباع سياسة أسلافه القائمة على مناوشة العدوّ بصفة مستمرّة من خلال الحملات المتعاقبة إلا أنّه أدخل عدّة تغييرات فيما يتعلّق بأهدافها وعدد القوّات المشاركة فيها. وقد تميّزت السياسة الحدوديّة التي اتّبعها هذا الخليفة بالمرحليّة والتدرّج فقد بادر بإبرام صلح مع بيزنطة88 فور وصوله إلى الحكم قبل أن يستعيد الحرب ضدّها في مرحلة ثانية. ويبدو أن إيثاره مهادنة الرّوم يرتبط أساسا بانشغاله بالأزمات الدّاخلية خصوصا ثورة ابن الزبير وبعض تحرّكات الشّيعة والخوارج كما يفسّر برغبته في تجنّب المواجهة مع الرّوم ومحاولة إثنائهم عن التقدّم نحو بلاد الشّام دون قتال وذلك خصوصا بعد أن تمكّنوا من السّيطرة على عدّة مدن هامة مثل طرابلس وعسقلان وقيسارية وملطية89 فضلا عن تقدّمهم في سنة 70هـ نحو جبال لبنان90 ممّا يعني أن الدّخول في حرب معهم في ظل ضعف دولة الإسلام يمكن أن يعرّض بلاد الشّام لتهديدات كبرى.

وبمجرّد القضاء على فتنة ابن الزبير، عاد عبد الملك بن مروان إلى الاهتمام بالحملات ضدّ بيزنطة وكانت غايته الأساسيّة في البداية استعادة المدن والحصون التي فقدها المسلمون

أثناء انشغالهم بالفتنة الثّانية .وقد بادر الخليفة سنة 71 هـ بقيادة جملة بنفسه توصل من خلالها إلى استعادة قيسارية 91.و منذ تلك الفترة ، استعادت الصّوائف والشّواتي انتظامها إذ تشير المصادر إلى عدّة حملات قادها محمّد بن مروان فيما بين سنة 73و74 هـ في ثغور الجزيرة 92. وواصل هذا الأمير الأموي قيادة الحملات في السّنة الموالية خصوصا في منطقة ملطية93 التي تعدّ ثغرا هامّا على الحدود مع الرّوم. وقد أرسلت بالتزّامن مع حملات محمد بن مروان بعوث أخرى بقيادة يحي بن الحكم94 فضلا عن سريّة سيّرت بشكل متزامن ترأّسها الخليفة تمكنت من استعادة طرسوس وهرقلة95 وبعث ثالث بقيادة الوليد بن عبد الملك أوغل أيضا في أرض العدوّ فيما يلي أرض المصيصة96.

وبناء على ما تقدّم، تتضح رغبة عبد الملك في إنهاك الحاميات الرّومية على الثّغور فضلا عن توجّهه إلى تحويل الصّوائف والشّواتي من حملات متباعدة إلى ما يشبه الحرب الجبهويّة التي أجبر خلالها الروم على مواجهة المسلمين على عدّة جبهات بشكل متزامن. كما يظهر من خلال تتبع بعض الإشارات الواردة في المصادر أنه انطلاقا من خلافة عبد الملك، أصبحت قيادة الصّوائف والشّواتي تمنح إلى كبار أمراء بني أمية وذلك ربّما في إطار البحث عن إحداث شيء من التوازن صلب الأرستقراطيّة الأمويّة. وفضلا عن ذلك، يبدو أن الخليفة زاد من أعداد المقاتلة المشاركين في هذه الحملات97 وهم أساسا من المنتمين إلى أجناد الشام .ولئن يفسّر ذلك برغبته في تعزيز الإمكانيّات العسكريّة للمسلمين في حربهم مع بيزنطة، فهو يعكس أيضا أهمية الجند الشامي بالنسبة للمروانيين خصوصا بعد مساهمته مساهمة هامّة في إبقاء السلطة صلب البيت الأموي. ونظرا لارتهانهم إلى هذا الجند ، فقد بات الخلفاء المروانيون مجبرين على تشريكه على نطاق أوسع في الصّوائف والشّواتي لتخفيف الضّغط على السّلطة بإشغاله في البعوث فضلا عن توفير موارد إضافية لسداد عطائه .

تواصلت الحملات خلال الفترة المتبقيّة من خلافة عبد الملك بن مروان رغم أن نسقها لم يكن مستقرّا. فقد فشلت حملات سنة 78 هـ98 نتيجة ما واجهته الجيوش من ظروف

مناخية99 قاسية كما توقف النّشاط العسكري في السنة الموالية نظرا لانتشار الطاعون 100. وبالرغم من غياب الإشارات تقريبا حول حملات المسلمين خلال الفترة الممتدة بين سنتي 80 و83 هـ فإنّ نشاطهم لم يتوقف بصفة كليّة على الأرجح واقتصر على بعوث صغيرة واصلت مناوشة العدوّ. ويبدو أن تعطل الصوائف و الشواتي بين 82و83هـ يردّ إلى انشغال الخلافة بأمر ابن الأشعث الذي كادت ثورته أن تطيح بالحكم الأموي. لكن انطلاقا من 84 هـ استعاد الأمويون تنظيم الصّوائف والشواتي إذ قاد عبد الله بن عبد الملك حملات متعاقبة أفضت إلى السّيطرة على المصيصة 101التيّ حوّلها المسلمون إلى ثغر متقدّم في أرض العدوّ ركّزوا به حامية وأتمّوا تحصينه لتنطلق منه الجيوش102.

وعموما ، فإن المصادر تحصي ما يربو عن خمسة عشر حملة وقع تسييرها إلى أرض الروم خلال خلافة عبد الملك بن مروان وهو ما يعكس استعادتها شيئا من الانتظام مقارنة بأواخر العهد السّفياني.

وعند توليه الحكم، واصل الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) إتباع سياسة أسلافه القائمة على تنظيم البعوث خصوصا وأنّه كان على معرفة جيدة بحرب الرّوم باعتبار توليّه قيادة الحملات في مناسبات عديدة أثناء حكم أبيه. ووجّه الخليفة الجديد أولى الحملات بقيادة أخيه مسلمة إلى الجراجمة103 المتحالفين مع الرّوم والذين كانوا يشكّلون طرفا رئيسيّا في الحرب الحدوديّة بين الدّولتين104.وتمكّن مسلمة خلال هذه الحملة السيطرة على عاصمتهم جرجومة105 وواصل التّوغل في الأراضي البيزنطية والسيطرة على عدّة حصون ومدن106 ظلّت الحرب سجالا بين الطّرفين خلال الفترة الممتدّة بين 86 و88هـ خصوصا حول المصيصة التي باتت أهم مركز متقدم للمسلمين منذ خلافة عبد الملك بن مروان. فبالإضافة إلى المصيصة، فقد المسلمون أغلب الحصون الواقعة في المنطقة مرارا قبل أن ينظّم الخليفة حملة كبرى في 88هـ عززها بقوات إضافية تمكّنت من دحر الرّوم بعد معركة هامة في طوانة107 التّي مكّنت المسلمين من التقدّم أكثر في أراضيهم إذ استطاع مسلمة

بن عبد الملك السّيطرة على حصون قسطنطينة وغزالة والأخرم فضلا عن هرقلة وقمودية108.

خلال ما تبقّى من خلافة الوليد، برز مسلمة بن عبد الملك كأهمّ قادة الحملات الإسلاميّة في الأراضي البيزنطيّة وقد تركّز نشاطه على ثغور الجزيرة 109. ويتضح من خلال ذلك أن قيادة حملات الصّوائف أصبحت بمثابة الآلية السياسيّة التي استعملها الخلفاء لاستبعاد الشّخصيات المؤهّلة للحكم. فوفقا لما تذكره المصادر، كان مسلمة يحظى بتأييد واسع من قبل أجناد الشّام خصوصا وأنه تمكن من تمتين روابطه بهم أثناء قيادته لهم في الحروب وهو ما دفع ربّما الوليد إلى العمل على تجميره وأنصاره في البعوث حتى لا يطمع في الحكم. على صعيد آخر، يبدو أن الوليد بن عبد الملك سعى إلى تحجيم الدّور العسكري لأخيه مسلمة وذلك من خلال منح قيادة بعض الحملات إلى أبنائه بشر والعبّاس اللّذين حقّقا بدورهما عدّة انتصارات لعل أهّمها استعادة قبرص سنة 96هـ110.

تعدّ خلافة الوليد بن عبد الملك من أهمّ مراحل النّشاط العسكريّ للمسلمين على الحدود مع بيزنطة. وبالرغم من بقيّة الخلفاء الأمويّن إرسال الصّوائف والشّواتي فإنها لم تبلغ نفس أهمية الحملات التي نظّمت في عهد الوليد الذّي عرف استقرارا نسبيّا للأوضاع الداخلية مكّن من توجيه الاهتمام إلى العدوّ البيزنطي.

استأنف سليمان بن عبد الملك(96-99هـ/715-718م) منذ وصوله إلى الحكم الحرب ضدّ بيزنطة إذ تشير المصادر إلى إرساله حملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك استطاعت إخضاع حصن يسمى حصن الحديد كما توغلت في أراضي الروم 111. وتجدر الإشارة إلى أنه أرسل بالتزامن مع ذلك حملة بحرية قامت بإشغال الرّوم في القسطنطينية وأمدّها بعدّة بعوث أخرى112. لكن يظهر أن الرّوم تمكّنوا خلال بداية حكم سليمان من التقدّم نحو المدن السّاحلية حيث حاصروا اللاّذقية وسيطروا عليها فضلا عن انتزاع عدّة حصون متاخمة لحمص113.ويبدو أن تفاقم الخطر البيزنطي دفع الخليفة إلى الشّروع في التجهيز لحملة كبيرة

ضدّهم. وقد بدأ في ذلك سنة 97 هـ إذ أرسل بعثين الأول برّي يقوده مسلمة بن عبد الملك والثاني بحرّي يقوده عمر بن هبيرة الفزاري 114. ولئن تربط الروايات بين هاتين الغزوتين وبين اعتزام الخليفة فتح القسطنطينيّة، فإنه يتضح جليّا من خلال تتبع الإشارات المتوفّرة حول عدد المقاتلة وحجم الأسطول البحريّ الذي وقع إرساله أنهما لا تختلفان عن بقيّة الحملات المعهودة وأنّه لا هدف للمسلمين سوى إشغال الرّوم عن مدن السّاحل .

خلال الفترة الممتدة بين 97 و 99 هـ ، قاد داود بن سليمان عدّة حملات تركّزت أساسا حول منطقة ملطيّة115. ووفقا للرّوايات فإنّ الخليفة خرج في أكثر من مناسبة وعسكر في منطقة مرج دابق116 مما يعكس تخوّفه من فشل هذه الحملات وبالتّالي إمكانيّة تقدّم البيزنطيين باتجاه الشّام. وفي الحقيقة، تزامنت نهاية خلافة سليمان بن عبد الملك مع استعادة الروم لقوّتهم ومن ثمّة تفاقم خطرهم في منطقة الثّغور وحتّى على بلاد الشام نفسها. ورغم مواصلة بعض القادة مثل مسلمة بن عبد الملك وداود بن سليمان تحقيق بعض الانتصارات، فإن الخلافة أصبحت عاجزة خلال هذه المرحلة عن تنظيم حملات كبرى ضدّ الرّوم واكتفت غالبا ببعوث متكوّنة من بضع مئات من المقاتلة. ويعود ذلك أساسا إلى تململ جند الشام وتلكئه في المشاركة في الصّوائف والشّواتي التي رأى فيها بعضهم تجميرا في البعوث ممّا يعكس فقدان المروانيين بعض ما كانوا يحظون به من تأييد سكان هذا الإقليم الذي شكّل قاعدة حكمهم.

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/718-720م) أقل تحمّسا على ما يبدو لغزو أراضي الرّوم. فمنذ وصوله إلى الحكم، أمر مسلمة بن عبد الملك بالتّراجع بجنده إلى الشّام وهو ما مكّن الروم من تحقيق شيء من التقدم خصوصا في مدن الساحل117. ويتنزل خيار عمر في التراجع في إطار سياسته الرامية إلى إيقاف الفتح إذ تشير المصادر118 إلى أنه كان ينوي إخلاء الأندلس من المسلمين. لذلك فقد استطاع الرّوم انطلاقا من سنة 100هـ أن يعيدوا السّيطرة على اللاّذقية التي تعدّ من أهم الثغور الساحلية119. ويظهر أن

حجم التّهديد البيزنطي دفع الخليفة إلى تعديل سياسته وإرسال عدّة بعوث تمكّنت في نهاية الأمر من استعادة هذه المدينة في أواخر عهده تقريبا120. وقد مني الرّوم بهزيمة كبيرة إثر تقدمهم نحو منطقة مرج دابق التّي تمثّل نقطة تجمّع الأجناد المشاركة في الحملات وهو ما دفعهم إلى إبرام صلح مع المسلمين مكّن الأمويين من استعادة زمام المبادرة على الحدود مع بيزنطة121. وخلال السّنة الأخيرة من حكمه، كثّف عمر بن عبد العزيز من حملات الصّوائف والشّواتي بعدما بلغ التّهديد البيزنطي ذروته. وتشير الروايات في نفس الصّدد إلى أنه بادر بتحصين الثّغور وحشد المقاتلة في الحصون والمسالح122 وهو ما حال دون تقدّم الرّوم.

تواصلت الحملات باتجاه الأراضي البيزنطيّة خلال خلافة يزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-724م)123. وتجدر الإشارة إلى ظهور تسميات جديدة لهذه الحملات من قبيل الصّائفة الكبرى والصّائفة الصغرى124 فضلا عن مصطلح الصّائفة اليمنى الذي ينطبق على الحملات في ثغور الجزيرة125وهي الحملات التي قادها أساسا مسلمة بن عبد الملك من جهة ومصطلح الصّائفة اليسرى الذي يقصد به البعوث على ثغور الشام126 ويعهد بقيادتها غالبا إلى قائدين أحدهما على رأس الجيوش البريّة والآخر على رأس الأسطول البحريّ من ناحية أخرى. ومهما يكن من دلالات هذه المصطلحات، فهي توحي بتراجع الحملات الشّتوية أو الشّواتي وإيثار المسلمين الاقتصار على الصّوائف. ويبدو أن هذا التوجّه بدأ منذ خلافة عبد الملك بن مروان الذي لم تورد المصادر تقريبا ذكرا لحملات الشّواتي خلال مدّة حكمه الطويلة.

قام يزيد بن عبد الملك عند وصوله إلى الحكم ، بإرسال حملة سنة 101 هـ باتجاه أرمينية127 التي انسحب منها المسلمون أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز. ويظهر أن الخليفة أرسل مروان بن محمّد على رأس مدد إلى جيش الحملة 128 والذي كان يقوده عمر بن هبيرة ممّا يعكس مواصلة الخلفاء إتباع نفس السّياسة القائمة على تعيين الأمراء البارزين من

البيت الأموي على رأس البعوث. ووفقا لما تشير إليه المصادر، فقد استطاع المسلمون إلحاق الهزيمة بالخزر المتحالفين مع الروم ومن ثمة السّيطرة على حصن الحصين وبلنجر و يرغوا129.

وقد تواصلت حملات المسلمين في الأراضي البيزنطيّة خلال خلافة يزيد قاد أغلبها مسلمة بن عبد الملك والعبّاس بن الوليد. وقد تكثّفت هذه الحملات سنة 104هـ خصوصا وأن الرّوم و الخزر حاولوا السيطرة مرّة أخرى على أرمينية130 .وبالرغم من أهمية الحملات التي ارسلت إلى أرمينية، فإن المسلمين لم يتمكنوا من دحر الروم والترّك عنها خصوصا في ظل قوة التّحالف بين هذه القبائل وبيزنطة ونظرا لما واجهته بعض البعوث من هزائم مرتبطة بالظّروف المناخيّة كما توحي بذلك بعض الرّوايات131.وعموما فإن المسلمين لم يحقّقوا تقدّما كبيرا سواء على ثغور الجزيرة أو الشّام خلال خلافة يزيد بن عبد الملك إذ انصبت جهودهم أساسا على منع تقدم الرّوم باتجاه الشّام.

تعتبر خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) من الفترات التي استعادت فيها الحملات باتجاه الأراضي البيزنطيّة شيئا من الانتظام. أما على صعيد التّنظيم، فقد حافظ الخليفة على التّقليد الذي استقر وهو تعيين كبار الأمراء و أبرزهم على رأس هذه البعوث. سنة 106هـ، بادر الخليفة بإرسال بعث على رأسه معاوية بن هشام 132كما أرسل في نفس هذه السنة سعيد بن عبد الملك لصدّ هجمات الرّوم على المراعي والقرى في التّخوم 133. وفي السّنة الموالية، قام البيزنطيون بغزو صور فجهّز الخليفة جيشا من جند الشام مكوّنا من سرايا برية وبحرية134 وقد مكّنت هذه الحملة من استعادة صور ودحر قوات الرّوم135. و خلال هذه الفترة واصل مسلمة بن عبد الملك نشاطه في ثغور الجزيرة أو ما تسميّه المصادر بالصائفة اليمنى وظلّ يناوش الرّوم في هذه المناطق136.

وظلّت الحملات ضدّ بيزنطة منتظمة خلال هذه الفترة إذ تشير الرّوايات إلى حملتين الأولى بريّة و الأخرى بحريّة سنة 110هـ وصائفتين في 111هـ 137.كما تشير الروايات نفسها إلى نجاح المسلمين في استعادة عدّة حصون خلال سنة 113هـ أبرزها حصن مرعش

الذي كانت له أهمية كبرى في الحرب ضدّ الروم138. بقيت الحروب سجالا بين المسلمين والرّوم على التّخوم حتى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك إذ تذكر المصادر ما يقارب ثماني حملات خلال الفترة الممتدّة بين 114 و 125 هـ وهو ما يعكس انتظام البعوث إلى أرض الرّوم.

وفضلا عن مناوشة الرّوم، قام هشام بن عبد الملك بالزّيادة في أعداد المرابطين خصوصا في المدن الهامّة. وفي هذا الإطار تذكر الرّوايات تحصينه لمدينة ملطية139 التي تعتبر مركزا متقدّما على الجبهة ضدّ بيزنطة كما ذكرنا. وممّا تجدر الإشارة إليه هو توقّف الشواتي خلال هذه الفترة غير أن ذلك قد يردّ أيضا إلى خلط المصادر بين الصّوائف و الشّواتي خصوصا وأنه وقع إرسال الحملات بشكل متزامن في أغلب الأحيان.

ورغم عدم استقرار حكمهما ، فقد واصل الوليد بن يزيد(125-126هـ/743-744م) و يزيد بن الوليد(126هـ/744) الحرب على الرّوم. لكن البيزنطيين استطاعوا خلال خلافة الوليد الاستيلاء على مدينة زبطرة التّي يظهر أنها لم تكن محصّنة بشكل جيّد140.

و إجمالا يمكن القول بأن الصّوائف والشّواتي توقفت انطلاقا من 126هـ إذ أن مروان بن محمّد (127هـ132هـ/744-750م) اقتصر على تحصين الثغور وإقرار الجند في الحصون والرّباطات 141.واستغلّ الرّوم انشغال الخلافة بالفتن والصّراعات التي دبّت في مناطق مختلفة من الإمبراطوريّة للسّيطرة على عدّة حصون أهمها حصن زبطرة ومرعش كما استولوا على قبرص نهائيّا مما حسم إلى حدّ بعيد النّزاع لفائدتهم.

ويردّ ضعف المسلمين على الجبهة البيزنطيّة إلى اندلا ع الفتن والاضطرابات بشكل متزامن في عدّة مناطق من الإمبراطوريّة كما تفسّر بفقدان المروانييّن تأييد أجناد الشّام خصوصا في عهد آخر الخلفاء مروان بن محمّد. وقد انتقل المسلمون خلال المرحلة الأخيرة

من الحكم الأموي من الحرب الهجوميّة إلى الاقتصار على الدّفاع على الحدود عن طريق الرّباطات والمسالح.

4. خاتمة:

شكّل الحكم الأمويّ تواصلا مع مجهود الخلفاء الأوائل الرّامي إلى حماية الأقاليم المركزيّة للإمبراطوريّة وتطوير جهاز الدّفاعات والتّحصينات على الجبهات الهامّة وخصوصا في منطقة الثّغور المتقدّمة ببلاد الشّام التيّ اكتست أهمّيّة بالغة نظرا لتواصل التّهديد البيزنطي وعدم توصّل المسلمين إلى إخضاع هذه المناطق لسيطرتهم بصفة نهائيّة. ولكن على عكس الخلفاء الأوائل، وضع الأمويون تصوّرا عسكريّا متكاملا لحماية حدودهم الشّمالية اعتمد أساسا على انتظام حملات الصّوائف والشّواتي إلى جانب تكوين قادة وجيوش اختصّوا تقريبا في هذا النّوع من الحروب ممّا أدخل ذلك نجاعة على المجهود العسكري الإسلاميّ في مناطق الثّغور ومكن من صدّ الخطر البيزنطيّ طوال العهد الأمويّ تقريبا. إلى جانب ذلك، حول الأمويّون حروب الصّوائف والشواتي إلى آلية سياسية –عسكريّة مكّنتهم من حفظ توازن وانسجام إقليم الشّام الذي توقف به الفتح منذ زمن وذلك بتشريك أهله في هذه الحملات التّي وفّرت عائدات غنيميّة هامة. وقد ضمن ذلك ديمومة التفاف عرب الشّام حول البيت الأمويّ الذي اعتمد عليهم بشكل أساسيّ لإحكام السّيطرة على بقية أجزاء التّراب الإمبراطوريّ.

تأثر تنظيم هذه البعوث بالأحداث والتّقلبات السياسيّة التي عرفتها دولة الإسلام في العهد الأموي إذ أشغلت الفتن والحروب الدّاخلية الأمويّين نسبيّا عن حرب الثّغور. لكن الخلفاء سرعان ما كانوا يتداركون هذا التّراخي لتربّص العدوّ البيزنطي واستغلاله هذه الظّروف لإحراز شيء من التّقدم على حساب المسلمين. وبالرّغم من أن بعض الخلفاء مثل معاوية أو عبد الملك بن مروان و ابنه الوليد كانوا أكثر حرصا من غيرهم على انتظام الصّوائف والشّواتي

فإنه يتسنّى لنا القول بأنّ أغلب خلفاء البيت الأموي بفرعيه السفياني والمروانيّ لم يغفلوا عن أهمية الجبهة الشّمالية لبلاد الشّام واستطاعوا الحفاظ على غلبة المسلمين في هذه المناطق.

بعد نهاية العهد الأموي، حافظ العباسيّون الأوائل على أسس التصور العسكريّ الذي وضعه أسلافهم ولم ينشغلوا بدورهم عن هذه الجبهة الهامّة رغم أن مركز حكمهم كان في العراق. وقد تمكّنوا بفضل نجاعة هذا التّنظيم من صدّ البيزنطيين والحفاظ على التفوّق العسكري الإسلاميّ في ثغور بلاد الشّام.

5. قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- ابن سلام، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي(ت224هـ)، كتاب الأموال، مصر، د.ت.

- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ)، فتوح إفريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت،1964.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت،1983،ج1،ص329.

- المقدسي، محمّد بن أحمد بن أبي بكر (ت380هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، د.ت،.

- اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن اسحاق بن واضح(ت284هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،1960.

-ابن الأثير، عز الدين بن محمد الجزري(ت630هـ) ، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، دار الطبعة المنيرية، مصر، 1356 هـ.

-ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن محمد بن أحمد الدمشقي (ت1089هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسي، القاهرة،1931.

-ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت367هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق ابراهيم الأبياري ، دار
الكتاب اللبناني ط2، بيروت،1989.

-ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت280هـ)، المسالك والممالك، ليدن،1889 .

-ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري(ت447هـ)، التاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، النجف ، العراق ،1967.

-ابن سعد ،محمد بن منيع البصري(ت230هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت،1959.

-ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (695؟) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق و مراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

-ابن قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ)،الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية للطباعة، بغداد،1981.

-ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري(ت711هـ)، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة مصر د.ت.

-البلاذري، أحمد بن يحيي بن جابر (ت 279هـ)، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت،1987.

-الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت282هـ)، الأخبار الطوال، بغداد،1959.

-الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، 1967.

المراجع

باللغة العربية

-برهاوي محمود، أجناد الشام :دورهم السياسي والعسكري في العصر الأموي، دار الكتاب الحديث، القاهرة،2007،ص135.

- بن حسين بثينة،

* الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية ، منشورات كلية الآداب بسوسة، تونس 2008.

*الفتنة الثانية، دار أمل للنشر و التوزيع، تونس،2010.

- بيضون(إبراهيم)، حرب الثغور صراع لا يهدأ صيفا و لا شتاء، مجلة العربي، عدد2004،548- محافظة حسين، التحصين العسكري للثغور الشامية البرية و الساحلية في العهد الراشدي، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن 1437هـ/2016م، المجلد الثالث، عدد2(ص249-262).

- جعيّط هشام، الفتنة: جدلية الدين والسّياسة في الإسلام المبكّر، ترجمة خليل أحمد خليل ، دار الطليعة ،ط4،بيروت،2000.

-شعبان محمّد عبد الحي، صدر الإسلام والدولة الأموية،600-750م، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت،1987.

- طقوش سهيل، تاريخ الدولة الأموية41-132هـ/661-750م،دار النفائس للطباعة والنشر، ط7، بيروت،2010.

Travaux en langues étrangères

- Cheira M.A ,La lutte entre Arabes et Byzantins :La conquête et l’organisation des frontières au VIIème et VIIème Siècles ,Alexandrie,1947 .

- Robert Mantran, L’expansion musulmane VIIème-XIème siècle,

2ème édition, Paris ,2007.
- Sophie Métivier , « L'organisation de la frontière arabo-byzantine en Cappadoce (VIIème-IXème siècle » in :Mélanges offerts à Jean –Marie Martin,Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance ,Paris ,2008.(pp433-454).
- Claude Cahen, L'Islam : Des origines au début de l'empire ottoman, Hachette ,1997.

6.الهوامش

[1]مفردها صائفة وتسمّى كذلك لأنها تدور في فصل الصيف.

[2]ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت280هـ)، المسالك والممالك، ليدن،1889 ص259 البلاذري، أحمد بن يحيي بن جابر (ت 279هـ)، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت،1987، ص221.

[3]و مفردها شاتية لأنه يقع توجيهها إلى الثغور في فصل الشتاء .

[4]ابن خرداذبة ، **المسالك**..،ص259.

[5]برهاوي محمود، أجناد الشام :دورهم السياسي والعسكري في العصر الأموي، دار الكتاب الحديث، القاهرة،2007،ص135.

[6]ابن قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ)،الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية للطباعة، بغداد،1981، ص193 المرجع السابق، ص136.

[7]لا تشير أقدم الروايات المتوفرة حول حملات المسلمين على التخوم البيزنطية إلى الصوائف والشواتي بدقيق المعنى لكنها تستعمل مصطلح الدروب .ووفقا لبعض للمصادر فإن خالدا بن الوليد كان من أوّل الذين «أدربوا » في أرض الروم. يقول الطبري في سياق عرضه لأحداث سنة15هـ« *فأدرب خالد و عياض (عياض بن غنم) مما يلي الشام و أدرب عمر (عمر بن مالك) و عبد الله(عبد الله بن المعتم) مما يلي الجزيرة و لم يكونوا أدربوا قبله ثم رجعوا فهي أول مدربة كانت في الإسلام* » الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، 1967، ج3،ص602.

[8] المصدر نفسه ج4،ص64 برهاوي محمود، أجناد الشام...،ص135.

[9]محافظة حسين، التحصين العسكري للثغور الشامية البرية و الساحلية في العهد الراشدي، مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن 1437هـ/2016م، المجلد الثالث، عدد2(ص249-262)،ص254.

[10]تمتدّ هذه الجبهة تقريبا من ملطية الواقعة في منطقة الفرات الأعلى وصولا إلى طرسوس على ساحل البحر الأبيض المتوسّط ويقدّر بعض الجغرافيين المسلمين امتداد الحدود بين بيزنطة و الإمبراطورية الإسلامية بحوالي 2600فرسخ أي ما يربو عن 15000كم تقريبا. أنظر : المقدسي، محمّد بن أحمد بن أبي بكر (ت380هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، د.ت،. ص65.

[11]الطبري، التاريخ، ج4، ص89.

[12]هو المصطلح الأقدم كما أشرنا آنفا. و هو يعكس محدودية الحملات الأولى التي نظمها المسلمون باتجاه الأراضي البيزنطية واقتصارها على المنطقة الحدودية التي تتميز بالتضاريس الجبلية. الطبري، التاريخ ،ج3،ص602.

[13]مصطلح الدروب متطابقا تماما مع مدلول غزو الأراضي البيزنطية. ويظهر هذا التطابق مثلا من خلال تعريف ابن منظور للدروب حيث يقول : "*الدرب المضيق في الجبال(..)و أدرب القوم أي دخلوا في أراضي العدّو في بلاد الروم* "ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري(ت711هـ)، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة مصر د.ت، ج1،ص360.

ووفقا لبعض الروايات، فإن الدروب المؤدية للأراضي البيزنطية أساسا دربان: أما الأوّل فينطلق من طرسوس ويتجه نحو هضبة الأناضول مرورا بالممرات الجبلية التي تتركز فيها مجموعة كبيرة من المسالح و الحصون. أما الدرب الثاني و هو يتصل بمدن و ثغور الجزيرة الفراتيّة فيسمى درب ملطية .و يرتبط هذا الدرب بجبال طوروس وهو يعرف بوعورته. أنظر:

البلاذري، فتوح ،ج1،ص226. ابن خرداذبة، المسالك والممالك،ص.10ص100 البرهاوي محمود، أجناد..،ص140-141 محافظة حسين، التحصين العسكري...، ص356.

[14]البلاذري، فتوح، ج1،ص221 البرهاوي(محمود)، أجناد..،ص135

[15]اليعقوبي،أبو العباس أحمد بن اسحاق بن واضح(ت284هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار

صادر ، بيروت1960، ج2،ص315. المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[16] الطبري، التاريخ، ج5، ص232 ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري البصري (ت447هـ) ،التاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف ، العراق،1967م ، ص 190.

البرهاوي(محمود)، أجناد الشام..،ص136

[17] لا يمكن في الحقيقة أن نجزم بتوقف الشواتي تماما في أواخر العهد الأموي و ذلك لخلط المصادر غالبا بين الشّاتية والصّائفة. غير أن تراجع نسقها يتنزل في سياق عام هو انشغال الأمويين عن الجبهة الشمالية جرّاء تعدّد الأزمات و الاضطرابات الداخلية.

[18] البلاذري، فتوح، ص196.

[19] الطبري، التاريخ،ج4،ص160.

[20] ابن العديم، عمر بن أحمد المعروف بالصاحب كمال الدين (ت660هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق،1951،ص41. ابن حبيب، أبو جعفر محمّد(ت245هـ)، كتاب المحبّر، تحقيق إيلزه ليختين شتيتر حيدر أباد الدكن، الهند،1942،ص225.

البرهاوي(محمود)،أجناد...،ص137.

[21] Robert Mantran, L'expansion musulmane VIIème-XIème siècle,2ème édition, Paris ,2007.pp130.

[22] محافظة(حسين)، التحصين... مقال سابق،ص364.

[23] بيضون(إبراهيم)، حرب الثغور صراع لا يهدأ صيفا و لا شتاء، *مجلة العربي*، عدد548،2004،ص60.

[24] Sophie Métivier , « L'organisation de la frontière arabo-byzantine en Cappadoce (VIIème-IXème siècle » in :Mélanges offerts à Jean –Marie Martin, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance ,Paris ,2008.(pp433-454)p434.

[25] حقق الروم تقدما خصوصا خلال أواخر العهد السفياني ثمّ خلال المرحلة الأخيرة من الخلافة الأموية وهي فترات تميّزت بشدّة الاضطراب في أجزاء عديدة من الإمبراطورية.

[26]جعيّط هشام، الفتنة:جدلية الدين والسّياسة في الإسلام المبكّر، ترجمة خليل أحمد خليل ، دار الطليعة ،ط4،بيروت،2000،ص 226 بن حسين بثينة، الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية ، منشورات كلية الآداب بسوسة، تونس 2008،ص49-50.

[27] شعبان محمّد عبد الحي، صدر الإسلام والدولة الأموية،600-750م، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت،1987.ص51-52 جعيّط هشام، الفتنة...،ص226. شعبان عبد الحي، صدر الإسلام..،ص52

[28] البرهاوي محمود، أجناد الشام..،ص 25.

[29]بن حسين بثينة، الدولة الأموية....ص332 البرهاوي محمود، أجناد. الشام...،ص91 -134.

[30] البرهاوي محمود، أجناد الشام، ص41 جعيّط هشام، الفتنة،ص226 شعبان عبد الحي، صدر الإسلام، ص53 .

[31] Claude Cahen, L'Islam : Des origines au début de l'empireOttoman, Hachette ,1997.p42 .

[32]جعيّط هشام، الفتنة..،ص227.

[33] البلاذري، فتوح،ص193.

[34]الطبري، التاريخ، ج6،ص434 ابن خياط ،تاريخ،ص220.

[35]بن حسين بثينة، الدولة الأموية...،ص333.

[36]ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (695؟) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق و مراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ،ج1،ص5. ابن الأثير، عز الدين بن محمد الجزري(ت630هـ) ، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، دار الطبعة المنيرية، مصر1356هـ،ج3،ص45. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ)، فتوح إفريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت،1964، ص35 .

[37] لم يكن المسلمون متحمسين للتوغل غربا باتجاه افريقية و ذلك لبعدها عن مركز الخلافة في المشرق. فلئن كان المقاتلة يقبلون على المشاركة في الغزوات للحصول على الغنائم، فقد كانوا يرفضون الابتعاد كثيرا عن موطنهم الأصلي.

[38]يرتبط ذلك بانشغال المسلمين بالفتنة التي أدّت إلى توقف النشاط العسكري في مناطق الثغور.

[39] الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت282هـ)، الأخبار الطوال، بغداد،1959،ص157. ابن سلام، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي(ت224هـ)، كتاب الأموال، مصر، د.ت.ص159. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين(ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت،1983، ج1،ص329.

[40]الطبري، التاريخ، ج3،ص144 البلاذري، فتوح،ص155.

[41]طقوش سهيل، تاريخ الدولة الأموية41-132هـ/661-750م،دار النفائس للطباعة. والنشر، ط7،بيروت،210،ص31.

[42] Cheira M.A ,La lutte entre Arabes et Byzantins :La conquête et l'organisation des frontières au VIIème et VIIème Siècles ,Alexandrie,1947,p44 .

[43] البلاذري، فتوح، ص160.

[44]طقوش(سهيل)، تاريخ الدولة ...،ص31.

[45] المصدر نفسه، ص182 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[46]المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[47] المصدر نفسه، ص259،261،265.

[48]المصدر نفسه، ص265.

[49]المصدر نفسه، ص269.

[50]بيضون(إبراهيم)" حرب الثغور... "ص62.

[51] اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص239.

[52]ابن خياط، تاريخ،ص191

[53] المصدر نفسه،ج1،ص190 اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص239 ابن خرداذبة، المسالك..،ص108.

[54] الطبري، التاريخ، ج5،ص212.

[55]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[56]ابن خياط، تاريخ ،ص192 اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص239

[57]المسعودي، مروج..،ج3،ص24.

[58]ابن خياط، تاريخ ،ص192-193 اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص240.

[59]البلاذري، فتوح،ص319. ابن عذاري، البيان...،ج1،ص15،14.

[60]ابن خياط، تاريخ ،ص193. اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص240.

[61]إبن عساكر، تهذيب،ج3،ص224.

[62]الطبري، التاريخ،ج5،ص231.

[63]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[64]البرهاوي محمود، أجناد..،ص135 طقوش سهيل، تاريخ الدولة....،ص31.

[65]الطبري، التاريخ،5،ص232 ابن خياط، تاريخ ،ص194.

[66]اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص240.

[67]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[68] Robert Mantran ,L'expansion…op.cit,p132.

[69]طقوش سهيل، تاريخ الدولة...،ص32.

[70] اليعقوبي، التاريخ،ج2،ص240 الطبري، التاريخ،ج5،ص253.

[71]ابن خياط، تاريخ ،ص 205 الطبري، التاريخ،ج5،ص287.

[72]الطبري، التاريخ،ج5،ص288 اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص240.

[73]الطبري، التاريخ،ج5،ص288.

[74] المصدر نفسه،ج5،ص301 اليعقوبي، التاريخ،ج2،ص240 .

[75] ابن خياط، تاريخ، ص219-220.

[76]الطبري، التاريخ،ج5،ص 315 اليعقوبي، التاريخ،ج2،ص 240 البلاذري، فتوح ،ص219.

[77]فلهاوزن يوليوس، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمّد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 1958،ص107 البرهاوي محمود، أجناد الشام...،ص143.

[78]بن حسين بثينة، الدولة الأموية...،ص332-333 البرهاوي(محمود)، أجناد الشام...،ص55

[79]اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص253 ابن خياط ، تاريخ،ص225.

[80]حول حركة الحسين بن علي انظر : الطبري،التاريخ،5،ص347-470 البلاذري، أحمد بن يحيي (ت279هـ) أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي دار الفكر لبنان،1996، ج3،ص366-426.

[81]ابن خياط، تاريخ ،ص227

[82]اليعقوبي، تاريخ، ج1،ص225.

[83]بخصوص هذا الاختلاف أنظر: ابن خياط، تاريخ ،ص227 اليعقوبي،تاريخ..،ج1 ص225.

[84]ابن خياط، تاريخ ،ص248.

[85]حول الثورات و الانتفاضات أواخر عهد يزيد بن معاوية أنظر: بن حسين بثينة، الفتنة الثانية، دار أمل للنشر و التوزيع، تونس،2010.

[86] البلاذري، فتوح ،ص182. البرهاوي محمود، أجناد الشام..،ص151.

[87]المصدر نفسه ، ص221.

[88]الطبري، التاريخ،ج6،ص150.

[89]البلاذري، فتوح، ص151.

[90]المصدر نفسه، ص189.

[91]الطبري، التاريخ، ج6،ص167.

[92]ابن خياط، تاريخ، ص267-268.

[93] المصدر نفسه، ص273. اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص281.

[94]اليعقوبي، **تاريخ**،ج2،ص281.

[95]ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن محمد بن أحمد الدمشقي (ت1089هـ) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مكتبة القدسي، القاهرة،1931.ج1،ص84.

[96]ابن خياط، تاريخ، ص273 اليعقوبي، تاريخ،ج2،ص281.

[97]الطبري، التاريخ، ج6، ص167.

[98]المصدر نفسه، ج6، ص321 ابن خياط، تاريخ، ج1، ص273.

[99]البرهاوي محمود، أجناد الشام....،ص155.

[100] الطبري، التاريخ، ج6،ص332 المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[101] ابن خياط، تاريخ ،ص292 البلاذري، فتوح،ص190-191..

[102] البلاذري، فتوح، ص195-196.

[103] المصدر نفسه، ص189.

[104] Mantran(R), l'expansion..op.cit,p131.

[105] المصدر نفسه، الصفحة نفسها ابن خياط، التاريخ ،ص293

[106] ابن خياط، التاريخ، ج1،ص304 الطبري، التاريخ، ج6،ص429.

[107] ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت571هـ)، تهذيب تاريخ دمشق، تحقيق عبد القادر بدران، بيروت، 1399هـ/1979م، ج7، ص274 ابن خياط، تاريخ، ص352.

[108] الطبري، التاريخ، ج6،ص436.

[109] ابن خياط، التاريخ ،ص439 الطبري، التاريخ ،ج6،ص442.

[110] الطبري، التاريخ، ج6،ص493 ابن خياط،تاريخ، ج2،ص292.

[111] ابن خياط، تاريخ ،ص318 ابن عساكر، تهذيب، ج3،ص85.

[112] ابن عساكر، تهذيب، ج3،ص85.

[113] ابن خياط، تاريخ ،ص318 الطبري، التاريخ، ج6،ص495.

[114] ابن عساكر، تهذيب، ج3،ص85.

[115] ابن الأثير، الكامل، ج4،ص86 اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص226.

الطبري،التاريخ، ج6،ص523.

[116] اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص216.

[117] الطبري، التاريخ، ج6،ص556 البلاذري، فتوح،ص135.

[118] ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت367هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني ط2، بيروت،1989، ص38.

[119] الطبري، التاريخ، ج6،ص556

[120] البلاذري، فتوح،ص135

[121] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[122]ابن سعد ،محمد بن منيع البصري(ت230هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت،1959، ج5،ص353.

[123] اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص227 ابن خياط، تاريخ،ص331.

[124]ابن خياط، تاريخ،ص331.

[125]اليعقوبي،تاريخ، ج2،ص315

[126]البرهاوي محمود، أجناد...ص136 بيضون(ابراهيم)،" حرب الثغور..."ص62.

[127] اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص227.

[128]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[129]ابن خياط، تاريخ، ص331.

[130]المصدر نفسه، ص315.

[131]المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[132]الطبري، التاريخ، ج7،ص40 اليعقوبي، التاريخ، ج2،ص259-260.

[133]الطبري، التاريخ، ج7،ص67 .

[134] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[135]المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[136]اليعقوبي، تاريخ، ج2،259-260.

[137]الطبري، التاريخ، ج7،ص 54 اليعقوبي، تاريخ، ج2،ص260.

[138]الطبري، التاريخ، ج7،ص88.

[139] البلاذري، فتوح،ص186 ابن قدامة، الخراج ...،ص318.

[140]البلاذري، فتوح،ص186.

[141] المصدر نفسه،ص166 ابن خياط،تاريخ،ص367 ابن قدامة، الخراج..ص308.

العمارة والعمران بإقليم توات

Architecture and Urbanism in the Touat region.

د.ة : تسكورث يمينة . معهد الآثار تخصص آثار إسلامية [1]

د : شاري بوعلام . معهد التاريخ تخصص دراسات تاريخية في العصر الوسيط

جامعة الجزائر 02

تاريخ الاستلام: 18 /2020/11 تاريخ القبول:08 /2021/02 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص:

لقد كان الاسلام عاملاً مشجعا على البناء والتعمير و عمارة الكون والاستخلاف في الأرض **قال الله تعالى** الآيتان 19-20 . 21 من سورة الحجر . : ﴿ **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فيها رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ *وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ *وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** ﴾ ، كما تحدث بعض المؤرخين عن توات وهندستها ، وطبيعة أبنيتها ووصفوها بأنها قصور غير متباعدة و هي متلاصقة العمران تتخللها بساتين و مصادر مياهها تؤمنها فقاقير جارية يرجع تاريخها إلى حوالي القرن السابع الهجري .

وتتميز عمارة قصور إقليم توات بسمات معمارية عدة نذكر من بينها على سبيل الأمثلة: **أولا: تقارب القصور، وتلاصق مبانيها المتراصة، ثانيــا: يحيط بالمدينة واحات النخيل أو ما يعرف محليا بالجنة.**

لقد كانت التجمعات السكنية في إقليم توات موزعة داخل القصر على هيئة مباني متراصة شأنها في ذلك شأن تأسيس المدن الإسلامية المبكرة ، وهي محاطة بسور خارجي ضخم ، أو بسورين أثنين في بعض الاحيان ،عرفت في المصطلح المحلي باسم القصر أو القصبة ويجمع على قصور ، ويرجع تاريخ هذه التحصينات الدفاعية في العمارة القصرية التواتية إلى القرن الاول الهجري.

. الكلمات المفتاحية : قصور توات ، عمارة القصور الصحراوية ، عمران إقليم الصحراء .

Abstract:

Islam has been a factor that encourages building, reconstruction, the architecture of the universe and the succession on the earth. God Almighty said verses 19-20-21 of Surat Al-Hijr. :) And earth Mddnaha have We Roissy and Oneptna where everything Mouzon * and made you where the lives and are not his Braezkin * If nothing except our vaults and Nnzlh only as far as is known (as some historians talked about Touate and engineering, and the nature of the buildings and described them as inadequate Not far apart, and it is contiguous with urbanization, interspersed with orchards and its water sources secure it. Current drugs dating back to about the seventh century AH.

المؤلف المرسل : تسكورث يمينة taskourthyamina@gmail.com

The architecture of the palaces of the Touat region is distinguished by several architectural features, among which we mention for example : First : the convergence of palaces, and the convergence of compact buildings , Second: The city is surrounded by palm oases, or what is known locally as Paradise.

The residential communities in the Tuat region were distributed within the palace in the form of compact buildings, like the establishment of early Islamic cities, which are surrounded by a huge external wall, or two walls at times. These defensive fortifications were built in Tate palace architecture to the first century AH.

Key words: Touat Palaces, Desert Palaces Architecture, Urbanism in the desert region .

مقدمة:

شهد إقليم توات بمناطقه الثلاث (أدرار ، قورارة ، تيديكلت) ازدهارا عمرانيا كبيرا، استقطب بهندسته وطراز عمائره وقصوره أنظار المؤرخين والجغرافيين، فخصوه بالدراسة والوصف، وفي مقدمة هؤلاء العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي أعجب به أيام إعجاب، فتحدث عن مدينة تمنطيط وخصائص عمارتها وعمرانها ولاسيما هندسة الري ومصادر المياه و طرق السقي المتمثلة في الفقاقير التي تمتد عبر مسافات طويلة، فكانت شريان الحياة البشرية والحيوانية والنباتية فتحولت الصحراء إلى جنات خضراء.

ولكن إن كان إسهام المؤرخين و الأثريين في دراسة التراث المعماري الصحراوي غائبا كليا ، فإن دراسة هذا الإرث المعماري كانت موضوعا للأعمال الميدانية التي قام بها طلبة الدراسات العليا قسم الآثار الإسلامية منه بمعهد الآثار –جامعة الجزائر منذ سنة 1994 م تحت تأطير و إشراف **الدكتور صالح بن قربة** ، و التي أثمرت نتائجها بإنجاز أبحاث أكاديمية في شكل رسائل جامعية ، أبرزها عمل الطالبة بن صغير يمينة حول " قصر ورجلان و تيماسين " و عمل الطالب محمد بيدي حول " قصور منطقة عين الصفراء " سنة 2011 م وعمل الطالبة دحمون منى حول " قصر بوسمغون" بولاية البيض سنة 2005 م و عمل الطالبة بن ناجي مليكة حول " مساجد زاوية كنته " سنة 2010 م ، ومما يدفعنا إلى دراسة التراث المعماري لهذه القصور دراسة تاريخية و أثرية لهذا الإرث المادي الصحراوي .

1 . التعريف بمنطقة توات:

ويقع إقليم توات جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، تبعد أقرب نقطة منه عن الجزائر بحوالي 1500 كلم . هذا الإقليم يشمل على عدد من الواحات والمدن والقصور والتي تزيد على نحو350 واحة. تبلغ مساحة المنطقة حوالى 427.968 كلم^2 ويحدها من الشمال ولاية بشار والبيض ومن الشمال الشرقي غرداية ومن الشرق تمنراست ومن الغرب ولاية تندوف و جمهورية موريتانيا ومن الجنوب دولة مالي.[2]

ونجد الإقليم بين خطي عرض 26.36° شمالا و بين خطي طول 004° غربا إلى 001° شرقا و يعد هذا الموقع امتداد طبيعيا لمنخفض تانزروفت نحو الشمال.[3]

والإقليم حاليا يشمل" أدرار و تيميمون و عين صالح" فالأولى كانت تعرف بإسم منطقة توات الوسطى وهي من تسابيت إلى رقان ، و الثانية تعرف بإسم منطقة "القورارة " و هي تمتد من تبلكوزة إلى تسابيت أما الثالثة تعرف بإسم "منطقة تيديكلت" و هي تمتد من رقان إلى فقارة الزوى و قد أطلق بعض المؤرخين القدماء على المناطق الثلاثة إسم إقليم توات ومن هؤلاء ابن بطوطة [4] وابن خلدون و حسن الوزان .

يتكون إقليم توات من هضبة واسعة تتميز باستوائها و قلة مرتفعاتها ، تضم الكثبان الرملية المعروفة بالعرق الراوي و تكثر بالقسم الشمالي أهمها : عرق الشاش ، عرق اليابس ، عرق بقدي و العرق الغربي الكبير، كما نجد في هذه المنطقة الكثير من السبخات أهمها سبخة أزل ماتي جنوب رقان و سبخة مكرغان بتيدكيلت و سبخة تيميمون و تمنطيط .





خريطة توضيحية لموقع منطقة أدرار (إقليم توات) بالنسبة للجزائر

وينتهي الإقليم بثلاث أودية تصب مياهها الجوفية فيه لتغذي الفقاقير و الآبار بالمياه . و هذه الأودية هي وادي مقيدون، الذي ينتهي بمنطقة القورارة ، ثم وادي مسعود الذي ينتهي بمنطقة توات .و الثالث هو وادي قاريت الذي ينتهي بمنطقة تيديكلت .

و يعتبر وادي مقيدون امتداداً لوادي سفور الذي ينبع من المنيعة و يتجه غربا ، حيث تتلاشى معالمه بعض الشيء ثم يظهر من جديد باسم وادي شيدون الذي يواصل اندفاعه غربا حتى ينتهي إلى منطقة "القورارة " مكونا سبخة تعرف باسم " سبخة القورارة " .

أما الوادي الثاني (وادي مسعود) الذي يندمج و يجتمع بوادي جير (**قـير**) مع وادي زوسفانة عند منطقة فكيك (**فـقـيـق**) ثم يتجه نحو الجنوب ، حيث يطلق عليه اسم وادي الساورة .

أما عمارة هذا الاقليم ، فهي قديمة ،قدم المنطقة نفسها ، إذ ترجع إلى عصور موغلة في القدم ، شأنها في ذلك شأن عمارة بقية المناطق الصحراوية المجاورة لمنطقة توات حيث كانت تسمى بالصحراء القبلية ، ثم كثر عمرانها ، وقد مر بأربع مراحل تاريخية [5] .

2 . مسالك وطرق منطقة توات :

وعن أهم الطرق و المسالك فهي أربعة طرق رئيسية تخترق منطقة توات:

2.1 -الطريق الأول : وهو الطريق الرئيسي الذي يمتد من الشمال الغربي نحو المنطقة مرورا بسجلماسة إلى بودة.

2.2 الطريق الثاني : فينطلق من تلمسان نحو بودة مرورا ببشار وبني عباس.

2.3- الطريق الثالث : الذي يتجه من الشمال نحو الاقليم فيمتد من بجاية إلى ورجلان ثم إلى أولاد سعيد بقورارة .

2.4 . الطريق الرابع : المتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب، والذي يربط تونس بتوات فيمر بغدامس نحو عين صالح و آقبلي بأولف.

ونفس الشيء بالنسبة للطريق الخامس الذي يربط طرابلس الغرب بإقليم توات مرورا بغدامس .

أما عن المسالك الرئيسية التي تربط **إقليم توات بالسودان الغربي** (غرب افريقيا) فتشمل ثلاث مسالك أساسية وهي :

أ . طريق رقان إلى تيمبكتو مرورا بتاودني و اوران.

ب . طريق آقبلي المتجه لأولف إلى مدينة "غـاو" بتمبكتو مرورا بعين زيزة.

ت . طريق فرعي من قاو نحو أغادس و كانو .

وانطلاقا مما سبق يمكن أن نقسم العمارة حسب وظيفتها إلى ثلاث أقسام:

أولا : العمــارة الدينيــة:

1 . الـزوايــا :

إن غالبية زوايا منطقة توات ظهرت للوجود مابين القرنين الثامن والثالث عشر هجري و هذا راجع إلى استقرار بعض العلماء بالمنطقة و الذين يرجع لهم الفضل في إعمارها.

اشتهرت منطقة توات بانتشار الزوايا التي كانت بمثابة مؤسسات ثقافية و علمية، بعيدة عن الطرقية والطرق الصوفية المعروفة آنذاك، وإنما أنشأت كمباني مستقلة أدت أدواراً علمية واجتماعية ودينية حيث ترك شيوخها رصيداً علميا عكسته مؤلفاتهم و مصنفاتهم في مختلف العلوم و المعارف و الفنون و خاصة العلوم الدينية وهي محفوظة في خزائن بلديات المنطقة و اشتهرت زواياها منذ تأسيسها إلى يومنا هذا ، بنمطين اثنين وهما:

أ . نمط النوع الأول: ويشمل تلك الزوايا التي شيدت على أرضها ثم بيعت واشتريت من قبل مؤسسها أو بانيها خارج القصر أو الفضاء السكاني كما هو الشأن بالنسبة لزاوية "سيدي البكري" التي تقع بالقرب من مدينة تمنطيط وكذلك الامر بالنسبة "لزاوية تيليلان".

ب . نمط النوع الثاني : فتشمل الزوايا التي بنيت داخل القصور مثل زاوية "زاقلوا" بالقرب من زاوية كنته .

و الحديث عن الزوايا و دورها الإشعاعي العلمي و الديني يطول بنا و يستوجب موضوعا خاصا قائما بذاته ليس هذا مجاله .

1.1 . أوقاف الزوايا و مرافقها:

تشمل الزوايا الأراضي و البساتين الموقوفة على الزاوية و المسجد وبيوت الضيافة و هذا بالإضافة إلى وجود ، مدرسة قرآنية ، غرفة شيخ الزاوية ، غرفة لحفظ المؤنة ، اضافة إلى عدد الغرف التي تحيط بالمسجد و المدرسة وهي مخصصة عادة للقائمين على خدمة الزاوية ، و أن جميع أوقاف الزوايا تكون تحت تصرف شيخ الزاوية .

أدت الزاوية منذ نشأتها أدورًا كبيرة في خدمة الدين الإسلامي تعلما و تعليما وتكوينا و نشره ، حيث تخرج منها كبار العلماء في الفقه و الشرع أمثال :

- **عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي التمنطيطي**
- **الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنيلاني**
- **الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي**
- **الشيخ محمد البكري بن عبد الكريم**
- **الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينلاني**
- **الشيخ محمد بن محمد العالم الجزلاوي**

أما عن نظام الدراسة في الزاويا بشكل عام فغير منضبط بوقت أو طريقة وإنما يقتصر على مدى استيعاب الطلاب للمواد المدرسة تلقينا وحفظا .

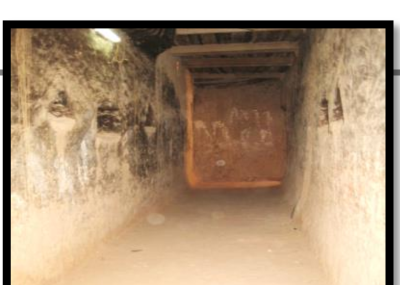
وبالإضافة إلى دورها التعليمي ، كانت الزوايا تقدم خدمة اجتماعية كمساعدة الفقراء والمحتاجين والمعوزين وعابري السبيل وإصلاح ذات البين بين الأفراد والجماعات والقبائل عند حدوث خلافات أو منازعات أو وقائع و نوازل ...إلخ ، ومساهمتها في إنماء العمران البشري والتوازن الروحي و نشر الوعي بين الناس.[6]

ومن أشهر زوايا منطقة توات نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أ . **زاوية كنتة:** أسست في بداية الأمر خلال القرن 11 ه لأغراض عسكرية دفاعية ثم توسعت و تطورت وظائفها وأهدافها لتساهم في أداء رسالتها الدينية و الثقافية و التجارية في المناطق الصحراوية وبلاد المغرب و غرب إفريقيا ، وقد تحدثت المصادر التاريخية والجغرافية و كتب الرحالة عن الدور الذي أدته في هذا المجال .

مقر الدار الكبيرة لسيدي علي بن أحمد الرقاد الكنتي

. دار إقرأ .





مدخل الدار رواق مؤدي إلى الخلوة

كما عرفت المنطقة انتشار الأضرحة والخلوات ومن بينها خلوة الشيخ أحمد الرقاد :

. خلوة الشيخ أحمد الرقاد :

الخلوة عبارة عن مكان يتعبد فيه الشيخ أحمد الرقاد ، وتحتوي على بعض ما تبقى من أدواته من عصى وطاقية ، وهي مربعة الشكل ، ويوجد بها محراب مما يستدعينا إلى أن نعتبره مسجد مصغر ، والمحراب طول ارتفاعه 2م وعرضه 80 سم ، أما طول الخلوة فقدر ب 2.87 م وعرضها 2م فهي مربعة الشكل .

وفي الجدار الجنوبي للخلوة يوجد باب ثاني يؤدي إلى غرفة بها ماجل (حوض الماء) طوله 1.20م وعرضه 80 سم ، يغتسل فيها الشيخ ، أما طريقة التسقيف فهو من المواد المحلية للمنطقة من جذوع النخيل .

ب . الزاوية البكرية : وهي تقع بمدينة تمنطيط ، تعتبر وهي من أقدم الزوايا في المنطقة يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، فكانت بمثابة مدرسة تخرج كوكبة من العلماء الذين خلقوا تراثا فكريا معتبرا ، ذاع صيتها إلى خارج حدود الوطن لتدخل تونس و ليبيا .

كما هناك **الزاوية البكرية بمنطقة تيمي** وهي فرع من الزاوية البكرية بتمنطيط يرجع تأسيسها إلى ما بين 1117 ه إلى 1127 ه ، تحتوي على خزانة بها العديد من المخطوطات التي يبلغ عددها 3600 مخطوط و بقي منها حوالي 2000 مخطوط ، هي موزعة على عدة زوايا في المنطقة .



الزاوية البكرية بتيمي . الخزانة

إن غالبية زوايا منطقة توات ساهمت في استقرار بعض العلماء بالمنطقة و قد أغنوا خزائن توات بمؤلفاتهم التي تمثل رصيدًا من المخطوطات المنتشرة عبر خزائن تقليدية و ممتلكات أسرية وفردية وقد ساعدت عوامل الاستقرار السياسي والاجتماعي في المنطقة منذ بداية القرن 3 هـ / 9م في تنشيط حركة التدوين والنسخ مما أدى إلى ظهور المخطوط وانتشاره.

وتوجد بالمنطقة حوالي 29 خزانة للمخطوطات موزعة عبر الأقاليم الثلاثة، تناولت موضوعات مختلفة كالفقه وعلوم الأدب والفلك وعلوم الشريعة والأحكام والتاريخ والطبقات والحوليات والنوازل.

1.2. خزائـن توات:

اشتهرت منطقة توات بخزائنها التي تحتوي على رصيد من المخطوطات المنتشرة عبر خزائن تقليدية و ممتلكات أسرية وفردية وقد ساعدت عوامل الاستقرار السياسي و الاجتماعي في المنطقة خلال القرنين 3 هـ / 9م في تنشيط حركة التدوين و النسخ سواء المؤلفين أو الناسخين مما أدى إلى ظهور المخطوط وانتشاره.

وقد ضمت المنطقة حوالي 29 خزانة للمخطوطات موزعة عبر الأقاليم الثلاث وقد تناولت هذه المخطوطات مواضيع مختلفة كالفقه و علوم الأدب و الفلك و علوم الشريعة و الأحكام و التاريخ والطبقات والحوليات والنوازل.

. خزانة الزاوية الكنتية : ومؤسسها الشيخ محمد الرقاد صاحب الزاوية الكنتية سنة 999هـ وعمل فيها الشيخ عمر بن محمد المصطفى بن احمد الرقاد الكنتي(ت1157هـ/1744م).

تحتوي زاوية كنتة على العديد من المخلفات المادية الشاهدة على تاريخها و تاريخ علمائها أمثال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي ، فقد قمنا بدراسة معلم أثري متمثلا في الدار الكبيرة الموجودة بوسط زاوية كنتة والتي يعود تأسيسها للشيخ سيدي علي بن أحمد الرقاد الكنتي حوالي 1022 هـ حسب ما ترويه الروايات الشفاهية من مسؤول المسجد المدعو كنتاوي عبد الله بن علال فإن الشيخ الرقاد كني بهذا اللقب لأنه كان يتعبد طيلة الوقت و لا ينقطع عن قراءة القرآن حتى أنه كان يقرأ و هو نائم ومن كتبه " الطرائد و التلائد" الذي نسخه الشيخ سيدي مختار الكبير.

هذه الدار كانت تسمى دار إقرأ ، تحتوي على زاوية لتلقي العلوم الشرعية كما كانت لها مهام إيواء و إطعام الطلبة وعابري السبيل، تحتوي هذه الدار على خلوة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وهي مكان كان خاص بالشيخ حيث كان يتخذ من هذه الخلوة مكانا للعبادة تحتوي هذه الخلوة على خزانة بها العديد من المخطوطات كما توجد بهذه الخلوة بعض مخلفات الشيخ المغيلي متمثلة في القبعة وعاصيان.

خزانة كوسام:[7] وتقع هذه الخزانة في بلدية تيمي، أسست على يد الشيخ سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم البلبالي*، والخزانة موجودة في قصر كوسام والذي يعود تاريخه إلى ما قبل 598هـ ، وكان يحمل اسم

تيسان وفي سنة 1278هـ الموافق لسنة 1860م دخله البلباليون بعد شراء جزء منه وأسسوا به مدرسة، وعين فيها الشيخ سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي احمد البلبالي الانصاري للتدريس بها, وتحوي على 160مخطوط منها 118في حالة جيدة و42في حالة سيئة كما تحوي على مخطوطات في غاية الأهمية نذكر منها على سبيل الذكر "غنية المقتصد السائل في ما حل بتوات من المسائل" للشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن البلبالي. وتحتوي هذه الخزانة على مخطوطات متنوعة في شتى المواضيع من بينها التاريخ، الفقه، القضاء، المعاملات، الحديث والسيرة.





بعض من مخطوطات خزانة كوسام بمركز المخطوطات

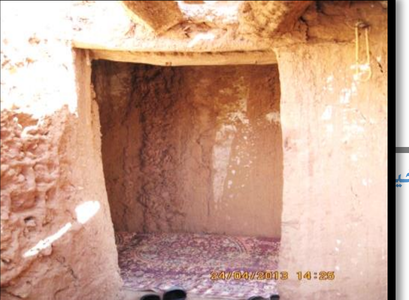
2. المساجد:

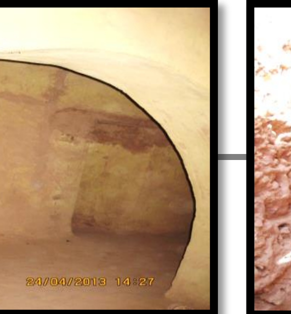
2.1. المسجد العتيق بحي أولاد أهمالي بتمنطيط:

المسجد مستطيل الشكل يتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، عرض البلاطة الواحدة 1.18 سم، البلاطة الأولى تتكون من بائكة مشكلة من ثلاث دعامات تحمل قوسين شكلهما نصف دائري ، عرض كل واحد منها 2م، أما سمك العقد 53سم، يتوسط البلاطة الأولى المحراب طوله 8.70 سم وعرضه 4.92 سم ينتهي بقوس دائري الشكل ، والبلاطتين الأولى والثانية يهما نافذتين صغيرتين في الجدار الجنوبي للمسجد، وجدار القبلة به فتحتان 25سم طولا وعرضا، والتسقيف من جذوع النخيل والكرناف، يتكون من 22 جذع . أما في الجدار الخلفي للمسجد محراب ثاني ينتهي بالعنزة ، يستعمل كمحراب في وقت الصيف لصلاة المغرب والعشاء والصبح.









مدخل المسجد أحد عقود المسجد

مسجد حي أولاد إهمالي

2.2 . مسجد القصر الفوقاني بأنزجمير:

بلدية أنزجمير التي تبعد عن زاوية كنتة بحوالى 10 كلم ، تحتوي منطقة إنزجمير على إحدى أهم خزائن المخطوطات بمنطقة توات، وهي خزانة الشيخ عبد الرحمان الزجلاوي تقع هذه الأخيرة داخل قصبة المرابطين بإنزجمير حسب ما ترويه الذاكرة الشعبية إن قدوم الشيخ عبد الرحمان كان في حدود سنة 1169 هـ كانت المكتبة مؤلفة في البداية من مكتبتين ثم جمعت بعد ذلك في مكتبة واحدة رصيد المكتبة من المخطوطات يصل إلى أكثر من 2000 مخطوط ، تم فهرسة 360 مخطوط منها المستوردة والمنسوخة بالمنطقة.



شيخ الزاوية



منظر عام لرفوف الخزانة . تبيين شكل بعض الخزانات المجلدة



خزانة الشيخ عبد الرحمان الزجلاوي

بعد ذلك قمنا بالتوجه لأحد المساجد القديمة في **القصر الفوقاني بإنزجمير** للمسجد ممر عريض عبارة عن سباط أو داكنة[8] كانت مكان لجلوس شيوخ القصر، يتم الدخول إلى المسجد عن طريق هذه الدكانة يحتوي على أربع أروقة

عمودية على جدار القبلة تتخللها فتحات معقودة بعقود نصف دائرية. المسجد يحتوي على فتحات للتهوية والإضاءة في واجهاته الأربعة.



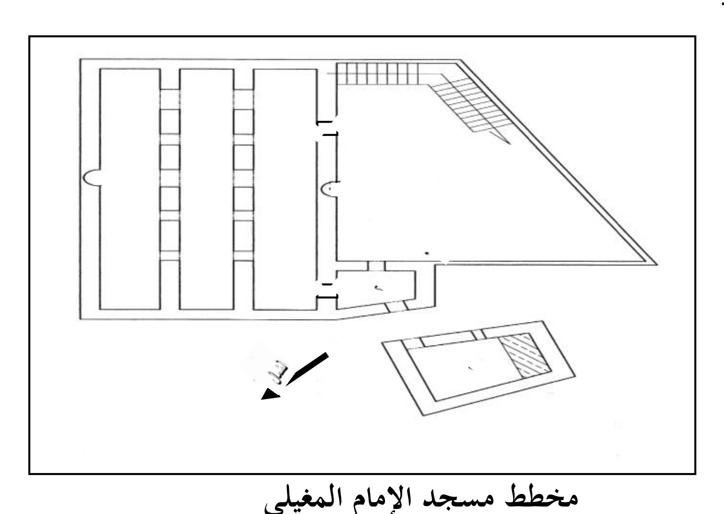




أحد المساجد القديمة في القصر الفوقاني بإنزجمير **مدخل سجد قصر انزجمير**

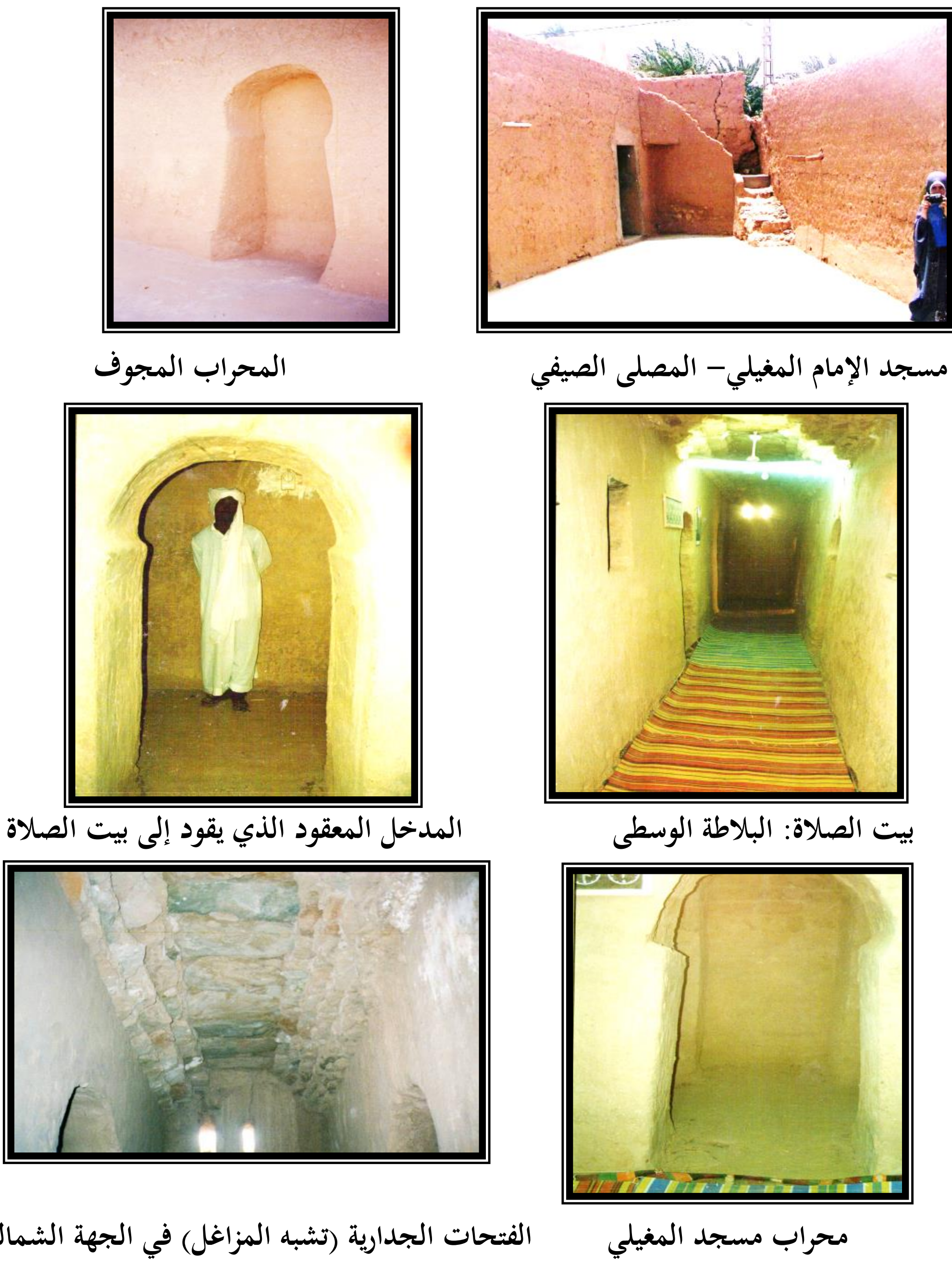
ويقع المسجد بالجهة الشرقية للقصر الذي يسمى (القصر الفوقاني) ببلدية بأنزجمير التي تبعد عن عاصمة الولاية ب90كلم ، يرجع تاريخ بناءه إلى القرن التاسع ، يتكون المسجد من أربع بلاطات يبلغ عرض كل بلاطة منها 1,70م ويفضي الباب الخارجي إلى البلاطة المتأخرة ،يفصل بين بلاطة وأخرى جدار يبلغ سمكه 0,50م تتخلل الجدار عقود يبلغ عرض كل عقد منها ما بين 0,65م إلى 0,75م، أما جدار القبلة فيوجد به محراب يبلغ عرضه 0,95م وعمقه 1,25م إلى جانبه منبر به درجتين، وبه كوتين واحدة على يمين المحراب وأخرى على يساره، كما أنه يحتوي على حجرة في مؤخرة الجامع وهي مخصصة لتعليم القرآن يقسمها عقد دائري، كما أن جدران المسجد بها فتحات للتهوية وهي مبنية بالحجارة والملاط، أما عن التسقيف فهو بالحجارة عدا حجرة التدريس التي سقفت بجذوع النخيل ، والجدير بالذكر أن المسجد لا زالت تقام به الصلاة وهو في حالة سيئة يحتاج إلى ترميم .

2.3 . مسجد الإمام المغيلي :



مخطط مسجد الإمام المغيلي

المقياس: 1م/100



مسجد الإمام المغيلي– المصلى الصيفي

المحراب المجوف

بيت الصلاة: البلاطة الوسطى

المدخل المعقود الذي يقود إلى بيت الصلاة

محراب مسجد المغيلي

الفتحات الجدارية (تشبه المزاغل) في الجهة الشمالية الشرقية

ويعد **ضريح الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني** وهو أحد أهم المنشآت الدينية بالمنطقة ، كما وقفنا عند مرافق بها معرض خاص بالأدوات التقليدية الخاصة بالمنطقة و بعد ذلك توجهنا إلى معلم تاريخي قديم بالمنطقة و هي القصبة الكبيرة و هي معلم تاريخي إسلامي يبين التراث المعماري الأثري الصحراوي بالمنطقة و نلمس ذلك من

خلال الخصائص المميزة للعمارة الصحراوية من موقع مرتفع و أبراج و أسوار توجد بالمنطقة مغارات صخرية تمتد على مساحة طويلة توجد فوقها مقبرة و هذه المغارات عبارة عن جبل ضخم حفر بالفأس يدويا حسب الروايات الشفاهية و ربما كان الغرض منها الانزواء قصد الاستراحة و التعبد ، بعد ذلك قمنا بدراسة مسجد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بمنطقة بوعلي هذا المسجد الذي يعتبر أحد المعالم الأثرية الاسلامية الشاهدة على تاريخ المنطقة ومخلفات الشيخ ، يعود تاريخ بناء هذا المسجد إلى حوالي القرن 9 /10 هـ يمتاز هذا المسجد بالتخطيط المشابه للمساجد المجاورة له كمسجد الشيخ الرقاد و مسجد القصر الفوقاني بمنطقة أنزجمير ، يحتوي المسجد على أربعة بلاطات موازية لجدار القبلة تتخلل هذه البلاطات عقود حدوية .



ضريح الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي

ولد الإمام سيدي محمد بن عبد الكريم في تلمسان بمنطقة مغيلة حيث نسب إليها و عرف بها، كان ذلك سنة 790هـ حسب الشجرة الكبرى الجامعة لأنساب سكان توات ، وعن محمد بن محمد الأنصاري الجزلاوي قال بأنه الطود الشامخ ذو القدم الراسخ الأمام سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بن عمر بن مخلوف بن علي بن الحسن بن يحي بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن عباس بن عطية بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن عبد الله بن محمد بن إدريس بن عبد الله الكامل و قد كانت نشأته بمسقط رأسه تلمسان في بيت عريق عرف بالحسب و الجاه [9].

بدأ دراسته الأولى بتلمسان حيث حفظ القرآن على السيد أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المعروف بالجلاب، و قد أخذ عنه أيضا بعض أمهات الكتب الفقيه كالرسالة و مختصر خليل و ابن الحاجب و بعض كتب بن يونس كما تتلمذ ليحي بن يدير وتربى على يد أبي العباس الوغليسي، و قد أجاد فنونا مختلفة و تفقه في مذهب الأمام مالك بن أنس وقد ساعده على التحصيل ذكاء مفرط نية صالحة و مكارم أخلاق و توقد ذاكرة و علو همة، و قد اجتمعت للشيخ هذه الصفات حتى صارت الدنيا لديه هدفا لما هو أعلى وأفضل فنمت في نفسه بذور الصوفية و غذاها باتصاله بالعالم

سيدي عبد الرحمان الثعالبي الجزائري الذي تتلمذ عليه و زادت المصاهرة بينهما أواصر المودة و القرابة و قد شهد له بالفضل و السبق علماء كثيرون شهادة سجلها التاريخ تدل دلالة حية على مكانته في وقته [10].

وقد ارتحل الشيخ إلى بجاية وأدرك بها مشايخ كثيرين كانوا أجلاء عصورهم وفضلاء أوقاتهم وأخذ عنهم جملة وافرة من علوم التفسير والحديث وقد كان لهذه الرحلات والاطلاع الواسع أثر بارز في تكوينه الثقافي فأفاد من اتصاله بهذه الرقعة الجغرافية الممتدة من البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى أحراش.

ومن آثاره المادية، المسجد الموجود إلى يومنا هذا بأقدر (النيجر) و هو مسجد الكرامة المنقوش على صومعته بخط من الطين. هذا المسجد الذي بناه الشيخ المغيلي من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، ومن آثاره بأولاد سعيد مسجد بقصر اولاد هارون و كذلك السوق و مقبرة زوجته و ابنه بنفس القصر [11].

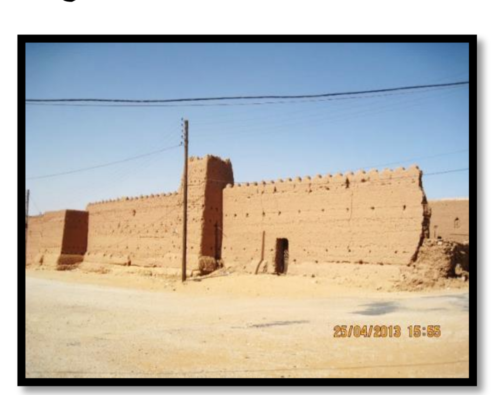
توفي الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي سنة 909 هـ بقصر بوعلي التابع لبلدية زاوية كنتة حاليا بعد رجوعه إلى توات واستقراره بها بعد أن خلف في المنطقة العديد من الأعمال تفتخر بها الأجيال [12].

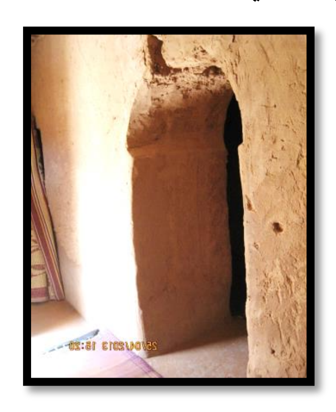






مدخل خلوة الشيخ المغيلي ببوعلي





المدخل الرئيسي الخارجي لخلوة الشيخ المغيلي

2.4. مسجد الشيخ سيدي علي بن أحمد الرقاد الكنتي:

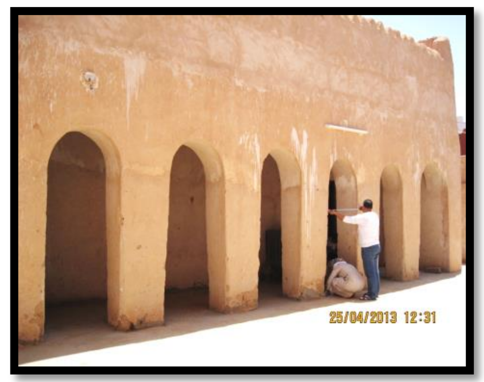
و هو أحد المعالم الإسلامية القديمة الذي يعود تأسيسه إلى سنة الفترة 1022 ه بداية القرن 11ه وهو أقدم مسجد بالمنطقة ، وقد تمثل دوره زاويته على عهده هو التعليم وإكرام الضيف، والمدخل عبارة عن دكانه بمقعدان، وهو المكان الذي كان يجلس فيه الشيخ وتلاميذه لتدريسهم ، ونظام التدريس بزاوية الشيخ كان داخلي وخارجي.

يتكون بيت الصلاة من ثمان بلاطات أفقية على جدار القبلة ، وثان بوائك عمودية على جدار القبلة، لكل بائكة أربعة أعمدة تشكل بلاطات بها عقود مشطوفة محمولة على ثمان أعمدة، والتسقيف بجريد النخيل لكنه مستحدث.

طول المسجد 16.55م وعرضه 10.70م ، أما المحراب مجوف عمقه 0.85 م.

بيت الصلاة يطل على صحن مستطيل الشكل وهو مكشوف، يشكل رواق يحمل ستة عقود بشكل أبواب على ستة أعمدة وهو مغطى بسعف النخيل.

وكان هذا الصحن لوالد سيدي أحمد الرقاد ثم بعد تشييد مسجد انه أحمد الرقاد فقد وظيفته وحول إلى صحن ملحق بالمسجد الجديد في مؤخرته ، ويوجد باب به درج يؤدي إلى سطح المسجد.





مسجد سيدي علي بن أحمد الرقاد

ثانيا . العمارة المدنية :

إن الحديث عن القصور الصحراوية يؤدي بنا حتما إلى البحث عن المستوى الحضاري والاجتماعي الذي من خلاله نستطيع التعرف على المستوى العمراني ، وهناك أهمية أخرى والتي من خلالها نتمكن من تتبع مراحل بناء القصر ومكونات المدينة و مورفولوجيتها والتعرف على قدرة الإنسان الصحراوي على التكيف والتأقلم في منطقة توصف بأنها قاسية ومعزولة ، إن القصور التي تزخر بها منطقة توات بعضها قد تهدم كقصر تيطاوين الشرفاء والبعض مهجور مثل قصر تماسخت والبعض مازال قائما كقصر أولاد أمحمد ومن أهم القصور نذكر:

1 . القصور :

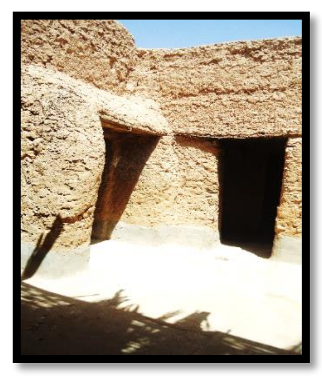
1.1. قصر أولاد أمحمد :

يقع ببلدية تمنطيط يرجع تاريخ بناءه إلى القرن التاسع الهجري يتخذ شكل المربع إذ يبلغ عرضه44.55 م وطوله 52.5 م وبني كحصن عسكري ، محاط بسور مدعم ومحصن بأربعة أبراج مرتفعة ، تتخللها مزاغل استعملت للمراقبة ورمي السهام كان يتقدمه خندق.

المدخل الرئيسي :بعد دخولنا إلى هذا القصر نجد رواق ، تصل أبعاده من 2 م الى1.70 م ، ذو شكل منكسر أصم ويليه مباشرة ساباط مسقف بجريد النخل لتظهر بعده مداخل البيوت منفتحة على جانبي الرواق والتي لازالت تحتفظ ببعض الزخارف الهندسية رغم الحالة السيئة التي آل إليها القصر .



السور والمدخل الخارجي لقصر أولاد أمحمد



الفناء



باب القصر

1.2. قصر قصبة الزاوية البكرية بتيمي :

يتواجد القصر بالواجهة الشمالية للزاوية البكرية ، وفي الوقت الحالي تسكنه عائلة واحدة حسب الرواية الشفوية للشيخ عبد الله البكري وهو من ساكني المنطقة ، والقصر عبارة عن وقف لعائلة الشيخ محمد سيدي البكري.

يتواجد القصر بالواجهة الشمالية للزاوية البكرية ، وفي الوقت الحالي تسكنه عائلة واحدة حسب الرواية الشفوية للشيخ عبد الله وهو من ساكني المنطقة ، والقصر عبارة عن وقف لعائلة الشيخ محمد سيدي البكري.

القصر مربع الشكل تقوم في أركانه الأربعة أبراج للمراقبة ، والسور من الخارج يحتوي على مزاغل للمراقبة والدفاع في حالة الحروب ، سمك السور الخارجي يصل إلى 1م ثم يبدأ في التناقص كلما ارتفع السور، أما المدخل الرئيسي فيوجد في الناحية الشمالية وبابه غير موجود ، وبعد المدخل نجد السقيفة وهي عبارة عن مدخل منكسر يليها رواق يؤدي إلى الوحدات المعمارية ، وهي عبارة عن مساكن مكونة من غرف مختلفة المقاسات حسب الوظيفة التي تأخذها كل غرفة ، ثم نجد صحن البيت يكتنفه رواق يؤدي إلى غرفة الضيافة (السواري) ينفتح فيها مخزن البيت ، يليه رواق آخر بشكل سباط تنفتح إليه باقي البيوت .

أما التسقيف فهو بجذوع النخيل والكرناف ، يغطى كل ذلك بطبقة من التبن تعلوها طبقة من الطين .

أما مواد البناء فهي الطوب المصنوع يدويا مع ملاط طيني يتم تحضيره بطريقة تقليدية [13] .





الواجهة الرئيسية للقصر مدخل قصر الزاوية البكرية بقايا أحد أبراج القصر

والقصر مربع الشكل تقوم في أركانه الأربعة أبراج للمراقبة ، والسور من الخارج يحتوي على مزاغل للمراقبة والدفاع في حالة الحروب ، سمك السور الخارجي يصل إلى 1م ثم يبدأ في التناقص كلما ارتفع السور، أما المدخل الرئيسي فيوجد في الناحية الشمالية وبابه غير موجود ، وبعد المدخل نجد السقيفة وهي عبارة عن مدخل منكسر يليها رواق يؤدي إلى الوحدات المعمارية ، وهي عبارة عن مساكن مكونة من غرف مختلفة المقاسات حسب الوظيفة التي تأخذها كل غرفة ، ثم نجد صحن البيت يكتنفه رواق يؤدي إلى غرفة الضيافة (السواري) ينفتح فيها مخزن البيت ، يليه رواق آخر بشكل ساباط تنفتح إليه باقي البيوت .

كما هناك قصبة قديمة تقع شرق المسجد و هذه القصبة تأوي الأهالي إلى يومنا هذا ، وتسمى **بقصر تاخفيفت** ونجده على بعد حوالى 10 كلم من زاوية كنتة ، كما يعد قصر تاخفيفت من أقدم القصور التواتية الضاربة في القدم من خلال موقعه المميز الموجود فوق مرتفع كما توقفنا عند المسجد العتيق بتاخفيفت و هو أحد أهم المعالم الأثرية بالمنطقة و هو مبني بالطوب و الحجارة و في الأخير توقفنا عند أحد أهم المعالم الأثرية بالمنطقة و هي الفقارة و هي نظام للري التقليدي يستخرج بواسطته الماء من طبقات الأرض إلى سطح الأرض دون أي آلة أو مجهود عضلي .




قصر تاخفيفت



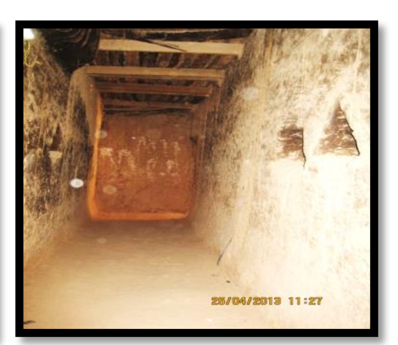
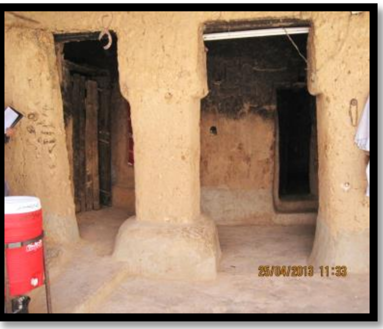
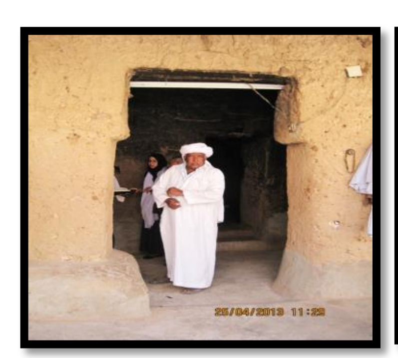

المسجد العتيق بتاخفيفت

1.3 . المنازل :

تختلف مساحة المنازل داخل القصور وذلك حسب عدد أفراد كل أسرة وحسب الثروة التي تتمتع بها كل عائلة ولكنها لا تختلف في الشكل العام وذلك من حيث مكوناتها المعمارية فهي تأخذ الشكل المربع أو المستطيل وتشترك في كون اغلبها يحتوي على طابق أو طابقين على غرار المنزل الذي اطلعنا عليه في قصر أولاد أمحمد حيث تكون من غرفة صغيرة طولها لا يتعدى 2.00م ×1.40م إضافة إلى مطبخ صغير بالإضافة إلى سقيفة استعملت إلى جلوس العائلة وهناك أيضا فناء مكشوف احتوى على سلم وتحته مباشرة الكنيف وهذا منزل من المنازل التي اطلعنا عليها .

. الدار الكبيرة بزاوية سيدي علي بن أحمد الرقاد :

نمر عبر رواق يحمل فتحات (الكوات) ، مثلثة الشكل ومربعة وعددها ثلاث لنصل إلى الساحة المركزية التي كانت تقام فيها الوعدات والتي كان يحضر فيها كبار المنطقة ، كما كان هناك غرف خاصة بالنساء للطبخ ، وجدنا في الساحة خزانة لمخطوطات في حالة سيئة .

المدخل الرئيسي والفناء بالدار الكبير بزاوية سيدي علي بن أحمد الرقّاد

ثالثا : العناصر المعمارية :

1.1 . المزاغل : المزاغل هي تلك الفتحات التي توجد في الأسوار والأبراج وهي ذات أهمية عسكرية كبيرة حيث تستعمل لرمي السهام من خلالها .



نموذج للمزاغل

1.2 . الاعمدة والدعامات : لقد استعمل المعماري التواتي الأعمدة والدعامات واهي مبنية بالحجارة ولبست بالطين والرمل لإضفاء لمسة جمالية عليها .



نموذج للأعمدة

1.3 . العقود : تعد العقود من العناصر الأساسية التي اتخذها المعماري المسلم منذ زمن مبكر وشاع استعمالها في جميع مبانيه الدينية والمدنية والعسكرية ولقد اختلفت أشكالها باختلاف المناطق ونجد من بين أنواعها في توات نوعين هما الحدوي والنصف الدائري أما الأنواع الأخرى فكانت قليلة الاستعمال .



العقود

1.4 . الفتحات : لقد وجدت الفتحات في العمارة الصحراوية وخاصة الدينية منها وكان دورها يتمثل في توفير الضوء والهواء معا فلا يمكن الاستغناء عنها في بيئة تغلب عليها الحرارة .

1.5 . الكواة : الكواة هي تلك الفتحات غير النافذة حيث تكون عبارة عن تجاويف مفتوحة في جدران المباني الداخلية وتوجد خاصة في جدران العمائر الدينية وذلك تبعا لطبيعة وظيفتها في وضع الشموع وتوضع بها المصاحف والكتب إلى جانب نوى التمر .



نموذج لكواة

رابعا : مواد البناء :

1.1 **ـ الطين** :الطين من المواد الأكثر وفرة في البيئة الصحراوية فهي سهلة الاستعمال ولذلك استخدمها أهالي المنطقة، لما لها من خصائص ومقاومة للعوامل الطبيعية الصحراوية ولقد بنيت بها المنازل بالإضافة إلى الأسوار والأبراج.



استعمال الطوب والطيب في بناء الجدران بقصر الزاوية البكرية بتيمي

1.2 . الحجارة : تعتبر الحجارة المادة الأساسية التي اعتمدت عند أهالي توات إلا انها لم تتواجد في جميع القصور فقد انعدمت في بعضها وذلك لعدم وفرتها في جميع المناطق وقد استعملت في بناء الأسوار على غرار قصري تماسخت وتاخفيفت واستعملت حتى في التسقيف مثل مسجد الإمام المغيلي .




الحجارة المستعملة في البناء– قصر قصبة الزاوية البكرية بتيمي –

1.3 . الجص : إن التسمية التي تطلق على الجص في توات هي الجير ،وهو يستعمل في عملية تبييض الأضرحة أو يخلط بالرمل ليوضع كطبقة عازلة فوق الأسطح والجير كمادة أولية هو خام من كبريتات الكالسيوم وأما الجص العادي الذي يستعمل في الطلاء فهو نوع غير نقي يحرق إلى درجة حرارة معينة ثم تطلى به الجدران الخارجية للمباني .

1.4 . الخشب : يعتبر الخشب من المواد التي لا يمكن الاستغناء عنها في الأبنية الصحراوية وخاصة شجر النخيل فكل مكونات النخلة يستعمل في البناء كل جزء من أجزائها يستعمل في مكانه فالجذوع تستخدم كعوارض للتسقيف وصناعة الأبواب والجريد يستخدم للتسقيف هو والكرناف أما الليف فيستخدم في صناعة الحبال لربط الجذوع ببعضها فالنخلة هي أساس العمارة الصحراوية وعمودها الفقري .




الكرناف في تسقيف سطح قصر الزاوية البكرية بتيمي في التسقيف

3 – العمارة و العمران بتوات :

اعتمد المعمار التواتي في تخطيط و بناء عمائره من البيوت و المساكن عامة على مواد الإنشاء المحلية مثل الطين و الحجارة ، أما الساس فاستعمل الحجارة و الطين أولا ثم من مادة الطين وحدها .

أما عن نظام التغطية أو التسقيف ، فقد استعملت مواد النخلة ومشتقاتها ، فالجذوع تمتد على طول وعرض الحائط ، وبينهما يكون الكرناف [14] ، وألياف النخلة لسد الفراغات ، ثم يمسك كل ذلك بطبقة سميكة من الطين لمنع تسرب المياه وفي الأعلى يحاط السطح بجدار على امتداده لتوفير عنصر الستر بين الجيران في فصل الصيف ، وقد يحتاج البناء

لوضع طابق أعلى فوق الطابق الأرضي وقبل السطح. أما الأبواب في الأبنية التواتية فإنها تصنع من جذوع النخيل المتوفرة محليا بعد أن تتم زخرفتها ومسكها بعضها ببعض .

وقد صنف ابن خلدون العمران عامة ، إلى عمران مدني و عمران بدوي ، حيث يقول : ((البدو أصل للمدن و الحضر ، وسابق عليها ،لأن أول مطالب الإنسان الضروري لا ينتهي إلى الكمال و الترف إلا إذا كان الضروري حاصلا ،فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة)) [15].

أما عن أصل تأسيس المدن في تاريخ البشرية ، فيرجعه ابن خلدون إلى السلطان حيث يقول : ((أعلم أن المدن قراره تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف و دواعيه، فتؤثر الدعة و السكون ، و تتوجه إلى إتخاذ المنازل للقرار و المأوى ، يراعي فيه دفع المضار بالحماية ، من طوارقها ،و جلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها)) [16].

فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار ، و ان وضع ذلك في متمنع من الامكنة ، إما على هضبة متوعرة من الجبل و إما بإستدارة بحر او نهر بها ، حتى لا يوصل إليها)) [17] .

ولا شك أن العمران و الأسس العمرانية الأصلية ، هي التي تستمد تخطيطها و عمارتها من البيئة التي نشأت و نمت و تطورت فيها، تنطبق أساسا على أنماط عمران قرى و مداشر و قصور بلاد المغرب الإسلامي عامة و قد تنطبق هذه الخصوصيات بشكل خاص على الانماط المعمارية بإقليم توات ووادي ريغ و ميزاب و غيرهم من المناطق الصحراوية الاخرى ، حيث تنتشر المدن و القصور و الواحات ،على محور يكاد يكون موازيا لخط اللمس الروماني ، وتكاد تشكل حزاما فاصلا بين المناطق الجنوبية حيث تنتشر الكثبان الرملية و بين المناطق الشمالية حيث نجد قصور وادي ريغ وقصور ورقلة و توات (القورارة و تيديكلت) ومنطقة بني ميزاب ...إلخ .

ومن خصائصها تقارب المسافات بينها ، و ما دمنا بهذا الصدد فنذكر في هذا السياق أن من بين أهم المدن التي ظهرت في بلاد المغرب الاوسط خلال الفترة التي تمتد من القرن الهجري الاول إلى حدود القرن الهجري الخامس و التي تشكل أنماطا حية للطابع المعماري الصحراوي بخصوصيته المحلية دون سواه من المناطق الاخرى ، مدينة وارجلان(ورقلة) التي أدت دورا معتبرا في العلاقات الثقافية و التجارية بين الشمال و الجنوب و همزة وصل بين الصحراء و الساحل ، كما أشار ابن خلدون ، إلى أن قبيلة زناته ، هي التي أسست القصور الصحراوية بتشكيلاتها المعمارية و أقسامها العمرانية . و هذه القصور نفسها ، هي التي ستحتلها القبائل العربية عقب الزحف الهلالي على بلاد المغرب الاوسط بعد القرن الخامس الهجري .

و هو ما أشار إليه في كلامه عن قبيلة المعقل ، حيث يقول : ((أنهم ملكوا قصور الصحراء التي إختطتها زناته بالقفر مثل قصور السوس غربا ثم توات ثم بودة ثم تمنطيط ثم واركلان ،ثم تسابيت ، ثم تيكورارين شرقا ، وكل واحد من هذه (أي القصور) وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل و أنهار ، و أكثر سكانها من زناته [18] .

4 . تاريخ العمارة الصحراوية :

لا نملك بين أيدينا وثائق تاريخية و لا قرائن مادية أثرية عن تاريخ نشأة المدينة الصحراوية بشكل عام ، فقد تعود إلى اواخر العصر البيزنطي ، في شكل محطة على طريق القوافل التجارية الرابط بين منطقة الهقار و منعطف نهرالنيجر .

ويكتنف الغموض أكثر ، عندما يتعلق الامر ، بهذه المسألة (تاريخ ظهور المدينة) خلال فترة الفتح الاسلامي ، وطبقا لرواية الزهري ، فإن اسلمت المدينة يقع في مدة حكم الخليفة هشام إبن عبد الملك بن مروان (105-125 هـ/724-743 م) و هنا ينطرح أمامنا سؤال هام و هو : **هل كان لإنتشار الاسلام دور في تمصير الصحراء ؟** .

فمدينة وارجلان القصر و البلد كمثال ، فقد تحدث عنها عديد من الجغرافيين و الرحالة بمفاهيم و صيغ و تسميات مختلفة (بلدة ، كور ، مدينة) ، ومن بين هؤلاء الجغرافيين ، الذين تركوا بصماتهم واضحة، نذكر صاحب كتاب ((الإستبصار في عجائب الامصار))، الذي أمدنا بوصف دقيق عن مدينة (وارجلان) في العبارة التاليـة: ((وتسير في الصحراء نحو خمسين يوما إلى بلد وارجلان في طرف الصحراء مما يلي إفريقية : وهو بلد خصيب كثير النخل و البساتين، وفيه سبع مدن مسوّرة حصينة ، تقرب بعضها من بعض ، أكبرها تسمى أغرم ان يكامن ...)).[19]

ولعل هذا التباين والإختلاف في مصطلح الحصن و المدينة ، إنما يرتبط بتطور وظائف هذه الحصون ، التي يرجعها أبو عبيد البكري إلى نمط عمراني أخر أرقى وهو المدن. وقد يكون لهذا النمط علاقة بالنمط البربري القديم وأن موقعها البعيد عن خط الليمس الروماني ،جعلها نقطة جذب للقبائل التي سكنتها، لحصانتها وهذه الخاصية تتناسب مع رأي ابن خلدون الذي يقول فيه بأن بني واركلان ((اختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد (أي عصر ابن خلدون القرن الثامن الهجري) على ثماني مراحل من بسكرة بنوها قصورا متقابلة متقاربة الخطة ، ثم استبحر عمرانها فأتلفت و صارت مصراً واحداً)).[20]

ويفهم من منطوق عبارة: ((فأتلفت و صارت مصراً واحداً)) تطور عمران وارجلان بمبانيه و مؤسساته إلى مصر إسلامي بحث ، يجرنا إلى البحث والنظر في مسألة المسميات والمصطلحات التي طالت مفهوم القصر والقصبة في نسيج العمران الصحراوي .

. خاتمة :

يبدو أن انتشار الاسلام في الصحراء ، لم يكن له دور مهم في تمصير الصحراء ، في بداية الامر بدليل أننا لا نجد نصوصا صريحة في هذا الشأن ، وخاصة فيما يتعلق بالبناء و التعمير،لان الهدف الاسمى كان نشر الإسلام بين هذه القبائل أولاً ، أما مسألة التمصير و بناء المدن و القرى وفق خصوصية العمران الاسلامي ، فقد تأخرت بعض الوقت، إلا أن تجارة المسلمين منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ، فقد أسهمت في نشر أنماط حضرية بالصحراء عموما، وبصحراء إفريقية على الخصوص . حيث ظهرت مجموعة من الحواضر التجارية الاسلامية بفعل ازدهار التجارة مثل: فزان وزويلة و ورجلان (كما ذكرمن قبل) وتامكة.

ومع أن الخراب قد أتى على معظم الحواضر التجارية الإسلامية بالصحراء إلا انها خلفت رغم ذلك ، تراثا عمرانيا إسلاميا جدير بالبحث و الدراسة و الاهم من ذلك كله ،فهل خضعت عمارة القصور الصحراوية لشروط وثوابت المدينة الاسلامية ؟ ، و الاجابة العلمية عن هذا السؤال ، تتطلب منا القيام بالأبحاث و الدراسات الميدانية التي تشمل المسوحات و الحفائر الاثرية ، و المقاربات التي أنجزت حولها للوقوف على مظاهر التواصل – ليس هذا مجالها .

أول ما يتبادر إلى الأذهان بعد الاطلاع على هذه التصاميم هو طبيعة البيئة الصحراوية التي وجدت فيها هذه القصور والتي كانت في مجملها بيئة تسودها ظروف سياسية واجتماعية ساهمت في بروز العديد من مظاهر وخصائص هذا النمط من العمران بمنطقة الصحراء عموما ومنطقة توات خصوصا.

وتمتاز التشكيلات المعمارية في القصور التواتية بالبساطة و الممرات المسقوفة التي يتخذها سكان القصور أماكن للجلوس حيث توفر البرودة والانتعاش صيفا الدفء والحرارة شتاء ويتوسط هذا الفضاء المعماري المسجد كأهم بناية في عمارة القصر.

. قائمة المراجع :

1 . ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار و عجائب الاسفار ، تح علي المنتصر – ط.مؤسسة الرسالة ط4 –بيروت 1985 ج2.

2. ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة** .ج 3 (ط لجنة البيان العربي –تح –عبد الواحد وافي) القاهرة 1967.

3. تمليكشت هجيرة : مميزات العمارة السكنية بالقصور الصحراوية بالجزائر ، مساكن قصر تمنطيط أنموذجا ، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب واتحاد الجامعات العربية بمصر ، العدد 15 ، 2014م .

4. عبد الله نور الدين : العمارة التقليدية بإقليم توات . القصر أنموذجا ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الالكتروني ، العدد 15 ، الكويت 2012 .

5. عبد الله حمادي الادريسي : الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وتصديه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني ، ط 01 ، دار ابتكار للنشر والتوزيع ، أولاد جلال ، بسكرة . الجزائر ، 2011م .

6. فرج محمود فرج : إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر أطروحة لنيل دكتوراه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1977.

7. قصر كوسام : مجلة قراطيس ، مجلة ثقافية سنوية عن جمعية الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام ، أدرار ، العدد الأول 2019/ 1440هـ.

8 . كشف اللثام عن خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي : مجلة قراطيس ، مجلة ثقافية سنوية عن جمعية الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام ، أدرار ، العدد الأول 2019/ 1440هـ .

9 . مبروك مقدم : الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ، ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية ، خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد ، دار الغرب للنشر والتوزيع .

10 . مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، (نشر و تعليق .د سعد زغلول عبد الحميد) . طبعة الدار البيضاء . المغرب ، 1985.

---

1. المؤلف المرسل : تسكورث يمينة taskourthyamina@gmail.com

2. فرج محمود فرج : إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر أطروحة لنيل دكتوراه ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1977 ص 01 .

3 – فرج محمود فرج : المرجع السابق ، ص 02 .

4- ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار و عجائب الاسفار ، تح علي المنتصر – ط.مؤسسة الرسالة ط4 –بيروت 1985 ج2 .ص.801 .

5. عبد الله نور الدين : العمارة التقليدية بإقليم توات . القصر أنموذجا ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الالكتروني ، العدد 15 ، الكويت 2012 ، ص 15 .

6. كشف اللثام عن خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي : مجلة قراطيس ، مجلة ثقافية سنوية عن جمعية الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام ، أدرار ، العدد الأول 2019/ 1440هـ ، ص 03 .

7. قصر كوسام: مجلة قراطيس، مجلة ثقافية سنوية عن جمعية الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام، أدرار، العدد الأول 2019/ 1440هـ، ص 05.

* ولد بقرية ملوكة وهي قرية من قرى بلدية تيمي سنة 1250هـ ، أخذ علومه عن والده ومارس التدريس وتولى القضاء بين سنتي 1328 و 1329هـ ، توفي في أواخر 1329هـ

8- الدكانة : هي فضاء أو مكان يكون عادة في مدخل البيوت فهي عبارة عن سقيفة .

9. مبروك مقدم : الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ، ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية ، خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ص 13 .

10. مبروك مقدم : المرجع السابق ، ص 14

11. عبد الله حمادي الادريسي : الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وتصديه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني ، ط 01 ، دار ابتكار للنشر والتوزيع ، أولاد جلال ، بسكرة . الجزائر ، 2011م ، ص 201 .

12. المرجع نفسه ، ص 202 .

13. تمليكشت هجيرة : مميزات العمارة السكنية بالقصور الصحراوية بالجزائر ، مساكن قصر تمنطيط أنموذجا ، مجلة الاتحاد العام للأثريين العرب واتحاد الجامعات العربية بمصر ، العدد 15 ، 2014م ، ص 18 .

14- الكرناف : هو عبارة عن قواعد الجريد المتصلة بالنخلة تقطع ثم تيبس ثم تتخذ في عملية التسقيف ..

15. ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة** .ج 3 (ط لجنة البيان العربي –تح –عبد الواحد وافي) القاهرة 1967.ص 973

16 . المصدر السابق ، ص 973

17 – ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة** .ج 3 ، المصدر السابق ، ص 973.

18 . ابن خلدون (عبد الرحمان) : **كتاب العبر** ...، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 77-78 .

19 . مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، (نشر و تعليق .د سعد زغلول عبد الحميد) . طبعة الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 ص. 224 .

20 . ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق ، ج 7 ص. 69 .

حملة ريغولوس على افريقيا عام 256 ق م .

Régulus campaign on Africa in 256 BC

ريغي مراد

[1] جامعة محمد بوضياف المسيلة.**Mourad.righi@Univ-msila.dz**

تاريخ الاستلام: 24 /2020/12 **تاريخ القبول:**08 /2021/01 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص:

لم تكن إفريقيا وبلاد المغرب القديم عبر التاريخ، بمنأى عن التحرشات ومشاريع الاحتلال الأجنبية، ومن هذا المنطلق جاء هدف هذه الدراسة هو تتبع مرحلة حاسمة من تاريخ الصراع الروماني القرطاجي في إفريقيا، والوقوف على حقيقة الحملة التي شنها القائد الروماني ريغولوس عام 256 ق م، بعد الانتصارات التي حققها الرومان في معركة ميليس عام 260ق م

فتبين من جهة أن هدف روما كان إنهاء الحرب البونية لصالحها بسرعة، وتنفيذ مشروعها التوسعي في إفريقيا، ومن جهة أخرى اتضح أيضا أن مقاومة بلاد المغرب القديم كانت باسلة وقوية، فأفشلت مشروعها في المنطقة، هذا فضلا على أن الحقيقة التاريخية بينت أن ريغولوس ما كان إلا مغامرا فاشلا مقابل الدراسات والآراء التي اعتبرته بطلا أسطوريا.

الكلمات الدالة: قرطاجة.، الرومان.، الحروب البونية.، ريغولوس.، كسانثيب.

Abstract:

Africa throughout history were not immune from harassment, invasions and foreign occupation projects, and from this standpoint the aim of this study was to trace a decisive stage in the history of the Roman-Carthaginian conflict in Africa, and to find out the truth of the campaign launched by the Roman leader Régulus in the year 256 BC .

It became clear that Rome’s goal was to end the Punic War in its favor and quickly, and to implement its expansion project in Africa, and on the other hand it became clear that the resistance of the ancient Maghreb countries was valiant and strong, It thwarted the Rome project in the region .

Keywords: Carthage;TheRomains; Punic Wars;régulus; Xanthippe.

1. مقدمة:

رغبة من روما في إنهاء الحرب البونية الأولى لصالحها ،بعد الانتصارات التي حققتها في ميليس عام 260 ق م وإكنوموس عام 256 ق م ، شنت حملة عسكرية مباغتة على إفريقيا عام 256 ق م بقيادة القنصل ريغولوس، حيث سجّلت أول تحرك للجيش الروماني في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، أين أضحت قرطاجة نفسها تحت التهديد، وبذلك شكلت هذه المرحلة حدثا تاريخيا بارزا في تاريخ الصراع القرطاجي الروماني في الفترة الممتدة بين 264 ق م 241 ق م ، وفي تاريخ صمود قرطاجة وشمال إفريقيا في وجه الغزوات الخارجية بعد الحملة التي شنّها القائد الإغريقي أغاثوكليس على المنطقة عام 310 ق م .

2. توسع الحرب إلى إفريقيا 256 ق م:

أشارت المصادر القديمة إلى أن روما في الحرب البونية الأولى عزمت على ضرب قرطاجة على أراضيها بإفريقيا [(1)] ، وقد ورد هذا الحدث عند المؤرخ الروماني فلوريس Florus (القرن1و 2 م) " **تحت قيادة القنصل ريغولوس(Marcus Régulus Atilius) نقل الرومان الحرب إلى إفريقيا** " [(2)]. ويذكر أيضا زوناراسZonaras (القرن 12 م) [(3)]"**أنّ الرومان كانوا يظنون أن صقلية صارت بين أيديهم، فأرادوا وراء طموحاتهم القيام بمحاولة غزو إفريقيا** ".

وقد عزى بعض المؤرخين هذه الحملة التي قام بها كل من ريغولوس وفيلصو (Vulso) قنصلا عام 256 ق.م إلى ذلك الانتصار الذي حققه الرومان في كل من ميليس عام 260 ق م، ورأس إكنوموس (Cap Ecnomus)عام 256 ق.م ،حيث مهدت الطريق لغزو إفريقيا [(4)]مثلما فعل أغاثوكليس الإغريقي عام 310 ق.م.[(5)]

أما عن المناطق التي شملتها هذه الحملة ، فيؤكد فنتر [(6)](Fantar) على أهمية التحقيق في جغرافية بعض هذه الأحداث التي أفرزت مجموعة من الصعوبات، فمنها ما يحتاج إلى التدقيق لوضعها في سياقها الجغرافي والأثري والسوسيولوجي، لأنه توجد من الروايات من جاءت مبنية على الخيال والأسطورة. وقد أشار مؤرخ الحروب البونية بوليبيوس[(7)]

(Polybe) في الفقرة السادسة والعشرين من كتابه الأول إلى الاستعدادات الرمانية بهدف مواجهة القرطاجيين ، فذكر أنهم جمعوا أربعة فيالق عسكرية قبل الإبحار إلى إفريقيا، وأول منطقة حلوا بها هي رأس هيرمايا (Cap Hermaia) بالقرب من خليج قرطاجة [8]، وعن ذلك يرجح المؤرخ المؤرخ فتر[9] أنّ مجمل النصوص أشارت إليها باسم برومونتوريوم ماركوري (Promuntorium Mercuri)، و تدل على مجموع منطقة رأس الطيب(Cap Bon)، وبعدها واصل الرومان حملتهم وسيطروا على مدينة اسبيس (Aspis)وتركوا فيها حامية عسكرية [10] لما كانت تمثله كمركز متقدم قوي على مستوى منطقة رأس الطيب [11].

وبعد رجوع القنصل الثاني فيلصو إلى إيطاليا ، استعد ريغولوس لمواصلة الحملة بمفرده ، وتأكد القرطاجيون على إثرها أن الرومان عازمون على مباشرة مشروعهم التوسعي في إفريقيا، فطلبوا من عبد ملقرت (Hamilcar)الذي كان في صقلية، الرجوع بسرعة إلى قرطاجة مع جيش مكون من 500 من الفرسان و 5 آلاف من المشاة ،و نصب كقائد ثالث إلى جانب كل من صدربعل(Hasdrubal) وبوستار(Bostar) لمواجهة الحالة الطارئة وحماية الأراضي القرطاجية، ومن ناحية أخرى تمكن ريغولوس من إخضاع باغرادة (Bagrada)[12]، وهو الحدث الذي ركزت عليه بعض المصادر والروايات القديمة عندما ذكرت أن القائد الروماني واجه ثعبانا ضخما في المنطقة [13] .

ويضيف نفس المؤرخ أن ريغولوس واصل طريقه بعد أيام إلى أديس (Adys) المدينة الإستراتيجية [14] والقريبة من قرطاجة، و مرّ على أدين(Adyn) وخيم معسكره عند تونس مثلما قام به أغاثوكليس في نهاية القرن 4 ق م، وسكيبيون (Scipion) خلال الحرب البونية الثانية [15] . وكنتيجة لسيطرة الرومان على تونس ، أضحت مدينة قرطاجة مباشرة تحت التهديد ،[16] الأمر الذي جعل القائد ريغولوس يظن انه أصبح في موقع قوة بعد الانتصارات التي حققها ، وبالتالي راح يملي شروطه القاسية على القرطاجيين الذين أبدوا في البداية عن رغبتهم في السلام[17] تفاديا للحرب وانعكاساتها.وقد أورد هذه الشروط

المؤرخ الروماني ديون كاسيوس (Dion Cassius) (155-235 م) **"بعث القرطاجيون خوفا من سقوط مدينتهم، مستشارا بهدف مغادرة الرومان بشروط معقولة دون إجحاف، وبهدف تجنب الخطر القائم، لكنهم لم يقبلوا بمغادرة كل صقلية وكل سردينيا وتعويض الأسرى الرومان، ودفع مقابل لأسراهم، وتعويض لروما عن خسائر الحرب و دفع غرامة سنوية...".** [18]

ويتضح أنّ القرطاجيين بعد رفضهم شروط الرومان القاسية ، كانوا على ثقة كبيرة بما يمتلكونه من قدرات لصد هجمات ريغولوس وحماية قرطاجة، مثلما فعلوا عام 310 ق.م في مواجهة القائد الإغريقي أغاثوكليس ، ومن ناحية أخرى يبين الرد الذي ورد في نص ديون كاسيوس ،أنّ ريغولوس كان مبالغا في تقدير قوته ، ومستصغرا القوات القرطاجية، ومنه لم يبق لقرطاجة أي خيار غير مواجهة القوات الرومانية الغازية.

3.تحالف قرطاجة مع كسانثيب (Xanthippe) الإسبرطي :

لا غرو أنّ قرطاجة منذ أن شكلت جيشها البري والبحري وهي تراهن على إدراج فرق عسكرية من أجناس مختلفة أو ما عرف بالمرتزقة ، وبالتالي لم تتأخر في الاستعانة بالمجموعات الإغريقية طيلة حروبها ، فبعد رفض ريغولوس فرصة السلام بحث القرطاجيون عن مساندة الإسبرطيين وقائدهم المعروف باسم كسانثيب [19]، والذي تقدم بصفته مستشارا تقنيا ، محاولا تفادي الأخطاء التي ارتكبها قادة الجيش القرطاجي في آخر مواجهة مع الرومان.[20] وفي رواية بوليبيوس[21] أشار إلى أنّ الإسبرطي كسانثيب كان يتمتع بقدرات عالية في الميدان العسكري، فبعد إيفاده بجميع المعلومات حول الهزيمة التي تعرض لها القرطاجيون وعن الظروف التي صاحبتها، أكّد لهم أنهم لم يهزموا من قبل الرومان، بل بسبب عدم كفاءة قادتهم ، وقدم لهم خطته العسكرية ، وطلب منهم إذا كانوا يثقون به فعليهم أن يحافظوا على جيوشهم على أراض منبسطة ، سهلة للحركة والعسكرة وحتىّ للمواجهة. حينها تأكد القادة القرطاجيون من نجاعة ما جاء به كسانثيب ، وقرروا بداية

المواجهة .ويضيف ديون كاسيوس[22] أنّ القائد الإسبرطي انتقد بشدة ما قام به القرطاجيون عند اعتلائهم الجبال.

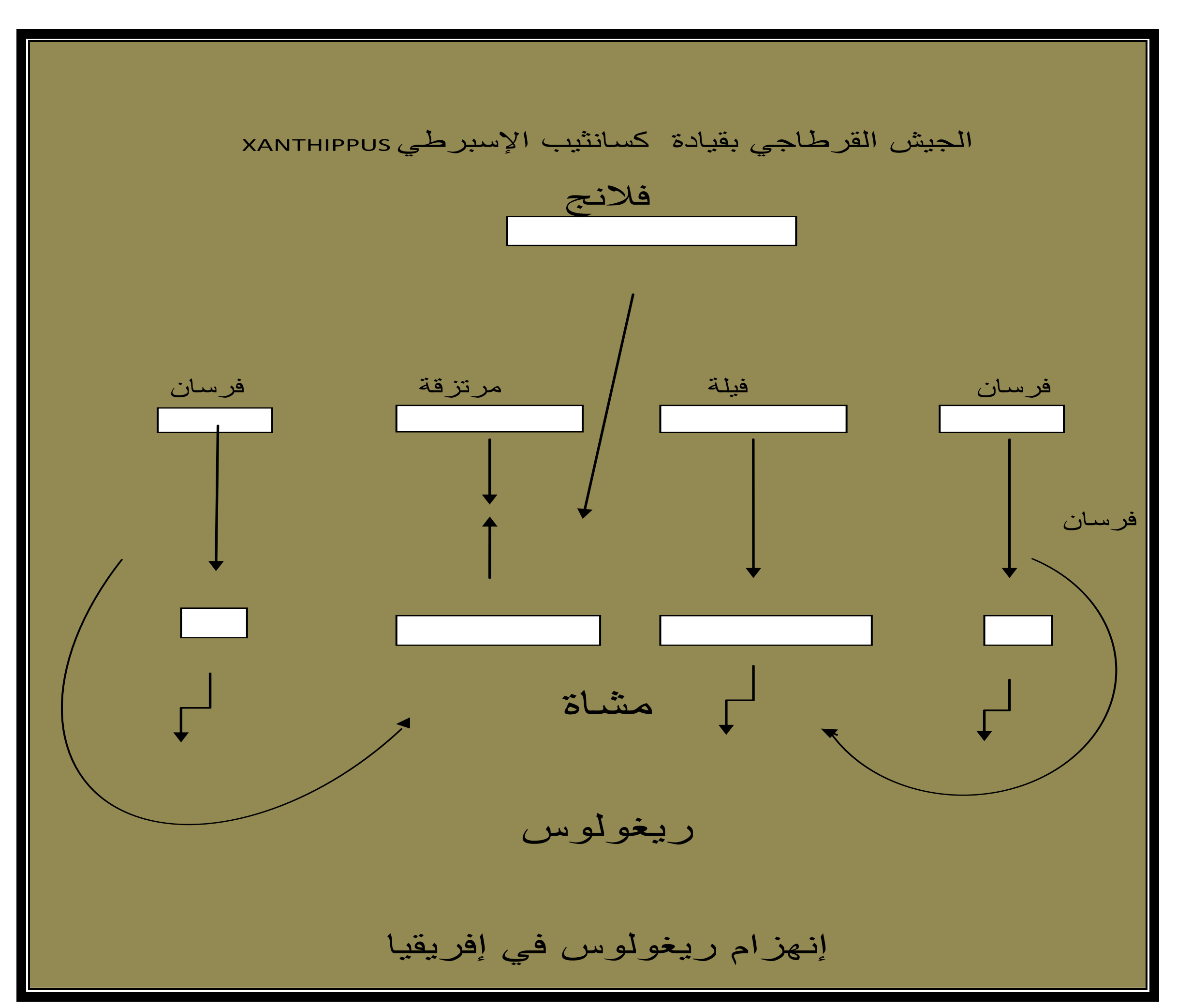
4. انهزام ريغولوس وفشل الحملة :

لم ترد تفاصيل المواجهة في كثير من المصادر القديمة ، فقد اكتفى تيت ليف[23] في حديثه عن المعركة العسكرية بقدوم كسانثيب الإسبرطي وتفوقه على قوات ريغولوس «...**هزم (ريغولوس) وألقي عليه القبض من قبل كسانثيب أحد القادة الإسبرطيين...**».أما فلوريس [24] فيشير فقط إلى أن قرطاجة بعثت قائدا عسكريا يدعى كسانثيب ، وكان وراء انهزام ريغولوس،.بالمقابل جاء المؤرخ بوليبيوس [25]مفصلا للمعركة الحاسمة والاستعدادات القرطاجية والرومانية ،فبعد ان تقدم القرطاجيون إلى السهول عسكروا في أرض سهلية ، متبعين أوامر القائد كسانثيب(Xanthippe) ،ثم أخرجوا الفيلة ووضعوها مقابلة للرومان على صف واحد بطريقة يحمون كل الجيش، و خلفهم بمسافة كان الفلانج القرطاجي (Phalange)، ومن الجهة اليمنى يتواجد قسم من المرتزقة، أما عن الخيالة فالأسرع منهم وضع في مقدمة الجناحين .

ومن جهته حاول ريغولوس مواجهة هذه الخطة والتصدي لخطر الفيلة، بوضع جبهة على الخط الأمامي، تسمح لها باختراقها ، ليتم بعدها الالتفاف حولها، لكن وبسبب قلة العناصر الرومانية والتفوق العددي للخيالة القرطاجية فشلت مهمته ، وتمّ دهس أغلب أفراد جيشه بالفيلة ، والآخرون سقطوا في نفس المكان بعد رميهم بالأسهم، ولم يمنع البقية الفارون من الهلاك بسبب وجودهم على منطقة سهلية . وقد ترتب على هذه المعركة أسر القائد الروماني ريغولوس مع حوالي 500 من أفراد جيشه ، أما عن خسائر القرطاجيين فقد قاربت 800 من المرتزقة.

ويكتفي هنا المؤرخ – بوليبيوس – عند أسر ريغولوس من دون الإشارة إلى المحنة التي أشارت إليها بعض المصادر الأخرى ، والتي جعلت منها مطية للتشهير ببطولته ، وواصل حديثه في الفقرة 36 من كتابه الأول عن محاولة رومانية عام 255 ق م ، لاسترجاع ما

بقي من جند في إفريقيا، حيث جهّزوا لذلك الغرض حوالي 340 سفينة . وعندما سمع القرطاجيون باستعدادات الرومان وعن وجهتهم نحو إفريقيا مرة ثانية، أصلحوا سفنهم ووضعوا 200 سفينة أخرى تحت الخدمة، وانطلقت الجيوش الرومانية نحو إفريقيا عبر صقلية وتمّت المواجهة في رأس هرمايا (Cap Hermaia)، أين تمكن الرومان من السيطرة على 114 سفينة قرطاجية بطواقمها، ومكنهم ذلك منّ نقل كل ما بقي من الجيش الروماني من مدينة اسبيس في إفريقيا نحو صقلية (26).



المصدر: Hoyos Dexter,Mastering the west,Rome and Carthage at War,Oxford University press,2015,pXX.

5. هل كان ريغولوس بطلا رومانيا أو مجرد قائد حملة فاشلة في إفريقيا ؟

يلفت الانتباه ما ورد في مقال المؤرخ يان لوبوهاك (Yann Le Bohec)، [27]، عندما أكّد على وجوب إنصاف التاريخ ريغولوس، والاعتراف بشهرة هذا القنصل وما أحرزه من تقدير عند الرومان، ففي حديثه قال «... **الذي يقلق الكثير من المعلقين والموثقين صمت بوليبيوس... المؤرخون يعلمون جيدا ماذا يعني الصمت... من جهة أخرى البحث في المصادر بيّن أن المؤرخ الإغريقي قد استند إلى مؤرخ مجهول ضائع، والأقرب إلى القرطاجيين وهو فيلينوس Philinus**... »، ويضيف أن أمر تعرض هذا القائد للتعذيب من قبل القرطاجيين غير قابل للشك بسبب أنه القي القبض عليه وأسر وأصبح عبدا ، ونعلم أنّ الأسرى والعبيد كانوا دائما عرضة للمعاملات القاسية.

ويتضح أن هذا الباحث قد استند إلى تلك الروايات التي جاءت بها المصادر القديمة والتي لم تتأخر في تشريف هذا القائد الروماني ، وعلى التنويه بأهمية العملية العسكرية التي قام بها في إفريقيا ، ومنها ما جاء به شيشرون (Cicéron)[28] في القرن 1 ق م الذي جعل من ريغولوس مثال المحارب الروماني الناجح ، ففي تناوله تاريخ البطل الإغريقي إليس(Ulysse) ومغامراته أشار الى ريغولوس وتضحياته في سبيل وطنه روما. وكان شيشيرون من المهتمين بمسيرته وهو في منفاه، وجعل منه مرجعه الأساسي، فهو الذي غادر روما إلى مقتله، وشيشيرون نفسه رأى بأنه كان لا مبالي بسلامته حين عودته من المنفى .وقد وصفه بأنه رجل سعيد ذو شخصية وطنية كان هدفه هو حماية مصالح الرومان، جاعلا على جانبه مصالحه الشخصية، فقد رجع طواعية إلى قرطاجة تبعا لوعوده التي قدّمها للعدو [قرطاجة]،فحافظ على شرفه واسمه حسب إشارة شيشيرون، فتعرضه للموت ليس عقابا بل سمة من سمات القوة والعظمة[29].

أما ديون كاسيوس[30] في روايته فقد ذكر أنّ القرطاجيين بعد وضعهم ريغولوس في الأسر بعثوا به إلى روما مع ممثليهم، أملا في الحصول على شروط مقبولة في المفاوضات، منها توقيف الحرب وتبادل الأسرى ، لكن عند وصوله إلى مسقط رأسه طلب من الرومان رفض

التفاوض مع الأعداء، وفضّل الرجوع كأسير إلى قرطاجة أين أنهى حياته. ولم يتأخر المؤرخ فلوريس[31] عن الترويج لبطولته فقال «... **أنّ رجوعه إلى قرطاجة مع أعدائه ومن دون خوف ، كل ذلك لم ينقص من شهرة هذا الرجل العظيم**...».و في السياق نفسه أشار المؤرخ الروماني ليكيوس أمبيليوس[32](Lucuis Ampelius) في حديثه عن الرومان الذين ساهموا في الدفاع عن الوطن، إلى دور القائد الروماني ريغولوس حين فضّل تحمل الألم والمصيبة ، بدل إبرام سلام مع القرطاجيين بدون فائدة، ويضيف ايتاليكوس(القرن 1 و2م) [33] صاحب كتاب بنيكا (Punica) ممتدحا ريغولوس من خلال الكلمات التي رددها أمام مجلس الشيوخ والتي لم يكن ينتظرها القرطاجيون " **سأعود إلى قرطاجة وبدون قيود ، سأبقى محافظا على الالتزام بالعودة ...توقفوا عن منحنا شرفا من شأنه أن يفقد الدولة**..."، ويشير ايضا تارتيليان أن ريغولوس تحمل محنة الصلب وكان بطل منتصر حتى وهو في الأسر [34].

لكن تفنيدا لهذه الآراء التي تشيد ببطولة القائد الروماني وتأكيدا على عد م صحتها نستدل بما جاء به الباحث فلورغي(Fleury)[35] في ترجمته لكتاب شيشيرون أنّ بوليبيوس اختار الصمت عوض مخالفة روايات عزيزة بالنسبة للرومان، وعن معاملة القرطاجيين لريغولوس يتساءل الباحث حول غياب مظاهر العنف عند القرطاجيين عند أسرهم للقائد الروماني سيبيون أسينا(Scipio Asina) عام 260 ق م، فأكثر من ذلك تمّ إطلاق سراحه، ومنه قد تكون هذه العملية عند الرومان مبتكرة مسبقا وهي نتيجة للثقافة الرومانية التي تعتبر الثقة والوفاء من صفة الرومان والوحشية والعنف من سمات الفرد القرطاجي[36].واشار لازمبي [37] (Lazenby)إلى أنّ الأسطورة تمّ ابتكارها من قبل الرمان لتبرئة أرملة ريغولوس من تهمة تعذيب أسرى قرطاجيين حتى الموت، وعزز الفكرة نفسها المؤرخ سكولار(Scullard) عندما رأى أنها مجرد أسطورة بهدف تغطية معاملة الرومان لأسراهم، ولانسل[38] (Lancel) رجح فكرة أنّ ريغولوس قد قضى بقية حياته في السجون

القرطاجية دون الإشارة إلى بطولاته، في المقابل غولدسورثي(Goldsworthy)[39] يرفض كل الروايات مادام بوليبيوس المؤرخ الإغريقي لم يتحدث عنها في كتاباته.

وبينما يشير لوبوهاك الى صمت بوليبيوس، نجد هذا الأخير قد أبدى رأيه بصراحة في شخصية ريغولوس وفشله في إفريقيا [40]، ففي الفقرة 35 من كتابه الأول جاء كاشفا للأخطاء التي أرتكبها هذا القائد «... **للذي يريد أن يفكر جيدا يرى أنّ هذه الأحداث مليئة وثرية بمعلومات خالصة ، للكشف عن الأخطاء الإنسانية. نقول أنه لا يجب أن نغترّ بقوانا خاصة في لحظات الانتصار، وهذا ما بدا جليا للأنظار من خلال أحلام ريغولوس ، هذا الرجل الذي رفض كل سلام وكل فرصة للمهزوم، وجد بسرعة في وضعية أسير يتوسل لهؤلاء الناس للحفاظ على حياته...**»، وذلك ما أشار إليه بعض المؤرخين فتيبس (Tipps) يرى أنّ ريغولوس بعد رجوع زميله القنصل إلى إيطاليا، كان يقع في الخطأ تلو الآخر، فبإفشاله المحادثات بين القرطاجيين والرومان، أكّد على رغبته في بقاء الحرب قائمة، ذلك لأنه كان واثقا في قدرته على الانتصار، وهذا الخطأ الكبير الإستراتيجي الذي اقترفه، فتح المجال لعدد كبير من الأخطاء التكتيكية التي تسببت جميعها في هزيمته[41].

ومقابل ذلك يشير ترنكييه (Trinquier)[42] إلى أنّ فكرة سقوط قرطاجة حدث استغله الرومان لتبرير عملية الإبادة الكلية أمام الرأي العام الإغريقي، جاعلين من ريغولوس قائدا واجه ظروفا صعبة كأسير في المعسكرات البونية . وربما تكذيب هذا الرأي فسّره بوليبيوس في صمته عن الحدث، و عن قصة الثعبان الذي واجهه ريغولوس فكان الهدف منها هو إبراز هذا القائد كبطل له مبادئ إنسانية بقضائه على الوحوش المهددة للحياة على الأرض، وقد يكون هذا المزج بين الأسطورة والتاريخ قد ظهر من خلال تأثير الفكر الأسطوري الإغريقي .

6. خاتمة:

اتضح في الأخير أن حملة الرومان عام 256 ق م ، لم تحقق أهدافها في إفريقيا وبلاد المغرب القديم ، وهو دليل على صمود المنطقة في وجه مختلف التحرشات عبر الأزمنة، ومن

ناحية أخرى لاحظنا أن معظم الروايات وما تلاها من دراسات حديثة قد تعمدت إبراز ريغولوس قائد هذه الحملة بطلا رومانيا، مقابل الحقيقة التاريخية التي أكدت فشله الذر يع في إفريقيا ، كما فندت أيضا كل ما ورد عنه من ادعاءات، ومنه يبدو واضحا أنّ معظم المصادر اللاتينية التي تحدثت عن تاريخ الرومان وعلاقاتهم مع القرطاجيين، لن تحيد عن دورها في الترويج بالحضارة الرومانية، والتقليل من شأن الشعوب الأخرى، فمن الطبيعي إذن أن تكون حملة ريغولوس على إفريقيا عام 256 ق م نموذجا لهذه الكتابات .

الهوامش:

(1) Lancel serge,Carthage , Fayard ,1992, p385.

في إشارة إلى حملات الغزو المتتالية على قرطاجة يرى هورغون Heurgon " اغاثوكليس .ريغولوس .سيبيو ن الافريقي ثلاثة قادة تتابعوا بفرق نصف قرن .جاءوا في ظروف متشابهة وقاموا بنفس المغامرة .حيث فشلت حملتان ونجحت واحدة". أنظر :

Heurgon, Recherches Sur l'histoire,La Religion et la Civilisation de Capoue préromaine Des Origine A la deuxiéme Guerre Punique , Boggar , Paris, 1942,p294.

(2) Florus, Histoire Romaine,Trad: M.CH.du Rozoir,Paris ,A.Belin ,Imprimeur Libraire. 1829, II.2.

(3) ZONAR , Roman History,Trad:Earnest cary, William Heinemann ,London,1914 ,VIII, 12

(4) Moscati Sabatino,,Lempire de Carthage, Paris,Méditerranée, 1966, p69.

(5) Diodore de Sicile,Trad :M.Ferd.Hoefer,Tome 4 Paris, Charpentier ,Libraire,éditeur,1846,XX, 6.

(6) Fantar, « Régulus En Afrique », Studia Phoenecia.X Punic Wars, Leuven, Peeters, Belgique, 1989,pp75-85.

(7) Polybe, Histoire, Trad: Dennis Roussell.Gallimar. 1970. I. 26.

(8) Polybe, I, 29

(9) Fantar,Op Cit, p76.

(10) Polybe, I. 29.

(11) Fantar, Op Cit,p78.

(12) Polybe, I. 29.

عن باغرادة (Bagrada) هو نهر أساسي في إفريقيا البونية طوله 365 كلم ، وهو باغراداس أو وادي مجردة منابعه من نوميديا من مدينة خميسة (Thubur sicu numidarm) في الجبال التي هي مصدر وادي السيبوس (Seybouse)، ظهر باسماء متعددة عند المؤرخين القدامى ، وكانت أول إشارة حول مجردة في حملة ريغولوس على إفريقيا عام 256 ق م، وما تعلق بأسطورة الثعبان الذي واجهه للمزيد أنظر:

Gascou,(J), « Bagrada », *in 9 Baal – Ben Yasla*, Aix-en-Provence, Edisud « Volumes », N°9, 1991, p1312.

(13) Fantar, Op Cit, p76.

هذه المنطقة ترتبط بأسطورة مفادها أن ريغولوس واجه ثعبانا ضخما بطول 120 قدم ، واستطاع القضاء عليه .Zonar,8,13. ويذكر فلوريس Florus «... لكن الرومان لم يواجهوا فقط البشر بل أيضا الوحوش، ثعبانا بحجم كبير، يبدو أنه جعل لحماية إفريقيا، فقد هدد معسكر الرومان في باغرادة Bagradas، ولكن ريغولوس هزمه... » Florus, II,2.

(14) Polybe, I, 30.

(15) Fantar, Op Cit,pp 82-84.

(16) Polybe, I, 30.

(17) Polybe, I, 31.

(18) Dion Cassius,Histoire Romaine,Trad :E.Gros,Librairie de Firmin didot Fréres ,1845, CL.

تحدث كاسيوس في هذه الفقرة عن رغبة القرطاجيين في السلام مقابل شروط ريغولوس القاسية.

(19) Eutrope,trad:john Selby Watson,wiliam ,clowes,London, II, 21, 4.

(20) Lancel, Op Cit, pp385-386.DION CASSIUS,. CLI

(21) Polybe, I, 32.

(22) Dion Cassius, CLI.

(23) TITE LIVE, Per, 18, 1.

(24) Florus, II, 2.

(25) Polybe, I, 33.

(26) Polybe, I, 33- 34.

يلاحظ أن ما جاء به Zanar حول المعركة يخلو من الأرقام التي أكدت عليها بعض المصادر الأخرى مثل بوليب في كتابه الأول..Zonar. 8. 14. وتبقى الاعتقادات قائمة عند المؤرخ تارن (Tarn)

حول الأرقام التي قدمها بوليب في هذه المعركة بخصوص السفن القرطاجية والرومانية، فهو يؤكد على سبيل المثال أنّ القرطاجيين ليس بإمكانهم توفير 200 من السفن في فترة زمنية قصيرة. انظر:

Tarn, « The Fleet of The first Punic war»,The Journal Of Hellenic studies, Vol,XXVII, 190 , pp 50- 54.

(27) Le bohec Yann, « L'honneur de Régulus »,Antiquités Africaine,Vol 33,N°1, 1997,89.

بعض المؤرخين أكد أنّ صمت بولييب ليس دليلا قاطعا على رفض الرواية ، فقد جعل من قضية ريغولوس في مرتبة ثانوية تبعا لمصدره الموالي للقرطاجيين الذي لم يكن مهتما بالأمور الخاصة بالرومان.انظر:

Giuseppe Minunno, «Remarques sur le supplies de M .Atilius Régulus», Les Etudes Classiques 73,2005,pp218-219.

(28) Cicéron,Ouvres Complétes de Cicéron ,publier sous la derection de M.Nisard .Tome 4 ,Traite des Devoirs,Paris ,1846,XXVI.

(29) Erving R. Mix, «Cicero And Regulus»,The Classical World Vol. 58, NO. 6 (FEB., 1965), PP. 156-159 .

(30) Dion Cassius, CLIII.CLIV.

(31) Florus, II, 11.

(32) Lucuis Ampelius, Le mémorial, Trad :Victor verger,Paris Panckouke ,Editeur,1842 ,XX.

(33)Silius Italicus,Les puniques Livre 6,Trad:Dubois ,Tome 2, ,panckouke, Paris ,1838,p 47.

(34) Tertullien, Apologétique, Traduction Littérale **:**J-P waltzing, Paris,Librairie Bloud et Gay, 1914, chapitre : L,6.

(35) Fleury,Oeuvres Completes de Cicéron , Sous La direction de M .Nisard , 1833,p153.

(36) Giuseppe Minunno,Op Cit,p232.

(37) Lazenby, The First Punic War:A Military History,California Standford U niversity Press,1996, p 106.

أنظر: Scullard, « Carthage and Rome », The Cambridge Ancient History ,Vol VII,The Rice of Rome to 220 B.C,Cambridge University press, 1989, p556.

(38) Lancel,Op Cit, p387.

(39) Goldsworthy,The fall of Carthage ,The punic Wars,265-146,Cassell,2003, p91.

«برزت روايات رومانسية دارت حول ريغولوس، مفادها أنّ القرطاجيين بعدما بعثوا به إلى روما بغرض التفاوض، أمر الرومان بوضع شروطهم، وبعد فشل مرحلة التفاوض رفض ريغولوس البقاء في روما، مع علمه أنه بعودته إلى قرطاجة سوف يواجه الموت.وذكرت بعض المصادر أنه تعرض لفقع عينيه ومات تحت دهس أرجل الفيلة. وهناك رواية أخرى جاء فيها أن زوجته تعاملت مع أسيرين قرطاجيين ،وانتقاما لزوجها عاملتهما بقسوة حتى موت أحدهما، بعض العلماء رأوا أن قصة ريغولوس قد ابتكرت لتغطية وحشية عائلته،لكن من المحتمل ردكل الروايات خاصة عندما لم يشار إلى هذه الأحداث عند المؤرخ بوليبيوس...».

(40) Polybe, I, 35.

(41) Tipps(G. K), « The Defeat of Regulus » *the classical world*,Vol 96. N. 4, 2003 pp 377- 380.

(42) Trinquier « La fabrique du Serpent draco :Quelques Serpents Mythiques chey Les poétes latins»,Pallas Revues détudes Antique,presse Universitaire de Meruit Vol 78,2008,pp 221-256.

الأرض والزراعة في قرطاج خلال الفترة الأرستقراطية (480-237 ق.م)

Land and agriculture in Carthage during the aristocratic period (480-237 BC)

ط.د. محمد العيد تلي

[1]جامعة الوادي ، telli-m-laid@univ-eloued.dz

أ.د. محمد رشدي جراية

[2] جامعة الوادي، Med.rouchdi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 08 /2021/02 **تاريخ القبول**: 07 /2021/03 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

اعتنى القرطاجيون بالأرض والزراعة منذ هزيمتهم في واقعة هيميرا (480 ق.م) أمام إغريق صقلية، حيث وصلت خلال هذه الفترة لسدة الحكم الطبقة الأرستقراطية ،"وهي عبارة عن طبقة من ملاك الأرض عرفوا بالأرستقراطيين"، فلم يكن أمامهم في ظل ظروف هذه الهزيمة، وما نجم عنها من تدهور في الاقتصاد القرطاجي، لاسيما في مجال التجارة سوى التحول نحو الاهتمام بالأرض والزراعة كبديل جديد في اقتصادهم.

ونحاول من خلال هذه الورقة البحثية، تسليط الضوء على النهضة الزراعية التي عرفتها قرطاج خلال الفترة الأرستقراطية، واستحواذهم على الكثير من الأراضي الزراعية وملكيتها، وزيادة العناية بمنتوجاتهم والثروة الحيوانية، والتوقف عند آية من الآيات التي تثبت اهتمام القرطاجيين بالزراعة خلال الفترة محل الدراسة، والمتمثلة في موسوعة صنفها عالم قرطاجي يدعى ماغون، والهدف من هذا العمل الوصول إلى نتيجة مفادها أن الأرض والزراعة كانتا ذات بعد استراتيجي في سياسة قرطاج الاقتصادية.

الكلمات الدالة: قرطاج، الأرض، الزراعة، الأرستقراطية، ماغون.

Abstract:

The Carthaginians took care of the land and agriculture since their defeat in the event of Himera (480 BC) in front of the Greeks of Sicily, where during this period the aristocracy came to rule, "which is a class of landowners known as aristocrats", so they were not before them under the circumstances of this defeat, The resulting deterioration in the

Carthaginian economy, especially in the field of trade, was a shift towards interest in land and agriculture as a new alternative in their economy.

Through this research paper, we try to shed light on the agricultural renaissance that Carthage knew during the aristocratic period, their acquisition and ownership of a lot of agricultural lands, increased care for their products and livestock, and a stop at one of the verses that prove the Carthaginians ’interest in agriculture during the period under study, which is represented in An encyclopedia compiled by a Carthaginian scholar named Magon, and the aim of this work is to reach a conclusion that land and agriculture had a strategic dimension in Carthage's economic policy.

Keywords: Carthage; land; agriculture; aristocracy; Magon**.**

1. مقدمة:

تتفق أغلب الدراسة بأن الأرض والزراعة في قرطاج شهدتا اهتماما كبيرا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، على إثر هزيمة القرطاجيين في واقعة هيميرا (480 ق.م)، حيث اضطرت قرطاج إلى تغيير سياستها في الحوض الغربي للمتوسط، إذ عملت على اختزال تعاطيها في التعامل مع المجال البحري، لاسيما وأن التجار الإغريق في كل من صقلية وقورينة أصبحوا بمثابة الحاجز الذي يعيقهم، مما استلزم على قرطاج في ظل هذه الوضعية، أن تعيد النظر في جميع سبل حياتها، وأن لا تعتمد على التجارة وحدها، بل لابد أن تعطي للأرض والزراعة مكانتهما اللازمة، فامتد سلطانها على الأراضي اللوبية، ووصل إلى أغلب الأماكن الخصبة التي تدور في فلكها، كما اقتطع أعيان قرطاج مساحات شاسعة لأنفسهم، حشدوا فيها الرقيق والسكان عمالا مستأجرين، وأدخلوا على زراعتهم الوسائل المتطورة لتحسين الإنتاج، وتحقيق أكبر قدر من الأرباح ربما لتعويض ما فقدوه في معركة هيميرا، أو لخلق البعد الاستراتيجي استعدادا لمواجهة القوى المتنامية في البحر المتوسط.

ونهدف من خلال مقالنا هذا للإلمام بالتفاصيل الدقيقة لواقع الأرض والزراعة في قرطاج خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وتبيين الأسباب التي جعلتهم ينحون هذا

المنحى، معتمدين في تحرير عملنا على المنهج التاريخي والوصفي، وكذلك التحليلي في بعض مواقع الموضوع، الذي جاءت إشكاليته كالتالي ما هي الدلائل التي تثبت اهتمام القرطاجين بالأرض والزراعة خلال الفترة الأرستقراطية؟ وكيف يمكننا تصوير المشهد الزراعي القرطاجي من خلال الوثائق والشواهد الأثرية خلال الحقبة المدروسة؟

2. النشاط الزراعي:

2.2. النهضة الزراعية:

تعد الزراعة من أهم وأقدم الأنشطة الاقتصادية في العالم القديم على الإطلاق، حيث كانت بمثابة أساس ودعامة للأنشطة الاقتصادية الأخرى، مثل الصناعة والتجارة، ومع ذلك لم يكن هناك اهتمام كبير بالزراعة في قرطاج في البداية، حيث كانوا يعتمدون على التجارة في المقام الأول، وظل الوضع هكذا حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، فمنذ ذلك التاريخ[(1)]، أخذت الزراعة القرطاجية تشهد انتعاشا كبيرا، حيث توجه القرطاجيون بعد كارثة هيميرا إلى سواحل بلاد المغرب القديم فتجاوزت الأراضي الزراعية منطقة رأس بون[(2)] لتشمل كامل شمال تونس[(3)]، يضاف إلى ذلك أراضي المستعمرات القرطاجية المنتشرة هنا وهناك، أما الأراضي الأقل خصوبة فقد استغلت للرعي[(4)]، وكانت الطبقة الثرية بقرطاج تمتلك ضياعا واسعة استخدمت العبيد في فلاحة أراضيها وجني محاصيلها[(5)].

ولقد تطورت المنطقة الزراعية من مجرد ظهير محدود حول المدينة إلى مجال زراعي شاسع وكان يشمل مناطق ملكيات القرطاجيين المباشرة، مثل الوطن القبلي "كركوان" وسهول منخفض وادي مليان، ومجردة الأسفل، وهو المجال الممول لقرطاج، والذي ذكرته المصادر الإغريقية بصيغة (Chôra)[(6)]، وكانت هذه المنطقة كثيرة التلال ذات تربة صلصالية جيدة الري، وفي الأصل كانت مغطاة تقريبا بأشجار كثيفة من الزيتون البري وأشجار الصمغ[(7)]، ويبدو أن القرطاجيين قد استغلوا الأراضي التي استحوذوا عليها أحسن استغلال فعندما نزل أجاثوكليس بالوطن القبلي في عام (310 ق.م) بقصد غزو قرطاج[(8)]، وقف مذهولا هو وجنوده أمام ما شهدوه أثناء تنقله بين البلدات

القرطاجية، فقد شاهد الدروب الجميلة التي كانت جزءا من نطاق قرطاج على كلا الجانبين لاحظوا مروجا كبيرة، تروى بجداول جميلة ومغطاة بقطعان لا حصر لها من جميع أنواع الماشية الغنم والبقر والماعز، وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر على مد البصر، لمسافات بعيدة ناصعة البياض، توحي بثروة ساكنيها، وأراضي ممتعة مزروعة بالزيتون وجميع أنواع أشجار الفاكهة، حدائق واسعة النطاق، ومحافظ عليها برعاية وأناقة تبهج العين[9].

وهي نفس المشاهد تقريبا التي سجلها القائد الروماني ريغولوس عندما نزل بنفس المنطقة واستولى على قليبية سنة (256 ق.م) "أثناء الحرب البونية الأولى"، فقد كتب بوليب بأن السكان المحليين قاموا بنهب المجال الزراعي إثر حملة القنصل ريغولوس، وتقدم هذا الأخير رفقة جنوده على عجل وبكل قوتهم، وشرعوا في نهب البلاد بما أن أحدا لم يحاول منعهم، حيث دمروا عددا من المنازل السكنية الجميلة والمفروشة بترف، وتمكن الجيش الروماني في وقت وجيز من تجميع عدد كبير من المواشي، واستولوا على أكثر من عشرين ألف عبد[10]،وتم تدمير مدينة كركوان عن آخرها[11].

ولم يقصد هذان الرجلان وصف المشهد الزراعي نفسه، بل كان حديثهم على هامش الأحداث العسكرية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ومنتصف القرن الثالث قبل الميلاد[12] كما أشار سترابون إلى مزارع الخيول التي كان يمتلكها أعيان قرطاج[13].

كل المصادر تتفق من خلال وصفها للمجال الزراعي القرطاجي على أهمية التجربة الزراعية القرطاجية، وقد احتفظت لنا المصادر الإغريقية واللاتينية بعناصر المعرفة الزراعية للقرطاجيين من خلال كتاب الزراعة لماغون، والذي يعد أكبر دليل على نهضة وتقدم الزراعة القرطاجية والاهتمام بها –خلال الحقبة الأرستقراطية–[14].

2.3. ماغون وموسوعة الزراعة:

لقد حاولت العديد من الدراسات الحديثة البحث عن هوية ماغون ولكن دون الوصول إلى نتائج واضحة ومرضية، فلا نعرف شيئا عن عائلته ولا عن مسقط رأسه وهل ولد في قرطاج أم في مدينة بونية أخرى؟ لا ندري ولا يمكن تحديد تاريخ ميلاده ووفاته، ولكن

أهل الاختصاص في تاريخ قرطاج وعلى رأسهم فنطر يرجح أنه عاش ما بين القرنيين الرابع والثالث قبل الميلاد أي أنه عايش –المرحلة الأرستقراطية–[15].

كانت الموسوعة في دار الكتب بقرطاج ولعل نسخا منها كانت لدى الخواص لاسيما لدى الذين كانوا يتعاطون الفلاحة، على أنها لم تكن من صنف الكتب التي يحتفظ بها على رفوف المكتبات بل كانت مرجعا يعود إليه صاحب المزرعة فتلصق بعض فصولها في غرف رؤساء العمل والعرفاء مهما اختلفت اختصاصاتهم[16].

لما كانت الحرب البونية الثالثة وسقطت قرطاج، وأمر سكيبيو بنهبها وحرقها أهديت الكتب القرطاجية إلى الملوك النوميديين وأمرائهم باستثناء موسوعة ماغون التي استأثر بها الرومان، وأمر مجلس الشيوخ بترجمتها إلى اللغة اللاتينية، فتولى ديقيموس سيلانوس، وهو من عائلة رومانية عريقة في المجد ترجمتها، وترجمت بعدها إلى الإغريقية في بداية القرن الأول قبل الميلاد، وكان المترجم كاسيوس ديونيسيوس[17]، وأهدى عمله إلى والي أفريقية سكستلوس سنة (88 ق.م)، إلا أن كاسيوس ديونيسيوس لم يترجم الموسوعة كاملة، بل لخصها وأضاف لها فقرات أخذها من كتب إغريقية أخرى فجاء عمله في عشرين جزء[18].

وليس غريبا أن تندثر النسخة البونية الأصيلة، ولكن العجيب حقا ألا توجد أية بقايا من الترجمة اللاتينية والإغريقية، بحيث لم يصلنا منهما إلا استشارات زراعية قليلة تشمل أحوال الزراعة والغراسة وإدارة الأملاك، وذلك بشكل متفرق على يد جملة من المؤرخين اللاتين[19]ومن أهمهم كولمال [20]، وزميله فارو[21]، اللذان أفردا لماغون مكانة خاصة، حيث أطلق عليه الأول أبو الزراعة "العلوم الريفية"، أما الثاني فقد ورد في رسالته الزراعية ثبتا بأسماء ما يزيد عن خمسين مؤلفا إغريقيا في مجال العلوم الزراعية، ختمه بقوله: "أن شهرة ماغون تفوق كل من ذكرهم، وأنه تناول في مؤلفاته موضوعات تزيد عما تناوله هؤلاء مستقلين" [22]، كما نجد فرجيل الذي كان يتغنى في أناشيده بالريف والتصورات الزراعية التي أخذها عن الترجمة الإغريقية، ومع ذلك تبقى هذه الشهادات ملفوفة بالغموض

لصعوبة تمييز ما يعود إلى موسوعة ماغون عن ما أضيف إليه من كتابات الإغريق واللاتين [23].

والجدير بالذكر أن ماغون، لم يكن العالم الزراعي الوحيد الموجود في قرطاج، حيث يرد ذكر عالم زراعي آخر يدعى هملكار، ألف هو الآخر كتابا في الزراعة، ولكن ليس لدينا أية معلومات عنه ولا عن شخصيته أو حتى مؤلفه هذا، سوى الإشارة إليه في المصادر الكلاسيكية ومهما يكن من أمر، يمكن اعتبار كتاب ماغون أهم خلاصة لعلم الزراعة من بين المؤلفات القرطاجية الأخرى[24].

وعلى أي حال تذهب غالبية الدراسات إلى أن موسوعة ماغون تتكون من ثمانية وعشرين كتابا ضاعت معظمها، ولم يتبق منه سوى فقرات قليلة تقدر بحوالي أربعين إلى ستين فقرة[25] تتعلق كلها بالاقتصاد الريفي من حيث الأشجار وغراستها، والحيوانات وتربيتها والأرض وصلاحياتها للزراعة، والأسمدة وتنوعها، والأجواء المناخية وتقلباتها[26]، ولم تكن معلومات هذه الموسوعة العلمية نظرية مجردة، بل كانت مستمدة من تجارب ميدانية في زراعة الخضر بأنواعها وزراعة الأشجار بأصنافها، لاسيما الزيتون والتين واللوز والرمان والكروم، وفي تربية البغال والأبقار والأغنام والماعز والدواجن والنحل بعسله وشمعه الذي اشتهرت به قرطاج البونية[27]، وقد عرف عليه أنه عندما كان يجري تجاربه الزراعية كان يأخذ قدرا من التربة ويرجه بالماء الحار ثم يتذوق الماء ويشم رائحته ليعرف خصائص التربة وما الأصلح لها زرعا[28].

ولم يكتف ماغون بإسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية، بل قدم ضبطا دقيقا لقواعد إدارة الأملاك الريفية [29]، وقال قولته المشهورة: "من يشتري أرضا زراعية عليه أن يبيع بيته بالمدينة، حتى ينزع من نفسه الرغبة في عبادة آلهة بيته الذي في المدينة، فليعبد آلهة الريف"، وقال أيضا: "المرء الذي يجد متعة أكبر في بيته في المدينة ليس بحاجة لامتلاك أرض في الريف [30]".

وفي الجملة يبدو أن اهتمام القرطاجيين بالزراعة كان مع وصول الأسر الأرستقراطية للحكم، حتى إن الكثير من الدراسات اعتبرتها أنها كانت ذات بعد استراتيجي في سياستهم الاقتصادية[31].

4. المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية:

1.4. المحاصيل الزراعية:

تعد المنتوجات الزراعية في قرطاج كثيرة ومتنوعة، كما ورد في الشذرات المتبقية من كتاب ماغون، وأول هذه المحاصيل على الإطلاق هي الغلال، التي كانت تمثل الغذاء الرئيسي للسكان[32] وتوضع هذه الغلال المستخلص معظم الأحيان في أهراء تحت الأرض[33].

لقد كانت زراعة الشعير على قدر كبير من التقدم، إذ كان لدى القرطاجيين مخازن مخصصة لها في الأسوار، وقد عثر الأب ديلاتر على الشعير المحمص "المقلى" في قبر بوني، ونرى أحيانا صورة سنبلة منقوشة على قطع النقود القرطاجية[34]، يضاف إلى ذلك القمح، الذي كان له أهمية كبرى، حتى إن الكهنة القرطاجيين اعتبروه تحت الحماية المباشرة للإله بعل حمون، الذي عثر على تمثال له في هادروميتوم، يظهر ممسكا بمجموعة من سنابل القمح[35]، ويذكر بليني[36]أن القمح والشعير كانا ينتجان بكميات كبيرة في المنطقة[37].

وتعد زراعة الكروم محل عناية القرطاجيين الذين احتكروا زراعتها، بالإضافة إلى كل الزراعات الأخرى ماعدا التي كانت من اختصاص اللوبيين، ويبدو أن هذا النوع من الزراعة كان ذا عائد كبير نظرا لتحويلها إلى خمور يتم بيعها في مناطق كثيرة حول العالم القديم، ولقد قدم ماغون صاحب الخبرة الفنية والتجربة عدة نصائح تخدم زراعة الكروم، فهو ينصح بتوجيه أشجارها في المنطقة نحو الشمال لوقايتها من حرارة الشمس ومن أضرار السموم هناك في الجنوب، ويشير إلى استعمال الأسمدة مثل ثمالة العنب "ما تبقى بعد عصره" وتقليمها في الربيع وبإزالة التربة عن أسفلها في الشتاء، وكان النبيذ القرطاجي لاذعا بعض الشيء، فكانوا يتغلبون على هذا العيب بالتجصيص، أي "بخزن النبيذ في أوعية مختومة بالطين ونحوه"، وكان

النبيذ القرطاجي المصنوع من العنب المجفف عظيم القدر عند الرومان، حتى إن كولمال نقل كيفية صنعه لروما متبعا خطوات ماغون[38].

وحظيت زراعة الزيتون عند القرطاجيين بمكانة خاصة، فقد بدأت في زراعته ما بين القرنيين الخامس والرابع قبل الميلاد لاسيما في الوطن القبلي[39]، وفي القرن الثالث قبل الميلاد عرف هذا النوع من الزراعة انتشار بشكل واسع ليصل إلى منطقة الساحل، وهذا ما جعل قرطاج من أهم المناطق إنتاجا لهذه المادة، كما لم يتردد القرطاجيون في تطعيم الزيتون البري، الذي كان منتشرا في المنطقة[40]، وينصح ماغون بترك مسافة "75قدم" ما يعادل "22.2 متر" في جميع الجهات بين الأشجار وألا تقل عن "45 قدم" ما يعادل "13.3 متر"، ذلك إذا كانت الأرض ضعيفة ووعرة وعرضة للرياح وما تجدر الإشارة إليه بأن مقياس ماغون لغراسة الزياتين قريب من التصورات العلمية المعاصرة الأكثر دقة[41]، ويشير ماغون إلى ضرورة حفر الحفرة التي يوضع فيها الغرس قبل الزراعة بسنة كاملة لتمتص الشمس والأمطار ويكون دائما فم الحفرة ضيق[42]، ويجب أن تكون الزراعة في الخريف، وكانت بعض الأشجار تنتج حوالي ألف رطل من الزيتون[43].

وكان يتم عصر الزيتون واستخلاص زيته الذي يستعمل للعديد من الأغراض، إذ أنه كان يمثل نوع الدهن الوحيد المستخدم عبر حوض البحر المتوسط كله في ذلك الوقت، كما كان يستخدم في الإنارة، وفي الأغراض الطبية وكان مرهم للجروح، ويدخل في صناعة الدهون العطرية[44].

وتقترن في الغالب زراعة الزيتون مع زراعة اللوز، وكان هذا الأخير من المنتوجات المربحة جدا، ويذكر ماغون أن أشجار اللوز تنمو في مشاتل بعناية فائقة هذا أولا، ثم يتم بعد ذلك زراعتها في الخارج مثل أشجار الزيتون، وكان يزرع في منطقة أسفل الصحراء، حيث توجد أرض منحدرة تمتد بين الجبل والشاطئ الشرقي من تونس[45]، وكانت هناك حقول أخرى مخصصة من أجل زراعة اللوز في رأس بورتوفارينا[46].

وكانت شجرة الرمان من الأشجار المحببة في الحوضين الشرقي والغربي، وتحظى باهتمام كبير من جانب القرطاجيين، وكان يتم تصديره إلى إيطاليا لاسيما إلى روما، وقد أطلق عليه الرومان اسم التفاح البوني (Mala Punica)، وهناك من يطلق عليها (Mala granatum) وقد تم تمييز هذه الفاكهة إلى مجموعة متنوعة من الأنواع وذلك بحسب بذورها الداخلية(47) وهي من المزروعات الوافدة من العالم الفينيقي أدخلها القرطاجيون إلى بلاد المغرب القديم، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفاكهة كانت من شعارات الربة تانيت، وكانت توجد في مكان مميز على النصب، ويبدو أن هذه الفاكهة كانت أقرب للرموز التي ترمز للخصوبة(48)،ويذكر ماغون طريقة تخزين هذه الفاكهة، حيث ينصح بتخزينها في نشارة خشب الحور أو السنديان في جرة فخار(49).

ومن بين الأشجار المثمرة التي كانت عند القرطاجيين ذات بال، وكانوا فخورين بها التين(50)،وكان للنخلة مكانة خاصة في الاقتصاد القرطاجي، حتى أنها اتخذت في بعض المدن كشعار منقوش على العملة والأختام واللوحات الجنائزية(51)، ويشير بليني إلى أن المنطقة الداخلية الواقعة جنوب الصحراء، لا سيما بلاد لغرمنت كانت مغطاة بأشجار النخيل، وهي ملحوظة لحجمها الاستثنائي وجودة ثمارها(52)، وكانت منطقة الجريد تنتج أفضل ثمار البلح في تونس، بينما كانت منطقة قابس، ومنطقة تريبوليتانيا "طرابلس حاليا" الساحليتين تقدمان فقط ثمارا أقل جودة(53).

وقد عثر بإقليم المدن الثلاث، على مجموعة من قطع العملة القرطاجية التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهي محفوظة بمتحف السرايا الحمراء بطرابلس، على أحد وجهيها تظهر أشجار النخيل(54)، وتظهر النخلة أيضا مع حصان الحرب على العملة القرطاجية(55).

وتعد زراعة البقول والخضر أيضا من الأمور المهمة، حيث كانت بساتينها مشهورة، وقد ورد ذكرها عند بعض المؤرخين القدامى، حيث جاء ذكر زراعة الخرشف والكرنب والثوم البوني، وكذلك العدس البوني والجلبان البوني(56)، ويبدو أن القرطاجيين قد

عرفوا ومارسوا الزراعة الجافة، ولكن ليس لنا من الوثائق ما يجعلنا نسترسل فيها سوى أنها كانت قد طبقت في دكلا وفي بيجا أحد أهم سهول نهر مجردة وأخصابها جميعا[57].

2.4. الثروة الحيوانية:

كانت تربية الحيوانات ذات أهمية كبرى لدى القرطاجيين، حيث كانت مصدرا رئيسا للغذاء[58]، وكثيرا ما ارتبطت بعبادة بعض الآلهة، وكان من ضمن هذه الحيوانات الأبقار والأغنام، والماعز، والخيول، وغيرها، ويبدو أن القرطاجيين قد أولوا اهتماما كبيرا لتربية الماشية حتى أن ماغون أفرد لها جزءا في مؤلفه، ولعله من الطريف أنه تحدث في إحدى فقرات كتابه بالتفصيل الدقيق عن الأبقار القابلة للشراء، فقال: "يجب أن تكون صغيرة السن، ممتلئة الجسم ضخمة الأطراف، "وثورها طويل القرون"، قوية ذات لون ضارب للسواد، كثة وعريضة الحاجبين، متهدلة الأذنين سوداء العينين والشفتين، مفتوحة معقوفة الأنف طويلة وعضلية الأعضاء يتدلى من عنقها لغد كبير يصل إلى الركبتين تقريبا، عريضة الصدر، ضخمة الكتفين ممتلئة البطن، مثل بطن الحيوان الحامل، طويلة الجانبين، كبيرة الفخذين، مستقيمة الظهر مستديرة الفخذين، ممتلئة الرجلين، أقرب إلى القصر منها إلى الطول، ذات ركبة حسنة التكوين كبيرة الحوافر، لها ذيل طويل وقوي، وشعر قصير كث على الجسم، أحمر اللون أو بني، ناعم الملمس"[59].

في الفقرة "السابقة الذكر" لا تهمنا الأوصاف بقدر ما تقدم لنا فكرة عن حاجة القرطاجيين الماسة إلى الأنعام، ربما بقصد خدمة الأرض أو إلى لحومها وألبانها [60]، وقد يكون بهدف توفير المواد الضرورية للصناعات الجلدية والنسيجية، "كما سبقت الإشارة" إلى حملة كل من أجاثوكليس وريغولوس لما نزلا بسواحل بلاد المغرب بغرض الزحف على قرطاج، شاهدا قطعان كثيرة ومتنوعة من الماشية ترعى في المروج، التي تملكها الطبقة الأرستقراطية القرطاجية في العديد من المناطق على غرار رأس الطيب وأوتيكا وسهول الساحل[61].

وما يدل على غنى المنطقة بالثروة الحيوانية، ما جاء في كتابات القدامى أن قرطاج كلفت القائد هملكار، ليقود حملة عسكرية سنة (254 ق.م)، بغرض معاقبة اللوبيين، الذين انتهزوا فرصة زحف ريغولوس على قرطاج، فرفعوا راية التمرد والعصيان، ما دفع هملكار لقمع ثورة اللوبيين وإخماد تمردهم بمنتهى القسوة والوحشية ونكل بزعماء الثورة، وعاقب الأهالي بدفع غرامة مالية، كما غنم عشرين ألف رأس من الأبقار[(62)].

وقد استخدم القرطاجيون الخيول في حروبهم، التي تظهر كثيرا على العملات البونية، وقد تحسنت سلالتها بواسطة أساليب التربية المتبعة، كما تم كشف الكباش على النصب النذرية وتشبه النوع الأكثر شيوعا في "تونس حاليا"، من حيث الذيل الطويل السميك[(63)]، إلى جانبها وجدت البغال التي استغلت في نقل الأثقال[(64)]، كما تمت تربية الطيور الداجنة فكانت متنوعة مثل الديوك، والدجاج، واليمام، والحمام، وجميعها تم تصويرها تكرارا ومرارا على مختلف النصب، ودليل ذلك أنه وجد إشارات واضحة عن تربية الحيوانات في وثيقة "تعريفة ذبائح القرابيين"، التي نصت على الأجور الواجب دفعها إلى الكهنة وذلك حسب نوع وطبيعة القرابين، حيث تذكر هذه الوثيقة الثيران، والعجول، والكباش والتيوس، والحملان، والجديان والطيور الداجنة [(65)].

وكانت تربية النحل على درجة معتبرة، نظرا لأن العسل كان مصدر السكر الوحيد في ذلك الوقت، حتى إنها وجدت رسومات لخلايا مرسومة على الأنصاب النذرية، كما اشتهر أيضا الشمع البوني الذي كان يستخدم في الأغراض الطبية، وكان من البضائع المشهورة والمطلوبة بكثرة[(66)].

3. العمالة وملكية الأرض:

لقد تكونت العمالة الزراعية من الخدم في المقام الأول، ولذلك اهتم بها ماغون وأوصى بحسن معاملتهم، حيث نجده يقول: "من الضروري أن نشركهم في الإفادة بإعطائهم التسهيلات، كتكوين عائلة، وإمكانية تجميع مبلغ يشتري به حريته يوما ما، وأن نرد عنهم من يعاملونهم بقسوة[(67)]"، ويبدو أنه لم يقل هذا من منطلق شعور إنساني، وإنما لأن الرجال

الذين كانوا يعاملون بالضرب يصبحون سريعا غير مبالين أو مكترثين، ولأن رأس المال البشري كان غالي ذو فاعلية قوية في ميدان العمل الزراعي[68]، كما نكتشف أهمية الخدم في هذا العمل حيث نجد ماغون ينصح أصحاب الأراضي الزراعية بشراء العبيد القادرين على العمل في الزراعة، هذا و يفضل أولاد العبيد الذين يولدون في الريف، فهؤلاء الأبناء يساعدون على ارتباط أبائهم بالأرض، وينصح باختيار الأكفاء من بين كبار السن ليكونوا مشرفين على العمل[69].

وهناك من الدراسات من تستبعد اعتماد نظام العبيد في المجال الفلاحي على نطاق واسع، حيث نجد إشارة واضحة لدى أرسطو بتوجيه أثرياء قرطاج إلى تخفيف العبء الديمغرافي في قرطاج بإرسال مواطنين من العامة وتوطينهم بالمناطق التابعة لهم، ويمكن أن تحيلنا هذه العملية إلى وجود استغلال مباشرة للأرض[70].

كنا قد ذكرنا من قبل أن الزراعة في قرطاج، شهدت اهتماما وانتعاشا بعد واقعة هيميرا حيث تطورت من محيط زراعي محدود حول المدن، إلى مجال زراعي يمتد لمساحات واسعة[71] ومن المرجح أن الأراضي كانت عبارة عن ملكيات خاصة بالأغنياء الأرستقراطيين، الذين كانوا يتحكمون في زمام السلطة السياسية والاقتصادية في مدينة قرطاج[72].

يذهب البعض إلى عدم وجود دليل يؤيد وجهة النظر القائلة أن هناك قسم كبير في المجتمع القرطاجي كان يكسب ثروته من الأرض فقط، ويبدو أن التجار كانوا يملكون أراضي في الريف، والتي منها كانوا يحصلون بدون شك على بعض الربح، كما كانوا يلجئون إليها في حرارة الصيف، لكنها لم تكن مجال اهتمامهم الرئيسي[73]، ولكن هذا لا ينفي وجود طبقة من الملاك المزارعين القرطاجيين الذين كانوا يستمدون ثرواتهم من الزراعة فقط، لذلك كان مالك الأرض القرطاجي يختلف تماما عن نظيره الروماني، فهو لم يكن السيد العظيم الذي يهتم قليلا لما تنتجه مزارعه فقد كان يعيش في الريف ويهتم كثيرا بالحصول بواسطة الطرق الجيدة، والعناية الفائقة على دخل مساوي لما يمكن أن تجلبه لهم التجارة أو الصناعة[74].

ويمكننا تقسيم الأراضي الزراعية داخل مجال بلاد المغرب القديم إلى قسمين:

القسم الأول: كان يتبع القرطاجيين مباشرة ويقع بالقرب من العاصمة، ويقوم على زراعة محاصيل ثمينة، مثل الزيتون، والكروم، والرومان وغيرها، وكانت تستخدم في زراعتها السكان المحليين بعد ما قامت بطردهم منها وتحويلهم إلى أقنان[75].

القسم الثاني: كان يتبع للوبيين، وقد خصص لزراعة الحبوب، حيث عاش هؤلاء الفلاحين الأصليين هناك بشكل بائس، ولقد سمح لهم الاحتفاظ بأراضيهم مقابل دفع جزية عينية تقدر بالعشر من محاصيلهم، وبذلك استغلوا وقدموا نسبة كبيرة من محاصيلهم إلى قرطاج، هذه الضريبة التي كانت ترتفع في وقت الأزمات والحروب إلى الربع والنصف أيضا وهذا ما كان له أثارا سلبية خطيرة على القرطاجيين، الذين كانوا دائما على استعداد للثورة ضدهم [76]، باستثناء بعض العائلات التي حصلت على امتيازات، وتكيفت بسهولة مع النظام الجديد، ولكنها في الوقت نفسه كانت ملتزمة بدفع ضرائب عينية من الغلال للحكومة القرطاجية[77].

من خلال ما سبق يجب التسليم بارتباط القرطاجيين بالأرض، في إطار ملكيات قائمة على الاستغلال المكثف للثروة الزراعية، وإن اتفقت أغلب الدراسات بأن هذه الأراضي لاسيما تلك التي كانت تملكها الطبقة الأرستقراطية نجهل مساحتها، إلا أنها لم تكن اقطاعات ذات مساحة شاسعة، وإنما كانت متوسطة الحجم، وفي هذا السياق يمكن القول، أن قرطاج طبقت المثل البوني الذي يقول: "يجب أن تكون الأرض أضعف من الفلاح، حتى لا تسحقه إذا دخل معها في صراع[78]".

وما تجدر الإشارة إليه بأن الزراعة القرطاجية قائمة على نوع من التخصيص الدقيق حافظ عليه الأرستقراطيين بأن حظروا على اللوبيين، وعلى المناطق الخاضعة لهم في صقلية وسردينيا زراعة الأشجار المثمرة، واقتصارهم على زراعة الغلال لا سيما القمح[79]، وتذهب الكثير من الدراسات لاعتبار أن المجال الزراعي القرطاجي داخل بلاد المغرب، كان يكفي

للاستهلاك المحلي[80]، أما حصة التصدير فكانت تأتي من صقلية التي فقدتها سنة (241 ق.م) وسردينيا التي فقدتها (237 ق.م)[81].

ومهما قيل عن سياسة قرطاج اتجاه اللوبيين وأراضيهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد يمكن أن نقول إن السكان المحلين قد تحولوا إلى بونيين لكنهم بونيين محظوظين، فلقد عرف اللوبيون معارف جديدة في مجال الزراعة، حيث نقل القرطاجيون إلى بلاد المغرب القديم غرس أشجار الزيتون والكروم والتين[82]، واتبعوا طرقا علمية متقنة لغرس الزيتون، وحسنوا أساليب الزراعة بإدخال الأدوات المعدنية، ونظموا تخزين المياه لاستخدامها وقت الحاجة، ومن ذلك وجود بقايا سد فينيقي عند مصب نهر كينبس، واخترعوا ماكينة لدرس المحاصيل متقدمة، وهي نوع من المركبة المجهزة بعجلات صغيرة مسننة كان الرومان يسمونها "عربة البضائع البونية"[83] كما أدخلوا غرس أنواع أخرى من الأشجار المثمرة كالخوخ واللوز والرمان[84]، ويبقى أهم ما يحسب للقرطاجيين في المجال الزراعي هو إدخال تقنيات الإنتاج ودرجة تكثيفه[85].

هكذا إذا حفظت لنا كتابات القدامى الإغريق واللاتين بعض من أوضاع الجانب الزراعي-خلال المرحلة محل الدراسة-، هذا ووفرت الحفائر والبحوث الأثرية[86] بعض المعطيات عن المساكن القرطاجية الريفية، حيث عثر على منزل ريفي في الحفريات التي تمت سنة (1979م) المسكن يتكون من قسم معد للسكن ويشمل بئر وبيت استحمام وثلاثة غرف، أما القسم الثاني فيه معصرة زيت وأحواض لتصفية الزيت وجرة كبيرة لتخزين المؤونة[87]،كذلك عثر في مدافن المدينة البونية على فواكه وخضروات من طين مفخور تثبت وجودها عند القرطاجيين.

كما تخللت الأنصاب التي استخرجت من قدس بعل حمون صورا تمثل بعض الأشجار والثمار "كما سبقت الإشارة لذلك" [88].فالدليل التاريخي يوحي بأن القرطاجيين أعاروا الأرض عناية فائقة منذ القرن الخامس، عندما أدركت الطبقة الأرستقراطية المكاسب التي يمكن أن تجنيها من وراء هذا النشاط، وما إن حل القرن الثالث قبل الميلاد حتى امتلكت

قرطاج قطاعا زراعيا مميزا[89]، مما جعلها غير مهددة بالسقوط في أزمة غذائية و اقتصادية، حيث لم تعرف مجاعات كتلك التي عرفتها المجتمعات في العصور القديمة، بل سجل لها التاريخ قدرة على تغطية حاجياتها مع زيادة وافرة تزود بها أسواق المتوسط[90].

4. خاتمة:

وفي الأخير نتبين أن الأرض والزراعة في قرطاج ارتقت إلى مستوى العلوم التجريبية وذلك منذ أن استغلت أرستقراطيية قرطاج انعكاسات واقعة هيميرا من الناحية الاقتصادية، لاسيما فيما يخص المجال الزراعي، حيث تشير أغلبية النصوص إلى أنهم اتجهوا في مجال الزراعة نحو المجال الإفريقي في محاولة للسيطرة على الأقاليم الداخلية الخصبة، مما أدى إلى ظهور طبقة من المزارعين الذين اهتموا كثيرا بتنمية ضياعهم، الشيء الذي أدى إلى الاهتمام بالأرض و ازدهار الزراعة وتنوع منتوجاتها، وتم الاهتمام بالثروة الحيوانية، و استحدثت طرق الري ووضعت أسس علم الزراعة الحديثة، وألفت الكتب في هذا المجال، وكان أشهرها موسوعة ماغون الزراعية، بل ليس من المبالغة إن قلنا بأن نشاط الأرستقراطية القرطاجية في المجال الترابي والنشاط الزراعي، صار يمثل قاعدة أمن المدينة ومناعتها وسر تجاوزها للعديد من المشاكل الاقتصادية.

5. قائمة المصادر المراجع:

المصادر:

- Pliny the Elder, Natural History, (F.R. H, 1851)
- Polybius, Histories, (London :L. C. L, 1927).

المراجع:

بالعربية:

- أحمد صفر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، (تونس: دار بوسلامة، 1959)

-جورج سارتون، العلم والحضارة الهللنستية في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)

-جورج كونتنو، الحضارة الفينيقية، (القاهرة: شركة مركز كتب الشرق الأوسط، 1948)

-جيمس هنري براستد، العصور القديمة، (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر،198)

-حسام سعدة، حضارة قرطاجنة، (مصر: مكتبة النافذة ، 2010)

-دينزبولم، الحضارات الأفريقية، تر: نسيم نصر، (بيروت: منشورات عويدات، 1988)

-الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، قرطاج البونية تاريخ حضارة، (قصر سعيد: أوربيس للطباعة، 1999)

-عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، (بيروت: دار النهضة العربية، 1970)

-عبد المنعم المحجوب، ليبيا القديمة، (تونس: دار الاتحاد للنشر والتوزيع، 2018)

-فرانسو ديكريه، قرطاجة أو امبراطورية البحر، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996)

-فينفريد إللغير، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسحيين، (سورية: روافد للثقافة والفنون، 2008)

-لبيب عبد الساتر، الحضارات،(لبنان: دار المشرق، 1986)

-محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، (بيروت: دار النهضة العربية، 1981)

-محمد الحبيب بشاري، روما وزراعة المقطعات الإفريقية بين 146 ق.م و285م، (الجزائر: دار الهدى)

-محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، (لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982)

-محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية "تاريخ لبنان القديم"، (بيروت: دار النهضة العربية، 1994)

-محمد حسين فنطر، التربية والثقافة في قرطاج (814 ق.م-698 ب.م)، (الجمهورية التونسية: جريدة الحرية، 2006)

- محمد حسين فنطر، الحضارة في قرطاج "تونس عبر التاريخ-العصور القديمة" ، (تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، 2007)

-محمود عبد العزيز النمس ومحمود الصديق أبو حامد، دليل متحف الآثار بالسرايا، (طرابلس: الدار العربية، 1977)

-مفتاح محمد سعيد البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي من القرن السادس قبل الميلاد حتى منتصف القرن الثالث ق.م وأثره على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في قرطاجة، (الجماهرية العربية الليبية: مجلس الثقافة العام ، 2008)

الأجنبية:

- B.H. Warmington, Carthage,(London:1960).

- Ch. A. Julien, Histoire de I' Afrique du nord des origines à la conquête arabe, (Tunis: 2003)

- D.E.L. Haynes, The Antiquites of Tripoliania, (Tripoli: Published by Department of AntiquitiesTripol, 1981)

- D. Harden, The Phoenicians, (London: 1963).

- D. Ogrizek, North Africa, (London :W.C.S, 1996)

- G. Ch. Picard, Daily Life In Cartage At The Time Of Hannibal(London: 1961)
- H. Slim, Histoire Générale De La Tunisie L'Antiquité, (Tunis: Sud Editions, 2015)
- M. Rostovtzeff, Rome History of the Ancient World, (Oxford: 1933)
- R. Charles, The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Medes and Persians, Macedonians and Grecians, (London: 2011).
- S. Moscati, The World of the Phoenicians, (London: 1968)

المقالات:

H. Jaque, " l'Agronome Carthaginois Magon et ses Traducteurs en latin et en Grec", (C.R. A.I), Vol, 120, No3, 1967.

الرسائل:

إبراهيم خليل خلايلي، "مصادر البحث عن الحضارة الفينيقية البونية المصادر التاريخية – المصادر الأثرية– النقائش"، (شهادة الدراسات المعمقة)، إشراف أ.د. محمد حسين فنطر، قسم التاريخ، جامعة تونس الأولى، 1995.

---

6. هوامش:

(1)– أحمد صفر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، دار بوسلامة، ط1، تونس، 1959، ج1، ص 158.

(2)– **رأس بون**: الرأس الطيب، وكذلك رأس الدار، بالقرب من الهوارية "تونس"، توطنها الفينيقيون منذ القرن الرابع قبل الميلاد، وهي أقرب منطقة إفريقية إلى صقلية. ينظر: – عبد المنعم المحجوب ، ليبيا القديمة، دار الاتحاد للنشر والتويع، ط1، تونس، 2018، ص173.

(3)– محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط2، لبنان، 1982، ص 115.

(4)– محمد الحبيب بشاري، روما وزراعة المقطعات الإفريقية بين 146 ق.م و285م، دار الهدى،(ب ط)، الجزائر، (ب ت)، ص22.

(5)-M. Rostovtzeff, Rome (History of the Ancient World), Translated From the Russianby: J.D. Duff, 2nd Ed, Oxford, 1933, Vol, 2, pp59-61.

(6)– الشاذلي بورونية و محمد الطاهر ، قرطاج البونية تاريخ حضارة، أوربيس للطباعة، (ب ط)، قصر سعيد، 1999، ص 251.

(7)-G. Ch. Picard, Daily Life In Cartage At The Time Of Hannibal, Translated From By: A.E. Foster, London, 1961, p 181.

(8)– أحمد صفر، المرجع السابق، ص 158.

(9)-R.Charles, The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians, Medes and Persians, Macedonians and Grecians, London, Vol, 1, 2011, p351.

(10)-Polybius, Histories, Translation by : H. J. Edwards, (L. C. L), London, 1927, I, 29.6-9.

(11)- R. Charles, Op- Cit, p368.

(12)– حسام أبو سعدة، حضارة قرطاجنة، مكتبة النافذة، ط1، مصر، 2010، ص 117.

(13)- M. Rostovtzeff, Op- Cit, p335.

(14 – H. Jaque, " l'Agronome Carthaginois Magon et ses Traducteurs en latin et en Grec", (**C**.**R**. **A**.**I**), N°3, Vol, 120, 1967, p441.

(15)– محمد حسين فنطر، التربية والثقافة في قرطاج (814 ق.م-698 ب.م)، جريدة الحرية، ط1، الجمهورية التونسية، 2006، ص 81.

(16)– المرجع نفسه، ص 81.

(17)– **كاسيوس ديونيسيوس**: أحد موطني الطبقة النبيلة بوتيكة، أسندت له ترجمة كتاب ماغون كونه كان يتقن اللغة اللاتينية والبونية، ينظر: – محمد حسين فنطر، الحضارة في قرطاج (تونس عبر التاريخ-العصور القديمة) ، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، (ب ط)، تونس، 2007، ج1، ص77.

(18)– محمد حسين فنطر، التربية والثقافة...، المرجع السابق، ص 81.

(19)– فرانسو ديكريه، قرطاجة أو امبراطورية البحر، تر: عز الدين أحمد عزو، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 1996، ص95.

[20]- **كولمال**: مؤرخ لاتيني من القرن الأول ميلادي يقدم معلومات عن الحياة الزراعية، وتربية الحيوانات في العالم البوني، مقتبس في كتاباته من المؤلف القرطاجي ماغون، وله كتابين أولهما عن الزراعة بصفة عامة، والثاني متخصص في الأشجار فقط. ينظر: -إبراهيم خليل خلايلي، "مصادر البحث عن الحضارة الفينيقية البونية المصادر التاريخية – المصادر الأثرية– النقائش"، (شهادة الدراسات المعمقة)، إشراف أ.د. محمد حسين فنطر، قسم التاريخ، جامعة تونس الأولى، 1995، ص47.

[21]- **فارو**: أهم العلماء الرومان في عصره، عينه يوليوس قيصر أمينا لأول مكتبة عامة في روما حوالي عام (49 ق.م)، وقد كتب ما يقارب "74" كتابا، في مختلف فروع المعرفة، ينظر: – عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1970، ص26.

[22]- جورج سارتون، العلم والحضارة الهللنستية في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، تر: محمود زايد وآخرون، المركز القومي للترجمة، (ب ط)، القاهرة، 2010،ج5، ص 300.

[23]- حسام أبو سعدة، المرجع السابق، ص 119.

[24]- جورج كونتنو، الحضارة الفينيقية، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، (ب ط)، القاهرة، 1948، ص 305؛ ينظر أيضا: – محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص24.

[25]- الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص 248.

[26]- محمد حسين فنطر، التربية...، المرجع السابق، ص ص 82-83.

[27]- المرجع نفسه، ص77. ينظر أيضا:

- D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p139.

[28] – عبد المنعم المحجوب، المرجع السابق، ص312.

[29] – مفتاح محمد سعيد البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي من القرن السادس قبل الميلاد حتى منتصف القرن الثالث ق.م وأثره على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في قرطاجة، مجلس الثقافة العام، (ب ط)، الجماهرية العربية الليبية، 2008، ص223.

[30] – عبد المنعم المحجوب، المرجع السابق، ص 312.

[31] – مفتاح محمد سعيد البركي، المرجع السابق، ص ص 217-218؛ ينظر أيضا:– محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص 19.

[32] – D. Harden, The Phoenicians, Op- Cit, p139.

[33] – جورج كونتنو، المرجع السابق، ص306.

[34] – أحمد صفر، المرجع السابق، ص 158.

[35] -G.Ch. Picard, Op- Cit, p94.

[36] - **بليني (23-79م)**: عالم موسوعي لم يبق من مؤلفاته سوى موسوعة التاريخ الطبيعي، لقى حتفه بسبب فضوله العلمي عند ثورة بركان فيزوف عام (79م). ينظر: -عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 27.

[37] - Pliny the Elder, Natural History, Translation by: J. Bostock and H. T. Riley, (F.R. H), 1851, XIII,33.

[38] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 159؛ ينظر أيضا: - جورج كونتنو، المرجع السابق، ص ص306-307.

[39] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص159.

[40] - الشادلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص253.

[41] - المرجع نفسه، ص253.

[42] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص159.

[43]- S. Moscati, The World of the Phoenicians, Translated from the Italian By: A. Hamilton, London, 1968-, p177.

[44] - محمد بيومي مهران، المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)، دار النهضة العربية، (ب ط)، بيروت، 1994، ص387.

[45] - G.Ch. Picard, Op- Cit, p 91.

[46] - D. Ogrizek, North Africa, (**W.C.S**). London, 1996, p 268.

[47] - Pliny the Elder, XIII, 34.

[48] - G.Ch. Picard, Op- Cit, p 90.

[49] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص160.

[50] - فينفريد إللغير، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسحيين، تر: عيد مرعي، روافد للثقافة والفنون، ط1، سورية، 2008، ص104.

[51] - D. Harden, The Phoenicians, Op- Cit, p139.

[52] - Pliny the Elder, XIII, 33.

[53] - G.Ch. Picard, Op- Cit, p 91.

[54] - محمود عبد العزيز النمس ومحمود الصديق أبو حامد، دليل متحف الآثار بالسرايا (مصلحة الآثار)، الدار العربية، ط1، طرابلس، 1977، ص217.

[55] - D. Harden, The Phoenicians, Op- Cit, p139.

[56] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص160.

[57]- D. Ogrizek , Op- Cit, p283.

[58] - أحمد صفر، المرجع السابق، ص 160.

(59) – محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1981، ص ص 127-128.

(60) – المرجع نفسه، ص 128.

(61) – محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص32.

(62) – المرجع نفسه، ص ص 32-33.

(63) –أحمد صفر، المرجع السابق، ص 160؛ ينظر أيضا: – فرانسوا ديكريه، قرطاجة أو...، المرجع السابق، ص98.

(64) – محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص32.

(65) – فرانسوا ديكريه، المرجع السابق، ص98.

(66) –أحمد صفر، المرجع السابق، ص161؛ ينظر أيضا: – الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص253.

(67) – لبيب عبد الساتر، الحضارات، دار المشرق، ط14، لبنان، 1986، ص127.

(68)– G. Ch. Picard, Op- Cit, p 88.

(69) – الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر، المرجع السابق، ص 254.

(70) – المرجع نفسه، ص 254.

(71) – مفتاح محمد سعيد مفتاح البركي ، المرجع السابق، ص ص 217-218.

(72) – محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 115.

(73) – G. Ch. Picard, Op- Cit, p, p86-93.

(74) – فينفريد الليغر، المرجع السابق، ص 103؛ ينظر أيضا:–

– B.H. Warmington, Carthage, London ,1960, p128.

(75)–H. Slim, Histoire Générale De La Tunisie L'Antiquité, Sud Editions,2 éme Ed, Tunis, 2015, T, 1, p83.

(76)–H. Slim, et autres, Op- Cit, p83.

(77) – جيمس هنري براستد، العصور القديمة، تر: داود قربان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط1، (ب م ن)، 1983، ص ص 513-514.

(78) – محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص 25؛ ينظر أيضا:

– B.H. Warmington, Op- Cit, p128.

(79) – محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص 29؛ ينظر أيضا: – فرانسوا ديكريه، قرطاجة أو...، المرجع السابق، ص95.

(80) - Ch. A. Julien, Histoire de I' Afrique du nord des origines à la conquête arabe, 4th Ed, Tunis, 2003, p121.

(81) - محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص ص 19، 22.

(82) - دينزبولم، الحضارات الأفريقية، تر: نسيم نصر، منشورات عويدات، ط3، بيروت، 1988، ص45.

(83) - S. Moscati, Op- Cit, p176.

(84)- D.E.L. Haynes, The Antiquites of Tripoliania, Published by Department of AntiquitiesTripol, 4th Ed, Tripoli, 1981, p30.

(85) - حسام أبو سعدة، المرجع السابق، ص122.

(86) - محمد حسين فنطر، الحضارة...، المرجع السابق، ص79.

(87) - حسام أبو سعدة، المرجع السابق، ص121.

(88) - محمد حسين فنطر، الحضارة...، المرجع السابق، ص79.

(89) - محمد الحبيب بشاري، المرجع السابق، ص21.

(90) - محمد حسين فنطر، الحضارة...، المرجع السابق، ص79.

صورة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بين النصوص الإنجيلية والمقاربات العقلية

the image of Jesus, peace and blessing be upon him, between biblical texts and metal approaches.

عمارة سيدي محمد

جامعة لجيلالي ليابس، بلعباس، الجزائر amara.mohamed1982@gmail.com

تاريخ الاستلام: 31 /2012/01 **تاريخ القبول:** 01 /2021/05 **تاريخ النشر:** 2021/05/05

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إماطة اللام عن الصورة التي ترسمها نصوص العهد الجديد المعروفة بالإنجيل سابقاً، عن السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، والمناقشات العقلية لما تقتضيه، ونتائجها التي تفضي إلى نسف العقيدة النصرانية القائمة على الفداء والخلاص. يُضاف إلى ذلك بيان موقف الإسلام – دعوة النبي الذي ختمت به الرسالات- من السيد المسيح عليه السلام القائمة على الأخوة والمحبة، والوسطية ونبذ العداوة التي يزعمها المنصورن، وعبثاً يُحاولون إلصاقها بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته، وهو الذي جاء يُصحح الصورة عن السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، ويُبين حقيقة دينه وتعاليمه، مقدماً لنا الوسيلة في دعوة أهل الكتاب بالنقل الصريح، والعقل الصحيح.

ويجب ألا ننسى مآسي الإنسانية، والمسلمون أكثرهم ضحية لإرهاب النصارى على مر العصور، وهم في ذلك يرون التقرب إلى إله عُلق على صليب، فلا هو نجى، ولا هو قدر على إنقاذ أحد.

الكلمات الدالة: وسطية.، الإسلام.، المسيح.، الانجيل.، متّى. مرقص.، يوحنا.، مريم.، العهد الجديد.، العهد القديم.

Abstract:

This article aims to highlight the image painted by the New Testament texts.. known as the Gospel.. which dealt with distortion and copying of Jesus Christ peace be upon him. And the mental discussions of what is required. and the results that lead to the destruction of the Christian faith based on redemption. In addition.. th statement of the position of Islam of Jesus Christ. Peace and blessings bee upon him based on brotherhood and live and moderation and renounce the enmity

claimed by the missionaries and vainly trying to stick to the prophet Muhammad peace be upon him.

We must not forgot the tragedies of humanity and Muslims most of whom have been victims of Christian terrorism throughout the ages and they see this approaching to a god who was hung on a cross neither he survived nor was he able to save anyone.

Keywords: wine; bible; old testament; new testament; Jesus.

1. مقدمة:

إنَّ الغرض من هذه المقالة هو بيانُ وسطية الإسلام في العقائد في الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، من خلال عرض علميٍ سريع ووجيز – مع الرد – لبعض مطاعن الإنجيل أو ما يُسمى بالكتاب المقدس عامة[1]، في جناب السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، الذي ألهه النصارى وبنوا على ذلك معتقداتهم بالنجاة والخلاص، وراحوا يُبشرون وينشرون ذلك بإيمان عميق[2]. غير أنَّ الكثير من النصوص لا تتوافق مع تلكم الصورة للمسيح المخلص، الذي يُصوَرُ بصفات قبح ونقص لا تتلاءم مع طبيعة انسان مصلح أو قائد، فضلا عن نبي كريم أو معبود عظيم.

والسؤال الذي يُطرح ها هنا يتمحور عن الصورة التي ترسمها تلكم النصوص المقدسة عند النصارى للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام، وحقيقة ذلك ومصداقيته في ميزان العقل والمنطق السليم، والنقل الكريم.

ورغم أنَّ العلماء أفاضوا في إبطال معتقدات النصارى ومعهم اليهود، بالحجة المتنوعة، إلاَّ أن مثل هذه الكتابات تبقى مهمة متجددة النفع بما كان. لتواصُل الحرب على الإسلام وإلصاق تهم التطرف به، والشحن الممارس من منظري الديانات اليهودية والنصرانية، مع الجهل من الكثير من المسلمين، الذي يفرز عُنفا وكفرا وتزييفا للحقائق[3].

إنَّ الإسلام جاء خاتمًا للديانات التي سبقته، والتي عرفت التحريف والتبديل على يد علماء السوء والضلال خدمة لمصالح وأهواء. مما نزع صفة القُدسية والإلهية عنها وعلى كتبها[4]. فجاء عن النبيّ الخاتم عليه وعلى إخوانه الصلاة والسلام أنه قال: (**إنَّ بني إسرائيل**

لما طال الأمد وقست قلوبهم، اخترعوا كتابا من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون...)[5].

فاقتضت حكمة الله تعالى إرسال المصحح والمبلغ والفاضح للتحريفات والانحرافات، داعيا إلى ما دعا إليه أول مرةٍ إخوانه عليهم السلام من توحيد الله تعالى، ونفي الشريك والندّ والصاحبة والولد عنه، مع التركيز على مكارم الأخلاق، وعالي الصفات، وتكريم الأنبياء عليهم السلام، بلا إفراط ولا تفريط[6].

ونحن في الحقيقة ندعو الكتابي العامي البسيط، ومعه المثقف المُنصف. إلى الاطلاع على القرآن الكريم، بعيدا عن الشَحْنِ والرُؤى المسبقة الموروثة عن دور العبادة والأسرة والإعلام غير النزيه، البعيد عن الوسطية.

أقول: إنَّ الوقوف بُرهة عند سورة مريم، وسورة آل عمران لكفيلٌ بمعرفة وسطية الإسلام ومنبعه الصافي، فمكانة العذراء مريم وابنها، وإخوانه السَّابقين من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، وأتباعهم المؤمنين، تختلف جذريا عن نظيرتها القبيحة و المخيفة والمروعة، المُسطرة عند أهل الكتاب[7]. بل كفى بالتسمية للسورتين مثلا ودليلا على الوسطية، ومهما حاول المنتقدون والمتهربون التبرير والتهويل، إلاَّ أنهم يعجزون في النهاية دائما عن الاجابة عما يلي:

- لماذا لم يُسم النبي محمد وهو خاتم الرسل والأنبياء عليهم السلام جميعا إحدى السور القرآنية، بأحب الناس إليه، كزوجه عائشة، وقبلها خديجة، أو ابنته فاطمة، أو أصحابه الفُضلا وخلفائه العُظما ذوي الشأن والعُلا ؟.

- لماذا لم يُسم سورة أو آية — على الأقل باسم ابنه القاسم أو عبد الله أو إبراهيم. علما أنهم كلهم ماتوا صغارا فلماذا لم يُخلد ذكراهم باسم سورة يقرأها المسلمون إلى يوم الدين؟.

- لماذا وردت: سورة مريم، سورة آل عمران، سورة يوسف، سورة إبراهيم.. وكل هؤلاء ممن عُرف عند أمة بني اسرائيل بالصلاح والنبوة و الرسالة؟.

والجواب أنَّ الأمر كان يأتي من عند الله وحياً وأمراً، ولم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام إلا التبليغ بلا زيادة ولا نُقصان، وهذا فيه بيان للوسطية التي بُني عليها الإسلام، وتجردٍ من الهوى والتعصب والتطرف.

وقد اخترتُ لبيان هذا المفهوم الشرعي السامي[8]، الحديث عن مجموعة مطاعن خطيرة، مُسطرة في الكتاب المسمى (مقدس)، تطعن في جناب السيد المسيح عليه السلام. فاستعراض بعضها يجعل القارئ – مهما كان دينه – قادرا على المقارنة والتمييز بين وسطية شريعة الإسلام وعقائده وغيره مما دخله التحريف والتزييف[9].

2. أولى مُعجزات السيد المسيح عليه السلام:

يذكر الإنجيل أنَّ أول معجزة فعلها المسيح عليه السلام ليُصدقه الناس، هي تحويله الماء خمراً.. نعم خمراً، وأنها كانت خمراً لذيذة، حتى أنَّ من سكر وفقد العقل استطاع تمييز جودتها على غيرها[10]. في عرس كانت السيدة مريم العذراء هي من توزع الخمر رفقة الخدم- نعوذ بالله – وها هي القصة بتمامها :

(وفي اليوم الثالث كان في قانا الجليل عرس، وكانت أم يسوع هناك فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس. ونفدت الخمر، فقالت له أمه...ما بقي عندهم خمر فأجابها: مالي ولك، يا امرأة ،ما جاءت ساعتي بعد فقالت أمه للخدم: اعملوا ما يأمركم به. وكان هناك ستة أجران من حجر يتطهر اليهود بمائها على عادتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أو ثلاثة. فقال يسوع للخدم: إملأوا الأجران بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم: استقوا الآن، وناوِلوا رئيس الوليمة؛ فناولوه فلمّا ذاق الماء الذي صار خمراً، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس وقال له : جميع الناس يقدمون الخمر الجيدة أولا ،حتى إذا سكر الضيوف، قدموا الخمر الرديئة، أمَّا أنت فأخّرت الخمر الجيدة إلى الآن) ولمزيد من الإثارة يضيف النص الرباني!: (هذه أولى آيات

يسوع،صنعها في قانا الجليل .فأظهر مجده ، فآمن به تلاميذه)[11]. (وجاء أيضا إلى قانا الجليل ،حيث جعل الماء خمراً)[12].

إذن فالنص واضح ولا يحتمل تأويلا أو تفسيرا، إلاَّ أن الأمر كان أشبه بالحفلات الليلية في المراقص والملاهي..(ومنذ أن جرت تلك المعجزة والخمر تتدفق كالمياه وسط العالم المسيحي. وكثير من الحمقى يجادل بأنَّ ما كان حلالا طيبا لأستاذه – المسيح – فهو حلال طيب بما فيه الكفاية بالنسبة له)[13].

فهل يقول هذا الكلام شخص محب للمسيح وأمه مؤمن بهما، وهل يرضى به؟ . والجواب الأكيد لا !. فكيف وهذا النَّص ليس من كلام البشر حسب اعتقاد النصارى، بل هو عندهم كلام الله فالمصيبة تصير عندها أعظم وأطم. ثم إنَّ الغاية من إنزال الكتب على الرسل عليهم السلام بمن فيهم – المسيح – إصلاح الناس وأحوالهم. فكيف يستقيم الهدف والمصدر مع الواقع والحال ؟. فإنْ قيل: لعلها هفوة أو ذنب واحد وقع، ولربما قال آخر: إنَّ الخمر حينها كانت حلالا فلا مشكلة إذن.

فأمَّا قول القائل أنَّ ما صدر من المسيح من معاملة تتسم بالعقوق اتجاه أمه –وهو منه بريء – هفوة أو ذنب واحد فلا شك في بُطلانه من عدة وجوه:

الوجه الأول :

* أنَّ الأنبياء والرسل – عليهم السلام– يمثلون الكمال الإنساني في أرقى صوره، ذلك أنَّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه، فلا بد أن يختار أطهر البشر قلوبا، وأزكاهم أخلاقا، وأجودهم قريحة:(**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)[14].

فإن قال قائل كيف تقولون ذلك :

* وإنَّ موسى عليه الصلاة والسلام مثلا لم يصبر على تصرفات العبد الصالح[15].

* وأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام خاف من ضيوفه لما رأى إعراضهم عن الأكل وهم في الواقع من الملائكة[16].

* وغضب موسى عليه الصلاة و السلام لما عبد قومه العجل في غيابه المشهور[17].

* ونسيان محمد عليه الصلاة و السلام في صلاة الظهر وصلاته إياها خمس ركعات بدلا عن أربع مشروعة[18].

فالجواب:

* إنَّ هذه من الأعراض البشرية التي لا تنافي العصمة والخيرية للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعا. ثم إنَّ لكل واحد مما ذُكر وغيره سبب ومبرر دون أن يتعرض ذلك لجناب الرسالة والنبوة: (وقد وقع النسيان من النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الصلاة مثلا لحكم كثيرة. منها: أنه بشر، يقع منه ما يقع من غيره، إلا أنه لا يُقَرُّ عليه؛ عصمةً لمقام النبوة. ومنها: التشريع للأمة في مثل هذه الحوادث. ومنها: التسلية والتعزي لمن يقع منه، فإنه حين يعلم أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم، فليس عليه حزن أن يخشى الخلل في دينه، أو النقص في إيمانه، إلى غير ذلك من أسرار الله تعالى)[19].

فما هي الحكم والفوائد التي سيجنيها قارئ الإنجيل لاسيما إن كان نصرانيا مؤمنا موقنا بأنه كلام الله المقدس من قصة عقوق المسيح لأمه !!.

إنَّ عقيدة الإسلام القائمة على الوسطية والاعتدال، تُبين أنَّ الله تعالى رفع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام على الخلق، وطهّر باطنهم وجمّل ظاهرهم، وكرمهم ورفعهم إلى ما لا يُصافيهم فيه أحد من الخلق، فهم مثلا:

* تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[20].

* وهم مخيرون عند الموت بين الدنيا والآخرة[21].

* والله تعالى قد حرم على الأرض أكل أجسادهم[22].

* وهم أحياء في قبورهم يصلون، وقد صح أن النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام قال: (**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**)[23].

وأخبر النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام عن رحلته في الإسراء والمعراج فقال: (**وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي...، وإذا عيسى ابن مريم قائم**

يصلي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي)[24]. وقال أيضا: (**مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره)**[25].

و هذا المقام العالي لهم، إنما مرده إلى ما علمه الله فيهم من الإيمان والإخلاص وتمام العبودية له–عز و جل–. فهم سادة الطاعة والتوبة، لكنه لا ينفي عنهم صفة البشرية، ولا يرفعهم إلى الألوهية أو بعضها. بل هم عليهم الصلاة والسلام رسل لا يُكذَبون وبشر لا يُعبدون، وهذا ما وقع فيه النصارى وغيرهم من المشركين فيما عبدوه من دون الواحد الأحد.

ثم بعد كل هذا.. فالرد كما يظهر جليا مُوجه بخاصة لمن آمن بالسيد المسيح عليه الصلاة والسلام كعبد نبيّ مع الغلو، فكيف والنصارى يعتقدون فيه الألوهية أو بعضها!.

الوجه الثاني:

إنَّ عقوق الوالدين أو أحدهما من أكبر المُهلكات، وليس هذا هفوة أو ذنبا، خصوصا من المسيح عليه السلام سيد الطائعين، والذي شهد بذلك وقرره هو الفرقان العظيم: (**وبرا بوالدتي)**[26]. وجاء في تفسير الآية ما نصه : (...ووصاني أيضا أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، و أقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها[27].

الوجه الثالث:

أنَّ الإنجيل الذي ورد فيه النص يقول النصارى أنه من كلام الله، فهل يرضى الله العلي أن يتضمن كتابه مثل هذا العقوق؟، ولماذا لم يُعاقب الله المسيح أو يعاتبه على الأقل ؟...وهل يرضى الله لشخص هكذا حاله أن يحمل الرسالة والخلاص؟؟.

الوجه الرابع:

أنَّ المسيح عند النصارى ابن الإله أو الإله المتجسد زعما، فإذا كانت هذه أفعال الإله أو ابن الله، فهي بلا شك صفات نقص وضعف، تخلع عنه العبودية. ويتعدى ذلك إلى الذي أوجده ابنا له؛ وبالتالي صار الناس إلى بحثٍ حثيثٍ عن إله جديد كامل وعادل. وكل ذلك يستحيل نقلا وعقلا.

وأمَّا قول القائل أنَّ الخمر في ذلك الزمان كانت حلالا، فإما جهلٌ من القائل بما تحويه الصفحات الكثيرة المتعددة، وإما كذب محض. ذلك أن النصوص الكتابية في تحريم الخمر والنهي عنه قد تواترت عند القوم وتضافرت، وهي مسطرة في العهدين القديم والجديد، و إليك الأدلة على ذلك:

العهد القديم:

* (الزنى والخمر والسلافة تخلب العقل)[28].

* (وكلم الرب هارون قائلا.. خمراً ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك)[29].

* (محب الخمر والدهن لا يستغني)[30].

* (لا تكن من شريبي الخمر بين المتلفين أجسادهم ، لأن السكير والمسرف يفتقران)[31].

* (الخمر مستهزئة، المسكر عجاج، ومن يترنح بهما فليس بحكيم)[32].

* (ويل للأبطال على شرب الخمر ولذوي القدرة على مزج السكر)[33].

العهد الجديد:

(لا تسكروا بالخمرة ، ففيها الخلاعة..)[34].

(أما تعرفون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله ....ولا السيكيرون)[35].

(وأما أعمال الجسد فهي ظاهرة.. والسكر والعربدة...كما نبهتكم من قبل أن الذين يعملون هذه الأعمال لا يرثون ملكوت الله..)[36].

إذن ! فالخمر مُجمعٌ على تحريمها في العهدين القديم والجديد بما لا يدع مجالا للشك وقد بينتْ النصوص السالفة الذكر أضرار الخمر من مثل:

*– أنَّ الخمر يسلب الإنسان العقل فيصير كالحيوان أو أشد.

*– أنَّ الخمر سبب لحصول الفقر لشاربها مهما طال الزمن.

*– أنَّ الخمر تتلف الجسد وتدمره والغرب خير مجرب مجيب عن ذلك.

*– أنَّ الخمر تستهزئ بشاربها فتورده المهالك والمزالق.

*– أنَّ شارب الخمر ليس بحكيم.

*– أنَّ الخمر مقبرة الأبطال والشجعان لأنها تقضي على سر تفوقهم.

*– أنَّ الخمر تؤدي للسكر وهو خلاعة وما بعده شر كذلك.

*– أنَّ من جملة المحرومين من ملكوت الله ونعيمه أهل السكر والعربدة.

والسؤال المحير حقيقة: أكان المسيح عليه الصلاة و السلام يجهل هذه النصوص، وهو المبلغ عن الله العلي أو أنه إله أو ابنه ؟، والجواب المؤكد : لا قطعا ! هو أبعد من أن يجهلها مهما كانت صفته !. ويتجدد السؤال: فلم خالفها ؟ .أليس هذا تمردا ومعصية ؟. ومادامت قد ثبتت أضرار الخمر الكثيرة كما مر وأنها تنفي الحكمة عن شاربها فكيف بالمسيح الذي اختارها لتكون مُعجزته ؟[37].

أليس هذا قدحا في المسيح عليه الصلاة و السلام ؟ وكيف لا يُؤمن به الفسقة والفجرة وهو يحل لهم الحرام المضر؟؟ وبمعجزة !.

وتعود فقرات الإنجيل لتتناقض مجددا فتُحل الخمر بعد تحريمه السالف !!، وإليك الأدلة على ذلك :

* – (لا تقتصر بعد اليوم على شرب الماء بل اشرب قليلا من الخمر من أجل معدتك وما ينتابك من أمراض)[38].

* – ها هو نص يصور المسيح عليه السلام يُخاطب الجموع معرفا بنفسه وأي تعريف : !

(جاء يوحنا المعمدان لا يأكل الخبز ولا يشرب الخمر، فقلتم: فيه شيطان! وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فقلتم: هذا رجل أكول وسكير وصديق لجباة الضرائب والخاطئين. لكن الحكمة يُبررها جميع أبنائها)[39].

* – وتارة يستخدم الخمر – وهي أساس الشرور ورأس الآثام– لضرب الأمثال للناس: (..وما من أحد يضع خمراً جديدة في أوعية من جلد عتيقة، لئلا تشُق الخمر الجديدة الأوعية، فتتلف الخمر والأوعية معا. ولكن للخمر الجديدة أوعية جديدة!)[40].

وهل يجد صُناع الخمر وتُجارُه أفضل توجيه من نصيحة المسيح تلك، للحفاظ على جودة الخمر و عُذوبتها الخمر!. تلك التي سُقتُ لك تحريمها من الكتاب المقدس، وبينتُ لك سوء فعلها بشاربها ومُتعاطيها، ووقف العُقلاء على خطرها وضررها..

ها هو الطعن والتحريف يصل الأقاصي ويبلغ الأعالي من التشويه للشخصية الطاهرة المُطهرة، شخصية السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، عندما تُطالعنا صفحات كتاب النصارى وهي تصوره في حالة متقدمة من السكر الشديد ، نعم السكر الشديد !!. حتى أنه فقد عقله وفعل الأفاعيل – حاشاه من ذلك عليه السلام –..ولنعد الآن إلى الدليل على ما سقته لك، إذ يقول يوحنا ما نصه :

(فقام عن العشاء (أي المسيح) وخلع ثوبه وأخذ منشفة واتزر بها، ثم صب ماءا في مغسلة وبدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي اتزر بها... قال له سمعان:– يا سيد

، أأنت تغسل رجلي ؟)[41]. والنص كما يتضح تحوطه مجموعة من الاستفهامات و الأسئلة والإبهامات من وجوه متعددة :

الوجه الأول:

أنَّ المسيح لا يعدو كونه من البشر لا إلها ولا ابنا له والدليل، أنه يأكل ويتعشى مع غيره فهل الله يتعشى؟، والأكل يعقبه نداء الطبيعة!. وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى لكونها صفات نقص.

الوجه الثاني:

الظاهر تجرد المسيح من ثيابه أمام الملأ من أثر الخمر، فهل يرضى الله العلي بهذا دون أي رد فعل؟ بل ويأذن بأن يُسطر هذا المشهد المروع كاملا في كتابه؟.

الوجه الثالث:

مرت آنفا أضرار الخمر وها هي قد نزلت بالمسيح إلى الحضيض -وحاشاه من ذلك عليه الصلاة والسلام- فعوض أن يُخدم لما له من عظيم المكانة نبيا كان أو إلها !!، ها هو ينزل من العلياء فصار الآن هو الذي يخدم تلاميذه؛ حتى أنَّ التلاميذ تعجبوا واستهجنوا ذلك، ها هو بطرس التلميذ المُخْلص للمسيح يرفض أن يسمح لقدوته أن يغسل رجليه فيقول: (لن تغسل رجلي أبدا)[42].

الوجه الرابع:

تُرى ماذا ظل على جسد المسيح ليستره، ونحن نقرأ أنه قد تجرد من ثيابه كلها، واتزر بمنشفة وغسل أرجل التلاميذ، و شرع يمسحها بالمنشفة تلك التي كانت تستر جسمه العاري.

الوجه الخامس:

و هو كلام أحد علماء النصارى[43] الذي قال مُعلقا على القصة :(وهذا يوهم أن عيسى عليه السلام وقتئذ قد سرت فيه الخمرة حتى لم يكن يدري ما يفعل، فإن غسل الأقدام لا يوجب التجرد من الثياب)[44].

الوجه السادس:

إنَّ الخمر كما مر معنا قريبا تحرم صاحبها وراثة ملكوت الله، فهل المسيح محروم من أن يكون من الوارثين لملكوت الله ؟؟ وبالعودة لكل ما سلف لا يسع النصراني إلا أحد أمرين :

إما أن يقول : نعم ! المسيح سيُحرم وبالتالي تُنسف عقيدة الخلاص التي يصيح بها النصارى في الآفاق، والتي تعني أن المسيح ما جاء إلا ليُخلص العالم من الخطايا. فأول الخاسرين الهالكين يكون هو؛ إذْ أنه سكير ولا نصيب للسكيرين، وعبارة الإنجيل واضحة لا شك فيها ولا ريب: (أما تعرفون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله ....ولا السيكيرون)[45].

وإن قال تحت هول صدمة نتيجة القول الأول : لا ! لا ! هو من الوارثين، يكون حينها النصراني قد وقع في تناقض صارخ لا مفر منه، إلا أن يسلك مسلك الإسلام ومنهج الأمان ويقرأ آيات القرآن العظيم، القائلة أن ما بيد النصارى لم يعد بكلام الله تعالى و لا السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بتلك الصفات ولا غيرها مما سيأتي... وهذا معناه الإسلام ف : (**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**)[46].

3. وصفه بالعقوق لأمه:

نستعرض مجموعة أخرى من نصوص الإنجيل المحرف، التي تؤذي جناب المسيح وأمه الطاهرة عليهما كامل الصلاة والسلام. ويُتهم المسيح فيها بأنه شخص عاق لأمه جاحد لحقها العظيم عليه من الطاعة والاستجابة. وها هي فقرات الإنجيل تصور المسيح – حاشاه من ذلك – مُخاطبا أمه بكل وقاحة:

(ورأى يسوع أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب فقال لأمه يا امرأة، هذا ابنك)[47].

(فقالت له أمه ... فأجابها مالي ولك ، يا امرأة ما جاءت ساعتي بعد).

ومن خلال النصين يتضح العقوق بدون أي مبالغة من وجهين أساسين:

الوجه الأول في معنى الكلام:

فلو أنَّ أي شخص قُرِأ عليه النصان السالفان، وكان هذا الشخص ذا عقل يعمل وقلب يقبل، لقال إنَّ المسيح في النصين لا يحمل لهذه المخاطبة المسكينة أدنى احترام ولا ود ولا حب. ولا أدلَّ على ذلك من طريقة الخطاب التي ترمي في معناها إلى القول: (أي صلة تربط بيني وبينك؟ أفيمكن أن يكون قد نسي أن هذه المرأة نفسها حملته في بطنها تسعة أشهر وربما أرضعته حولين كاملين وتحملت بسببه إهانات وإيذاءات لا نهاية له؟)[48].

هل عجز أن يقول أمي، أماه، أو حتى مريم؟. انظر إلى إبراهيم عليه الصلاة و السلام وهو أبو الموحدين كيف خاطب أباه وهو المشرك الكافر. لكن اقرأه في القرآن الكريم وتحديدا سورة مريم والتي لا يمتلك النصارى لها مثيلا في كتابهم كله يقول الله تعالى:

(**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا*إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا*يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا* يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا**)[49].

الوجه الثاني في مبنى الكلام :

وأقصد الكلمات التي تألف منها خطاب المسيح لأمه من خلال استخدامه لفظ (يا امرأة)، (مالي ولك) ، وقد مر في الوجه الأول الرد على معناهما بما يدل على العقوق الذي يُتهم به المسيح في الإنجيل المحرف.

وأمَّا العقوق في المبنى أي الألفاظ فأدهى وأمر، إذْ ورد في الإنجيل تصوير للمسيح في حادثة مستقلة يخاطب امرأة زانية، مستخدما نفس الألفاظ والعبارات التي استخدمها مع أمه، وها هو النص بعنوانه:

المرأة الزانية

(أما يسوع فخرج إلى جبل الزيتون...وجاءه معلمو الشريعة والفريسيون بامرأة أمسكها بعض الناس وهي تزني، فأوقفوها في وسط الحاضرين وقالوا له يا معلم أمسكوا هذه المرأة في الزنى. وموسى أوصى في شريعته برجم أمثالها، فماذا تقول أنت؟. وكانوا في ذلك

يحاولون إحراجه ليتهموه. فانحنى يسوع يكتب بإصبعه في الأرض. فلمَّا ألحوا عليه في السؤال، رفع رأسه وقال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر. وانحنى ثانية يكتب في الأرض فلما سمعوا هذا الكلام أخذت ضمائرهم تُبكتهم، فخرجوا واحدا بعد واحد، وكبارهم قبل صغارهم، وبقي يسوع وحده والمرأة في مكانها. فجلس يسوع وقال لها :أين هم يامرأة ؟ أما حكم عليك أحد منهم؟ فأجابت: لا، يا سيدي فقال لها يسوع : وأنا لا أحكم عليك. إذهبي ولا تُخطئي بعد الآن)[50].

إذن ! يتجلى وبكل وضوح للعقلاء أنَّ الإنجيل المحرف يساوي جهارا نهارا بين العذراء الطاهرة البتول والمرأة الزانية– نعوذ بالله –، والمصيبة أن يُنسب ذلك للمسيح عليه الصلاة والسلام. ونحن من جانبنا نقول إنَّ أحسن عزاء للنصارى وأبقى منطق لعقولهم أن يعلنوا البراءة التامة العلنية من هذا الكتاب المنسوب لله زورا المصور للمسيح بالأقبح من الأخلاق الذميمة، وإمَّا البراءة من المسيح لأنه لا يستحق أن يكون عبدا صالحا فضلا على أن يكون رسولا، فكيف وهو عندهم إله أو ابنه...ها هو يعق أمه إلى حد فظيع ها هو يتمرد على أحكام الله.

بل إن المسيح بحكم الكتاب المسمى مقدسا يستحق الإعدام والقتل، بسبب موقفه اتجاه أمه!. فقد جاء في سفر اللاويين في العهد القديم الذي جاء المسيح ليُبلغه ويُكمله ويُطبقه: (وكل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يُقتل)[51].

وأما لو عُدنا لموقفه المريب مع المرأة الزانية، فلن تجد جوابا لأكثر من سؤال مطروح من عدة وجوه:

الوجه الأول:

المرأة التي جيء بها إلى المسيح وامتنع هو عن إقامة الحد عليها، ضُبطت متلبسة بجريمة الزنا، أي لم تكن متهمة أو مفترى عليها وعبارة الإنجيل صريحة في ذلك فقد ورد: (...أمسكها بعض الناس وهي تزني..). فكيف يمتنع عن الامتثال للأمر الإلهي ؟؟.

الوجه الثاني:

الذين طالبوا المسيح بإقامة الحد على هذه الزانية تكلموا بالدليل لا من هوى، ها هم يُذكرونه أن شريعة موسى توجب العقاب والحد على الزنا، كما ورد: (وإذا زنى رجل مع امرأة فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يُقتل...)[52]. وورد أيضا: (وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يُقتل والبهيمة تميتونها، وكذلك المرأة إذا زنت مع حيوان كلاهما يُقتلان)[53].

وهذا إذا زنت المرأة مع حيوان فكيف مع الإنسان ؟.

يُضاف لما تقدم أنَّ المسيح اعترف في غير ما موضع للناس أنه جاء متمما لشريعة موسى عليهما الصلاة والسلام، وأنه –كما قال – ما جاء لينقض الناموس.. فهو القائل: (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء: ما جئت لأبطل بل لأُكمل.. فمن خالف وصية من أصغر هذه الوصايا وعلم الناس أن يعملوا مثله، عُد صغيرا في ملكوت السماوات. وأما من عمل بها وعلمها، فهو يُعدُ عظيما في ملكوت السماوات....)[54].

وتأمل العبارة التي جاءت على لسانه فإنها تُفيدنا بأنَّ مخالف أصغر وصية من وصايا الله لعباده، سيُعد صغيرا في ملكوت السماوات، كيف وقائل المقال وهو المسيح قد خالف أحد أعظم الوصايا الإلهية بعدم الزنا. فماله الآن يخالف التعاليم ويُعطلها لعيون زانية ؟.. فكيف سيكون مصيره في ملكوت السماوات ؟.

الوجه الثالث:

المحاورة تضمنت إثبات أنَّ المسيح عبد ورسول معلم، وليس له أي نصيب في الألوهية. والدليل على ذلك أن مُحاوريه ذكروه بحكم شرعي قائم مع الدليل، لاحتمال وقوع النسيان منه أو النسخ أو التحدي حتى. وإنْ كان النسيان والذهول في الحقيقة منتف في حق الأنبياء عليهم السلام عند التبليغ عن الله تعالى شرعه للناس، وإن كانوا بشرا يعتريهم الجهل والنسيان في الأمور الدنيوية، فـ(الرسل يُعدون إعدادا خاصا لتحمل النبوة والرسالة، ويُصنعون صُنعا فريدا)[55].

فكيف والنصارى يعتقدون عن بكرة أبيهم بألوهية المسيح على اختلاف أقوالهم فهل الله ينسى فيُذَكر؟. ثم إنه يُفهم من نص المحاورة أنَّ مُكلمي المسيح عليه الصلاة والسلام في

شأن المرأة الزانية، لم يُريدوا الحق بقدر ما أرادوا إحراجه واختباره كما ورد: (وكانوا في ذلك يحاولون إحراجه ليتهموه). فهل الله يُختبر ويُحرج ويُتهم ؟.وماذا كان تصرف ورد فعل المسيح اتجاههم ؟. لقد قام وبكل اختصار بمخالفة كل النصوص والأدلة وذلك بُغية إغاظة أعدائه.

الوجه الرابع:

لقد ورد عن السيد المسيح في موضع آخر إخباره بحرمة الزنا في ثلاثة مواضع على الأقل! وإليك الأدلة:

* (وأقبل إليه شاب وقال له: أيها المعلم، ماذا أعمل من الصلاح لأنال الحياة الأبدية ؟ فأجابه يسوع:...إذا أردت أن تدخل الحياة فاعمل بالوصايا فقال له :أي وصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل، لاتزن ...)[56]

* (فأسرع إليه رجل وسجد له وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: ....أنت تعرف الوصايا: لا تقتل، لاتزن..)[57].

* (فقال له أحد الوجهاء: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فأجابه يسوع: ....أنت تعرف الوصايا: لاتزن....)[58].

الوجه الخامس:

المحاورة تصور المسيح بعدم إخلاص النية في عمله لله، وهذه التهمة الباطلة واضحة من خلال الفقرات. فقد خاف الناس وراعاهم دون الله في تطبيق أحكامه الشرعية، فهل يقول هذا رجل عاقل متزن في نظره وتفكيره في حق أحد أعظم خمسة من الرسل أولي العزم عليهم الصلاة والسلام. والنصارى يصرون على نصيبه في الألوهية.

الوجه السادس:

لقد صورت المحاورة السيدَ المسيح رجلا متقاعسا عن الاستجابة لأمر الله عز وجل، بغض النظر عمن قال به أو صدق نيته، فعوض أن يهب لتطبيق الحد الشرعي على المرأة الزانية، نراه ينشغل عن ذلك بالكتابة في الأرض بإصبعه. تُرى هل كان مترددا ؟، أم خائفا؟

أم غير مكترث ؟. ثم إنَّه لم يلتفت إلى مُحدثيه إلا بعد أن ألحوا عليه، فهل من تفسير منطقي لكل ذلك.

الوجه السابع:

لقد آلت المحاورة في الأخير إلى نتيجة غير منطقية بكل المعايير، فلما طلب المحاورون ثم ألحوا على المسيح بإقامة الحد شرعي فيما لا لُبس فيه، ما كانت حجته إلا القول فيما معناه: هل أنتم صافون من الذنوب حتى تطلبوا إقامة الحد الشرعي ؟. وهذا من العجب بما كان؛ فما دخل هذا بإقامة الحد من عدمه، وهل يُعقل أن يُصوِرِ النص المطالبين بإقامة الحد الشرعي هم الظالمين ؟.

وكيف يستقيم ذلك مع حكمة الله التي اقتضت إرسال موسى عليه السلام بشريعة واضحة بأحكام وحدود. ثم إرسال عيسى عليه السلام متمما لها، لكنه- أي عيسى – عوض أن يقوم بواجبه وهو السير عليها وإتمامها، وفضح تحريفات اليهود، وأداء الأحكام والحدود الشرعية؛ يعود فيُخالفها جهارا نهارا، وعلى من يقع اللوم الإلهي وتأنيب الضمير؟، على الذين يطلبون منه تطبيق شرع الله واقرأ العبارة: (فلما سمعوا هذا الكلام أخذت ضمائرهم تُبكتهم....)!.

الوجه الثامن:

وبعد كل هذا المد والجزر تُرى بماذا انتهت هذه القصة المحيرة المريبة؟. لقد بقي المسيح لوحده مع المرأة الزانية بعد انصراف الناس الظالمين!، حتى أنه لم يُحس بذهابهم إلاَّ بعد أن سأل الزانية أحكموا في أمرها أم لا فأجابت أن لا !.. حينها أصدر حكمه على هذه الجريمة الشنعاء وقال: (وأنا لا أحكم عليك إذهبي ولا تُخطئي بعد الآن). وهكذا وبكل سهولة تُداس الشرائع المنزلة لعيون الزواني ، فإذا كان هذا تصرف الله أو ابنه أو أيا كان حاله، فلا لوم إذا على الفساق من العباد في الانغماس في الشهوات والملذات؛ ولو حطمت القيم عندهم والمبادئ، مادام إلههم هو أول الفاعلين، فهل يقبل العقل الصحيح هذا الاستنتاج المستقى من فقرات الإنجيل!.

ثم إنَّ المسيح بقوله الأخير للزانية ذاك قد فتح أبواب الزنا على المصراعين للجميع، فما معنى أن يقول من يُفترض به إقامة الحدود لزانية متلبسة بالجُرم المشهود على ما في الزنا من الأخطار والمهلكات والآفات: (إذهبي ولا تُخطئي بعد الآن).

هذه والله أفعال أخسّ الناس، و أوكسهم فطرة، وفكرة، وأخبثهم نفسا، و أجرأهم على المعصية، فهل يرضى النصراني الطيب البسيط هذا في الله العظيم؟، و هل يقبله في السيد المسيح ؟. إنْ قال: نعم ! كفر بالمسيح وربه. وإنْ قال: لا ! لزمه إذن البراءة من منبع كل هذا الشر المستطير، أعني الكتاب المسمى مقدساً . وأيّ قداسة فيما نقلنا وناقشنا!.

4. وصفه بالأنانية :

أستعرض هنا نصوصا مع الأسف الشديد تنال من جناب السيد المسيح عليه الصلاة والسلام وذلك، من خلال وصفه بالأنانية وحب الذات – عياذا بالله -. ولا يخفى على العاقل، ذميم هذا الخلق وأثره على الفرد والمجتمع، فإنه ينزل بصاحبه من العلياء إلى سحيق الدركات ووضيع الدرجات، وهذا في حق عوام الخلق، فكيف والنصارى يصرون على رفع المسيح عليه الصلاة والسلام لدرجة الألوهية أو بعضها. ومرجعنا في كلامنا دائما إلى الكتاب الذي بيد النصارى، وها هي قصة بأكثر من وجه بعنوان:

امرأة تسكب الطيب على رأس يسوع المسيح

(وبينما يسوع في بيت عنيا عند سمعان الأبرص، دنت منه امرأة تحمل قارورة طيب غالي الثمن، فسكبته على رأسه وهو يتناول الطعام، فلما رأى التلاميذ ما عملت، استاؤوا وقالوا: (ما هذا الإسراف ؟كان يمكن أن يُباع غاليا، ويوزع ثمنه على الفقراء!) فعرف يسوع وقال لهم: (لماذا تزعجون هذه المرأة ؟ فهي عملت لي عملا صالحا فالفقراء عندكم في كل حين، وأما أنا فلا أكون في كل حين عندكم، وإذا كانت سكبت هذا الطيب على جسدي فلتهيئه للدفن، الحق أقول لكم: أينما تعلن هذه البشارة في العالم كله، يحدث أيضا بعملها، إحياء لذكرها)[59].

وفي موضع آخر:

امرأة تسكب الطيب على رأس يسوع المسيح

(وبينما يسوع في بيت عنيا، عند سمعان الأبرص، يتناول الطعام، جاءت امرأة بيدها قارورة طيب غالي الثمن من الناردين النقي، فكسرت القارورة وسكبته على رأسه فاستاء بعض الحاضرين وقالوا فيما بينهم:(ما هذا الإسراف في الطيب؟ كان يُمكن بيعه بأكثر من ثلاث مئة دينار توزع على الفقراء!) و أخذوا يلومون المرأة فقال يسوع: (اتركوها، لماذا تُزعجونها ؟ هذا عمل صالح عملته لي، فالفقراء عندكم في كل حين، ومتى أردتم تقدرون أن تُحسنوا إليهم وأما أنا فلا أكون في كل حين عندكم. وهذه المرأة عملت ما تقدر عليه، فسكبت الطيب على جسدي لتُهيئه للدفن. الحق أقول لكم، أينما تُعلن البشارة في العالم كله، يُحدث أيضا بعملها هذا إحياء لذكرها)[60].

وفي موضع آخر:

مريم تسكب الطيب على رجلي يسوع المسيح

(وقبل الفصح بستة أيام، جاء يسوع إلى بيت عنيا ونزل عند لعازر الذي أقامه من بين الأموات، فهيأوا له عشاء، وأخذت مرتا تخدم، وكان لعازر أحد الجالسين معه للطعام. فتناولت مريم قارورة طيب غالي الثمن من الناردين النقي وسكبتها برائحة الطيب، فقال يهوذا الإسخريوطي، أحد تلاميذه وهو الذي سيُسلمه :(أما كان خيرا أن يُباع هذا الطيب بثلاث

مئة دينار لتوزع على الفقراء ؟) قال هذا لا لعطفه على الفقراء، فيختلسُ ما يودع فيه، فقال يسوع: (اتركوها ! هذا الطيب حفظته ليوم دفني. فالفقراء عندكم في كل حين، وأما أنا فلا أكون في كل حين عندكم)[61].

إذن ! لا يبقى فيما نقلته شك على ما قدمته للقارئ المنصف. فالمسيح عليه الصلاة والسلام بمنظور هذه الفقرات الالهية ! شخصٌ مُقدِسٌ لنفسه إلى درجة يصعب تخيلها. ها هو يسمح لامرأة أن تسكب الطيب الغالي ثمنه على بدنه أو جزأ منه، بل وتتفانى في الإسراف بما لا يقبله عقل. في الوقت الذي كان يمكن استخدام ثمنه في إغاثة الجوعى، والأخطر من ذلك كله تذللها العظيم في الخدمة، والذي لا يجوز صرفه إلا لله عز و جل، والمصيبة رضا المسيح عن ذلك. ولا يخفى على القارئ المتمعن أن النصوص المذكورة، بها شتى التضارب الصارخ و الغموض الواضح وهذه المرة من وجوه تسعة:

الوجه الأول :

* (مرقس) جعل توقيت القصة بيومين قبل عيد الفصح .
* (متى) سكت عن بيان القبلية .
* (يوحنا) وقتها بستة أيام قبل عيد الفصح[62].

الوجه الثاني:

* (متى) و(مرقس) صرحا أن المرأة صاحبة الطيب مجهولة الهوية؛ فعنون كل واحد منهما نصه بذلك كما مر فالأول قال (دنت منه امرأة) والثاني(جاءت امرأة).
* (يوحنا) ينفرد بمعرفة هوية هذه المرأة ويقول بكل ثقة و ثبات أنها مريم وهي أخت لعازر صديق المسيح الذي أحياه معجزة من الله. وقال (يوحنا) في موضع آخر تأكيدا لذلك ما نصه : (ومرض رجل اسمه لعازر من بيت عنيا من قرية مريم و أختها مرتا ومريم هذه هي التي سكبت الطيب على قدمي الرب يسوع ومسحتهما بشعرها ...)[63].

الوجه الثالث:

* (مرقس) و (يوحنا) انفردا بتسمية نوع الطيب و أنه من الناردين النقي.

* (متى) يُبهم ما يعني جهله ويكتفي بعبارة قارورة طيب غالي الثمن. فهل يأتي الوحي للبعض كاملا ولغيرهم ناقصا !.

الوجه الرابع :

* (متى) و(مرقس) يصرحان أن المرأة المجهولة سكبت الطيب على رأس المسيح .

* (يوحنا) يكذبهما ويقول إن مريم صاحبة العطر إنما سكبته على قدمي المسيح، والفرق بل التناقض جلي فهل كان الصب على الرأس أو القدمين ؟. فإن قال قائل: ألا يمكن الجمع ؟ فالجواب الأكيد لا ! لأني لا أظن أن محتوى قارورة العطر يكفي الرأس و القدمين !.

الوجه الخامس:

* (متى) يخبرنا أن المستائين من فعل المرأة هم التلاميذ كلهم دون تحديد.

* (مرقس) يجهل ويُبهم ويعلق الاستياء على بعض الحاضرين .

* (يوحنا) يناقض الجميع كعادته ويقول أن الاستياء كان من واحد من التلاميذ الحاضرين وهو (يهوذا الإسخريوطي)، ويصفه باللص و أنه هو الذي سيُسلم المسيح لليهود لأجل قتله.

الوجه السادس:

* (متى) يذكر أن التلاميذ قدروا أن ثمن الطيب المُهْدر، كان يمكن الاستفادة منه من خلال بيعه غاليا وتوزيعه على الفقراء. و(متى) في كل ذلك لم يحدد الثمن لا 1 دينار ولا 2000 دينار ولا غيره...

* (مرقس) يسلك مسلكا آخر فيخبر أن بعض الحاضرين قدروا ثمن الطيب بأكثر من 300 دينار أي 301 دينارا، أو 360 دينارا أو 700 دينارا أو 1000 دينارا إلى ما شاء الله تعالى.

* (يوحنا) يناقض الكل منفردا ومؤكدا أن (يهوذا الإسخريوطي) اللص، قدر ثمن الطيب بثلاث مئة دينار أي 300 دينار فقط ! لا أكثر ولا أقل !.

الوجه السابع:

شمل التناقض حتى موضوع الاستياء من خلال:

* (متى) أخبر أن التلاميذ قالوا : (ما هذا الإسراف ؟) – هكذا عاما – مما يشمل الاستياء من تذلل المرأة؛ وضياع العطر بلا فائدة؛ ورضا المسيح بذلك كله.

*(مرقس) يرى أن بعض الحاضرين قيدوا الاستياء على الكمية الكبيرة التي ضيعتها المرأة فقط فقالوا : (ما هذا الإسراف في الطيب ؟). أي أن اعتراضهم كان على الإسراف في استخدام المرأة للطيب، لكنهم راضون عن فعلها و تذللها اتجاه المسيح وسكوته عن ذلك.

* (يوحنا) له وجهة نظر أخرى مستقلة !؛ فهو يرى أن (يهوذا) اللص، لم يكن يهمه لا فعل المرأة ولا رضا المسيح ولا الفقراء. إنما الذي استاء له ضياع قيمة الطيب التي كان يمكنه اختلاسها من الصندوق وهو أمينه .

الوجه الثامن :

* (متى) و(مرقس) يصرحان أن المستائين مهما كانت هويتهم، قد لاموا المرأة على فعلها. وهذا دليل وشهادة على سوء ما جاءت به من الإسراف. وكان الواجب أن يتدخل المسيح؛ فيُقرهم على ذلك من جهة ويتوجه للمرأة بالنصح والتعليم؛ بأنها مشكورة على فعلها اتجاهه، مما يدل على محبتها له واحترامها. لكن ذلك لا يجوز لأن فيه تبذيرا للمال الذي يمكن أن يستفاد منه في شيء آخر أهم. والأخطر والأهم أن لا تعاود مثل هذا التعظيم والتذلل فإنه لا يجوز إلا لله تعالى.

وبدلاً عن ذلك يُفاجئنا الكتاب المقدس، مُصورا السيد المسيح راضيا عن فعل المرأة ومُقرا لها بسكوته. بل و رافضا ومُشنعا على من اعترض على تصرفها. إنه يؤكد أن فعلها خير بل (عمل صالح)!!، وحجته في ذلك أن الفقراء متوفرون في كل حين بخلافه هو!.

* أما (يوحنا) فأمره عجيب وتفسيره غريب وقوله مريب. ها هو يُناقض الجميع وفي كل شيء، مُخبرا بكل ثقة ويقين، أن (يهوذا الإسخريوطي) اللص لم يُنكر على المرأة، حُبا في الله تعالى ولا فيها ولا في الفقراء !. وإنما لأجل أن يسرق المال كما اعتاد. وهذا التحليل لم

يرد عند صاحبيه فمن أين له به، وهو الذي جاء بعدهم ؟؟ أيمكن أن الله نسي ؟ أو أراد تصحيح وحيه الأول ؟؟.

الوجه التاسع:

القصة بتفصيلاتها المتناقضة كما مر كلها أخرجت لنا المثال المشوه، لشخصية متعالية أنانية متكبرة. المهم! أنَّ الصورة التي ارتسمت على صفحات الإنجيل في هذه القصة، تتحدث عن الأنانية وحب النفس وتقديس الذات. يُضاف له الكذب والتدليس، والدليل قول المسيح:(عاملوا الآخرين مثلما تريدون أن يعاملوكم)[64]. فهل صَوَرَهُ الانجيل يُعامل الغير كما عاملته هذه المرأة؟. ألم تُصوره النصوص يغسل أرجل تلاميذه مثلا وهو مخمور عار. أهكذا يُعامل الناس، والذين منهم من تكلف الطيب الغالي والدموع؟.

والنتيجة أبشع صورة للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام. وإننا لا نشك البتة أنه – سلام الله عليه – بريء من كل نقيصة وسوء. والذنب كل الذنب على من كذب وكتب ونسب الى الله تعالى. وهل يرضى أحد بذلك في ظل رسم شخصية شريرة ظلامية للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

وتبقى في الحقيقة أسئلة عديدة بلا جواب عن قصة يوحنا والمرأة والطيب:

فمن أمد يوحنا بهذه القصة ؟. وكيف يجهل المسيح وهو الإله أو ابنه أو بعضه حقيقة أحد تلاميذه الخونة ؟.كيف يحمل المسيح رسالة الخلاص للناس، ولا يستطيع أن يخلص نفسه من (يهوذا) الخائن اللص ؟.كيف يُحيي ويشفي ولا يدري عن شيء بسيط كهذا ؟، ولماذا لم يتدخل الله الوالد الأب لحماية ابنه من فخ تلميذ خائن، لا يعدو أن يكون إلا بشرا ضعيفا أمام قوة الإله ؟. ولماذا يا ترى يرضى الله العلي من المسيح كل هذه الأنانية والتعالي في التعامل؟. و إذا كان المسيح وهو الإله أو ابنه أو بعضه أنانيا ألا يتعدى ذلك للذي ولده؟.

فإن قال قائل إن القصة التي جئتم على ذكرها ليست واحدة، بل تكررت عدة مرات.

فالجواب من خمسة وجوه:

الوجه الأول:

من الصعب أن تتكرر القصة وبطلتها دوما امرأة لاسيما بنفس التفاصيل.

الوجه الثاني:

من الصعب كذلك أن يكون دائما توقيت القصة وقت طعام الضيافة.

الوجه الثالث:

لو كانت القصة تكررت أكثر من مرة ما كان يجوز للتلاميذ أو الحضور الاعتراض على فعل المرأة، لأنهم كانوا مع المسيح في المرة السابقة، وقد رأوا لما صوب فعل المرأة وخطّأهم فكيف يرتكبون نفس الخطأ مجددا ؟!.

الوجه الرابع:

و هل في كل مرة يكون ثمن العطر 300 دينارا أو أكثر ؟؟.

الوجه الخامس:

* وهل يرضى المسيح في كل مرة بإهدار ما لا يقل عن 600 دينار أو أكثر بكثير ؟

فإن كان الجواب: نعم ! لزم إذن الاعتراف مجددا، أنَّ المسيح شخص أناني، وليست هذه صفات الإله الهادي المخلص، ولا النبيّ العبد المبلغ المُدرس، وتنسف بالتالي عقائد النصارى كلها.

وإن كان الجواب: لا ! إنَّ المسيح ليس أنانيا، فيتحتم حينها تكذيب الخبر الوارد في الإنجيل. وأما إن قيل إن المسيح لم يكن ليرضى أن يُهدر مبلغٌ ضخمٌ كالذي قدرتم و قد يزيد. فحينها نكون قد تأكدنا أن القصة حصلت مرة واحدة فقط، و أن التناقض ليس وحيا من الله بل هو عادة مؤلفي ومحرفي الأناجيل.

الخاتمة:

إن الكلام عن وسطية الإسلام أوسع من أن تحتويه السطور والصفحات، مهما انبرى لذلك الباحثون والمتخصصون، إذْ أن هذا الدين متناسق الأحكام، واضح الرؤى. يُنظم حياة الناس، و يبني لهم إلى السعادة سلما. يحدد لهم الأولويات وهي عبادة الله وحده لا شريك

له. والايمان بالغيب وتصديقه ومنه الأنبياء والمرسلون، مع محبتهم وتنزيههم عن كل ذميمة أو منقصةٍ. فلا يُكذَبون ولا يُعبَدون.

وأود حقيقة أن أسجل النقاط والنتائج التالية:

1- واجب المسلمين – خصوصا نخبتهم العلمية - في تبيين وسطية الإسلام ونقائه، – رغم كل المحاولات – للتحريف أو التزييف، أو سب الله تعالى والحط من مقام الرسل عليهم السلام كما قد يُشاع. فلابد للمسلم الموحد أن يكون على بينة من أمره، قادرٍ على الرد والشرح متى ما اضطر لبيان الحق؛ إذْ أنه يؤمن بالرسل والانبياء عليهم السلام جميعا، ويُحبهم لأمر الله بذلك في كتابه في غير ما موضع:

* (**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)[65].

* (**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ..**)[66].

* (**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)[67].

وقد جاء في الحديث الشريف وصف النبي الخاتم لأخيه عيسى عليهما الصلاة والسلام، وأنه لم يمت، بل مرفوع مكرم، ثم نازل فناصر ومنتصر: (**الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه، ليس بيني وبينه نبي**

وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه. رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام. ويهلك الله المسيح الدجال، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم. فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون)[68].

2- أن يقف القارئ المنصف اللبيب مهما كانت ملته على مصداقية الكتاب المقدس بنفسه، فإن خللا واحدا في كلام أحد ما كاف لرده، وانهياره إذا ناقض بعضه بعضا، فكيف لو نُسب الى الله تعالى.

3- ليستشعر المسلم النعمة التي هو عليها بالقرآن الكريم خاتم الكتب وأفصحها لسانا وأبينها حلالا وحراما. فإذا وقف على الفرق بين القرآن العظيم وغيره مما لم يعد كلام الله تعالى، ودخله التحريف والتزييف حينها استمسك بالعروة الوثقى واعتصم بحبل الله العظيم فلم تزل به القدم ذات اليمين أو الشمال. وبضدها تتبين الأشياء كما يُقال..

4- للحذر من ألاعيب المنصرين وحيلهم التي يخلطون بها الباطل بالحق، فلا يعود ظاهرا بينا، وينسبون ذلك الى الله والى رسوله المسيح عليه السلام فيحصل التلبيس على الناس .

5 – مثل هذه الكتابات تبقى مهمة متجددة النفع بما كان، لتربية النشء المسلم وتعليمه وتحذيره من الانزلاق الى الكفر والزيغ عن طريق الإسلام.

وأسأل الله تعالى في ختام هذه الورقة البحثية أن يجعلها في ميزان الحسنات، وأن ينفع بها الباحثين عن الحقيقة.

قائمة المراجع:[1]

** القرآن الكريم

أحمد. محمد خليفة حسن، مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، القاهرة، 1417 هـ – 1996.

الأب بي. براناتيس، فضح التلمود، تعاليم الحاخاميين السرية، اعداد، زهدي الفاتح، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط4، 1412 هـ – 1991 م.

الأزدي. سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، اعتنى به، عبد الفتاح أبو غُدة، ج 1 – 2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط 3، 1414 – 1994.

الأشقر. عمر سليمان عبد الله، الرسل والرسالات ، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، ط4، 1410 هـ - 1989 م.

الألباني. محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، اعتنى به، مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1425 هـ – 2004 م.

الباجي، علاء الدين علي، كتاب على التوراة أو الرد على اليهود، تحقيق، السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، ط1، 2007.

البار. محمد علي، الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دراسة مقارنة، دار القلم، دمشق، ط1، 1410 هـ – 1990م.

آل البسام. عبد الله بن عبد الرحمان ابن صالح، تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، تحقيق، محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الصحابة، الامارات، ط10، 1426 هـ – 2006 م.

الجوهرى. علي، حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة.

الحاج. محمد أحمد، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم، دمشق، ط1، 1413 هـ – 1992 م.

أبو زيد. وصفي عاشور، معالم الوسطية في الوقاية من العنف والتطرف، سلسلة قضايا اجتماعية واسلامية، ع34، 1431هـ.

البار .محمد علي، الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دراسة مقارنة، دار القلم، دمشق، ط1، 1410 هـ – 1990م.

ديدات، أحمد، المسيح في الإسلام، ترجمة، محمد مختار، مكتبة ديدات، د ط، 1411 هـ – 1990 م.

السعدي. عبد الرحمان، تفسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، اعتنى به، عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، والتوزيع ط 1، 1423 هـ – 2002 م.

سعيد. حبيب، المدخل إلى الكتاب المقدس، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة.

شلبي. أحمد، مقارنة الأديان، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، ط 10، 1998.

عبد العزيز. زينب، تنصير العالم، مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، مكتبة الوفاء، المنصورة، ط1، 1415هـ – 1995 م.

عبد الفتاح. سند أحمد، رؤية شيخ الإسلام ابن تيمية للوسطية والاعتدال في الإسلام، أبحاث مؤتمر دور الجامعات العربية في تعزيز مبدأ الوسطية بين الشباب العربي.

العسقلاني. أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، اعتنى به، محمد فؤاد عبد الباقي وحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، د ط، مصر، 1407 هـ / 1986 م.

الفغالي. بولس، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، جمعية الكتاب المقدس، بيروت، ط1، 2003.

مجموعة مؤلفين، بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو.

المسكين. الأب متى ، المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا، دراسة وتحليل، ط 1، 1990، مطبعة دير القديس أنبا مقار.

مجموعة مؤلفين، مدخل إلى الكتاب المقدس، ترجمة، نجيب الياس، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1993.

مجموعة مؤلفين، المنجد الأبجدي، ط6، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1986.

مجهول، الكتاب المقدس، ط 2، 2001، جمعية الكتاب المقدس، لبنان.

المهدلى .السيد محمد عقيل بن علي، التمهيد لدراسة الأناجيل الأربع وإنجيل برنابا، دار الحديث، القاهرة، ط2.

الموصلي. أبو يعلى، مُسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق، حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، بيروت، ط 2، 1412 هـ – 1992 م.

النيسابوري. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1375هـ - 1955 م، ج1.

الهندي. رحمة الله، إظهار الحق، تحقيق، أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، دار ابن الهيثم ط1، 1426هـ / 2005م، ج 1.

هوامش:

1 للإحاطة بمعنى الانجيل والعهد القديم والعهد الجديد والتوراة، يُراجع: الهندي، رحمة الله. (1426هـ / 2005م). إظهار الحق. تحقيق: أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، دار ابن الهيثم، ط: 1، ج: 1، ص ص:57 – 86، الباجي، علاء الدين علي. (1998). كتاب على التوراة أو الرد على اليهود. تحقيق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، ط:1، 2007، ص:4، شلبي، أحمد. (1998). مقارنة الأديان، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، ط: 10، ص: 205- 206-207، المهدلى ، السيد محمد عقيل بن علي، (2001). التمهيد لدراسة الأناجيل الأربع وإنجيل برنابا، دار الحديث، القاهرة: ط:2، ص: 9، الكتاب المقدس، ط: 2، جمعية الكتاب المقدس، لبنان، مدخل عام، مجموعة مؤلفين. (1986). المنجد الأبجدي، ط:6، دار المشرق، بيروت، لبنان، ص: 157، مجموعة مؤلفين، مدخل إلى الكتاب المقدس، (1993). ترجمة: نجيب الياس، دار الثقافة، القاهرة، ط:1، ص

ص: 8 – 621، حبيب، سعيد. (2003). المدخل إلى الكتاب المقدس، دار التأليف والنشر للكنيسة السقفية، القاهرة، ص ص: 9 – 375، الفغالي، بولس. المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، جمعية الكتاب المقدس، بيروت، ط:1، ص ص:1 – 1444.

2 للمزيد، انظر: زينب، عبد العزيز.(1415ه – 1995 م). تنصير العالم، مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، مكتبة الوفاء، المنصورة، ط1:، ص ص: 8 – 121.

3 زينب، تنصير العالم. مرجع سابق، ص: 26، و ص ص: 96 – 111.

4 راجع: علي. الجوهرى، حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ص ص: 6 – 267، أحمد. محمد خليفة حسن ، (1417 ه – 1996). مدخل نقدي إلى أسفار العهد القديم، القاهرة، ص ص: 9 – 251، الأب بي. براناتيس، (1412 ه – 1991 م)، فضح التلمود، تعاليم الحاخاميين السرية، اعداد، زهدي الفاتح، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط:4، ص ص: 5 – 180، الحاج. محمد أحمد ، (1413 ه – 1992 م). النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم، دمشق، ط:1، ص ص: 5 – 305.

5 الألباني. محمد ناصر الدين، (1425 ه – 2004 م). سلسلة الأحاديث الصحيحة، اعتنى به، مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط:1، ص: 567 برقم: 314.

6 عبد الفتاح. سند احمد ، رؤية شيخ الإسلام ابن تيمية للوسطية والاعتدال في الإسلام، أبحاث مؤتمر دور الجامعات العربية في تعزيز مبدأ الوسطية بين الشباب العربي، ص ص: 20 – 30، أبو زيد. وصفي عاشور، (1431ه). معالم الوسطية في الوقاية من العنف والتطرف، سلسلة قضايا اجتماعية واسلامية، ع34، ص ص: 85 – 93.

7 انظر عن ذلك: البار. محمد علي، (1410 ه – 1990م). الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم، دراسة مقارنة، دار القلم، دمشق، ط:1، ، ص ص: 5 – 549.

8 عن مفهوم الوسطية وتأصيلاها وتمثيلاتها، راجع: مجموعة مؤلفين، بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، دط، دت، ص ص: 4 – 276.

9 نظرا لضيق المقام اقتصرت على بعض المطاعن وإلا فهناك غيرها كثير.

10 انظر تعليق الأب متى المسكين، (1990). المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا، دراسة وتحليل، ط: 1، مطبعة دير القديس: أنبا مقار، القاهرة، ص:87.

11 يوحنا، 2 : 1 –11.

12 يوحنا، مصدر سابق، 4 : 46.

13 ديدات. أحمد، (1411 هـ – 1990 م). المسيح في الإسلام، ترجمة: محمد مختار، مكتبة ديدات، د ط، ص: 63.

14 سورة الانعام: الآية: 137، الأشقر. عمر سليمان عبد الله ، (1410 هـ - 1989 م). الرسل والرسالات ، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، ط:4، ص: 74-75.

15 راجعها بتمامها في سورة الكهف.

16 سورة الحجر: الآية: 52 – 53، و سورة هود: الآية: 70.

17 سورة الأعراف: الآية: 150.

18 العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر، (1407 هـ / 1986 م). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، اعتنى به، محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، د ط، مصر، كتاب السهو، برقم: 1166 وما بعده.

19 آل البسام. عبد الله بن عبد الرحمان ابن صالح ، (1426 هـ – 2006 م). تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الصحابة، الامارات، ط:10، ص: 179.

20 ابن حجر، فتح الباري. مصدر سابق، كتاب المناقب، برقم: 3377، الألباني، الصحيحة، ص:574، برقم: 3133، و ص: 577، برقم: 3174.

21 الألباني، الصحيحة. مصدر سابق، ص:575، برقم: 3136.

22 الأزدي. سليمان بن الأشعث السجستاني، (1414 – 1994). سنن أبي داود، اعتنى به، عبد الفتاح أبو غُدة، ج 1 – 2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: 3، كتاب الصلاة، تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، برقم: 1047.

23 الموصلي. أبو يعلى، (1412 هـ – 1992م). مُسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، بيروت، ط: 2 ،ج: 6، برقم: 3425، الألباني، الصحيحة، ص: 576 – 577، برقم: 3141.

24 النيسابوري. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، (1375هـ - 1955 م). صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط:1، ج:1، كتاب الايمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، برقم: 172.

25 مسلم. مصدر سابق، كتاب الفضائل، ج:4، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، برقم: 2375 ، الألباني، الصحيحة، ص: 586، برقم: 3198.

26 سورة مريم: الآية: 32.

27 السعدي. عبد الرحمان، (1423 هـ – 2002 م). تفسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، اعتنى به: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، والتوزيع ط 1، ص:492.

28 هوشع. مصدر سابق: مصدر سابق: 4: 11.

29 اللاويين. مصدر سابق: 8/10-10.

30 الأمثال. مصدر سابق: 17/21.

31 المصدر السابق، 20/23-21.

32 المصدر السابق، 1/20.

33 إشعياء. مصدر سابق: 22/5.

34 أفسس. مصدر سابق: 18/5.

35 كورونثوس الأولى. مصدر سابق: 9/6-10.

36 غلاطية. مصدر سابق: 19/5-21.

37 انظر التفسيرات الباطنية التي قدمها، الأب متى المسكين، المدخل لشرح إنجيل القديس يوحنا، دراسة وتحليل، ط 1، 1990، مطبعة دير القديس أنبا مقار، القاهرة، ج 1، ص ص 169 – 179.

38 ثيماوس الأولى. مصدر سابق: 23/5.

39 لوقا. مصدر سابق: 7 : 35/33.

40 مرقس. مصدر سابق: 2 / 22.

41 يوحنا. مصدر سابق: 13 /4 -6.

42 يوحنا. مصدر سابق: 13: 8.

43 فاندر صاحب كتاب: ميزان الحق، لا تحريف في التوراة والإنجيل، ج 1، دار الهداية، دت، دط.

44 الهندي، إظهار الحق. مرجع سابق، ص 320.

45 كورونثوس الأولى. مصدر سابق: 9/6-10.

46 سورة: ءال عمران: الآية: 63.
47 يوحنا. مصدر سابق: 19 / 26 –27.
48 ديدات، المسيح في الإسلام. مرجع سابق، ص 67.
49 سورة مريم: الآية: 40 - 44.
50 يوحنا. مصدر سابق: 1 /11.
51 يوحنا. مصدر سابق: 9 / 20.
52 في سفر اللاويين الإصحاح18 وأيضا الإصحاح 20 / 10.
53 اللاويين. مصدر سابق: 20 / 15-17.
54 متى. مصدر سابق: 5/ 17- 19.
55 الأشقر، مرجع سابق، ص 64.
56 متى. مصدر سابق: 19 /16 –19.
57 مرقس. مصدر سابق: 10 /17 –19.
58 لوقا. مصدر سابق: 18 / 18 – 19.
59 متى. مصدر سابق: 26/ 6-12.
60 مرقس. مصدر سابق: 14/ 3-9.
61 يوحنا. مصدر سابق: 12/ 1-8.
62 رحمة الله، مرجع سابق، ص128.
63 يوحنا. مصدر سابق: 11 / 1-3.
64 متى. مصدر سابق: 17 / 7.
65 سورة البقرة: الآية: 136.
66 سورة البقرة: الآية: 285 – 286.
67 سورة آل عمران: الآية: 84.
68 الألباني، الصحيحة. مصدر سابق: ص 576، برقم: 3140.

سوسيولوجيا المرأة عبر التاريخ

Women's Sociology Through History

صالحي دليلة[1]

[1] جامعة حمه لخضر الوادي، salhisalhi622@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/ 07 **تاريخ القبول**: 2021/04/29 **تاريخ النشر**: 2021/05/05

ملخص:

ظهرت العديد من النظريات والتيارات التي تناولت قضية المرأة وحاولت وضع تصورات لدورها ومكانتها في المجتمع، ففي العالم الغربي حاولت النظريات(الوظيفية والماركسية والرأسمالية، الاشتراكية وحتى التفاعلية الرمزية) إسقاط نتائجها وفرضياتها على واقع المرأة وتفسيرها من منطلق النوع الاجتماعي، من خلال وضع معيار الجنس كأساس لتقسيم الأدوار والمواقع الاجتماعية، وفي العالم العربي ظهرت العديد من الإيديولوجيات التي يستند بعضها إلى الدين، والبعض الأخر إلى المنطق الغربي وغيرها.

في حين أن الديانات الإلاهية قد نصت على أن المرأة جزء مهم في الحياة ودعامة أساسية في بناء المجتمعات، لها مالها من حقوق وعليها ما عليها من واجبات، في حدود ما تسمح به تركيبتها البيولوجية والحدود الشرعية لكل ديانة، غير أن التحريف الذي طال الكتب السماوية قد حرف كل ذلك، إلا الدين الاسلامي الذي حُفظ من التحريف وبذلك حفظ مكانة المرأة وصورتها المشرقة في الحياة. وفيما يلي سنفصل في كل الاتجاهات.

الكلمات الدالة: المرأة. الدور.، الاسلام. المجتمع.

Abstract

Many theories and currents that dealt with the issue of women and tried to conceptualize their role and place in society have emerged. In the Western world, theories (functional, Marxist, capitalist, socialist and even symbolic interactive) have tried to project their results and hypotheses on the reality of women and their interpretation from the

[1] المؤلف المرسل: دليلة صالحي: salhisalhi622@gmail.com

point of view of gender, by establishing the standard of sex as a basis for dividing social roles and positions, and in the Arab world many ideologies, some based on religion, others have emerged on western logic and others.

While divine religions have stipulated that women are an important part of life and a main pillar in the building of societies, they have their own rights and duties, within the limits of their biological composition and the legitimate boundaries of each religion, but the distortion that has long plagued the heavenly books has distorted all of this, except the religion of Islam, which has been preserved from the truth and thereby preserving the status of women and their bright image in life. Here we will be separated in all directions.

Keywords: The woman. Role, Islam. Community.

1. مقدمة:

منذ بداية العقد العالمي للمرأة وحتى مؤتمر بكين عام 1996 ازداد الاهتمام بقضيّة تمكين المرأة، وإتاحة الفرصة لها لممارسة دورها بفعاليّة مثل الرجل، والمساهمة في صنع القرار في مختلف مجالات الحياة الثقافيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة. وقد أولت العديد من المنظمات والهيئات والدول الاهتمام بهذا المجال، وذلك من خلال إقامة مجموعة من المؤتمرات والندوات، وأشارت هذه الفعاليّات بكافة أشكالها المتنوّعة إلى أهمية تمكين المرأة، وإعطائها الحق الكامل بالعمل في كافة الميادين.

حيث أن دور المرأة هو قبل كل شيء محدد بعدد من الالتزامات المرتبطة أساسا بحياة الأسرة. وهذا نتيجة لتركيبات تاريخية – اجتماعية تعكس اختلافات، وتشابهات من مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى. الأمر الذي يقود إلى تفسير هذا الدور في ضوء العلم السوسيولوجي.

ومن هذا المنطلق خاضت المرأة مشوارا نضاليا عبر التاريخ لنيل مكانة كانت قد منحت لها بحق الاهي، إلا أن الفكر البشري قد حورها وشوهها حتى أضحت المرأة في كثيرا من

المعتقدات والتوجهات شيء زائد عن الحياة، أو خطأ يجب تصحيحه، بل أكثر من ذلك هي غرض من الأغراض التي يمكن التصرف بها دون مراعاة أدنى شروط إنسانيتها، حيث ظهرت العديد من النظريات والتيارات التي تناولت قضية المرأة وحاولت وضع تصورات لدورها ومكانتها في المجتمع، ففي العالم الغربي حاولت النظريات(الوظيفية والماركسية والرأسمالية، الاشتراكية وحتى التفاعلية الرمزية) إسقاط نتائجها وفرضياتها على واقع المرأة وتفسيرها من منطلق النوع الاجتماعي، من خلال وضع معيار الجنس كأساس لتقسيم الأدوار والمواقع الاجتماعية، وفي العالم العربي ظهرت العديد من الإيديولوجيات التي يستند بعضها إلى الدين، والبعض الأخر إلى المنطق الغربي وغيرها.

في حين أن الديانات الإلاهية قد نصت على أن المرأة جزء مهم في الحياة ودعامة أساسية في بناء المجتمعات، لها مالها من حقوق وعليها ما عليها من واجبات، في حدود ما تسمح به تركيبتها البيولوجية والحدود الشرعية لكل ديانة، غير أن التحريف الذي طال الكتب السماوية قد حرف كل ذلك، إلا الدين الاسلامي الذي حُفظ من التحريف وبذلك حفظ مكانة المرأة وصورتها المشرقة في الحياة.

واليوم يمكننا القول أن المرأة قد ارتقت إلى مكانة مقبولة في عديد المجالات والأهم من ذلك مكانتها في فكر العديد من الجهات والأطراف وحتى في ذهنها هي، إلا أن ذلك لم يمنع كون الأمر لا يزال يحتاج الكثير من العمل لتكون المرأة كما نص عليه الإسلام، فليس كل تطورا في وضعها يعد نجاحا في نضالها.

ومن هذا المنطلق نطرح الإشكال التالي: **بماذا تميزت المسيرة السيكولوجية للمرأة عبر التاريخ؟**

ويندرج ضمن هذا التساؤل الأسئلة الفرعية التالية:

- بماذا وصفت المقاربات السوسيولوجية المرأة؟
- كيف تحدثت الإيديولوجيات العربية و الإسلامية عن وضعية المرأة ؟
- ما طبيعة المكانة التي تقلدتها المرأة في الديانات والحضارات القديمة ؟

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يسعى إلى جمع المعلومات وتصنيفها وترتيبها والتعبير عنها كميا وكيفا، لتحدد له وصفا كاملا لواقع معين، وفي هذه الدراسة سعينا لوصف واقع المرأة عبر مراحل تاريخية وفكرية معينة سنأتي على ذكرها.

ولعل الهدف الأساسي لهذا البحث هو التعرف على الواقع الذي عاشته المرأة في مختلف الحضارات والديانات وحتى الفكر الغربي والعربي، حتى يمكننا الحكم على واقعها الحالي و السعي لتطوير الجوانب السلبية فيه وعدم الوقوع في ذات الأخطاء، كما يعتبر الموضوع نوعا من التأريخ لمرحلة معينة من حياة المرأة عبر التاريخ.

2. التيارات المفسرة لدور المرأة في المجتمع

1.2 . المقاربات السوسيولوجية حول المرأة:

المرأة ضمن "علم اجتماع المرأة": من أهم تعاريف علم اجتماع المرأة، التعريف الذي ينص على أنه الموضوع الذي يدرس" الجذور الاجتماعية لواقع المرأة ووجودها في المجتمع و أثر ذلك الواقع و الوجود على المجتمع و البناء الاجتماعي."

لقد ظهر علم اجتماع المرأة ليؤدي خمسة وظائف رئيسية و هي كما يلي:

–ربط المرأة ككائن إنساني بالمجتمع لكي تتمكن من تفعيل المجتمع وتنمية حركته التي تهدف إلى تحقيق أغراض سامية[1].

– حل مشكلات المرأة والتصدي للتحديات التي تتعرض إليها كفاعل في الكيان الاجتماعي .

–تدريب المرأة والأخذ بيدها لتشارك في عملية إعادة البناء الاجتماعي التي يشهدها المجتمع

–تفسير الإشكاليات والظواهر الاجتماعية والتربوية المعقدة التي تشهدها المرأة في المجتمع.

–إفساح المجال للمرأة لكي تؤدي المهام الأساسية المطلوبة منها [2].

النظرية الوظيفية وتفسير دور المرأة: أما التيار الذي تمثله النظرية الوظيفية فقد حدد دور المرأة انطلاقا من تقسيمه لطبيعة العمل، حيث يرى أن العمل إما تعبيري أو أدائي يتسم بالصعوبة ويتطلب جهداً وهو عمل هادف، هذا الأخير هو من اختصاص الرجل، في حين

أن المرأة تتكفل بالأعمال التعبيرية، لأنها وكما ترى الدكتورة "سنثيا فوشي" يأتي دورها الأنثوي في المقدمة، وهو الذي يحدد مجرى حياتها [3] ، فمهما اكتسبت من وظائف أخرى يبقى دورها الأنثوي هو المسيطر في محيط العمل، لأن وسائل العمل المتاحة لها محددة مقارنة بتلك المتاحة للرجل [4].

تنطلق هذه النظرية من مبدأ أن دور المرأة ينحصر في إطار الأسرة باعتبارها زوجة وأم وربة بيت، وقد حاول "بارسونز" باعتباره من أبرز علماء هذا الاتجاه أن يقدم نظرية يفسر بها تقسيم العمل بين الجنسين بحيث يختص الرجال بالعمل والإنتاج وممارسة كافة الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجتمع، بينما يقتصر دور المرأة على الوظيفة العائلية، لتحقيق التوازن داخل النسق الاجتماعي للمجتمع ككل [5] .

النظرية الماركسية وتفسيرها لدور المرأة: على عكس الاتجاهات الأخرى أكدت الماركسية على أهمية المساواة بين الجنسين، وإلى أهمية المشاركة الكاملة للنساء في الحياة العامة، وعلى الرغم من قلة اهتمام "ماركس" و"أنجلز" بالموقف الإمبريقي للنساء، إلا أن المدخل الماركسي يوضح أن سبب خضوع المرأة وقهرها، كان نتيجة التطور الاقتصادي الذي مرت به المجتمعات الإنسانية، أي له أساس مادي [6] ، أما "أنجلز" فقد أعطى تفسيرات شاملة للعوامل التي ساعدت على التمييز بين الجنسين باعتماده على فكرتي الاستغلال الطبقي ونشأة الملكية الخاصة، وفي هذا السياق يقول (إن أول تنافر وأول عداء طبقي ظهر في التاريخ كان متطابقا مع تطور العداء بين الرجل والمرأة في ظل نظام الزواج الأحادي، وأن أول ظلم طبقي كان مصاحبا لظلم الرجل للمرأة) ، وعليه فإن هذه النظرية قد ركزت على مبدأ الاستغلال الذي تتعرض له المرأة [7] .

في حين نجد أن الاشتراكية قد نظرت إلى المرأة كقوة اجتماعية منتجة ومساوية للرجل، غير أن هذه المساواة لا تعني إلغاء الفروق الطبيعية بين الجنسين، ولا تساوي في القدرات الجسمانية والنفسية، وإنما تعني المساواة في الوضع الاجتماعي، أي أن هذه المساواة لا تعني تشبه المرأة بالرجل [8].

أما التيار الرأسمالي قد نظر للمرأة كقوة عمل، وفي هذا يؤكد الباحث والمفكر الفرنسي" لافارج"(أن الرأسمالية جرت النساء من البيوت إلى الإنتاج لا بقصد تحريرهن ولكن بقصد استغلالهن بصورة أفظع من استغلال الرجال)[9].

ومن جهة أخرى يؤكد "هيقل" على أن دور النساء أدنى في الدرجة من دور الرجال حيث كانت أرائه حول المرأة واضحة في إسهاماته الفكرية خاصة عند تعرضه للعلاقات الأسرية والزواج في كتابه(فلسفة الحق)، حيث يرى أن العملية الديالكتيكية[10] التي تصل ذروتها في الدولة، تعتمد على الرجال الذين يطورون ذكائهم بشكل يتجاوز مجرد الشعور لما يندمجون في المجتمع بينما لا تستطيع النساء أن يحولن أنفسهن ديالكتيكي إلى كائنات أكثر عقلانية[11] وبالتالي فهن يمتلكن عقلانية غير كاملة وغير ناضجة تستبعدهم عن الأفعال السياسية والأدوار الحاسمة .

المتمعن في هذه الآراء والاتجاهات، يرى أنها قد ركزت على الدور المادي للمرأة و كيفية استغلالها كقوة منتجة، كما أنها حطت من قيمتها، حتى أثناء مطالبتها بالمساواة مع الرجل فهم لم يذكروا قيمتها الإنسانية كأحد المبادئ، وحاولت إلغاء كل الفروق التي تميز كل جنس عن أخر، فعلى الرغم من أن المرأة قادرة على أداء أدوارها خارج البيت إلا أن ذلك لا يمنع كونها تتميز بسمات جسمانية ونفسية يجب مراعاتها، في حين أن هناك بعض الآراء حطت من قيمة المرأة ورأت أن الرجل أفضل منها بشكل مطلق.

2.2 الإيديولوجيات العربية الإسلامية المفسرة لوضعية المرأة:

الممحص للإيديولوجيات العربية والإسلامية يجد أنها انقسمت إلى عدة تيارات بعضها متشدد والآخر متأثر بالتوجهات الغربية، و يمكن حصرها في ثلاث تيارات بارزة هي:

التيار التقليدي: وهو التيار الذي يستمد شرعيته وحججه من التفسيرات المغلوطة لنصوص الأديان وبالأخص الدين الإسلامي، إلى جانب مجموعة من النواهي التي تستند إلى العادات والتقاليد التي يقوم عليها المجتمع، ويرى هذا التيار أن المرأة كائن ضعيف جسما وعقلا [12]، ويحصر دورها في غرض أساسي ألا وهو الزوجية بمفهومها الخضوعي والأمومة بمفهومها

التوالدي وهم يرون في خروج المرأة للعمل عيب وفي اختلاطها مع الرجال فساد للأخلاق[13].
فهو بذلك يحصر أدوار المرأة في مسؤولياتها المنزلية ويلغي الخط الفاصل بين حقوقها وإرادتها ككائن مستقل وبين تبعيتها لسلطة الرجل في الحقوق والمسئوليات داخل وخارج البيت.

وقد استفاد هذا التيار من الأوضاع الراهنة في المجتمعات العربية التي تعاني من تفكك المنظومة القيمية وعدم التوازن الاجتماعي والاقتصادي وغياب الديمقراطية بفعل ضغوط النظم الحاكمة في إطار تبعيتها السياسية للقوى الدولية المعاصرة. إلى جانب سلبية قطاع كبير من النساء المتعلمات والأميات في المدن أو في الريف، فيما يخص قضيتهن [14].

التيار الاجتماعي المتحرر: أو ما يطلق عليه التيار التنويري، الذي ميز الخطاب العربي الحديث، كانت مصر في طليعة الدول العربية الإسلامية التي أولت قضية المرأة اهتماما فائقا، حيث بدأت نواة حركاتها النسائية تتبلور منذ 1894م، مع الحزب النسائي، وحزب بنت النيل، ومظاهرة الجامعة الأمريكية وبعد ثورة 1919م برزت زعامات نسائية وتنظيمات إسلامية نسائية ساهمت في تنوير المرأة بحقوقها[15].

ويستند هذا التيار إلى الدعوات الفكرية التي تبناها جيل الرواد في الوطن العربي وعلى رأسهم "رفاعة الطهطاوي " (الموجه الديني لأول بعثة علمية أرسلها محمد علي باشا إلى فرنسا لتدريس العلوم)، وهو صاحب الخطاب التنويري حول المرأة، وقد صاغ رؤيته لقضية المرأة ضمن رؤية عامة لإصلاح المجتمع، حيث أكد على إنسانية المرأة، ودعا إلى تعليمها وعملها[16] وكانت دعاوي الطهطاوي في قضية تحرير المرأة نابعة من إيمانه القوي بهذه القضية التي يرى فيها أحد أسباب فك الجمود والتراجع في العالم العربي، وقد أكد على ذلك في كتابه" تخليص الإبريز" الذي دعا فيه إلى ضرورة تعليم البنات، كما خصص فصلا كاملا في كتابه" المرشد الأمين للبنات والبنين" حول إشراك البنات مع الصبيان في التعليم والعمل وكسب العرفان[17] ، ذلك أن تعليم المرأة يجعلها قادرة على مشاركة الرجل في الآراء والأحاديث ويعزز مكانتها في قلوب الرجال ويحميها من الطيش وقد أدرك الدور الإنتاجي للمرأة، لذا ربط بين التعليم والعمل بقوله" إن التعليم يساعد المرأة لأن تحدد لنفسها مكانا في

الحياة، يعودها على العمل، فالعمل في الحقيقة يصون المرأة ويدنيها من الفضيلة، وإذا كانت بطالة الرجل مدانة فإنها عار كبير بالنسبة للمرأة[18]. "

وقد تقدمت قضية المرأة خطوات إلى الأمام بعد حوالي ربع قرن، مع مجيء قاسم أمين صاحب كتاب "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" حيث اعتبرت الدعوات التحررية التي أطلقها في هذه الكتب بمثابة الشرارة التي وصلت إلى كل المجتمعات الإسلامية وتبنتها معظم التنظيمات النسائية، وخاصة تلك المحسوبة على العلمانية، غير أنها أفرزت لغطا وجدلا بين اعتبار "قاسم أمين" نهضويا وحداثيا أو مارقا وخارجا عن الدين[19] ، وقد اعتمد "قاسم أمين" المنطق العلمي في تناوله لقضية المرأة، وذلك من أجل أن يُصلح الخلل القائم في مسألتها بناء على ما أثبته العلم الطبيعي الحديث من أن المرأة مساوية للرجل عقلا[20]. ولم تتوقف قضية المرأة عند قاسم أمين على التعليم والعمل فقط، بل تعدها إلى حصولها على حريتها وعدم إجبارها على فعل مالا تقتنع به وعلى رأسها رفع الحجاب، وبذلك وصلت قضية المرأة مع قاسم أمين إلى نقطة لا رجعة فيها [21].

غير أن الاهتمام بقضية المرأة في ظل هذا التيار لم يتوقف على الطهطاوي أو قاسم أمين، بل نجدها قد حازت على اهتمام الكثير من مفكري النهضة العربية فنجد "محمد عبده" الذي كانت له مواقف واضحة حول قضية المرأة، إذ أكد على أن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في الواجبات الدينية. ومن هذا المنطلق دعا إلى ضرورة تعليم المرأة المسلمة لما لذلك من تأثير إيجابي في النهوض بواقعها المؤلم، وحتى يتسنى لها معرفة مالها وما عليها من حقوق وواجبات، وفي الوقت نفسه لتكون هي أساس التغير في حياة الرجل وجميع أفراد الأسرة[22]، ولم يتوقف عند هذا وحسب، بل أشار إلى أن عدم إتاحة الفرصة للمرأة المسلمة للتعلم يعد جرما، لذا لا يجب أن نحبسهن في قفص الجهل.

وقد سار "عبد الرحمان الكواكبي" على خطى سابقيه، حيث اعتبر حرمان المرأة من التعليم والعمل نوع من الاستبداد السياسي، ودعي إلى ضرورة اكتساب المرأة للثقافة الكاملة، مستشهدا بالصحابيات وأمهات المؤمنين [23].

وتعد السيدة" صفيناز كاظم" من بين الذين وضعوا يدهم على جوهر موضوع المرأة في كتابها(مسألة السفور والحجاب)، فقد كشفت عن وضع المرأة المسلمة في مطلع القرن20م في ظل غياب موقف إسلامي يصحح من وضع الظلم والاستغلال الذي تعانيه، إذ تقول » عندما التقى وضع الظلم مع الموقف الإسلامي لتقويمه، سُمح للتغريب الفكري استغلاله ليرفع شعار تحرير المرأة [24] « .

وردت كل هذه الآراء والاتجاهات في إطار حركة الأحياء القومي التي تمثلت في المحاولات الأولى لجيل من المثقفين العرب، الذين جاؤوا بقيم جديدة نتيجة احتكاكهم بالثقافة الغربية، وقد تطور هذا التيار وازدهر في ظل التغيرات الاجتماعية التي طرأت على أوضاع المرأة العربية بفضل انتشار التعليم وخروج المرأة للعمل. وذلك في إطار ثورات التحرر التي هزت المجتمعات العربية خلال فترة السيطرة الأوربية وصولا إلى مرحلة الاستقلال ويعبر هذا التيار عن نفسه في التيارات المعاصرة التي تنادي بضرورة إدماج المرأة في التنمية وإشراكها في كافة الأنشطة المجتمعية السياسية والاقتصادية والثقافية [25].

رغم كل ما سبق ذكره، عن دور رواد النهضة في تبني قضية المرأة والدعوة إلى تعليمها وعملها، وإعطائها الحرية، خاصة كل من "الطهطاوي" و"قاسم أمين"، إلا أن كلاهما تعرض لنقد شديد، اعتمد فيه أصحابه على ما ورد في كتابيهما، نجد مثلا الشيخ الطهطاوي يقول(ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم النساء القراءة والكتابة ونحو ذلك، فإن ذلك يزيدهن أدباً وعقلا، ويجعلهن بالمعارف أهلا، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي .وزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش... يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيدهن عن العمل يشغل ألسنتهم بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل)، وقد اعتمد نقاده على هذا القول حيث يرون أنه اتهم المرأة بالجهل، هذه الصفة التي قلما تكون لرجال، كما أنه استحقر عملها في البيت كالتربية والرعاية، ووصفها بالبطالة[26] أما قاسم أمين فبعد أن وجهت له تهمة الخروج عن الدين وأنه مارق، نظرا لمطالبته بالتحرر التام للمرأة، وعدم إلزامها بما لا تريد، وكان يقصد الحجاب، فتأسيسا على

ما ورد في كتابه "تحرير المرأة" إذ يقول (هي حيوان أليف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازم تفضلا منه على أن يتسلى به) وقوله (إن جهل المرأة وعدم تربيتها نتج عنه عدم استعمال لمداركها وقواها العقلية والجسمية لتكون لنفسها فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هي اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها)[27] ، فهم يرون أنه قلل من إنسانية المرأة وقلل من قيمتها في البيت.

إلا أن الرأي الراجح هو أن كلاهما حاول تصوير الواقع والمبالغة فيه من أجل استنهاض الهمم لدى الرجال والمجتمع للإصلاح من وضع المرأة، والدليل هو اعترافهما لها بحقها في التعليم ومساواتها بنظيرها الرجل في الحقوق.

التيار النسوي لتحرير المرأة: وهو الاتجاه الذي انبثق عن حركات التحرر التي قادتها النساء حول العالم وفي العالم العربي بشكل خاص، وينقسم هذا التيار إلى تيارين: أولهما التيار التقليدي شبه المتغرب، الذي يستند إلى إنجازات المرأة العربية في مجال التعليم والعمل ويتشبه بالحركات النسوية الغربية، ويمثل هذا التيار معظم التنظيمات النسائية العربية التي كرست هامشية النضال النسائي في العالم العربي ويحاول هذا التيار التوفيق بين الطرح النسائي الغربي وبين قيم وتقاليد النسق الثقافي العربي[28].

في حين يمثل التيار الثاني الرؤية الغربية في تحرير المرأة من خلال تحطيم النظام الأبوي الذي تقوم عليه العلاقات الأسرية في مجتمعاتنا ويمثل هذا التيار عدد محدود من النساء العربيات ذوات الثقافة الغربية، وتكمن إشكالية هذا التيار أنه لا يربط بين تحرر المرأة وتحرر المجتمع، بل يؤكد على فردية النضال النسائي[29]. وتجدر الإشارة إلى أن نساء المدن الكبرى هن اللواتي قدن هذه الحركات التحررية وكن يحملن في أذهانهن صورة المرأة البرجوازية.

وتعتبر حركة هدى شعراوي النسويّة (1920- 1952)مثال لذلك، حيث لعبت دورٌ مركزيا في التغيير الذي طرأ على أوضاع المرأة وبالتالي في التحول الهائل الذي مرّ به المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين، وهذا ما تؤكده الباحثة "إلين فلايشمان" في

كتاب" من التاريخ الاجتماعي للنساء والنوع " : "إنّ هدى شعراوي ساهمت في بروز طبقة نسائية كانت تختفي وراء الأسوار[30]، كما

3. مكانة المرأة في الديانات والحضارات القديمة:

اختلفت مكانة المرأة ، وما تتمتع به أو يُحجب عنها من حقوق وحريات عبر رحلة الإنسانية على مر العصور، فتارة نجدها الإلهة والملكة المتوجة وقائدة للجيوش وشريكة في بناء الحضارة وحرة في إدارة شئونها الخاصة، وأخرى نجدها تباع وتورث ولا تمتلك مقدرات نفسها.

و سجلت صفحات التاريخ فصولاً عن علاقة الرجل بالمرأة، ودونت الأخرى أطرَ حقوق المرأة القانونية والتشريعية ورسمت الثالثة ملامح الحركة النسائية المدافعة عن حقوقها وحرياتها وصانعة السلام وواهبة الأمان.

و تعرض الصفحات التالية، بعض الملامح البارزة في رحلة المرأة في الحضارات القديمة وفي الديانات السماوية، وبوجه أخص الدين الإسلام بحكم أنه الدين الوحيد الذي لا يوجد فيه ثغرة تخص حقوق المرأة.

1.3 المرأة في الحضارات الإنسانية :

الحضارة البابلية: المرأة في الحضارة البابلية كانت عديمة الأهلية، محرومةٌ من حقوقها، كانت مُملوكة وليست مالكة سواء كان للزوج أو الأب، وأيضا ليس لها الحق في أن ترث زوجها بعد موتهِ أو ترث من والدها، على اعتبار أن التركة تكون للذكور وحدهم باعتبارهم امتداد لأسم العائلة. كما كانت المرأة تباع من قبل الرجل وكأنها سلعة، فقد كان الرجل البابلي يعرض بناتهِ للزواج، بعد أن كان يُنادى عليهم من قبلهِ لكل عابرّ سبيل، وأيضا كان الرجل البابلي يدفع ببناتهِ للبغاء عند افتقارهِ للمال. فكان يتاجر بهنْ من أجل المال[31].

فلم يكن للمرأة عند البابليين أي سيادة على نفسها، فالسيادة تنتقل من ابيها أو أخيها إلى زوجها، وكان الرجل هو السيد المطلق في الزواج وله الحق في الطلاق، وهي عديمة الأهلية ليس لها الحق في الحياة الزوجية إلا التعب والشقاء، بل هدرت كرامتها وهضم حقها وقل قدرها [32].

الحضارة الإغريقية 146-750ق م: في قوانين اليونان نجد أن المرأة كانت تدخل في ممتلكات ولي أمرها ليس لها حق التصرف في نفسها، وهي تباع لمن يشتريها، والذي يقبض ثمنها هو ولي أمرها[33] يقول "سقراط" في المرأة (إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة في العا لم)[34]، انطلاقا من هذه المقول نجد أن المرأة تعامل فعلا على أساس أنها مشكلة يجب تفاديها، وعليه حُرمت المرأة الحرة من أغلب حقوقها فقد حُرمت من حقها في القراءة والكتابة ومن حقها في الإرث وحقها في طلب الطلاق، واعتبرت المرأة ملكا لأبيها قبل الزواج ثم ملكاً لزوجها الذى كان من حقه عرضها للبيع والشراء[35].

وكانت المرأة عند اليونانيين الأقدمين مسلوبة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية، إذ كانت تحل في المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق[36].

وكان حجاب المرأة واجب خاصة في الاسر الكبيرة، وهو حجاب كامل لا يظهر منه سوى العينين.

ومع تقدم الحضارة الإغريقية، وفي نهاية العهد الإغريقي ازدادت حقوق المرأة واستطاعت أن تمارس البيع والشراء وتشارك في الاحتفالات.

الحضارة الرومانية 275 ق م: تظهر لنا بوضوح مكانة المرأة في هذه الحضارة من خلال ما يلي:

المرأة كائن لا نفس له، وأنها من أجل ذلك لن ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس يجب ألا يأكل اللحم، ولا تضحك ولا تتكلم وعليها أن تقضي جميع أوقاتها في العبادة والخدمة والصلاة [37]، وليس للبنت أي حق في التملك، " فإذا ما كسبت مالا أضيف إلى أموال رب الاسرة" [38]، وأكثر من ذلك كان يوضع في فم المرأة أو البنت قفل من حديد يسمى "موزلير" حتى لا تتكلم، سواء كانت في دارها أو في الطرقات والأماكن العامة[39].

ويقول الشعراوي:" في القانون الروماني ... كانت المرأة تعامل كالطفل أو كالمجنون أي لا أهلية لها، وكان لرب الأسرة أن يبيع من يشاء من النساء، ممن تحت ولايته، وتظل المرأة

تحت سلطان ولي أمرها، سواء كان أبا أو زوجا حت الموت... وله حق البيع والنفي والتعذيب بل القتل[40] ".

الحضارة الفرعونية 3200ق.م: كان للمرأة المصرية مكانة لم تتطاول إليها أي امرأة في أي مجتمع، وان اختلفت هذه المكانة من عصر إلى أخر، ففي عصر الاسرتين الثالثة والرابعة2690 الي 2180 ق.م، كان الزوجان يظهران في التماثيل في حجم واحد، جنبا إلى جنب، أي أنهما متساويان، كما كان للمرأة الحق في التعاقد وتملك العقارات دون اذن زوجها، فأهلية الأداء عندها كانت كاملة[41] وتركت لها بعض العهود، حق الإرث، وتولي العرش وتاريخ مصر حافل بالملكات اللواتي تربعن سنوات طويلة على كرسي الحكم، وتركن ورائهن تاريخ لايزال يروى [42]، ويقول حسين عبد الحميد أحمد رشوان" وكان للمرأة في العصر الفرعوني، نصيب كبير في تولي العرش، إذ كانت من الطبقة العليا، فإذا مات الملك عن ذرية كبراها بنت، أصبح العرش من نصيبها[43]. "

والدليل على مكانة المرأة في الحضارة المصرية، أنهم رفعوها إلى مرتبة الآلهة فالإله كان يظهر في الأساطير على أنه أنثى، " آلهة الجمال"، "آلهة الخير"، "آلهة الحب" وغيرها من الأوصاف وأسطورة إيزيس خير دليل[44] ، وملكة "تي" زوجه "امنحت الثالث"، وفي أثار المصريين القدماء نجد أنهم قد ساووا بين الرجل والمرأة حيث نجد في تمثال "بانجم" في معبد "الكرنك" المرأة تتقدم الرجل، وقد حظيت بكل حقوقها كحق التعليم وتسيير أمورها بنفسها[45].وتعد الملكة "حتشبسوت، صاحبة الدور الريادي، في تاريخ مصر، بما حققته من انجازات عظيمة خلدت اسمها على مر العصور[46].

غير أن مكانة المرأة المصرية بدأت تتراجع في الأسرة اللاحقة، كالأسرة الخامسة والسادسة2690 الي 2180 ق.م، وزاد الأمر أكثر خلال العصر الاقطاعي، وفي هذا يقول العقاد :"وكان للمرأة في الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش، ويبوئها مكمن الرعاية في الأسرة، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التي شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد، وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هي علة تلك

الخطيئة وخليفة الشيطان، وشرك الغواية والرذيلة، ونجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها وحبالها [47]"

الحضارة الصينية 1700–1046 ق م: سُميت المرأة في كتب الصين القديمة (بالمياه المؤلمة) التي تفسد المجتمع أو تحرمه من السعادة والمال، فهي شر يستبقيه الرجل بمحض ارادته، ويتخلص منه بالطريقة التي يرتضيها ولو بيعا- كبيع الرقيق والمتاع- حتى كان بالصين سنة 1937م حوالي ثلاثة ملايين جارية، إذ يمنعون المرأة عن الزواج اذا مات زوجها فتبقى حيوانا يخدم في البيت دون حق إنساني[48] .

الحضارة الهندية 3300- 1300 ق م:.حرمت شرائع (مانو) المرأة من حقها في الاستقلال عن سلطة أبيها أو زوجها أو ولدها. وكانت المرأة تحرق مع زوجها بعد وفاته. كما كانت المرأة تُقدم قربانا للآلهة لترضى، واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع، حيث أُبطلت على كره من رجال الدين الهنود[49].

وفي تشريع (مانو) أيضا: الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم سيدها _زوجها_ كما لو كان إلها وكانت المرأة تخاطب زوجها في خشوع قائلة: يا مولاي وأحيانا يا إلهي وعليها أن تمشي خلفه بمسافة، وقلما يحدثها، ولا تأكل معه بل مما تبقى من أكله[50].

جاء في شرائع الهندوس: ليس الصبر المقدر، والريح، والموت، والجحيم والسم والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة [51] ، فقد وضعت المرأة في مفهوم دوني انطلاقا من الاعتقاد بأن الإله "تواشري" قد خلق المرأة من بقايا الرجل، فهي بذلك تكون أقل منه منزلة، إذ انها اعتبرت جسدا يوشك أن يخلو من الروح، وليس لها قيمة اجتماعية ولا انسانية، فهي قاصر طوال حياتها[52].

الحضارة الفارسية 595 ق م: يقول الدكتور محمود نجم ابادي في كتاب (الإسلام وتنظيم الأسرة) : نلاحظ أن قوانين "زرادشت "[53] كانت جائرة وظالمة بحق المرأة ، فإنها كانت تعاقبها أشد العقوبة إذا صدر عنها أقل خطأ، بعكس الرجل فإنها قد أطلقت له جميع الصلاحيات وليس من رقيب علي[54].

كانت المرأة تعد أصل الشرور في بلاد فارس، وأنها تسبب اللعنة من الآلهة أينما حلت فقد كان للرجل السلطة الكاملة على زوجته كالتصرف بمالها والحكم بقتلها إذ غضب أو سجنها للأبد، كما له الحق في بيعها [55].

2.3 المرأة في الديانات السماوية :

لقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل كل منهما سند الآخر في قصة الحياة الإنسانية منذ بدء الخليقة حتى المرجع والمآب إليه. ولم يجعل لأي منهما مكانة دون الآخر، وشرع العقائد والعبادات التي تستوي في التكليف بها والجزاء عليها الرجل والمرأة وجاء توزيع الاختصاصات بالنسبة للرجل والمرأة مختلفاً من دين إلى آخر، وفقا لطبيعة المجتمع ولطابع الذكورة والأنوثة، وهذه الفروق مع التطبيق العادل و الدقيق حيث لا تخدش المكانة الإنسانية لأي منهما .

المرأة في الديانة اليهودية: إن المتتبع للتراث الفكري والموروثات الدينية لليهودية، يجد أنها حطت وبقدر كبير من مكانة المرأة وقيمتها، حيث سلبتها كل حقوقها المدنية في مختلف مراحل حياتها وجعلتها تحت وصاية أبيها وأهلها قبل الزواج، وتحت وصاية الزوج بعد الزواج[56].

كما أن شرعة اليهود يلقون بالذنب على المرأة، فهم يعتبرونها لعنة لأنها من أغوت أدم وأوقعته في المعصية، إذ جاء عندهم في التوراة المحرف أن الرب سأل أدم: " هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها، قال أدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت"[57] ، كما تعتبر المرأة في كثير من الطوائف اليهودية من مرتبة الخدم ويحق لأبيها بيعها بيع الرقيق ولا تعتق أبدا بل تظل آمة مدى الحياة [58].

والمرأة في الشريعة اليهودية تورث كجزء من تركة الميت، فإذا مات زوجها ورثها ورثته مع بقية المتروكات ولهم الحق في بيعها أو الزواج بها بالغصب[59]، إلى جانب كل ذلك فالمرأة عند اليهود لا تحق شاهدتها[60].

المرأة في الديانة المسيحية :منحت المسيحية الحقة المرأة الصالحة تقديرا كبيرا، وتصدرت القديسة مريم العذراء والدة المسيح عليه السلام صورة المرأة في المسيحية، حيث كانت نموذجاً لطهارة الروح والجسد.

فقد دعا المسيح عليه السلام إلى المساواة بين البشر، فلا فرق بين الرجل والمرأة فمنح المرأة حقوقها الاجتماعية والانسانية [61]، شأنه في ذلك شأن الديانات الأخرى التي تقوم على هذا الأساس، إذ أن القراءة المتأنية لسفر التكوين تظهر أسمى ما في الإنسان من مثل، إذ يظهر أروع وأعمق تعبير عن المحبة بين الرجل والمرأة ويصورها على أنها علاقة عطاء متكامل، فحواء جزء من أدم بل هي جوهره.

فالمسيحية الحقة لم تنكر على المرأة العمل والتعليم ومختلف حقوقها، ودليل ذلك أن الأناجيل المختلفة تبين أن النساء كن يصحبن المسيح عليه السلام، وكن الأشجع بين تلاميذه، وكن يسافرن معه، وغالبا ما يتلقين تعاليمه سواء المتزوجات أو غير المتزوجات[62].

حطت المسيحية المحرفة من قيمة المرأة، وسلبتها كل حقوقها واعتبرتها أصل الشر كما في الشريعة اليهودية, وأنكرت عليها قدراتها العقلية والذهنية، وحقها في التفكير والمشاركة في الرأي [63]، حيث كانت تعد مخلوقا من الدرجة الثانية، إذ كان القانون الانجليزي حتى عام 1805م يبيح للرجل بيع زوجته، وقد حرم هنري الثامن ملك إنجلترا، على الإنكليزيات قراءة الكتاب المقدس[64].

اعتبر "بولس شاول" مؤسس المسيحية الحالية النساء أقل درجة من الرجل فيقول فلتصمت نساؤكم في الكنائس، لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا .ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة [65]، ويقول أيضا" المسيح سيد الرجال، والرجل سيد المرأة الرجل لم يخرج من ضلع المرأة، ولكنها هي التي خرجت من ضلع الرجل، والرجل لم يخلقه الله للمرأة والمرأة خلقها الله للرجل[66]. "

في الجاهلية: اختلفت الآراء حول مكانة المرأة في هذا العصر– أي ما قبل الإسلام–، فيرى البعض أن المرأة نالت مكانة كبيرة في كثير من القبائل، نظرا للكثير من الآثار التي تتحدث عن فخر الرجال بأمهاتهم وبأخواتهم كما ورد على لسان كثير من الشعراء[67].

كانت الملكة التي تسير شؤون المملكة، وتتحمل المسؤولية في أصعب المواقف بحنكة وذكاء كالملكة" بلقيس"[68] التي نزل فيها قوله تعالى ((إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)[69] ، والتي اعتمدت بعض الأسس الحديثة في الحكم كالديمقراطية والشورى، كما ورد في قوله تعالى(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)[70] . كذلك زنوبيا ملكة تدمر، التي أرست قواعد ملكها واخضعت القبائل لسلطانها، فبقي عرشها قويا ردحا من الزمن، إلى أن تغيرت الظروف وسقطت مملكتها، فمضت للموت تريده بيدها، نظير عزة نفسها وكرامتها التي لم تسمح لها بالموت على يد العدو[71].

الأمثلة كثيرة فيما يتعلق بمسيرة المرأة العربية، عبر التاريخ وقبل مجيء الإسلام إذ لا تنعدم المظاهر التي تؤكد بروز المرأة ونيلها العناية والاهتمام عند بعض القبائل فقد كانت تلقب بالأم، منسوبة إلى ابنها مثلا" أم عمارة"، "أم ياسر"، وغيرها وكانت تذكر في قصائد الشعراء بالتمجيد والغزل والافتخار، كما كانت أهم مصدر إلهام لهم.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل نجد أن حروبا ومعارك دامت لسنوات، قامت دفاعا عن شرفها، وجوارها، فحرب الفجار الثانية، أوقدت نارها في عكاظ امرأة استنجدت "بآل عامر" دفاعا عن شرفها، ولأجلها اقتتلت قريش وكنانة، إلى أن تدخل "حرب بن أمية" فأصلح بينهما، وحرب البسوس التي دامت أربعين سنة بين بكر وتغلب، بسبب انتهاك جوار امرأة[72].

والمرأة العربية قبل الاسلام لم تكن مسلوبة الحرية بشكل كلي، بل كانت صاحبة وجود اجتماعي قوي، إذ شاركت الرجل في أعماله، فكانت تاجرة، تفقه المعاملات التجارية وتتجول في الأسواق، كما كانت فارسة، تخرج إلى المعارك، تحمس النفوس على القتال

ومواجهة العدو، بكل شجاعة وجرأة، كحال "هند بنت عتبة"[73] ، و"سعدى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس"[74] ، وليس هذا فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى المساهمة في سياسة شؤون القبيلة، كما كانت تستشار في العديد من القضايا كشأن "عمرة بنت سعد"[75] و"فاطمة بنت الخرشب الأنصارية"[76] .

ومن معالم حريتها أيضا، ورقي مكانتها، أنها كانت تنافس الشعراء، بل كانت أشهر منهم على الاطلاق، كحال، "الخنساء"[77] شاعرة الجاهلية، المرأة الشجاعة المضيافة الأدبية.

غير أنه يجب الإشارة إلى أن هذه المكانة، التي حظيت بها المرأة في العصر الجاهلي، لم تكن قاعدة عامة في كل القبائل، بل كانت هناك من القبائل من تنظر إلى المرأة على أنها عار، وسبب الضعف والهزيمة، ويجب التخلص منها، حتى أنهم كانوا يتطيرون بميلاد فتاة عندهم ويفضلون الذكور، وهو ما أنزل به تعالى قوله(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[78] ، وقوله تعالى(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[79].

لم يتوقف الأمر عند حد التشاؤم فقط، بل إنهم يلجؤون إلى التخلص منها، ودفنها حية، أي وأدها، والوأد هي ميزة بعض قبائل العرب في الجاهلية، إذا كلما ولدت عندهم فتاة وقرر التخلص منها، يقوم والدها برميها في حفرة ويهيل عليها التراب حتى تختنق و تموت، وفي هذا نزل قوله تعالى(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)[80].

عانت المرأة من الظلم والحرمان، فلم يكن لها الحق في الميراث إلا ما يقدم لها من سبيل العطية، بل كانت تعد جزءا من ميراث الرجل زوجا كان أو أبا، وإذ مات زوجها أصبحت من حق رجل أخر من العائلة، دون أن تُسأل عن رأيها في ذلك.

يقال أن ظروف الحياة في تلك الفترة، هي التي فرضت هذه الأعراف والعادات تجاه المرأة فالقبائل كانت متناحرة فيما بينها، ومعرضة للغزو الذي ينتج عنه سبي النساء وفي هذا ذل ومهانة للرجال، لذلك اعتبرت المرأة مصدر للعار، لذا يجب التخلص منها.

بعد إلقاء نظرة على كيفية تعامل أغلب الحضارات والديانات السابقة للإسلام مع المرأة نلاحظ أنهم أغلبهم اتفقوا على أمر وهو أن المرأة أصل الخطيئة، وهي عار يجب التخلص منه بأي وسيلة، إلى جانب ذلك فهي مسلوبة كل الحقوق والامتيازات، كلها للرجل الذي يمتلكها .

لترتقي مكانة المرأة، ويتم انصافها بكل الحقوق مع مجيء الإسلام دين الحق والعدل الذي أوصى بالنساء خيرا، ونزل من القرآن ما ينبذ كل التصرفات الخاطئة تجاههن، وهو ما سنأتي على ذكره بالتفصيل في العنصر التالي.

المرأة في الإسلام : أقر الإسلام منذ بزوغ فجره، مبدأ المساواة بين الرجال والنساء، ولم يميز بينهما إلا بما اقتضته الحاجة البيولوجية التي تميز كلا من الطرفين، ذلك أن الله أدرى بقدرات عباده فهو الخالق، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم، وأكدته السنة النبوية الشريفة، من خلال أحاديث "الرسول صلى الله عليه وسلم"، وكذلك من خلال مواقف الرسول عليه الصلاة وصحابته مع النساء، وتعاملهم معهن، وهو ما لا يترك شكا بأن الاسلام كرم المرأة ورفع عنها الظلم والاستعباد، ومنحها كل حقوقها في مختلف المجالات.

دليل ذلك أنه ساوى بينهما في الخطاب القرآني، فلم يخاطب الرجال دون النساء ولم يفعل العكس، فيقول تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين)[81]، وقوله تعالى في سورة يونس(أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)[82] فلفظ الناس يشمل كلا الجنسين وما يثبت ذلك ما نزل في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ)[83].

كما شمل قوله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[84] الرجال والنساء، فالأصل في التمييز هنا هو الايمان، وهو ما نجده في مواطن كثيرة من القرآن الكريم وكذا السنة النبوية الشريفة.

وهو ما ورد على لسان خير البرية "محمد صلى الله عليه وسلم" أيضا فخاطب الرجال والنساء سواء، ولم يميز أيا منهما بلفظ محدد إلا فيما اقتضته الحاجة، فها هي أم سلمة تحدث

:((إنها سمعت "رسول الله صلى الله عليه وسلم" يقول على المنبر ــ وهي تمشط شعرهاــ" يا أيها الناس"، فقالت لماشطتها كفي رأسي- وفي رواية أخرى قالت: استأخري عنيــ فالقت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء، فقلت إني من الناس)) رواه مسلم[85].

وكاعتراف بشخصية المرأة المستقلة عن الرجل، وتساويها في الحقوق والواجبات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إنما النساء شقائق الرجال)[86].

كما أن الله تعالى وفي كتابه الكريم، برء المرأة من أصل الخطيئة التي أُتُهمت بها مع بداية الكون، وذلك في أكثر من سورة، قال تعالى (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)[87] ، وقوله تعالى(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)[88] وعليه فالله تعالى يؤكد على أن أدم وحواء مخطئين معا، وأن الشيطان سبب المعصية.

ومن أوجه تكريم الاسلام للمرأة أيضا، بأن خصها بفصل كامل في القرآن الكريم وهو سورة النساء، ليس هذا وحسب بل ورد ذكرها والتوصية بها ومخاطبتها وحثها على حقوقها وواجباتها في عدد من السور، كالبقرة، والمائدة، والمجادلة والاحزاب والممتحنة[89] ، وأكثر من ذلك فقد نزلت فيها سورة وهي "سورة المجادلة" بعد أن كانت "خولة بنت ثعلبة الأنصارية" تجادل رسول الله عليه الصلاة والسلام حول زوجها وتشتكي منه[90] ، فلم ينهرها رسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى نزل قوله تعالى(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[91] ، بل أكثر من ذلك فالله عز وجل لم يرضى الظلم لأمته، في حادثة الإفك فأنزل ما يبرأها من القرآن الكريم وهي "أمنا عائشة رضي الله عنها"، في قوله تعالى(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[92].

وكما قص القرآن الكريم على المؤمنين قصص الأنبياء الكرام، والرجال الصالحين فلقد ذكر شيئا من أخبار فضليات النساء ومؤمناتهن، تأتي على رأسهن السيدة مريم العذراء والدة نبي الله الكريم " عيسى عليه السلام"، والتي سميت سورة كاملة باسمها وفيها يحكي الله قصتها المعجزة. وذكر قصة والدة النبي "موسى عليه السلام"، وكذا قصة المرأة الصالحة أسيا زوجه فرعون، وقصة ملكة سبأ التي ذكرناها سابقا، كل هذا التكريم لم تعترف به أي ديانة من الديانات السابقة أو الحضارات القديمة.

ومن أوجه تكريم الإسلام للمرأة أيضا نجد :

أ. المساواة في أصل الخلق:

أقر الإسلام وحدة الجنس البشري في الخلق وجعل المرأة من نفس الرجل، فقد ساوى بينهما في مبدأ الانسانية، في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[93] .ويقول سبحانه وتعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)[94].

وقد حد الله تعالى من طغيان الرجل وجعله بعضا من المرأة، وجعل المرأة بعضا من الرجل، وهو ما ورد في قوله تعالى(بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)[95].

ب. المساواة في التكاليف الشرعية:

أقرت الشريعة الإسلامية مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في المسؤولية، كما في أصل العقاب والجزاء، وذلك فيما لا يتعارض مع الطبيعة البشرية، ومنها المساواة في التكاليف الدينية : الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول تعالى(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[96].

والمساواة في الجزاء ثواباً، يقول عز وجل (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[97]، وقوله تعالى(إِنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ)[98].

وأيضا في أصل العقاب، فيقول تعالى(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[99].

وفي قوله تعالى(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)[100].

هذه بعض الأمثلة فقط، من أوجه تكريم الإسلام للمرأة، وغيرها كثير في مجال التعليم والعمل ونجد أن المرأة أيضا قد منحت حق إبداء الرأي والمشاورة في مجالات عدة، وهو ما لا تزال المرأة تكافح من أجله في القوانين الوضعية.

4. خاتمة:

بعدما القينا نظرة حول واقع المرأة عبر مراحل تاريخية وفكرية عدة، تبين لنا أنها لم تستقر على وضع سليم في مختلف الحقب، بل حتى في الحقبة الزمنية الواحدة، حيث شكك في انسانيتها تارة، واعتبرت متاعا يحق أن يورث مع غيره من الأمتعة، وكانت خطأ يجب تصحيحه أو التبرؤ منه تارة أخرى، في حين نجدها وصلت لدرجة الآلهة والملكة، والراهبة القديسة في حقبة أخرى.

كل هذا لم يحدد صورة واضحة عن مكانة المرأة في الحياة، حتى جاءت الديانات السماوية، لتضع تصورا لدورها و مكانتها في المجتمعات الانسانية، وقد ورد ذلك في النصوص الشرعية المختلفة، على خلاف النصوص الوضعية التي كانت تتبرأ منها دائما في مراحل زمنية سابقة، لكن الفكر الانساني ظل يحمل صورة دونية للمرأة مما دفعه لتحريف هذه النصوص

بما يخدم اهواءه وعاداته وتقاليده التي لا يريد أن يحيد عنها فيما يخص موضوع المرأة، إلا فيما يخص الدين الاسلامي الذي ظل إلى يومنا هذا ثابتا في انصافه وتكريمه للمرأة.

ولعل أنسب حل لكل مشاكل النساء في العالم اللواتي يطالبن بحياة أفضل وبقوانين عادلة بحقهن في مختلف مجالات الحياة، حتى داخل أسرهن، هو اللجوء إلى ما نص عليه الدين الإسلامي والقرآن الكريم، وهذا بشهادة الكثير من الحقوقيين العرب والغربيين من ديانات مختلفة.

5. قائمة المراجع:

أ- المصادر:

1. [101] سورة الزخرف: الآية 17.
2. سورة التكوير: الآية 8_9.
3. سورة البقرة: الآية 168.
4. سورة يونس: الأية57.
5. سورة الحجرات: الأية13.
6. سورة الأعراف: الآية 27.
7. سورة المجادلة: الأية01.
8. سورة النور: الآية 11.
9. سورة النساء: الأية01.
10. سورة التوبة: الآية 71.
11. سورة النحل: الأية97.
12. سورة آل عمران: الآية 195.
13. سورة المائدة: الأية38_39.
14. سورة النمل، الآية 22.
15. محمد بن فتوح الحميدي: الجمع بين الصحيحين- البخاري ومسلم-، دار ابن الحزم، ج1، 488هـ.
16. سفر التكوين: الإصحاح الثالث، الفقرتان 11_12.
17. الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، قصر العيني، القاهرة، ط2، 1972،ص 400.

ب- المراجع:

- المؤلفات:

1- حسان محمد حسن: علم اجتماع المرأة "دراسة تحليلية عن دور المرأة في المجتمع المعاصر"، دار وائل لنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص27-28.

2- زغلولة السالم، صورة المرأة العربية في الدراما التلفزيونية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1994، ص58-59.

3- كريمة مرابطي: مهنة الشرطية الجزائرية الخطاب الرسمي والرأي العام، رسالة ماجستير(غير منشورة)، علم اجتماع، الجزائر 2012/2011، ص23.

4- محمد السيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ، مصر، 2003، ص77.

5- بن سكيم بسمة: تأنيث وظائف قطاع التعليم في الجزائر، رسالة ماجستير(غير منشورة)، علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2013/2012، ص27 .

6- أديب خضور: صورة المرأة في الإعلام العربي، دار الايام للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص.9.

7- عواطف عبد الرحمان: الصحفيات والإعلاميات العربيات، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 2008، ص 31.

8- سعاد عبد الله الناصر: قضية المرأة رؤية تاصيلية، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، 2003، ص109.

9- عصام نور سرية: دور المرأة في تنمية المجتمع، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2002، ص9.

10- قاسم أمين: تحرير المرأة، المركز العربي للبحوث والنشر، القاهرة، 1984، ص27.

11- بلال فتيحة: المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر بين الشريعة والتطبيق، رسالة ماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة السانيا وهران، 2014/2013، ص 01.

12- محمد متولي الشعراوي: المرأة في القرآن الكريم، مكتبة الشعراوي الإسلامية، مصر، 1998، ص11.

13- مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، دار السلام للنشر والتوزيع، الإسكندرية ، ط4، 2010 ص13.

14- سامية محمد فهمي: مشاركة العربية في التنمية –دراسات نظرية وميدانية– دار المعرفة الجامعية، الأزريطة، 2004، ص8.

15- فاطمة صغير: أساليب البيان في الشعر النسوي القديم من الجاهلية إلى العصر العباسي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في البلاغة والأسلوبية، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013/2012، ص02.

16- فاطمة بودرهم: المشاركة السياسية للمرأة في التجربة الديمقراطية الجزائرية أطروحة دكتوراه(غير منشورة)، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر 2011/2010 ، ص 101.

17- نوال بنت عبد العزيز العيد: حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية،،الواحات السعودية ، ط1، 2009، ص22 .

18- شهرة نزار: الوضعية الاجتماعية للأمهات العازبات في المجتمع الجزائري رسالة ماجستير(غير منشورة)، في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012/2011 ، ص22.

19- مريم نور الدين فضل: المرأة في ظل الإسلام، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط2، 1983 ، ص21.

20- منصور الرفاعي عبيد: المرأة ماضيها وحاضرها، أوراق شرقية للطباعة والنشر، ط1، 2000، ص 82. 85.

21- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين ، ج3، بيروت ط15، 2002، ص90.

22- فاطمة الزهراء أمغار: المرأة والرهان الديمقراطي، رسالة ماجستير(غير منشورة)، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر 2001_2002 ص44.

- المقالات:

1. سامية حسن الساعاتي: قضايا المرأة في الخطاب الإعلامي العربي بين التقليدية والتغيير العربي، مجلة الإذاعات العربية، ع2، شركة فنون للنشر والرسم والصحافة تونس، 2003، ص6.
2. بشار حسين يوسف : " المرأة في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة في المشرق العربي " ، مجلة أبحاث كلية التربية الإسلامية الجامعة العراقية، مج7، ع 3 2008، ص261-262.
3. ميرفت حاتم: ماذا تريد النساء، نحو خريطة نقدية للاتجاهات المستقبلية للنسوية العربية، المستقبل العربي، ع 401، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت 2012،.ص22-23.
4. زياد مظفر سعيد محمد الراوي: مكانة المرأة في التشريع الإسلامي، مجلة التربية والعلم، مج17، ع3 جامعة الموصل، 2010، ص258.

- المداخلات:

1- عفاف بشير عباس عمر: المرأة في الديانات والعصور المختلفة، أعمال المؤتمر الدولي السابع: المرأة والسلم الأهلي، مركز جيل البحث العلمي، طرابلس 19. 21 مارس 2015، ص51

- مواقع الانترنيت:

1- سهى بطرس هرمز: المرأة في حضارة بلاد الرافدين، https://ar.zenit.org نشر بتاريخ 24 سبتمبر 2012، تم زيارته بتاريخ:2016/06/14، سا11:29.

2- أدم عربي: المرأة عند الاغريق، الحوار المتمدن، نشر بتاريخ: 2009/08/14، متوفر على الرابطwww.elhiwarelmoutamadn.com :، تمت زيارته بتاريخ: 2017/10/08، سا 10.01.

3- عبد الحميد ابراهيم: مكانة المرأة في الحضارات والديانات والمجتمعات السابقة على الإسلام ttp://www.alukah.net / نشر بتاريخ 2010/09/18، تمت زيارته بتاريخ12: /2016/06، سا11.08.

4- أدب، الموسوعة العالمية للشعر على الرابط: http://www.adab.com تمت زيارته بتاريخ: 2016/06/22 سا12:16.

5- حنين البرازي: الحركة النسويّة المصرية : بين الموروث الثقافي والنشاط السياسي (نساء ميدان التحرير نموذجاً)، متوفر على الرابط: , http://journals.openedition.org/insaniyat/16709

تمت زيارته بتارخ 2021/02/04، سا 14.11.

6. الهوامش:

[1] احسان محمد حسن: علم اجتماع المرأة "دراسة تحليلية عن دور المرأة في المجتمع المعاصر"، دار وائل لنشر والتوزيع، عمان، ط1 ،2008، ص27-28.

[2] المرجع نفسه، ص28.

[3] زغلولة السالم، صورة المرأة العربية في الدراما التلفزيونية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1994، ص58-59.

[4] المرجع نفسه، ص 59.

[5] كريمة مرابطي: مهنة الشرطية الجزائرية الخطاب الرسمي والرأي العام، رسالة ماجستير(غير منشورة)، علم اجتماع، الجزائر 2012/2011، ص23.

[6] محمد السيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ، مصر، 2003، ص77.

[7] بن سكيم بسمة: تأنيث وظائف قطاع التعليم في الجزائر، رسالة ماجستير(غير منشورة)، علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2013/2012، ص27 .

[8] أديب خضور: صورة المرأة في الإعلام العربي، دار الايام للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص.9.

[9] اديب خضور: صورة المرأة في الإعلام العربي، المرجع نفسه، ص9.

[10] الديالكتيكية: تعني الجدلية، أنظر معجم "لالاند الفلسفي".

[11] محمد السيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص76 .

[12] سامية حسن الساعاتي: قضايا المرأة في الخطاب الإعلامي العربي بين التقليدية والتغيير العربي، مجلة الإذاعات العربية، ع2، شركة فنون للنشر والرسم والصحافة، تونس، 2003، ص6.

[13] المرجع نفسه، ص6.

[14] عواطف عبد الرحمان: الصحفيات والإعلاميات العربيات، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 2008، ص 31.

[15] سعاد عبد الله الناصر: قضية المرأة رؤية تاصيلية، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، 2003، ص109.

[16] أديب خضور: صورة المرأة في الإعلام العربي، مرجع سبق ذكره، ص11.

[17] عصام نور سرية: دور المرأة في تنمية المجتمع، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 2002، ص9.

[18] المرجع نفسه، ص167.

[19] سعاد عبد الله الناصر: قضية المرأة رؤية تأصيلية، مرجع سبق ذكره، ص110.

[20] عصام نور سرية: دور المرأة في تنمية المجتمع، مرجع سبق ذكره، ص168.

[21] اديب خضور، صورة المرأة في الإعلام العربي، مرجع سبق ذكره، ص11.

[22] بشار حسين يوسف : " المرأة في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة في المشرق العربي " ، مجلة أبحاث كلية التربية الإسلامية الجامعة العراقية، مج7، ع 3، 2008، ص261-262.

[23] بشار حسين يوسف : المرأة في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة في المشرق العربي، المرجع السابق، ص 162.

[24] سعاد عبد الناصر: قضية المرأة رؤية تأصيلية، مرجع سبق ذكره، ص111.

[25] عواطف عبد الرحمان: الصحفيات والإعلاميات العربيات، مرجع سبق ذكره ص32.

[26] ميرفت حاتم: ماذا تريد النساء، نحو خريطة نقدية للاتجاهات المستقبلية للنسوية العربية، المستقبل العربي، ع 401، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، 2012،.ص22-23.

[27] قاسم أمين: تحرير المرأة، المركز العربي للبحوث والنشر، القاهرة، 1984، ص27.

[28] عواطف عبد الرحمان: إعلاميات عربيات ، مرجع سبق ذكره، ص32.

[29] عواطف عبد الرحمان: إعلاميات عربيات المرجع نفسه، ص32.

[30] حنين البرازي: الحركة النسويّة المصرية : بين الموروث الثقافي والنشاط السياسي (نساء ميدان التحرير نموذجاً)، متوفر على الرابط:http://journals.openedition.org/insaniyat/16709 , تمت زيارته بتارخ 2021/02/04، سا 14.11.

[31] سهى بطرس هرمز: المرأة في حضارة بلاد الرافدين، https://ar.zenit.org، نشر بتاريخ 24 سبتمبر 2012، تم زيارته بتاريخ:2016/06/14، سا11:29.

[32] بلال فتيحة: المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر بين الشريعة والتطبيق، رسالة ماجستير في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة السانيا وهران، 2014/2013، ص 01.

[33] محمد متولي الشعراوي: المرأة في القرآن الكريم، مكتبة الشعراوي الإسلامية، مصر، 1998، ص11.

[34] عفاف بشير عباس عمر: المرأة في الديانات والعصور المختلفة، أعمال المؤتمر الدولي السابع: المرأة والسلم الأهلي، مركز جيل البحث العلمي، طرابلس 19. 21 مارس 2015، ص51.

[35] أدم عربي: المرأة عند الاغريق، الحوار المتمدن، نشر بتاريخ: 2009/08/14، متوفر على الرابط : www.elhiwarelmoutamadn.com، تمت زيارته بتاريخ: 2017/10/08، سا 10.01

[36] عبد الحميد ابراهيم: مكانة المرأة في الحضارات والديانات والمجتمعات السابقة على الإسلام ttp://www.alukah.net / نشر بتاريخ 2010/09/18، تمت زيارته بتاريخ12: 2016/06/، سا11.08.

[37] زياد مظفر سعيد محمد الراوي: مكانة المرأة في التشريع الإسلامي، مجلة التربية والعلم، مج17، ع3 جامعة الموصل، 2010، ص258.

[38] مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، دار السلام للنشر والتوزيع، الإسكندرية ، ط4، 2010 ص13.

[39] زياد مظفر سعيد محمد الراوي: مكانة المرأة في التشريع الإسلامي، المرجع السابق، ص258.

[40] محمد متولي الشعراوي: المرأة في القرآن، مرجع سبق ذكره، ص12.

[41] سامية محمد فهمي: مشاركة العربية في التنمية –دراسات نظرية وميدانية–، دار المعرفة الجامعية الأزريطة، 2004، ص8.

[42] فاطمة صغير: أساليب البيان في الشعر النسوي القديم من الجاهلية إلى العصر العباسي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في البلاغة والأسلوبية، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2013/2012، ص02.

[43] فاطمة صغير: أساليب البيان في الشعر النسوي القديم من الجاهلية إلى العصر العباسي ، المرجع ، ص2-3 .

[44] محمد سيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العا لم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص17.

[45] فاطمة بودرهم: المشاركة السياسية للمرأة في التجربة الديمقراطية الجزائرية، أطروحة دكتوراه(غير منشورة)، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2011/2010 ، ص 101.

[46] فاطمة صغير: أساليب البيان في الشعر النسوي القديم من الجاهلية إلى العصر العباسي، مرجع سبق ذكره، ص03

[47] عبد الحميد ابراهيم: مكانة المرأة في الحضارات والديانات والمجتمعات السابقة على الإسلام، مرجع سبق ذكره.

[48] نوال بنت عبد العزيز العيد: حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية،،الواحات ، السعودية ، ط1، 2009، ص22 .

[49] مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، مرجع سبق ذكره، ص15.

[50] عفاف بشير عباس عمر: المرأة في الديانات السماوية والعصور المختلفة، مرجع سبق ذكره، ص21.

[51] مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، مرجع سبق ذكره، ص15.

[52] شهرة نزار: الوضعية الاجتماعية للأمهات العازبات في المجتمع الجزائري، رسالة ماجستير(غير منشورة)، في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012/2011 ، ص22.

[53] زرادتش: ديانة فارسية.

[54] مريم نور الدين فضل: المرأة في ظل الإسلام، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ط2، 1983 ، ص21.

[55]زياد مظفر سعيد محمد الراوي: مكانة المرأة في التشريع الاسلامي، مرجع سبق ذكره، ص258.

[56]نوال بنت عبد العزيز العيد: حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية، مرجع سبق ذكره، ص21 .

[57]سفر التكوين: الإصحاح الثالث، الفقرتان 11_12.

[58]نوال عبد العزيز العيد: حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية، مرجع سبق ذكره، ص22.

[59]نوال عبد العزيز العيد: حقوق المرأة في ضوء السنة النبوية، المرجع نفسه، ص23.

[60]محمد سيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص21.

[61]شهرة نزار: الوضعية الاجتماعية للأمهات العازبات في المجتمع الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص24.

[62]محمد سيد فهمي: المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص32.

[63]فاطمة بودرهم: المشاركة السياسية للمرأة في التجربة الديمقراطية الجزائرية، مرجع سبق ذكره، ص102.

[64]عفاف بشير عباس عمر: المرأة في الديانات السماوية والعصور المختلفة، مرجع سبق ذكره، ص14.

[65] المرجع نفسه، ص14.

[66]شهرزاد نزار: الوضعية الاجتماعية للأمهات العازبات في المجتمع الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص24.

[67]زياد مظفر سعيد محمد الراوي: مكانة المرأة في التشريع الاسلامي، مرجع سبق ذكره، ص256.

[68]بلقيس: بنت الهدهاد بن شرحبيل، من حمير، يمانية من أهل مأرب، ورد ذكرها في القرآن الكريم، ولبت اليمن ثم زحفت إلى بابل وفارس، تزوجت النبي سليمان عليه السلام: ينظر الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، قصر العيني، القاهرة، ط2، 1972،ص 400.

[69]سورة النمل: الآية 23.

[70]سورة النمل، الآية 22.

[71]منصور الرفاعي عبيد: المرأة ماضيها وحاضرها، أوراق شرقية للطباعة والنشر، ط1، 2000، ص 82 . 85.

[72]فاطمة صغير: أساليب البيان في الشعر النسوي القديم من الجاهلية إلى العصر العباسي، مرجع سبق ذكره، ص8.

[73]هند بنت عتبة: قراشية صحابية، أم معاوية بن ابي سفيان، اسلمت بعد الفتح، شهدت اليرموك، وكانت تحرض على قتال الروم: ينظر الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، قصر العيني، القاهرة، ط2، 1972 ص1904.

[74]سعدى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس: كاهنة فصيحة، خالة عثمان بن عفان، ادركت الإسلام ينظر: الأعلام: خير الدين الزركلي دار العلم للملايين، ج3، بيروت ، ط15، 2002، ص90.

[74] عمرة بنت سعد بن عامر بن عدي: زوجها كباثة بن اوس، اسلمت وبايعت الرسول' صلى الله عليه وسلم'.

[75]فاطمة بنت الخرشب الأنصارية: امرأة منجبة، يضرب بها المثل فيقال: أنجب من فاطمة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، المرجع السابق، ص-ص130-131.

[76] الخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُلمية من بني سُليم من قيس عيلان من مضر، اشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في الجاهلية ، وأدركت الاسلام فأسلمت، ينظر: أدب، الموسوعة العالمية للشعر على الرابط: http://www.adab.comتمت زيارته بتاريخ: 2016/06/22، سا12:16

[77]سورة النحل: الآية 58.

[78]سورة النحل: الآية 58.

[79]سورة الزخرف: الآية 17.

[80]سورة التكوير: الآية 8_9.

[81]سورة البقرة: الآية 168.

[82]سورة يونس: الأية57.

[83]سورة الحجرات: الأية13.

[84]سورة البقرة: الآية 153.

[85]محمد بن فتوح الحميدي: الجمع بين الصحيحين- البخاري ومسلم-، دار ابن الحزم، ج1، 488هـ.

[86]بلال فتيحة : المرأة في الفكر الاسلامي المعاصر، مرجع سبق ذكره، ص26.

[87]سورة البقرة: الآية 35.

[88]سورة الأعراف: الآية 27.

[89]القرآن الكريم.

[90] فاطمة الزهراء أمغار: المرأة والرهان الديمقراطي، رسالة ماجستير(غير منشورة)، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر 2001_2002، ص44.

[91] سورة المجادلة: الأية01.

[92] سورة النور: الآية 11.

[93] سورة النساء: الأية01.

[94] سورة الأعراف: الآية 189.

[95] سورة النساء: الأية25.

[96] سورة التوبة: الآية 71.

[97] سورة النحل: الأية97.

[98] سورة آل عمران: الآية 195.

[99] سورة المائدة: الأية38_39.

[100] سورة النور: الأية2_3.